- قصص -

ستيڤن كينج



وردية الليل

ترجمة: محمد عبد النبي - محمود راضي

المحروسة

مكتبة | 775
سُر مَن قرأ

وَرديَّة اللَّيل

ستيڤن كِينج

ترجمة

محمد عبد النبي

محمود راضي

عنوان الكتاب: وَرديّة اللّيل Night Shift
المؤلف: ستيفن كِينج Stephen King
ترجمة: محمد عبد النبي- محمود راضي
مراجعة لغوية: محمود شرف



قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 28432157 02 002

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٣٥٤٨/ ٢٠٢١
الترقيم الدولى: 1-856-313-977-978

قصَص

مكتبة | 775
سُر مَن قرأ

وَرديَّة اللَّيل

ستيڤن كِينج

ترجمة

محمد عبد النبي

محمود راضي

الطبعة الأولى 2021





بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

كينج، ستيڤن، -1947

وَرديَّة اللَّيل: قصص/ ستيڤن كِينج؛ ترجمة: محمد عبد النبي، محمود راضي.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2021

564 ص؛ 21.5×14.5 سم

تدمك 1-856-313-977-978

1 - القصص الامريكية

2 - القصص القصيرة

أ- عبد النبي، محمد (مترجم)

ب- راضي، محمود (مترجم مشارك)

ج- العنوان

823

رقم الإيداع 2021/13548

مُقدّمة المؤلّف

تعالَ، أنا وأنت. تعالَ نتحدَّث عن الخوف.

لا أحد غيري في المنزل بينما أكتبُ هذا، وبالخارج تتساقط أمطار فبراير البارد. الوقت ليلٌ. في بعض الأحيان عندما تهبُّ الرِّيح -كما تهبُّ الآن- ينقطع التيار الكهربائي، لكنه الآن غير مقطوع. وهكذا، فلنتحدَّث بمنتهى الصراحة عن الخوف، فَلنتحدَّث بمنتهى التعقُّل عن الزحف حتَّى حافة الجنون، وربما الوقوف على شفا تلك الحافَّة.

اسمي ستيفن كينج. وأنا رجُلٌ ناضج له زوجة وثلاثة أطفال. أحبهم، وأعتقدُ أنَّهم يبادلونني نفس الشعور. الكتابة هي عملي، إنها العَمل الذي أحبُّه مِن كل قلبي. قصصي التي كتبتها سابقًا -كاري، وأرض مدينة سالم، والبريق- حقَّقَت نجاحًا كافيًا لأن يتيح لي التفرُّغ للكتابة بدوامٍ كامل، وهو شيء جميل أن أكون قادرًا عليه. في هذه المرحلة من حياتي تبدو حالتي الصحية لا بأس بها. وقد استطعتُ في

العـام المـاضي أن أخفِّـض عـادة التدخـين مِـن الأنـواع غـير المُفَلـتَرَة التـي واصلـتُ تدخينهـا منـذ كنـت في الثامنـة عـشرة إلى نـوعٍ منخفـضِ القطـران والنيكوتـين، ولم أزل أتمنَّـى أن أسـتطيع الإقـلاع نهائيًـا. أعيـشُ أنـا وأسرتي في منـزلٍ جيِّـد لطيـف بجانـب بحيرة في مدينـة "مـين". بحيرة غـير ملوَّثـة نسـبيًا؛ وفي الخريـف المـاضي اسـتيقظتُ ذات صبـاحٍ فرأيـت ظبيًـا يقـف في باحـة البيـت الخلفيـة إلى جـوار المنضـدة الخشـبية. إننـا نحظـى بحيـاة طيِّبـة.

ورغـم ذلـك كلـه، فلنتحـدَّث عـن الخـوف. لـن نتحـدَّث بأصـواتٍ عاليـة، ولـن نـصرخ، بـل سـوف نتحـدَّث بمنتهـى التعقُّـل، أنـا وأنت. سـوف نتحـدَّث عـن النسـيج المتـين الجيـد للأشـياء مـن حولنـا، وكيـف يحـدث أحيانًـا أن يتداعـى ويتفـكَّك في مباغتـة صادمـة.

في الليـل، حـين آوي إلى فـراشي، لا زلـتُ أحـرص للغايـة عـلى أن تكـون سـاقاي تحـت البطانيـة بعـد إطفـاء النـور.

أنـا لم أعـد طفـلًا، ومـع ذلك فـلا أحـب أن أنامَ وإحدى سـاقيَّ مكشـوفة مِـن تحـت الغطـاء؛ وهـذا لأننـي ربمـا أصرخ إذا مـا امتـدَّت يـدٌ بـاردة مـن تحـت السريـر وأمسـكت كاحـلي. نعـم، ربمـا أصرخ حتَّـى أوقـظَ المـوتى. مثـل تلـك الأمـور لا تقـع، بـكل تأكيـد، وجميعنـا نعلـم ذلـك. في القصـص التاليـة سـوف تقابلـون جميـع أنـواع المخلوقـات الليليـة؛ مصَّـاصي دمـاء، وعُشَّـاق الشـياطين، و"بُعْبُـع" يعيـش في الخزانـة، وكافَّـةَ أشـكال الرُّعـب الأخـرى. لا شيء منهـا حقيقـي. وذلـك الـشيء الكامـن تحـت سريـري في انتظـار أن يمسـك كاحـل سـاقي هـو أيضًـا غـير حقيقـي. أنـا أعلـم ذلـك، كـما أعلـمُ أيضًـا أننـي إذا حرصـتُ عـلى إبقـاء سـاقي تحـت الأغطيـة، فلـن يتمكَّـن أبـدًا مِـن إمسـاك كاحـلي.

***

أتحدَّث أحيانًا قُبالة مجموعاتٍ مِن الأشخاص المهتمِّين بالكتابة أو بالأدب، ولا بدَّ أن يحدث دائمًا، خلال الوقت المخصَّص لطرح الأسئلة على الكاتب، أن يقوم واحدٌ من الناس ليطرح هذا السؤال: لماذا تختار أن تكتب عن تلك الموضوعات الرهيبة؟

وعادةً أجيبُ سؤاله بسؤالٍ آخَر: لماذا تفترض أنني أختار؟

على مَن يعمل بمهنة الكتابة أن يعرف كيف يُحسن استغلال ما يجده متاحًا بين يديه، وأن يخرج منه بشيءٍ ما. يبدو أننا جميعًا نأتي إلى العالَم مزوَّدين بِفلاتر ومصافي في أرضيات عقولنا، وتلك المصافي تختلف من حيث الأحجام وفتحات التصريف، فَما يبقى في مصفاتي ربما يَمرُّ من فتحات مصفاتِكَ مباشرةً. وما تحتفظ به مِصفاتُكَ قد يمرُّ عبر مصفاتي، بلا مشقَّة. كما يبدو أننا جميعًا مُلزمون رغمًا عنَّا بغربلة الرواسب المتبقية داخل فلاترنا العقلية المختلفة والخاصَّة بكلٍّ منَّا، وما نعثر عليه هنالك كثيرًا ما يتطوَّر إلى نشاطٍ جانبي أو شيء كهذا. فالمُحاسِب قد يمارس أيضًا التصوير الفوتوغرافي، والفلكي قد يجمع العُملات المعدنية القديمة، ومعلِّمة المدرسة قد تهوى نَقل زخارف شواهد القبور بفَركها مِن الأحجار على الورق باستخدام الفحم. تلك الرواسب التي لا تمرُّ من ثقوب مصفاة عقولنا، تلك المادة التي تأبى أن تمضي وتتبدَّد، كثيرًا ما تصبح هي الهاجِس الخاص بكل شخص. وثمَّة اتفاق غير مُعلَن، في المجتمعات المتحضِّرة، على أن ندعو تلك الهواجس الاستحواذية "هوايات".

أحيانًا قد تصير الهواية وظيفةً بدوامٍ كامل. قد يكتشف المُحاسب أنه يستطيع أن يكسب مِن التقاط الصور الفوتوغرافية مالًا كافيًا ليعول أسرته؛ ومُعلِّمة المدرسة قد تكتسب خبرة كافية في طبع شواهد القبور على الورق بحيث تحاضِر الناس في هذا بمقابل مالي. وبعضُ المِهن يبدأ ويستمرُّ في نطاق الهواية، حتَّى بعد أن يكون بمقدورها

صاحب الهواية أن يكسب عيشه من مُزاوَلَتها؛ لكن بما أنَّ "الهواية" كلمة صغيرة ذات وَقعٍ مُبتَذَل وتوحي بعدم الانتظام، فإنَّ ثمة اتفاق آخر غير مُعلَن بأن ندعو الهوايات- المهن بكلمة "الفنون".

التصوير الزيتي. النَّحت. التأليف الموسيقي. الغناء. التمثيل. العزف على آلة موسيقية. الكتابة. إنَّ الكتب المؤلَّفَة حول تلك الموضوعات السَّبعة وحدها تكفي لإغراق أسطولٍ من بواخر الرُّكَّاب الفاخرة الكبرى. والأمر الوحيد الذي يبدو أننا نستطيع الاتفاق عليه حولها هو هذا: مَن يمارسون تلك الفنون بإخلاص سوف يواصلون ممارستها حتَّى لو لم يتلقَّوا أي أجر مقابل جهودهم؛ حتَّى ولو لم تَلقَ جهودهم غير الانتقاد بل الذَّم والتشهير؛ حتَّى ولو تعرَّضوا للسَّجن أو الموت. وبالنسبة لي، يبدو ذلك تعريفًا مناسبًا للسلوك الاستحواذي، بناءً على هاجسٍ يستولي على صاحبه. وهو يصْدُق على الهوايات العادية جدًّا، كما يصدق بنفس القدر على تلك الرفيعة التي ندعوها "فنونًا"؛ هواة جَمع الأسلحة يلصقون على سياراتهم مُلصقًا بشعارٍ يقول "على جُثَّتي أن تنتزع مني قطعة سلاحي"، وفي ضواحي بوسطن. أمَّا ربَّات البيوت اللاتي اكتشفن النشاط السياسي في أثناء أعمال الشغب الخاصة باستقلال التلاميذ حافلات المدارس بلا تمييز عنصري[1]، فَكُنَّ كثيرًا ما يضعن على المصدَّات الخلفية لسياراتهنَّ الفولكس مُلصَقات مُماثِلة تقول "اسجنوني أولًا قبل تأخذوا أبنائي بعيدًا عن الحي". وعلى الغرار نفسه، فإذا ما صارَ جَمعُ العملات ممنوعًا بحُكم القانون غدًا؛ فمن المُستَبعد تمامًا أن يُسلِّمَ ذلك الفلكيُّ للسُّلطات كلَّ ما لديه مِن سِنتات فولاذية أو نِكْلات نحاسية؛ بل سوف يلفُّها في البلاستيك بكل عناية ويُسقطها في قعر خزَّان مقعد المرحاض، وبعد منتصف الليل يُخرجها ليُشبِع منها نظره في ظَفَرٍ وَوَلَه.

(1) خلال الفترة من 1974 حتى 1988 كانت المدارس الحكومية في ولاية بوسطن تحت الإشراف القضائي من أجل تطبيق قوانين الدَّمج العِرقي، ومن بينها الحق لجميع التلاميذ،

يبدو كأننا نشرد بعيدًا عن موضوع الخوف، غير أننا لم نبتعد عنه كثيراً في حقيقة الأمر. الرواسب التي تظلُّ عالقة في فتحات مصفاتي غالبًا ما تكون موادَّ تتعلَّق بالخوف. يكمن هاجسي المسيطر في كل ما هو رهيب ومروِّع. لم أكتب أيًّا مِن القصص التالية لأجل المال، رغم أنَّ بعضها بيعَ لمجلَّاتٍ قبل أن تظهر هنا ومن ناحيتي لا أرفض شيئًا أبدًا. قد أكون مهووسًا، ولكني لستُ مخبولًا. ومعَ ذلك فلأكرِّر: لم أكتبها لأجل المال، كتبتها لأنه خطرَ لي أن أكتبها. لحُسن حظي أنَّ هاجسي المسيطِر له سوق ومشترون، ففي كافة أرجاء العالَم مجانين من النساء والرجال يُعزَلون في زنازين مبطَّنة لم يحالفهم مِثل هذا الحظ.

لستُ فنَّانًا عظيمًا، لكني شعرتُ على الدوام بأنني مدفوعٌ للكتابة. وعلى هذا ففي كل يوم، أغربل رواسب عقلي وأنبشها مُجدَّدًا، فأبحث وسط ما تخلَّف مِن مِزَقٍ وقِطع ترسَّبَت عن ملاحظات، أو ذكريات، أو تأمُّلات، وأحاول أن أخرجَ بشيءٍ ما من المواد التي لم تَسقط عبر ثقوب المصفاة ومنها للمُزراب ومنه إلى اللاوعي.

لِنفترِض أنني بصحبة لوي لامور[1]، كاتب روايات مغامرات الغرب الأمريكي، فقد نكون واقفين معًا على حافَّة بِركة صغيرة في كولورادو، وقد تخطر لكلينا فكرة في الوقت ذاته تمامًا. وقد يشعر كلانا بالحافز إلى الجلوس ومحاولة صياغتها في كلمات. قد تكون قصَّته عن الحق في الحصول على المياه في موسم الجفاف، وأغلب الظَّنِّ أنَّ قصتي سوف تدور حول كائنٍ مُخيفٍ وشديد الضَّخامة يبزغ خارجًا مِن المياه السَّاكنة لِيلتَهِم الشِّياه والخيول، والبَشَر في نهاية الأمر. إنَّ الهاجس

سودًا وبيضًا، في استقلال حافلات المدارس بلا تمييز، ما أثارَ موجةً من الاحتجاجات العُنصرية وأعمال الشغب والعنف وخصوصًا خلال الأعوام 1974 حتى 1976.

(1) Louis Dearborn L'Amour (1908-1988) : روائي وقاصٌ أمريكي، كتب روايات الغرب الأمريكي والنوع التاريخي والخيال العِلمي، إلى جانب مجموعات مِن القِصَص والأشعار.

المُسيطر على لوي لامور هو تاريخ الغرب الأمريكي؛ وأنا بدوري أكثر مَيلًا للكائنات التي تتسلَّل وتزحف تحت ضوء النجوم. هو يكتب روايات الغرب الأمريكي؛ وأنا أكتب عن الرُّعب. وكلانا فيه قليلٌ مِن الجنون.

الفنون هواجس تستحوذ على أصحابها، وكل استحواذ خَطر. كأنَّ في عقلك سِكِّين. وفي بعض الحالات يمكن للسِّكِّين أن تنقلب بوحشيَّة على مَن يمسكها نفسه، يخطر على بالي الآن [كُتَّابٌ وشعراء] مِثل ديلان توماس وروس لوكريدج وهارت كرين وسليڤيا بلاث. الفن مرضٌ كامن في عضوٍ ما، غالبًا ما يكون حميدًا ويمكن التعايُش معه، فالمبدعون يُعمَّرون طويلًا، لكنه أحيانًا يكون خبيثًا وعدائيًّا بدرجة رهيبة. عليك أن تستخدم السِّكِّين بكل حرص؛ لأنك تعلم أنها لا يهمُّها ما تقطع أو مَن تجرح. وإن كنتَ حكيمًا فسوف تُغربل رواسب عقلك بكل حرص كذلك؛ لأنَّ بعض تلك المواد قد لا يكون ميتًا.

***

وبعدَ أن نفرغَ مِن سؤال لماذا تختار أن تكتب عن تلك الموضوعات؟، يأتي السؤال المصاحِب له: لماذا يقرأ الناس تلك الموضوعات؟ ما الذي يجعلها تبيع؟ وهذا السؤال يحمل في طيَّاته افتراضًا مُضمَرًا، وهو الافتراض القائل بأنَّ الإقبالَ على قصَّةٍ موضوعها الخوف، وعلى قصةٍ موضوعها الرُّعب، دليلٌ على ذوقٍ فاسد. القراء الذين يراسلونني كثيراً ما يبدؤون بقولهم: "أفترضُ أنك ستعتقد أنني شخص غريب، لكني أحبَبتُ حقًّا رواية أرض مدينة سالم"، أو "ربما أكون معتلَّ الذِّهن، لكني استمتعتُ بكل صفحة من رواية البريق"...

أعتقدُ أنَّ السرَّ وراء ذلك قد يكمن في جُملةٍ من عرضٍ نقديٍّ لأحد الأفلام نُشِرَ في النيوزويك. كان العرض خاصًّا بفيلم رُعب، ولم يكن فيلمًا جيِّدًا جدًّا، وكانت الجملة تقول شيئًا مِن قبيل: "فيلم

رائـع فقـط بالنسـبة لأولئـك الأشـخاص الذيـن قـد يُبطئـون سـياراتهم ليتأمَّلـوا حادثـة سـيارات علـى الطريـق". إنهـا جملـة جيـدة لاذعـة، لكـن عندمـا تتوقَّـف وتتأمَّلهـا؛ تجـد أنهـا تَصـدُق علـى جميـع أفـلام وقصـص الرُّعـب. إنَّ فيلـم ليلـة الموتى الأحيـاء، بمـا فيـه مِـن مشـاهدَ رهيبـةٍ لأكل لحـوم البشر وجريمـة قتـل الأم، كان بـلا شَـكٍّ فيلـمًا لأولئـك الـذي يحبُّـون أن يبطئـوا سـياراتهم ليتأمَّلـوا حادثـة علـى الطريـق؛ ومـاذا عـن الصبيـة الصغـيرة التـي تتقيَّـأ شـوربة البـازلَّاء فـوق القِـسِّ في فيلـم طـارِد الأرواح الشريـرة؟ وروايـة دراكـولا لـبرام سـتوكر، وغالبًـا مـا تكـون المرجـع الـذي تقـارَن بـه قصـص الرعـب المعـاصرة (وهكـذا ينبغـي لهـا؛ فهـي أوَّل عمـل يقـدِّم بـلا موارَبـة تضمينـات سـيكولوچية- فرويديـة)، وهـي تُصـوِّر مختـلًّا اسـمه رينفيلـد يلتهـم الذبـاب، ثـم العناكـب، وأخـيرًا يلتهـم عصفـورًا حيًّـا، لكنـه يتقيَّـأ العصفـور، وقـد أكلـه بريشـه وكل شيء. كَـما تُصـوِّر الروايـة أيضًـا الإعـدام بالخـازوق -طقـس الاخـتراق الجنـسي، كـما يمكـن للمـرء أن يقـول- ضـدَّ أنثـى شـابَّة وحلـوة مِـن مصَّـاصي الدمـاء وجريمـة قتـل طفـل رضيـع وأم الرضيـع أيضًـا.

الأدب العظيـم الـذي يتنـاول مـا وراء الطبيعـة غالبًـا مـا يتضمَّـن نفـس مُتلازِمـة "فلنُبطـئ السَّـير قليـلًا لنتأمَّـلَ هـذا الحـادث علـى الطريـق": يذبح بيوولـف[1] والـدةَ جريندیـل؛ وفي قصـة [إدجـار آلان بـو] "القلـب الـواشي" يَعمَـدُ الـرَّاوي إلى تقطيـع أوصـال العجـوزَ ضعيـف البـصر والمحسـن إليـه، ثـمَّ يضـع أشـلاء جثَّتـه تحـت الألـواح الخشـبية لأرضيـة الغرفـة؛ وهنـاك الهوبيـت سـام ومعركتـه العنيفـة مـع العنكبـوت شـيلوب في الجـزء الأخـير مـن ثلاثيـة سـيِّد الخواتـم لتولكـين.

(1) Beowulf: ملحمـة شِـعريَّة إنجليزيـة قديمـة، تتكـوَّن مـن أكـثر مـن ثلاثـة آلاف بَيـت، وثمـة خـلاف حـول تاريـخ كتابتهـا، كـما أنَّ كاتبهـا مجهـول، لكنهـا تُعَـدُّ مـن أهـم الأعـمال الكلاسـيكية في الأدب الأنجلوسكسـوني.

سوف يُبدي البعض حيالَ هذه الفكرة احتجاجًا عنيدًا، بالقول إنَّ هنري چيمس لم يصف حادث سيارة في روايته دورة اللولب؛ وسوف يزعم هؤلاء بأنَّ قصص ناثانيل هاوثورن المشتملة على أشياء رهيبة ومروعة، مثل "الشاب جودمان براون"، و"الوشاح الأسود للوزير"، هي أيضًا أرفع ذائقةً مِن دراكولا. وهذا كلام فارغ. فتلك الأعمال ما تزال تعرض لنا حادث السيارة؛ صحيح أنَّ الجُثَث نفسها قد أُبعدَت، لكن لم يزل بوسعنا أن نرى الحطام المنبعج وأن نلاحظ لطخات الدم على قماش الأرائك والمقاعد. وعلى نحوٍ ما، فَلعلَّ الرهافة وتجنُّب الميلودرامية والنبرة الخفيضة المدروسة للصوت المتعقِّل التي تسود قصةً مثل "الوشاح الأسود للوزير" تكون كلها أمورًا أشدَّ فظاعةً وترويعًا مِن المسوخ الشبيهة بالضفادع في أعمال [كاتب الرعب والفانتازيا الأمريكي هوارد فيليبس] لَڤكرافت، أو مِن الإعدام حرقًا[1] في قصة إدجار آلان بو "الحُفرة والبندول".

الحقيقة التي يعلمها مُعظمنا في قلوبهم أنَّ عددًا قليلًا جدًّا منَّا يستطيع التخلِّي عن تلك النَّظرة المختلَسة المزعجة نحو مشهد حُطامٍ ما تحيط به سياراتُ الشرطة ووميض أضواء على بوَّابات المرور ليلًا. يلتقطُ المواطنون المُسِنُّون الجريدة في الصباح، وفي الحال يتَّجهون نحو أعمدة النعي والوفيات، بحيث يمكنهم أن يروا مَن مات وسوف يعيشون هُم عُمرًا أطول منه. تنتابنا جميعًا وخزة مُقلِقَة للحظة عابرة عندما نسمع خبر وفاة هذا الممثِّل أو هذه المغنية، كما حدثَ عند موت دان بلوكر أو فريدي برينزي أو چانيس جوبلين أو سواهم. إننا نشعر بالذُّعر ممزوجًا بنوعٍ غريبٍ مِن النشوة حينما نسمع

---

(1) بالإسبانية في الأصل "auto-da-fe"، وهي رسوم الإيمان، مجموعة مراسم وإجراءات كانت تتبعها محاكم التفتيش الإسبانية، بهدف إعلان التوبة والتكفير العلني عن الخطيئة، تَصدر بحقِّ المُدانين بالهرطقة والرِّدَّة، وقد تصل إلى مواكب الإذلال والتشنيع العَلني حتَّى الإعدام حرقًا على الملأ.

المذيع بـول هارڤـي عـلى الراديـو يقـول لنـا إنَّ امـرأةً دُفِعَـت رغـمًا عنهـا إلى مجـال شـفرة مروحـة إحـدى الطائـرات في أثنـاء زوبعـة مُمطِـرة في مطـار بلـدة صغـيرة، أو أنَّ رجـلًا سـقطَ في خـلَّاطٍ صناعـي عمـلاق وتبخَّـر عـلى الفـور بعـد أن تعـثَّر زميـلٌ لـه وضغـط دون قصـد عـلى أزرار التحكُّـم. لا حاجـة للإسـهاب في أمـرٍ واضـح؛ الحيـاة حافلـةٌ بالأهـوال: صُغراهـا وكُبراهـا، لكـن لأنَّ الصُغـرى فقـط هـي مـا تسـتطيع عقولنـا اسـتيعابها؛ فهـي التـي تؤثِّـر فينـا بـكلِّ مـا للمـوت مِـن جـبروت.

لا نسـتطيع أن ننكـر اهتمامنـا بمثـل تلـك الأهـوال الصغـيرة نسـبيًّا، كـما لا نسـتطيع أن ننكـر اشـمئزازنا أيضًـا، ولا يمتزجـان بسـهولة، وعـلى مـا يبـدو فـإنَّ المُنتَـج الفَرعـي لهـذا المزيـج هـو الذنـب، شـعورٌ بالذنـب لا يختلـف كثـيرًا عـن الذنـب المصاحِـب للحظـة الصحـوة الجنسـية عنـد أوَّل تجربـة حميمـة مـع شـخصٍ آخَـر.

ليـس مِـن شـأني أنـا أن أخـبركَ بـألَّا تشـعر بالذنـب، كـما ليـس عـليَّ بالمـرة أن أقـدِّم مُـبرِّرات لروايـاتي أو للقصـص القصـيرة التاليـة. بَيـدَ أنـه من الصعـب ألَّا نلاحـظ مـا بـين الجنـس والخـوف مـن تـوازٍ مثـير للاهتـمام. عندمـا نصـل لمرحلـة القـدرة عـلى إقامـة علاقـات جنسـية، يصحـو اهتمامنا بتلـك العلاقـات، وهـو اهتـمامٌ يميـل -بحُكـم الطبيعـة والفطـرة، مـا لم يكن فيـه انحـرافٌ مـا- إلى التكاثُـر والحفـاظ عـلى النـوع. وعندمـا نصـل لمرحلـة إدراك النهايـة المحتومـة لـكل حـيٍّ ينمـو وعينـا بشـعور الخـوف. وأعتقـدُ مـن جانبـي، أنـه كـما ينـزع التكاثُـر نحـو حفـظ الـذات، فـإن جميـع مشـاعر الخـوف تَنـزِع نحـو محاولـة اسـتيعاب تلـك الخاتمـة الأخـيرة.

هنـاك حكايـة رمزيـة قديمـة عـن سـبعة عُميـان، أمسـكَ كلٌّ منهـم بجـزء مختلـف مـن جسـم فيـل. ظـنَّ واحـدٌ منهـم أنـه أمسـك ثعبانًـا، وظـنَّ آخَـر أنـه أمسـك سـعفة نخلـة عملاقـة، وظـنَّ آخَـر أنـه كان يلمـس عمـودًا حجريًّـا. وعندمـا اجتمعـوا معًـا، قـرَّروا أنهـم كانـوا يلمسـون فيـلًا.

الخوف هو الشعور الذي يجعل منّا عُمياناً. كَم عدد الأشياء التي نخافها؟ إننا نخاف أن ندوس زِرَّ الضوء في حجرة بأيدٍ مبتلّة. نخاف أن نضع سكيناً في المحمصة الكهربائية لنخرجَ كعكة "المَفِن" الإنجليزية الملتصقة، إلّا بعد أن نفصل الكهرباء أولّاً. نخاف ممّا قد يقوله لنا الطبيب بعد انتهاء الفحص، وعندما تميل بنا الطائرة على جانبها ميلاً سماوياً هائلاً وهي في وسط الهواء. نخاف من أن يَنفَدَ النفط، ونخاف من أن ينفد الهواء النظيف والماء النظيف، وأن تنتهي الحياة الطيبة. حين تَعِدُنا الابنة بأن تعود للبيت على الحادية عشرة مساءً، ثم تتجاوز الساعة منتصف الليل بربع ساعة، وكُريات البَرَد تنهمر وترتطم بالنافذة مثل رملٍ جاف، ونحن جالسون نتظاهر بأننا نشاهد چوني كارسون في برنامج السَّهرة وبين دقيقة وأخرى ننظر نحو الهاتف الأخرس وينتابنا ذلك الشعور الذي يجعل منّا عُمياناً، إنه المُخرِّب الصامت للقُدرَة على التفكير.

الطفلُ مخلوق لا يعرف الخوف، فقط حتّى أوّل مرة لا تظهر الأمُّ لتدسَّ الحلمة في فمه عندما يبكي. والصغير الدارج سرعان ما يكتشف الحقائق الفظّة والأليمة للباب المردود بشدّة، وللموقد الساخن، وللحمّى المصاحبة للإصابة بالتهاب الحلق أو الحصبة. يتعلّم الأطفال الخوفَ سريعاً؛ يلتقطونه مِن وجه الأم أو الأب عندما يدخل واحدٌ منهما الحمّام فيجد الطفلَ ممسكاً بقارورة أقراص دواء أو ماكينة حلاقة يدوية ولو من النوع الآمِن.

يجعلنا الخوف عمياناً، ونحن نتلّمس كلّ خوفٍ بكل الفضول الشَّرِه النابع مِن الحرص على مصالحنا الذاتية، محاولين الوصول إلى صورة كُلِّيّة واحدة مِن جماع الأجزاء المتفرِّقة، شأننا شأن العميان مع فِيلهم.

إننـا نحـسُّ ذلـك الشَّـكل، وندركـه فطريًّـا. يفطـنُ الأطفـالُ إليـه بـلا مشـقَّة، ثـم ينسـونه، ثـم يتعلَّمونـه مُجـدَّدًا وهـم كبـارٌ راشـدون. إنَّ الشـكل هنـاك، وسـوف يصـل أغلبنـا لإدراك مـا هـو، عاجـلًا أو آجـلًا: إنـه شـكل الجسـم تحـت مـلاءة مفـرودة عليـه. كل مخاوفنـا تجتمـع وتتراكـم في خـوفٍ واحـد كبـير؛ كل مخاوفنـا ليسـت سـوى جـزءٍ مـن ذلـك الخـوف الكبـير- ذراعٌ، سـاقٌ، إصبـع، أذن. إننـا نخـافُ الجسـمَ الممـدَّد تحـت الملاءة. إنـه جسـمنا نحـن. وتنبـع الجاذبيـة الهائلـة لقَصـص الرُّعـب عـبر العصـور مِـن أنـه يلعـب دور التمريـن أو البروفـة عـلى موتنـا نفسـه.

غـير أنَّ هـذا المجـال لم يُنظَـر إليـه بعـين التقديـر قبـل ذلـك قَـطُّ؛ فلأَمَـدٍ طويـل كان الأصدقـاء الوحيـدون للكاتِبَـيْن بـو هـم الفرنسـيين، الذين توصَّلـوا بطريقـةٍ مـا إلى اتفاقيـة تفاهُـم مـع كلٍّ مِـن الجنـس والمـوت، أمَّـا أبنـاء جلدتهـما مِـن الأمريكيـين فـلا شـكَّ أنهـم لم يطيقـوا عـلى هـذا التفاهـم صبراً. كان الأمريكيـون منشـغلين بمَـدِّ السِّـكَك الحديديـة، ومـات كلٌّ مِـن بـو ولَـڤ كرافـت مُفلِسَـيْن. وقـد ظلَّـت فانتازيـا الأرض الوسـطى في "سـيِّد الخواتـم" لتولكـين تُرفَـض وتُرفَـس هنـا وهنـاك لمـدة عشريـن عامًـا قبـل أن تظهـر للنـور وتحـرز نجاحًـا غـير مسـبوق، وكثـيراً مـا تناولـت كتـبُ كـيرت ڤونيجـت فكـرة البروڤـة عـلى المـوت، وطالمـا واجهـت ريـاحَ النَّقـد العاتيـة، وكثـيراً مـا كانـت ترتفـع نـبرة هـذا النقـد لدرجـة الـصراخ الهِسـتيري.

ولعـلَّ ذلـك راجـعٌ إلى أنَّ كاتـب الرُّعـب يجلـبُ الأخبـار السـيئة عـلى الـدوام: فإنَّـه مَـن يقـول لـك إنـك سـوف تمـوت، إنَّـه مَـن يقـول لـكَ دعـكَ مِـن "الواعـظ التليفزيـوني" أورال روبرتـس وقَولـه "سـيحدث لـك شيءٌ جيِّـد"، لأنَّـه "سـيحدث لـكَ شيءٌ سـيِّئ"؛ قـد يكـون مـرض السرطـان، وقـد يكـون سـكتةً دماغيَّـة، وقـد يكـون حـادثَ سـيَّارة، ولكنـه سـيحدث لـك. وهـو يتنـاول يـدك ويقبـض عليهـا بيـده ويأخـذك إلى الغرفـة ويضـع يديـك

على ذلك الشكل تحت الملاءة المفرودة، ويخبرك بأن تلمس ذلك الجسد هنا، وهنا، وهنا.

بكل تأكيد، موضوعات الموت والخوف ليست منطقةً حصريَّةً لكُتَّاب الرُّعب دون غيرهم. فهناك عددٌ هائِل مِمَّن يسمَّون كُتَّاب "الاتجاه الرئيسي" للأدب تناوَلَت أعمالهم تلك الثيمات، وبطرق مختلفة ومتنوِّعة للغاية- مِن فيودور دوستويفسكي في رواية "الجريمة والعقاب"، إلى مسرحية إدوارد آلبي "مَن يخاف ڤيرجينيا وولف؟"، إلى "سلسلة ألغاز وروايات المحقِّق الخاص لو آرشر" لكاتبها روس مكدونالد. لطالما كان الخوف أمرًا كبيرًا، ولطالما كان الموت أمرًا كبيرًا، وكلاهما مِن بين الثوابت الإنسانية. لكنَّ كاتب الرُّعب وما وراء الطبيعة هو فقط مَن يقدِّم للقارئ فرصةً من هذا النوع، فرصةً للتماهي الكامل للتطهُّر(1). يعرف المشتغلون في هذا النوع الفني الخاص، حتَّى ولو لم يكن لديهم إلَّا أبسط فهم لطبيعته، يعرفون أنَّ كامل مجال الرُّعب وما وراء الطبيعة ليس إلَّا حجابًا للترشيح والتصفية يفصل ما بين الوعي واللاوعي؛ فَكأنَّ قَصص الرُّعب محطَّةُ قطار أنفاقٍ مركزيَّة في داخل النفس الإنسانية، تربط ما بين خطِّ القطارات الأزرق لما نستطيعُ أن نطويه بداخلنا في أمانٍ، وذلك الخط الأحمر لما ينبغي علينا التخلُّص منه بطريقة أو بأخرى.

عندما تقرأ قصص الرعب، لا تصدق ما تقرأ حقًّا. لا تؤمن بوجود مصَّاصي الدماء، والمستذئبين، والشاحنات التي تدور فجأة تلقائيًّا وتقود نفسها بنفسها. إنَّ الأهوال التي نؤمن بها جميعًا مِن صنف ما يكتب عنه دوستويفسكي وآلبي ومكدونالد: الكراهية، والاغتراب،

---

(1) Catharsis: كلمة يونانية الأصل، وكانت في الأصل تشير لما يشعر به مُشاهِد المسرح من تطهير للنفس أو تنفيس وجداني، عبر تعرُّضه لانفعالات وعواطف شخصيات المسرحية، وكان أرسطو أوَّل مَن قارن تأثير المأساة الإغريقية القديمة في نفس وعقل المشاهِد بتأثير تطهير الجسد في كتابه فن الشِعر.

والتقـدُّم في السِّـنِّ بـدون الشـعور بالحـب، والخـروج المتعـثِّر إلى العالَـم العـدواني عـلى قدَمَـيْن مُزعزَعَتَـيْن في سِـنِّ المراهقـة. في العالَـم الحقيقـي لحياتنـا اليوميـة، غالبًـا مـا نكـون مِثـل أقنعـة الكوميديـا والتراچيديـا، مبتسـمين مـن الخـارِج، ومتجهِّمـين في الداخـل. ثمـة نقطـة تبديـل مركزيـة في موضـعٍ مـا بالداخـل، مثـل محـوِّلٍ ربمـا، حيـث ترتبـط الأسـلاك المؤديـة إلى هذيـن القناعـين. وذلـك هـو بيـت القصيـد، حيـث تتَّضِـح قصَّـة الرُّعـب وتكتسـب مغزاهـا. إنَّ كاتـب قصـة الرُّعـب لا يختلـف كثـيراً عـن آكِل الذنـوب، الشـخصية الخياليـة في الأسـاطير الويلزيـة، وهـو مَـن يُفـترَض بـه أن يتحمَّـل عـلى كاهلـه ذنـوب وخطايـا الفقيـد العزيـز عـبرَ تنـاولٍ طَقـسيٍّ لطعـام هـذا الشـخص المتـوفَّى. وكأن الحكايـة الحافلـة بالمسـوخ والأهـوال سَـلَّة مُـزوَّدة كيفـما اتفـق بأصنـاف الرُّهـاب المختلفـة، وعندمـا يمـرُّ الكاتب عابـرًا بهـا، تتنـاول أنـتَ صنفًـا مـمَّا لديـه مِـن المخـاوف الخياليـة الموجـودة في السـلَّة، وتضـع مكانهـا مخاوفـك الحقيقيـة- تضعهـا عنهـا ولـو لبعـض الوقـت عـلى الأقـل.

في خمسـينيات القـرن العشريـن، كانـت هنـاك موجـة هائلـة مِـن أفـلام الحـشرات العملاقـة- مثـل أفـلام: Them!، وThe Beginning of the End، و Mantis The Deadly، وغيرهـا. وبـلا اسـتثناء تقريبًـا، وبينـما تتقـدَّم أحـداث هـذا الفيلـم أو ذاك، نكتشـف أنَّ تلـك المسـوخ القبيحـة هائلـة الحجـم هـي نِتـاج تجـارب لاختـراع قنبلـة نوويـة في نيـو ميكسـيكو أو عـلى جزيـرة مهجـورة مـن جـزر الشِّـعاب المرجانيـة وسـط المحيـط الهـادئ (وفي أفـلامٍ أحـدث مِـن تلـك مثـل Horror of Party Beach، والـذي ربمـا كان عنوانـه الفرعـي Beach Blanket Armageddon، كان الذَّنـب يقـع عـلى نفايـة مُفاعِـل نـووي). وعنـدَ تأمُّـل أفـلام الحـشرات العملاقـة معًـا، سـنجد أنهـا تعكـسُ نمطًـا لا ريـبَ فيـه، وَضعًـا عامًّـا مُقلِقًـا لذُعـر بلـدٍ كامـل

حيال العصر الجديد الذي دشَّنه مشروع مانهاتن(1). بعد ذلك، وفي وقت لاحق مِن العَقد نفسه بدأت حلقة مِن أفلام الرعب الخاصة بالمراهقين، بدايةً بأفلام ذات طابع ملحميٍّ مثل "مراهقون من الفضاء الخارجي"، وكذلك فيلم The Blob، الذي يحارب فيه ستيف ماكوين -وهو في شبابه الفَتيّ- مسخًا مِن مادة هُلاميَّة، بمساعدة أصدقائه المراهقين. في عصرٍ كانت كل مجلَّة أسبوعية فيه تنشر موضوعًا واحدًا على الأقل حول الموجة المتصاعِدَة مِن حالات جنوح النشء وخروجهم على القانون، عبَّرت أفلام الرُّعب بأبطالها مِن اليافعين عن شعور بلدٍ بالكامل بالاضطراب والقلق إزاء ثورة الشباب، حتَّى في مَهدها وهي لم تزل تتخمَّر؛ فعندما كان الرَّجُل مِن هؤلاء يرى الممثِّل مايكل لاندون يتحوَّل إلى مذؤوب وهو مرتدٍ سُترةً جلديَّةً خاصَّة بالمدرسة العُليا، يحدث تلقائيًّا الرَّبط بين الخيال على الشاشة وبين مخاوفه المُفلتة بلا كابح إزاء ذلك الشاب الذي تواعده ابنته، غريب الأطوار ذي السيارة القديمة المعدَّلة. أمَّا بالنسبة للمراهقين أنفسهم (لقد كنتُ واحدًا منهم وأتحدَّث بناءً على تجربة)، فإنَّ تلك الوحوش، التي أخذت تتكاثر وتتوالد بسرعة في الاستوديوهات المستَأجَرَة لشركة أمريكان- إنترناشيونال، قد منحتهم فرصة لرؤية شخصٍ أشدَّ قُبحًا ممَّا يشعرون بأنهم عليه مِن قبح؛ فما قيمة بضع بثور على الوجه مقارنةً بكائنٍ ممسوخ بالكاد يجرُّ قدميه على الأرض، وقد كان في السابق طالب مدرسة عُليَا، وذلك في فيلم "كنتُ فرانكنشتاين مراهق" I Was a Teen-Age Frankenstein؟ كما كانت هذه السلسلة نفسها من الأحداث تعبيرًا عن شعور المراهقين بأنَّ أهلهم يسيئون معاملتهم ويستهينون بهم بغير وجه حقٍّ، وبأنَّ الأهل ببساطة "لا يفهمون".

(1) Manhattan Project: مشروع بحث وتطوير لإنتاج الأسلحة النووية، خلال الحرب العالمية الثانية، قادته الولايات المتحدة الأمريكية بدعمٍ من المملكة المتحدة وكندا، وأشرف عليه الجنرال ليزيلي جروفز في الفترة من 1942 حتَّى 1946.

تتألَّـف الأفـلام مـن صِيَـغ معـادلات (وهكـذا أيضًـا الكثـير مِـن قَصـص الرُّعـب الخيـالي، في الأدب والسـينما)، ومـا كانـت تعـبِّر عنـه المعادلـة آنـذاك هـو بـكل وضوحٍ إحسـاسُ جيـلٍ كامـل بجنـون الارتيـاب- إنهـا حالـة بارانويـا كان مِـن بـين أسـبابها -بـلا شـكٍّ- كل تلـك المقـالات التـي كانـت أهلهـم يقرؤونهـا. في تلـك الأفـلام، كان ثمَّـة كائـن مغطًّـى بالثآليـل والبثـور وفظيـع للغايـة يُهـدِّد بلـدة صغيرة، لتَكُـنْ إلمزفيـل مثـلًا. الشـباب الصغـار هُـم وحدهـم مَـن يعرفـون بأمـر هـذا التهديـد؛ فقـط لأنهـم رأوا الطبـق الطائـر يحـطُّ بجانـب شـارع العُشَّـاق الـذي يوقفـون فيه السـيارات لتبـادُل القبـلات وخلافـه. خـلال أوَّل بَكـرة مِـن الفيلـم (حـوالي 10 دقائـق)، يفتـك المسـخ المرعِـب برجُـلٍ عجـوز في سـيارة نصـف نقـل (وكان الممثِّـل إليشـا كـوك الابـن يلعـبُ دورَ العجـوز دائمًـا بـلا كَلَـل)، وخـلال البَكـرات الثـلاث التاليـة مِـن الفيلـم، سـوف يحـاول الشـباب الصغـار إقنـاع أهلهـم بـأنَّ ذلـك المسـخ المقيـت يتسـلَّل خلسـة في الجـوار فعليًّـا. لكـنَّ مأمـور قِسـم شرطـة البلـدة سـوف يزمجـر في وجوههـم، قائـلًا: "ابتعـدوا عـن هنـا وإلَّا حبسـتُكم لانتهـاك حظـر التجـوُّل!"، ولا يـكاد ينهـي قولـه حتَّـى ينسـلَّ الوحـش سـائرًا عـلى امتـداد الشـارع الرئيـسي، مُحطِّـمًا مـا يقابلـه في جميـع الاتجاهــات. وفي نهايــة تلــك الأفــلام، لا بــدَّ أن يكــون الشــباب الصغــار بتفكيرهـم السريـع هُـم مَـن يضعـون حـدًّا لـشر الكائـن المقيـت المرعـب، ثـمَّ ينطلقـون بعـد ذلـك إلى المـكان الـذي يرتادونـه للمـرح والاسـتراحة لتنـاوُل شراب الشَّـعير بنكهـة الشـوكولاتة ويتراقصـون عـلى نغمـةٍ خفيفـة يسـهل نسـيانها بينـما تنـزل عـلى الشاشـة شـارات النهايـة.

تلـك إذَن ثـلاث فُـرص منفصلـة للتطهُّـر الوجـداني في موجـة واحـدة مِـن الأفـلام الجماهيريـة ذات الطابـع التجـاري- وهـو أمـر ليـس سـيئًا عـلى الإطـلاق بالنسـبة لمجموعـة مـن أفـلام الإثـارة ذات الميزانيـة المنخفضـة، والتـي لا يسـتغرق تنفيذهـا في الغالـب أكـثر مِـن عـشرة أيـام. حالـة التطهُّـر في تلـك الأفـلام لم تحـدث لأنَّهـا مقصـودة مِـن قِبـل الكتَّـاب

والمنتجين والمخرجين ممَّن عملوا فيها، بل حدثت لأنَّ حكاية الرُّعب تعيش بشكلٍ طبيعي للغاية في تلك النقطة الواصلة ما بين الوعي واللا وعي، في الموضع الذي تنشأ فيه كلٌّ مِن الصورة الخيالية والمجاز بشكلٍ طبيعي للغاية، وبالتأثير الأشد فتكًا وتدميراً. ثمة خَطٌّ مباشر من التطوُّر يربط ما بين أفلام تجارية مثل "كنتُ مراهقًا مذؤوبًا"، وأفلام راقية مثل فيلم ستانلي كوبريك "البرتقالة الآلية"، بين الوحش المراهق وبين فيلم مثل "كاري" للمخرج براين دي بالما.

تتَّسم قَصص الرُّعب العظيم بطابعٍ مَجازيٍّ على الدوام؛ أحيانًا يكون المجاز مقصودًا، كما في "مزرعة الحيوان" و"1984"، وأحيانًا أخرى يحدث عَرَضًا وحسب (الكاتب جي آر. آر. توكلين أقسمَ مُغلِّظًا الأيمان بأنَّ أمير الظلام الشرير مِن موردور لم يكن هِتلر في ثوبٍ فانتازي، لكنَّ الأطروحات والأوراق البحثية الدراسية التي تؤكِّد تلك النتيجة لم تزل تتواصل وتتزايد- وربما يحدث المجاز عَرَضًا؛ لأنَّ الأمر -على قول بوب ديلان- عندما يكون لديك الكثير من السكاكين والشوكات، فلا بدَّ أن تقطعَ شيئًا ما.

إن أعمال كلٍّ مِن إدوارد آلبي، وشتاينبك، وكامو، وفوكنر تتناول موضوعات الخوف والموت، وفي بعض الأحيان الرُّعب، لكنَّ كتَّاب أدب التيار الأساسي الرفيع هؤلاء يتناولون تلك الموضوعات بطريقة أكثر اعتيادية وأكثر اقترابًا مِن الحياة الواقعية. تدور أعمالهم داخل إطار العالَم العقلاني؛ إنها قصص "يمكنها أن تحدث حقًّا". إنهم كتَّاب على ذلك الخَطِّ المتَّجِه إلى العالَم الخارجي مِن قطار الأنفاق. وهناك كُتَّاب آخرون (چيمس چويس، فوكنر مرَّةً أخرى، وشعراء مثل تي إس إليوت وسيلڤيا بلاث وآن سكستون) تدور أعمالهم على أرض الرمزية واللا وعي. هؤلاء على خَطِّ قطار الأنفاق المتَّجِه إلى المنظر الداخلي. غير أنَّ كاتب الرُّعب يكون على الدوام تقريبًا في تلك المحطة الرئيسية التي تربط الاتجاهين معًا، على الأقل إن كان عمله يتَّسِم بالدقة والبراعة.

وعندما يكون كاتب الرعب في أفضل حالاته غالبًا ما يساورنا ونحن نقرؤه ذلك الإحساس الغريب بأننا لسنا نائمين تمامًا، ولسنا يَقِظين تمامًا، عندما يتمطَّى الزمن وينحرف مساره، عندما نستطيع أن نسمع أصواتًا تتحدَّث لكننا لا نستطيع أن نتبيَّن كلماتها أو فحواها، عندما يبدو الحُلم واقعيًّا ويبدو الواقع في هيئة الأحلام.

وتلك المحطة الرئيسية ما أغربها وما أروعها. هناك يقعُ المنزل المسكون على التل[1]، في ذلك المكان حيث تمضي القطارات في كِلَا الاتجاهين، وحيث الأبواب التي تتأرجح توصَد برَويَّة وهدوء؛ والمرأة في الغرفة ذات ورق الحائط الأصفر هناك أيضًا ورأسها مضغوط فوق تلك العلامة الدهنية الباهتة؛ وهناك أيضًا المخلوقات الهائلة متحوِّلَة الشكل التي طاردت وهدَّدت فرودو وسام في "سيد الخواتم"؛ هناك نموذج بيكمان؛ وهناك وحش الويندیجو الخرافي؛ ونورمان بيتس وأمه الرهيبة[2]. في هذه المحطة لا صَحوَ ولا حُلم، ليس إلَّا صوت الكاتب، خفيضًا ومُتعقِّلًا، يُحدثنا عن النسيج المتين الجيد للأشياء من حولنا، وكيف يحدث أحيانًا أن يتداعى ويتفكَّك في مباغَتةٍ صادمة. إنه يخبرَك بأنكَ ترغب في رؤية حادث تَحطُّم السيَّارة، ونَعم، هو على حق؛ فتلك هي رغبتك. هناك صوتٌ ميت على الهاتف. هناك شيءٌ ما وراء جدران المنزل القديم يبدو أكبر من مجرَّد فأر. حركة عند نهاية الدَّرَج المؤدِّي للقبو. يريدُ منك صوتُ الكاتب أن ترى كل تلك الأشياء، وأكثر؛ يريدك أن تضع يديك على الشكل تحت الملاءة المفرودة. وأنت أيضًا تريد أن تضع يديكَ هناك. نَعم.

***

(1) The Haunting of Hill House- المنزل المسكون على التل: عنوان رواية رُعب للكاتبة شيرلي جاكسون، تحوَّلت لأكثر من عملٍ فنيٍّ درامي، أحدثها مسلسل عُرِض عام 2018.

(2) إشارات متفرِّقة إلى أعمال أدبية وفنية وخرافات تنتمي لنوع الرُّعب.

ذلـك بعـضٌ مِـن الأمـور التـي تفعلهـا قصـة الرعـب عـلى مـا أظـن، لكـن مـا أجـدني شـديدَ الاقتنـاع بـه هـو أنَّ عـلى كل قصـة رعـب أن تفعـل أمـرًا واحـدًا إضافيًـا، وهـو أهـم مِـن سـائر الأمـور الأخـرى: لا بـدَّ أن تحـكي حكايـةً قـادرة عـلى الإمسـاك بتلابيـب القـارئ أو المستمع وتُبقيـه تحـت سِـحرها لبُرهـة مِـن الوقـت، بحيـث يضيـع في عـالمٍ لم يُوجَـد قَـطُّ، ولا يمكـن أن يُوجـد أبـدًا. مثـل ذلـك البحَّـار العجـوز في قصيـدة كولـيردج الـذي يسـتوقف الشـاعر وهـو في طريقـه لحفـل زفـافٍ عـلى وشـك أن يبـدأ فيُنسـيه كلَّ شيء إلَّا أمـره وحكايتـه. طـوال عُمـري ككاتـبٍ كنـتُ مُخلِصًـا لفكـرة أنَّ قيمـة الحكايـة في الكتابـة الخياليـة تفـوق أهمِّيَّـة كلِّ جانـبٍ آخَـر مِـن جوانـب حرفـة الكاتـب؛ مِثـل بنـاء الشخصيات والثيمـة والمـزاج العـام، فـكلُّ ذلـك لا يُعـدُّ شـيئًا إن كانـت الحكايـة نفسـها مُمِلَّـة. وإذا كانـت الحكايـة نفسـها قـادرة عـلى الإمسـاك بـك فـكلُّ مـا عـدا ذلـك يمكنُ التسـامحُ معـه. ولعـلَّ التعبـير المُفضَّـل عنـدي بشـأن هـذا التأثـير كتبـه إدجـار رايـس بـوروز، وهـو الـذي لـن يذكـره أحـدٌ مِـن بـين أعظـم كُتَّـاب العالَـم، لكنـه رَجُـلٌ قـد فهـمَ قيمـة الحكايـة تمـامَ الفهـم. في الصفحـة الأولى مِـن روايتـه الفانتازيـة "الأرض التـي نسـيها الزمـن"، يعـثر الـراوي عـلى مخطـوطٍ في زجاجـة؛ ومـا تبقـى مـن الروايـة هـو تقديـم وعـرض ذلك المخطـوط. يقـول الـراوي: "اقـرأ صفحـة واحـدة، وسـوف تَنسَـني تمامًـا". إنـه وعـدٌ اسـتطاع بـوروز أن يفـي بـه، بينـما يعجـز عـن ذلـك كُتَّـابٌ كثـيرون أعظـم منـه موهبـةً.

في الختـام، أيُّهـا القـارئ الكريـم، إليـك حقيقـةً تجعـل أقـوى الكتَّـاب يـصرُّ عـلى أسـنانه غيظًـا، وهـي أنـه لا أحـد يقـرأ مقدِّمـة الكاتـب، باسـتثناء ثـلاث مجموعـات صغـيرة مِـن الأشـخاص، وتلـك الاسـتثناءات هـي: أولًا، أقـرب أفـراد أسرة الكاتـب (غالبًـا زوجتـه وأمـه)؛ ثانيًـا، مَـن يُمثِّلـون الكاتـب رسـميًّا (والمحـرِّرون وأعـزاء آخـرون بمهـام متنوِّعـة)، وهـؤلاء هَمُّهـم الأسـاسي اكتشـاف أي شـخص قـد يكـون الكاتـب أشـارَ إليـه في

طَوافِـه الشـارد مـن نقطـة إلى أخـرى، إشـارةً تتيـح لـه أن يرفـع قضيـة قـذف وتشـهير؛ وثالثًـا، أولئـك الأشـخاص الذيـن مَـدُّوا يدَ العـون للكاتـب خـلال طريقـه، وهـؤلاء يريـدون أن يعرفـوا إذا كان رأس الكاتـب قـد أصبحَ كبـيرًا للغايـة بحيـث أفلـحَ في نسـيان أنـه لم يحـرز النجـاح بمفـرده، أم أنـه لم يـزل يتذكّـر.

قُـرَّاءٌ آخـرون يعتـبرون مُقدِّمـة الكاتـب ضريبـة باهظـة عليهـم دَفعهـا، ومعهـم كل الحـق في ذلـك، كأنَّ الكاتـب يقـدِّم لنفسـه دعايـة ترويجيَّـة من عـدَّة صفحـات، ويعتـبرون ذلـك مُسـيئًا أكـثر حتَّـى مِـن إعلانـات السـجائر التـي أخَـذَت تنتـشر في القسـم الأوسـط مِـن الكُتـب الشَّـعبيَّة ذات الأغلفـة الوَرقيَّـة. يـأتي أغلـب القـرَّاء لمشـاهدة العَـرض، وليـس لمشـاهدة مُديـر المـسرح وهـو ينحنـي مـرارًا قُبالـة أضـواء صـدارة الخشـبة. ومـرة أخـرى، معهـم كل الحـق في ذلـك.

أغـادر الآن؛ فهـذا العَـرض عـلى وشـك أن يبـدأ. سـوف نذهـب معًـا لندخـل تلـك الغرفـة ونلمـس ذلـك الشـكل تحـت المـلاءة. ولكـن قبـل أن أغـادر، أريـد أن آخـذَ مِـن وقتـك دقيقتـين أو ثلاثًـا أخـرى فقـط: لـكي أشـكر بعـض الأشـخاص مِـن كل واحـدة مِـن المجموعـات المشـار إليهـا سـابقًا- ومِـن مجموعـة أخـرى رابعـة كذلـك. فتَحمَّلْنـي بينـما أُبـدي بضـعَ كلـمات شُـكر:

إلى زوجتـي، تابيثـا، أفضـل نقَّـادي وألذعهـم. عندمـا تـرى أنَّ العمـل جيِّـد فإنهـا تقـول هـذا ببسـاطة؛ أمَّـا عندمـا تـرى أنني خانني التعبـير أو أفسـدت الأمـر فإنهـا تشـدُّ أذني بألطـف وأرقّ طريقـة مُمكِنـة. إلى أولادي، ناعومـي، جـو، أويـن، الذيـن كانـوا في غايـة التَّفهُّـم بشـأن تلـك الأفعـال الغريبـة التـي يقـوم بهـا أبوهـم في غرفـة الطابـق الأرضي. وإلى أمـي، التـي رحلـت في 1973، وهـذا الكتـاب مُهـدًى إليهـا. ظـلَّ تشـجيعها لي ثابتًـا لا يتزحـزح ولا يهتـزُّ، وبـدت كأنهـا قـادرة عـلى الـدوام أن تجـد الأربعـين أو

الخمسين سنتًا اللازمة لشراء ذلك المغلَّف الضروري والمزوَّد بالطابع، والمختوم بعنوان المُرسِل مع دفع الرسوم البريديَّة اللازمة لإرسال الرد، ولم يكن هناك إنسان آخَر على وجه الأرض، بما في ذلك أنا نفسي، أكثر سعادة منها عندما "شَقَقتُ طريقي إلى النجاح".

في تلك المجموعة الثانية، هناك مُحرِّري وليام چي. ثومبسون مِن شركة دابلداي وشُرَكاه، الذي يستحق تقديري وشكري الخاص، والذي تعاونَ معي بكل صبر، وعانى مِن اتصالاتي الهاتفية اليوميَّة بروحٍ حلوة وتشجيع متواصِل، والذي أبدى قبل بضع سنين رأفةً ودماثة نحو كاتبٍ شابٍّ ليس لديه نجاحات سابقة تُعزِّز موقفه، ومنذ ذلك الحين وهو متورِّط في دعمه ذلك الكاتب الشاب.

وفي المجموعة الثالثة الأشخاص الذين كانوا أوَّل مَن اشتروا أعمالًا لي: السيد روبرت أ. دابليو. لوندز، الذي اشترى أوَّل قصتين لي استطعتُ بيعهما على الإطلاق؛ والسيد دوجلاس آلان والسيد ني ويلدين مِن شركة ديوجينت للنشر، اللذين اشتريا الكثير للغاية مِن أعمالي التالية لصالح مَجلَّتَيْ كافالير وجنت، قديمًا عندما كنتُ أشتبك في شجارٍ مع الأيام وحين كانت الشيكات تصل أحيانًا في اللحظة ذاتها لتجنُّب "الانقطاع في الخدمة" حسب التسمية المخفَّفة لشركات الكهرباء؛ والشكر واجبٌ أيضًا إلى كلٍّ من إلين جيجير وهربرت شنال وكارولين سترومبرج في دار نشر نيو أمريكان لايبراري؛ وأيضًا چيرارد ڤان دِر ليون في مجلة بِنت- هاوس، وهاريس دينستڤري في مجلة كوزموبوليتان. شكرًا لكم جميعًا.

هناك مجموعة أخيرة أودُّ أن أشكرها، وهم القرَّاء، كل واحد وواحدة منهم، كلَّ مَن أخرجَ حافظة نقوده ذات مرة من أجل شراء شيءٍ كتبتُه. فهذا الكتاب كتابكم، بطُرُق كثيرة وعظيمة؛ لأنه لولاكم لما خرج للوجود بكل تأكيد. فشكرًا جزيلًا.

حيث أوجد الآن، لم تَزَل السماء مُعتِمة، ولم يزل المطر متواصلًا. ما أنسبها مِن ليلة لما سنُقدم عليه. لديَّ شيءٌ أريد أن أريه لك، شيءٌ ما أريدكَ أن تلمسه، إنه في غرفة ليست بعيدةً عن هنا- بل في الحقيقة إنه على مسافة صفحة واحدة منك. هيَّا بنا.

بريدچتون، ماين

27 فبراير 1977.



أرض چيروسالِم

2 أكتوبر 1850

عزيزي بونز،

كـم كان جميـلًا أن أدخـل إلى ذلـك الـرواق البـارد المعـرَّض لتيـارات الهـواء في منـزل شـابل ويـت، وقـد كانـت كل عَظمـة في جسـدي تتوجَّـع مِـن تلـك العَربـة البغيضـة، وبي حاجـةٌ ماسَّـة لأن أُفـرِغ مثانتـي المنتفخـة مِــن فــوري- وكــم كان جميــلًا أيضًــا أن أرى رســالة تســتند إلى منضــدة صغـيرة مـن خشـب الكـرز بجانـب البـاب، وعليهـا العنـوان بخربشـتك تلـك التـي لا يمكـن تقليدهـا عـلى الإطـلاق! ولتكُـنْ واثقًـا أننـي تفرَّغـتُ لفَـكِّ شـفرتها بمجـرد أن انتهيـت مـن تلبيـة حاجـاتي الجسـدية (في حـمَّام ذي زخـارف بالطابـق الأرضي، حيـث كان بوسـعي رؤيـة بخـار المـاء يصعـد مـع أنفـاسي أمـامَ عينـيَّ).

يسرُّني أن أعرفَ أنكَ تعافيتَ مِن وَبالة[1] الهواء الفاسد الذي استقرَّ في رئتيك طويلًا، ورغمَ ذلك فإني أؤكِّد لكَ تعاطفي الكامل مع المُعضلة الأخلاقية التي فرضها عليك أمرُ العِلاج. شخص مِثلك مناهض للعبودية ومؤيِّد لإلغاء الرِّقِّ يُضطرُّ إلى الاستشفاء في الطقس المشمس لمستعمرة هوندا، حيث لا شيء أكثر مِن تجارة العبيد! لكن مع هذا، يا بونز، فإنني بصفتي صديق اقترب هو أيضًا مِن وادي الظلال؛ أطلبُ منكَ أن تعتني كلَّ الاعتناء بصحتك، وألَّا تُغامر بالعودة إلى ماساتشوستس حتَّى تشعر بأنَّك تعافيتَ ويمنحك بدنك تصريح المغادرة؛ إذ لا يمكننا الانتفاع بعقلك الناصع ولا بقلمك القاطع إذا ما أصبحتَ جُثَّةً هامدة، وإن كان علاجك لا يُوجد إلَّا في الجنوب، أليس في ذلك نوعًا مِن العدالة الشِّعرية؟

نَعم، المنزل رائع تمامًا كما أكَّد لي ذلك القائمون على تنفيذ وصيَّة ابن عمي، لكنه مشؤوم بدرجةٍ أكبر. إنه قائمٌ أعلى بقعةٍ ضخمة بارزة، ربما على مسافة ثلاثة أميال جنوب فالماوث، وتسعة أميال شمال بورتلاند. ومن ورائه مساحة نحو أربعة أفدنة مِن الأراضي، تمتدُّ للخلف حتَّى البَراري في روعةٍ تفوق الخيال- نبات العَرعر، وأيكات كروم، وآجام، وأشكال متنوِّعة من النباتات المُعترشة، جميعها تتسلَّق بعنفوانٍ على امتداد الأسوار الحجرية بديعة المنظر التي تفصل العِزبة عن نطاق البلدة. وتنتصبُ مجموعةٌ مِن التماثيل، هي محاكاة فظيعة للفَنِّ الإغريقي، تمعنُ النَظر بأعينٍ عمياء عبر الحطام والهَدَد من فوق روابٍ عديدة- وتبدو تلك التماثيل، في أغلب الأوقات،

(1) miasma- الوَبالة، أو الميازما: نظرية صحِّيَّة قديمة غير دقيقة، تفترض أنَّ بعض الأمراض مثل الكوليرا وغيرها تصيب الإنسان بسبب التلوث والهواء الفاسد، وأنَّ الأوبئة تنجم عن تعفُّن المواد العضوية.

كأنها على وشك أن تنقضَّ على العابرين لتفتك بهم. يبدو أنَّ ذائقة ابن عمي ستيڤن كانت قادِرةً على استيعاب كلِّ بشاعة، تتدرَّج من المُستَهجَن إلى المروِّع الصِّرف. يوجد أيضًا منزلٌ صيفيٌّ صغير وغريب وهو شِبه مدفون تحت نباتات السُّماق القرمزية، وثمَّة ساعة شمسية في غاية البشاعة تقع وسط مساحة لا بدَّ أنها كانت حديقة زهور ذات يومٍ بعيد؛ ما يضيف لمسة الجنون الختامية على كل شيء.

لكنَّ المنظر مِن رُدهة المدخل يشفع لكل هذا وزيادة؛ إنني أطلُّ على منظر مدوِّخ من الصخور عند سفح مِلكية الشابل ويت، وأرى المحيط الأطلسي نفسه. هنا نافذة زجاجية بارزة للخارج بدَوران تشرفُ على هذا المنظر، وتنهضُ إلى جانبها خزانة كبيرة ذات أدراج وأرفف وتصلح للكتابة، مزخرفة على هيئة ضفدع. ستكون ملائمة تمامًا لأن أشرعَ في تأليف تلك الرواية التي لطالما أكثرتُ مِن الحديث عنها (إلى حدِّ الإضجار بلا ريب).

كان نهارُ اليوم رماديًا غائمًا معَ مطرٍ خفيف مُتقطِّع. وإذ أرنو للخارج يبدو لي كل شيء كأنَّه رسمٌ سريع باللون الرمادي الداكن- الصخور، قديمةً وَرَثَّة بِقدرِ الزمان نفسه، وكذلك السماء، وبالطبع البحر، والذي لا يَنفكُّ يرتطم بأنيابٍ جرانيتة مُدبَّبة طالعة من الأرض بالأسفل مُصدرًا صوتًا لا يُعَدُّ صوتًا بقدر ما هو ذبذبة- يمكن لقدميَّ أن تحسَّا بذبذبة الأمواج حتَّى بينما أكتبُ الآن، وهو إحساس ليس سيئًا تمامًا.

إنني أعلمُ، يا عزيزي بونز، أنَّ مَيلي للعُزلة لا يجدُ في نفسك ترحيبًا، غير أني أؤكِّد لكَ أنني سعيد وبخير حال. كما أنَّ كالڤن معي، وهو كشأنه دائمًا وأبدًا عَمليٌّ وصامت ويُعتمَد عليه، وأنا واثق أننا -بحلول منتصف هذا الأسبوع- سنكون أنا وهو قد رتَّبنا جميع أمورنا واتَّفقنا

على أن يصلنا كل ما يلزم مِن متاجر المدينة- وسنكون قد دبَّرنا أيضًا امرأة للتنظيف حتَّى تبدأ في إزالة الغبار عن هذا المكان!

سأُنهي رسالتي لك الآن؛ فثمَّة أمور كثيرة للغاية لم يزل عليَّ أن أعتني بها، غرفٌ أريدُ أن أستكشفها، وبالتأكيد هناك عددٌ لا يُحصَى من قطع الأثاث مُنكَرة الشَّكل ستقع عليها عيناي الحسَّاستان.

مرة أخرى، أشكر لك لمسة الأُلفَة التي حملها لي خطابك، ولعنايتك الدائمة بي.

أبلغْ مَحبَّتي لزوجتك، بقدر محبَّتِكما لي.

تشارلز

***

6 أكتوبر 1850

عزيزي بونز،

يا له مِن مكانٍ هذا!

لم يزل يواصل إدهاشي، وبالقدر نفسه يدهشني رَدُّ فِعل أهل أقرب القرى إلينا على مسألة سُكناي هنا. تلك القرية مكان صغير غريب له اسم مثير للتأمُّل، هو بريشرز كورنرز (نواصي المبشِّرين)، إنه المكان الذي عقد فيه كالڤن اتفاقات تزويدنا بالمؤن الأسبوعية. وقد أنجز المَهمَّة الأخرى هناك كذلك، وهي تأمين الإمداد بخشب التدفئة والوقود للشتاء. غير أنَّ كال عادَ مِن هناك وعلى ملامحه أماراتُ العبوس، وحينما سألتُه عمَّا به أجاب في تجهُّمٍ واضح:

"إنهم يعتقدون أنك مجنون، يا مستر بوون!".

ضحكتُ، وقلتُ: لعلَّهم سمعوا بما أصابني مِن حُمَّى وضعفٍ عقلي عارض بعد موت عزيزتي سارة- لا ريب أنني تحدَّثتُ بكلام المجانين في ذلك الحين، كما قد تشهد أنت بذلك.

غير أن كال خالفني الرأي، وقال إنه ما مِن أحد هُنا يعلم أي شيءٍ عني إلَّا مِن خلال ابن عمي ستيڤن، والذي كان قد اتَّفق معهم على تزويده بالخدمات نفسها التي دبَّرتها الآن. "ما قيل، يا سيدي، هو أنَّ أي إنسان يعيش في منزل الشابل ويت فإمَّا أنه مخبولٌ، وإمَّا أنه يجازف بأن يصير مخبولًا".

وكما لعلَّك تتخيَّل، أصابني هذا الكلام بحيرة تامة، فسألتُه مَن الذي تحدَّث إليه بهذا الحديث الغريب. أخبرني بأنَّ بعضهم دلَّه على رجُلٍ خشَّاب اسمه ثومبسون، يملك أربعمائة فدانٍ مِن أشجار الصنوبر والبتولا والتَّنُّوب، ويتاجر في لباب الخشب لتحضير عجينة الورق وخلافه، يساعده في ذلك خمسة أبناء له، ويبيع لمطاحن الورق في بورتلاند ولسكَّان المنازل في المنطقة المحيطة، فوجده كال رجُلًا كالِحًا شَكِسًا ومخمورًا إلى حدٍّ ما.

وعندما حدَّد له كال -وهو جاهلٌ بتحامُلِه العجيب- الموضعَ الذي سوف يُحمَل إليه الخشب المطلوب، حملقَ المدعو ثومبسون هذا وقد فشخ ضبَّه، ثم قال إنه سوف يرسل ابنيه بالخشب، لكن في عِزِّ النهار فقط، وسيذهبان عبرَ الطريق المحاذي للبحر.

على ما يظهر أن كالڤن أساء تفسير حيرتي؛ فظنَّها ضيقًا وهمًّا؛ فأسرعَ يقول إنَّ رائحة الويسكي الرخيص كانت تفوح من ذلك الرجل، وأنه بعد ذلك أخذ يخوض في كلام فارغ عن قرية مهجورة وعن أقارب لعمي ستيڤن- وعن ديدان! أنهى كالڤن عمله مع أحد أبناء ثومبسون، وكان هو أيضًا -على ما فهمت- عابسًا بدرجةٍ ما، وليس أشدَّ انتباهًا أو أطيب رائحةً مِن أبيه. فهمتُ أنَّ ردَّ الفعل هذا نفسه

لم يكن بعيدًا عن بلدة بريشرز كورنرز ذاتها، وهو ما بدا في المتجر مُتنوِّع البضائع حيث تحدَّث كال إلى مالكه، رغم أنَّ ذلك الرجل كان مِن النوع الميَّال للتهامُس وتبادل القيل والقال.

لم يزعجني أيٌّ مِن هذا كثيرًا؛ فإننا نعلم كيف هُم أهل الريف، وكَم يميلون بشدَّة لتتبيل حياتهم بنكهات الفضائح والخُرافات، وأفترضُ أنهم قد وجدوا فريستهم السَّهلة في المسكين ستيفن وفي فَرعه من العائلة. وكَما قلتُ لكال، فإنَّ رجلًا سقط إلى حتفه فجأة وبلا سبب مفهوم مِن المُرجَّح جدًّا أن يثير الأقاويل.

أمَّا المنزل ذاته فهو مصدرُ دهشة لا تنقطع. ثلاثة وعشرون غرفة، تصوَّر يا بونز! الطابق العلوي وقاعة الصور الزيتية للوجوه تكسو جدرانهما ألواحٌ خشبية سوَّدتها الرطوبة والعَفن، غير أنها لم تزل متينةً وصلبة. بينما وقفتُ في غرفة نوم ابن عمي الراحل بالطابق العلوي كان بوسعي أن أسمع صوت حركة فئران وراء تلك الألواح، ولا بدَّ أنها فئران ضخمة، بناء على الصوت الذي تصدره- مثل بشرٍ يمشون تقريبًا. لا شكَّ أني سأكره أن أقابل واحدًا في الظلام؛ أو حتَّى في ضوء النهار، إن قلنا الحق. ورغم ذلك فما لاحظتُ ثقوبًا ولا فضلات فئران. أمرٌ مُحيِّر.

قاعة الجاليري في الطابق العلوي تصطفُّ على جدرانها بورتريهات سيئة في أُطرٍ تُقدَّر قيمتها بثروةٍ بكل تأكيد. بعض الأشخاص المرسومة يشبه ستيفن كما أتذكَّر ملامحه. وأعتقد أنني تعرَّفت بشكل صحيح على عمي هنري بوون وزوجه جوديث؛ أمَّا الآخرون فمجهولون عندي. أحسبُ أنَّ أحدهم لا بدَّ أن يكون هو جدي روبرت ذا السُّمعة الشنيعة. غير أنَّ فَرع ستيفن مِن العائلة مجهول تمامًا بالنسبة لي، وأشعر بأسف صادق لهذا الأمر. وَرَغم الصنعة الرديئة لتلك البورتريهات، تلتمعُ فيها الروح ذاتها التي كانت تشرق مِن سطور

رسائل ستيفن إليَّ أنا وسارة، رُوح الدُّعابة الحلوة ونور الذكاء والثقافة الرفيعة. أي أسبابٍ حمقاء تفرِّق أبناء العائلات بعضهم بعيدًا عن بعض! منضدة كتابة سلبها واحدٌ مِن آخر، كلمات قاسية يتبادلها شقيقان هما الآن في عداد الموتى منذ ثلاثة أجيال، فيتباعدُ الأحفاد ويتجافون من غير داعٍ ولا ذنب لهم في شيء. لا يسعني إلَّا أن أفكِّر في حُسن الحظ الذي أصبناه عندما نجحتَ أنت وجوين بيتي في التواصل مع ستيفن عندما بدا أنني قد ألحق بسارة وأمرُّ عبر تلك البوابة الرهيبة- وأن أفكِّر أيضًا في سوء الحظ الذي أصبناه عندما سلَبَتنا الأقدار فُرصة اللقاء وجهًا لوجه. لَكم كنتُ أودُّ أن أسمعه وهو يدافع عن تماثيل أسلافه وذوقهم في الأثاث!

لكن لا تتركني أُفرِط في الإساءة إلى هذا المكان لأبعد مَدى. مِن الصحيح أن ذوقي لن يتوافق مع ذوق ستيفن، ومع ذلك فثمَّة بعض القطع، وتحت القشرة الخارجية لإضافاته الشخصية، تُعدُّ تُحفًا حقيقية. كان عددٌ منها مكسوًّا بأغطيةٍ تَقيه الغبار في غرف الطابق العلوي. يوجدُ بعضُ الأَسِرَّة، والمناضد، وخزائن ثقيلة وداكنة ذات أدراج سهلة الجَرِّ، وقد صُنعَ هذا مِن أخشاب ثمينة مثل السَّاج والموجنة، وكثير مِن غرف النوم وغرف الاستقبال وغرفة الدرس والكتابة بالطابق العلوي والصالون الصغير، الكثير مِن ذلك يحتفظ بسِحرٍ قاتِم. ألواح الأرضيات مِن خشب الصنوبر الثري، تومضُ بنور جوَّاني كأنه سِرٌّ مكنون. ثمة جلالٌ هَا هُنا؛ جلالُ وثِقلُ السِّنين. لم أزل غير قادرٍ على أن أقول إنَّ هذا يروقني، لكني أحترمه حقًّا. أتوق لأن أرى هذا الحال يتبدَّل بينما نتبدَّل نحن ونتقلَّب مع تقلُّبات هذا الطقس الجنوبي.

ربَّاه، نسيت نفسي وأطلتُ عليك! اكتب لي قريبًا، يا بونز. أطْلِعني على ما تحرزه مِن تقدُّم، وأي أخبار جديدة تسمعها عن بيتي والآخرين. وأرجوك لا ترتكب خطأ محاولة إقناع أيٍّ مِن معارفك الجدد من الجنوب بآرائك وأفكارك بأشد ممَّا يطيقون صبرًا- على

ما أظنُّ فلن يكتفوا جميعًا بالرَّدِّ بأفواههم، كما يحدث مع صاحبنا السيد كالهون الحليم طويل البال.

صديقك المخلص

تشارلز

***

16 أكتوبر 1850

عزيزي ريتشارد،

أهلًا بكَ، وكيف حالكَ؟ لقد خطرتَ على بالي كثيرًا منذ بدأت إقامتي هنا في شابِل ويت، وظللتُ منتظرًا أن يصلني منكَ خبر- والآن أتلقّى رسالةً مِن بونز يُخبرني فيها بأنني نسيتُ أن أترك عنواني هُنا في النادي! ليطمئنَّ قلبك بأنني كنتُ سأبادر بالكتابة لكَ في نهاية الأمر على كل حال؛ لأنَّه على ما يبدو أحيانًا لم يتبقَّ لي في هذا العالَم كله أي شيء مؤكَّد ومألوف ما خلا أصدقائي الصادقين المخلصين. ولكن، ربَّاه، كَم تفرَّقنا على كلِّ سبيل! أنتَ في بُوسطُن، تكتب بكل إخلاص لصحيفة الليبراتور[1] (وإليها أيضًا أرسلتُ عنواني البريدي، بالمناسبة)، وهانسُن في انجلترا في رحلة أخرى مِن أسفاره العجيبة المُحيِّرة، وصاحبنا العجوز المسكين بونز فمِن أجل أن يُعالِج رئتيه انتهى به الأمر في عرين الأُسود نفسِه.

تمضي الأمور هُنا على خير ما يُرام، يا دِك، ولتكن واثقًا مِن أنني سوف أزوِّدُك بتقرير مفصَّل في وقتٍ آخر، عندما لا أكون مضغوطًا بأحداث مُعيَّنة لم تزل قائِمةً هَا هُنا- وأحسبُ أنَّ عقليتك القانونية ربما تنجذبُ بشدة نحو وقائع بعينها في عِزبة الشابل ويت والمنطقة المحيطة بها.

---

(1) The Liberator (1831-1865): صحيفة أسبوعية كانت اللسانَ الناطق لمناهضي الرِّقِّ والعبودية، ومعنى اسم الصحيفة: "المُحرِّر".

لكـن حتَّـى ذلـك الحـين أودُّ أن أسـألكَ معروفًـا، إن كان سـيطيب لـك. أتتذكَّـر ذلـك المـؤرِّخ الـذي عرَّفتنـي بـه في حفـل عشـاء السـيد كلاري مِـن أجـل جمـع التبرُّعـات لمنـاصرة قضيتنـا؟ أعتقـد أنَّ اسـمه كان بيجَلـو. عـلى كُلٍّ، كان قـد ذكـر أنَّ لديـه هوايـة جَمـع قصاصـات غريبـة للمأثـورات الشـعبية والتقاليـد التاريخيـة الخاصَّـة بهـذه المنطقـة نفسـها التـي أسـكن الآنَ فيهـا. مـا أسـألكَ إيـاه، إذن، هـو الآتي: هـل تتكـرَّم بالتواصـل معـه وتطلـب منـه أيـة حقائـق، أو بعـض المأثـورات والحكايـات الشـعبية، أو الشـائعات الرائجـة -إن كان ثمَّـة- قـد يكـون مُلِـمًّا بهـا بشـأن قريـة صغـيرة مهجـورة مِـن السُّـكَّان تُسـمَّى أرض چيروسـالِم، وهـي قريبـة مِـن بلـدة اسـمها بريـشرز كورنـرز، عـلى الجهـة المقابلـة لنهـر الرويـال ريڤـر؟ وهـذا المجـرى ليـس إلَّا أحـد روافـد نهـر الأندروسـكوجين، ويتدفَّـق مـن ذلـك النهـر عـلى مسـافة تُقـارِب الأحـد عـشر ميـلًا أعـلى المصـبِّ بالقـرب مِـن عِزبَتِنـا الشـابل ويـت. مِـن شـأن هـذا أن يرضينـي ويـسُرَّني للغايـة، والأهـم، أنَّ هـذا الأمـر كلـه قـد ينطـوي عـلى شـؤون خطـيرة.

إذ ألقـي نظـرة الآن عـلى هـذا الخطـاب أشـعر بأننـي كنـتُ شـديد الاقتضـاب معـك لدرجـة الوقاحـة، فعـذرًا يـا دِك، ولتقبَـلْ أصـدق اعتذاري. لكـن فلتكـن مطمئنًّـا أننـي سـوف أشرح لـك الأمـر بنفسـي في القريـب العاجـل، وحتَّـى ذلـك الحـين أرسـل تحيـاتي الدافئـة لزوجتـك الكريمـة ولابنيـك الرائعـين، وبالطبـع لـكَ أنـت.

صديقك المحِبّ

تشارلز



***

16 أكتوبر 1850

عزيزي بونز،

عندي لك حكاية تبدو غريبة قليلًا (بل ومثيرة للقلق) لي أنا وكال معًا- وسأرويها لك لأعرف رأيك. وعلى أقل الاحتمالات، ربما تجد فيها بعض التسلية فيما تصارع البعوض!

بعد يومين مِن آخر مرة أرسلتُ لك فيها خطابًا، وصلَ إلى هُنا أربع سيدات شابات من بلدة الكورنرز، تحت إشراف سيدة أكبر سنًّا لها سيماء ينمُّ عن كفاءة تبلغ حدًّا يبعث على الرهبة، واسمها السيدة كلوريس، من أجل أن يُرتِّبن المكان ويُزِلن الغبار الذي كان يدفعني للعطاس تقريبًا مع كل خطوة أخطوها. وبينما مضين في مهام عَمَلهنَّ، كان يبدو عليهن جميعًا شيءٌ مِن التوتر العصبي؛ بل الواقع أنَّ آنسة خفيفة الروع منهنَّ أطلقت صرخة ذُعر صغيرة عندما دخلتُ صالون الطابق العلوي بينما كانت تنظفه مِن الغبار.

سألتُ السيدة كلوريس عن هذا الأمر (كانت تنظِّف الغبار عن ردهة الطابق الأرضي بعَزمٍ صارم وتجهُّم ملأني بحيرة تامة، كان شَعرُها ملمومًا للأعلى تحت منديل رأس حائل اللون)، التفتت نحوي وقالت بنبرة العزم الصارم ذاته: "إنهنَّ، يا سيدي، غير مرتاحات لهذا المنزل، وأنا أيضًا غير مرتاحة لهذا المنزل؛ لأنه كان دائمًا منزلًا سيئًا".

تدلَّى فَكِّي إزاء قولها اللاذع غير المتوقَّع هذا، وواصَلَت الحديث بنبرةٍ أكثر عطفًا ودماثة: "لا أقصد أن أقول إنَّ ستيفن بوون لم يكن رجلًا ممتازًا، لأنه كان كذلك؛ وقد نظَّفتُ له المنزل مرَّة كُلَّ أسبوعين، آتي يوم خميس وأفوِّت الخميس التالي، طوال الوقت الذي كان موجودًا فيه هنا، كما نظَّفتُ لوالده، السيد راندولف بوون، حتَّى اختفى هو وزوجته في سنة 1816. كان السيد ستيفن رجلًا صالحًا ودَمِثًا، وهكذا تبدو أنتَ أيضًا يا سيدي -إذا غفرتَ لي فظاظتي وصراحتي؛ فليسَ

لـديَّ طريقـة أخـرى أتحـدَّث بهـا- ولكـنَّ المنـزل فعـلًا سـيِّئ، وقـد كان علـى الـدوام هكـذا، ولم يَسـعَد بالإقامـة هنـا أي فـرد مِـن عائلتكـم، آل بـوون، منـذ وقـوع الشِّـقاق والقطيعـة بـين جَدِّكـم روبـرت وأخيـه فيليـب بسـبب أشـياء مسروقـة (وهنـا سـكَتَت لحظـة، وقـد أحسَّـت بالذَّنـب تقريبًـا) وذلـك في سـنة 1789".

يا لقوة الذاكرة لدى أولئك القوم، يا بونز!

واصَلَـت السـيدة كلوريـس تقـول: "لقـد شُـيِّد المنـزل في التعاسـة، وسُـكنَ أيضًـا في التعاسـة، وسُـفِكت الدمـاء عـلى أرضياتـه (لعلَّـك تعـرف أو لا تعـرف، يـا بونـز، أنَّ عمـي راندولـف قـد شـهدَ حادثـةً مـا عـلى الـدرج المؤدِّي إلى القبـو فـأودت بحيـاة ابنتـه ماريويـلا؛ ثـم أنهـى حياتـه بعـد ذلـك في نوبـة نَـدَمٍ. روى لي ستيڤن هـذه الواقعـة في إحـدى رسـائله إليَّ، وقـد اسـتعادها في مناسـبة حزينـة وهـي ذكـرى يـوم ميـلاد أختـه الراحلـة)، ثـم كان اختفـاء وحـوادث.

لقـد كنـتُ أعمـل هُنـا، يـا سـيِّد بـوون، وأنـا لسـتُ عميـاء ولا صـمَّاء. لقـد سـمعتُ أصواتًـا رهيبـة في الجـدران، يـا سـيدي، أصواتًـا رهيبـة: طَرَقـات وارتطامـات، وذات مـرَّةٍ سـمعتُ عويـلًا غريبًـا كان كأنـه ضحكـة. وبالحـق قـد جمَّـد الدمـاء في عروقـي. إنـه مـكانٌ مُظلـم، يـا سـيدي". وعندئـذٍ توقَّفَـت عـن الـكلام تمامًـا؛ ربمـا خوفًـا مِـن أن تكـون قـد تكلَّمَـت أكـثر مـمَّا يجـب.

أمَّـا عـن نفـسي، فلـم أدرِ حقًّـا مـا إن كنـت أشـعر بالإسـاءة أو التسـلية، الفضـول أو مجـرَّد التسـليم بالأمـر الواقـع. وأخـشى أن إحسـاس التسـلية كانـت لـه الغَلبـة. "ومـاذا تظنِّـين ذلـك، يـا سـيدة كلوريـس؟ أهـي أشـباح تُجَرجِـرُ سلاسـل قيودهـا؟".

لكنهـا اكتفـت بـأن وجَّهـت لي نظـرة غريبـة. "قـد يكـون للأشـباح وجـود. لكنهـا ليسـت أشـباحًا تلـك التـي في الجـدران. ليسـت أشـباحًا تلـك

التـي تعـول وتنتحـب مِثـل الملعونـين في الجحيـم وتحطِّـم وترتطـم سـاعيةً هكـذا في الظـلام. بـل...".

حثَثتُهـا عـلى الـكلام: "هيًـا، يـا سـيدة كلوريـس. مـا دُمـتِ وصلـتِ لهـذا الحَـدِّ، ألا يمكنـكِ الآن أن تُنهـي مـا بـدأتِ؟".

رأيـتُ عـلى ملامـح وجههـا أغـرب تعبـير مُمكِـن، مزيـجٌ مِـن الذُعـر والسُّـخط وأيضًـا -أقسـمُ عـلى ذلـك- الرَّهبـة الدينيـة. همسـت قائلـة: "البعـض لا يموتـون. البعـض يبقـون أحيـاء في ظـلال الغسـق، مـا بـين بـين، مـن أجـل خدمتـه هـو!".

وكان ذلـك ختـامَ كلامهـا. لبعـض الدقائـق ظللـتُ أُثقِـل عليها بأسـئلتي، لكـن لم يزدهـا ذلـك إلَّا عنـادًا ولم تـزد حرفًـا عـلى مـا قالـت. أخـيرًا كففـتُ عـن اسـتنطاقها، خشـية أنهـا قـد تحسـم أمرهـا وتغـادر.

كانـت هـذه نهايـة واقعـة واحـدة مِـن الحكايـة، وسرعـان مـا تلتهـا واقعـة ثانيـة في المسـاء التـالي. كان كالڤـن قـد أوقـد نـارًا في المدفـأة بالطابـق الأرضي وكنـتُ جالسًـا في غرفـة المعيشـة، أنـاوش النُعـاس متصفِّحًـا نسـخة مِـن صحيفـة الإنتلِچنسـير، وأنصـتُ إلى صـوت المطـر تدفعـه الريـح عـلى زجـاج النافـذة الكبـيرة البـارزة للخـارج. شـعرتُ بالراحـة التـي قـد يشـعر بهـا أي شـخص في ليلـةٍ مثـل تلـك، بينـما يجتمـع كل ذلـك البـؤس في الخـارج وهـو موجـودٌ في كنـف الـدفء والراحـة بالداخـل؛ ولكـن مـا هـي إلا لحظـة وظهـرَ كال لـدى البـاب، وهـو يبـدو منفعـلًا ومتوتـرًا بعـض الـشيء.

سألني: "هل أنت صاحٍ، يا سيدي؟".

فقلتُ: "بالكاد، ما الأمر؟".

أجابنـي بنـبرة القلـق المكبـوح ذاتـه: "وجـدتُ شـيئًا بالأعـلى أظـنُّ أنَّـكَ لا بـدَّ أن تـراه".

نهضتُ وتبعته. وبينما نصعدُ الدَّرَجَ العريض، قال كالڤن: "كنتُ أقرأ كتابًا في غرفة المكتب بالطابق العلوي- كتابًا غريبًا إلى حدٍّ ما، حينما سمعتُ جَلبةً تصدرُ مِن الجدار".

فقلتُ: "إنها فئران، فهل هذا كل شيء؟".

توقَّف على بَسطة الدَّرَج، وتطلَّع إليَّ بنظرةٍ جادَّة. عكسَ القنديلُ الذي يحمله ظلالًا غريبةً ومتربِّصة على الستائر الداكنة وعلى صور البورتريهات نصف المرئية، وقد بدت الآن وجوهها لا تبتسم، بل كأنها ترنو بخبثٍ وتَوَعُّد. وبالخارج ثارت الريحُ وأطلقت صرخة قصيرة لم تلبث أن خمدت على كُرهٍ منها.

قال كال: "ليست فئرانًا، كان هناك صوت مثل الخبط أو الطرق يصدر من وراء أرفف الكتب، ثم صوتُ بقبقة رهيب- رهيب حقًّا يا سيدي. وَحَكَّات وخربشات، كما لو أن شيئًا يصارع ليخرج، ليخرجَ ويصل إليَّ!".

لكَ أن تتخيَّل مقدار ذهولي، يا بونز. كالڤن ليس مِن النوع الذي يجمح مع خيالات هيستيرية. بدأ يبدو أنَّ ثمة لغز هَهنا على كل حال – وربما لغز بشع في الواقع.

سألتُه: "وماذا بَعد؟". واصلنا سيرنا على امتداد الردهة، وكان بوسعي أن أرى النور مِن غرفة المكتب ينسكب للأمام على أرضية الجاليري. تأمّلتُه بشيءٍ مِن رجفة الوَجل؛ وهكذا تبددت الراحة التي نعمت بها ليلتي.

"ثُمَّ توقفت ضجة الحك والخربشة. وبعد لحظة عادت مِن جديدة أصوات الارتطام والخبط، لكنها كانت هذه المرة تمضي مبتعدةً عني. توقفت عمَّا أفعل تمامًا، وأقسمُ لك إني سمعتُ ضحكةً غريبة، تكاد لا تُسمَع بالمرة! اتجهت نحو رفِّ المكتبة وبدأتُ أدفع

الكتب بعيدًا وأجذبها عن مواضعها، وفي ظني أنَّه ربما يكون وراءها حاجز ما أو باب سري".

"وهل وجدتَ ذلك؟".

توقَّف كال لدى باب غرفة المكتب. "كلَّا- لكني وجدتُ هذا!".

دخلنا ورأيتُ ثغرةً سوداء مربَّعة في خزانة الكتب على اليسار. ولم تكن الكتب في ذلك الموضع حقيقيَّةً، بل مُجرَّد نماذج زائفة لها شكل الكتب، وما وجده كال هناك كان مَخبأ صغيراً. دفعتُ مصباحي بداخله ولم أرَ شيئًا سوى كومة غليظة من الغبار، غبار لا بدَّ أنَّ عمره عشرات السنين.

"لم يكن هناك إلَّا هذا"، قال لي كال وهو يسلِّمني صفحة ورق كبيرة مصفرَّة. هذا الشيء كان خريطة، مرسومة بخطوط رفيعة ومتشابكة مثل خيط العنكبوت، وبحبرٍ أسود- خريطة بلدة أو قرية. ربما كان مرسومًا فيها سبعة مبانٍ، وبُرج كنيسة واحد مميَّز بوضوح، وبالأسفل يوجد تعليق يقول: الدودة الجالبة للفساد.

في الركن الأعلى يسار الصفحة، في الجزء الذي لا بدَّ أنه جهة الشمال الغربي مِن هذه القرية الصغيرة، رُسمَ سهمُ إشارة، وتحته كتبَ: شابل ويت.

قال كالڤن: "وأنا في البلدة، يا سيدي، ذكر لي أحدُهم بشيءٍ مِن التَّطيُّر تلك القريةَ المهجورة التي تسمَّى أرض چيروسالِم. المكان الذي يتجنَّبه الجميع هنا".

تساءلتُ وأنا أضع إصبعًا على التعليق المكتوب أسفل برج الكنيسة: "ولكن هذا؟".

"لا أدري".

عبَرَت خاطري ذكرى السيدة كلوريس، عنيدة وممتلئة خوفًا رغم ذلك.

غمغمتُ: "الدودة".

"أتعرف شيئًا، يا سيد بوون".

"ربَّما، ربما يكون مِن المثير إلقاء نظرة على هذه البلدة المهجورة غدًا، ألا تعتقد هذا يا كال؟".

أومأ برأسه موافقًا. قضينا ما يقرب من ساعة بعد هذا نبحث عن أي شقٍّ في الجدار خلف الفجوة التي عثر عليها كال، دونما جدوى. كما لم تتكرَّر الضَّجَّة التي وصفها كال. خلد كلٌّ مِنَّا للنوم مكتفين من المغامرات في تلك الليلة.

في الصباح التالي انطلقتُ أنا وكالڤن في جولتنا عبر الغابة. انقطعت أمطار ليلة أمس، لكنَّ السماء كانت رمادية كئيبة وغائمة. لاحظتُ كال يرمقني بنظرة يشوبها الشكُّ، فأسرعتُ أُطَمئِنه بأنني لن أتردد في التوقُّف وإلغاء المَهمَّة إن أحسستُ بالتعب، أو اتَّضح أنَّ الرحلة أشقُّ وأبعد ممَّا يُحتمَل. تزوَّدنا بلُقمة غداء خفيف، وأخذنا معنا بوصلة ممتازة مِن نوع البَكويت، وبالتأكيد تلك الخريطة الغريبة العتيقة لأرض چيروسالِم.

كان يومًا غريبًا شديد السُّكون؛ فَلا سمعنا طيرًا يغرِّد ولا دابَّةً تتحرَّك بينما كُنَّا نشقُّ طريقنا نحو الجنوب والشرق عبرَ أشجار الصنوبر الضخمة والموحشة. لم نسمع إلَّا أصوات أقدامنا والضربات الثابتة لأمواج الأطلنطي على ألسنة اليابسة الممتدة داخل المياه. كانت رائحة البحر هي رفيقنا الذي لا يريم ولا يبتعد، تنبعث قويَّةً وثقيلة بدرجةٍ فائقة.

سِرنـا مـا لا يزيـد عـن ميلـين فقـط عندمـا صادفنـا طريقًـا تـكاد تغطِّيـه النباتـات والأعشـاب، ولعلَّـه كـما أعتقـد كان ذات مـرَّة مـا سِـكَّةً مرصوفـة بجـذوع الأشـجار؛ بـدا هـذا السـبيل مؤدِّيًـا لاتجاهنـا العـام فلزمنـاه وقـد خفَّـف عنَّـا لبعـض الوقـت. لم نتحـدث إلَّا قليـلًا، فـكأنَّ هـذا اليـوم، بسـكونه وشـؤمه، قـد رزح ثقيـلًا عـلى نفسَـيْنا.

في نحـو السـاعة الحاديـة عـشرة سـمعنا صـوت مـاءٍ يندفـع جيَّاشًـا. اتخـذ الجـزء المتبقـي مِـن الطريـق منعطفًـا حـادًّا نحـو اليسـار، وعـلى الجهـة الأخـرى مِـن جَـدولٍ مِالـح صغـير وفـوَّار، لاحـت أرض چيروسـالِم مِثـل طيـفٍ غـير حقيقـي.

ربمـا كان عَـرض الجـدول ثمانيـة أقـدام، يمتـدُّ عـبره جسرٌ صغير للمُشـاة مُغطًّـى بالطَّحالـب. وعـلى الجانـب الآخـر، يـا بونـز، كانـت تنتصـب أمامنـا قريـةٌ صغـيرة آيـة في الكـمال الـذي قـد يصـل إليـه خيالـك، طبعًـا ترَكَـت عوامـلُ الجَـوِّ عليهـا أثرهـا، وهـو أمـرٌ مفهـوم، غـير أنهـا مصونـة ومحفوظـة عـلى نحـوٍ مذهـل. عـدَّةُ بيـوتٍ تنتصـب مُلتمَّـةً معًـا جنبًـا إلى جنـب بالقـرب مِـن الضفـة المجـزوزة بانحـدارٍ وَعـر، شُـيِّدَت عـلى ذلـك الطـراز المتقشـف، والمسـيطِر مـع ذلـك، الـذي اشـتهر بـه البيوريتانيـون عـن جـدارة.

فـيما وراء ذلـك، وعـلى امتـداد شـارع رئيـسي غزتـه الأعشـاب والنباتات غـير المشـذبة، يقـوم ثلاثـة أو أربعة مبـانٍ، لعلَّهـا كانت ذات يوم مؤسَّسـات تجاريـة بدائيـة؛ وخلـف ذلـك، يبـدو الطـرف المدبَّـب لـبرج الكنيسـة المؤشَّرة عـلى الخريطـة، يرتفـع نحـو السـماء الرماديـة ويبـدو كئيبًـا كآبـة تسـتعصي عـلى الوصـف بطلائـه المتقـشر وصليبـه المائـل الباهـت.

قال كال بصوت خفيضٍ مِن جانبي: "اسم هذه البلدة يليق بها".

عبرنـا الجـسر إلى البلـدة، وشرعنـا نخترقهـا مستكشـفين- وهُنـا، يـا بونـز، تأخـذ قصتـي منحًـى عجيبًـا بدرجـةٍ مـا، ولتسـتعدَّ لذلـك!

كأنَّ الهـواء أخـذَ يـرزح بينمـا سِرنـا وسـط المبـاني؛ يتثاقـل إن صـحَّ التعبـير. كانـت البنايـات الشـاهقة في حالـة مِن التفسُّـخ والتَّفـكُّك: مصاريع الأبـواب مخلوعـة، والسـقوف منهـارة تحـت وطـأة الثلـوج الثقيلـة التـي حطَّـت عليهـا مـرارًا، والنوافـذ مُترَبـة وترصـد الخـارج بنظـراتٍ شرَّانيـة مُهـدِّدة. والظـلال تتجمَّـع مِـن أركانٍ غريبـة وزوايـا مائلـة لتحـطَّ معًـا في بِـركٍ مـن سـوادٍ مشـؤوم.

دَخلنـا أولًا حانـةً قديمـة صـارت رميـمًا عَطِنًـا- وعـلى نحـوٍ مـا لم يبـدُ فِعلنـا هـذا صائبًـا، فـلا يصـحُّ أن نقتحـم أيًـا مِـن تلـك الأماكـن التـي يقصدهـا النـاس طَلَبًـا للخصوصيـة. فـوق البـاب متشـقِّقِ الخشـب لافتـةٌ قديمـة صوَّحهـا الطقـس وبَرَاهـا تعلـن أنَّ هـذا المـكان كان نُـزلَ وحانَـةَ رأسِ الخنزيـر. دفعنـا البـابَ المعلَّـق عـلى مِفصلـة واحـدة متبقِّيـة فأطلـق صـوت صريـر جهنمـي، وخطونـا إلى الظـلال في الداخـل. كانـت رائحـةُ العَفـن والعَطـن تتطايـر كالبخـار وطاغيـة لا تُـرَدُّ تقريبًـا. بـل بـدا أنَّ تحتهـا تكمـنُ رائحـة أخـرى أعمـق، رائحـة مُخاطيـة وخبيثـة كالوبـاء السـاري، رائحـة الدهـور والتفسُّـخ لدهـور، مِثـل تلـك النتانـة التـي قـد تنبعـث مِـن الأكفـان المتحلِّلـة أو مِـن القبـور المنبوشـة. وضعـتُ منديـلي عـلى أنفـي وكذلـك فعـل كال. أخذنـا نفحـص المـكان.

قال كال بصوت غير واضح: "ربَّاه، يا سيدي".

فأكملتُ أنا فِكرته: "المكانُ لم يُمَسّ".

وهكـذا كان الأمـرُ حقًّـا. انتصبـت المناضـد والمقاعـد في جنبـات المـكان مثـل أشـباح في نوبـة حراسـة ليليـة، مغـبَّرة ومائلـة بسـبب التغـيُّرات المتطرِّفـة لدرجـة الحـرارة والمعروفـة عـن طقـس نيـو إنجلانـد، وَخَـلا ذلـك فـكلُّ شيء بتمامـه وكمالـه، كـما لـو أنَّ المـكان بأثاثـه قـد ظـلَّ -عـلى مـدى العقـود الصامتـة المتواتـرة- مُنتظـرًا أولئـك الذيـن رحلـوا منـذ أمـدٍ بعيـد، منتظـرًا دخولهـم إليـه مـرةً أخـرى، ليطلـبَ هـذا نصـف لـتر بـيرة أو

يطلب ذاك ثمْنًا، ليلعب بعضهم الكوتشينة ويشعل آخرون غلايينهم المصنوعة مِن الفخَّار. عُلِّقَت على الجدار، إلى جانب لافتة الأسعار والقواعد، مِرآةٌ صغيرة مُربَّعة، وهي غير مكسورة. أترى دلالة هذا الأمر، يا بونز؟ إن الصبية الصغار معروفون بوَلعهم بالاستكشاف وتخريب الممتلكات والتعدِّي عليها؛ لا يُوجد منزل "مسكون" بالأشباح يبقى هكذا قائمًا بنوافذ سليمة، مَهما تردَّدت الشائعات بأنَّ في داخله شرًّا عظيمًا مُفزِعًا؛ ولا توجد مقبرة غامضة إلَّا وفيها شاهدة قبر واحدة على الأقل قَلَبها العابثون الصغار. ولا شكَّ أن هناك حفنة من هؤلاء العابثين الصغار في بلدة بريشرز كورنرز، التي لا تبعد أكثر مِن ميلين عن أرض چيروسالِم. ورغم ذلك فإنَّ زجاج هذه الحانة (ولا بدَّ أنه كان قد كلَّف مالكها مبلغًا لا بأس به) كان سليمًا تمامًا؛ شأنه شأن كل الأغراض القابلة للكسر التي وجدناها هناك في تطفُّلنا على المكان. الأضرار الوحيدة التي لحقت بأرض چيروسالِم أوقَعَتها بها أيدي الطبيعة المحايدة. والمعنى المضمر في هذا واضح:

إنَّ أرض چيروسالِم بلدة منبوذة، أصبحَ الجميع يتجنَّبونها. لكن لماذا؟ عندي فكرة أوَّليَّة عن السبب، لكن قبل أن أتجاسر على مُجرَّد التلميح به، عليَّ أن أكملَ لأصل إلى الخاتمة المثيرة المقلقة لزيارتنا تلك.

صعدنا إلى غرف النوم ووجدنا الأسِرَّة مرتَّبة ومفروشة، وقد وُضِعت إلى جانبها أباريق مياه مِن القصدير، بأناقة. وعلى الغرار نفسه كان المطبخ سليمًا لَم يَمسَّه سوى غبار السِّنين وتلك الرائحة الرهيبة الغائرة لنَتَن التفسُّخ. لا بدَّ أنَّ هذه الحانة وحدها ستكون لُقيا ثمينة لأي مُحبٍّ للآثار وخبير بالعاديات العتيقة؛ فَموقد المطبخ -الغريب بصورة مُعجِزَة- وحده يمكنه أن يجلب ثمنًا طيبًا في مزاد بوسطُن.

"ما رأيك، يا كال؟"، سألتُه عندما خرجنا مُجدَّدًا إلى الضوء الكابي لهذا اليوم.

أجابني بنبرة تفيض غمًّا: "رأيي أنَّ ثمة أمرًا سيِّئًا، يا سيد بوون، وأنَّ علينا أن نرى المزيد لكي نعرف المزيد".

مررنا بالمتاجر الأخرى فألقينا عليها نظرة سريعة غير مُدقِّقة- وجدنا نُزلًا للراحة وهناك بضائع جلدية معلَّقة وقد تعفَّنَت على مسامير مسطَّحة صدئة، ومحل بقالة، ومستودَع بداخله أكوام خشب السنديان والصنوبر كما هي، وورشة حِدادة.

دخلنا منزلين بينما كُنَّا نسير صوب الكنيسة في مركز القرية. كلا المنزلين كان نموذجيًّا على الطراز البيوريتاني، وكلاهما امتلأ بالأغراض التي قد يدفع جامِعُ تُحَف أيَّ شيءٍ مقابل الحصول عليها، وكلاهما مهجور وتسوده الرائحة العفنة ذاتها.

لم يبدُ أن هناك أي كائن يعيش أو يتحرَّك وسط هذا كله سوانا، فَما رأينا حشرات ولا طيورًا، ولا حتَّى بيت عنكبوت منسوجًا في رُكن إحدى النوافذ. لا شيء غير الغبار.

بَلَغنا الكنيسة أخيرًا، وقد بدت عاليةً مِن فوقنا، جهمةً وباردة وغير مُرحِّبة. كانت نوافذها سوداء بالظلال التي في الداخل، وقد بارَحَها كلُّ ما هو مقدَّس أو إلهيٌّ منذ أمد بعيد. وقد كنتُ على ثقةٍ مِن ذلك. صعدنا الدَّرَج الخارجي، ووضعتُ يدي على المقبض الحديدي الكبير. حانت مني التفاتة بنظرةٍ مظلمة جامدة نحو كالڤن فردَّ لي النظرة ذاتها مجدَّدًا. فتحتُ البوَّابة. متى كانت آخِر مرَّة لمسَ فيها شخصٌ هذا الباب؟ سأجيب بكل ثقة إنَّ يدي كانت أوَّل يد تلمسه منذ خمسين سنة؛ وربما أكثر. كانت مفصلات الباب صدئة لدرجة تعيقها عن الحركة، فأصدرت صريرًا عندما فتحتُه. كانت رائحة العطن والتفسُّخ، التي داهمتنا ولطمتنا بغتةً، تكاد تُلمَس في

الهواء مِن فرط كثافتها. صدرَ مِن حلق كال صوتُ اشمئزاز كأنه على وشك أن يستفرغ أمعاءه، وأدارَ رأسه بحركة لا إراديَّة بحثًا عن هواء أنقى.

سألني: "سيِّدي، هل أنت واثقٌ مِن أنك...".

فقلتُ بهدوء: "إنني بخير". لكنني لم أكن أشعر بأي خيرٍ ولا بأي هدوء، يا بونز، ليس أهدأ ممَّا قد أكون الآن، إنني أومنُ كَما آمنَ موسى، أو يربعام بن نباط صانع العِجل الذهبي، أو إنكريز ماثر[1] حارق الساحرات، أو صديقنا هانسُن (فقط إن كان في مزاجٍ فلسفيٍّ)، بأنَّ هناك أماكن مؤذية روحيًّا كأنها مسمومة، مبانٍ فسدَ فيها حليبُ الكون وصارَ حامضًا زَنِخًا. وأقسمُ أنَّ هذه الكنيسة مِن بين تلك الأماكن.

ولجنا رواقًا طويلًا مزوَّدًا بمشجب مُترَب لتعليق المعاطف وكتب تراتيل مرصوصة على أرفف. كان بلا نوافذ، وثمَّة قناديل زيتية موضوعة داخل مِشكاوات هُنا وهناك. فكَّرتُ أنها غرفة عادية، إلى أن سمعت شهقةً حادَّةً أطلقها كالڤن ورأيت ما انتبه له مِن قبلي.

كان تدنيسًا تامًّا.

لا أجرؤ على وصف تلك الصورة ذات الإطار المتقن بأكثر مِن هذا: أنها كانت مُنفَّذة على نفس طراز لوحات الرسَّام الهولندي روبنز ذات الأجساد اللحيمة العارية؛ وأنها احتوت تقليدًا ساخرًا للعذراء والطفل، لكنه تقليدٌ يتَّسِم ببشاعَة وغرابة "الجروتسك"؛ مع وجود

---

(1) Increase Mather: رجل دين بيوريتاني واسع النفوذ، عاش ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكان رئيسًا لجامعة هارڤارد لعشرين عامًا، وكان مسؤولًا في مستعمرة خليج ماساتشوستس الإنجليزية على الساحل الشرقي لأمريكا الشَمالية خلال الفترة التي شهدت محاكمة ساحرات سالِم سيئة السُمعة، ما بين فبراير 1692 ومايو 1693، وأسفرت عن إعدام عشرين شخصًا -أكثرهم مِن النساء- وإدانة الكثيرين.

تلك المخلوقات الغريبة التي تكسوها الظلال تمزح وتلهو وهي تَنسَلُّ مُتسلِّلةً في خلفية اللوحة.

همستُ: "ربَّاه".

فقال كال: "لا وجودَ للربِّ هنا"، وبدا كأنَّ كلماته ظلَّت مُعلَّقةً في الهواء. فتحتُ الباب المؤدِّي إلى الكنيسة نفسها، فأصبَحَت الرائحة الكريهة وبالًا وبائيًّا، طاغيةً بحيث لا سبيل لمقاومتها تقريبًا.

لم يكن إلَّا نصف ضوء للأصيل يومض واهنًا، وفيه رأينا صفوف مقاعد الكنيسة الخشبية تصطفُّ كالأشباح، ممتدَّة صوب المذبح. ومن فوقها بالأعلى المنبر المرتفع من خشب البلوط، والمجاز المؤدِّي إلى صحن الكنيسة، وقد استولت عليه الظلالُ، ورغم ذلك يلمع فيه شيءٌ ذهبي.

بصوت جهشة ثقيلة -أسرع كالڤن وهو البروتستاني الوَرِع- برسم إشارة الصليب، فحَذَوتُ حَذوَه؛ فقد كان الشيء الذهبي صليبًا ضخمًا جميل الصُّنع ومُتقَن الزخارف، غير أنه عُلِّق مقلوبًا رأسًا على عقب، وهو رمز معروفٌ للقدَّاس الأسود المكرَّس للشيطان.

"علينا بالهدوء والثبات"، هكذا سمعتُ نفسي أقول. "الهدوء والثبات، يا كالڤن. علينا بالهدوء والثبات".

لكنَّ ظِلًّا ما قد مسَّ قلبي، وانتابني خوفٌ لم أشعر بمثله مِن قبل. لقد سبقَ أن مشيتُ لبعض الوقت تحت مظلَّة الموت وظَنَنتُ آنذاك ألَّا شيء أشدَّ ظلامًا من تلك التجربة، لكن هناك ما هو أشدُّ ظلامًا. هناك ظلامٌ أبلغ وأشدُّ حقًّا.

سِرنا بامتداد الممرِّ الضيق بين جناحَيْ المقاعد الخشبية الطويلة، كان وَقعُ أقدامنا يَصدُر عنه صدى فوقنا وحولنا، وخلَّفت خطواتنا آثارًا في الغبار. ولدى المذبح كانت تُوجد أعمال فنية -إن صحَّ التعبير-

أخرى ليست أقلَّ إظلامًا وإبهامًا وشناعة. لن أترك عقلي يستعيدها ويفكِّر فيها الآن، لا أريد هذا ولا أقدر عليه.

بدأت أعتلي المنبر نفسه.

صاحَ كال فجأة: "لا تصعد يا سيد بوون، أخشى أن...".

لكني كنتُ قد صعدتُ، وأمسكتُ به؛ كتابٌ ضخم كان موضوعًا ومفتوحًا على حامِل الكُتب، كان مكتوبًا بكلٍّ من اللاتينية وحروف رونية صعبة القراءة، بدت لعينيَّ غير المدرَّبَتيْن إمَّا أنها تنتمي لكتابة الدرويد، أو لحقبة ما بعد السِّلتيين[1]. لقد أرفقتُ رسالتي لك هذه ببطاقة فيها عدَّة من رموز تلك الكتابة، أعدتُ رسمها مِن الذاكرة.

أغلقتُ الكتاب ونظرت إلى الكلمات المنقوشة على غلافه الجلدي: De Vermis Mystenis. لغتي اللاتينية كساها الصدأ، ولكنها أسعفتني بما يكفي لأن أترجم: خَفَايا الدودة.

عندما لمستُه بدت الأشياء كأنها تسبح أمامَ عينيَّ في الهواء: تلك الكنيسة الملعونة، وكذلك وجه كالڤن الشاحب المضطرب. كما ظننتُ أنني سمعتُ أصوات إنشادٍ خفيض، أصواتٍ مُترعة ببُغض شنيع، وأيضًا بخَوفٍ مندفع ملهوف- وتحت الإنشاد ذلك كان ثمَّة صوت آخر كأنه يملأ جوف الأرض. أتلك كانت هلاوس مِن صُنع خيالي،

---

(1) Runes: الرُّونية مجموعة من الحروف الأبجدية استُخدِمَت في كتابة لغات جرمانية مختلفة قبل اعتماد الأبجدية اللاتينية، ومن بعد ذلك اقتصر استخدامها على أغراض متخصِّصة. أبكر المخطوطات المكتوبة بهذه الأبجدية والتي تم اكتشافها تعود إلى 150 بعد الميلاد. والدرويد (Druidic) كَهَنة وأحبار الشعوب السِّلتية ورجال الطِّبِّ فيها، بخاصة في بلاد الغال وبريطانيا، وكانوا يمارسون التطبيب بالأعشاب، وسيطروا على العقول بشعائرهم الدينية التي تقوم على عبادة الشمس، واعتُبِروا مِن بين السَّحَرة الأشرار بعد ظهور المسيحية وانتشارها. حُقبة ما قبل السِّلتية هي عصور ما قبل التاريخ في وسط وغرب أوروبا قبل توسُّع السِّلتيين في أوروبا والأناضول خلال العصر الحديدي، ما بين القرن التاسع والسادس قبل الميلاد.

لا أظـنُّ! لكـن في اللحظـة ذاتهـا، كانـت الكنيسـة كلهـا تمتلـئ بصـوتٍ حقيقـيٍّ للغايـة، لا يسـعني وصفـه إلَّا بأنـه صـوت تقلُّـب وجَيشـان ضخـم ورهيـب تحـت قدمـيَّ. كان المنـبر يرتعـد تحـت أصابعـي، والصليـب الـذي نالتـه الإسـاءة والأذى كان هـو أيضًـا يرتجـف عـلى الجـدار.

خرجنـا أنـا وكال مِـن هنـاك معًـا، تاركـين ذلـك المـكان لظلامـه، ولم يجـرؤ أيٌّ منَّـا حتَّـى عـلى النظـر للخلـف حتَّـى عبرنـا ذلـك الجسـر البسـيط الخشـن مِـن ألـواح الخشـب، والممتـد فـوق جـدول المـاء. لـن أقـول إننـا ركضنـا فَلوَّثنـا بذلـك حـوالي ألـف وتسـعمائة سـنة قضاهـا الإنسـان في الارتقـاء والصعـود بعـد القُرفصـاء والزحـف والإيمـان البـدائي بالخرافـات؛ ومـع ذلـك فسـوف أكـون كاذبًـا إن قلـتُ إننـا كنَّـا نمـشي الهُوينـا.

تلـك هـي حكايتـي. لا تخـشَ مِـن أن الحُمَّـى قـد اسـتولت عـليَّ مـن جديـد فتطيـل أمـدَ تعافيـك بالقلـق عـليَّ؛ لأنَّ كال كان معـي وهـو شـاهدٌ عـلى جميـع مـا وَرَدَ في تلـك الصفحـات، وصـولًا إلى -وبمـا في ذلـك- تلـك الضَّجَّـة الشـنيعة.

أُنهـي رسـالتي لـك الآن، قائـلًا إننـي أتمنَّـى لـو كان بوسـعي أن أراك (متأكِّـدًا مِـن أن قـدرًا هائـلًا مِـن حـيرتي سـوف يسـقط عـن كاهـلي في الحـال عندئـذٍ)، وأننـي مـا زلـتُ عـلى صداقتـي لـك وإعجـابي بشـخصك.

تشارلز

***

17 أكتوبر 1850

السَّادة الأعِزَّاء:

في النسخة الأحدث مِن كاتالوج منتجاتكم للأغراض المنزلية (تحديدًا، نسخة صيف عام 1850)، لاحظتُ مستحضرًا اسمه "سُمُّ فئران". أودُّ أن أشتري مِن هذا المُستحضَر عددَ علبة واحدة من وزن خمسة أرطال، بالسِّعر الذي أعلنتم عنه، وهو ثلاثون سنتًا (30. $). مُرفَق هنا طابع ومظروف للرَّدِّ على رسالتي، أرجو إرسال الطلب إلى: كالڤن مَاكان، شابل ويت، بريشرز كورنرز، مقاطعة كمبرلاند، ولاية مين.

شكرًا جزيلًا على عنايتكم بهذا الشأن.

تفضَّلوا بقبول وافر الاحترام أيُّها السادة

كالڤن ماكان

***

19 أكتوبر 1850

عزيزي بونز،

تطوُّرات مثيرة للقلق.

الضَّجَّة التي تصدر مِن جدران المنزل قد اشتدَّت، وقد بدأتُ أصبح أكثر ميلًا للاستنتاج بأنَّ ما يتحرَّك في داخل تلك الجدران ليس فئرانًا على الإطلاق. أجريتُ أنا وكالڤن عملية تفتيش أخرى لا طائل من ورائها؛ بحثًا عن أي شقوق أو ممرَّات خفية، لكننا لم نعثر على شيء. بمثل هذا الأداء لن نستطيع أبدًا أن نكون جزءًا مِن إحدى

روايات السيدة رادكليف![1] على كلٍّ، زعمَ كال أنَّ أغلب تلك الأصوات تنبعث مِن القبو، وهناك ستجري عملية استكشافنا غدًا. إنني أعرف أن شقيقة قريبي ستيڤن قد لقيت نهايتها المؤسفة هنالك في القبو، وهو ما يزيد هذا الأمر صعوبة.

وعلى ذكر هذه الفتاة، فإنَّ صورتها مُعلَّقة في جاليري الصور العائلية بالطابق العلوي. وإذا كان الرسَّام قد نقل ملامحها كما ينبغي، فقد كانت مارسيلا بوون كائنًا جميلًا بدرجةٍ تثير الأسى، وإني أعلمُ أنها لم تتزوَّج قَطُّ. تَمرُّ بي لحظات أظنُّ خلالها أنَّ السيدة كلوريس على حقٍّ، وأنَّ هذا المنزل سيِّئ حقًّا. وأنه لم يقدم لسكَّانه السابقين غير الكآبة والمصائر المظلمة.

لكن عندي لك المزيد حول السيدة كلوريس ذات الهَيبة، بما أنني كانت لي معها اليوم مقابلة ثانية. لمَّا كانت هي الشخص الأشد ثباتًا ورباطة جأش من بين جميع مَن قابلتُ في بلدة كورنرز؛ فقد سعيتُ للقائها أصيل يومنا هذا، بعد لقاء غير مُستَحَبٍّ سوف أحكي لك عنه الآن.

كان مِن المُفترض أن يصل الخشب إلى المنزل هذا الصباح، وعندما انتصف النهار وتجاوز الوقت الثانية عشرة ظهرًا ولم يظهر معه أي خشب لدى الباب؛ قررتُ أن أجعل نزهة تمشيتي اليومية باتجاه البلدة نفسها. كان هدفي زيارة ثومبسُن، الرجل الذي اتَّفق معه كال على توريد ما نحتاجه.

---

(1) Mrs Radcliffe: هي آن وارد رادكليف (1764 - 1823)، كاتبة إنجليزية ورائدة من روَّاد الروايات القوطية، وتميَّزَت أعمال بعرض عناصر ما وراء الطبيعة، واتبع أسلوبها الكثيرون غيرها، وكانت من أكثر الكتَّاب شعبيَّةً في زمانها، وامتدَّت شعبيتها حتَّى القرن التاسع عشر، وأطلق عليها بعض النقاد "شكسبير الروايات الرومانسية".

بقـي كال في المنـزل لمزيـد مـن الفحـص والاستكشـاف في مكتبـة عمـي ستيڤن، وقـد زوَّدَني بوصـف دقيـق للاتجاهـات. كان يومًـا جميـلًا، حافـلًا بهبَّـات سريعـةٍ منعشـة مـن الخريـف المـشرق الرائـق، وعندمـا بلغـت منـزل وأرض آل ثومبسُـن، شـعرتُ بأنـني في أفضـل مـزاج عشـتُه خـلال تلك الأيـام القليلـة الماضيـة، وكنـتُ عـلى أتـمِّ الاسـتعداد لأن أغفـر لثومبسُـن تأخُّـرَه في تسـليم الخشـب.

كان المـكانُ مسـاحةَ مـن أعشـاب متشـابكة ناميـة كيفـما اتفـق، ومبـانٍ متهدِّمـة بحاجـةٍ ماسَّـة إلى طـلاء؛ عـن يسـار مخـزن الحبـوب خنزيـرة ضخمـة، جاهـزة للذبـح في نوڤمبر، كانـت تنخـر وتتمـرَّغ في زريبـة موحلة، وفي باحـة لا تخلـو مِـن قمامـةٍ بـين المنـزل الرئيـسي والمبـاني الخارجيـة وجـدتُ امـرأةً مُرتديـة ثوبًـا باليًـا مِـن نسـيج جينجهـام ذي المربَّعـات الصغـيرة، وكانـت تُطعـمُ الدجـاجَ مـن حِجْـر مريولهـا المطـوي. عندمـا ناديـتُ لأنبِّهَهـا، نظَـرَت إليَّ بوجـه شـحب لونـه وتبلَّـدت قسـماته.

الحقيقـة كان مِـن الرائـع أن يشـهدَ المـرءُ هـذا التبـدُّل المفاجـئ في تعبـير وجههـا مِـن الخـواء المطبـق والبلاهـة التامَّـة إلى رُعـب مسـعور. مـا كان بوسـعي إلَّا أن أعتقـد أنهـا خلطـت بينـي وبـين سـتيڤن نفسـه؛ وذلـك لأنهـا صرخـت ورفعـت يدهـا وعقفـت بعـض أصابعهـا في إشـارة الحمايـة مـن شَرِّ الأرواح والأشـباح ومـا شـابه. تناثـر طعـام الدجـاج مـن مريلتهـا عـلى الأرض هنـا وهنـاك، أمَّـا الدواجـن نفسـها فتفرَّقَـت مبتعـدةً وهـي تقوقـئ بصـوتٍ كالـصراخ.

وقبـلَ أن أتمكَّـن مـن التلفُّـظ ولـو بصـوتٍ واحـد، ظهَـرَت هيئـةٌ ضخمـة لرجـلٍ مَكسـوٍّ بطَقـم داخـلي شـتوي طويـل الأكـمام والـسروال، يخـرج بخُطًـى مُتثاقِلَـة مـن المنزل وفي إحـدى يديـه بندقيـة صغـيرة الفوَّهـة، وفي اليـد الأخـرى إبريـق. ومـن الضـوء الأحمـر في عينيـه وحركـة سَـيرِه غـير المتَّزِنـة، خمَّنـت بـأنَّ هـذا كان هـو نفسـه ثومبسُـن الحطَّـاب.

زأر قائلًا: "أنتَ واحد من آل بوون! مَلْوونة عيناك هذه![1]" وأسقطَ الإبريق فأخذ يتدحرج وصنعَ هو أيضًا بأصابعه شارةَ الحماية من الشر.

قلتُ بأكبر قدرٍ مُمكِن من الاتِّزان والرصانة في ظلِّ الظروف المحيطة: "لقد أتيتُ لأنَّ الخشب لم يأتِ. وحسب الاتفاق الذي التزمتَ به مع رَجلي...".

"ومَلْوون أبو رَجُلك هو الآخَر، أقول لك!". ولأول مرة لاحظتُ أنَّه -في حقيقة الأمر، وخلف كل فظاظته ووعيده- كان خائفًا. وقد بدأت أتساءل بجدٍّ ما إذا كان قد يستعمل البندقية ضدي حقًّا في خِضَمِّ انفعاله هذا.

بدأتُ أقول بحرص: "من باب الذوق لا أكثر، ربما تبعدَ هذه...".

"ومَلْوون أبو ذوقك يا أخي!".

فقلتُ بأكبر قدر استطعت استجماعه من الكبرياء والكرامة: "جيد جدًّا، إذًا، أتمنَّى لكَ يومًا طيبًا، وحتَّى نلتقي وتكون أكثر سيطرة على نفسك". وبقولي هذا استَدَرتُ وابتعدت سائرًا على طول الطريق نحو القرية.

"لا أريد أن أراكَ هنا مرَّةً ثانية!" زعق الرجل من خلفي. "خلِّيك في عِش الشَّر فوق هناك! ملعون! ملعون! ملعون!"، ورجمني بحجر فأصاب كتفي. لم أتفادَ حجره لِئلًّا يمنحه هذا بعض الرضا.

وعلى هذا انطلقتُ ملتمسًا السيدة كلوريس، عاقدًا العزم على أن أعرفَ على الأقل سرَّ العداوة والبغضاء مِن جانب ثومبسُن نحوي. إنَّها أرملة (كلَّا، ليست إحدى ترشيحاتك المذهلة لتزويجي، يا بونز؛

(1) المقصود "ملعونة عيناك"، ينطقها -وكلمات أخرى- مُقطَّعة الحروف؛ إمَّا لفرط سُكْرِه، وإمَّا أن تكون هذه هي طريقته في الكلام.

فهي أكبر مني بنحو خمسة عشر عامًا على أقل تقدير، وأنا تجاوَزتُ الأربعين) وتعيشُ بمفردها في بيت ريفي متواضِع، لكنه ساحر، يكاد المحيط يبلغُ عتبة بابه. وجدتُ السيدة تنشر غسيلها، وبدا عليها سرور صادق برؤيتي، وهو ما وجدتُ فيه راحةً كبرى؛ فأن يُطرَد المرء بعيدًا كأنه موصوم ومنبوذ، ولغير ما سببٍ مفهوم، هو أذى يفوق قدرة الكلمات على الوصف.

قالت: "سيد بوون"، وهي تقدِّم نصف إيماءة احترام. "إن كنتَ آتٍ لأجل غسيلٍ لديك فأنا لا آخذ غسيلًا منذ مطلع سبتمبر. آلام الروماتيزم تكون شديدة عليَّ جدًّا بحيث يكون في غسيلي الخاص مشقَّة كافية".

"ليتَ الغسيل كان سببَ زيارتي لكِ. لقد أتيتُ طلبًا لمساعدتكِ، يا سيدة كلوريس. لا بدَّ أن أعرف كلَّ ما يمكنكِ إخباري به عن شابل ويت وبلدة أرض چيروسالِم، وعن سبب تعامُل أهل البلد هنا لي بكل هذا القدر مِن الخوف والريبة!".

"أرض چيروسالِم! إنك تعرف ذلك الأمر إذًا".

أجبتُها: "نَعم، لقد زرتُ المكان مع مُرافقي منذ أسبوع".

صاحت: "ربَّاه!"، وصار وجهها شاحبًا كالحليب، وترنحَّت قليلًا فمَدَدتُ يدًا لأسندها. دارت حدقتاها في محجريهما على نحوٍ رهيب، وللحظة كنتُ واثقًا مِن أنها سيُغشَى عليها.

"سيدة كلوريس، آسف إذا كنتُ قد قلتُ أي شيء قد...".

فقالت: "تعالَ للداخل، لا بدَّ أن تعرف. يا يسوع الطيب، لقد عادت أيام الشر من جديد!".

لم تَقُل أكثر من ذلك حتَّى أعدَّت لنا شايًا قويًّا في مطبخها المُشمس. عندما صارَت أقداحُ الشاي بين أيدينا، تطلَّعت للخارج

لبعض الوقت نحو المحيط بنظرة المهموم. ورغمًا عنًا، كانت عيناها وعيناي تنجذب نحو تلك الحافة الناتئة مِن رأس منزل الشابل ويت، حيث كان المنزل يشرفُ على المياه. النافذة الكبيرة البارزة خارج الجدار قليلًا كان زجاجها يلتمع بأشعة شمس الغروب، فَبدا مثل قطعةٍ مِن الماس. كان المنظر جميلًا، ولكنه أيضًا مثيرٌ للقلق بشكل لا تفسير له. التفتت السيدة نحوي فجأة وأعلنت بحَمية متَّقِدة:

"عليك أن ترحل عن شابل ويت فورًا، يا سيد بوون!".

أذهلني قولها.

"لقد ظلَّت تُخيِّم على الأجواء سحابةُ شَرٍّ منذ أن اتَّخَذتَ مسكنَكَ هُنا. في الأسبوع الماضي -منذ أن وضعتَ قدمكَ في ذلك المكان الملعون- ظهرت بعضُ النُّذُر وعلامات الشؤم. غشاء يغلِّف وجهَ القمر؛ أسرابٌ مِن طيور الليل[1] تجثم وتُعشِّش في المدافن؛ وحالة ولادة غير طبيعية. عليك أن ترحل!".

عندما انفكَّت عُقدة لساني أخيرًا، تحدَّثتُ بأرفق نبرة في استطاعتي. "سيدة كلوريس، تلك الأمور ليست سوى أوهام. ولا بدَّ أنكِ تعلمين ذلك".

"أهو وَهمٌ أن تلدَ باربارا براون طفلًا بلا عينين؟ أم هو وَهمٌ أن يجد كليفتُن بروكيت خلفَ عِزبتك سبيلًا سالكًا في قلب الغابة، مضغوطًا ومستويًا وسط العشب، بِسِعة خمسة أقدام، حيث كل شيء عليه قد ذبل وابيضَّ؟ وأنت نفسك، وقد زرتَ أرض چيروسالِم، أيمكنك القول صادقًا إنَّه ما مِن شيء لا يزال يسكن المكان؟".

---

(1) Whippoorwills: طائرٌ ليلي أو شفقي متوسِّط الحجم، له أجنحة طويلة وأرجل قصيرة ومناقير قصيرة للغاية، ويُطلَق على بعض أنواعه في أمريكا اسم صقر الليل، وهو من فصيلة السُّبد أو الضُّوع (الاسم العلمي Caprimulgidae).

لم أستطع الإجابة؛ فقد وثبَ أمام عينيَّ ما حدث في تلك الكنيسة الشنيعة.

شبكَت السيدة أصابع يديها المغضَّنة ذات العُقَد في جَهدٍ واضح لكي تهدِّئ من رَوع نفسها. "سمعتُ بتلك الأمور مِن أمي ومِن أمِّها قَبلها. أتعرف أنتَ تاريخ عائلتك في ما يتعلَّق بعزبة الشابل ويت؟".

قلتُ: "معرفة بسيطة، كان المنزل مَسْكنًا لنسل فيليب بوون، تقريبًا منذ العام 1870؛ وكان شقيقه روبرت، وهو جدي الأكبر، يقيم في ماساتشوستس بعد خلافٍ وقعَ بينهما حول وثائق مسروقة. لا أعلم الكثير عن جانب فيليب من العائلة، باستثناء ظِلال التَّعاسة التي سقطت عليهم، وأخذت تمتدُّ وتنتقل من الأب إلى الابن إلى الأحفاد- لقد ماتت مارسيلا في حادث مأساوي وسقط ستيڤن فَلقي مصرعه. كانت رغبته أن تصبح الشابل ويت مسكنًا لي وأن تؤول ملكيتها إليَّ، وأن يلتئم هكذا الانشقاق بين فرعيّ العائلة".

همَسَت: "لن يلتئم شيءٌ أبدًا، ألا تعلم أي شيء عن النزاع القديم؟".

"قيل إن روبرت بوون ضُبطَ وهو يختلس أشياءَ مِن مكتب أخيه".

قالت: "فيليب بوون كان مخبولًا، رجلًا يتاجر ويُهرِّب كل ما يُدنِّس العقيدة. كان الشيء الذي حاول روبرت بوون أن ينتزعه ويزيل شَرَّه آنجيلًا وثنيًّا كله تجديف، مكتوبًا بألسنة قديمة، لغات مثل اللاتينية والدرويدية وغيرها. كتاب من الجحيم".

"خَفَايا الدودة".

ارتدَّت للوراء كما لو لطمها شيء. "أتعلم بهذا؟".

"لقد رأيتُه. ولمستُه". مرَّةً أخرى بدا عليها أنها قد يُغشَى عليها وتفقد الوعي. امتدَّت إحدى يديها نحو فمها كما لو لتكبت صرخة

عاليـة قـد تغلبهـا. "نَعـم، في أرض چيروسـالِم. عـلى منـبر كنيسـةٍ تعفَّنـت وتدنسَّــت".

"لا يـزال يسـكن المـكان، إذًا. لا يـزال يسـكن هنـاك". اهتـزَّ جسـمها في مقعدهـا. "لكـم تمنَّيـتُ أن يكـون الـرب بحكمتـه قـد ألقـى بـه إلى هاويـة الجحيـم".

"ما الذي يربط فيليب بوون بقرية أرض چيروسالِم؟".

قالــت الســيدة في تَجهُّــم قاتــم: "رابطــة الــدم، لقــد تركــت الدابَّــةُ وَســمَهَا عليــه، رغــم أنــه دخــلَ إلى هنــاك في ثــوب الحَمَــل الوديــع. وفي ليلـة 31 أكتوبـر عـام 1789 اختفـى فيليـب بـوون كأن لم يكـن، واختفـى معـه جميـع سـكَّان تلـك القريـة الملعونـة بكاملهـم".

لم تَقُـل إلَّا القليـل خـلا ذلـك، والحقيقـة أنهـا بـدت لا تعـرف إلَّا القليـل خـلا ذلـك. مـا كان منهـا إلَّا أن تعـاود ترديـد توسُّـلاتها لي بـأن أرحـل، مُـبرِّرةً ذلـك بأقـوال مثـل "الـدم ينـادي الـدم"، وغمغمـة حـول "هـؤلاء الذيـن يراقبـون، وهـؤلاء الذيـن يحرسـون". فيـما أخـذ الغسـق يحـلُّ بـدا أن توتُّرَهـا يتزايـد ولا يهـدأ، ولـكي أهـدِّئ مِـن رَوعهـا وعدتُهـا بأنَّنـي سـوف أفكِّـر جدِّيًّـا في مـا طلبتـه منـي.

سرتُ عائـدًا إلى البيـت خـلال ظـلالٍ كئيبـة متطاولـة، وقـد تبـدَّد مزاجي الطيِّـب تمامًـا وأخـذ رأسي يـدور بأسـئلة لا تـزال تجتاحنـي. اسـتقبلني كال بالأخبـار الجديـدة؛ الضجـة التـي تصـدر عـن الجـدران ازدادت سـوءًا- وهـو مـا يمكننـي أن أشـهد عليـه في هـذه اللحظـة ذاتهـا. إننـي أحـاول أن أقـول لنفـسي إنَّ مـا أسـمعه ليـس سـوى الفـئران، لكنـي أرى بعـين خيـالي وجـه السـيد كلوريـس المتجهِّـم المذعـور.

صعـدَ القمـر فـوق البحـر، بـدرًا كامـلًا ممتلئًـا، وملوَّنًـا بلـون الـدم، مُلقيًـا بظـلٍّ خبيـث عـلى المحيـط. عـادَ عقـلي إلى تلـك الكنيسـة مـن

جديـد و(هُنـا سَـطر مشـطوب عليـه) لكـن يجـب ألَّا تـرى ذلـك، يـا بونـز. هــذا جنــون يفــوق كلَّ حَــدٍّ. لقــد حــان وقــت نومــي، عــلى مــا أظــنُّ.

قلبي معك يا عزيزي

تحياتي

تشارلز

***

(التــالي مأخــوذٌ مــن دفــتر بحجــم الجيــب خــاص بتدويــن يوميــات كالڤــن مــاكان).

20 أكتوبر 1850

هــذا الصبـاح سـمحتُ لنفـسي بـأن أكـسر القفـل الـذي يضـمُّ صفحـات الدفـتر المغلـق؛ فعلـت ذلـك قبـل أن يظهـر السـيد بـوون. لا فائـدة في ذلـك؛ كان كلُّـه مكتوبًـا بالشـفرة. شَـفرة بسـيطة، عـلى مـا أعتقـد. ربمـا يمكننـي أن أفكَّهـا بنفـس سـهولة كـسر القفـل. إنهـا يوميَّـاتٌ، وإني عـلى ثقـة مِـن أنَّ خـطَّ الكتابـة يشـبه خـطَّ السـيد بـوون على نحـوٍ عجيـب. مَن هـذا الـذي وضـعَ دفـتر يومياتـه في أبعـد ركـن لهـذه المكتبـة، بـل وأغلـقَ الصفحـات بقفـل كذلـك؟ يبـدو قديمًـا، ولكـن كيـف يمكـن أن نتأكَّـد؟ لم يؤثِّـر الهـواء الفاسـد للجـو المغلـق عـلى صفحاتـه بدرجـة كبـيرة. خـلال هـذا اليـوم، إذا سـنحَ الوقـت؛ السـيد بـوون عاقـد العـزم عـلى استكشـاف القبـو. أخـشى أن تلـك الأشـياء والأحـداث الرهيبـة سـوف تُثقـل عليـه بمـا لا تحتمـل صِحَّتُـه التـي لم تسـتقرَّ تمامًـا بَعـدُ. لا بـدَّ أن أحـاول إقناعـه بـألَّا- لكـن هَـا هـو يـأتي.

***

20 أكتوبر 1850

بونز

لا أستطيع الكتابة، لا أتَّطيع [هكذا في الأصل] أكتب عن هذا الآن!

***

(من دفتر يوميات كالڤن ماكان)

20 أكتوبر 1850

وقعَ ما كنتُ أخشاه، انهارت صحته- يا ربنا، يا أبانا الذي في السماء!

لا يمكنني احتمال التفكير في ذلك الرُّعب الذي شهدناه في القبو! ومع ذلك فقد زُرعَ فيَّ، بل انطبعَ عميقًا بداخلي مثل صورة حُفرَت في عقلي.

أنا الآن بمفردي؛ الساعة الثامنة والنصف؛ والبيت يسوده السكون- وقد وجدته مُغشًى عليه فوق منضدة كتابته؛ لا يزال نائمًا؛ ومع ذلك فَما كان أنبله وأشجعه حين استطاع أن يُحرِّر نفسه بينما وقفتُ أنا مُتجمِّدًا ومُحطَّمًا!

بشرته مِثل الشَّمع، باردة. الشُّكر للرب، لم تعاوده الحُمَّى مِن جديد. لم أجرؤ على أن أحرِّكه من موضعه أو أن أتركه وأذهب إلى القرية. وحتَّى إذا تركته وذهبت، فمَن ذا الذي قد يرجع معي لمساعدته؟ مَن ذا الذي قد يأتي إلى هذا المنزل الملعون؟

ويحي، إنه القبو! وتلك الأشياء التي فيه هي التي سكنت البيت واحتلَّت ما وراء حيطانه!

***

22 أكتوبر 1850

عزيزي بونز

عدتُ إلى نفسي مِن جديد، رغم ضعف بدني، بعد ستٍّ وثلاثين ساعة كاملة مِن فقدان الوَعي. عُدتُ لنفسي من جديد؟! يا لها مِن مزحة حزينة ومريرة! لن أعودَ لنفسي من جديد، لن أعودَ كما كنتُ أبدًا. لقد وقفتُ وجهًا لوجه قبالةَ خَبلٍ ورُعبٍ يتجاوزان حدودَ قدرة الإنسان على الوصف والتعبير. وهي ليست النهاية بَعدُ.

وأعتقدُ أنَّه لولا كال لكانت حياتي قد انقضت الآن. إنه جزيرة وحيدة من العقل وسط كل هذا الجنون التام.

لا بدَّ أن أُطلِعَكَ على كل شيء.

تجهَّزنا بشموع لكي نستكشف القبو، وقد ألقت وميضًا قويًّا كان كافيًا وملائمًا تمامًا- ملائمًا بصورة جهنميَّة! حاول كالڤن أن يُثنيني عن عزمي، وذكر مسألة مَرضي قريب العهد، قائلًا إنَّ أقصى ما سنجده على الأرجح بعض فئران فائضة الصحة والعافية بانتظار أن نحدِّد مكانها لنترك السمَّ فيه.

لكني بقيتُ رغم ذلك مُصمِّمًا على ما انتويت، فصدَرَت تنهدة إذعان عن كالڤن وأجابني:

"إذًا فليكن الأمر كما تشاء، يا سيد بوون".

كان المدخل إلى القبو على هيئة باب سحري يُفتَح للأعلى في أرضية المطبخ (وكان كال قد طمأنني بأنه منذ علم ذلك أضاف فوقه ألواحًا خشبيَّةً متينة)، وقد رفعناها بقدرٍ كبيرٍ مِن الشَّدِّ والرَّفع.

تصاعَدَت مِن العتمة رائحةٌ نَتِنَة طاغية، لا تختلف عن تلك التي سادت البلدة المهجورة الواقعة على الناحية الأخرى من نهر الرويال ريڤر. ألقت الشمعة التي أمسكها في يدي بوميضها على دَرَجٍ مائل

بانحـدار شـديد يقـود للأسـفل، وينتهـي غائصًـا في الظـلام. كان الـدَّرَج في حالـة يُـرثَى لهـا، بحاجـة ماسَّـةٍ لإصـلاح، وفي موضـعٍ مـا منـه كانـت سُـلَّمة بكاملهـا مفقـودة، وليـس في محلهـا إلَّا فجـوة سـوداء- كان مـن اليسـير عـليَّ أن أرى كيـف انقضـت حيـاة مارسـيلا تعيسـة الحـظ في هـذا الموضـع ذاتـه.

قـال لي كال: "خُـذ حَـذرَك، يـا سـيد بـوون!". فأخبرتـه بأنـه لا نيَّـة لـديَّ بالمـرة إلَّا أن آخـذَ كلَّ حـذري، ونزلنـا لنهايـة الـدرج.

كانـت الأرضيـة عـلى طبيعتهـا ترابًـا وطينًـا، والجـدران مـن جرانيـت متـين، مُبتلَّـة في مواضـع قليلـة جـدًّا. لم يبـدُ المـكان مـلاذًا جيِّـدًا للفـئران عـلى الإطـلاق، فَلَـم يكـن هنـاك أيٌّ مِـن الأشـياء التـي تحـب الفـئران أن تتَّخِـذ فيهـا جحـورًا، مِثـل الصناديـق القديمـة، والأثـاث المهمَـل، وأكـوام الـورق، ومـا شـابَه. رَفعنـا شـموعنا، فحصلنـا عـلى دائـرة نـورٍ صغـيرة، لكـن مـا زلنـا لا نـرى إلَّا قليـلًا. كانـت الأرضيـة تنحـدر تدريجيًّـا باتجـاه مـا بـدا أنـه يمتـدُّ أسـفل قاعـة الجلـوس الرئيسـية وغرفـة تنـاول الطعـام، أي أنَّ الانحـدار صـوبَ الغـرب. وهكـذا سرنـا في هـذا الاتجـاه. كان الصمـت مطبقًـا. واشـتدَّ زخـمُ النَّـتَن المتطايـر في الهـواء وازدادَ قـوَّةً في ثبـات، وبـدت الظُّلمـة التـي تكتنفنـا كأنهـا تتجمَّـع وتنضغـط مثـل وَبـر الصـوف، كـما لـو أنَّ تلـك الظُّلمـة انتابتهـا الغـيرة مـن هـذا النـور الصغـير الـذي جرَّدهـا مِـن عرشـها ولـو لبرهـة عابـرة، بعـد أن مـرَّت سـنوات عديـدة للغايـة كانـت هـي المهيمنـة خلالهـا بـلا منـازع.

في الطـرف القـصي مـن المـكان، انتهـت جـدرانُ الجرانيـت وحـلَّ محلَّهـا خشـبٌ مصقـول بـدا مُسـوَدًّا تمامًـا بـدون أيـة خـواصَّ عاكِسـةٍ للضـوء. هنـا كان ينتهـي القبـو، مُفسِـحًا لمـا بـدا كأنـه تجويـف في داخـل أحـد جـدران الغرفـة الأساسـية للقبـو. كان موقـع التجويـف في زاويـة جعلـت عمليـة تفقُّـده مسـتحيلة مـن غـير أن نـدور حـول الزاويـة.

وهكذا فعلنا أنا وكال.

بـدا الأمـر كـما لـو أنَّ طيفًـا رميـمًا مُنتِنًـا للـماضي المشـؤوم في هـذا المسـكن قـد ارتفـع ونهـض متجسِّـدًا أمامنـا. انتصـبَ مقعـدٌ واحـدٌ في هـذا التجويـف بالجـدار، ومِـن فـوق هـذا المقعـد كانـت تتـدلَّى أنشـوطة مُتحلِّلـة مـن خيـوط القُنَّـب، ثُبِّتَـت في خُطَّـاف معـدني بأحـد القوائـم الخشـبية المتينـة للسـقف.

غمغم كال: "ربَّاه! هذا هو الموضع الذي شنقَ نفسه فيه".

"نَعم، وجُثَّة ابنته ملقاة أسفل الدرج من تحته".

أوشـكَ كال أن يقـول شـيئًا؛ وعندئـذٍ رأيـتُ عينيـه تـكاد ترتـجُّ متوجِّهـةً إلى نقطـةٍ خلفـي؛ ومـا لبثـت كلماتـه غـير المنطوقـة أن تحوَّلـت إلى صرخـة.

كيـف عسـاني، يـا بونـز، أن أصـف لـكَ المنظـر الـذي سـقط فـوق أعيننـا؟ كيـف عسـاني أن أخـبرك عـن أولئـك النـزلاء الفظيعـين المقيمـين بداخـل جدراننـا؟

تراجـعَ الجـدار البعيـد متأرجحًـا، ومِـن تلـك الظلمـة بداخلـه أطـلَّ وجـهٌ بخبـثٍ- وجـهٌ ذو عينـين حالِكَتَـيْ السَّـواد كأنهـما نهـر سـتيكس الجـاري في الجحيـم ذاتـه. وفـمٌ فاغـر بـلا أسـنان، يُسـفِر عـن تكشـيرة كَـربٍ وألم؛ وامتـدَّت نحونـا مـن ذلـك الـشيء يـدٌ صفـراء متفسِّـخة. أصدرَ صـوتُ نشـيجٍ مـروِّع واتخـذ خطـوة واحـدة متثاقلـة ومترنحـة للأمـام. سـقط عليـه نـورُ شَـمعَتي- وقـد رأيـتُ بعينـي علامـةً زرقـاء مِـن أثـر التفـاف الحبـل حـول رقبـة ذلـك الـشيء!

ومـن خلفـه تحـرَّك شيءٌ آخَـر، شيءٌ سـوف يَظَـلُّ يطـاردني في الأحـلام حتَّـى اليـوم الـذي سـأنامُ فيـه نومًـا أخـيرًا فتنقطـع عنـي جميـع الأحـلام: صبيَّـة بوجـهٍ ممتقـع أصفـر وقـد تحلَّـل وتفسَّـخ، وانفتـح فمهـا بتكشـيرة جُثَّـة؛ صبيـة مـال رأسـها فـوق صدرهـا بزاويـةٍ عَبثيـة.

كانا يطلبانِنا ويريدانِنا نحن؛ أعلم هذا تمام العِلم. وأعلم أيضًا أنهم كانا سيجُرَّاننا معهما داخل ذلك الظلام فنصبح ملكًا لهما؛ لو لم ألقِ شمعتي مباشرةً على ذلك الشيء الذي ظهر في الحاجز من داخل الجدار، وأتبعتُ الشمعة بالمقعد الموضوع تحت تلك الأنشوطة.

بعد ذلك، صار كل شيء ظلامًا مشوَّشًا. أُسدلَ ستارٌ سميك أمام عقلي، وحين أفقتُ، كما قلت، وجدتُ نفسي في غرفتي وإلى جانبي كال.

إن كان بوسعي أن أغادر، لطِرتُ عن منزل الرُّعب هذا وطرف رِداء نومي يرفرف حول كاحليَّ. لكنني غير قادر على المغادرة. لقد صرتُ بيدقَ شطرنج في لُعبة درامية أعمق وأشدّ ظلامًا. لا تسألني كيف أعلم هذا؛ فإني أعلم وحسب. كانت السيدة كلوريس على حقٍّ عندما تحدَّثَت عن الدم الذي ينادي الدم؛ وكم كانت على حقٍّ بشكل رهيبٍ أيضًا عندما تحدَّثَت عن هؤلاء الذين يراقبون، وهؤلاء الذين يحرسون. أخشى أنني قد أيقظتُ قوَّةً ظلَّت هاجعة نصف قرنٍ من الزمان في قرية أرض چيروسالِم المشؤومة؛ قوَّةً قتلَت أسلافي واتَّخذتهم عبيدًا لها في استرقاق مُدنَّس، فأصبحوا ما يسمَّى نوسفيراتو[1] أو موتى- أحياء. وعندي مخاوف أخطر شأنًا مِن ذلك كله، يا بونز، غير أني لم أرَ بعد إلَّا جانبًا واحدًا مِن الأمر. آه لو استَطَعتُ فقط أن أطَّلع على كل شيء!

تشارلز

---

(1) Nosferatu: أغلب الظَّنِّ أنها كلمة رومانية قديمة مهجورة بمعنى الإساءة والمتاعب، غير أنَّ المعنى الحديث لها وهنا أيضًا هو وصف مخلوقات أقرب إلى مصَّاصي الدماء مِمَّن يعيشون خالدين، وقد ظهرت المفردة في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع العشرين في أعمال قصصية غربية مثل دراكولا (1897) وغيرها.

ملاحظة: بالطبع أنا أكتب هذا لنفسي ليس إلَّا؛ فنحن منعزلان عن بريشرز كورنرز. لا أجرؤ على أن أحمل تلوُّثي وعدواي إلى هناك لكي أرسل هذا في البريد، وكالڤن لن يتركني وحدي. لكن، مَن يدري، لعلَّ هذا يصل إليك بطريقة ما، إذا شاء الرَّبُّ الرؤوف.

***

(من دفتر يوميات كالڤن ماكان)

23 أكتوبر 1850

إنه اليوم أقوى؛ تحدَّثنا بإيجازٍ عن تلك الأشياء التي ظهرت لنا في القبو؛ وقد اتفقنا على أنَّ تلك الأشياء لم تكن هلاوس مِن ثمار عقولنا، كما لم تكُن مِن طبيعة الإكتوبلازم[1]، بل كانت حقيقيَّة. هل يشعر السيد بوون، شأنه شأني، بأنَّ تلك الأشياء قد ذهبت وتبدَّدَت؟ ربما؛ غير أنَّ الضجيج قد هدأ تمامًا؛ ومع ذلك ترك وراءه تهديدًا ووعيدًا مُنذِرًا، وجوًّا مُلبَّدًا بكآبة قاتمة. يبدو أننا نمكث هَا هُنا في قلب الهدوء الخادع للعاصفة الوشيكة.

كنتُ قد عثرتُ على حِزمة أوراق في غرفة نومٍ بالطابق العلوي، موضوعة بأدنى الأدراج في منضدة كتابة كبيرة، فيها بعض المكاتبات وفواتير دَفع وخلافه، فهمتُ منها أنَّ هذه الغرفة كانت تخصُّ روبرت بوون. لكنَّ أكثر تلك الوثائق إثارة للاهتمام كانت كتابات قليلة على ظهر ورقة إعلان عن قبَّعات للسَّادة مصنوعة من فراء القندس. على رأس تلك الكتابة عبارة:

---

(1) Ectoplasm: أصل الكلمة المشتق عن اليونانية بمعنى تَجسُّد أو تَشكُّل خارجي، مصطلح قديم في العلوم الروحانية يشير لمادة أو طاقة روحانية تتشكَّل خارجيًّا عبر وسيط روحي. صاغَ المصطلح شارل ريشيه في 1894، وانتشر في الثقافة الشعبية المؤمنة بالخرافات، لكن العِلم لم يقبل قَطُّ أي وجود مادي حقيقي للإكتوبلازم، وقد تبيَّن أن كثيرًا من نماذجه المزعومة هي مجرَّد خُدَع مُصنَّعة من قماشٍ قطنيٍّ أو شاش أو غيرها من مواد طبيعية.

blessed are the meek

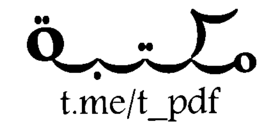
طوبى للوُدَعاء.

وتحتها، السطور التالية التي بدَت هُراءً صريحًا:

bke dshdermthes eak

elmsoerare shamded

أعتقد أنَّ تلك السطور هي مفتاح قُفلٍ ذلك الكتاب المشفَّر الذي وجدناه في المكتبة. كانت الشفرة أعلاه بلا شكٍّ ساذجة فجَّة، استُخدمَت إبَّان حرب الاستقلال الأمريكية، وأُسمِيَت بشفرة السياج[1]. عندما يحذف المرءُ الحروف (العاطلة) التي لا قيمةَ لها مِن الجزء الثاني من هذه الكتابة، يحصل على ما يلي:



besdrteek

lseaehme

وعند قراءته بالاتجاه بأخذ حرفٍ من الأعلى وآخر من الأسفل وليس أفقيًا، تكون النتيجة هي نفسها المقتبس الأصلي من تطويبات السيد المسيح.

قبل أن أتجرَّأ على عرض هذا الكشف على السيد بوون، لا بدَّ أن أكون واثقًا مِن طبيعة محتويات الكتاب.

***

(1) The War for Independence وتُسمَّى أيضًا (1775- 1783) -(American Revolutionary War)، ما بين بريطانيا العُظمى ومستعمراتها الثلاث عشرة في العالَم الجديد، والتي أعلنت استقلالها لتُشكِّل نواةَ ما سوف يكون بعد ذلك الولايات المتحدة الأمريكية. أمَّا شفرة السِّياج، أو السِّكَّة الحديد كما تُسمَّى أحيانًا، فهي طريقة بسيطة للتشفير تعمل على حذف ثلاثة حروف من بين كل حرفين حتَّى تَتِمَّ كلمة، وبالتبادُل في الاتجاهات ما بين الأعلى والأسفل والجانبي على شكل بعض أنواع السياج. للمزيد يمكن البحث تحت عبارة fence rail cipher.

24 أكتوبر 1850

عزيزي بونز

حدث أمرٌ مُذهِل- كال، الذي لطالما تكتَّم أموره إلى أن يصير واثقًا ممَّا لديه تمامَ الثقة (وهي فضيلة إنسانية نادرة وجديرة بالإعجاب!)، قد وجد مُذكِّرات جدِّي روبرت. غير أنَّ الوثيقة ذاتها كانت مكتوبةً بالشفرة، وقد استطاع كال بنفسه حلَّ شفرتها. وقد أعلنَ بكل تواضُع أنَّ اكتشاف هذا الأمر كان مَحضَ مُصادَفة، ولكني أحسبُ أنَّ للمثابرة وبذل الجهد دورٌ أكبر بكثير ممَّا للمصادفات.

على كل حال، فقد ألقت تلك الصفحات ضوءًا على الألغاز التي تحيط بنا ها هُنا، وإن كان ضوءًا كابيًا وكئيبًا.

أوَّل صفحات اليوميَّات تعود إلى تاريخ الأول من شهر يونيو عام 1789، وآخر ما كتب بتاريخ 27 أكتوبر 1789- أي قبل أربعة أيام فقط مِن الاختفاء الجماعي كالوباء الذي ذكرته السيدة كلوريس في حديثها. وتروي اليوميات حكاية استحواذ عقلي عميق للغاية -كلَّا، بل جنون مُسيطر- وتبين علاقة واضحة على نحو مُفزِع بين العَمِّ الأكبر فيليب، وبلدة أرض چيروسالِم، وذلك الكتاب المستقر في تلك الكنيسة المُنتَهكة.

وِفقًا لما كتبه روبرت بوون، فإنَّ البلدة نفسها يعود تاريخها لما قبل منزل ومِلكية الشابل ويت (شُيِّد في 1782) وما قبل بلدة البريشرز كورنرز (والتي كانت تُعرَف في تلك الأيام باسم بريشرز ريست، وتأسَّسَت عام 1741)؛ أمَّا تلك البلدة فقد أسَّستها جماعةٌ مُنشقَّة مِن أتباع المذهب البيوريتاني عام 1710، وهُم طائفةٌ تتبعُ متعصِّبًا صارمًا غليظًا يُدعى چيمس بوون. يا له مِن خيط بدايةٍ قدَّمه لي هذا الاسم! أعتقد أنَّه لا سبيل للتشكُّك في أنَّ هذا السيد بوون يَمُتُّ بِصِلة قرابة إلى عائلتي. ما كان بوسع السيدة كلوريس أن

تكـون أكـثر صوابًـا في إيمانهـا المتطـيِّر بـأن خـطَّ الـدم العائـلي لـه أهميـة حاسـمة في هـذه المسـألة ككل؛ وأتذكَّـر مرعوبًـا إجابتهـا عـلى سـؤالي حـول فيليـب ومـا يربطـه بـأرض سالِم تلـك. فقـد قالـت "رابطـة الـدم"، وأخـشى أنَّ هـذه هـي الحقيقـة.

أصبحـت البلـدة مجتمعًـا مسـتقرًا، يجتمـعُ أهلـه وسُـكَّانه حـول الكنيسـة حيـث كان بـوون يَعِـظ، أو بالأحـرى يخلـب الألبـاب ويحشـدُ التابعـين. يُلمِّـح جـدي الأكـبر في دفـتره إلى أنَّ ذلـك الواعـظ عَقَـدَ علاقـات حميمـة مـع عـدد كبـير مـن سـيدات البلـدة، مؤكِّـدًا لهـم أنَّ ذلـك هـو سـبيل الـرب وتلـك هـي إرداتـه. ونتيجـةً لذلـك؛ أضحـت البلـدة تكوينًـا شـاذًّا خـارجَ كل الأعـراف، شـيئًا مـا كان لـه أن يوجـد إلَّا في تلـك الأيـام المنعزلـة والغريبـة حينـما كان الإيمـان بالسـاحرات وبالـولادة العُذريـة للسـيد المسـيح يمضيـان جنبًـا إلى جنـب: فَأمسـت البلـدة مسـخًا هجينًـا؛ ظاهرهـا الديـن وباطنهـا الانحـلال، يحكمهـا واعِـظٌ نِصـفُ مجنـون، لا يفـرق بـين الأناجيـل الأربعـة وبـين كتـب طـرد الشـياطين الرائجـة آنـذاك؛ مجتمعًـا كانـت تـؤدَّى فيـه بوَتـيرَةٍ منتظمـة طقـوسُ طـرد الأرواح الشريـرة التـي تسـكن أجسـام النـاس؛ مجتمعًـا مِـن زِنَـا المحـارم ومـا يرافـق تلـك الخطيئـة غالبًـا مِـن فقـدانٍ للعقـل وولادة المشـوَّهين خِلقيًـا. أحسـبُ (وأعتقـد أنَّ روبـرت بـوون يشـاركني الـرأي) أنَّ واحـدًا مِـن نسـل بـوون غـير الشرعيـين لا بـدَّ قـد غـادر بلـدة أرض چيروسـالِم (أو تـمَّ إبعـاده عنهـا) ليلتمـس حظَّـه صـوب الجنـوب- وهكـذا قُـدِّر لـه أن يُؤسِّـس خَـطَّ سـلالتنا الراهـن. إننـي أعلـم يقينًـا عـبر تتبُّـع مسـارنا العائـلي، أنَّـه مِـن المفـترض أنَّ عشـيرتنا ترجـع جذورهـا إلى ذلـك الجـزء مِـن ماساتشوسـتس والـذي صـارَ في وقـت قريـب للغايـة ولايـة مـين المسـتقلَّة هـذه. أثـرى جـدِّي الكبـير كينيـث بـوون بسـبب تجـارة الفـراء التـي كانـت مزدهـرة في ذلـك الحـين. تكاثَـرَ مالُـه مـع الوقـت والاسـتثمار الحكيـم، وبهـذا المـال بُنـي منـزل الأسـلاف هـذا بعـد وقـت طويـل مـن موتـه عـام 1763. شـيَّد ابنـاه،

فيليب وروبرت، الشابل ويت. وكما قالت السيدة كلوريس: "الدم ينادي الدم". هل يمكن أن يكون كينيث ذلك هو نفسه الابن غير الشرعي لجيمس بوون، وقد لاذ بالفرار من جنون أبيه وجنون بلدة أبيه، فقط لكي يشيِّد ابناه -وهما يجهلان ذلك كله- منزلَ آل بوون على مسافة ميلين اثنين مِن حيث بدأ كل شيء؟ لو أنَّ هذا حقيقيٌّ، أفلا يبدو الأمر كما لو أن ثمَّة يدًا خفيَّةً هائلة تقودنا جميعًا؟

وفقًا ليوميات روبرت، كان جيمس بوون عامَ 1789 شيخًا طاعنًا في السِّنِّ- ولا بدَّ أنه كان كذلك. فلو سلَّمنا بأن عمره كان في نحو الخامسة والعشرين في عام تأسيس البلدة، فلا بدَّ أنه قد بلغ مائة وأربعة، وهو سِنٌّ استثنائي بكل تأكيد. ما يلي جزءٌ مُقتبس مباشرة مِن دفتر يوميات روبرت بوون:

4 أغسطس 1789

اليوم التقيتُ للمرة الأولى بهذا الرجل الذي انجذبَ إليه أخي إلى دَرجةٍ تفوق الحَدَّ المعقول؛ ولا بدَّ أنَّ أُقِرَّ بأنَّ سليل آل بوون هذا يملك قوة جاذبية غريبة، جاذبية أزعجتني لأقصى حدٍّ. إنه طاعنٌ في السِّنِّ حقًّا وصِدقًا، أبيض اللحية، ويرتدي ثوب الكاهن الأسود وهو ما أحسستُ أنه أمرٌ غير لائق بطريقةٍ ما. غير أنَّ الأشد إزعاجًا مِن كل هذا حقيقة أنه كان محاطًا بالنساء مِن كل جانب، وكأنه سلطان شرقي وسط حريمه؛ وقد أكَّد لي "ف" أنه لا يزال نشطًا مِن هذه الناحية، رغم أنه قد تجاوز الثمانين على أقل تقدير.

أمَّا القرية نفسها فقد زُرتُها مرَّة واحدة مِن قبل، ولن أعودَ إلى زيارتها مجدَّدًا؛ فإنَّ شوارعها صامتة ومشرَّبة بالخوف، ذلك الخوف الذي يوحي به الرجل الهرم مِن فوق منبر وعظه: كما أنني أخشى أن الطيور على أشكالها تقع، وهكذا فإنَّ كثيراً للغاية مِن الوجوه هنالك متشابهة، فقد خُيِّل إليَّ أنني أينما ولَّيتُ وجهي رأيتُ ملامح

ذلـك الشـيخ الطاعـن. وجميعهـا وجـوه صفـراء سـقيمة؛ كأنهـا تفتقـد للرونـق والبريـق؛ كـما لـو أنَّ شـيئًا مـا قـد امتـصَّ منهـا الحيويـة حتَّـى جفَّـت تمامًـا، وقـد رأيـتُ أيضًـا أطفـالًا بـلا أعـين وأطفـالًا بـلا أنـوف، والنسـاء يبكـين منتحبـاتٍ ويهـزرن مُغَمغِـماتٍ وهـنَّ يُـشِرن بأصابعهـنَّ نحـو السـماء لغيرما سـبب، خالطـاتٍ آيـات الأناجيـل بأحاديـث الشـاطين. أعـربَ أخـي "ف" عـن أمنيتـه أن أحـضر القـدَّاس في الكنيسـة معهـم، لكـنَّ مجـرد فكـرة صعـود هـذا الشـيخ الهَـرِم الناضـح بالـشَّرِّ والشـؤم عـلى المنبر أمـام جمهـور هـذه البلـدة مِـن أبنـاء زنـا المحـارم والمشـوَّهين لم تُـثِر في نفـسي إلَّا النفـور الفظيـع؛ فاعتـذرتُ منـه.

التدوينـات السـابقة والتاليـة عـلى هـذه تـروي تزايُـدَ افتتـان فيليـب بجيمـس بـوون. في الأول مـن سـبتمبر 1789، عُمِّـد فيليـب في كنيسـة بـوون. يقـول شـقيقه: "إننـي مصعـوقٌ بالذهـول والهَـول -أخـى يتحـوَّل أمـامَ عينـيَّ- بـل إنـه يبـدو كأنـه يقـترب في الشَّـبه الشَّـكلي مـع ذلـك الشـقي الوضيـع".

يَـرِدُ أوَّلُ ذِكـرٍ للكتـاب في تدوينـة يـوم 23 يوليـو. تذكـره يوميـات روبـرت باقتضـاب عابـر: "عـادَ "ف" مِـن القريـة الصغـيرة الليلـة بوجـهٍ -عـلى مـا ظَنَنـتُ- تظهـر عليـه أمـارات الـشرود والاضطـراب. ولم يتكلـم حتَّـى حـلَّ موعـدُ النـوم، عندمـا قـالَ إنَّ بـوون قـد اسـتعلمَ عـن كتـابٍ عنوانـه خَفايـا الـدودة. لـكي أدخـل الـسرور عـلى قلـب "ف" وَعَدتُـه أن أكتـب رسـالة اسـتعلام عـن هـذا الكتـاب إلى مسـتودع كتـب چونـز آنـد جودفيلـو؛ وقـد أظهـرَ "ف" لي امتنانًـا يـكاد يشـارفُ حـدود التملُّـق".

في 12 أغسـطس، هـذه الملاحظـة: اسـتلمتُ رسـالتين في مكتـب البريـد اليـوم. إحداهـما مِـن مسـتودع چونـز آنـد جودفيلـو في بوسـطن. كانـوا يخطروننـي بأمـر المجلَّـد الـذي أعـربَ "ف" عـن اهتمامـه بـه. تتوفَّـر لديهـم خمـس نسـخ فقـط في هـذه المقاطعـة. كان الخطـاب فاتـرًا تُعـوِزه

نبرة الوُدِّ؛ وهو أمر غريب حقًّا، بما أنني تجمعني بكاتبه هنري جودفيلو معرفةٌ جيدة منذ سنوات".

13 أغسطس:

تحمَّس "ف" حماسًا جنونيًّا برسالة جودفيلو؛ وامتنع عن أن يعربَ عن سبب ذلك. لم يَقُل سوى إن بوون في غاية اللهفة والتعطُّش لأن يحصل على نسخة منه، ولم أستطع أن أفكِّر في سبب معقول وراء هذا، بما أنَّ العنوان لا يوحي إلَّا ببحثٍ بريء حول مكافحة الآفات الزراعية والديدان وما شابه.

أشعرُ بالقلق على فيليب؛ مع كل يومٍ يمرُّ يصبح أكثر غرابة بالنسبة لي. الآن أتمنى لو أننا لم نرجع إلى شابل ويت، وهذا الصيف شديد الحرارة، زامتٌ ومُقبِضٌ، والجو يمتلئ بنُذر الشؤم.

مرتان أخريان فقط ذُكر فيهما الكتاب سيِّئ السُّمعة في يوميات روبرت (ويبدو أنه لم يكن قد أدرك الأهمية الحقيقية له، حتَّى لدى النهاية). من تدوينة يوم 4 سبتمبر:

أرسلتُ أطلب مِن جودفيلو أن يتصرَّف كوكيلٍ له في مسألة شراء نسخة من الكتاب؛ رغم أن حدسي الداخلي كان يصرخ فيَّ بألَّا أفعل. ولكن ما نفع الاعتراض؟ أليس لديه ماله الخاص ويمكنه التصرُّف، إذا رفضتُ أنا؟ وبالمقابل استخلصتُ وعدًا من فيليب بأن يرتدَّ عن هذا التعميد الفاسد المؤذي.

وبما أنه كان في غاية الإثارة، بل كأنَّه مَسعورٌ من شدَّة الانفعال؛ فإني لا أثق بكلمته. وفي هذا الأمر أشعر بضعف الحيلة مِثل بحَّارٍ ضائع في وسط المحيط.

وأخيراً، في 16 سبتمبر:

وصلَ الكتاب اليوم، مع رسالة مقتضبة من جودفيلو يقول فيها إنه يرجو ألَّا يتعامل معي ثانيةً بعدَ اليوم. بلغت إثارة وفرحة "ف" بالكتاب درجةً غير طبيعية؛ لم يفعل إلَّا أن انتزع الكتاب من بين يديَّ. كان النص مكتوبًا بلغة لاتينية والحروف الرُّونية اللعينة، وكلاهما لا أفهم منهما شيئًا. بدا ذلك الشيء دافِئَ الملمس تقريبًا، بل كأنه ينبض بين يديَّ بذبذبةٍ ما كما لو أنه ينطوي بين غلافَيْه على قوَّةٍ هائلة. ذكَّرتُ "ف" بوعده لي بالارتداد فلم يزد إلَّا أن ضحك ضحكةً قبيحة مخبولة، ولوَّح أمامَ وجهي بذلك الكتاب، وهو يصيح مرارًا وتكرارًا: "بين أيدينا! بين أيدينا! الدودة! وسِرُّ الدودة!".

اختفى الآن، وقد ذهب مُسرِعًا، إلى مولاه المعتوه على ما أظن، ولم أره مرة أخرى في هذا اليوم.

لا مزيد من الكتابة في دفتر اليوميات، لكني توصَّلت إلى استنتاجات مُحدَّدة تبدو محتملة على الأقل. أوَّلًا، أنَّ هذا الكتاب كان سبب الشقاق بين الأخوين، كما قالت السيدة كلوريس؛ وثانيًا، أنه مصدر ومأوى التعويذة المدنَّسة الشيطانية، ربما تعود أصوله إلى الدرويد كهنة السِّلتيين (فإنَّ كثيراً مِن طقوسهم الدموية قد بقيت مكتوبةً على أيدي الرومان حينما غزوا بريطانيا بدعوى العِلم والمعرفة، وكثيرٌ مِن كتب الوصفات الجحيمية تلك محظورة ومحرَّمة في العالم كله)؛ وثالثًا، أنَّ بوون وفيليب كانا ينويان استخدام الكتاب لمقاصدهما الخاصة. ربما، وعلى نحوٍ ملتوٍ، كانت مقاصدهما طيبة، لكني لا أعتقد هذا، بل أعتقد أن مقاصدهما الطيبة تَبدَّدَت قبل وقتٍ طويل من تسليم روحيهما لتلك القوى مجهولة الوجه والاسم التي تقيم في ما وراء حدود هذا العالَم؛ تلك القوى التي قد تكون موجودة خارج نسيج الزمان نفسه. التدوينات الأخيرة في دفتر يوميات بوون تضفي

على تخميناتي تلك شيئًا طفيفًا مِن المصداقية، وسوف أدعها تتحدث عن نفسها:

26 أكتوبر 1789

سادت ضجَّةٌ هائلة في بلدة بريشرز كورنرز اليوم؛ الحدَّاد فراولي أمسكَ ذراعي وطالبَ بأن يعرف بالضبط "ما الذي يدبِّره أخي مع ذلك المسيخ المجنون بتلك الكنيسة هناك". يزعم الرجل الطيِّب راندال بأنَّ هناك إشارات في السماء عن كارثة عظمى وشيكة. وَلَدَت إحدى الأبقار عجلًا برأسين.

عَن نفسي، لا أدري ما هذا الشيء الوشيك؛ ربما هو فقدان أخي لعقله تمامًا. شابَ شعر رأسه وأصبح رماديًّا بين عشيةٍ وضحاها، أضحت عيناه كُرَتَيْن من الدم وانسحب منهما النور المبهج للعقل الراشد. يكشِّر فاتحًا فمه ويهمس بفحيحٍ غامض، وإن لم يكن في أرض چيروسالِم، بدأ يمكث، لسببٍ يخصُّه، في قبونا لا يكاد يبارحه.

طيور السُّبد الليلية المشؤومة تتجمَّع وتحيط بالمنزل وتجثم على العشب؛ ينبعث صياحها الموحَّد من الضباب، ويمتزج بصوت البحر مُشَكِّلين معًا صريرًا حادًّا يسرق النعاس من الأجفان.

27 أكتوبر 1789

تبعتُ أثر "ف" هذا المساء عندما غادرَ المنزل قاصدًا أرض چيروسالِم، واحتفظتُ بمسافة آمِنةٍ منه لأتجنَّب افتضاح أمر مراقبتي له. تلك الطيور الملعونة أخذت تتحرَّك عبرَ الغابات، مالِئةً الأجواء بنشيدها المهلك كأنه صوتُ مُرشدي الأرواح الذين يعبرون بالموتى إلى الدار الآخرة. لم أجرؤ على عبور الجسر؛ كانت البلدة كلها غارقة في الظلام، إلَّا الكنيسة، والمضاءة بوميضٍ أحمر مخيف بدا كأنه يحوِّل النوافذة العالية المدَبَّبة إلى عيون مفتوحة على قلب الجحيم. أخذَت الأصوات تعلو وتنخفض في ابتهالٍ موجَّه للشيطان، يتردَّد صداه، فكأنه

ضحكٌ تارةً، وكأنه بكاءٌ تارة أخرى. بدت الأرض ذاتها تعلو منتفخةً وتصدر أنينًا متوجِّعًا مِن تحت قدميَّ، كما لو كانت تنوء تحت ثقل رهيب، ولذتُ بالفرار، مذهولًا ومفعمًا بالرعب، والصراخ الجهنمي لطيور الشؤم تلك لا يزال يهدر في أذنيَّ بينما أركضُ عبر تلك الغابات التي مزَّقتها الظلال.

كل شيءٍ يمضي صوبَ الذروة الخطرة، والتي لا يمكن توقُّعها بَعد. لا أجرؤ على النوم خشية الأحلام التي قد تزروني، ورغم ذلك لا أجرؤ على البقاء ساهرًا خشية الأهوال الملعونة التي قد تزورني. الليل ممتلئ بأصواتٍ رهيبة وأنا يأكلني الخوف- ورغم ذلك أشعر بحافزٍ يحرِّضني على الذهاب إلى هناك مُجدَّدًا؛ لأشاهد، لأرى. يبدو الأمر كأنَّ فيليب نفسه هو مَن يدعوني، هو وذلك العجوز الهَرِم.

الطيور

كل شيء ملعون- ملعون- ملعون.

هُنا تنتهي يوميات روبرت بوون.

لكن لا بدَّ أنكَ، يا بونز، قد لاحظتَ أنه قرب الخاتمة يزعم أنَّ فيليب نفسه يبدو كأنه يدعوه ويناديه. وقد تشكَّل استنتاجي الأخير بناءً على تلك السطور، وعلى حديث السيدة كلوريس والآخرين، ومِن قبل أي شيءٍ آخَر بناء على تلك الهيئات المروِّعة التي ظهرت أمامنا في القبو، موتى لكنهم أحياء رغم ذلك. لقد حُكمَ على خطِّ سُلالَتِنا بالتعاسة والشؤم، ولم يزل الحُكم قائمًا يا بونز. ثمة لَعنة مُسلَّطة علينا تأبى أن تُدفَن وتتبدَّد؛ تعيش في الظلال الشنيعة لهذا المنزل وتلك البلدة. وقد أخذت الدائرة تدور من جديد وتضيق حلقتها نحو ذورتها المحتومة، وأنا آخِر مَن يحمل دم هذه العائلة. وأخشى أنَّ كيانًا ما على عِلمٍ هذا، وأنني صرتُ في مركز شيء فاسدٍ شرير، شيء

يفـوق مسـعاه قُـدرةَ أيِّ عَقـلٍ عـلى الفهـم. يحـلُّ عيـد جميـع القديسـين بعـد أسـبوعٍ مِـن يومنـا هـذا.

كيـف لي أن أواصـل؟ لـو أنـك فقـط كنـتَ هنـا لتنصحنـي، ولتسـاعدني! لـو أنـك فقـط كنـتَ هنـا!

لا بـدَّ أن أطَّلِـع عـلى كل شيء؛ لا بـدَّ أن أعـود إلى البلـدة المهجـورة المنبـوذة مـن الجميـع. ليكـن اللـه في عـوني!

تشارلز

***

(مِن دفتر يوميات كالڤن ماكان)

25 أكتوبر 1850

ظـلَّ السـيد بـوون نائمًـا طيلـة اليـوم. وجهـه ممتقـع شـاحِبٌ وأشَـدُّ هُـزالًا. أخـشى أنَّ نوبـات الحُمَّـى السـابقة سـوف تعـاوده بـلا شـك.

بينـما كنـتُ أجـدِّد الماء في الـدورق المجـاور لفراشـه لمحـتُ خطابـين لم يُرسَـلَا إلى السـيد جرانسُـن في فلوريـدا. إنـه يخطِّـط للعـودة إلى بلـدة أرض چيروسـالِم؛ إن تركتُـه يفعـل سـيكون في هـذا مقتلـه. وهَـل أجـرؤ عـلى أن أتسـلَّل خلسـةً حتَّـى بلـدة بريـشرز كورنـرز وأسـتأجر عربـة تجرُّهـا الخيـول؟ هـذا لـزامٌ عـليَّ، ولكـن مـاذا لـو اسـتيقظ؟ ومـاذا لـو رجعـتُ فوجدتُـه قـد ذهـبَ إلى هنـاك؟

بـدأ الضجيـج ينبعـث مـن داخـل الجـدران مـرة أخـرى. الحمـد للـه عـلى أنـه لم يَـزَل نائمًـا! إنَّ عقـلي ليرتعـد مِـن مغـزى تجـدُّد الضجيـج هـذا.

في وقت تالٍ

حملـتُ إليـه عشـاءه عـلى صينيـة. إنـه يُخطِّـط للنهـوض فيـما بعـد، وعـلى الرغـم مِـن مُراوغتـه لي فـإني أعلـم مـا يخطِّـط لفعلـه بمجـرَّد أن

أذهب إلى بريشرز كورنرز. ظلَّ معي في أمتعتي بعضٌ مِن المساحيق المنوِّمة التي وُصفَت له إبَّان فترة مرضه الأخيرة؛ وضعتُ له قرصًا مع الشاي فَشربه، على غير عِلمٍ منه. هو نائم الآن من جديد.

يرعبني مُجرَّد التفكير في أن أتركه هنا مع تلك الكائنات التي تجرجر نفسها وراء جدراننا؛ لكن يرعبني أكثر مِن هذا بكثير أن أدعه يمكث بداخل تلك الجدران ذاتها ولو حتَّى ليومٍ واحد آخر. أغلقت الأبواب بالمفاتيح قبل أن أذهب.

عسى الله أن يكتب له السلامة، فأجده عندما أعود بالعربة الصغيرة ما زال هناك آمنًا ناعسًا.

في وقتٍ تالٍ لما سَبَق

رجموني بالحجارة! رجموني كأنني كلب مسعور وهائج! الوحوش أولاد الأبالسة هؤلاء! يَدعونَ أنفسهم رجالًا! إننا سجينان هُنا- الطيور، طيور السُّبد الليلية، بدأت تجتمع وتجثم.

***

26 أكتوبر 1850

عزيزي بونز

أوشكَ أن يحلَّ الغَسَق، وقد استيقظتُ للتو، لقد نمتُ ما يقرب مِن أربع وعشرين ساعة نومًا متواصلًا. رغم أنَّ كال لم يَقُل شيئًا، لكنني أشك أنه قد وضع لي مسحوقًا منوِّمًا في قدح الشاي، بعد أن خمَّن ما أنتويه. إنه صديق صالح ومُخلِص، ولا يقصد لي إلَّا كل الخير؛ ولذا لن أذكر هذا الأمر.

ورغم ذلك فما زلتُ مُصرًّا على قراري. غدًا هو اليوم المُنتظَر. إنني هادئ، عاقِدٌ العَزم، لكن يبدو أنني أشعر أيضًا بالحمَّى تتسلَّل

بخِفَّـة حتَّـى تطبـق علـيَّ مِـن جديـد. إن كان الأمـر كذلـك، فعلـيَّ أن أفعـل ذلـك غـدًا. وربمـا قـد تكـون هـذه الليلـة أفضـل مـع ذلـك، غـير أنـه لـن يدفعنـي أي شيء، ولا حتَّـى نـار جهنـم نفسـها، إلى وضـع قدمـي في تلـك القريـة وسـط ظـلالٍ تتحـرَّك مـع نـور مشـعلٍ أو قنديـل.

ربما لن يُقَدَّر لي أن أكتب المزيد، لبياركك الرَّبُّ ويحفظك، يا بونز.

تشارلز

ملحوظـة: مِـن جديـد اندلَعَـت صيحـات تلـك الطيـور، ومِـن جديـد أيضًـا عـادت تُسـمَع تلـك الأصـوات الرهيبـة للخرفشـة والخربطـة. يعتقـد كال أننـي لا أسـمع شـيئًا، بخـلاف الحقيقـة.

***

(مِن دفتر يوميَّات كالڤن ماكان)

27 أكتوبر 1850

لا سبيل لإقناعه بالمرَّة. لا بأس إذًا، سوف أذهب معه.

***

4 نوڤمبر 1850

عزيزي بونز

ضعيـف البـدن، لكـن صـافي الذهـن. لسـتُ واثقًـا مِـن صحَّـة تاريـخ اليـوم، غـير أن الرُّزنامـة بصورة مـدِّ المـوج وغـروب الشـمس تؤكِّـد لي أنـه لا بُـدَّ أن يكـون صحيحًـا. أجلـس إلى مكتبـي، حيـث جلسـتُ عندمـا كتبـتُ لـكَ أوَّل مـرة مـن شـابل ويـت، وأتطلَّـع للخـارج نحـو البحـر المظلـم الـذي تنسـحبُ مـن فـوق سـطحه بسرعـة آخِـرُ أذيـال الضـوء. منظـرٌ لـن

تقع عليه عيناي مرةً أخرى. فالليلة موعدي؛ وأنا تاركٌ هذا كله إلى الظلال، لا يهمني على أي صورة ستكون تلك الظلال.

عجبًا لهذا البحر! وكيف يطرح نفسه مرتميًا على الصخور! إنه يرمي سحبًا كثيفة مِن زبد الموج فتبدو كأنها بيارقُ مُرَفرِفةٌ تحت السماء المسوَدَّة، فترتعدُ لذلك أرضية المنزل تحت قدميَّ. أرى انعكاس صورتي على زجاج النافذة، رجلًا شاحبًا مُصفرًّا مثل واحدٍ مِن جنس مصَّاصي الدماء. لم أتناول طعامًا منذ السابع والعشرين مِن أكتوبر، وربما حُرِمتُ مِن شرب الماء أيضًا لولا أن كالڤن قد ترك دورقَ الماء إلى جانب فراشي في ذلك اليوم.

آه، يا كال أيها المسكين! لقد انتهى أمره، يا بونز. لقد ذهب في مكاني، مكان هذا المخلوق التَّعِس بذراعيه النحيلتين مثل إبرتين ووجهٍ عَظميٍّ مثل جمجمة، هذا المخلوق الذي أراه الآن منعكسًا على الزجاج المسودِّ أمامي. ومع ذلك، فربما يكون هو الأفضل حظًّا؛ إذ لن تطارده بعد الآن أية أحلام مثل تلك التي تطاردني خلال الأيام الماضية- أشكال ملتوية تتربَّص كامِنةً في ممرَّات الهذيان الكابوسية. إنَّ يديَّ ترتعشان حتَّى في هذه اللحظة؛ فلوَّثَت الصفحة بالحبر.

في ذلك الصباح وأنا على وشك أن أتسلَّل خارج المنزل وقف كالڤن قُبالَتي وواجَهَني- وقد ظننتُ أنني كنتُ شديد المكر والبراعة. قبل ذلك كنتُ قد أخبرتُه أنني قرَّرتُ أن علينا مغادرة هذا المكان، وطلبتُ منه أن يذهب إلى بلدة تدعى تاندريل على مسافة عشرة أميال فقط، فهناك قد نكون أقلَّ شهرة وسوء سُمعة، ويمكنه أن يستأجر عربة بحصان. وافق على أن يؤدي هذه المَهمَّة سيرًا، ورأيتُه يغادر مُتَّخِذًا الطريق المحاذي للبحر. بعد أن اختفى عن نطاق بصري تمامًا أسرعتُ وأعددتُ نفسي للذهاب، ارتديتُ معطفًا وتلفَّحتُ بوشاح (ذلك لأنَّ الطقس قد صار صقيعًا؛ وكانت أولى لمسات الشتاء الوشيك

تدمـغ نسـيم ذلـك الصبـاح القـارس). لوَهلـة عابِـرَةٍ تمنَّيـتُ لـو أن لـديَّ سـلاحًا ناريًّـا، ثـم ضحكـتُ مِـن نفـسي لسـذاجة هـذه الأمنيـة؛ فما نفـعُ أي أسـلحة ناريـة في أمـرٍ كهـذا؟

خرجـتُ مـن ناحيـة غرفـة الاحتفـاظ بالمؤَن وتبريـد اللحـوم، وتوقَّفـتُ لحظـة لـكي أتطلَّـع إلى البحـر والسـماء لمـرة أخـيرة؛ ولـكي أشـعر برائحـة الهـواء النقـي الطَّلـق في مقابـل ريـح العَفَـن والتَّفسُّـخ التـي أعلـم أنننـي لا بـدَّ أن أشـمَّها بعـد وقـت قصـير؛ ولـكي أرى نورسًـا يحـوِّم تحـت السـحب مفتِّشًـا عـن طعـام.

التفتُّ، وإذا بكالڤن ماكان واقفٌ أمامي.

قـال: "لـن تذهـب وحـدك"؛ وكان وجهـه جـادًّا مُتجهِّـمًا كـما لم أره مـن قبـل قَـطُّ.

شرعتُ أقول: "ولكن، يا كالڤن...".

"كلَّا، ولا كلمـة واحـدة! سـنذهب معًـا ونفعـل مـا يجـب فعلـه، أو سـأعيدك إلى المنـزل ولـو رغـمًا عنـك. أنـتَ لسـت بخـير حـال. ولـن تذهـب بمفـردك".

مـن المسـتحيل أن أصـف العواطـف المتنازعـة التـي غمرتنـي آنـذاك؛ ارتبـاك، وإهانـة، وامتنـان- غـير أنَّ العاطفـة الأغلـب كانـت هـي المَحبَّـة.

اتَّخذنـا طريقنـا في صمـت بجانـب المنـزل الصيفـي والسـاعة الشمسـية، وعـلى امتـداد المنحـدر المغطَّـى بالعشـب، داخلـين في الغابـة. كان كل شيءٍ سـاكِنًا سـكونَ المـوت؛ فَـلا طائـر يصيـح ولا جُدجُـد يـصرُّ. بـدا العـالم مُلتفًّـا بكاملـه في لفـاحٍ مـن صمـت. لم يكـن هنـاك إلَّا رائحـة المِلـح الحـاضرة أبـدًا، ومِـن بعيـد للغابـة تهـبُّ مسـحة طفيفـة مـن دخـان حطـب محـترق. كانـت الغابـة فيضًـا فاتنًـا ومزَخرفًـا مِـن الألـوان، لكـن في عينـي أنـا، بـدا كأنَّ اللـون المسـيطر عليهـا جميعًـا هـو الأحمـر الدمـوي.

وسرعان ما تبدَّدَت رائحة الملح، وحلَّت أخرى محلَّها، أشدُّ شرًّا وشَناعةً؛ ذلك العفن الذي ذكرتُه. عندما بلغنا الجسر المائل والممتدَّ عبر نهر الرويال، توقَّعتُ مِن كال أن يطلب مني مرة أخرى أن أذعنَ لرأيه، لكنه لم يفعل. توقَّف لحظة، ونظر نحو ذلك البرج الكئيب الذي بدا كأنه يهزأ بالسماء الزرقاء أعلاه، ثم نظر نحوي، وواصلنا المسير.

سِرنا بخطوات سريعة وإن كانت مذعورة، متَّجِهَيْن صوب كنيسة جيمس بوون. كان الباب ما زال مواربًا منذ خروجنا الأخير، وبدت الظُّلمة بالداخل تُحدِّق إلينا عابِسةً. إذ صعدنا الدرج، شعرتُ كأنَّ قلبي يمتلئ بنحاسٍ بارد؛ ارتعشت يدي بينما ألمس مقبض الباب وأجذبه. كانت الرائحة بالداخل أبغَضَ وأخبَثَ مِن أي وقت سابق.

خطونا إلى غرفة الانتظار المظلَّلة، ودون أن نتلبَّث هناك، دخلنا إلى القاعة الرئيسية.

كانت حُطامًا وخرابًا.

لا بدَّ أنَّ شيئًا جبَّارًا فعلَ فِعله هناك حتَّى حلَّ بالمكان دمارٌ عظيم. انقلبت الآرائك الخشبية المثبتة في الأرضيات وتكوَّمت كأنها حِفنة عيدان ممَّا يتلاعب بها الأطفال. وصليبُ الشَّرِّ ذلك مُلقًى على الحائط الشرقي، وفي الجصِّ الذي يعلوه انفتحت ثغرةٌ مُثلَّمة شاهِدًا على مقدار القوة التي قُذف بها الصليب. انتُزِعَت المصابيح الزيتية مِن مواضعها، وامتزجت رائحة زيت الحوت بالنَّتَن الرهيب الذي سادَ البلدة بكاملها. وبامتداد الممرِّ الأوسط بين صفوف المقاعد، انشقَّ طريقٌ مِن صديد أسود ممتزج بعروقٍ دموية ملتفَّة في دوائر شريرة، كأنه طريق زفافٍ مروِّع فظيع، وتَبِعَته أعيُننا إلى أن رأينا منبر الوعظ- الشيء الوحيد الذي لم يُمَسَّ في محيط نظرنا. ومن فوق المنبر

حدَّقت إلينا عينان لامعتان، مِن وراء ذلك الكتاب المجدِّف، لجُثَّة حَمَلٍ ذَبيح.

همسَ كالڤن: "ربَّاه!".

اقتربنا مِن المذبح، محاذِرَيْن لكيلا نطأ المادة اللَّزِجة على الأرض. ردَّدَت القاعة أصداء خطواتنا وبدت كأنها تُحوِّلها إلى صوت قهقهةٍ عملاقة.

صعدنا الدَّرَج معًا. لم يكن الحَمَلُ مُمزَّقًا أو مأكولًا؛ بل بدا كأنه قد عُصِرَ بشدَّة حتَّى أُرغمت الأوعية الدموية على التفصُّد والانفجار. كان الدم يلوِّث المِقرأ الخشبيَّ الحامل للكتاب في بِركٍ غليظة مُنتِنة، ويصل حتَّى قاعدته، ومع ذلك فقد كان السائل الواقع على الكتاب نفسه شفَّافًا، ومن الممكن رؤية الأحرف الرونية صعبة القراءة من خلاله كأنه مجرَّد زجاج ملوَّن!

سأل كال، في ثبات: "أيجب علينا أن نلمسه؟".

"نَعم. يجب عليَّ ذلك".

"ماذا ستفعل؟".

"ما كان لا بُدَّ مِنه منذ ستِّين عامًا مضت. سوف أدمِّر هذا الكتاب".

أَزَحنا جُثَّة الحَمَل بعيدًا عن الكتاب فتدحرجت ووقعت على الأرض منبطحة بصوت ارتطامٍ مخيف. بدت الآن الصفحات الملطَّخة بالدم كأنها حيَّة وتُشعُّ بوميضٍ أحمر فاقعٍ ينبعث من داخلها.

بدأتُ أسمعُ في أذنيَّ جلجلة أجراسٍ وطنينًا وهديرًا؛ كأنَّ إنشادًا خفيضًا ينبعث مِن الجدران ذاتها. أدركتُ مِن التعبير المشوَّه على وجه كال أنه سمعَ ما سمعتُ. اهتزَّت الأرض مِن تحتنا، كما لو أنَّ ذلك الشيطان الذي استولى على هذه الكنيسة قد أتى الآن إلينا

بنفسـه، ليَـذودَ عـن مُلْكـه. خُيِّـل لي أنَّ النسـيج السـليم للمـكان والزمـان قـد التـوى وتصـدَّع؛ بـدت الكنيسـة حافلـةً بأطيـافٍ وأضيئـت ببريـقٍ مـن جهنَّـم لنـيران بـاردة أبديَّـة. وخُيِّـل إليَّ أيضًـا أننـي رأيـتُ چيمـس بـوون، مسـخًا بَشِـعًا مشـوَّه الخِلقـة، يتوثَّـب حـول جُثَّـة مُـدِّدَت أرضًـا لامـرأةٍ مـا، ومـن خلفـه عـم أبي فيليـب، شـمَّاس معـاون في رداء كهنـوتي أسـود ذي غطـاء للـرأس، ويحمـل سـكِّينًا ووعـاءً.

‘Deum vobiscum magna vermis’.

أخـذت الكلـمات المرتسـمة عـلى الصفحـة قُبالتـي تنتفـض وتتلـوَّى، وتتـشرَّب بـدَم الأضحيـة البشريـة، قربانًـا لمخلـوق يجرجـر نفسـه متثاقـلًا في موضـعٍ مـا وراء النجـوم- ورَعيَّتـه مجتمعـة أمامـه، أنـاسٌ بـلا أبصـار مُهجَّـنين وأبنـاء زنـا محـارم، وقـد أخـذوا يتمايلـون ويتأرجحـون في مديـحٍ شـيطاني غابـت فيـه العقـول؛ بوجـوهٍ تشـوَّهت وامتـلأت بلهفـةٍ جائعـة وترقُّـبٍ عَـصيٍّ عـلى الوصـف- وفجـأة اسـتبدلوا باللاتينيـة لسـانًا آخـر أقـدَمَ كثـيرًا، لسـانًا كان عتيقًـا حـين كانـت مِـصرُ لم تَـزل شـابَّةً وأهراماتهـا لم تُشـيَّد بَعـدُ، لسـانًا كان عتيقًـا في أوان الخلـق إذ الأرض مُعلَّقـة في كتلـة مِـن جَلَـد السـماء المشـوَّهة تغـلي بأبخـرة وغـازات خاويـة: ڤـج

‘Gyyagin vardar Yogsoggoth! Verminis! Gyyagin! Gyyagin! Gyyagin!’.

أخـذَ خشـبُ المنـبر ينشـقُّ وينفصـل بعضـه عـن بعـض، ويندفـع بقـوةٍ للأعـلى- صرخَ كالڤـن ورفـع ذراعًـا ليحمـي وجهـه. ارتعـدَ الـدرج في رَجَّـةٍ مُدلهمَّـة كأنـه سـفينة تتحطَّـم وسـطَ ريـحٍ صرصرٍ عاتيـة. اختطفـتُ الكتـاب بيـدي ورفعتـُه بعيـدًا عنـي؛ وأحسسـتُ بـه ممتلئًـا بسـخونة كأنهـا قلـب الشـمس وأحسسـتُ أننـي لا بـدَّ سـوف أحـترق ويعمـى بـصري.

صرخَ كالڤن: "اركض! اركض!".

لكنني وقفتُ متجمِّدًا في موضعي، وذلك الكيانُ الدخيل الآتي مِن البعيد تسرَّب إليَّ وأخذ يملؤني وكأنني وعاء له، وعاء ظلَّ في انتظاره لسنوات- بل لأجيال!

وجدتُني أصيح: "جيياجين فاردار! خَادِم اليوجسوجوث، الذي لا يسمَّى! الدودة الآتية من وراء المكان! آكلةَ النجوم! حاجبةَ الزمان! فيرمينيز! الآن حانت ساعة الملء والإشباع، حانَ وقت التمزُّق والهَتك! فيرمينيز! آلياه! آلياه! جيياجين!".

دَفعني كالقن فترنَّحتُ، دارت الكنيسة كلها أمام عينيَّ، وسقطتُ على الأرض. ارتطم رأسي بحافَّة أحد المقاعد المقلوبة، وملَأَت رأسي نيران حمراء، ومع ذلك فقد بدت كأنها تُطهِّره وتُصفِّي عقلي.

مددتُ يدي أتلمَّس في الظلام ثِقابَ الكبريت التي أحضرتُها معي.

امتلأ المكانُ بدَويٍ باطني كأنه يصدر من تحت الأرض. تساقط الجَصُّ. دوَّى صوتُ الجرس الصدئ في برج الكنيسة بجلجلة شيطانية مختنقة ذات ذبذبة متجانِسة.

اشتعل عود الثقاب. لمستُ به الكتاب في اللحظة ذاتها التي أخذ فيها المنبر كله يتفجَّر للأعلى وتنشقُّ أخشابه مندفعة في كل اتجاه، وإذ اختفى تكشَّف مِن تحته عن فوَّهة هائلة سوداء؛ ترنَّح كال وسقط فيها، لكنه تَعلَّق بحوافِّها بيديه؛ تضخَّم وجهه في صرخةٍ بلا كلمات سوف أظل أسمعها في أذنيَّ إلى الأبد.

وعندئذٍ انبثقَ جَيَشانٌ هائل الضخامة مِن جسَدٍ لَحميٍّ رمادي مُترَجرِجٍ. أصبحت الرائحة فيضًا كابوسيًّا كاسحًا. كأنَّ بركانًا انفتح وأخذ يقذف حممًا مِن مادة هلامية دَبِقة ومُتقيِّحة وذات بثور، شكلٌ بشع وكبير كأنه أخذ يندفع من الأسفل للأعلى بقوةٍ شديدة طالعًا مِن باطن الأرض. ورغم ذلك، حلَّت بي فجأة لحظة إدراك رهيب، بما يتجاوز عِلم أي إنسان؛ إذ أدركتُ أنَّ ذلك الذي ظهرَ كله ليس إلَّا

دائـرة واحـدة صغـيرة للغايـة، قِطعـة صغـيرة للغايـة، مِـن وحـش دُودِيٍّ كان موجـودًا في حالـة عَـماء منـذ سـنوات في الظـلام المجـوَّف أسـفل تلـك الكنيسـة المقيتـة!

توهَّـج الكتـاب محترقًـا بـين يـديَّ، وبـدا الـشيء كأنـه يـصرخ بـلا صـوت مِـن فـوق. تلقـى كالقـن ضربـةً جانبيـة فانقـذف طائـرًا عـلى امتـداد الكنيسـة كأنـه مجـرَّد دُميـة هشَّـة مكسـورة الرقبـة.

خمـدَ- همـدَ ذلـك الـشيء وغـارَ عميقًـا، تـاركًا خلفـه هُـوَّة هائلـة محطَّمـة، يحيـط بهـا ذلـك القيـح والصديـد الأسـود، وصرخـة هائلـة، صـوت بـكاء خفيـض مكتـوم بـدا كأنـه يتقهقـر عـبر مسـافاتٍ كونيـة جبَّـارة، إلى أن تبـدَّد تمامًـا.

نظرتُ للأسفل. كان الكتاب رمادًا.

أخذتُ أضحك، ثم أعوي مثل حيوانٍ جريح.

غـادرني كل عَقـلٍ ورشـاد، فجلسـتُ عـلى الأرض والـدم ينـزف مـن صدغـي، أصرخ وأبربـر بـكلامٍ بـلا معنـى نحـو تلـك الظِّـلال المُدنَّسـة، بينـما كان كالقـن مُمـدَّدًا في الركـن القَـصيِّ، ناظـرًا نحـوي في ثبـاتٍ بعينـين لامعتـين ومصعوقتـين هَـولًا.

لا عِلـم لـديَّ بالمـرة كَـم مِـن الوقـت بقيـت عـلى تلـك الحـال؛ فذلـك أمـرٌ لا سـبيل لتحديـده. لكنـي بعـد أن عـدتُ إلى رُشـدي، كانـت الظِّـلال قـد رسـمت مسـاراتٍ طويلـة مـن حـولي، وجلسـتُ في الغسـق، وشـدَّت عينـيَّ حركـةٌ مـا، حركـةٌ صـادرة عـن الهُـوَّة المحطَّمـة في أرضيـة مجـاز الكنيسـة.

شقَّت يدٌ طريقها من بين ألواح الخشب المتشقِّقة.

اختنقـت ضحكتـي المخبولـة ووقفـت في حلقـي، وانصهـرت حالتـي الهيسـتيرية بكاملهـا في بـؤرة جمَّـدَت الـدَّمَ في عروقـي وأفقدتنـي الحِـسَّ والشـعور.

في تباطـؤٍ انتقامـيٍّ رهيـب، بَـدَت هيئـة محطَّمـة تشـدُّ نفسـها للأعـلى مـن الظلـمات، وتطلَّعَـت نحـوي شـذرًا نصـفُ جمجمـةٍ، والخنافـس تزحف فـوق جبهتهـا التـي تسـاقط عنهـا الجِلـدُ واللحـم. في الفجوتـين المائلتـين لعظمَتَـيْ الترقـوة المتحلِّلَتـين تعلَّـق بقايـا رداءٍ رهبـانيٍّ تَحلَّـل نسـيجه. لم يبـق إلَّا العينـان تُشِـعَّان بوميـض أحمـر، مثـل حفرتـين مـن جنـون تحدِّقان إليَّ بنظـرة ناريـة مسـعورة تجاوَزَت كُلَّ حَـدٍّ؛ وتسـطعان بالحيـاة الخاويـة لـكل القِفـار والخرائـب غـير المطروقـة وراءَ حـواف هـذا العالَـم.

لقد أتى هذا الشيء لكي يجرَّني للأسفل نحو الظلام.

في هـذه اللحظـة فَـرَرتُ صارخًـا، تـاركًا جُثَّـة صديق عمـري مُهمَلَـةً بغير اعتنـاء ولا تكريـم في مـأوى الأهـوال ذلـك. جريـتُ حتَّـى كاد الهـواء ينفجـر كالحِمـم البركانيـة في رئتـيَّ وعقـلي. جريـتُ حتَّـى بلغـتُ مـن جديـد هـذا المنـزل المسـكون والموصـوم بالشـؤم واللعنـات، ثـم غرفتـي، حيـث انهـرتُ تمامًـا وظللـتُ راقـدًا رقـادَ المـوتى إلى هـذا اليـوم. جريـتُ لأننـي حتَّـى في قلـب لوثتـي تلـك، وحتَّـى في تلـك الصـورة المحطَّمـة المنحطَّـة التـي ظهـر عليهـا ذلـك الشـكل الهالـك والمتمسِّـكُ بنـوعٍ مـن الحيـاة معًـا، حتَّـى وسـط ذلـك كلـه تعرَّفـت فيـه عـلى الشَّـبَه العائـلي. ومـع ذلـك، فلـم يكـن هـذا الشَّـبه يخـصُّ فيليـب ولا روبـرت، واللذيـن أعـرف قسـماتهما المعلَّقـة في جالـيري الصـور العائليـة المرسـومة بالطابـق العلـوي. كان ذلـك الوجـه المتفسِّـخ العَفِـن يَخـصُّ چيمـس بـوون، حـارس الـدودة!

لم يـزل حيًّـا، وإن لم يَعُـد شـخصًا؛ بـل شـيئًا، حيًّـا في موضـعٍ مـا مـن المتاهـات التَّحتيَّـة الملتفَّـة والتـي لا ينفـذ إليهـا الضـوء، تحـت بلـدة أرض

چيروسالِم وعزبة الشابل ويت- ذلك الشيء لم يزل حيًّا. وقد أحبطه وأعجزه احتراقُ الكتاب، ولكن هناك نسخٌ أخرى.

ومع ذلك فإنني أنا بوَّابته للوجود، وأنا آخِر مَن تبقى مِن نسل سلالة بوون. ومن أجل خير الإنسانية كلها لا بدَّ مِن مَوتي، ولا بدَّ مِن كسر حلقات تلك السلسلة اللعينة إلى الأبد.

سوف أذهب إلى البحر، يا بونز. رحلتي -شأنها شأن قصتي- بلغت نهايتها. لعلَّ الرب يكتب لك الراحة وينعم عليك بالسكينة والسلام.

تشارلز

***

وصلت الحكايات العجيبة المدوَّنة في تلك الأوراق أعلاه، في نهاية المطاف، إلى السيد إيڤريت جرانسُن، الذي كانت موجَّهة إليه في الأساس. افتُرِضَ أن حمَّى الدماغ اللعينة عاوَدَت السيد تشارلز بوون، وكانت قد أصابته أوَّل مرَّةٍ عقب وفاة زوجته عام 1848، فأفقدته هذه المرة عقله حتَّى دفعته إلى قتل مُرافِقه وصديق عمره السيد كالڤن ماكان.

أمَّا التدوينات الواردة في دفتر يوميات السيد ماكان فليست سوى تزويرٍ على درجة مُبهِرة من الإتقان، اقترفه من غير شكٍّ السيد تشارلز بوون نفسه، في جهدٍ منه لتعزيز أوهامه وضلالات جنونه الارتيابي.

ومع ذلك، فقد ثبتَ خطأ تشارلز بوون في نقطتين على الأقل. أولًا، عندما جرى "إعادة اكتشاف" بلدة أرض چيروسالِم (أستخدم هنا المصطلح بالمعنى التاريخي، بطبيعة الحال)، كان مجاز الكنيسة -رغم العَفَن والتحلُّل- سليمًا بلا أيَّة علامة على انفجار أو تَلَفٍ بهذه الضخامة. ورغم أنَّ المقاعد الخشبية العتيقة كانت مقلوبةً وبعض النوافذ مُحطَّمة، فمن الممكن أن يُعزى هذا إلى أفعال مُخرِّبين

أشـقياء مـن البلـدات المجـاورة عـلى مـدى السـنوات. ولم يـزل يَـسري بـين المعمَّريـن مـن سُـكَّان بلـدتَيْ بريـشرز كورنـرز وتاندريـل بعـض شـائعات تافهـة حـول بلـدة أرض چيروسـالِم (ربَّمـا، عـلى أيـام تشـارلز بـوون، كانـت تلـك الأسـطورة الشـعبية البريئـة هـي الحافـز الـذي دفـعَ عقلـه إلى مسـيره نحـو النهايـة المحتومـة)، غـير أنَّ هـذا الـكلام يبـدو غـير ذي صِلـةٍ بالأمـر تقريبًـا.

وثانيًـا، لم يَكُـن تشـارلز بـوون آخـر مَـن تبقَّـى مِـن نسـل هـذه العائلـة؛ لأن جـدَّه روبـرت بـوون قـد أنجـب ولديـن غـير شرعيَّـيْن. مـات أحدهـما في طفولتـه، أمَّـا الآخَـر فقـد حمـل اسـم بـوون وعـاش وأقـام في مدينـة سـنترال فولـز، بولايـة رود آيلانـد. وأنـا آخِـر مَـن تبقَّـى مـن ذُرِّيَـة هـذا الفَـرع البعيـد مِـن عائلـة بـوون؛ أي أننـي أحـد أبنـاء عـم تشـارلز بـوون الثـاني، وقـد نُبِـذَ لثلاثـة أجيـال متواليـة. ظلَّـت تلـك الأوراق في حـوزتي لعـشرة أعـوام، وإني أتيحهـا الآن للنـشر والذيـوع عـلى الملأ بمناسـبة اتِّخاذي مسـكنًا في منـزل أسـلافي مِـن آل بـوون، في عزبـة شـابل ويـت، مُتمنيًّـا مِـن القـارئ أن يجـد في قلبـه بعـض التعاطُـف نحـو المسـكين تشـارلز بـوون، وروحـه التـي ضلَّـت السـبيل. ومـع ذلـك، يمكننـي أن أؤكِّـد أنَّ الرجـل كان مُحِقًّـا بشـأن مسـألة واحـدة فقـط: هـذا المـكان بحاجـة ماسَّـةٍ إلى خدمـات أحـد العاملـين في إبـادة القـوارض.

فـإذا مـا حكمـتُ بمـا أسـمع فقـط؛ لا بـدَّ أن تلـك الجـدران مسـكونة بفـئران ضخمـة الحجـم.

التوقيع: چيمس روبرت بوون- في 2 أكتوبر 1971.

وَرديَّة مُنتَصَف اللَّيل

الجمعة، الثانية صباحًا.

كان هـول جالسًـا عـلى دكَّـة خشـبية بجانـب المصعـد، المـكان الوحيد في الطابـق الثالـث الـذي يمكـن فيـه لواحـدٍ مـن العُـمَّال أن يُدخِّـن سـيجارةً، عندمـا صعـد وورِك، ولم يَسـعَد هـول برؤيتـه، فَليـس مِـن المُفـترض أن يظهـر رئيـس العُـمَّال في الطابـق الثالـث خـلال ورديَّـة منتصـف الليـل؛ بـل مـن المفـترض أن يبقـى بالأسـفل في مكتبـه بالقبـو يصـبُّ لنفسـه فناجـين القهـوة مـن ذلـك القِـدر المنتصِـب في ركـن مكتبـه. وفـوق ذلـك، كان الجـو حـارًّا.

كان شـهر يونيـو هـذا هـو الأشـد حـرارةً الـذي مـرَّ ببلـدة جيتـس فولـز عـلى الإطـلاق، وكان الترمومـتر المُثبَّـت عـلى لـوح دعايـة شراب أورانـچ كـراش، والموجـود بجانـب المصعـد كذلـك بلـغَ ذات مـرَّة درجـة 94 فهرنهايـت (حـوالي 35 سـيليزيَّة) في الثالثـة صباحًـا، فـلا يعلـم إلَّا اللـه

إلى أيٍّ حفرة من جهنَّم يتحوَّل هذا المصنع في وردية بعد الظهر من الثالثة للحادية عشرة.

كان هول يعمل على ماكينة حَلْج تيل القطن الخام وتمشيطه، وهي آلة غير سهلة المراس كانت قد صنعتها شركة، توقَّف نشاطها الآن، في كليفلاند عام 1934. إنه يعمل هنا منذ شهر أبريل فقط؛ ما يعني أنه ما زال يجني أجر الحَدِّ الأدنى، وهو 1.78 دولارًا في الساعة، ولا يجد مشكلة في هذا. لا زوجة، ولا صديقة مستقرَّة، ولا نفقات مُلزِمة تجاه أي إنسان. كان ينتقل من مكان إلى آخر بلا ثبات، وخلال السنوات الثلاث الماضية فقط واصل الانتقال، بالتطفُّل على أي سيارة مارَّةٍ على الطريق السريع، مِن بيركلي (طالب في إحدى الكليات)، إلى بحيرة تاهو (مساعد نادل)، إلى جالفستون (عامل شحن وتفريغ سُفُن)، إلى ميامي (طاهي وجبات سريعة) إلى ويلينج (سائق تاكسي وغاسل صحون)، وصولًا إلى بلدة جيتس فولز في ولاية مين (مُشغِّل ماكينة سَحب وتمشيط القطن). لم يكُن يفكر في الانتقال مجدَّدًا حتَّى موسم سقوط الجليد. كان مَيَّالًا للعُزلة والانفراد بنفسه؛ ولذا أحبَّ تلك الساعات ما بين الحادية عشرة والسابعة صباحًا حيث تكون الدماء المتدفقة في أوردة المصنع في أهدأ حالاتها، فضلًا عن درجة الحرارة.

كانت الفئران هي الشيء الوحيد الذي لم يحبه.

كان الطابق الثالث ممتدًّا ومهجورًا، غير مُضاء إلَّا بوميض النيون يتقطَّع ويُطَقطِق. وعلى عكس طوابق المصنع الأخرى، كان ساكنًا وشاغرًا مُقارنةً بها- أو على الأقل شاغرًا مِن البشر. كانت الفئران مسألةً أخرى. الماكينة الوحيدة في الطابق الثالث هي المحلج؛ وبقية المكان مخصَّص لتخزين أجولة الخام بوزن تسعين رطلًا للجوال، هذا الخام الذي سوف تبتلعه ماكينة هول الطويلة بتروسها المُسنَّنة ليُفرَز

ويُحلَج. كانت أجولة الخام مكوَّمةً في صفوفٍ طويلة، مثل سلاسل من قطع السجق المترابطة. كان بعضها قديمًا ومتروكًا هناك منذ سنوات وصارَ رماديًّا من القذارة والمخلَّفات الصناعية (خصوصًا الأنواع التي ليس عليها طلب مثل الملتون المفكَّك والشرائح المتفاوتة). وجدت الفئران فيها أماكِنَ مثالية للاختباء والعيش، مخلوقات ضخمة ذات بطون سمينة، وأعيُن سريعة الحركة، وأجسامٍ تحفل بالقمل والحشرات الصغيرة.

اكتسبَ هول عادةَ جمع زخيرة صغيرة مِن عُلب المشروبات الغازية من برميل القمامة في أثناء استراحته. وعندما يكون إيقاع العمل هادئًا يسدِّدها نحو الفئران، ثم يستعيدها بعد ذلك عندما يُتاح له الوقت. في هذه المرة فقط ضبطه رئيسُ العُمَّال، حينما صعد الدَّرج مُتسلِّلًا بهدوء، بدلًا من أن يستخدم المصعد؛ وذلك لأنه ابن كلب حقير كما يقول عنه الجميع.

"ماذا تفعل يا هول؟".

"الفئران"، قال هول، ثم أدركَ كم يبدو هذا كلامًا واهيًا الآن وقد تراجَعَت جميع الفئران واستكانت بأمانٍ من جديد في جحورها. "أرميها بعُلَب الصفيح كُلما رأيتُها".

حرَّك ووروِك رأسه في إيماءة بسرعة. كان رجلًا ضخمًا ممتلئًا، شَعره قصيرٌ للغاية من الجانبين على طريقة البحَّارة، قميصه مشمور الكُمَّيْن ورباط عنقه مَحلولٌ ومُرتخٍ للأسفل. نظر إلى هول محدِّقًا: "أنت لا تقبض مرتَّبًا لكي تقذف علب الصفيح على الفئران، يا حضرة. حتَّى ولو التقطتَ العُلَب مرَّةً أخرى".

أجابه هول: "لم يُرسِل لي هاري أمر تشغيل منذ ثلث ساعة"، وفكَّر في نفسه: "لِمَ لا تبقى محطوطًا في مكانك وتشرب قهوتك وخلاص؟". أكمل قائلًا له: "لا يمكنني أن ألقم المحلج شيئًا بلا أمر تشغيل".

أومأ ووروِك برأسه كما لو كان الموضوع لم يَعُد يثير اهتمامه.

قال: "ربما سأصعدُ لأرى ويسكونسي".

"لا شكَّ أنه يُطالِع مجلَّةً بينما تتكوَّم الفضلات في صناديقه".

لم يَقُل هول شيئًا.

أشارَ ووروِك فجأة: "هناك فأر! اضربه ابن الحرام!".

صوَّب هـول عُلبـة مـشروب نيهـي التـي كان يُمسـكها بحركة يَـدٍ سريعة مـن فـوق كتفـه فأطلقـت صفـيراً. كان الفـأر يراقبـه مـن فـوق أحـد أجولـة الخـام بعينـيـن برَّاقتَـيْن ومسـتديرتين مثـل الخرطـوش، فـلاذ سريعًـا بالفـرار وهـو يطلـق صريـرًا خافتًـا. ألقـى ووروِك رأسـه للـوراء وأخـذ يضحـك بينـما ذهـب هـول ليجلـب العلبـة.

قال ووروِك: "أتيتُ لأراكَ بشأن موضوع آخَر".

"وما هو؟".

أجابـه: "الأسـبوع القـادم هـو أسـبوع الرابـع مـن يوليـو"، فأومـأ هـول، كان يعلـم أنَّ المصنـع سـوف يغلـق أبوابـه مـن الاثنـين للسـبت- أسـبوع إجـازة مدفوعـة للرجـال المثبَّتـين في وظائفهـم منـذ عـامٍ واحـد عـلى الأقـل، أمَّـا مَـن اشـتغلوا أقـلَّ مـن عـام فسـوف يُصرفَـون بـلا أجـر. "أتريـد أن تعمـل خلالـه؟".

هزَّ هول منكبيه بلا اكتراث، وقال: "أعمل ماذا؟".

"سـوف نُجـري عمليـة تنظيـف لطابـق القبـو بالكامـل. لم يلمسـه أحـدٌ منـذ اثنـي عـشر عامًـا. فـوضى ودمـار رهيبـان. سـوف نسـتخدم خراطيـم".

"من المؤكَّد أن لجنة البلدية صدَّعت رؤوس مجلس الإدارة، صحيح؟".

وجَّـه ووروِك نظـرة ثابتـة لعينَـيْ هـول. "أتريـد العمـل أم لا؟ دولاران في السـاعة، وضِعـف هـذا في يـوم العيـد نفسـه. سـوف نشـتغل ورديَّـة منتصـف الليـل لأن الجـوَّ سـيكون ألطـف".

حَسـبها بسرعـة. يمكنـه أن يجنـي حـوالي خمسـة وسـبعين دولارًا بعـد خصـم الضريبـة. أفضـل مِـن لا شيء.

"موافق".

"كُنْ موجودًا بالأسفل جنبَ المصبغة يوم الاثنين القادم".

راقبـه هـول وهـو يـشرع في الرجـوع نحـو الـدَّرج. توقَّـف ووروِك للحظـة في منتصـف الطريـق واسـتدار ناظـرًا نحـو هـول، وسـأله: "أنـت كنـتَ طالـبَ جامعـة، صحيـح؟".

أومأ هول مؤيدًا.

"أوكي يا حضرة الطالب الجامعي، سوف أتذكَّر هذه المعلومة".

ذهـب، فجلـسَ هـول وأشـعلَ سـيجارة أخـرى، ممسـكًا علبـة صـودا بإحـدى يديـه ومترقِّبًـا ظهـور الفـئران. يسـتطيع أن يتخيَّـل مـاذا سـيكون عليـه الحـال في القبـو- والحقيقـة أنـه قبـوٌ فَرعـيٌّ، طابـق كامـل أسـفل المصبغـة. رَطـب، مُظلـم، ممتلـئ بالعناكـب وقطـع الأقمشـة المتحلِّلـة والرَّشـح مـن النهـر- وطبعًـا الفـئران. وربمـا حتَّـى خفافيـش، الفـرع الطائـر مِـن عائلـة القـوارض. قَـرف.

قـذفَ العُلبـة بقـوة، ثـم ارتسـمت عـلى وجهـه ابتسـامة خفيفـة عندمـا تناهـى إليـه صـوتٌ واهٍ عـبر القنـوات الواهيـة في السـقف، وتبـيَّن أنـه صـوت ووروِك يُرَنِّـم ويقسِّـم في عبـارات التوبيـخ والتهديـد عـلى مسـمع هـاري ويسكونسـكي.

أوكي يا حضرة الطالب الجامعي، سوف أتذكَّر هذه المعلومة.

تلاشت ابتسامته بسرعةٍ وبلا مُقدِّمات، فَدعسَ عقب سيجارته. ما هي إلَّا لحظات بعد ذلك وبدأ ويسكونسكي يرسل له خام النايلون عبر الأنابيب الهوائية، فقامَ هول إلى العمل. بعد بُرهة خرجت الفئران من جديد واستقرَّت فوق الأجولة في خلفية الغرفة الطويلة وهي تراقبه بأعينها السوداء التي لا تطرف ولا ترفُّ، فَبَدَت كأنها مجموعة من المحلَّفين أو قضاة على وشك إصدار حُكمٍ ما.

***

الاثنين، الحادية عشر مساءً.

كان هناك حوالي ستة وثلاثين رجُلًا يجلسون هنا وهناك، عندما دخل ووروِك مُرتديًا سروالًا من الجينز، وقد دسَّ طرفيه في داخل حذاء مطَّاطي عالي الرقبة. كان هول يستمع إلى هاري ويسكونسكي، الذي كان بالِغ البدانة، وبالِغ الكسل، وبالِغ الكآبة.

كان ويسكونسكي يقول عند دخول رئيس العُمَّال: "ستكون ليلةً سوداء، انتظروا وسوف ترون، سوف نرجع جميعًا إلى بيوتنا ونحن أَسْود من الليل الغطيس".

قال ووروِك: "أوكي! مَددنا أسلاكًا للأسفل ووصَّلنا سِتِّين مصباح كهرباء صغيرًا، وهكذا لا بُدَّ أن تكون إضاءة كافيةً لِترَوا ما تفعلون. أنتم...". وأشارَ إلى حفنة رجال مستندين إلى أسطوانات المجفِّف- "أريد منكم أن تُثبِّتوا هذه الخراطيم التي هناك بمضخِّ الماء الرئيسيِّ بجانب بئر السُّلَّم. يمكنكم أن تمدُّوا الخراطيم نزولًا عبر الدَّرَج. لدينا خرطوم طوله حوالي ثمانين ياردة لكل رَجُل، لا بدَّ أن هذا فيه الكفاية. لا تتظارفوا فَيرشَّ بعضكُم بعضًا بالماء، فمَن سيتعرَّض للمياه سيُرسَل للمستشفى فورًا؛ فالماء يندفع منها بمنتهى الشدَّة".

تنبَّأ ويسكونسكي في تجهُّم ونَكَد: "سوف يتأذَّى شخصٌ ما. انتظروا وسوف ترون".

"أمَّا أنتم"، قالَ وورُوك وهو يشير إلى المجموعة التي كان من بين أفرادها هول وويسكونسكي. "أنتم فريق الفَضَلات الليلة. ستعملون في ثنائيَّات، وكل فريق معه عربة كهربية صغيرة لنقل الأشياء. سوف تجدون أثاثًا مكتبيًا قديمًا، وأجولة قماش، وتلالًا صغيرة من مُعدَّات وآلات مكسَّرة وعطلانة، وكل ما تتخيَّلونه. سوف تكوِّمون ذلك كله إلى جانب برج التَّهوية في الطرف الغربي. هل يوجد مِن بينكم أي شخص لا يعرف كيف يدير عربة كهربية؟".

لم يرفع أحدهم يده. كانت العربات الكهربائية أداةً نافعة، تتحرَّك بالبطاريات، وصغيرة الحجم كأنها شاحنات قمامة ولكن مُنَمنَمَة. بعد الاستعمال المتواصل، كانت تنبعث منها رائحة نتانة مقزِّزة ذكَّرت هول بأسلاك كهربية محترقة.

قال وورِوك: "تمام، قسَّمنا منطقة القبو لأقسام مختلفة، وسوف ننتهي منها بحلول الخميس. ويوم الجمعة سوف نرفع القمامة والفضلات بالونش. أي أسئلة؟".

لم يكن هناك أي أسئلة. تمعَّن هول في وجه رئيس العمل، وانتابه فجأة هاجسٌ كأنه نذير بشيءٍ غريب سيقعُ له قريبًا. وسرَّته الفكرة، فهو لم يكن يميل لهذا الوورِوك كثيراً.

صاح وورِوك: "ممتاز، إلى العمل".

***

الثلاثاء، الثانية بعد منتصف الليل.

ظلَّ هول يستمع إلى ثرثرة ويسكونسكي المتواصلة وجأره بالشكوى الحافلة بالسبِّ والتجديف حتَّى طفح به الكيل وشعرَ بسأم شديد. تساءل في نفسه هل سيكون مِن المجدي لو أحضرَ سوطًا وجلدَ ويسكونسكي. لكنه شكَّ في جدوى هذا، فَلن يفيد إلَّا أن يمنحه سببًا آخر للشكوى والتذمُّر.

كان هول يعلم مِن قبل أنَّ هذه المهمة ستكون سيِّئة، لكن هذا كان قتلًا مُتعمَّدًا. على سبيل المثال، لم يتوقَّع مِثل تلك الرائحة. الزَّخَم الملوَّث المنبعث من النهر، والممتزج بفَوح نسيج متفسِّخ، وأحجار بناء تعفَّنت، ومادة نباتية متحلِّلة. اكتشفَ هول في الركن القصي، حيث بدأ العَمل، وجودَ مُستعمرة مِن فِطر الغاريقون السام، فِطر أبيض كبير الحجم يشقُّ طريقه صعودًا خلال الإسمنت المحطَّم. وقد مسَّت يداه هذا الفِطر وهو يجذب ويرفع عجلة تروس مسنَّنة صَدِئة، وشعرَ حين لمسه بدفء وانتفاخ غريبين، كأنه لحم رجلٍ مصابٍ بداء الاستسقاء.

عجزت المصابيح الكهربائية الصغيرة عن طَرد ظُلمَة اثنتي عشرة سنة؛ لم يسعها إلَّا أن تدفعها للوراء قليلًا وترمي ضوءًا شاحبًا كالمرض على كامل مشهد الفوضى. بدا المكان أقرب إلى صحن مهدَّم لكنيسة مستباحة ومدنَّسة، بسقفه المرتفع وتلك المعدَّات والآلات المهمَلَة المستغنى عنها التي تشبه هياكل الماموث المنقرض، والتي لن يكون بوسعهم تحريكها أبدًا، والجدران المبلَّلة تنتشر عليها رُقَعٌ من طحالب صفراء، وتلك الجوقة النشاز المزعجة للمياه المندفعة في الخراطيم، تجري في شبكة مجارٍ نصف مسدودة تصبُّ أخيرًا في النهر أسفل الشلالات.

ثم الفئران- فئران ضخمة جعلت تلك التي ظهرت في الطابق الثالث تبدو مثل أقزام. ويعلم الله وحده ماذا كانوا يأكلون هُنا.

كانـوا باسـتمرارٍ يَقلِبـون الألـواح والأجولـة فيكتشـفون وجـود جحـورٍ ضخمـة مـن ورق صحـف ممـزَّق، فيشـاهدون في اشـمئزازٍ مـوروثٍ عَـبرَ أسلافهم الأوائـل تلـك الفـئران الأقرب لحجم الجِـراء وهـي تلـوذ بالهـرب في الشـقوق والصـدوع والزوايـا، بأعينهـا الضخمـة العميـاء مـن طـول المكـوث في ظـلام متَّصِـل.

قـال ويسكونسـكي: "لنتوقَّـفْ ونُدخِّـنْ سـيجارة"، بـدا لاهـث الأنفـاس، ولم يـدرِ هُـول لذلـك سـببًا؛ فقـد ظـلَّ يتظاهـر بالعمـل طـوال الليـل. ومـع ذلـك، فالوقـت وقـت سـيجارة فعـلًا، وكانـا الآن بعيـدًا عـن نظـر أي شـخصٍ آخَـر.

"ماشي". واستندَ على حافة العربة الكهربائية وأشعلَ واحدة.

قـال ويسكونسـكي في هَـمٍّ وغَـمٍّ: "مـا كان يجـب عـليَّ أن أدع وورِوك يجـرُّني إلى هـذه المَهمَّـة. ليـس هـذا عمـلًا يليـق برجـل. لكنـه كان مجنونًـا بالغضـب مِنـي في تلـك الليلـة حينـما ضبطني أسـتريحُ في المرحـاض وسروالي عـلى وسـطي غـير مفكـوكٍ ولا شيء، كان مجنونًـا مِنِّـي".

لم يَقُـل هـول شـيئًا. كان يفكـر في وورِوك، وفي الفـئران. أمـرٌ غريـب، كيـف بـدا كلاهـما لـه مربوطـين معًـا. بـدا كأنَّ الفـئران قـد نسـيت كل شيء بخصـوص وجـود البـشر، خـلال إقامتهـا الطويلـة تحـت المصنـع؛ كانـت جريئـة حـدَّ الوقاحـة، وبالـكاد تخـافُ عـلى الإطـلاق. وقـف واحـدٌ منهـم عـلى سـاقيه الخلفيتـين كـما تفعـل السـناجب وانتظـرَ حتَّـى أصبـحَ هـول قريبًـا منـه مسـافة ركلـة، وعندئـذٍ ألقـى بنفسـه عـلى حذائـه العـالي الرقبة وجعـلَ يقـرض الجلـد. مئـات مـن ذلـك الصنـف، ربمـا آلاف.

تسـاءلَ كـم نـوعٍ مـن الأمـراض كانـت تحملهـا معهـا هنـا وهنـاك في هـذه البالوعـة. ثُـمَّ وورِوك. شيءٌ مـا فيـه...

قـال ويسكونسـكي: "أنـا بحاجـة للـمال، ولكـن بحـقِّ يسـوع المسـيح، يـا زميـلي، ليـس هـذا عمـلًا يليـق برجـل! وتلـك الفـئران". أجـالَ بـصره حولـه

مُترَعًا بالخوف. "إنها تبدو وكأنها تفكِّر تقريبًا. عمرك سألت نفسك ماذا سيكون الحال لو كُنَّا نحنُ صغارَ الحجم وكانوا هُم كبارَ الحجم ثم..."، فقاطعه هول: "ياااه، تعرف تخرس؟".

نظر ويسكونسكي نحوه، مجروحَ الشعور. "أَصْل...، آسف، يا زميلي. كل ما هنالك..."، وانخفض صوته حتَّى سكت تمامًا. ثم صاحَ: "يا يسوع! هذا المكان تعفَّن! و ليس هذا عملًا يليق برجل!"، زحفَ عنكبوت من على حافة العربة وتسلَّق ذراعه. نتره بعيدًا عنه بصوت تَقَزُّز مُختَنِق.

قالَ هول وهو يشدُّ نَفَسًا من سيجارته: "هيا بنا، كلَّما أسرعنا انتهينا في وقت أقرب".

"أظنُّ ذلك"، قال ويسكونسكي في بؤس. "أظن ذلك".

***

الثلاثاء، الواحدة بعد منتصف الليل. وقت الطعام.

جلسَ هول وويسكونسكي مع ثلاثة أو أربعة رجال آخرين، يأكلون ساندوتشاتهم بأيدٍ مسودَّة لا يمكن أن يزيل الأوساخَ عنها ولا حتَّى أقوى المنظِّفات الصناعية. أكلَ هول وهو ينظر نحو المكتب الزجاجي الصغير لرئيس العمَّال. كان وورِوك يشرب قهوة ويأكل ساندوتشات هامبرجر باردة بتلذُّذٍ كبير.

قال تشارلي بروشو: "اضطرَّ راي أبسون أن يعود لبيته".

سأله أحدهم: "هل تقيَّأ؟ لقد أوشكت أن أموت".

"أبدًا. راي هذا لن يتقيَّأ إلَّا إذا أكلَ روث البقر. لكن عضَّه فأر". تطلَّع هول بجدِّيَّة، راجعًا ببصره مِن تفحُّص وورِوك. سأل: "صحيح ذلك؟".

"صحيح بجد". قال بروشو وهو يهزُّ رأسه. "أنا كنت في نفس الفريق معه. هذا ألعن شيء رأيته في حياتي. قفز طالعًا مِن فجوة في واحد من أجولة القماش القديمة تلك. كان كبيرًا في حجم قطَّة على الأقل. تشبَّث بِيَدِ المسكين وأخذَ يمضغ".

"يا يسوع!"، هتف أحدُ الرجال، بدا مستجَدًّا عديمَ الخبرة.

فقالَ بروشو: "صحيح بجد. صرخ راي مثل النساء، ولا لومَ عليه. ونزف الدم منه كأنه خنزير مذبوح. فهل اكتفى منه ذلك الشيء وذهب عنه؟ أبدًا يا سيدي. واضطررت أن أضربه بخشبَةٍ ثلاثَ أو أربع مرات حتَّى وقعَ على الأرض. كان راي على وشك الجنون. داس عليه وسحقه بقدميه إلى أن لم يَعُد إلَّا كومَةَ فَروٍ. ألعن شيء رأيته في حياتي. وضع وورِوك ضِمادة عليه وأرسله لبيته. وأخبره بأن يذهب ليرى طبيبًا صباح الغد".

قالَ أحدُهم: "كان ذلك الملعون كبيرًا حقًّا".

وَكَما لو أنَّ وورِوك قد سمعَ حديثهم، فقد نهضَ واقفًا في مكتبه، وتمطَّى، وأتى لدى الباب. "وقت العودة للعمل".

نهض الرجال مُتثاقِلين، وببطء بقدر الإمكان حتَّى يتسنَّى لهم إنهاء طعامهم وتغليف طعام عشائهم، وأخذ عُلب مشروبات باردة أو شراء قطع حلوى. ثم أخذوا ينزلون، وكعوبهم تُقَعقِع بانقباضٍ وتَخاذُلٍ على درجات السُّلَّم الحديدية المشغولة من قضبان متقاطِعَة.

مرَّ وورِوك بهول، ربت على كتفه. "كيف الحال يا حضرة طالب الجامعة؟" لم ينتظر منه جوابًا.

"هيَّا بنا"، قال هول في نفاد صبر لويسكونسكي الذي كان يعقد رباط حذائه. ثم نزلا السُّلَّم.

***

الثلاثاء، السابعة صباحًا.

خرجَ هول وويسكونسكي مِن العمل وسارا معًا؛ بدا لهُول وكأنَّ هذا البولندي البدين طلعَ له في البخت أو ورثه بطريقةٍ ما. كان ويسكونسكي قذرًا ولكن بطريقةٍ كوميدية تقريبًا، وجهه البدين المستدير كان ملطَّخًا وكأنه وجه صبي صغير أمسكه متنمِّرُ البلدة منذ قليل وأوسعه ضربًا وركلًا.

لم يَصدُر عن الرجال الآخرين أيٌّ مِن المشاكسات الخشنة المعتادة ولا شَدٌّ أطراف قمصان بعضهم لبعض، ولا نكات خبيثة حول زوجة توني ويا تُرى مَن ذا الذي كان يدفئها في برد الليل ما بين الواحدة للرابعة فجرًا. لا شيء غير الصمت وبين حين وآخر صوت أحدهم يتنخَّم ويبصق فوق الأرضية القذرة.

سأله ويسكونسكي في تردُّد: "تحب أوصلكَ معي؟".

"شكرًا".

لم يتكلَّما بينما يسيران صُعدًا في شارع المصنع ويعبران الجسر، ولم يتبادلا سوى كلمة موجزة عندما أنزله ويسكونسكي من السيارة أمام شقته.

اتجه مباشرةً إلى الحمَّام ليغتسل، وهو ما زال مشغولًا بووروك، ويحاول أن يحدِّد ما الذي يجعله مشغولًا برئيس العمَّال هكذا، بل وجعله يشعر بأنهما أصبحا مرتبطين معًا على نحوٍ ما.

نام بمجرَّد أن وضع رأسه على المخدَّة، ولكنه كان نومًا متقطعًا ومُضطربًا: رأى في منامه فئرانًا.

***

الأربعاء، الواحدة صباحًا.

كانت مَهمَّة العَمل بالخراطيم هي الأفضل.

لم يستطيعا الدخول حتَّى أنهى فريق إزالة الفضلات قسمًا ما، وكثيرًا ما انتهيا مِن رشِّ المياه بالخرطوم قبل الانتهاء مِن تنظيف القسم التالي- وهو ما كان يعني وقتًا لتدخين سيجارة. أمسكَ هول فُوَّهة أحد الخراطيم الطويلة وأخذ ويسكونسكي يروح ويجيء للأمام والوراء وهو يفكُّ أي التفافات أو عُقَدٍ بامتداد الخرطوم، ويفتح محبس المياه أو يغلقه، ويزيل العوائق والعراقيل في طريقهما.

كان وورِوك منفعلًا وغاضبًا لأنَّ العمل يتقدَّم ببطء بالغ، وبهذه الوتيرة لن ينتهوا بالمرة بحلول يوم الخميس.

كانوا الآن يعملون على كومة مرتبكة ومختلطة من أثاث مكتبي ينتمي للقرن التاسع عشر تكوَّم في أحد الأركان: مناضد كتابة محطَّمة، سجلَّات مُتحلِّلة، ورُزَم من الفواتير، مقاعد تكسرت أجزاء الجلوس فيها- وكانت تلك الكومة جنَّةً للفئران. أطلق العشرات منهم صريرًا حادًّا وركضت عبر ممرَّاتٍ مُظلِمة ومجنونة نُخِرَت في الكومة، وبعد أن عضَّت الفئران رَجُلَين رفضَ الآخرون العمل حتَّى يُرسل وورِوك أحدهم إلى الأعلى ليحضرَ قفَّازات مطَّاطية ثقيلة، مِن النوع الذي يُحفَظ غالبًا لفريق العمل في المصبغة لأنه يتحتَّم عليهم التعامُل مع الأحماض الكاوية.

كان هول وويسكونسكي منتظرين للدخول بخراطيمهما عندما اندفعَ رجلٌ متقهقرًا، ثخين الرقبة كالثور وبشعرٍ أشقر فاتح ويُدعَى كارمايكل، وهو يعوي ويصيح باللعنات، ويلطم صدره بيدين مختبئتين في قُفَّازين.

فأرٌ ضخم بفراء فيه خطوط رمادية وعينين قبيحتين براقتين، كان قد عضَّه من قميصه وتعلَّق هناك، يطلق صريرًا ويرفس بطن كارمايكل

بقدميه الخلفيتين، إلى أن استطاع كارمايكل أخيراً أن يطرحه بعيدًا عنه بقبضته، لكن كانت هناك فجوة كبيرة في قميصه، وخيط دمٍ رفيع ينزُّ من فوق إحدى حلمتي صدره. تلاشى الغضب من وجهه، واستدارَ عن الآخرين وهو يغالبُ القيء.

وجَّه هول الخرطوم على الفأر، الذي كان عجوزًا وبطيء الحركة، ولم تزل بين فكَّيه مِزقَةٌ من قميص كارمايكل. ضغط الماء الهادر أبعده للوراء عند الجدار، حيث انسحقَ هامدًا.

أتى ووروِك وعلى شفتيه رسمَ ابتسامة غريبة مصطنعة. ربَّت على كتف هول. "أليس هذا المنظر أحسن مِن إلقاء عُلب الصفيح على الملاعين الصغار، هه يا فتى الجامعة؟".

فقال ويسكونسكي: "يا له من ملعون صغير، إنه بطول قَدم".

قال ووروِك مُشيراً نحو كومة الأثاث: "وجِّه ذلك الخرطوم هناك. وأنتم أفسحوا الطريق!".

غمغم أحدهم: "بكل سرور".

توجَّه كارمايكل إلى ووروِك في تحفُّز، بوجهٍ ملتوٍ يبدو عليه الغثيان: "سوف أطالب بتعويضٍ عن هذا! وسوفَ..."،

فقاطعه ووروِك مبتسمًا: "طبعًا، طبعًا، عضَّك الشرير في الحَلَمة. ابعد عن طريق الخرطوم قبل أن يهرسك هذا الماء ويلصقك في الجدار".

وَجَّه هول فوَّهة الخرطوم وترَكَ الماء يضرب بانفجارٍ أبيض من الرشاش، محطِّمًا مكتبًا ومُحوِّلًا مقعدين إلى كسرات خشب. اندفعت الفئران راكِضةً في كل مكان، وكانت أكبر حجمًا ممَّا سبق لهُول أن رأى طيلة عمره. سمعَ الرجالَ يُطلقون صيحات التقزُّز والرُّعب بينما كانت تلك الكائنات تَفرُّ، بأعينها الضخمة وأجسامها الملساء الممتلئة

لحـمًا. لمـحَ بطـرف عينـه فـأرًا كان كبـيرًا في حجـم جـروٍ موفـور الصحـة عمـره شـهرٌ ونصـف عـلى الأقـل. واصـل عملـه حتَّـى لم يَعُـد بوسـعه أن يـرى المزيـد منهـم، فأغلـق عندئـذٍ الفوَّهـة.

صاحَ وورِوك: "أوكي! فلنجمعها الآن!".

أعلـنَ أحدهـم العصيـان، يُدعَـى سي واي إبسـتُن، إذ صـاحَ قائـلًا: "أنـا لم آتِ للعمـل في مكافحـة القـوارض!". كان هـول قـد تنـاول معـه شرابًـا مـرة أو مرتـين في الأسـبوع السـابق. كان شـابًّا، عـلى رأسـه قبعـة بيسـبول لوَّثهـا السـخام، ومرتديًـا تيشـيرت.

تساءل وورِوك في نبرة دمثة: "أهذا أنت يا إِبستُن؟".

بـدا الـتردُّد عـلى إبسـتُن، لكنـه اتخـذ خطـوةً للأمـام. "نعـم، أنـا. لا أريـد مزيـدًا مـن تلـك الفـئران. لقـد تـمَّ توظيفـي في هـذه المهمـة للتنظيـف، وليـس لاحتـمال أن أُصـابَ بالسُـعار أو التيفـود أو مـرضٍ مـا. ربمـا يكـون مـن الأفضـل أن تسـتبعدني مِـن هـذا العمـل".

سرَت بـين الآخريـن غمغمـة موافَقـة عـلى كلامـه. اختلـسَ ويسكونسـكي نظـرة نحـو هـول، لكـن هـول كان منشـغلًا بتفحُّـص فوَّهـة الخرطـوم الذي بـين يديـه. كان عيـار الماسـورة مثـل سـلاح نـاري عيـار 45 ويمكـن لاندفـاع المـاء منـه أن يزيـح رجـلًا للأمـام مسـافة عشريـن قدمًـا.

"هـل أفهـم مِـن كلامـك يـا سي واي أنـك تريـد أن تـضرب بطاقتـك في السـاعة وتمـشي الآن؟".

فقال إبستُن: "هذا ما أفكِّر فيه فعلًا".

فأومـأ وورِوك. "تمـام. أنـت وأي شـخص آخـر غـيرك يريـد أن يمـشي فليمـشِ. ولكـن هـذه ليسـت منشـأة تابعـة للنقابـة يـا جماعـة، ولم تكـن كذلـك يومًـا مـا. اضرب بطاقتـك الآن وامـشِ ولـن تضـع قدمًـا في هـذا المـكان مـرة ثانيـة. صدقنـي سـوف أحـرص عـلى هـذا".

غمغم هول: "ما أبدعك، ما أروعك".

استدار وورِوك بسرعة ملتفتًا له. "قلت شيئًا، يا حضرة طالب الجامعة؟".

نظر هول إليه بوَجه لا مُبالٍ. " كنتُ أتنحنح، يا ريِّس".

فابتسم وورِوك: "شيء واقف في زورك؟".

لم يردَّ هول.

جعجع وورِوك: "تمام، فلنجمعها!".

عادوا جميعًا إلى العمل.

***

الخميس، الثانية صباحًا

كان هول وويسكونسكي يعملان مِن جديد على رَفْع المخلَّفات ونقلها بعيدًا. غربَ بئر التهوية، كانت الكومة قد كبرت وعَلت حتَّى بلغت أبعادًا مُذهِلة، غير أنهما لم يكونا قد أنهيا إلَّا نصف العمل بَعدُ.

عندما توقَّفا لتدخين سيجارة، قال ويسكونسكي: "رابع مِن يوليو سعيد عليك". كانا يعملان قريبًا مِن السور الشَّمالي، بعيدًا عن السلالم. وكان الضوء كابيًا لأقصى حَدٍّ، وقد جعلت خدعةٌ ما في انتقال موجات الصوت الرجالَ الآخرين يبدون كأنهم على مسافة أميال عديدة.

أجابه هول: "شكرًا لك"، وأخذ نفسًا مِن سيجارته. "لم أرَ فئرانًا كثيرة الليلة".

فقال ويسكونسكي: "ولا أحد غيرك رآها، ربما تعقَّلت".

كانا يقفان عند طرف زقاقٍ متعرِّج مجنون، تشكَّل مِن كومات السِّجلَّات والفواتير القديمة، وجوالات القماش المتحلِّل، ونولي نسيج

ضخمين ومُسطَّحين مِن طرازٍ عتيق للغاية. قال ويسكونسكي، باصقًا: "قرف! ذلك الووروِك...".

تساءلَ هول، مُحدِّثًا نفسه تقريبًا: "تُرى إلى أين ذهبت كل تلك الفئران؟ ليس وراء الجدران...". ونظرَ نحو البناء الحجري المبتلّ والمفَتَّت المحيط بأحجار الأساس الضخمة. "لو فعلت ستغرق. فَماء النهر يصل لكل شيءٍ".

فجأة انقضَّ عليهم مِن الأعلى شيءٌ ما أسود مرفرفًا. صرخَ ويسكونسكي ووضعَ يديه فوق رأسه.

"خُفَّاش". هكذا قال هول، وهو يتابعه بعينيه بينما ينتصب ويسكونسكي واقفًا من جديد.

ثارَ ويسكونسكي مُهتاجًا: "خفَّاش! خفَّاش! ماذا يفعل خُفَّاش في القبو؟ مفترض أن يكونوا في الأشجار أو تحت الأفاريز والـ..".

قال هول بصوتٍ خفيض: "كان خفاشًا كبيرًا، وما الخفَّاش إلَّا فأرًا بجناحين؟".

تأوَّه ويسكونسكي في عويل: "آه، يا يسوع، كيف أمكنه أن...".

"أن يدخل القبو؟ ربما بنفس طريقة خروج الفئران منه".

"ما الذي يجري لديكم هناك؟". صاح ووروِك مِن مكان ما وراءهما. "أين أنتما؟".

فقال هول بهدوء: "لا داعي للقلق". برقت عيناه في الظلام.

نادى ووروِك، وقد بدا صوته أقرب: "أكانت تلك صرختك أنت، يا فتى الجامعة؟".

صاحَ هول: "لا بأس! لقد خدشتُ ذقني!". فضحكَ ووروِك ضحكة قصيرة كأنها زمجرة. "والآن هل تريد وسام القلب القرمزي مكافأةً على شجاعتك؟".

نظر ويسكونسكي نحو هول. "لماذا تقول ذلك؟".

"انظر". انحنى هول وأشعل عود ثقاب. كان هناك مربَّعٌ في وسط الإسمنت المبلَّل والمفتَّت. "انقر هُنا".

فَنقرَ ويسكونسكي، وقال: "إنه خشب".

أومأ هول برأسه اتفاقًا. "إنه قِمَّة دُعامة سقف. لقد رأيتُ بعضًا آخَر منها في الأنحاء هَا هُنا. يوجد مستوى آخَر تحت هذا الجزء من القبو".

"ربَّاه"، قال ويسكونسكي في اشمئزاز تام.



***

الخميس، الثالثة والنصف صباحًا.

كانا في الركن الشمالي الشرقي، ومِن خلفهما إبستُن وبروشو ومعهما أحد خراطيم الضغط العالي، عندما توقَّف هول وأشارَ نحو الأرضية. "هناك، أظنُّ أننا عثرنا عليه في ذلك الموضع".

كان هناك بابٌ سِرِّيٌّ خشبي في الأرضية، مثبَّت بمسمار برغي حديدي قديم ومقشَّر بالقرب من المركز.

سارَ راجعًا إلى إبستُن وقال: "أغلق الماء لدقيقة". وعندما اختنقَ صوت الماء وتراجع حتَّى تقطَّر، رفعَ صوته وصاحَ: "وورِك، يا وورِك! من الأفضل أن تأتي إلى هنا دقيقة!".

أتى وورِك، يطرطش الماء حولَ قدميه، ونظرَ نحو هول وفي عينيه نفس تلك الابتسامة الجافَّة الصلبة. "ماذا حدث هذه المرة؟ انفكَّ رباط حذاءك يا فتى الجامعة؟".

فقالَ هول: "انظر"، وركلَ الباب السريَّ بقدمه. "هذا قبو فرعي".

سألَ ووروِك: "وماذا إذن؟ هذه ليست فترة راحة، لا بدَّ...".

فقال له هول: "هذا هو مكان فئرانك، إنها تتناسلُ هناك بالأسفل. بل إننا، أنا وويسكونسكي، رأينا خفاشًا منذ قليل".

تجمَّع حولهما بعض الرجال الآخرين وأخذوا ينظرون نحو فتحة الباب السري في الأرضية.

قال ووروِك: "لا يهمني، كانت المهمة تنظيف القبو، وليس...".

كان هول يقول: "ستكون بحاجة إلى فريق من مكافحة القوارض، حوالي عشرين فردًا منهم، ومدرَّبين جيدًا".

"بكل أسف، سيكلِّف هذا الإدارةَ مبلغًا معتبراً".

ضحك أحد الرجال، قائلًا: "رابِع المستحيلات".

نظرَ ووروِك إلى هُول كما قد ينظر صبيٌّ يعذِّب حشرة تحت عدسة مكبِّرة في نور الشمس. قال له بنبرة تتظاهر بالافتتان: "أنت فعلًا تحفة فريدة، أتظن أنني أهتم أدنى اهتمام بعدد الفئران الموجودة هناك بالأسفل؟".

فقال هول: "مِن الجيد أنك لا تتوقَّف عن تذكيري بأني كنتُ طالبًا جامعيًّا ذات يوم، لقد زرتُ المكتبة العامة عصر هذا اليوم، وأمس أيضًا. وهناك اطَّلعتُ على القوانين المنظمة لتقسم المنشآت العامة في البلدة، وُضعت عام 1911 يا ووروِك، قبل أن يصبحَ هذا المصنع كبيراً بما يكفي للانضمام إلى مجلس تقسيم المدينة. أتعرف ماذا اكتشفت؟".

كانت عينا ووروِك باردتين. "خُذْ لك سِكَّة، يا فتى الجامعة. أنت مفصول من العمل".

"اكتشفت"، واصل هول حديثه كما لو أنه لم يسمع ما قيل: "اكتشفتُ أنَّ هناك قانون تقسيم لبلدة جيتس فولز خاصًّا بمكافحة الآفات والدُّويبات الضارَّة. د-و-ي-ب-ا-ت، هذا هجاؤها في حالة إن

كنـت تتسـاءل. والمقصـود جميـع الحيوانـات الحاملـة للأمـراض مثـل الخفافيـش والظرابـين -والـكلاب غـير المرخَّصـة- والفـئران. وخصوصًـا الفـئران. بـل إن الفـئران وحدهـا ذُكـرَت أربـع عـشرة مـرَّة في فقرتـين اثنتـين فقـط، يـا حـضرة ريـس العـمَّال. لذلـك فليكـن في معلومـك أننـي في نفـس دقيقـة فصـلي مـن العمـل سـأتوجَّه مبـاشرة إلى مكتـب مأمـور البلـدة المفـوَّض مـن الحكومـة، وأُطلِعـه عـلى تفاصيـل الوضـع بالأسـفل هنـا".

توقَّـف هُنيهـة، كأنمـا ليلتـذَّ برؤيـة وجـه وورِوك محتقنًـا بالبُغـض. "أعتقـد أنَّ الأمـر سـيكون بيننـا، أنـا وهـو ولجنـة مجلـس البلـدة، ونسـتطيع أن نسـتصدر أمـرًا قضائيًّـا بإغـلاق هـذا المـكان. وهكـذا سـوف تغلـق المصنـع فـترة أطـول كثـيرًا مـن يـوم سـبتٍ واحـد، يـا ريِّـس. وأنـا أتخيَّـل مـا سـوف يقولـه لـك رئيسـك عندمـا يحـضر. أتمنَّـى ألَّا تكـون نسـيت دَفـع أقسـاط تأمـين البطالـة لأنـك قـد تحتـاج إليـه قريبًـا، يـا وورِوك".

اتَّخَـذَت يـدا وورِوك شـكل المخالـب. "أنـت أيهـا اللعـين، يـا طفـلًا يسـيل مخاطـه مـن أنفـه، كان عـليَّ أن..."، ثـم حانـت منـه نظـرة إلى البـاب الـسِّرِّيِّ، وفجـأة اسـتعادت ابتسـامته مكانهـا عـلى وجهـه. "اعتـبر نفسـك غـير مفصـول، يـا فتـى الجامعـة".

"قلتُ لنفسي إنك قد تفتح عينيك وتتفهم الموقف".

أومأ وورِوك برأسه إيجابًا، وعلى وجهه نفس الابتسامة الغريبة.

"أنـتَ فعـلًا ذكيٌّ جـدًّا. أعتقـد أنـه ربمـا عليـك أن تنـزل إلى هنـاك، يـا هـول، بحيـث يكـون لدينـا شـخص لـه تعليـم عـالي يعطينـا رأي واحـد مثقَّـف. أنـت وويسكونسـكي".

صاح ويسكونسكي: "أنا لا! ليس أنا، أنا...".

رماه وورِوك بنظرة. "أنت ماذا؟".

أطبق ويسكونسكي فمه.

قال هول في مرح: "جيد، سوف نحتاج إلى ثلاثة كشّافات يدوية. أظنُّ أنني رأيتُ رفًّا كاملًا ممتلئًا بذلك النوع ذي الست بطاريات في المكتب الرئيسي، صحيح؟".

سأله ووروِك بابتسامة عريضة: "أتريد أن تأخذ شخصًا آخَر معكما؟ بالتأكيد، اختَرْ مَن تشاء".

فقال هول برِفق: "أنتَ". وعاد ذلك التعبير الغريب إلى ملامح وجهه من جديد. "فَعلى كل حال، لا بدَّ أن يكون معنا مُمثِّلٌ للإدارة، ألا تظنُّ ذلك؟ فقط في حالة إن لم نرَ أنا وويسكونسكي كثيراً مِن الفئران هناك بالأسفل؟".

أطلقَ أحد الرجال ضحكة عالية، بدا مِن صوته كأنه إبستُن.

وجَّه ووروِك نظرة ثاقبة نحو الرجال، كان كلٌّ منهم يُحدِّق في مقدِّمة حذائه. وأخيراً أشارَ نحو بروشو، وقال: "يا بروشو، اصعد إلى المكتب وأحضِرْ ثلاث كشَّافات يدوية. وأخبر الحارس أنني سمحتُ لك بالدخول".

سأل ويسكونسكي هول بنبرةٍ مُتألِّمة: "لماذا أقحمتني في هذا الأمر، أنت تعرف أنني أكره تلك...".

فقال هول ناظرًا نحو ووروِك: "ليس أنا مَن أقحمك".

عادَ ووروِك ينظر إليه، لم يحوِّل أيٌّ منهما عينيه بعيدًا.

***

الخميس، الرابعة صباحًا.

رجعَ بروشو بالكشَّافات، أعطى واحدًا لهول، وواحدًا لويسكونسي، وواحدًا لووروك.

"يـا إبسـتُن! أعـطِ الخرطـوم لويسكونسـكي"، ففعـلَ إبسـتُن كـما قيـل لـه. ارتعشـت فوَّهـة الخرطـوم برِقَّـةٍ بـين يـديَّ البولنـدي.

قـال وورِوك لويسكونسـكي: "تمـام جـدًّا، أنـت في الوسـط. إن وجدنـا فئرانًـا تُفتـح عليهـم الخرطـوم".

طبعًـا، قـال هـول في نفسـه. وإن وجدنـا فئرانًـا هنـاك فلـن يراهـا وورِوك بالمـرة، ولـن يراهـا ويسكونسـكي هـو الآخَـر، وبعـد ذلـك سـيجد في مظـروف راتبـه عـشرة دولارات إضافيـة.

أشارَ وورِوك إلى اثنين من الرجال. "ارفعا".

انحنـى أحدهـما عـلى المسـمار ذي الحلقـة وشـدَّ. ظـنَّ هـول للحظـة أن البـاب الـسري لـن يسـتجيب ويُفتَـح، وعندئـذٍ ارتفـع البـاب متحـرِّرًا بصـوت طقطقـة غريـب كأنَّ شـيئًا يُسـحَق. وضـع الرجـل الآخـر أصابعـه عـلى الجانـب السُّـفليِّ مِـن الغطـاء ليسـاعدَ في الشَّـدِّ، ثـم انسـحب مطلقًـا صيحـة. كانـت يـداه مُغطَّاتـين بِخنافـس تـدبُّ عليهـا، ضخمـة وخفيـة لا تُـرى.

أمَّـا الرجـل الـذي يرفـع حلقـة البـاب الـسري للأعـلى فقـد أفلتـه وتركـه يسـقط أرضًـا وهـو يطلـق نخـرة اشـمئزاز، كان الجانـب السـفلي مِـن البـاب مسـودًّا بِفعـل فُطـرٍ غريـب لم يسـبق لهـول أن رأى مثلـه قـط. تسـاقطت الخنافـس نحـو الظـلام بالأسـفل أو ركضـت عـلى الأرضيـة لتسـحقها أقـدام الرجـال عـلى الفـور.

قال هول: "انظروا".

كان هنـاك قُفـلٌ صـدئ مُغلَـق عـلى الجانـب السُّـفلي مـن البـاب، وهـو الآن مكسـور. قـال وورِوك: "لكنـه لا يجـب أن يكـون مِـن الأسـفل، كان يجـب أن يكـون مِـن الأعـلى. فلـماذا...".

قاطعه هول: "لأسباب كثيرة، ربما لكيلا يتمكَّن أي كائن مِن فتحه على هذا الجانب- على الأقل عندما كان القفل جديدًا. وربما لكيلا يتمكَّن أي كائن على الجانب الآخَر مِن الصعود والخروج".

تساءلَ ويسكونسكي: "ولكن مَن أغلقه؟".

فقالَ هول ساخرًا، وهو ينظر نحو وورِوك: "آه، هذا لغز".

همس بروشو: "اسمعوا".

قال ويسكونسكي بصوتٍ باكٍ: "آه، يا ربي، أنا لن أنزل تحت!".

كان صوتًا ناعمًا، وهو الصوت المتوقَّع تقريبًا؛ الحركة الخاطفة والدقدقة الخفيضة لآلاف المخالب الصغيرة، وصوت صرير فئران.

قال وورِوك: "قد تكون ضفادع".

ضحكَ هول بصوتٍ عال.

أضاء وورِوك كشَّافه ونظر، رأى مجموعة دَرجات خشبية واهنة ومتراخية هابطةً نحو الأحجار السوداء للأرضية بالأسفل. لم يبدُ أي فأر في محيط رؤيته.

قال وورِوك بنبرة حَسم: "تلك السلالِم لن تتحمَّلنا".

تقدَّم بروشو خطوتين وأخذ يقفز طالعًا ونازلًا على دَرجة السُّلَّم الأولى، أصدرت طقطقةً، لكنها لم توحِ بأنها ستنهار.

فقال وورِوك: "لم أطلب منكَ أن تفعل ذلك".

قال بروشو بهدوء: "لم تكن موجودًا عندما عضَّ الفأر راي".

قال هول: "هيَّا بنا".

ألقى وورِوك نظرة أخيرة على حلقة الرجال كلها استهزاء ومرارة، ثم سارَ إلى الحافة مع هول. مضى ويسكونسكي بينهما بخطواتٍ

هيَّابة. نزلوا واحدًا بعد الآخر، هول، ثم ويسكونسكي، ثم وورويك. تلاعبت أشِعَّةُ الضوء الساقطة من كشَّافاتهم على الأرضية التي كانت ذات انحناءات وانخفاضات وتتَّخذ مئات الأشكال المخبولة من التلال والوهاد. كان الخرطوم يتبع ويسكونسكي متخبِّطًا مثل ثعبانٍ عسير الحركة.

عندما بلغوا القاعَ أدارَ وورِوك ضوءَ كشَّافه في ما حوله، فأظهرَ وجودَ بضعة صناديق متعفِّنة، وبعض البراميل، وأشياء قليلة أخرى. كان ارتشاح الماء من النهر راكدًا في بِرَكٍ صغيرة ارتفعت حتَّى كاحل أحذيتهم الطويلة.

همسَ وورِوك: "ما عدتُ أسمعُ أيًّا منهم".

ساروا ببطء بعيدًا عن منفذ الباب السري فوقهم، وأقدامهم تخوضُ بخرفشةٍ عبرَ لُزوجة الوَحل. توقَّف هول قليلًا ووجَّه ضوءه على صندوق خشبي كبير عليه حروف بيضاء. قرأ: "إلياس فارني، 1841. أكان المصنع موجودًا آنذاك؟".

فقالَ وورِوك: "لا، لم يكن قد شُيِّدَ حتَّى سنة 1897. ولكن ما الفرق في هذا؟".

لم يُجبه هول. تقدَّموا ببطء من جديد. بدا أنَّ القبو الفرعي يمتدُّ لمسافةٍ أطول ممَّا ينبغي أن يكون.

كان النَّتَن أشد، رائحة تَحلُّل وتَفسُّخ وأشياء دفينة، وما زال الصوت الوحيد المسموع كان صوت تصبُّب الماء الخافت كأنما في كهف.

"ما ذلك؟" تساءل هول، وهو يشير بضوئه نحو نتوءٍ إسمنتي كان يبرز عن مساحة القبو الأصلي بمسافة قدمَيْن تقريبًا. ووراءه، كان الظلام يتواصل وبدا لهول أنه يستطيع الآن أن يسمع أصوات تنبعث من هناك، مُختلَسة ومستترة على نحوٍ يثير الفضول.

حدَّق وورووِك فيه. "إنه... لا، لا يمكن أن يكون ذلك صحيحًا".

"أليس هذا هو الجدار الخارجي للمصنع؟ وفوق بالأعلى...".

قال ووروِك: "أنا سأعود"، واستدار فجأة.

قبـضَ هـول عـلى عنقـه بخشـونة. "لـن تذهـب إلى أي مـكان، يـا سـعادة ريِّـس العـمَّال".

رمقـه ووروك، كان عبوسـه يجـرح الظـلام. "أنـت مجنـون، يـا فتـى الجامعـة. صحيـح؟ فقـدتَ عقلـك تمامًـا".

"يجب ألَّا تضغط على الناس، يا صاحبي، واصل السير".

صاح ويسكونسكي في عويل: "يا هول...".

"أعطِنـي هـذا". تنـاول هـول الخرطـوم وأمسـكه بـين يديـه. أفلـتَ عنق ووروِك وأشـارَ بفوهـة الخرطـوم نحـو رأسـه. اسـتدار ويسكونسـكي بغتـةً وشَـقَّ طريقـه مسرعًـا نحـو البـاب السـري. لم يهتـمَّ هـول بـأن يلتفـت نحـوه حتَّـى. "تقـدَّم حضرتـك أولًا، يـا ريـس".

خَطَـا ووروك للأمـام، سـائرًا تحـت الموضـع الـذي ينتهـي فيـه بنـاء المصنـع فوقهـما. أدار هـول ضـوءه في المـكان مـن حولهـما، وأحـسَّ بارتيـاحٍ بـارد- كأنَّ الهاجـس الغامـض الـذي أنبـأه بوقـوع شيءٍ سـيِّئ قـد تحقَّـق الآن. تحلَّقـت الفـئران مـن حولهـما، صامتـة صمـتَ المـوت. يحفـل المـكان بهـا، صفوفًـا فـوق صفـوف. ألـوفُ الأعـين تتطلَّـع نحوهـما في نَهَـمٍ وجشـع. مصطفَّـةً عـلى الجـدار، حتَّـى يبلـغ بعضهـا ارتفـاع ذَقـنِ رَجُـل.

رآهـا ووروِك بعـد ذلـك بلحظـة فجمُـدَ في موضعـه تمامًـا. "إنهـا تحيـط بنـا مـن كل جانـب، يـا فتـى الجامعـة". كان صوتـه لا يـزال هادئًـا، لا يـزال تحـت سيطرته، وإن تراخـت حدَّتُـه قليـلًا.

فقالَ هول: "نَعم، واصِلْ السَّير".

تقدَّما ومن ورائهما يتجرجر الخرطوم. ألقى هول نظرة للوراء فرأى الفئران قد أغلقت الممرَّ من خلفهما، وأخذت تقرض في النسيج الخشن الثقيل للخرطوم. فأرٌ منها رفعَ رأسه وتطلَّع إليه وبدا تقريبًا كأنه يكشِّر في وجهه قبل أن يخفض رأسه من جديد. كان يستطيع الآن أن يرى الخفافيش أيضًا. كانت جاثِمةً ومتدلِّية مِن أخشاب السقف غير المصقولة، كانت خفافيش ضخمةً وكلٌّ منها في حجم غراب أو غُداف.

قال وورِك: "انظر"، مُوجِّهًا ضوء كشَّافه مسافة خمس أقدام إلى الأمام.

كانت جُمجمة، مُخضرَّة مِن فرط العَفَن، بِفكٍّ مفتوح كأنها تضحك لهما. أبعد قليلًا منها، استطاع هول أن يرى عظمة زندٍ، وأحد جانِبَي حوض، وجزء من قفص صدري. قال هول: "واصِلْ السَّير". شعرَ بشيءٍ ما ينبثق في باطنه، شيء مخبول وقاتم الألوان. لا بدَّ أن تنهار قبل أن أنهارَ أنا، يا سعادة ريِّس العُمَّال، فليَكُن الله في عوني.

سارا متجاوزَين العِظام. لم تحتشد الفئران مِن حولهما؛ بدا أنها تحتفظ بمسافةٍ ثابتة منهما. للأمام قليلًا رأى هول أحدها يقطع طريق مسارهما، أخفته الظلال، لكنه استطاع أن يلمح ذيلًا ورديًّا يختلج، وكان سميكًا كأنه سِلك تليفون.

للأمام قليلًا ارتفعت الأرضية ارتفاعًا حادًّا، ثم انحدرت. استطاعَ هول أن يسمع صوتًا مختلسًا، حفيفًا وهسهسةً، صوت قَرضٍ ومضغ. ثمَّة شيء ما هُنا، شيء ربما لم يسبق لأي رجلٍ حيٍّ أن رآه. خطرَ لهول أنه خلال جميع أيام تجواله المجنون مِن مكانٍ إلى آخر، كان يمضي مفتِّشًا عن شيءٍ مثل هذا.

كانت الفئران تواصل تقدُّمَها إلى داخل المكان، زاحفةً على بطونها، بحيث ترغمهما على مواصلة التقدُّم للأمام. قال وورِوك في برود: "انظر".

ونظر هول فرأى. لقد حدثَ شيءٌ ما للفئران الموجودة في الخلف هَهُنا، طَفرة وراثية شنيعة؛ طفرةٌ ما كانت لتستمرَّ أبدًا تحت عين الشمس؛ فَما كانت الطبيعة لتسمح بها. أمَّا بالأسفل هنا، فقد كانت الطبيعة تتَّخِذ وجهًا آخر؛ وجهًا قبيحًا رهيبًا.

كانت فئران هائلة الحجم، بعضٌ منها بارتفاع ثلاثة أقدام. غير أنَّ أرجلها الخلفية قد اختفت وكانت عمياء تمامًا، مِثل أبناء عمومتها الطَّيَّارين، وكانت تُجَرجِر نفسها للأمام في تَلهفٍ فظيع.

استدارَ وورِوك وواجهَ هول، ظلَّت الابتسامة مُثبتة في موضعها بِفعل إرادةٍ وحشية؛ ولذلك أوشكَ هول أن يعجبَ به حقًّا. "لا يمكننا مواصلة هذا، يا هول. لا بدَّ أن ترى ذلك".

قال هول: "الفئران لديها عملٌ معكَ، على ما أظن".

انهارَت سيطرة وورِوك على نفسه، فقال: "أرجوك، أرجوك".

ابتسم هول: "واصِلْ السير".

ألقى وورِوك نظرة خلفه. "إنها تقرض خيش الخرطوم، وإذا نجحوا في تمزيقه فليس لنا خطٌّ رَجعَةٍ بالمرَّة".

"أعرف. واصِلْ السَّير".

"أنت مجنون...". ركضَ فأر فوق حذاء وورِوك فصرخَ. ابتسم هول وأدار كشَّافه، كانت تحيط بهما مِن كل جانب، وأقربها إليهما الآن على مسافة أقل مِن قدمٍ واحدة.

شرعَ وورِوك يسيرِ مِن جديد، وأخذت الفئران تتراجع.

اعتليا مُرتَقًى صغيراً ونظرا للأسفل، بلغه ووروِك أولًا، ورأى هول أنَّ وجهه كان أبيض شاحبًا مثل صفحة ورق، ويسيل على ذقنه لُعاب. "آه، يا ربي. يا يسوع الحبيب".

واستدارَ ليركض.

فتحَ هول فوَّهة الخرطوم فاندفعت دَفقَةٌ شديدة من مياه الضغط العالي وأصابت ووروك بضربة مباشرة في صدره، ودفعته للوراء فاختفى عن النظر. عَلت صرخة ممدودة وطغى صوتها على صوت الماء، ثم أصوات ارتطام وخبطات.

صرخ شاهقًا: "هول". ثم اندلعت صيحة هائلة مُظلِمَة بدت كأنها تملأ الأرض كلها. "أرجوك يا هول بحق الله...".

انبعثت بغتة ضجَّةُ تمزيقٍ مُبلَّلة. وصرخة أخرى، أوهن. تحرَّك شيءٌ ما، شيء ضخم، تقلَّب واضطرب. وسمعَ هول بوضوحٍ تام الطقطقة المبللة التي يصدرها عَظمٌ يتحطَّم.

انقضَّ عليه فأرٌ بلا أقدام وأخذ يقرض، مسترشدًا بنوعٍ ملعون مِن الاستشعار بالموجات الصوتية. كان جسمه رخوًا دافئًا. بلا وعي تقريبًا أدار هول الخرطوم نحوه، وضربه به بعيدًا. لم تَعُد قوة مياه الخرطوم الآن ذات ضغط شديد.

سارَ حتَّى حافة التَّلِّ المبلَّل ونظر للأسفل. فأرة واحدة كانت تملأ الوَهدة المنخفضة بكاملها حتَّى الطرف الأقصى لذلك المدفن الخبيث السام. كانت ذات جُرم هائل الحجم، رمادي نابض، عمياء، وبلا أقدام على الإطلاق. لكن عندما لطمها ضوءُ كشَّاف هول أصدرت ضجَّةً بَشِعة كأنها بكاء خافت. إنها ملكتهم، إذن، الإلهة الأم. كائن ضخم ولا اسم له، قد يطوِّر نَسلُه ذات يوم أجنحةً. بدا أنَّ ما تبقى مِن ووروِك تضاءل، لكنَّ ذلك على الأرجح كان وهمًا. كانت صدمةً عاتية رؤيَةُ فأرة في ضخامة عجل هولندي.

قال هول: "وداعًا، ووروك"، جَثَمَت الفأرة فوق رئيس العمَّال حريصةً عليه، وقد انتزعت إحدى ذراعيه.

استدار هول مبتعدًا وشرع يشق طريق العودة على عجل، مُوقِفًا تَقَدُّم الفئران بماء خرطومه، والذي كان قد بدأ يفقد قوَّته شيئًا فشيئًا. استطاع بعضها أن يتخطَّى المياه وينقضَّ على ساقيه فوق حواف حذائه طويل الرقبة بهجمات قارضة. تعلَّق واحدٌ منها بعناد على فخذه، ممزقًا قماش سرواله القطيفة المضلَّع. كوَّر هول يده في قبضة وسحقه بها ورماه جانبًا.

كان قد قطعَ ثلاثة أرباع طريق العودة تقريبًا عندما ملأ الظلام هديرٌ ما. تطلَّع فإذا بشكلٍ ضخم طار مرتطمًا بوجهه.

الخفافيش التي تعرَّضت لطفرة من طفرات الطبيعة لم تكن قد فقدت ذيولها بَعد. أخذ يرفرف حول عنق هول في لفيفةٍ مُريعة، ويصرُّ بينما تفتِّش أسنانه عن النقطة الطرية تحت عنقه. تلوَّى وتذبذب بأجنحته الغشائية، ممسكًا بتلابيب قميصه ليُحكِم سيطرته عليه.

وجَّه هول فوَّهة الخرطوم للأعلى وهو لا يرى شيئًا وضرب بها جسده اللَّدِن مرَّةً بعد أخرى. سقط بعيدًا فدعسه تحت قدميه، وهو لا يكاد يعي أنه كان يصرخ. ركضت الفئران في طوفانٍ جارف فوق قدميه، وصعدت على طول ساقيه.

انطلق يركض مترنِّحًا، وهو ينتر عنه بعضها، فيما يواصل الآخرون قرض بطنه وصدره. صعد أحدها إلى كتفه ودسَّ خطمه المُنقِّب داخل تجويف أذنه.

اصطدمَ بالخفَّاش الثاني. جثمَ على رأس هول للحظة، مطلقًا صريره، ثم انتزع بمنقاره شريحة من قشرة رأسه.

أحسَّ بجسده يتخدَّر أكثر فأكثر. امتلأت أذناه بالنعيق الحاد وفحيح ألوفٍ وألوفٍ مِن الفئرانِ. ترنَّح جسده وأطلقَ زفرة أخيرة، تعثَّر فوق الأجسام المكسوة بالفراء، وسقط على ركبته. أخذ يضحك، بصوتٍ عالٍ وصارخ.

***

الجمعة، الخامسة صباحًا.

قال بروشو في تردُّد: "من المستحسَن أن ينزل شخص ما إلى هناك".

همسَ ويسكونسكي: "ليس أنا، ليس أنا".

فقال إبستُن بمرح: "لا، لستَ أنت، يا تختوخة".

قال بروجان وهو يتناول خرطومًا آخر: "حسنًا، لنذهب. أنا وإبستُن ودانجرفيلد ونيدو. ستيڤنسُن، اصعد إلى المكتب وأحضِرْ مزيدًا مِن الكشافات".

نظرَ إبستُن للأسفل نحو الظلام متفكِّرًا، وقال: "لعلَّهما توقَّفا لتدخين سيجارة. إنها حفنة فئران، فما الأمر بحقِّ جهنم؟".

عادَ ستيڤنسُن بالكشَّافات؛ بعد بضع لحظات بدؤوا النزول للأسفل.

مَوجٌ لَيليّ

بعد أن مات ذلك الرجل وتلاشت رائحة لحمه المحترق مِن الهواء، عُدنا جميعًا سائرين نزولًا نحو الشاطئ. كان كوري معه جهاز راديو، أحد تلك الأجهزة الترانزستور بحجم حقيبة صغيرة والتي يلزمها أربعون بطَّارية لتعمل، كما يمكنها أن تسجِّل شرائط الكاسيت وتُشغِّلها. لا يمكن أن نعتبر الصوت المسجَّل عليها رائعَ الوضوح، لكنه كان عاليًا بكل تأكيد. قبل انتشار ڤيروس "6أ" كان كوري ميسورَ الحال، لكنَّ تلك الأمور لم تَعُد لها أية أهمية الآن. حتَّى جهاز الراديو المسجِّل هذا لا يعدو كونه قِطعةَ خُردة ظريفة الشَّكل. لم نستطع استقبال إلَّا بث محطَّتيْن إذاعيَّتين فقط، إحداهما اسمها WKDM من بورتسماوث، ويعمل عليها منسِّق أغنيات جِلف أصيبَ بلوثةٍ دينية بعدَ أن جرى ما جرى. كان يشغِّل أغنية لبيري كومو، ويتلو صلاةً،

ثُـمَّ يُصـوِّت ويبـكي، ثـم يُشـغِّل أغنيـة لچـوني راي[1]، ثـم يقـرأ شـيئًا مِـن المزامـير (بكامـل النـص حتَّـى مـع كل كلمـة "سـيلاه")[2]، تمامًـا كـما كان يفعـل چيمـس ديـن في فيلـم "شرق عـدن"، ثـم يُصـوِّت ويبـكي مِـن جديـد. أغنيـات مِـن هـذا النـوع الـذي يعـود للأيـام الخـوالي السـعيدة. ذات يـومٍ شرعَ يُغنـي بنفسـه أغنيـة "هيَّـا اجمعـوا الحصـاد"[3]، بصـوتٍ معطـوب ورفيـع كأنـه الـصراخ دفعنـا أنـا ونيدلـز إلى نوبـة ضحـك هيسـتيرية.

محطَّـة ماساشسـتوس كانـت أفضـل، لكننـا لم نكـن نسـتطيع اسـتقبالها إلَّا ليـلًا. كانـوا مجموعـة مِـن الفِتيـة، وأحسـب أنهـم قـد اسـتولوا عـلى أجهـزة البـث مـن إحـدى المحطتـين: WRKO أو WBZ، بعـد أن غـادر الجميـع أو ماتـوا. لا أسـماء لهـم، يكتفـون فقـط بحـروف كوميديَّـة لـكلٍّ منهـم، مثـل WDOPE، أو KUNT، أو WA6، أو أشـياء مـن هـذا القبيـل. وهـم مُضحِكـون جـدًّا، بالمناسـبة، يقتلونـك مـن الضحـك. تلـك هـي المحطـة التـي كُنَّـا نسـتمعُ لهـا في طريـق عودتنـا إلى الشـاطئ. كنـتُ أشـبك يـدي في يـد سـوزي، يتقدَّمُنـا كيـلي وچـوان، وكان نيدلـز قـد بلـغَ حافَّـة الشـفير بالفعـل وغـاب عـن أنظارنـا. كـوري يتبعنـا في المؤخِّـرة، مؤرجحًـا الراديـو تَبعـه. فرقـة السـتونز تغنـي "آنچـي".

---

(1) Perry Como (1912-2001): مغـنٍّ وممثِّـل ومقـدِّم برامـج أمريـكي. John Alvin Ray (1927-1990): مغـنٍّ وكاتـب أغنيـات وعـازف بيانـو أمريـكي.

(2) Selah: كلمـة عبريـة غـير محـدَّدة المعنـى، تَـرِدُ كثـيرًا في المزامـير، وهـي حسـب بعـض التفسـيرات قـد تكـون مجـرَّد إشـارة للصمـت؛ بمعنـى "توقَّـفْ واصمـتْ"، أو علامـة موسـيقية مـا بحيـث تشـير لوقفـة موسـيقية في بعـض مواضـع المزامـير التـي كانـت تُغنَّـى بمصاحبـة الموسـيقى، كـما أنهـا قـد تكـون إشـارةَ وَقـفٍ قبـل قـراءة فقـرة تاليـة.

(3) "Bringing in the Sheaves": ترنيمـة شـعبية أمريكيـة، مُسـتمدَّة مـن المزامـير، تنتمـي للطائفـة البروتسـتانية عـلى الخصـوص، كتـب كلماتهـا Knowles Shaw مؤلِّـف وكاتِـبُ ترانيـمَ إنجيليَّـة، في سـنة 1874.

سـألتني سـوزي: "هــل تحبنــي؟ ذلـك كل مـا أريـد أن أعـرف، هــل تحبنــي؟". سـوزي في احتيـاجٍ دائـم إلى طَمأنـةٍ وتوكيـد. كنـتُ دبدوبَهـا القُطنــيَّ الــذي تعانقــه فتطمــئن.

"لا"، قلـتُ لهـا، كانـت بدانتهـا تـزداد، وإذا كُتِـبَ لهـا أن تعيـش وقتًـا طويـلًا بمـا يكفـي -وهــو أمــر مُسـتبَعدٌ- سـوف تصـير مُرَبرَبــةً حقًّـا. أصبَحَــت كثـيرة الــكلام بالفعــل.

قالت لي: "أنتَ مُتعفن"، ووضعت يدًا على وجهها.

التمعـت أظافرهـا المطليـة بضـوء شـاحبٍ منعكـس مـن نصـف قمـرٍ بـدأ صعـوده منـذ نحـو سـاعة.

"هل ستبكين ثانيةً؟".

"اخرس!". بدا مِن صوتها أنها سوف تبكي ثانيةً، لا بأس.

بلغنـا أعـلى الأخـدود فتريَّثـت. دائمًـا مـا أتوقَّـف قليـلًا هنـا. قبـل وبـاء "أ6"، كان هـذا شـاطئًا عامًّـا، يقصـده السُّـيَّاح والمتنزهـون والأطفـال ذوو المخـاط والجَـدَّات ذوات الأجسـاد الممتلئـة المترهلـة بمرافقهـنَّ التـي أحرقتهـا الشـمس. وفي الرمـل أغلفـة حلـوى وعيـدان مصَّاصـات مرميـة، وأشـخاص جميلـون يتعانقـون عـلى بطَّانيـات الشـاطئ، والزَّهَـم المختلَـط لِروائـح العـادِم المنبعـث مـن موقـف السيارات، وطحالـب البحـر، وزيـت الوقايـة مِـن الشـمس.

لكـن الآن اختفـت كل القـذارة والفضـلات. أكلهـا المحيـط، فـما أبقـى مِنهـا عـلى شيءٍ، بـكل بسـاطة كـما قـد يـأتي المـرء عـلى حفنـة مُقَرمشـات. مـا عـادَ هنـاك بَشر ليعـودوا ويوسِّـخوا المـكان مِـن جديـد. نحـن فقـط، ولسـنا كثيريـن كفايـة لنخلِّـف فـوضى كبـيرة. نحـن أيضًـا كنَّـا نحـب الشـاطئ، عـلى مـا أظـن- ألم نُقـدِّم لـه منـذ قليـل قربانًـا مِـن نـوعٍ مـا؟

حتَّى سوزي، القحبة الصغيرة سوزي، بمؤخِّرتها البدينة وبنطالها العنَّابي بساقيه المنتفختين من الأسفل كالأجراس.

كانت الرمال بيضاء ومتكوِّمة كثبانًا صغيرة، لا علامات عليها سوى الخَطِّ الذي خلَّفه المدُّ العالي- شَلَّة ملتوية مِن أعشاب بحرية، وطحالب الكِلب البُنِّيَّة، وكتل من خشب جرفه الموج. طرَّز نور القمر ظلالًا هلالية داكنة كالحِبر تطوي كلَّ شيء. على مسافة نحو خمسين ياردة مِن كبائن تغيير الملابس والمراحيض، انتصبَ بُرج حُرَّاس الإنقاذ المهجور هيكلًا أبيض، مُصوَّبًا نحو السماء مِثل إصبع عَظميٍّ.

والموج، الموجُ الليليُّ، يرمي عاليًا دفقات هائلة مِن الزَّبَد، متكسِّرًا على ألسنة اليابسة الممتدَّة في هجمات لا تنقطع، بعيدًا للغاية بقدر ما يمكن أن تصل إليه أبصارنا. لعلَّ تلك المياه كانت في منتصف طريق رحلتها من انجلترا ليلة أمس فقط.

انبعث الصوت المخربش مِن راديو كوري، قائلًا: "استمعتم معنا إلى أغنية آنچي لفرقة ستونز، وأنا واثق أنها أعجبتكم جدًّا، نفحة هواء عليل مِن الماضي الجميل وعصر الوقود الذهبي، مباشرةً مِن جروفيارد، تسجيل جميل. معكم بوبي. كان يفترض أن تكون هذه ليلة فِريد، لكن فِريد عنده إنفلونزا. وهو الآن منفوخ تمامًا كأنه سينفجر في أي لحظة". ضحكت سوزي، مع أنَّ أولى الدَّمعات لم تزل مُعلَّقة بين رموشها. أخذتُ أنزل نحو الشاطئ أسرع قليلًا لأبقيها هادئة.

صاحَ بي كوري: "انتظر! بيرني؟ أنت، بيرني، انتظرني يا عم!".

كان الرجل الذي في المحطة الإذاعية يقرأ بعض قصائد قصيرة كوميدية وفاحشة، وظهرَ صوت فتاة في الخلفية تسأله أين وضعَ البيرة. ردَّ عليها بشيءٍ ما، ولكن عند ذلك كُنَّا على الشاطئ. نظرت خلفي لأرى كيف كان حال كوري، كان ينزل منبطحًا على مؤخرته، كالمعتاد، كان شكله مسخرة، لدرجة أني أسفتُ له قليلًا.

قلتُ لسوزي: "اجري معي".

"لماذا؟".

صفعتها على ردفها فصاحت بصرخة حادَّة. "لمجرَّد متعة الجري".

ركضنا. تخلَّفَت عني، وهي تلهث مثل حصانٍ وتناديني لأبطئ قليلًا، لكني خلعتها من دماغي. اندفعت الريح جنبَ أذنيَّ وطيَّرَت الشَّعر عن جبيني. كنت أشمُّ الملحَ في الهواء؛ حادًّا وحرِّيفًا. الموجُ ضربَ وقرعَ، كانت الموجات مثل زجاج أسود رغويٍّ. خلعتُ صندلي المطاطي وركلته بعيدًا وأخذت أركض على الرمل حافيًا، غير مبالٍ بالحواف الحادَّة لقوقعة هُنا أو هناك. أحسستُ بدَمي في عروقي يجأر ويزأر.

وعندئذٍ بدأ المُنحدَر، وكان نيدلز قد أصبح بداخله بالفعل، أمَّا كيلي وچوان فكانا بجانبه متشابكي اليدين وينظران نحو الماء. أخذتُ أتدحرج مندفعًا للأمام، وأنا أحسُّ بالرمل ينزل تحت قميصي من الخلف، حتَّى ارتطمتُ بساقَيْ كيلي، فسقطَ فوقي وأخذ يفرُكُ وجهي في الرمل بينما چوان تضحك.

نهضنا وكلٌّ منَّا يبتسم للآخَر. توقَّفت سوزي عن محاولة الركض وكانت تكدح لتلحق بنا في خطوٍ ثقيل، وقد أوشكَ كوري على اللحاق بها .

قال كيلي: "نشعلُ نارًا".

سألَت چوان: "أتظنُّ حقًّا أنه قطعَ كل تلك المسافة من نيويورك، كما زعم؟".

"لا أدري". لم أرَ أهمية ذلك على كل حال. عندما عثرنا عليه كان جالسًا خلف عجلة قيادة سيارته اللِّنكُن الكبيرة، نِصفَ غائبٍ عن الوعي ويهذي بالكلام. كان رأسه منتفخًا حتَّى بلغ حجمَ كرة قَدمٍ

ورقبتـه مثـل إصبـع سـجق. كان مصابًـا بفـيروس كابـتن ترايبـز، وليـس أمامـه كثيرًا ليهلـك تمامًـا. وهكـذا أخذنـاه إلى الشـفير المُطـلّ عـلى الشـاطئ وأحرقنـاه. كان اسـمه آلفـين سـاكهايم، وقـد ظـلَّ ينـادي عـلى جدَّتـه، وظنَّ أنَّ سـوزي هـي جدَّتـه. وجَـدَت سـوزي هـذا الأمـر مضحـكًا للغايـة، يعلـم اللـه لمـاذا. أغـرب الأمـور يمكنهـا أن تُضحـك سـوزي.

كان إحـراق جُثَّتـه فكـرة كـوري، لكنهـا بـدأت نُكتـةً لا أكـثر. وهـو في الجامعـة، كان كـوري يقـرأ كل تلـك الكتـب حـول أعـمال السـاحرات والسِّـحر الأسـود، وأخـذ ينظـر إلينـا عابسًـا في الظـلام بجانـب سيارة آلفـين سـاكهايم اللينكُـن وهـو يخبرنـا أننـا إذا مـا قدَّمنـا قربانًـا لآلهـة الظـلام؛ فلعـلَّ الأرواح تحمينـا مِـن الإصابـة بوبـاء "أ6".

بـكل تأكيـدٍ لم يصـدِّق أحـدٌ منَّـا كل ذلـك الـكلام الفـارغ، لكـن الحديث أخـذ يـزداد جديَّـةً شـيئًا فشـيئًا. كان أمـرًا جديـدًا، لم نفعلـه مِـن قبـل، وفي النهايـة قرَّرنـا ونفَّذنـا. قيَّدنـاه إلى المنظـار المقـرِّب الموجـود هنـاك- يمكنـكَ أن تضـع فيـه عُملَـةً معدنيَّـة وفي يـومٍ صحـو تسـتطيع أن تـرى كل شيءٍ لمسـافة بعيـدة حتَّـى منـارة بورتلانـد التاريخيـة. قيَّدنـاه بأحزمتنـا، ثـم أخذنـا ننبـش الأرض هنـا وهنـاك عـن غصـون جافَّـة أو أخشـاب جرفهـا المـوج وكأننـا بضعـة أطفـال يلعبـون نوعًـا جديـدًا مِـن لعبـة الغمَّيضـة. وبينـما نفعـل هـذا كان آلفـين سـاكهايم طيلـة الوقـت مائـلًا هنـاك وحسـب، يُغَمغِـم بـكلامٍ مُوجَّـه إلى جدَّتـه. التمتعـت عينـا سـوزي للغايـة وتسـارعت أنفاسـها، كان مِـن الواضـح أنَّ الأمـر أثارهـا جنسـيًّا. وحينـما نزلنـا إلى الوَهـدة عـلى الجانـب الآخَـر مِـن النتـوء الصخـري مالـت عـليَّ وقبَّلَتنـي. كانـت تضـع كميـة كبيرة مـن طـلاء الشِّـفاه، فـكان الأمـر كأن الواحـد يُقبِّـل طبقًـا ملوثًـا بالدهـون.

دفعتها بعيدًا عني وآنذاك بدأت تلوي بوزها.

صعدنا من جديد، جميعنا، وكوَّمنا الأغصان والفروع اليابسة حتَّى بلغت وسط آلفين ساكهايم. أشعلَ نيدلز المَحرَقَة بولَّاعته الزِّيبو، وسرعان ما ارتفع اللهب. في النهاية، وقبلَ أن تنشب النار في شَعره، شرعَ الرجل يصرخ. فاحت رائحةٌ تُشبِه تمامًا رائحة شواء لحم خنزير حُلو على الطريقة الصينية.

سأل نيدلز: "ألديك سيجارة، يا بيرني؟".

"خلفكَ مباشرةً، يوجد حوالي خمسين خرطوشة سجائر".

ابتسم ابتسامة عريضة وصفع بعوضة كانت تستكشف ذراعه، وقال: "لا أريد أن أتحرَّك".

أعطيته سيجارة وجلست. أنا وسوزي قابلنا نيدلز في بورتلاند. كان جالسًا على حافَّة رصيف أمام مسرح الولاية، ويعزف بعض ألحان ليد بيلي على جيتار ضخم من نوع چيبسون اغتنمه مِن مكانٍ ما. تردَّد صوت عَزفِه عاليًا على امتداد شارع الكونجرِس كما لو كان يعزف في قاعة حفلات كبرى.

توقَّفت سوزي قبالتنا، وهي لم تزل تلهث.

"أنتَ مُعفَّن، يا بيرني".

"خلاص، يا سوزي. اقلبي الشريط، فهذا الجانب زبالة".

"حقير. وغبي، وعديم الإحساس ابن وسخة. حشرة مقرفة!".

قلتُ لها: "غوري مِن وجهي يا سوزي، وإلَّا سأقتلع عينيكِ، انتظري لتعرفي إن كنتُ لن أفعل".

بدَأَت تبكي من جديد، كَم كانت بارعة في ذلك. اقترب منها كوري وحاول أن يضعَ ذراعًا حولها، لكنها ضربته بمرفقها في منفرج ما بين فخذيه فبصق هو على وجهها.

"سوفَ أقتلكَ!"، هجَمَت عليه، وهي تصرخ وتبكي، وتدير يديها كشفراتٍ مروحيَّة. تراجع كوري هاربًا منها، وكاد يسقط، ثم أدبر مولِّيًا وأخذ يركض. تبعته سوزي، وهي تقذف بسباب هيستيري من أفحش ما يكون. أرجعَ نيدلز رأسه للوراء وجعلَ يضحك. تناهى إلينا صوت راديو كوري واهنًا مِن فوق الموج.

شردَ كيلي وجوان بعيدًا. يمكنني أن أراهما بالأسفل لدى حافة الماء، يسيران وكلٌّ منهما يُطوِّق بذراعه خصر الآخَر. بدت صورتهما مِثل إعلان تجاري في واجهة وكالة سفريَّات ورحلات- حَلِّقْ إلى سانت لوركا حيث الجمَال. لا بأس في ذلك، كان بينهما شيء طيِّب.

"بيرني؟".

"نَعم؟" جلستُ ودخَّنتُ وفكَّرت في نيدلز وهو ينقر أعلى ولَّاعته الزيبو ليفتحها، ويدير عَجلتها الصغيرة، مُشعِلًا النار بحَجَر القَدح والصلب بالضبط مثل ساكني الكهوف.

قال نيدلز: "أنا أُصِبتُ بالفيروس".

"ماذا؟"، نظرت نحوه. "هل أنت متأكِّد؟".

"متأكِّدٌ تمامًا؛ رأسي يؤلمني. معدتي تؤلمني. وحُرقة في البول".

"ربما تكون إنفلونزا هونج كونج وحسب. لقد أصيبت بها سوزي مِن قبل. ورغبت في كتابٍ مقدَّس". ضحكتُ. كان ذلك أيامَ كُنَّا لم نزل في الجامعة، قبل نحو أسبوع مِن إغلاق الجامعة إلى الأبد، وقبل شهر مِن بَدء نقل الجُثَث بعيدًا في شاحنات القمامة ودفنها في قبور جماعية باستخدام اللوادر والجرَّافات.

"انظر"، وأشعلَ عودَ ثقاب وحمله تحت زاوية فكِّه. استطعتُ أن أرى أوَّل البُقَع مُثلَّثة الشكل، وأوَّل التورمات. كان "أ6"، لا شكَّ في هذا.

قلتُ: "تَمام".

فقالَ: "أنا بخير. من ناحية عقلي، أقصد. لكنَّك لستَ كذلك. أنت تفكِّر كثيراً. أعرف ذلك".

"أبدًا، لا أفكِّر". كذبة.

"بل تفكر في الأمر بكل تأكيد. مثل ذلك الرجل في هذه الليلة. أنت تفكر في ذلك، أيضًا. الأرجح أننا قدَّمنا له معروفًا، إذا نظرتَ إلى صُلب الموضوع. لا أظنُّ أنه حتَّى أدرك ما كان يحدث له".

"بل أَدرك".

رفعَ منكبيه بهزَّةٍ لا مبالاة ونام على جانبه. "لا يهم...".

دَخَّنَّا وراقبنا حركة الموج وهو يتقدَّم ويتراجع. أصيبَ نيدلز بالڤيروس الذي نُسمِّيه كابتن ترايبز، وقد جعلَ ذلك كلَّ شيء حقيقيًّا مِن جديد. كُنَّا في أواخِر أغسطس، وفي غضون أسبوعين أو ثلاثة ستكون أولى رعشات برودة الخريف قد بدأت تزحف نحونا. سيكون قد حان الوقت للإقامة داخل مكانٍ ما بعيدًا عن الخلاء. ثُمَّ الشتاء. وربما بحلول أعياد رأس السنة، سنكون جميعًا في عِداد الموتى. في الغرفة الأمامية لبيت شخصٍ ما لا نعرفه، وجهاز كوري الراديو- المسجِّل الغالي الثمن موضوعٌ فوق رَفِّ خِزانة كُتُبٍ مكتظَّة بسلسلة مجلَّة الريدرز دايجست للكتب الملخَّصة، وشمس الشتاء الواهنة ترسم على السجادة أشكال زجاج النوافذ التي لا معنى لها.

كانت هذه الرؤيا التي طافت ببالي واضِحةً بما يكفي لأن تجعلَ جسدي يرتعد. لا أحد ينبغي له أن يفكِّر في الشتاء وهو في أغسطس. كان حدسًا غامضًا ومشؤومًا سيطر عليَّ.

ضحكَ نيدلز. "أرأيتَ؟ إنك بالفعل تفكر في الأمر".

ماذا عساي أن أقول؟ نهضتُ. "سأذهب لأبحث عن سوزي".

"ربما نكون آخِر البشر الموجودين على ظهر الأرض، يا بيرني. هل سبقَ لكَ أن فكَّرت في ذلك؟". في نور القمر الواهن بدا لي كأنه قد مات بالفعل، بدوائر تحت عينيه وأصابع متجمِّدة ومُصفَرَّة مثل أقلام رصاص.

سرتُ نزولًا نحو المياه ونظرت لما وراءها. لم يكن هناك ما يُرى سوى ربوات الأمواج التي لا تني تتحرّك بلا هوادة، مُكلَّلة بأقواس رقيقة من الزَّبَد. كان هدير تكسُّر الأمواج هائلًا هنا بالأسفل، أكبر مِن العالَم نفسه. مثل الوقوف في قلب عاصفة رعديَّة. أغمضتُ عينيَّ وأخذت أهتزُّ وأتأرجح يمينًا ويسارًا على قدميَّ الحافيتين. كان الرمل باردًا ورطبًا ومضغوطًا. وماذا لو كنَّا نحن آخِر البشر الموجودين على سطح الأرض؟ ما أراه الآن سوف يستمرُّ ويدوم ما دام القمر وما دام ظلَّ قادرًا على شَدِّ المياه في حركته.

كانت سوزي مع كوري على الشاطئ، هي تركبه كما لو كان فرسًا برِّيًّا متقافزًا، يضرب رأسه في الماء المندفع الفوَّار. كان كوري يخبط ويطرطش المياه من حوله، وقد انتقع كلاهما في الماء. سرتُ إليهما ودفعتُها بقدمي لتقعَ من فوقه. مضى كوري على أربعٍ مطرطشًا المياه، وهو يصدر أصوات بقبقة وخَنفرة.

صاحت سوزي بي: "أنا أكرهك!". كان فمها مثل قوس قاتم في تكشيرة واسعة، بدا لي كأنه مدخل إلى بيتٍ للعب. عندما كنت صبيًّا صغيرًا اعتادت أمي أن تأخذنا نحن الأطفال إلى منتزه هاريسون ستيت وكان فيه بيت للعب واجهته عبارة عن وجه كبير لمهرِّج، ويدخل الواحد إلى بيت اللعب عبر فم المهرج.

"كَفى يا سوزي، هيَّا تعالي إلى هُنا يا حيواني الأليف المخلص...". فتحتُ ذراعي لها. تقبَّلَت كلامي ببعض الشَّكِّ ونهَضَت واقِفةً. على بلوزتها وجلدها تجمَّعَت كُتَلُ رمل رطبة.

"ليس مِن حقِّكَ أن تدفعني هكذا، يا بيرني. ليس من حقِّكَ أبدًا...".

"اهدئي وتعالي". لم تكن تشبه صندوق الموسيقى؛ فلا يمكنك أبدًا أن تضعَ في داخلها عُملَة معدنية لتشتغل، كما لا يمكنك أبدًا أن تفصل عنها الكهرباء لتتوقَّف عن العمل. سرنا معًا بامتداد الشاطئ نحو المقرِّ الرئيسي لعمَّال وموظَّفي الشاطئ. كان الرجل الذي يدير هذا المكان لديه شقَّة صغيرة علويَّة، يوجد في الشَّقَّة فِراش. سوزي لا تستحق فِراشًا حقًّا، أمَّا نيدلز فقد كان رأيه صائبًا. لا يهم. لا شيء يهم. وما مِن أحد سيُكتَب له الفوز في هذه اللعبة بعد الآن.

كان الدَّرَج خارجيًّا على جانب المبنى، لكني توقَّفت عن الصعود لدقيقة واحدة فقط لكي أطلَّ مِن الواجهة الزجاجية المحطَّمة، حيث بالداخل السِّلع والبضائع التي كساها الغبار، لم يهتم بها أحد ليأتي وينهبها- أكوام مِن القُمصان القطنية (مطبوع على صدرها كلمة "شاطئ آنسُن" وصورة للسماء والأمواج)، وأساور لامعة تترك أثرًا أخضر على الرُّسغ في اليوم التالي لارتدائها، وحُلقان فالصو برَّاقة، وكُرات شاطئ، وبطاقات بريدية قذرة، وتماثيل خزفية سيئة الطِّلاء للسيدة العذراء، ومقلب القيء البلاستيكي (حقيقي جدًّا! جرِّبْه على زوجَتِك!)، وألماسات ضَوِّ الليل ذات الشَّرَر مِن أجل عيد الرابع مِن يوليو، العيد الذي لم يأتِ بالمرة، ومناشف شاطئ عليها فتاة ذات مظهر شهواني بمايوه بيكيني واقفة وسط أسماء مائة من مناطق المنتجعات الشهيرة، ورايات مثلَّثة صغيرة (تذكار مِن شاطئ ومنتزه آنسُن)، بالونات، ومايوهات. كان هناك مقصف صغير وعليه لافتة كبيرة تقول "جرِّبوا كعك المحار المتميِّز".

كنتُ آتي إلى شاطئ آنسُن كثيراً حينما كنت لم أزل في المدرسة الثانوية، قبل تفشِّي الوباء بسبع سنوات، وكنتُ آتي برُفقَة فتاة اسمها

مورين. كانت صبيَّة ضخمة، وترتدي مايوه بقماش كاروهات صغيرة، فكنتُ أقول لها إنه يبدو مثل مفارش الموائد. كنَّا نسير على الممشى الخشبي قبالة هذا المكان، حافيين، نشعر بالألواح الخشبية تحت كعوبنا ساخنة ورملية. لم نجرب قَطُّ كعك المحار المميَّز.

"إلامَ تنظر؟".

"لا شيء. هيَّا تعالي".

***

زارتني أحلامٌ قبيحة ومُرهِقة جعلتني أتعرَّق حول آلفين ساكهايم. كان مُتَّكئًا خلف عجلة قيادة سيارته اللنكُن الصفراء اللامعة، يتحدَّث عن جدَّته. لم يكن شيئًا سوى رأس منتفخ ومُسْوَدٍّ، وهيكل عظمي تحوَّل إلى فحم. فاحت رائحة الاحتراق منه، واستمرَّ يتحدَّث ويتحدَّث، وبعد وهلة لم أعُد أفهم مِن حديثه كلمة واحدة. استيقظت وأنا أتنفس بصعوبة.

كانت سوزي نائِمةً وساقاها ممدَّدتان بجانب فخذيَّ، شاحبة ومنتفخة. كان الوقت في ساعتي يشير للثالثة وخمسين دقيقة، لكنها كانت متوقِّفة. لم تزل الدنيا ظلامًا في الخارج. الموج يضرب ويخبط ويتكسَّر. المدُّ عالٍ. لعلَّها الرابعة والربع. سيظهر الضوء عمَّا قريب. قمت من الفراش وذهبت إلى المدخل. أحسستُ بأنسام البحر عذبة على جسدي الساخن. رغم كل شيء لم أكن أريد أن أموت.

ذهبتُ إلى الرُّكن وتناوَلتُ علبة بيرة. كان يوجد أربع عبوات كبيرة منها مكدَّسة بجانب الجدار. كانت دافئة؛ إذ لم تَعُد هناك كهرباء. لا مشكلة عندي في تناول البيرة دافئة كما هو حال البعض. كل ما هنالك أن رغوتها أكثر، وتبقى البيرة هي البيرة. خرجتُ إلى البسطة وجلست وخلعت الحلقة المعدنية الصغيرة وشربت.

وهكـذا هَـا نحـنُ هُنـا، حيـث يُمحـى الجنـس البـشري كامِـلًا مِـن الوجـود، وليـس ذلـك بسـبب الأسـلحة النوويـة أو حـرب بيولوچيـة أو التلـوُّث أو أي شيء خطـير مثـل ذلـك. مجـرد إنفلونـزا. أودُّ لـو اسـتطعتُ وَضـع لافتـةٍ ضخمـة في مـكانٍ مـا، ربمـا عنـد المسـطَّحات المائية المِلحيَّـة في بونفيـل. لافتـة مربَّعـة مـن البرونـز، وكل ضلـع منهـا بامتـداد ثلاثـة أميـال. وبحـروف كبـيرة بـارزة سـأكتب، فقـط لأجـل خاطـر الكائنـات الفضائيـة التـي سـتهبط عـلى الأرض: "مجـرَّد إنفلونـزا".

ألقيـت علبـة البـيرة مِـن فـوق، فحطَّـت بصـوت قرقعـة مُجوَّفـة عـلى الممـشى الإسـمنتي المحيـط بالمبنـى. أمَّـا المبنـى الخشـبي الملحـق فقـد كان مجـرَّدَ مُثلَّـث مظلـم عـلى الرمـل. تسـاءلتُ هـل كان نيدلـز مسـتيقظًا، وتسـاءَلتُ إن كنـتُ...

"بيرني؟".

كانـت واقفـة في المدخـل، وهـي مرتديـة أحـد قمصـاني. كَـم أكـره ذلـك، فهـي تتعـرَّق كخنزير.

"أنا لم أعد أعجبكَ كثيرًا، يا بيرني، صح؟".

لم أَقُـل أي شيء. تمـرُّ بي أوقـاتٌ أسـتطيع فيهـا أن أشـعر بالأسـف عـلى كل شيء. وهـي لم تسـتحقَّني بقـدر مـا أنـا لا أسـتحقُّها.

"أيمكنني أن أجلسَ معك؟".

"أشكُّ أن هذا الموضع يمكن أن يتَّسِع لنا نحن الاثنين".

أصدرت صوت فواق مختنق وبدأت ترجع للداخل.

قلتُ لها: "نيدلز مصاب ب أ6".

توقَّفَـت ونظَـرَت إليَّ. كان وجههـا ثابتًـا جامِـدًا للغايـة. "لا تمـزح، يـا بـيرني".

أشعلتُ سيجارة.

"لا يمكن! فقد أصيبَ...".

"نَعم، أصيب بـ أ2 مِن قبل، إنفلونزا هونج كونج. بالضبط مثلي أنا ومثلك أنتِ ومثل كوري وكيلي وچوان".

"ولكن معنى ذلك أنه ليس لديه...".

"مَناعة".

"نَعم، وهكذا فيمكن أن نصاب به نحن أيضًا".

قلتُ: "ربما يكون قد كذبَ عندما قال إنه أصيب مِن قبل بـ أ2، لكي نضمَّه إلينا في ذلك الحين".

كسا الارتياحُ وجهها. "الأمر كذلك بالتأكيد. لو كنتُ أنا مكانه لكذبتُ أيضًا. لا أحد يحب أن يكون وحده تمامًا، صحيح؟". تردَّدت. "هل ستعود للفِراش؟".

"ليس الآن".

دخلَت. لم أضطرَّ أن أخبرها بأن الإصابة بـ "أ2" ليست ضمانًا مؤكَّدًا ضدَّ "أ6"، فهي كانت تعلم ذلك، لكنها فقط أزاحت المعلومة جانبًا. جلستُ مراقبًا الأمواج. كانت عالية حقًّا. كان شاطئ آنسُن الموقِعَ الوحيد في منتصف الولاية واللائق الذي تُمكِن فيها ممارَسةُ ركوب الأمواج. كانت الربوة مُعتِمَة، حدبة بارزة في وجه السماء. فكَّرتُ أن بوسعي رؤية البروز الذي كان موقع الرصد فيه، لكن الأغلب أنه خيال ليس أكثر. أحيانًا كان كيلي يصحب چوان حتَّى أعلى الربوة، لا أظن أنهما كان هنالك الليلة. وضعتُ وجهي بين يديَّ وقبضتُ عليه، متحسِّسًا الجلد، ملمسه ونسيجه. كان كل شيءٍ يضيق حولنا بسرعة رهيبة، كل شيء يصير خسيسًا شريرًا- لا كرامة في ذلك بالمرَّة.

والأمـواج تـأتي وتقـترب، تـأتي وتقـترب. بـلا نهايـة لهـا. نظيفـة وعميقـة. لقـد أتينـا إلى هنـا في الصيـف، أنـا وموريـن، في الصيـف التـالي مبـاشرةً عـلى المدرسـة العُليـا، الصيـف السـابق مبـاشرةً عـلى مرحلـة الجامعـة والواقِـع وتفـشٍّي وبـاء "أ6" انطلاقـًا مِـن جنـوب شرق آسـيا وانتشـاره فـوق العالَـم كلـه مثـل غطـاء يتمـدَّد، كان يوليـو، وقـد أكلنـا بيتـزا واسـتمعنا إلى الراديـو، ومسـحتُ ظهرهـا بالزيـت، ومسَّـحَت هـي ظهـري بالزيـت، كان الهـواء سـاخنًا، والرمـل لامعًـا، والشـمس مثـل عَدسـة حارقـة.

أنا المَدخَل

كُنَّا أنا وريتشارد جالسَيْن على الرُّواق الأمامي لمنزلي، نرسلُ بصَرَيْنا فوق كثبان الرمل الممتدَّة حتَّى الخليج، والدُّخانُ المنبعث مِن سيجاره ينجرف لَيِّنًا في الهواء، مُبعدًا عنَّا البعوض. كانت زُرقة المياه رائِقةً لطيفة بلونٍ سماويٍّ مائل لخُضرَة فاتِحة، أمَّا زُرقة السماء فكانت أعمقَ وحقيقيَّة أكثر. كان هذا مزيجًا يسرُّ النَّفس.

كرَّر ريتشارد قَولي في تفكُّر: "أنتَ المدَخل"، وأضاف: "هل أنتَ متأكِّد مِن أنكَ قتلتَ الصبي- ألم يكن الأمر كله مجرَّدَ حُلم؟".

"لم أكن أحلم. وأنا لم أقتله، أيضًا- قلتُ لك ذلك. بل هُم مَن فعلوا، فأنا المَدخَل لهم".

تنهدَّ ريتشارد. "هل دفنتَه؟".

"أَجل".

"وتتذكَّر الموضِع؟".

"أَجل". مَدَدتُ يدي لجيب صدر القميص لأخرجَ سيجارة. كانت حركة يديَّ صعبة وغير بارعة بسبب الضِّمَادات التي تكسوهما، وتثيرُ فيَّ رغبةً فظيعة في حكِّهما. "إن أردتَ أن ترى الموضع لا بدَّ أن تأخذ عربة الشاطئ ذات العجلات السميكة. فلا يمكنك أن تدفعَ هذا (وأشرتُ إلى مقعدي المتحرِّك) عبرَ الرمال". لدى ريتشارد عربة شاطئ ڤولكسواجن موديل 1959، ذات إطارات بحجم الوسائد، كان يستخدمها في جمع الأخشاب التي يلقي بها الموج إلى الشاطئ. منذ أن تقاعدَ مِن عمله في مجال تجارة العقارات في ولاية ميريلاند وأصبح يعيش هنا على طريق كارولين في جزيرة كي ويست، ويشيِّد منحوتات فنية مِن الأخشاب التي يجرفها الموج ثم يبيعها لسُيَّاح الشتاء بأثمانٍ فاحشة.

نفخَ دخان سيجاره وتطلَّع ناظرًا نحو الخليج. "ليس الآن. أيمكنك أن تحكي لي مرة أخرى؟".

تنهَّدتُ وحاولتُ أن أشعلَ سيجارة. أخذ مني الثقاب وأشعلها بنفسه. أخذتُ نَفسَين، متنشِّقًا الدخان عميقًا كانت الحكَّة التي في أصابعي تُفقدني صوابي.

قلتُ له: "لا بأس، ليلة أمس في الساعة السابعة كنتُ بالخارج هُنا بالضبط، أتطلَّع نحو الخليج وأُدخِّن، مِثل الآن بالضبط، ثُمَّ...".

لكنه قاطعني قائلًا: "لا، ارجع للوراء أكثر".

"الوراء؟".

"احكِ لي عن رحلة الطيران".

أدرتُ رأسي يمينا ويسارًا. "لكن يا ريتشارد، لقد تكلَّمنا في هذه المسألة مرَّةً بعد مرَّة. ولا يوجد شيء...".

بـدا لي وجهـه مُشـقَّق البـشرة والمُخـدَّد بالتجاعيـد مُحـيِّراً وغامضًـا تمامًـا مثـل منحوتاتـه الخشـبية. قـال: "ربمـا تسـتطيع أن تتذكَّـر، الآن ربمـا تتذكَّـر".

"أهكذا تظنُّ؟".

"احتـمالٌ مُمكِـن. وعندمـا ننتهـي مـن هـذه المسـألة، نسـتطيع أن نبحـث عـن القـبر".

قلـتُ: "القـبر"، كان للكلمـة صـدًى أجـوفُ رهيـبٌ، وأشـدُّ ظُلمـةً مِـن أي شيءٍ، حتَّـى مـن ذلـك المحيـط الرهيـب الـذي أبحـرتُ عـبره مـع كـوري منـذ خمـس سـنوات. مُظلـم، مظلـم، مظلـم.

تحـت هـذه الضِّـمادات، كانـت عيـوني الجديـدة تُحـدِّق بعَـماء في الظُّلمـة التـي فرَضَتهـا عليهـا الضِّـمادات. كانـت تحكُّنـي.

***

حلَّقنـا أنـا وكـوري إلى مـدارٍ فضـائي حُـرٍّ، دُفِعنـا إليـه باسـتخدام زُحـل 16، ذلـك الـذي قـال عنـه جميـع المعلِّقـين إنـه بمثابـة مبنـى الإمبايـر سـتات وسـط محـرِّكات الصواريـخ العاديـة، فقـد كان مثـل وحـشٍ هائـل الضخامـة بالفـعل. وقـد جعـل المحـرِّك القديـم زُحَـلَ 1-ب يبـدو مثـل صـاروخ رِدسـتون باليسـتيٍّ صغـير، وقـد أقلـعَ مِـن خنـدقٍ بلـغ عُمقُـه مائتـي قـدم- وكان لا بـدَّ مِـن ذلـك، لكيـلا ينتـزع معـه نِصـف مركـز كيـب كينيـدي الفضـائي.

وهكـذا أخذنـا نتهـادى متأرجحـين حـول الأرض، بينـما نتأكَّـد مِـن عَمـل جميـع أنظمتنـا عـلى مـا يُـرام، وبعـد ذلـك انطلقنـا لنضَـع أنفسـنا عـلى المـدار المحـدَّد. وبـدأت رحلتنـا إلى كوكـب الزُهـرة، تاركـين خلفنـا أعضـاء مجلـس الشـيوخ يتشـاجرون حـول الاعتـمادات الماليـة التـي خُصِّصَـت مـن أجـل رحلـة اسـتطلاع فضائيـة تمـضي إلى شـوطٍ أبعـد، وحِفنـة مِـن العامـلين

في وكالة ناسا يُصلُّون متوسِّلين أن نعثرَ في رحلتنا على أي شيءٍ، مهما كان ذلك الشيء.

"اعثرا على أي شيء، أي شيءٍ كان، لا يهمني ماذا يكون"، هكذا أحبَّ دُنْ لوفنجر أن يُردِّد كلَّما شَرِب كأسين زيادة، إنه العبقري الخصوصي لمشروع زيوس الفضائي، أو الطفل المعجزة -كما يقولون؛ لِصِغر سِنِّه-. "لديكما جميع الأجهزة والأدوات اللازمة، زائد خمس كاميرات تليفزيونية معزَّزة وتيليسكوب صغير ممتاز، مزوَّد بعددٍ لا يُحصى مِن العدسات والفلاتر. اعثرا على بعض الذهب أو البلاتينيوم. ولو أنَّ الأفضل مِن ذلك أن تعثُرَا على بشرٍ بُلَهاء صغار الحجم ببشرةٍ زرقاء؛ لكي ندرسهم، ونستغلَّهم، ونستمتع بشعور التفوُّق والسيادة عليهم. حتَّى لو كان ما تعثران عليه هو شَبح هودي دودي[1] سَتكون بداية لا بأس بها".

كنتُ أنا وكوري في غاية اللَّهفة لكي نحقِّق هذا الفضل، إن استطعنا. لم يكن برنامج الفضاء العميق يؤتي أي نفعٍ. منذ الروَّاد الثلاثة: بورمان وأندريس ولوفيل، الذين داروا حول القمر عام 1968، ولم يجدوا سوى عالَمٍ موحِشٍ خاوٍ بدا أقرب إلى شاطئٍ رَمليٍّ قَذِر، ثم أتى مارخان وچاكس، اللذان لمسا سطح المريخ بعد ذلك بأحد عشر عامًا ليجدا قَفرًا قاحلًا مِن رمالٍ مُتجمِّدة وبضع أَشَنات تصارع للبقاء، وهكذا صار برنامج الفضاء العميق إخفاقًا يكلِّف أموالًا بلا طائل. كما كانت هناك أيضًا خسائر في الأرواح- بيدرسُن، وليدرِر، اللذان أخذا يدوران للأبد حول الشمس عندما أخفقت فجأةً رحلةُ أبوللو ما قبل الأخيرة. وچون داڤيز، الذي صدمَ أحدُ النيازك مَرصدَه المداري الصغير، وهكذا فإنَّ رحلتنا للدوران حول كوكب الزُّهرة ربما

---

(1) Howdy Doody: برنامج تليفزيوني أمريكي للأطفال واسم دُمية لِطفل في نفس البرنامج، بدأ عرضه منذ ديسمبر 1947 وحتَّى سبتمبر 1960.

تكـون فُرصتَنـا الأخـيرة لإثبـات جدوانـا ولنقـولَ لهـم هـذا مـا وعدناكـم بـه.

أمضينـا سِـتَّة عـشر يومًـا هنالـك- تناولنـا خلالهـا الكثـير مِـن الأطعمـة المركَّـزة، ولعبنـا عـشرات أدوار الكوتشـينة، وتبادلنـا نوبـة الـبرد ذاتهـا جيئـة وذهابًـا. ومـن الناحيـة التكنولوچيـة كانـت الرحلـة روتينيَّـةً بجميـع مراحلهـا المتوقَّعـة. خسرنـا مُحـوِّلًا لرطوبـة الهـواء في يومنـا الثالـث مـن الرحلـة؛ فاعتمدنـا عـلى الاحتياطـي، لم نواجـه مشـكلة غـير ذلـك، فيـما عـدا السَّفاسِـف الصغـيرة المزعجـة، حتَّـى بدأنـا رحلـة العـودة إلى مجـال الأرض الجـوي. أخذنـا نراقـب ڤينـوس وهـو يقـترب منَّـا، متحـوِّلًا مِـن نجمـةٍ بعيـدة إلى عُملـة معدنيـة صغـيرة إلى كُـرة بلوريـة حليبيـة اللـون، بينـما كنَّـا نتبـادل النِّـكات مـع العاملـين في مركـز التحكُّـم في هانتسـفيل، واسـتمعنا إلى شرائـط تسـجيلات ڤاجـنر والبيتلـز، وأشرفنـا عـلى جميـع التجـارب التـي تعمـل أوتوماتيكيًّـا والتـي تتَّصِـل بـكل شيءٍ؛ بدايـةً مِـن قياسـات الريـح الشمسـية إلى الإبحـار في الفضـاء العميـق. لمرتـين فقـط أجرينـا تعديـلًا عـلى المسـار المخطَّـط لـه للرحلـة، وكان كِلَا التعديلـين أصغـر مِـن أن يُذكَـر، وبعـد تسـعة أيـام مِـن انطـلاق الرحلـة خـرج كـوري لـكي يخبـط عـلى جهـاز الديسـا القابـل للطَّـيِّ والسَّـحب إلى أنَّ قـرَّر الجهـاز أن يشـتغل. ولم يكـن هنـاك أي شيءٍ آخَـر بعيـدًا عـن العـادي والمألـوف إلى أن...

قال ريتشارد: "مهلًا، قلتَ ديسا، ما هذا؟".

"كانـت تجربـة لم يُكتـب لهـا النجـاح والاسـتمرار. اسـتخدام المجسَّـات الهوائيـة في الفضـاء العميـق، تَبـع مـشروع علـوم الأرض لوكالـة ناسـا- يعنـي كنَّـا نبـثُّ إشـارات خفَّاقـة عـبرَ نبضـات تـردُّدٍ عـالٍ لأيٍّ كائِـنٍ يكـون مُهتـمًّا بالإنصـات". أخـذتُ أفـركُ أصابعـي في سروالي، لكـن بـلا جـدوى؛ بـل زاد هـذا إحسـاسي بالحكَّـة سـوءًا. "إنهـا نفـس فِكـرة التيليسـكوب الراديـو، ذلـك الموجـود في ويسـت ڤيرچينيـا- لـو تعلـم بـه، إنـه ذلـك الـشيء الـذي

يتنصَّت على النجوم. لكن بدلًا مِن الإنصات كنا نحنُ نبثُّ، في المقام الأوَّل نبثُّ لكواكب الفضاء الأبعد: المُشتري، وزُحل، وأورانوس. لكن لم يسمعنا أحدٌ، فلو وُجِدَت أية حياة ذكية هنالك على أيٍّ منها؛ فلا بدَّ أنها كانت تأخذ غفوةً".

"كوري فقط هو الذي خرج؟".

"نعم. وإذا كان قد جلبَ أي وباء مِن الفضاء بين النَّجمي؛ فإنَّ جهاز القياس عَن بُعد لم يُظهره".

"ومع ذلك...".

قلتُ له بفظاظة: "ليس لهذا أهمِّيَّة، ما يهم هو الحاضر، هُنا والآن فقط. لقد قتلوا الصبي ليلة أمس، يا ريتشارد. لم يكن أمرًا مِن اللطيف رؤيته، أو الشعور به. إنَّ رأسه... انفجر، كما لو كان شخصٌ ما قد أفرغَ جمجمته من عقله ووضعَ قنبلة يدوية مكانه".

قال: "أَنهِ قِصَّتَك".

ضحكتُ ضحكةً مكتومة. "ماذا لديَّ لأحكيه؟".

***

حَلَّقنا حولَ الكوكب في مدارٍ غير منتظِم المركز، كان مدارًا متطرِّفًا يتقدَّم ويتراجع، ثلاثة وعشرون ميلًا في ستة وسبعين ميلًا. كانت تلك دورتنا الأولى، أمَّا الثانية فقد ارتفعت حتَّى أبعد نقطة على المدار، أمَّا أقرب نقطة من الكوكب فقد انخفضت أكثر. كان الحدُّ الأقصى لنا هو أربع دورات، وقد نفَّذناها جميعها، واستطعنا أن نلقي نظرة جيدة على الكوكب. كما أخذنا أكثر مِن ستمائة صورة ثابتة له، إلى جانب عددٍ لا يُحصَى من الشرائط الفيلمية.

السُّحب التي تكسوه تتألَّف بأقسامٍ متساوية مِن الميثان، والأمونيا، والغبار، يعني خراء مُتطايِر. كان الكوكب برُمَّته أقرب إلى صخور وادي جراند كانيون، ولكن في نَفقٍ هوائيٍّ[1]. قدَّر كوري سرعة الرياح بحوالي ستمائة ميلٍ في الساعة قرب السَّطح. أخذ مسبارنا يُطلِق صفيره طوال طريقه للأسفل ثم انفصل بصوت نعيقٍ عنيف. لم نرَ أيَّ أثر لحياة نباتية ولا علامة واحدة تدلُّ على الحياة. أشارَ منظار التحليل الطيفي فقط إلى وجود آثار معادن ثمينة. وهكذا كان كوكب الزُّهرة. لا شيء سوى اللا شيء- باستثناء أنه أخافني. كان الأمر يشبه الدوران حول منزل تَسكُنه الأشباح في منتصف الفضاء العميق. أعرفُ كم يبدو هذا كلامًا غير علميٍّ بالمرَّة، لكني كنتُ مرعوبًا، وظَلَلتُ هكذا حتَّى خرجنا من هناك. أظن أنَّه لو لم ينطلق صاروخنا لكنتُ ذبحتُ نفسي في الطريق للأسفل. إنه لا يشبه القمر في شيء. القمر موحِشٌ ومهجور، لكنه مُطهَّر بطريقة ما. أمَّا ذلك العالَم الذي رأيته فقد بدا بخلاف أي شيءٍ سبق لي أن رأيته. ولعلَّه مِن الجيد أنه مكسوٌّ بغلالة من السحب. كان مثل جمجمة اقتُطِعَت بعناية ونظافة- ذلك أقرب تشبيه يخطر لي.

في طريق عودتنا سمعنا أنَّ مجلس الشيوخ قد صوَّت على تخفيض ميزانية برامج استكشاف الفضاء إلى النصف. قال كوري عبارة مِن قبيل "يبدو لي يا آرتي أننا سنرجع إلى مجال الأقمار الصناعية لرصد حالة الطقس". ولكنني كنت مسرورًا تقريبًا؛ فَربما نحنُ لا ننتمي إلى هناك.

بعد اثني عشر يومًا مِن ذلك توفي كوري وأُصِبتُ أنا بشللٍ تام لبقية حياتي. واجهنا كل أنواع المشكلات المتخيَّلة في طريق هبوطنا. الباراشوت كان معطَّلًا. ما رأيك في هذه كإحدى المفارقات الصغيرة في

---

(1) Wind tunnel: أنابيب ضخمة يندفع فيها الهواء بشدَّة، وتستخدم لمحاكاة ردود أفعال الأجرام الطائرة عبر الفضاء، كوسيلة لدراسة حركة الهواء على الأجسام، وخصوصًا الطائرات.

الحياة؟ لقد كُنَّا في الفضاء لأكثر مِن شهر، وذهبنا إلى نقطةٍ أبعدَ ممَّا بلغه أي إنسان آخر سابقًا، وانتهى هذا كله كما جرى لأنَّ شخصًا ما كان متعجِّلًا في الذهاب لاستراحة قهوته فلم يعتنِ جيدًا ببضع مسائل صغيرة وتركها كيفما اتفق.

هبطنا بصعوبة شديدة. قال أحد الأشخاص ممَّن كانوا في المروحيَّات إنَّ الأمر بدا شبيهًا بطفل عملاق يسقط خارجًا مِن رَحِم السماء، ومن ورائه المشيمة تتبعه مثل ذيلٍ طويل. فقدتُ الوعي بمجرَّد أن اصطدمنا بالأرض.

واسترجعتُ الوعي حينما كانوا يحملونني سائرين بي لنصعد على متن سفينة بورتلاند. لم تُتَح لهم حتَّى الفرصة لطَيِّ السجادة الحمراء التي كان مِن المفترض بنا أن نسير عليها. كنتُ أنزف، أنزف وهم يسرعون بي صاعدين لمركز الرعاية الطبية عبرَ سجادة حمراء لم تكن حُمرتُها شيئًا يُقارَن بالحُمرَة التي تغطِّيني أنا...

***

"أقمتُ في مدينة بيثيسدا لعامين. منحوني وسامَ الشرف والكثير مِن المال وهذا المقعد المتحرِّك. ثم أتيتُ إلى هنا في العالم التالي. يروق لي أن أراقب انطلاقَ الصواريخ".

قال ريتشارد: "أنا أعلم هذا"، سكتَ لحظة. "لكن أرني يديكَ".

"كلَّا". خرَجَت مني بسرعة شديدة وبكل حدَّة. "لا يمكنني أن أدعهم يرون. لقد قلتُ لكَ ذلك".

قال ريتشارد: "لقد مرَّت خمسة أعوام، فلماذا الآن، يا آرثر؟ أيمكنك أن تخبرني بذلك؟".

"لا أدري. لا أدري! ربمَا لأنَّ ذلك الشيء -أيًّا ما كان- يحتاج إلى فترة حَمل وتطوُّر طويلة. أو مَن يمكنه أن يزعم أنني ابتُليتُ به هناك بعيدًا؟ فربما يكون ذلك الشيء قد دخلَ إليَّ بينما أنا في مدينة فورت لاودردال. أو هنا تمامًا بينما أجلس على هذا الرواق، فما أدراني؟".

تنهَّد ريتشارد وأرسل بصره نحو المياه، التي يميل لونها الآن للحُمرة مع شمس آخر الأصيل. "إنني أحاول. فأنا لا أريد أن أعتقد أنك فقدت عقلك يا آرثر".

قلتُ: "إذا اضطررتُ فسوف أريك يديَّ". كلَّفني قولُ هذا جهدًا. "لكن فقط إذا اضطُرِرتُ".

نهضَ ريتشارد وتناول عصاه. بدا عجوزًا وهزيلًا. "سأجلب عربة الرمل. سوف نبحث عن الصبي".

"شكرًا لكَ يا ريتشارد".

خرجَ متَّجهًا صوبَ الطريق الترابي المليء بالأخاديد، المؤدِّي إلى كابينته- لا أرى إلَّا سقف تلك الكابينة من وراء الكثبان الرملية الكبيرة، تلك الممتدَّة على طول طريق كي كارولين تقريبًا. فوق المياه وصوبَ لسان اليابسة الداخل في البحر، كانت السماء قد اكتست لونًا بنفسجيًّا قبيحًا، وتناهى إلى أذنيَّ دَوي الرعد خفيضًا للغاية.

***

لم أعرف اسم الصبي لكنني كنتُ أراه بين الحين والآخر، سائرًا بمحاذاة الشاطئ وقت الغروب، وتحت ذراعه غِرباله. كانت بشرته تكاد تكون سوداء مِن فرط ما لوَّحتها الشمس، وكل ما يستر به بدنه شورت جينز متهرِّئ النسيج. كان ثمة شاطئ عام على الطرف الآخر مِن طريق كي كارولين، ويمكن لفتى جريء أن يجمع ربما ما يصل إلى خمسة دولارات في يومٍ طيب، إذا صبر على غَربَلَة رمل الشاطئ

مُنقِّبًا عن العملات المعدنية الصغيرة. كنتُ ألوِّح له مرة كل حين وآخر وكان هو يلوِّح لي أيضًا، غريبان لا يعرف أحدهما الآخَر معرفة شخصية، ولكن أخوان لأننا مقيمان هُنا على مدار العام في مقابِل وابلٍ مِن السُّيَّاح بإسرافهم وجعجعتهم وسياراتهم الكاديلاك. أتخيَّل أنه كان يعيشُ في قرية صغيرة تبعدُ عَن هنا نصف ميلٍ تقريبًا، تتجمَّع بيوتها حول مكتب البريد.

عندما مرَّ بي في ذلك المساء كنتُ قد مكثتُ جالسًا على الرُّواق لساعةٍ، بلا حراك، أكتفي بالنَظر. وكنتُ قد نزعتُ الضِّمَادات عن يدي مِن قبل ذلك؛ لأنَّ الحكَّة كانت غير محتَملة، وكان الأمر أفضل على الدوام عندما يتاحُ لهم النظر عبرَ أعيُنهم.

كان إحساسًا لا مثيل له في هذا العالَم- كما لو أنني كنتُ بابًا موارَبًا بفتحةٍ صغيرة، وعبرها كانوا يختلسون النظر إلى عالِمٍ كانوا يكرهونه ويخافونه. غير أنَّ الجزء الأسوأ كان أنني أنا أيضًا، كان بوسعي أن أرى. تخيَّل عقلك وقد تحوَّل إلى جسدٍ لذبابة، ذبابة تُمعِن النَّظر في وجهك نفسه بألف عين. وربما عندئذٍ يمكنك أن تبدأ في إدراك سبب الاحتفاظ بالضِّمادات فوق يدي حتَّى لو لم يكن هناك أحدٌ بالقُرب مني يمكنه أن يراهما.

بدأ الأمرُ في ميامي. كان لديَّ عملٌ ما هناك مع رجل يُدعى كروسويل، محقِّق من البحرية الأمريكية. كان يتفقَّد أحوالي مرَّةً كُلَّ سنة- لفترة من الوقت كنتُ مُطَّلِعًا على ما لم يَطَّلِع عليه أحدٌ سواي، من معلومات شديدة السرية تابعة لبرنامجنا الفضائي. ومع ذلك فلم أعرف ما الذي كان يبحث عنه؛ ربما وَمضة خداع في عيني، أو ربما وَصمة الخاطئين موسومة على جبيني. يعلم الله السبب. كما أنَّ راتب تقاعدي كان ضخمًا لدرجة تكاد تُخجِلني.

كنّا أنا وكروسويل جالسين على شرفة غرفته في الفندق، نحسو مشروبَيْنا ونناقش مستقبل البرنامج الفضائي الأمريكي. كانت الساعة حوالي الثالثة والربع، حين بدأت الحكّة في أناملي. لم يحدث الأمر تدريجيًّا بالمرّة، بل اندلعَ فجأة كأنه تيار كهربائي. فذكرتُ لكروسويل ما أحسُّ به.

فقالَ مبتسمًا: "لا بدَّ أنك قد التقطتَ التهابًا جلديًّا مِن تلك الجزيرة الصغيرة الملوَّثة".

قلتُ له: "النبات الوحيد الموجود في كي كارولين هو نخيل الباميتو الصغير، ربما تكون هرشة السَّنَة السابعة[1]". خفضتُ بصري نحو أصابعي، كانت يدَيْن عاديَّتَيْن تمامًا، لكن حَكَّتها تأكلني أكلًا.

في وقتٍ تالٍ مِن هذا الأصيل نفسه وقَّعت على الوثيقة القديمة ذاتها والتي تقول "أقسم مخلصًا على أنني لم أطَّلِع على معلومات سرية، ولم أُعلِنها ولم أُفشِها، بحيث يمكن أن..."، ثم قُدتُ السيارة راجعًا إلى الكي. كنتُ قد حصلتُ على سيارة فورد قديمة، مجهَّزة بمكابح ومُحوِّل سرعات يعملان يدويًّا. أحبُّها؛ فهي تجعلني أشعر بالاكتفاء الذاتي.

كانت رحلة عودة طويلة، على امتداد الطريق السريع رقم 1، وعندما حان وقت ابتعادي عن الطريق الكبير والنزول نحو المخرج المنحدر المؤدِّي إلى كي كارولين، كنتُ قد فقدتُ صوابي تقريبًا؛ فقد كانت يداي تأكلانني بشكل يدفع للجنون. إذا كنتَ قد عانيتَ ذات مرة مِن التئام جرحٍ عميق أو شقٍّ بسبب جراحة؛ فَلعلَّك تعرف شيئًا عن نوع الحكَّة التي أقصدها. بدا لي أنَّ ثمة كائنات حية في داخل لحمي وأنها تدبُّ وتحفر.

---

(1) the seven- year itch: فيلم رومانسي كوميدي إنتاج أمريكي سنة 1955 إخراج بيلي وايلدر، وبطولة مارلين مونرو وتوم إيوِل، ومذكور هنا على سبيل الدعابة.

كانـت الشـمس قـد غربـت تقريبًـا ونظـرتُ إلى يـديَّ بتفحُّـص عـلى بريـق إشـارات تابلـوه السـيارة. أطـراف أصابعـي حمـراء الآن، حمـراء ولهـا دوائـر صغـيرة للغايـة ومكتملـة الاسـتدارة، فـوق الجـزء الخـاص ببصـمات الأصابـع مبـاشرةً، في الموضـع الـذي يطلـع لـكَ فيـه كالُّـو صغـير إن كنـت عـازفَ جيتـار. كانـت هنـاك أيضًـا دوائـر حمـراء مـن الالتهـاب عـلى المسـاحة بـين المفصـل الأوَّل والثـاني لـكل إصبـع، بمـا فيهـا الإبهـام، وعـلى الجلـد مـا بـين المفصـل الثـاني والبرجمـة. ضغطـتُ أصابـع يـدي اليمنـى عـلى شـفتيَّ وأبعدتُهـا عـلى الفـور، في تقـزُّز مفاجـئ. صعـدَ إلى حلقـي شـعورٌ برُعـبٍ أخـرس، خانـق كأنـه كتلـة صـوف. كان الجِلـدُ في الأجـزاء التـي ظهـرت عليهـا النقـاط الحمـراء حـارًّا، بـل سـاخنًا للغايـة، وكان اللحـم طريًّـا ولـه ملمـس قـشرة جليـد، مِثـل تفاحـة تعفَّنَـت.

أكملـت مـا تبقَّـى مـن رحلـة العـودة وأنـا أحـاول أن أقنـع نفـسي بأننـي قـد أُصِبـتُ فعـلًا بالتهـابٍ جلـديٍّ بطريقـةٍ مـا. ولكـن في جـزء خلفـي مـن عقـلي كمنَـت فكـرةٌ أخـرى قبيحـة. كانـت لي خالَـة، بعيـدًا في أيـام طفولتـي، عاشـت آخِـر عـشر سـنوات مـن حياتهـا معزولـةً عـن العالَـم في غرفـة موصَـدةٍ عليهـا بالطابـق العلـوي. كانـت أمـي تصعـد إليهـا بالوجبـات، وكان مجـرَّد النُّطـق باسـمها مُحرَّمًـا علينـا. اكتشـفتُ فيـما بعـد أنهـا كانـت مُصابَـة بالجُـذام.

عندمـا رجعـتُ إلى البيـت اتَّصلـتُ بالدكتـور فلانـدرز في منطقـة الـبر الرئيـسي بعيـدًا عـن الجُـزر. لم يـرد عـليَّ، وبـدلًا مـن ذلـك تلقَّيـتُ ردًّا مِـن أحـد مسـاعديه. كان د. فلانـدرز في رحلـة صيـد بحريـة، ولكـن إن كانـت الحالـة طارئـة، فـإنَّ د. بالانجـر...

"متى سيعود دكتور فلاندرز؟".

"غدًا بعد الظهر على أبعد تقدير. فهل هذا...".

"بالتأكيد".

وضعتُ السمَّاعة ببطء، ثم اتصلتُ بريتشارد. ترَكتُ الجرس يدقُّ نحو عشر مرات قبل أن أغلق الخطَّ. بعد ذلك جلستُ لبُرهة متردِّدًا. كانت الحكَّة تزداد عُمقًا، وبدت كأنها تنبعث مِن اللحم نفسه.

وجَّهتُ مقعدي ذا العجلات نحو خزانة الكتب وسحبتُ من على الرَّفِّ نُسخةً مُتهَرِّئة من الموسوعة الطبية التي أمتلكها منذ سنين. كان الواردُ في الكتاب غامضًا إلى درجة تبعث على الجنون. فقد يكون ما أصابني أي شيء، أو لا شيء على الإطلاق.

اضطجعتُ في مجلسي وأغمضتُ عينيَّ. كنتُ أسمع دقَّات الساعة القديمة بصوت جرس سفينة مِن موضعها على الرَّفِّ في الناحية الأخرى من الغرفة. وكان هناك طنينٌ عالٍ ورفيع لطائرة في طريقها إلى ميامي. وأيضًا الهسيس الناعم لصوت أنفاسي.

كنتُ لا أزال ناظرًا في الكتاب.

زحفَ هذا الإدراكُ إليَّ، ثم غاص عميقًا بداخلي بانقضاضة مُفزِعة. كانت عيناي مُغلَقتَيْن، ولكني كنتُ لا أزال ناظرًا إلى الكتاب. ما كنتُ أراه هو شكلٌ نظيرٌ لكتابٍ رُباعيِّ الأبعاد ومُضبَّب ووحشي، ورغم ذلك كله فَلم يزل واضحًا بصورة لا تُخطَأ.

ولم أكن الوحيدَ الذي يشاهِد.

فتحتُ عينيَّ بسرعة، بينما أشعرُ بانقباض قلبي. هدأ الإحساس قليلًا، لكن دون أن ينقضي تمامًا. كنتُ أنظر إلى الكتاب، وأرى الطباعة والأشكال بعينيَّ، تجربة يومية عادية لأقصى حدٍّ، وكنتُ أيضًا أراه من زاوية مختلفة، زاوية أدنى وأراه بأعينهم هُم. لم أكن أرى كتابًا بل شيئًا غريبًا مجهولًا، شيئًا ما له شكلٌ وحشيٌّ ونِيَّة مُنذِرة بالشَّر.

رفعتُ يديَّ ببطءٍ إلى وجهي، وقد لمحتُ رؤيةً مُخيفة لغرفة معيشتي وقد تحوَّلت إلى منزل رعب. صرختُ.

عبرَ شقوقٍ في لحم أناملي، كانت هناك أعين تحدِّق فيَّ. وحتَّى بينما كنتُ أنظر كان اللحمُ يتسع ويتراجع، بينما كانت تلك الأعين تشقُّ طريقها نحو السطح بلا مبالاة.

لم يكن هذا ما دفعني للصراخ. فقد نظرتُ ورأيتُ وجهي بأعينهم، فلمَ أرَ إلَّا وَحشًا مخيفًا.

***

ارتفَعَت مُقدِّمة العَربة الصغيرة على التل وأوقفها ريتشارد إلى جانب الرواق الأمامي. أصدرَ مُحرِّكُها هديرًا وحشرجة متقطِّعة. وجَّهت مقعدي لأنزل على المنبسِط المائل عن يمين الدَّرَج العادي وساعدني ريتشارد على الركوب.

قالَ: "والآن، يا آرثر، الكلمة كلمتك. إلى أين؟".

أشرتُ للأسفل نحو المياه، حيث تبدأ الكثبان الكبيرة بالتَّلاشي أخيرًا. أومأ ريتشارد برأسه. أثارت العجلتان الخلفيَّتان الرَّملَ حولهما وانطلقنا. كنتُ في الأحوال المعتادة أجد الوقت لكي أسخرَ مِن سياقة ريتشارد، لكني لم أهتم بذلك الليلة. هناك أمور أخرى كثيرة للغاية لأفكر بها، ولأشعر بها: لم يكونوا يريدون الظلام، وكان بوسعي أن أشعر بهم يجاهدون للنَّظر عبرَ الضِّمادات، يريدونني أن أنزعها عن يديَّ.

تَقافَزَت العربة الصغيرة وهدرت عبر الرمل نحو المياه، وبدت كأنها تطير تقريبًا مِن فوق رؤوس الكثبان الصغيرة. على يسارنا كانت الشمس تغرب في هالة دامية. وفي المواجهة مباشرةً، عبرَ المياه، كانت السُّحب الرعدية تشقُّ طريقها نحونا خفَّاقة. وتشعَّب البرقُ على المياه.

قلتُ له: "اتَّجِه يمينًا، بجانب تلك الحظيرة الخشبية".

أثـارَ ريتشـارد الرمـالَ حـول العربـة حـينَ أوقفهـا فجـأة بجانـب البقايـا المتحلِّلـة مـن الحظـيرة الصغـيرة، ومـدَّ يـده للخلـف وتنـاولَ مجرافًـا. أجفلـتُ عندمـا رأيتُـه. سـألَني ريتشـارد بوجـهٍ بـلا تعبـير: "أيـن؟".

"هناك بالضبط". وأشرتُ إلى الموضع.

نـزل مِـن العربـة وسـارَ متمهِّلًا عـبر الرمـل إلى البقعـة المحـدَّدة، تـردَّد لثانيـة، ثـم أغمـدَ رأسَ المجـراف في الرمـل. تهيَّـأ لي أنـه ظـلَّ يحفـر لفـترة طويلـة جـدًا. بَـدَت الرمـال التـي أخـذ يلقيهـا للـوراء مـن فـوق كتفيـه مخضلَّـة ورطبـة. كانـت السـحب الرُّكاميـة أشـد ظُلمـة وارتفاعًـا، وبـدا البحـر غاضبًـا وهائجًـا تحـت ظلالهـا والوَهـج المنعكـس مـن غـروب الشـمس.

حتَّـى قبـل فـترة طويلـة مـن توقُّفـه عـن الحفـر، علمـتُ أنـه لـن يعـثر عـلى الفتـى. لقـد نقلـوا جُثَّتـه. لم أضمِّـد يـديَّ ليلـة أمـس، بحيـث يمكنهـم أن يـروا- ويتصرَّفـوا. إذا كان بمقدورهـم اسـتخدامي لقتـل الصبـي، فـإن بمقدورهـم اسـتخدامي لنقلـه، حتَّـى بينـما كنـتُ نائمًـا.

"لا وجـود لصبـي، يـا آرثـر". ألقـى المجـراف المتَّسِـخ في العربـة وجلـس بإنهـاك عـلى المقعـد. ألقـت العاصفـة الوشـيكة ظـلالًا زاحفـة، هلاليَّـة الشـكل، عـلى امتـداد الرمـال. ضرب الهـواء المتصاعِـدُ هيـكلَ العربـة الصـدئ بالرمـال. شـعرتُ بحكَّـة في أصابعـي.

قلـتُ بـبرود: "لقـد اسـتخدموني لأنقلـه، صـارت لهـم اليـدُ العليـا، يـا ريتشـارد. إنهـم يجـبرون مدخلهـم عـلى أن ينفتـح، ولـو بقـدر ضئيـل في كل مـرَّة. مائـة مـرة في اليـوم أجـدُ نفـسي واقفًـا أمـام غَـرضٍ مـا مألـوف تمامًـا -مِلـوَق، صـورة، أو حتَّـى عُلبـة فاصوليـا- وأنـا لا أعـرف بالمـرَّة كيـف أصبحـتُ هنـاك، رافعًـا يـديَّ أمامـي، لأريهـم إيَّـاه، وأراه كـما يرونـه، مِثـل بـذاءة، مثـل شيءٍ مشـوَّه وبشـعٍ...".

قـالَ: "لا، يـا آرثـر، لا تفعـل هـذا يـا آرثـر، لا تفعـل...". كان وجهـه في الضـوء السـاقط ممتقعًـا مِـن فـرط التعاطـف. "قلـتَ "واقفًـا أمـام غـرض مـا"، وقلـتَ "نقلـتَ جُثَّـة الصبـي". لكنـكَ غـير قـادرٍ عـلى المشي يـا آرثـر. نصفُـكَ السُّـفليُّ ميِّـتٌ تمامًـا".

لمسـتُ لوحـة تابلـوه العربـة. "وهـذه أيضًـا ميتـة تمامًـا، لكنـك عندمـا تدخلهـا تسـتطيع أن تجعلهـا تتحـرّك. ويمكنـك أن تجعلهـا تقتـل. ولا يمكنهـا أن تمنعـك حتَّـى لـو أرادت". سـمعتُ صـوتي يرتفـع لدرجـةٍ هيسـتيريَّة. "أنـا المَدخـل، ألا يمكنـكَ أن تفهـم ذلـك؟ لقـد قتلـوا الصبـي، يـا ريتشـارد! وقـد نقلـوا جثَّتـه!".

قال بهدوء: "أعتقد أنَّه مِن الأفضل أن تزور طبيبًا. هيا نرجع، و...".

"اذهبْ واسأل! اسأل عن الصبي، إذًا! واكتَشِف إن...".

"قلتَ إنَّكَ لا تعرف حتَّى اسمه".

"لا بدَّ أنه كان مِن أهل القرية. إنها قرية صغيرة. فلتسأل...".

"تحدَّثـتُ مـع مـود هارنجتـون عـلى الهاتـف عندمـا أحـضرت العربـة. وأنـا لا أعـرف في الولايـة كلِّهـا شـخصًا أكـثر منهـا فضـولًا وحِشريَّـة. سـألتُها إن كانـت قـد سـمعت عـن فتـى صغـير ابـنٍ لأيِّ أسرة لم يرجـع إلى البيـت ليلـةَ أمـس. فنفـت أن تكـون سـمعت شـيئًا كهـذا".

"لكنه من أهل المنطقة! لا بدَّ أنه كذلك!".

مـدَّ يـده نحـو مفتـاح المحـرِّك، ولكنـي أوقفتـه. التفـتَ نحـوي فبـدأتُ أنـزع الضِّـمادات عـن يـديَّ.

من ناحية الخليج، كان الرعدُ يدمدم ويُزَمجر.

***

لم أذهب لزيارة الطبيب الذي اتَّصلتُ به، كما لم أعاود الاتصال بريتشارد. أمضيتُ ثلاثة أسابيع حريصًا على إخفاء يديَّ بالضمادات كلَّما خرجتُ من المنزل. ثلاثة أسابيع يراودني خلالها أملٌ لا أساس له بأن يختفي هذا الأمر كما ظهر. لم يكن تصرُّفًا عاقلًا؛ يمكن لي أن أعترف بهذا. لو أنني كنتُ رجلًا كاملًا ليس بحاجةٍ إلى مقعد ذي عجلات بديلًا لساقيه، أو رَجُلًا عاش حياة عاديَّة يشتغلُ في وظيفة عادية؛ لرُبَّما كنتُ ذهبتُ إلى دكتور فلاندرز أو تواصَلتُ مع ريتشارد. وربما كنتُ فعلتُ ذلك لولا ذِكرَى عَمَّتي، وهي منبوذة، سجينة عمليًّا، يأكلها لحمُها نفسه وهي حيَّة تُرزَق. وهكذا احتفظتُ بصمتٍ يائس وتوسَّلتُ لله أن أستيقظَ ذات صباح لأجد هذا الأمر قد تبدَّد مثل كابوس فظيع.

قليلًا... قليلًا، أخذتُ أشعرُ بهم. هُم. ذكاءٌ مجهول. لم أتساءل حقًّا من قبل كيف شكلهم أو مِن أين أتوا. تلك أمور غير ذات أهمية. كنتُ مَدخَلَهم، ونافذتهم على العالَم. وقد وردتني استجابةٌ كافية منهم لأشعر بنفورهم ورعبهم، ولأعرفَ أن عالمنا كان شديد الاختلاف عن عالمهم. استجابة كافية لأشعرَ بكراهيتهم العمياء. لكنهم مع ذلك ظلُّوا يشاهدون. كان لحمهم مدموجًا في لحمي. بدأتُ أدرك أنهم كانوا يستخدمونني، بل في الحقيقة يتلاعبون بي.

عندما مرَّ الفتى، رافعًا يدًا واحدة بتحيَّته المحايدة المعتادة، كنتُ على وشك أن أتَّخِذ قرارًا بالتواصُل مع كريسويل على رقم القوات البحرية الخاص به. كان ريتشارد مُحِقًّا بشأن أمر واحد، كنتُ على يقين مِن أنَّه أيًّا كان ذلك الشيء الذي استحوذ عليَّ فقد فعلَ ذلك في الفضاء العميق أو عبرَ ذلك المدار الغريب حول الزُّهرة. سوف يدرس الجيش حالتي، لكنهم لن يصنعوا مني أعجوبة للفُرجة. لن أكون مضطرًّا بعد ذلك لأن أستيقظ وسط ظلام ما قبل الفجر وأختنق صرخةً في حلقي إذ أشعرُ بهم ينظرون، وينظرون، وينظرون.

خرَجت يداي صوبَ الفتى وأدركتُ أنني لم أضمِّدهما. كنتُ أرى الأعين في الضوء المحتضَر، وهي تنظر في صمت. كانت كبيرة، متَّسِعَة، مُذهَّبة وقزَحيَّة. ذات مرَّة وخزتُها بطرف قلم رصاص فأحسَستُ بألمٍ بالغ يضرب ذراعي. حدَّقَت العينُ التي وخزتُها فيَّ بكراهيةٍ مُقيَّدة كانت أسوأ مِن الألم البدني. لم أكرِّر هذه الفعلة ثانية.

والآن كانت الأعين تنظر إلى الفتى. شعرتُ بعقلي ينزلقُ وينتحي جانبًا، وما هي إلَّا لحظة واحدة وفقدتُ كل سيطرتي. لقد فُتحَ الباب. سِرتُ نحوه متمايلًا على الرمال، وساقاي تتحرَّكان كالمقص في تراخٍ، أقرب إلى أغصان يابسة مدفوعة قسرًا. بدا كأنَّ عيناي أُغلِقَتا ورأيتُ فقط عبرَ تلك الأعين الدخيلة الغريبة- رأيتُ منظرًا بحريًّا مرمريًّا وحشيًّا تعلوه قُبَّة سماء كأنها طريق أرجوانية هائلة، رأيتُ عُشَّة متآكِلة مائِلة، ربما كانت جُثَّةَ مخلوقٍ مجهول مِن آكلي اللحوم، رأيتُ مخلوقًا كريهًا يتحرَّك ويتنفَّس ويحمل تحت إبطه أداةً مِن خشب وسِلك، أداة تتألَّف من زوايا قائمة مستحيلة هندسيًّا.

أتساءلُ: تُرى ما الذي فكَّر فيه، ذلك الفتى المسكين مجهول الاسم، بغِرباله تحت إبطه، وجيوبه المنتفخة بمزيجٍ غريب مِن عُملات السُّيَّاح المعدنية الملوَّثة بالرِّمال؟ ما الذي فكَّر فيه عندما رآني أتمايل متوجِّهًا نحوه مثل مايسترو أعمى يمدُّ يديه عاليًا فوق أوركسترا مخبول؟ ما الذي فكَّر فيه بينما سقطَ آخر ضوء كاشفًا يديَّ أمامه، بحُمرتهما وفتحاتهما وبريقهما وحمولتهما من الأعين؟ ما الذي فكَّر فيه عندما أقدَمَت اليدان على تلك الإشارة المفاجئة الملوِّحة في الهواء، تمامًا قبل أن ينفجر دماغه؟!

أعرف ما الذي فكَّر فيه!

حسبتُ أنني قد اختلستُ نظرةً مِن فوق حافَّة العالَم وفي قلب نيران الجحيم ذاته.

***

جذَبَت الرِّيحُ الضِّمادات وفَكَّكَتها وجعلتها شرائط ضئيلةً متطايرة بينما كنتُ أفكُّها عن يديَّ. مسحت السحب البقايا الحمراء للغروب، وأظلمت الكثبان وكَسَتها الظِّلالُ. من فوقنا واصَلَت السُّحبُ سباقها وغليانها.

قلتُ بصوتٍ يُجاهدُ الرياح المتصاعدة: "لا بدَّ أن تعدني بأمرٍ واحد يا ريتشارد. عليكَ أن تجري إذا بدا لك أنني قد أحاول... أن أوذيك. أتفهم ذلك؟".

"نعم". كان قميصه بفتحة الرقبة الواسعة يتطاير ويرفرف مع الريح. كان وجهه متأهِّبًا، وفي طلائع الظُّلمة بَدَت عيناه أكبر قليلًا مِن مقابس الكهرباء.

سقطت آخر الضمادات.

نظرتُ إلى ريتشارد ونظروا إلى ريتشاد. رأيتُ وجهًا عرفته وأحببتُه منذ خمس سنوات، وهُم رأوا عمودًا حيًّا شائِهًا.

قلتُ بصوتٍ أجشَّ: "هأنتَ تراهم، الآن تراهم".

بلا إرادة، تراجع خطوةً وحدة. لوَّثَ وجهه رُعبٌ مفاجئ غير مصدِّق. مزَّق السماء بَرقٌ، وسرى الرعدُ في السحب واسودَّ الماء كأنه نهر الجحيم ستيكس.

"آرثر...".

كم كان منظره بشعًا! كيف استطعتُ أن أعيش بالقُرب منه، وأن أتحدَّث إليه؟ لم يكن مخلوقًا، بل كان آفَةً خرساء، كان...

"اجرِ يا ريتشارد! اجرِ!"...

وجـرى. جـرى بوثبـاتٍ كبـيرة متقافـزة. صـارَ محـضَ هَيـكلٍ أمـام السـماء الكابيـة. حلَّقَـت يـداي عاليًـا، حلَّقـت فـوق رأسي بإشـارةٍ صارخـة ودوَّارة، امتـدَّت الأصابـع للـشيء الوحيـد المألـوف لهـا في هـذا العالَـم الكابـوسي- امتـدت نحـو السُّـحب.

وقد استجابت السُّحُب للنداء.

امتـدَّ شريـطُ بـرقٍ هائـل أزرق وأبيـض، بـدا كأنـه نهايـة العالَـم، وضربَ ريتشـارد محيطًـا إيـاه مـن كل جانـب. آخـر مـا أتذكَّـره هـي الرائحـة الكهربيـة الكريهـة لغـاز الأوزون ولاحـتراق اللحـم.

عندمـا أفقـتُ وجـدتُ نفـسي جالسًـا بـكل هـدوء عـلى الـرواق الأمامـي لمنـزلي، أتطلَّـع نحـو الكثيـب الرمـلي الكبـير. انقَضَـت العاصفـةُ وصَفَـا الهـواء وصـارَ منعشًـا. وبالأعـلى شريحـة فضيـة رقيقـة تَبـينُ مـن القمـر. كانـت الرمـال ملسـاء عـذراء- بـلا إشـارة واحـدة تنـمُّ عـن وجـود ريتشـارد أو العربـة الصغـيرة.

خفضـتُ عينـيَّ نحـو يـديَّ. كانـت الأعـين مفتوحـة لكـن لامعـة. لقـد أنهَكَـت نفسـها، وغَفَـت.

علمـت تمـامَ العِلـم مـا كان يتوجَّـب علـيَّ عملـه. قبـل أن ينفتـح البـاب أكـثر بـأيِّ درجـة؛ لا بـدَّ مِـن أن يُقفَـل بإحـكام. وللأبـد. بـدأت ألحـظُ بالفعـل أولى علامـات التغيـير في تركيـب يـديَّ نفسـهما. أخـذت الأصابـع تقـصر... وتتغـيَّر.

كانــت هنــاك مدفــأة صغــيرة في غرفــة المعيشــة، واعتــدتُ في فصــل الشـتاء أن أضرم بعـض النـار إزاء بـرودة فلوريـدا المبلَّلـة. أشـعلُ الآن نـارًا، وأتحـرَّك في عجلـة، لم تكـن لـدي أي فكـرة متـى قـد يسـتيقظون وينتبهـون لمـا أفعـل.

حين اشتعلت النار جيدًا ذهبت لخلفيَّة المنزل وأحضرت صفيحة كيروسين ونقَعتُ فيه كلتا يديَّ. استيقظوا على الفور، وصرخوا من الألم. أوشكتُ ألَّا أتمكَّن مِن الرجوع لغرفة المعيشة وللنيران هناك.

لكنني فعلت.

***

حدث كل ذلك منذ سبعة أعوام.

لم أزل هُنا، لم أزل أشاهدُ الصواريخ تنطلق. صار عددها أكثر في الفترة الأخيرة. لا بدَّ أنَّ الحكومة الحالية تحب برامج الفضاء. وقد تردَّد الحديث عن سلسلة أخرى مِن إطلاق مسابير مأهولة إلى كوكب الزهرة.

اكتشفتُ ما اسم الفتى، لكن ذلك لا يهمُّ. كان من أهل القرية، تمامًا كما ظَنَنتُ. لكنَّ أمه توقَّعَت أن يكون بات لدى صديقٍ في البَرِّ الرئيسي تلك الليلة، ولم تشعر بالقلق حتَّى يوم الاثنين التالي. أمَّا عن ريتشارد- يعني، اعتقدَ الجميعُ أن ريتشارد غريب الأطوار على كل حال. شكُّوا في أنه ربما عاد إلى ميريلاند أو استغرق في نزوةٍ مع امرأة ما.

أمَّا أنا، فقد تغاضَوا عني، مع أني، أنا نفسي، اكتسبتُ سُمعَةَ الشخص غريب الأطوار. على كل حال، كم عدد روَّاد الفضاء السابقين الذي يكتبون رسائل بوتيرة منتظمة إلى المسؤولين الحكوميين في واشنطن لإيصال فكرة مفادها أن أموال برامج استكشاف الفضاء من الخير أن تُنفَق في سُبُلٍ أخرى؟

صرتُ معتادًا تمامًا على تلك الخطَّافات المعدنية في نهاية ذراعيَّ. خلال السنة الأولى أو نحوها كنتُ أشعر بألم لا يطاق، لكن الجسد البشري قادِرٌ على التكيُّف مع أي شيء تقريبًا. وهكذا كما يُمكِنُك أن

تـرى الآن، فـإني أسـتطيع النَّقـر عـلى لوحـة مفاتيـح الآلـة الكاتبـة بدقَّـة ولُطـف. لا أتوقَّـع أننـي سـأجدُ أي صعوبـة مـع الخُطَّافَـيْن حـين أمسـك بالمسـدَّس وأضعـه فوَّهَتـه في فمـي وأضغـط الزنـاد. كـما تـرى، لقـد عـادوا مـن جديـد منـذ نحـو ثلاثـة أسـابيع.

ظَهرَت على صدري دوائر كامِلةٌ لاثنتي عشرة عينٍ ذهبية.

العصَّارة[1]

وصل الضابط هَنتون إلى المغسلة في اللحظة ذاتها التي كانت فيها سيارة الإسعاف تغادر المكان ببطء، مِن غير إطلاق سَرينة وبلا أضواء وامضة. علامة شؤم. بالداخل، كان المكتب مكتظًّا بالعمَّال الصامتين، وبعضهم يبكي. كانت مساحة المغْسَلة خاوية من الناس؛ المغاسل الأوتوماتيكية الضخمة في الطرف البعيد لم توقَف بَعد. وقد جعلَ هذا كله هنتون يتوجَّس شرًّا. ينبغي أن يكون الحشد مجتمعًا في مسرح وقوع الحادث، وليس في المكتب، فهكذا كانت تمضي الأمور دائمًا- إن الحيوان البشري فيه نزوعٌ غريزي لأن ينظر للبقايا والأشلاء. لا بدَّ إذَن أنَّ الحادث كان في غاية السوء. أحسَّ هنتون بأنَّ معدته تنقبض، كما اعتادَ عندما يكون الحادث شديد البشاعة. أربع عشرة سنة من

---

(1) عنوان القصة بالإنجليزية هو THE MANGLER، وهو تسمية دارجة للماكينة العملاقة التي تُجفِّف وتكوي الغسيل والبيَّاضات بالضغط الشديد، كما يتبيَّن من السياق، غير أن كلمة mangle تتضمَّن من بين معانيها الأخرى القتل والتمزيق والتشويه.

جمع الأشلاء البشرية مِن الطُّرُق السريعة والشوارع وأرصفة المشاة أسفل مبانٍ شاهقة الارتفاع، أربعة عشر عامًا لم تستَطِع أن تمحو تلك الأنشوطة الصغيرة المعقودة في معدته، كما لو أنَّ شيئًا شريرًا قد تكتَّل هناك.

رجلٌ ذو قميص أبيض رأي هنتون فسارَ نحوه بخطًى متردِّدة، كان عريضَ الرقبة والصدر مثل الثيران، وقد برزَ رأسه للأمام من بين كتفيه، وعلى أنفه ووجنتيه ارتسمت بوضوحٍ الشُّعيراتُ الدموية المتَّسِعة؛ إمَّا نتيجة ضغط دمٍ مرتفع وإمَّا حوارات زائدة عن اللزوم يجريها مع زجاجات الشراب. كان يحاول أن يصيغ عبارة واضحة، لكن بعد محاولتين قاطعه هنتون بسُرعة:

"هل أنت السيد جارتلي؟ مالك المكان؟".

"لا... لا. أنا ستانر. رئيس العُمَّال. ربَّاه، كان ذلك...".

أخرج هنتون دفترَ ملاحظاته. "من فضلك يا سيد ستانر، أرِني مَوقعَ الحادث، وأخبرني بما حدث".

بدا أنَّ وجه ستانر يزداد شحوبًا؛ فبرزت اللطخ الحمراء على أنفه ووجنتيه كأنها وَحَمات.

"هل.. هل ينبغي عليَّ هذا؟".

رفع هنتون حاجبيه. "أخشى أنه كذلك. الاتصال الذي تلقيتُه أنبأني بأنَّ الأمر خطير".

"خطير...". بدا ستانر كأنه يصارع بلعومه؛ وللحظة أخذَت حنجرته تصعد وتهبط مثل قرد على غصن شجرة. "السيدة فراولي ماتت. بحقّ الله، أتمنَّى لو أنَّ بيل جارتلي كان هُنا".

"ما الذي حدث؟".

فقالَ ستانر: "يُستحسَن أن تتفضَّل حضرتك إلى هنا".

قـادَ هنتـون إلى جانـب صـفٍّ مِـن المكابِـس اليدويـة، ووِحـدة لِطَـيِّ القمصـان المكويـة، ثـم توقَّـف عنـد ماكينـة كبـيرة للغسـل والوَسـم. مـرَّر عـلى جبينـه يـدًا مرتعشـة. "سـيكون عليـك أن تذهـب إلى هنـاك بمفـردك، يـا حـضرة الضابـط. فأنـا لا أسـتطيع أن أرى ذلـك مـرة ثانيـة. يجعلنـي... أنـا لا أسـتطيع. أنـا آسـف".

سـارَ هنتـون حـولَ ماكينـة الوسـم يسـاوره شيءٌ مِـن الاحتقـار نحـو هـذا الرجـل. أمثـال هـؤلاء يسـتهينون بتأمـين منشـآتهم، ويوفـرون النفقات قـدرَ مـا اسـتطاعوا، ويُشـغِّلون مِرجـلًا يطلـق البخـار الحـيَّ عـبر أنابيـب ملحومـة مُعَـدَّة أساسًـا للاسـتخدامات المنزليـة، ويسـتعملون في التنظيـف مـوادَّ كيماويـة خطـرة مـن غـير اتخـاذ تدابـير وقائيـة مناسـبة، وفي نهايـة الأمـر، يتـأذَّى شـخصٌ مـا، أو يمـوت. ثـم إنهـم لا يسـتطيعون إلقـاء نظـرة. لا يسـتطيعون...

ورأى هنتون.

كانـت الماكينـة الكبـيرة لا تـزال تعمـل؛ إذ لم يوقفهـا أحـد. الماكينـة التـي سـوف يعرفهـا بعـد ذلـك معرفـة وثيقـة: هادلي-واتسُـن موديـل- 6 للـكَيِّ والطَّـيِّ السريعَـيْن. اسـم طويـل ومرتبـك. وقـد اختـارَ لهـا العاملـون هنـا وسـط البخـار والبَلَـل اسـمًا أفضـل: العصَّـارة.

رمـى هنتـون نظـرة طويلـة متجمِّـدة، ثـم بـدرَ منـه شيءٌ لم يسـبق أن فعلـه عـلى مـدى أربـع عـشرة سـنة مـن العمـل كضابـط مُنفِّـذ للقانـون؛ اسـتدارَ ووضـعَ يـدًا مرتعـدة عـلى فمـه، وتقيَّـأ.

***

قال چاكسُن: "أنتَ لم تأكل الكثير".

كانـت المرأتـان بالداخـل، تغسـلان الأطبـاق وتتحدثـان مـع الصِّغـار في مُلاطَفـة، بينـما كان چـون هنتـون ومـارك چاكسُـن جالسَـين في مقاعـد

الباحة الخفيفة بالقرب من الشِّواء ذي الرائحة الزَّكيَّة. ابتسم هنتون للتعبير المخفَّف، فهو لم يأكل شيئًا بالمرة.

قال: "كان هناك حادثًا سيئًا اليوم، بل إنَّه الأسوأ".

"حادث سيارة؟".

"لا. مُنشأة صناعية".

"أحدثَ فوضى كبيرة؟".

لم يُجِبه هنتون مِن فوره، لكنَّ تكشيرةَ أَلمٍ ارتسمت على وجهه رغمًا عنه. أخرج زجاجة بيرة من صندوق المبرِّد بينهما، فتحها، تجرَّع نصفها. "أفترضُ أنَّ الأساتذة الجامعيين مِثلك لا يعرفون أي شيء عن المغاسِل الصناعية الضخمة، صحيح؟".

ضحكَ چاكسُن ضحكةً صغيرة. "ليس في حالتي أنا، عندي فكرة جيدة. فقبل التخرُّج في الجامعة، قضيتُ إجازة صيفية أعمل في مغسلة صناعية".

"إذَن فأنتَ تعرف الماكينة التي يسمونها الكَي السريع؟".

أومأ چاكسُن برأسه. "طبعًا. يُدخِلون فيها الأشياء مفرودةً ومُبلَّلة، على الأغلب ملاءات وبياضات الأسِرَّة. إنها ماكينة كبيرة وطويلة".

قال هنتون: "هي تلك، امرأة تُدعَى آديل فراولي عَلقَت بداخلها في مَغسلة بلو ريبون على الناحية الأخرى من البلدة. لقد ابتلعتها الماكينة وامتصَّتها بداخلها".

بدا چاكسُن سقيمًا فجأة. "لكن... ذلك أمرٌ غير ممكن، يا چوني؛ فهناك قضيب أمان. إن حدثَ عَرَضًا أنَّ امرأة ممَّن يُدخِلون الملاءات في الماكينة وصلت يدها تحت السَّير فسوف يرتفع هذا القضيب بسرعة تلقائيًا ويوقف الماكينة. أو على الأقل هذا ما أتذكَّره".

أومأ هنتون برأسه. "صحيح، هذا قانون الولاية. لكن هذا ما حدث".

أغمـضَ هنتـون عينيـه، وفي الظـلام كان بوسـعه أن يـرى مـرة أخـرى ماكينـة هادلي-واتسـن للـكيِّ السريـع، كـما رآهـا بعـد ظهـر هـذا اليـوم. تتَّخِـذ شـكلَ صنـدوق مسـتطيل ممتـدٍّ، حـوالي ثلاثـين قَدَمًـا في سـتٍّ أقدام. لـدى الطـرف الـذي تُغـذَّى بالغسـيل مِنـه، حِـزامٌ مـن قـماش القنَّـب السـميك يتحـرَّك تحـت قضيـب الأمـان، يرتفـع بزاويـة طفيفـة ثـم ينـزل مـن جديـد. يحمـل الحـزامُ الملاءات المجعَّـدة، نصـف جافَّـة نصـف رطبـة، في حلقـة متواصلـة، فـوق وتحـت سـت عـشرة أسـطوانة دوَّارة ضخمـة هـي التـي تشـكِّل الكتلـة الرئيسـية للماكينـة. بالأعـلى ثمـاني أسـطوانات وبالأسـفل ثمـاني، ينضغـط بينهـما الغسـيل كأنـه شريحـة رهيفـةٌ للغايـة مـن اللحـم المقـدَّد مضغوطـة بـين طبقـات مـن الخبـز شـديد السـخونة. يمكـن ضبـط درجـة حـرارة البخـار في تلـك الأسـطوانات حتـى تبلـغ 300 درجـة للوصـول لأقـصى تجفيـفٍ مُمكِـن. أمَّـا درجـة الضغـط عـلى الملاءات التـي تمتطـي ذلـك الحـزام القنَّـب المتحـرك فيمكـن ضبطهـا حتَّـى تبلـغ 800 رطـلًا لـكل قـدَمٍ مربَّعـةٍ بحيـث تنفـرد تمامًـا كل تجعيـدة في القـماش.

وبطريقــةٍ مــا، فقــد علَقَــت الســيدة فــراولي وجُرجِـرَت إلى داخــل الماكينـة. كانـت أسـطوانات الـكي المغلَّفـة بالحريـر الصخـريِّ حمـراءَ مثـل قرميـد الحظائـر، والبخـار الصاعـد مِـن الماكينـة فـاحَ بالرائحـة البشـعة المثـيرة للغثيـان، رائحـة الـدم السـاخن. كانـت هنـاك مِـزقٌ مِـن بلوزتهـا البيضـاء وسروالهـا الأزرق، بـل حتَّـى شرائـط رفيعـة مـن سـوتيانها وسروالها التحتـي، وقـد تمزَّقَـت وتفَكَّكَـت وانقذفـت عـلى مسـافة ثلاثـين قدمًـا بعيـدًا عـن الماكينـة، الأجـزاء الأكـبر مـن ثيابهـا وصلـت للجـزء الخـاص بالطـي الأوتوماتيـكي، فطوَتهـا الماكينـة بدقَّـةٍ ونظـام وهـي مُلطَّخـة بالـدم؛ فبـدا منظرهـا غريبًـا وبشـعًا. غـير أنَّ ذلـك كلـه لم يكـن هـو الأسـوأ.

***

قـالَ لچاكسُـن، وفي حلقـه طعـمُ مـرارة: "لقـد حاولَـت الماكينـة أن تطـوي كل شيء، لكـنَّ جسـد إنسـانٍ ليـس مِثـل مـلاءة، يـا مـارك. مـا رأيتُـه... مـا تبقّـى مِنهـا... مـن جسـدها..."، حـدث لـه عندئـذٍ مـا حـدث لسـتانر، رئيـس العـمّال تَعِـسِ الطّالـع، حـينَ عجـزَ عـن إنهـاء جملتـه. قـال بصـوتٍ ضعيـف: "لقـد حملوهـا في سـلَّة غسـيل".

أطلـقَ چاكسُـن صفـيراً سريعًـا. "ومَـن الـذي سـيتحمَّل المسـؤولية؟ المغسـلة أم مفتِّشـو الولايـة؟".

فقـالَ هنتـون: "لسـتُ أعلـم بَعـد". كانـت الصـورة المؤذيـة لم تـزل معلَّقـة وراء عينيـه، صـورة العصّـارة وهـي تنبـض مُصـدرةً فحيحهـا وهسيسـها، والـدم المتقطِّـر منهـا عـلى الجوانـب الخـضراء للمقاصـير الطويلـة في القنـوات، ونَـتن احـتراق الجسـد، جسـدها... "يتوقَّـف الأمـر عـلى مَـن الـذي صرَّح بـأنَّ قضيـب الأمـان اللعـين ذلـك لا خطَـرَ منـه، وتحـت أيـة ظـروف".

"إن كانت مسؤولية الإدارة، ألا يستطيعون التملُّص والإفلات؟".

ابتسـم هنتـون مـن غـير دعابـة. "لقـد ماتـت المـرأة، يـا مـارك. وإذا كان كلٌّ مِـن جارتـلي وسـتانر يوفِّـر مِـن نفقـات صيانـة ماكينـة الـكَيِّ السريـع؛ فسـوف يُسـجنَان. مهـما كان مقـام معارفهـما في مجلـس المدينـة".

"أتظنُّ أنهما كانا يوفِّران مِن نفقات الصيانة؟".

فكَّـر هنتـون في مغسـلة البلـو ريبـون، بإضاءتهـا الضعيفـة، وأرضياتهـا المبتلَّـة والزَّلقـة، وبعـض ماكيناتهـا العتيقـة بدرجـة غـير معقولـة والصريـر المزعـج الـذي يصـدر عنهـا، وقـال بهـدوء: "أظـن أنَّ هـذا مُحتَمَـل".

نهضـا واقِفَـيْن ليدخُـلَا المنـزل معًـا. قـال چاكسُـن: "أخـبرني كيـف انتهى الأمـر، يـا چـوني، فأنـا مُهتمٌّ".

***

كان هنتـون مُخطئًـا بشـأن العصَّـارة، فقـد كانـت الماكينـة عـلى خـير مـا يُـرام.

ذهـبَ سِـتّة مِـن مفتِّـشي الولايـة وفحصوهـا قطعـةً قطعـة قبـل بـدء التحقيـق. وكانـت النتيجـة النهائيـة ألَّا شيء فيهـا بالمـرة. انتهـى التحقيـق إلى الحُكـم بأنَّهـا وفـاة عـن طريـق الخطـأ ولا ذنـب فيهـا لأحـد. شـعرَ هنتـون بالذهـول جـرَّاء هـذا، وحـاصرَ بالأسـئلة روجـر مارتِـن وهـو أحـد المفتِّشـين السِّـتَّة، بعـد جلسـة نَظـر القضيـة. كان مارتـن رجـلًا وسـيمًا لطيفًـا، يضـع نظَّـارات لهـا عدسـتان سـميكتان مثـل قعـر كـوب المـاء. أخـذ يحـرك بعصبيَّـة قَلـمَ حـبر جـافٍّ بـين أصابعـه تحـت وابـل أسـئلة هنتـون.

"لا شيء؟ لا شيء بالمرة في الماكينة؟".

فقـال مارتـن: "لا شيء، بـكل تأكيـد، كان قضيـب الأمـان هـو جوهـر المسـألة. وهـو سـليم ويعمـل عـلى أفضـل نحـو. لقـد سـمعتَ شـهادة السـيدة چيليـان بنفسـك. لا بـدَّ أنَّ السـيدة فـراولي قـد دفعـت يدهـا لأبعـد مـمَّا يجـب. لم يـرَ أحـدٌ ذلـك؛ كان كلٌّ يراقـب عملـه. بـدأت تـصرخ. كانـت يدهـا قـد سُـحِبَت عندئـذٍ، وأخـذت الماكينـة تسـحب ذراعهـا. حاولـوا شـدَّها للخـارج بـدلًا مِـن أن يوقِفـوا الماكينـة- بسـبب الذُّعـر التـام. قالـت امـرأة أخـرى، السيدة كـين، إنهـا حاولـت أن توقِـفَ الماكينـة، ولكـن مـن المنطقـي افـتراض أنهـا ضغطـت زرَّ التشـغيل بـدلًا مـن زر الإيقـاف في ارتباكهـا، وعندئـذٍ كان قـد فـات أوان فِعـل أي شيء".

"كان قضيـب الأمـان معطَّـلًا إذَن، وإلَّا لوضعَـت يدهـا فوقـه وليـس تحتـه؟".

"ليـس بوسـعها ذلـك؛ إذ تُوجـد واجهـةٌ مِـن الصُّلـب المقـاوم للصـدأ فـوق قضيـب الأمـان. كـما أنَّ القضيـب نفسـه لم يكـن مُعطَّـلًا؛ فهـو موصـول بعَمـل الماكينـة ذاتهـا، فـإن تعطَّـل القضيـب سـوف تُوقـفُ الماكينـة ذاتهـا تلقائيًّـا".

"فَكيف حدثَ هذا بحقِّ الله؟".

"لا ندري. الرأي الذي اتَّفقنا عليه أنا وزملائي هو أنَّ السبيل الوحيد لحدوث ذلك أن تكون السيدة فراولي قد سقطت داخل ماكينة الكي السريع مِن الأعلى فالتهمتها الماكينة عندئذٍ. وقد كانت كلتا قَدَمَا السيدة على الأرض عندما وقعت الحادثة. أكثر من عشرة أشخاص كانوا حاضرين وشهدوا بذلك".

فقالَ هنتون: "أنتَ تصف حادثًا مستحيلًا".

"غير صحيح، إنه فقط حادثٌ لا نفهمه". توقَّف لحظة وبدا عليه التردُّد، ثم قال: "سأخبرَك بأمرٍ واحد، يا هنتون، بما أنك تبدو متأثرًا فعلًا بهذه القضية. لكن إذا ذكرتَ هذا لأي شخص فسوف أنكر أنني قلتُه لك. أنا لم أشعر بالارتياح لتلك الماكينة. فقد بَدَت... كأنها تسخر منَّا تقريبًا. لقد أجريتُ تفتيشًا على أكثر مِن عشر ماكينات كَي سريع خلال الخمس سنوات الأخيرة بوتيرة منتظمة. وبعضها في حالة سيئة للغاية بحيث لن أدعَ مخلوقًا يقترب منها ولو كان كلبًا مِن غير رِسْن-قانون الولاية رَخوٌ لدرجة مُحزِنة. لكنها جميعها كانت مجرَّدَ ماكينات على كل حال، أمَّا هذه بالذات... فهي مثل شبحٍ مخيف. لا أدري سببًا لذلك، ولكن هكذا الأمر. أعتقدُ أنني إذا وجدتُ عيبًا واحدًا، ولو مِن الناحية التقنية؛ لكان ذلك سببَ العُطل، ولكنتُ أصدرتُ قرارًا بإيقافها. جنون، صح؟".

قال هنتون: "لا، فقد أحسستُ بمثل هذا تمامًا".

قال المفتش: "دعني أحكِ لك أمرًا حدث منذ عامين في ميلتون"، وخلع نظارته وأخذ يمسحها ببطء في صِدارِه. "وضعَ شخصٌ ما صندوقَ ثلجٍ قديمًا في باحة بيته بالخارج. ثم اتَّصلَت بنا امرأة وقالت إن كلبها عَلَقَ بداخل الصندوق حتَّى اختنق. توصَّلنا لرجل شرطة الولاية المسؤول عن المنطقة لإبلاغ صاحب الصندوق القديم بأنَّ عليه أن

يأخـذه إلى مكـبٍّ نفايـات البلـدة. هـذا رجـلٌ لطيـفٌ ودَمِـث، واعتـذر بشـأن الكلـب، وحمَّـل الصنـدوق عـلى سـيارة نصـف نقـل وأخـذه إلى المكـبِّ في الصباح التـالي. في أصيـل ذلـك اليـوم نفسـه أبلغـت امـرأة في الحـيِّ عـن اختفـاء ابنهـا".

قال هنتون: "ربَّاه".

"كان صنـدوقُ الثلـج في المكـبِّ والولـد بداخلـه، ميِّتًـا. وهـو ولَـدٌ ذكيٌّ، وفقًـا لـكلام والدتـه. قالـت إنـه لـن يلعـب في صنـدوق ثلـج فـارغ بقـدر مـا أنـه لـن يركـب سـيَّارةً مـع رجـل غريـب. تمـام، لكنـه فعـل. وحرَّرنـا المحـضر وانتهينـا، فهـل أُغلِقَـت القضيـة؟".

قال هنتون: "أظنُّ هذا".

"أبـدًا. الرجـل المسـؤول عـن المكـبِّ ذهـب في اليـوم التـالي ليخلـع البـاب عـن الصنـدوق. بهـذا يقـضي قانـون المدينـة رقـم 58 لصيانـة ورعاية مكبَّـات القمامـة العامـة". نظـرَ مارتـن إليـه بوجـهٍ جامـد الملامـح. "فوجـدَ ستَّةَ طيـور ميِّتـة بداخلـه. نـوارس، وعصافـير دُوري، وطـير أبي الحنَّـاء. وقالَ إن البـاب انغلـق عـلى ذراعـه بينـما كان يكنسـها خارجـه؛ مـا جعلـه يقفـز بعيـدًا وهـو مذعـور. تبـدو لي تلـك العصَّـارة في مغسـلة بلـو روبِـن مثـل ذلـك الصنـدوق تمامًـا، يـا هنتـون. لا أرتـاحُ لهـا".

نظـر كلٌّ منهـما إلى الآخـر دونمـا كلمـة واحـدة مـن أيِّهـما في غُرفـة التحقيـق الخاليـة إلَّا منهـما، وعـلى مسـافة سِـتِّ نـواصٍ مـن شـوارع المدينـة مِـن موضعهـما هـذا كانـت ماكينـة هادلي-واتسـن موديـل 6 للـكي والطـي السريـع قائمـةً جاثمـة في المغسـلة التـي تعـجُّ بالعمـل والحركـة، نافثـةً بخارهـا ودخانهـا فـوق المـلاءات.

***



ما هو إلَّا أسبوع حتى صُرِفَت القضية مِن عقله تحت ضغوط أعمال شُرطيَّة أخرى لا يعوزها الإملال والروتين. ولم تخطر بباله مِن جديد إلَّا عندما ذهب هو وزوجته في زيارة سريعة إلى منزل مارك چاكسُن ذات مساء من أجل لَعب مباراة كوتشينة رباعية مع شرب بعض البيرة.

عاجله چاكسُن قبل التحية قائلًا: "هل سبقَ أن تساءلتَ يا چوني، إن كانت ماكينة المغسلة التي حكيتَ لي عنها مسكونة؟".

طرفَ هنتون بعينيه، في حيرة: "ماذا؟".

"ماكينة الكي السريع في مغسلة بلو ريبون، أظن أنَّ الصراخ لم يبلغ مَسمعك هذه المرة".

تساءل هنتون وقد ثار اهتمامه: "صراخ؟ أي صراخ؟".

ناوله چاكسُن جريدة المساء وأشارَ إلى خبر في أسفل الصفحة الثانية. ذكرت القصَّة أنَّ خطًّ بُخار قد انفكَّ منفلتًا على ماكينة الكي السريع الكبيرة في مغسلة بلو ريبون؛ ما تسبَّب في إحراق ثلاث سيدات مِن ستٍّ يَعمَلن على تغذية الماكينة بالبياضات. وقع الحادث في الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر، ويُعزى سببه إلى ارتفاع مفاجئ في ضغط البخار مِن مِرجَل المغسلة. نُقِلَت إحدى السيدات -وهي السيدة آنيت چيليان- إلى مستشفى المدينة لاستقبال الحالات الطارئة، وقد أصيبت بحروقٍ مِن الدرجة الثانية.

قال: "حادث غريب"، لكنَّ ذكرى كلمات المفتش مارتن في غرفة التحقيق الخالية قد عاوده فجأة: مِثل شبحٍ مخيف... وكذلك تلك القصة عن الكلب والصبي والطيور الذين علقوا جميعًا داخل الثلَّاجة التي رماها صاحبها.

كان أداؤه في لعب الورق ضعيفًا للغاية تلك الليلة.

***

كانت السيدة چيليان مُمدَّدة على سريرها، ومستندة بظهرها على الوسائد، وهي تقرأ مجلة أسرار الشاشة عندما دخل هنتون إلى عنبر المستشفى ذي الأربعة أسرَّة. كانت إحدى ذراعيها مغطاةً بضِمادةٍ كبيرة وجانب عنقها أيضًا. النزيلة الأخرى في الغرفة شابَّة مُمتَقَعة الوجه، وكانت نائمة.

طرفت السيدة چيليان بعينيها عند رؤية الزِّيِّ الرسمي الأزرق، ثم رسمت ابتسامة متردِّدةً على وجهها. "إذا كنتَ قد أتيتَ مِن أجل السيدة شيرنيكوڤ فسوف تضطرُّ لأن تعود لاحقًا؛ فقد أعطوها دواءها توًّا".

"لا، أنا هنا مِن أجلك، يا سيدة چيليان". تَقلَّصَت ابتسامتها قليلًا. "إنني هنا بشكلٍ غير رسمي- ما يعني أنِّي مُهتمٌّ بأن أعرف أكثر حول الحادث في المغسلة الصناعية. أنا چون هنتون". ومدَّ يده مصافحًا.

كانت هذه هي الخطوة الصحيحة، فقد أشرَقَت ابتسامة السيدة چيليان وصافَحَته بصعوبةٍ بِيَدِها غير المحروقة. "سأخبرك بكل ما تريد، يا سيِّد هنتون. ربَّاه، لقد ظننتُ أنَّك أتيتَ لأنَّ ابني آندي تسبَّب في مشكلة في المدرسة مرَّةً أخرى".

"ما الذي حدث؟".

"كنَّا نُدخِل الملاءات في الماكينة عندما انفجرت ببساطة- أو هكذا بدا الأمر. كنتُ أفكر في أن أذهب للبيت وأُخرجَ الكلاب قليلًا عندما دوَّى هذا الانفجار الكبير، كأنه قنبلة. كان البخار في كل مكان وضجَّة الفحيح هذه... شيء فظيع". ارتعَشَت ابتسامتها وأصبحت على وشك أن تختفي تمامًا. "بدا الأمر كما لو أنَّ الماكينة كانت تتنفَّس، بدت كأنها تنِّين. وآلبرتا صاحت -آلبرتا كين تلك- بأنَّ شيئًا ما ينفجر فأخذ الجميع يركضون ويصرخون، وبدأت چيني چاسُن تصيح بأنها احترَقَت. أخذتُ أجري مبتَعِدةً فسقطتُ على الأرض. لم أكن أعلم

مدى سوء حالتي حتَّى تلك اللحظة. لكن الله سلَّم ولم يقع لي ما هو أشدُّ سوءًا. ذلك البخار الحي الصاعد من المِرجَل هناك كانت حرارته ثلاثمائة درجة".

"ذكرت الصحيفة أنَّ خط البخار قد أفلتَ. ماذا يعني ذلك؟".

"معناه أن يسقط الأنبوب العلوي على هذا الخَطِّ المَرِن نوعًا الذي يُغذِّي الماكينة بالبخار. چورچ -أقصد السيد ستانر- قالَ إنه لا بدَّ أن هناك فَوَران انبعث مِن المِرجَل أو شيء ما. انشقَّ الخَطُّ وانفتح على وسعه".

لم يخطر لهنتون أي شيء آخر يمكن أن يستفسر عنه. كان يتأهَّب للرحيل حينما قالت بتفكُّر: "لم نَعتد أبدًا على أن يقع هذا النوع مِن الحوادث مع تلك الماكينة. بدأ هذا في الفترة الأخيرة فقط. انفجار خَطِّ البخار. وذلك الحادث الفظيع الشنيع الذي وقعَ للسيدة فراولي، رحمها الله. وأشياء صغيرة. مِثل ذلك اليوم الذي اشتبك فيه طرف ثوب إيزي في أحد السلاسل الدَّوَّارة، كان يمكن لذلك أن يكون خطيرًا لو أنها لم تُمزِّقه في الحال. صواميل تَنفَكُّ وأشياء تتساقط. آه، قضى هيرب ديمنت -وهو عامل الصيانة والإصلاحات في المغسلة- وقتًا عصيبًا مع ذلك كله. الملاءات تَعلَق داخل ماكينة الطَّيِّ. يقول چورچ إن ذلك بسبب استخدام كميات مفرطة من المبيِّضات في المغاسل، لكن ذلك لم يحدث من قبل بالمرة. الآن صارت البنات يكرهن العمل عليها. بل إنَّ إيزي قالت إنَّه ما زال بداخلها قِطَعٌ من آديل فراولي عالِقَة، وأنَّ هذا تدنيسٌ لحُرمَة الموتى أو أمر كهذا. كما لو أنَّ هناك لعنة ما. كان الأمر على ذلك النحو منذ أن جَرحت شيري يدها في أحد الكلابات".

تساءل هنتون: "شيري؟".

"شيري أوليت. صبية صغيرة جميلة، أنهت المدرسة الثانوية لتوِّها. عاملة جيدة. لكنها "تضرب لخمة" أحيانًا. أنت تعرف كيف هُنَّ البنات الصغيرات".

"جرحت يدها على شيءٍ ما؟".

"لا شيء غريب في ذلك. هناك كُلَّابات لرَبط وإحكام حزام التغذية بالملاءات، فاهمني؟ كانت شيري تضبطها بحيث يمكننا أن نُدخلَ طلبيَّةً أثقل في الماكينة، وغالبًا كانت شارِدةً في أحلامها بشابٍّ ما. جرحت أصابعها وسال الدم في كل مكان". بَدَت الحيرة على وجه السيدة چيليان. "منذ ذلك الحادث بالضبط بدأت الصواميل تنفكُّ. ووقَعَت حادثة آديل.... كما تعلم... بعد ذلك بنحو أسبوع. كما لو أنَّ تلك الماكينة تذوَّقَت طعمَ الدم فأعجبها. اعذرني، ولكن النساء يراودهنَّ أغرب الأفكار، صحيح يا حضرة الضابط هِنتان؟".

"هَنتُون"، قال شاردَ البال، ناظرًا أعلى رأسها في الفراغ.

***

كانت مُفارقة مُضحِكة أنه التقى بمارك چاكسُن في مغسلة ثياب صغيرة، عند الناصية التي تفصل بين منزليهما، وفي هذا المكان تحديدًا لطالما أجرى ضابط الشرطة وأستاذ اللغة الإنجليزية أشد حواراتهما تشويقًا.

الآن هُما جالسان جنبًا إلى جَنبٍ في مقاعد بلاستيكية لَدِنَة، وغسيل كلٍّ منهما يدور ويدور وراء الكوَّتين الزُّجاجيَّتين في الغسَّالات التي تُشَغَّل بالعُملات المعدنية. وقد وضعَ چاكسُن نسخته ذات الغلاف الورقي مِن مختارات مِلتون إلى جانبه مُعرِضًا عنها بينما يُنصِت إلى هَنتون وهو يحكي له قصة السيدة چيليان.

عندما أتمَّ هنتون القصة قال له چاكسُن: "سألتك مرة إن كنت تعتقد أن العصَّارة قد تكون مسكونة. آنذاك كنتُ أقول ذلك نصف مازح، والآن سوف أكرِّر نفس السؤال مرة ثانية".

فقالَ هنتون بانزعاج: "كلَّا، دعكَ مِن الحماقة".

نظرَ چاكسُن للغسيل الدوَّار متأمِّلًا. "ربما تكون مسكونة كلمة غير مناسبة، فلنَقُل إنَّ شيئًا ما استحوذ عليها وتملَّكها. ثمَّة تعاويذ كثيرة للغاية لاستحضار الشياطين، تقريبًا بنفس كثرة التعاويذ التي تطردها. كتاب "الغُصن الذَّهبي" لفريزر حافلٌ بها، كما أنَّ المعتقدات التقليدية لكَهَنة الكلتيين وشعب الأزتيك تحتوي على تعاويذ أخرى. حتَّى الحضارات الأقدم، وصولًا إلى الحضارة المصرية. وجميع تلك التعاويذ تقريبًا يمكن اختزالها في بعض القواسم المشتركة بينها بشكلٍ مُذهِل. والعنصر الأشد شيوعًا بينها، بالتأكيد، هو دَمُ صبيَّةٍ عذراء". ونظرَ إلى هنتون. "قالت السيدة چيليان إنَّ المشاكل بدأت بعد أن جَرحت شيرلي أوليت هذه نفسها من غير قصد".

قال هنتون: "باللهِ، تعقَّل".

فقال چاكسُن: "لا بدَّ أن تعترف بأنَّ هذا يبدو مثل النمط الشائع تمامًا".

قال هنتون بابتسامة صغيرة: "سوف أركض إلى منزلها. أستطيع تخيُّل المنظر. (آنسة أوليت، اسمحي لي، أنا الضابط چون هَنتون. أحقِّق في قضية سيئة لماكينة الكي التي استحوذ عليها شيطانٌ ما، وأريد أن أعرف إن كنتِ عذراء). هل تظنُّ أنني ستتاحُ لي فرصة لأودِّع ساندرا والأطفال قبل أن يشحنوني إلى سرايا المجانين؟".

قال چاكسُن مِن غير أن يبتسم: "كنتُ واثقًا أنكَ ستردُّ عليَّ بكلام مثل ذلك. إنني جاد، يا چوني. تلك الماكينة تصيبني بالذعر الشديد دون حتَّى أن تقع عيناي عليها".

قال هنتون: "على سبيل الافتراض، ليس أكثر، ما هي بعض تلك القواسم المشتركة المزعومة؟".

رفعَ چاكسُن منكبيه في حيرة. "يصعب عليَّ القول بدون دراسة. أغلب صِيغ التعاويذ والرُّقَى الأنجلوسكونية تشير إلى تراب من المقابر أو عين ضفدع. كثيراً ما تذكر التعاويذ الأوروبية يدَ السمو، والتي يمكن تأويلها على أنها يد حقيقية لرجلٍ ميِّت أو على أنها أحد العقاقير المسبِّبة للهلوسة التي ارتبطَ استخدامها بطقوس تجمُّعات الساحرات في العصور الوسطى- غالبًا نبتة "ست الحُسن" أو أحد مشتقَّات السيلوسيبين. وقد تكون هناك أشياء أخرى".

"وأنت تظنُّ أنَّ كل تلك الأشياء قد دخلت إلى ماكينة البلو ريبون؟ بالله عليك، يا مارك، أراهن أنه لا وجود لنبتة "ست الحُسن" على مسافة خمسمائة ميلٍ من هُنا في كل الاتجاهات. أم أنَّك تظنُّ أنَّ أحدهم خلع يَدَ عمِّه الراحل فريد ورمى بها في الماكينة؟".

"إذا واصلَ سبعمائة قرد النَّقرَ على آلة كاتبة لسبعمائة عام...".

أنهى هنتون جملته في حِدَّة: "فسوف ينتهي أحد القرود إلى كتابة أعمال شكسبير، "غُور في داهية". إنه دورك لتعبر الشارع حتَّى الصيدلية وتجلب بعض الأرباع المعدنية من أجل ماكينات التجفيف".

***

ما أشد غَرابة الطريقة التي فقدَ بها چورچ ستانر ذراعه في العصَّارة.

في السابعة مِن صباح الاثنين كانت المغسلة خالية مِن العُمَّال، فيما عدا ستانر وهيرب ديمنت، عامل الصيانة. كانا يُجريان العملية نصف السنوية لفحص وتشحيم تروس ومحامِل العصَّارة، قبل أن يبدأ يوم العمل الاعتيادي للمغسلة في السابعة والنصف. كان ديمنت في

الطرف البعيد للماكينة، يشحِّم الخطوط الاحتياطية الأربعة ويفكِّر في هذه الماكينة وكيف انتابته نحوها مشاعر سيئة في الفترة الأخيرة، وحينذاك زمجرت العصَّارة وسَرَت فيها الحياة فجأة.

كان يمسك عاليًا بأحزمة القنَّب الخارجية الأربعة حتَّى يستطيع الوصول إلى المحرِّك مِن تحتها، وفجأة أخذت الأحزمة تتحرَّك وتدور بين يديه، مُنتزعةً اللحم من راحتيه، وساحبةً إيَّاه معها.

قبل أن تحملَ الأحزمة يديه إلى داخل الحاوية بثوانٍ معدودة تمكَّن من انتزاع نفسه بعيدًا بنَفْضة لا إرادية.

صاحَ: "بحقِّ الله، يا چورچ! أوقِفْ ذلك الشيء اللعين فورًا!".

غير أنَّ چورچ ستانر بدأ يصرخ.

كان عويلًا عاليًا، داميًا مُثيرًا للجنون، ملأ أركان المغسلة وردَّدَت صداه الواجهاتُ الصُّلب للغسَّالات والأفواهُ الفارغة لمكابس البخار والأعينُ الخاوية للمجفِّفات الضخمة. شهق ستانر شهقةً لاهثة من الهواء وصرخ من جديد: "آه، ربَّاه، أنا عَلقت، أنا عَلقت...".

بدأت الأسطوانات تُصدِر بخارًا متصاعدًا. وحاوية الطَّي أخذت تصرُّ وتخفق وتنبض. وبدا كأنَّ التروس والسيور والمحرِّكات تهدرُ بحياةٍ خفِيَّة خاصَّة بها.

هُرعَ ديمنت إلى الطرف الآخَر للماكينة.

كانت الأسطوانة الأولى بدأت بالفعل تصطبغ بحُمرَةٍ شريرة. صدرَ عن حَلق ديمنت صوت أنين وابتلاع الريق. وكانت العصَّارة لا تزال تصدر عواء وخفقانًا وفحيحًا.

لو أنَّ شخصًا أصمَّ تابع هذا المشهد لرُبَّما ظنَّ للوهلة الأولى أنَّ ستانر كان منحنيًا وحسب فوق الماكينة، ولكن بزاوية غريبة. ولكن حتَّى هذا الأصمُّ كان سيرى وجهه الممتقع وعينيه الجاحظتين وفمه

الملتوي في صرخة ممتدَّة لا تنقطع. كانت الذراع مختفية تحت قضيب الأمان وتحت أوَّل الأسطوانات الدوَّارة؛ وقماش قميصه مُمزَّقًا من عند خياطة الكتف وقد انتفخَ عضده حتَّى المرفق بصورة بشعة غريبة؛ إذ كان الضَّغطُ يدفع الدماء للخلف في اطِّراد.

صرخَ ستانر: "أوْقِفْها!". وصدرَ صوت طقطقة إذ انكسرَ مرفقه.

ضغطَ ديمنت على زِر الإيقاف بإبهامه.

واصَلَت العصَّارة الهمهمة والزمجرة والدوران.

لم يصدق ما يحدث، فأخذَ يضربُ الزِّرَّ مرَّةً بعد أخرى بلا طائل. ازدادَ جِلدُ ذراع ستانر بياضًا وانشدادًا. وسرعان ما سوف ينشقُّ ويتصدَّع تحت الضغط الواقع عليه مِن الأسطوانة الدوَّارة؛ وكان هو لم يزل واعيًا ولم يزل صارخًا. راودت ديمنت صورة كارتونية لرجلٍ يُفرَد جسده تحت أسطوانة بخار حتَّى يصبح مسطَّحًا تمامًا، ولا يتبقَّى منه غير ظِلٍّ.

صرخَ ستانر بصوتٍ كالعواء: "الصِّمامات...". كان رأسُه ينجرُّ لأسفل، وأسفل، بينما كان يُسحَب أكثر فأكثر.

استدارَ ديمنت بسرعة وركضَ إلى غرفة المِرجَل، كانت صرخات ستانر تطارده مثل أشباحٍ مسعورة، وتَعَبَّق الهواء بزَنَخ الدم والبخار.

على الجدار عن يساره وجدَ ثلاثة صناديق رمادية ثقيلة تحتوي صمامات كهرباء المغسلة بالكامل. فتحَها ديمنت بعُنفٍ وبدأ ينزع الصمامات الأسطوانية الطويلة مثل مجنون، ويرمي بها وراء ظهره. انطفأت الأنوار التي في الأسقف؛ ثُمَّ آلة ضغط الهواء؛ ثم المرجل نفسه، بصوت حشرجة احتضار غليظة.

ومع ذلك ظلَّت العصَّارة دائرة، وصرخات ستانر قد تقلَّصَت إلى أنَّات فُقَاعيَّة.

بالمصادفة وقعت عينا ديمنت على بلطة الحريق في صندوقها ذي الباب الزجاجي، فأمسكها بِآهةٍ مكتومة وركض عائدًا. كانت ذراع ستانر قد اختفت تقريبًا حتَّى الكتف. في غضون ثوانٍ سينكسر ظهره المنحني وعنقه المشدود تحت وطأة قضيب الأمان.

قال ديمنت بانتحاب، ممسكًا البلطة: "يا ربي، لا أستطيع، يا چورچ، لا، لا أستطيع...".

الماكينة صارت الآن مَسْلخًا. بصقت الحاوية خارجها مِزقًا مِن كُم القميص، ونتفًا مِن اللحم، وإصبع. صرخَ ستانر بشهقة هائلة وأرجحَ ديمنت البَلطَة للأعلى ونزل بها وسط الظلمة المهيمنة على المغسلة مرةً. مرتين. ثم ثالثة.

سقطَ ستانر بعيدًا، فاقدًا للوعي والدم المائل للزُّرقة يتفصَّد مِن الجَدَعة التي خلَّفتها الذراع المبتورة أسفل الكتف مباشرة. امتصَّت العصَّارة ما تبقَّى بداخلها... ثم توقَّفَت عن العمل.

كان ديمنت يبكي بينما انتزع حزامه من عُرَاه وبدأ يعقد مِرقأةً لوقف النزيف.

***

كان هنتون يتحدَّث على الهاتف مع المفتِّش روجر مارتن. وأخذ چاكسُن يتابعه بعينيه بينما يدحرج كرةً للأمام وللوراء حتَّى تلاحقها باتي ابنة هنتون ذات الثلاثة أعوام.

كان هنتون يتساءل: "نزعَ جميع الصمامات؟ وضغطَ زِر الإيقاف ولم يعمل، ها؟.. هل تمَّ إيقاف ماكينة الكي؟ جيد. ممتاز. ها؟... لا، هذا ليس بصفةٍ رسميَّة". قطَّب هنتون جبينه، ثم ألقى نظرة بطرف عينيه نحو چاكسُن. "ألا يزال ما يقع يُذكِّركَ بحادث تلك الثلَّاجة، يا روجر؟... نعم، وأنا أيضًا. مع السلامة".

وضع السمَّاعة ونظر نحو چاكسُن. "لنذهب ونرَ تلك الفتاة، يا مارك".

***

كانت تملك شقَّةً خاصَّةً بها. كشفَ لها هنتون عن شَارة الشرطة، وخمَّن أنَّها امتلكت هذه الشقة منذ فترة قريبة، عبرَ طريقتها في مُرافَقَتِهم للداخل في تردُّدٍ وإن لم تَخلُ من تباهٍ بما تملك. جلسَت قُبالتهم في حرجٍ، في غرفة الجلوس المعتَنَى بأثاثها وزينتها، والمعلَّق على جدرانها صور طوابع بريدية مُكبَّرة.

"أنا الضابط هنتون وهذا زميلي، السَّيِّد چاكسُن. أتينا بخصوص حادث المغسلة". شعرَ بتوتُّر هائل إزاء هذه الصَّبيَّة سوداء الشَّعر، بحُسنها وحيائها.

غمغمت شيري أوليت: "أمرٌ رهيب، أنا لم أعمل قَطُّ في مكانٍ آخَر غير هذا. فالسَّيِّد جارتلي عَمِّي. أحببتُ العمل لأنه يسمح لي بأن أقيم في هذا المكان وأن أكتسب صديقات. ولكن الآن... أصبحَ مخيفًا جدًّا".

قال هنتون: "أصدرَ مجلس الولاية لأمان المنشآت الصناعية قرارًا بإيقاف ماكينة الكيِّ تمامًا إلى حين إنهاء تحقيق كامل في الأمر. هل بلغكِ هذا؟".

"بالتأكيد". زَفَرَت في قلق. "لا أدري ماذا سأفعل...".

قاطعها چاكسُن: "آنسة أوليت، لقد وقعَ لك حادث مع نفس الماكينة، صحيح؟ جرَحتِ يَدَكِ في أحد الكلَّابات، على ما أظن؟".

"صحيح، جرحت إصبعي". وفجأة تكدَّرَت ملامح وجهها. "كان ذلك هو أوّل شيء يحدث". نظَرَت نحوهما في حُزن. "أشعرُ أحيانًا كأنَّ الفتيات لم يَعُدن يحببنني بعد ما حدث، كما لو كان الذنب ذنبي".

قال چاكسُن ببطء: "ينبغي عليَّ أن أطرح عليكِ سؤالًا صعبًا، سؤالًا لن يعجبكِ. إنه يبدو أمرًا خاصًّا وشخصيًّا بدرجة مُذهِلَة، وبعيدًا عن موضوعنا كذلك، لكني أؤكِّد لكِ أنه ليس خارج الموضوع، وأنَّ إجاباتك لن تُسجَّل على الإطلاق في تقرير أو مَحضَر".

بدا عليها الذُّعر. "هل... هل فعلتُ شيئًا؟".

ابتسم چاكسُن وهزَّ رأسه نافيًا ذلك؛ فلانت ملامحها. قلتُ في نفسي الحمدُ لله على وجود مارك معي.

"سوفَ أضيف لما قلتُه، مع ذلك: إن إجابتَكِ ربما تساعدكِ على الاحتفاظ بهذه الشقة الصغيرة اللطيفة، وأن تستردِّي عملكِ مرة أخرى، وأن تعود الأمور لطبيعتها في المغسلة".

فقالت: "لأجل ذلك كله سأجيب عن أي سؤال".

"شيري، هل أنتِ عذراء؟".

بَدَت الصبيَّةُ مَذهولةً تمامًا، ومصدومة تمامًا، كما لو أنَّ قسِّيسًا في الكنيسة ناولها القربان ثم صفعها على خدِّها. ثم رفعت رأسها، وأشارت بيدها نحو شقتها الصغيرة المرتَّبة، كما لو أنها تسألهما كيف يمكن لهما أن يعتقدا أنَّ هذا المكان يصلح عُشًّا للغراميات السرية.

قال ببساطة: "إنني أدَّخِر نفسي لمَن سيكون زوجي".

نظر هنتون وچاكسُن إلى أحدهما الآخَر في هدوء، وفي تَكَّة تلك الثانية، أدركَ هنتون أنَّ ذلك بكامله كان حقيقة: لقد استحوذ شيطانٌ ما على تلك العصَّارة الجامدة المصنوعة من الصلب، بتروسها

وأسـطواناتها، اسـتحوذ عليهـا شـيطانٌ مـا وحوَّلهـا إلى كائـنٍ آخـر لـه حياتـه الخاصـة.

قال چاكسُن بهدوء: "شكرًا لكِ".

***

تَسـاءلَ هنتـون في فتـورٍ وغَـمٍّ بينـما يقـودان السـيارة في طريـق العـودة: "ومـاذا الآن؟ هـل نعـثر عـلى قِـسٍّ قـادر عـلى طـرد الشـياطين مِـن الماكينـة؟".

أصـدرَ چاكسُـن نخـرةً سـاخرة. "سـيكون عليـكَ أن تقطـع مسـافات بعيـدة لـكي تعـثر عـلى واحـد لا يأخـذكَ عـلى قـدر عقلـك ويناولـك بضعـة منشـورات دعائيـة تقرؤهـا بينـما يتَّصِـل هـو بسرايـا المجانـين. لا بـدَّ أن نمسـك الزمـام بـين أيدينـا، يـا چـوني".

"وهل نقدرُ على هذا؟".

"ربمـا. مُشـكِلَتُنا كالتـالي: إننـا نعلـم أنَّ ثمـة شـيئًا مـا في العصَّـارة، لكننـا لا نعلـم مـاذا يكـون". سَرَت قشـعريرة بـرد في بـدن هنتـون، كأنمـا لمسـته إصبـعٌ مِـن عَظـم. "ثمَّـة شـياطين كـبرى عديـدة. فهـل هـذا الـذي نتعامـل معـه مـن دائـرة باسـتيت أم بـان؟ أم بَعـل؟ أم الكيـان الـذي نسـمِّيه الشَّـيطان؟ إننـا لا نعلـم. إذا كان الشَّـيطان اسـتُدعِيَ عـن عمـدٍ وقَصـدٍ لكانـت فرصتنـا في طـرده أفضـل، لكـنَّ هـذه تبـدو حالـة اسـتحواذ وقـعَ بمحـض صُدفـة عشـوائية".

مـرَّر چاكسُـن أصابعـه خـلال شَـعره. "دَمُ عـذراء، نعـم. لكـنَّ هـذا لا يُضَيِّـق النطـاق إلَّا بالـكاد. لا بـدَّ أن نكـون واثقـين مـمَّا نفعـل، واثقـين تمامًـا".

"ولكـن لمـاذا؟". سـأل هنتـون بصراحـة فجَّـة. "لمـاذا لا نجمـع حِفنـةً مـن صِيـغ ووصفـات طـرد الشـياطين ونُجرِّبهـا؟".

تجمَّـدت ملامـح چاكسُــن في بــرود. "هــذه ليســت لعبــة عَســكر وحراميـة، يـا چـوني. باللـه عليـك، لا تحسـبها كذلـك. إن طقـوس طـرد الشـياطين خطـيرة بدرجـة رهيبـة. إنهـا عـلى نحـوٍ مـا مثـل إجـراء تجربـة انشـطار نـووي تحـت السـيطرة التامَّـة. يمكـن أن نقـترف خطـأ فندمِّـر أنفسـنا. إن الشـيطان عالِـقٌ في تلـك الماكينـة، ولكـن امنحـه فقـط فرصـة وسـوف...".

"يخرج حُرًّا؟".

فأجـابَ چاكسُــن في عبــوس: "إنــه يتــوق للخــروج بقــدر مــا يحــب القتــل".

***

كان هنتـون قـد أرسـل زوجتـه وابنتـه إلى السـينما، عندمـا زاره چاكسـن مسـاء اليـوم التـالي مبـاشرة. كانــت غرفــة الجلــوس تحــت تصرُّفهــما بمفردهــما، وكَـم اسـتراح هنتـون لذلـك. لم يـزل غـيرَ مُصـدِّقٍ هـذا الـذي تـورَّطَ فيـه.

قـالَ چاكسُـن: "ألغيـتُ فصـولي اليـوم، وقضيـتُ النهـار بطولـه مـع كُتُبٍ تتنـاول أَشرس الأربـاب والشـياطين التـي يمكنـك أن تتخيَّلهـا. وسـاعةَ العصر غذَّيـتُ جهـازَ الكمبيوتـر بأكـثر مِـن ثلاثـين وصفـة مـن وصفـات اسـتدعاء الشـياطين. وحصلـت عـلى عـدد مـن العنـاصر المشـتركة، والمفاجـأة أنهـا قليلـة".

عـرضَ القائمـة عـلى هنتـون: دم عـذراء، تـراب مقابـر، يـد السـمو، دم خفَّـاش، طحالـب ليليـة، حافـر حصـان، وعـين ضفـدع.

كانت هناك عناصر أخرى، اعتُبِرَت جميعها ثانويَّةً.

قال هنتون مفكِّرًا: "حافر حصان، غريب...".

"إنه شائعٌ جدًّا. في الحقيقة أنَّ...".

قاطعه هنتون: "هل يمكن لتلك الأشياء -أو لأيٍّ منهم- ألَّا يؤخَذ بمعناه الحرفي؟".

"تقصد مثلًا إذا جُمِعَت الأَشنات ليلًا أَفَلا تكون بديلًا لطحالب الليل؟".

"أَجَل".

قال چاكسُن: "هذا محتَملٌ جدًّا، لَطالما كانت الوصفات السِّحرية غامضة ومطَّاطة. وقد تَركت تلك الفنون السوداء على الدوام مساحةً للإبداع الشخصي".

قال هنتون: "وهكذا تحلُّ حلوى الچِيلي محلَّ حافِر الحصان، إنه صنف شائع جدًّا في أكياس غداء العمَّال. وقد لاحظتُ إناءً صغيرًا يحوي بعضًا منه موضوعًا تحت منصَّةِ فَردِ الملاءات قبل إدخالها ماكينة الكَيِّ، في ذلك اليوم الذي تُوفِّيت فيه السيدة فراولي. يُقَالُ إنَّ الچيلاتين يُصنَع من حوافر الخيل".

أومأ چاكسُن موافقًا. "وماذا أيضًا؟".

"دمُ الخفاش... تَمام، إنه مكان ضخمٌ، ومليءٌ بالكثير مِن الأركان والشقوق غير المضاءة. ويبدو وجود الخفافيش أمرًا واردًا، مع أنني أشكُّ في أنَّ الإدارة قد تعترف به. ومِن الجائز جدًّا أن يكون أحد الخفافيش قد وجد نفسه محبوسًا داخل العصَّارة".

مالَ چاكسُن برأسه للوراء، وبمفاصل إصبعين فركَ عينيه المحمَرَّتَين. "معقول... هذا كله معقول ومنطقي".

"أهو كذلك؟".

"نَعم. يمكننا أن نستبعد يدَ السمو مطمئنين، على ما أعتقد. بكل تأكيد لم يُسقِط أحدٌ يدًا في الماكينة قبل وفاة السيدة فراولي، ونبتة "ست الحسن" عنصر غريب على المنطقة بلا شك".

"وتراب المقابر؟".

"ماذا تعتقد؟".

قال هنتون: "ستكون هذه مُصادَفَة عجيبة بعيدة الاحتمال، فإنَّ أقرب مقبرة هي بيلزنت هيل، وتلك على مسافة خمسة أميال من مغسلة بلو ريبون".

قال چاكسُن: "تمام، لقد جعلتُ زميلي مُشَغِّل الكمبيوتر، الذي لا بدَّ أنه اعتقد أنني أستعدُّ لأعياد الهالووين، جعلتُه يُجري تحليلًا مُثبتًا لجميع عناصر القائمة، سواء الأساسية أو الثانوية، بحيث يصل إلى كل تركيبة ممكنة. وقد تخلَّصت مِن نحو أربع وعشرين وصفة بدت عقيمةً تمامًا. أما الأخرى التي تبقَّت فقد شكَّلت فئاتٍ واضحةً ومُحدَّدة بدرجة معقولة، والعناصر التي عزلناها تُشكِّل معًا إحدى تلك الوصفات".

"ما هي؟".

ابتسم چاكسُن: "وصفة سهلة. إنها تخصُّ تعاويذَ مَركَزُها أمريكا الجنوبية، ولها أفرع في منطقة الكاريبي، تتَّصِل بممارسات سِحر الڤودو. الكتب التي اطَّلعتُ عليها تعتبر تلك الكيانات أدنى منزلةً بمنتهى الحسم، مقارنةً بساداث أو ذلك-الذي-لا-يُسمَّى. أراهنكَ بأنَّ الشيء المستحوِذ على الماكينة سوف ينسلُّ بعيدًا مثل متنمِّر الحَيِّ".

"كيف سنجعله يفعل؟".

"ماءٌ مُقدَّس وقدر قليل من خبز القربان المقدَّس، لا بدَّ أن يكونا كافِيَيْن. ويمكننا أن نقرأ بعضًا مِن سِفر اللاويِّين عليه؛ سِحر مسيحي أبيض لا تشوبه شائبة".

"أأنت متأكِّد من أنَّنا لن نزيد المبلة طينًا؟".

فقالَ چاكسُن متفكِّرًا: "لا أرى ما قد يؤدي لهذا. لا بأس مِن أن أخبرك بأن القلق ساورني من ناحية يد السمّو تلك. فتلك مسألة سحر أسود خالِصَة، من نوع الچوچو، سِحرٌ شديد".

"ولن يُبطله الماء المقدَّس؟".

"لو استُخدِمَت يد السمّو تلك في طقس استدعاء أحد الشياطين؛ يكون بوسعه أن يتناول دستةَ نُسَخ من الكتاب المقدَّس على الفطور. وسنكون في موقفٍ عسير جدًّا إن نحنُ استثرنا كيانًا مثل ذلك بالمرة. وسيكون مِن الأفضل آنذاك تمزيق ذلك الشيء اللعين إربًا".

"طيِّب، لكن هل أنت واثق تمامًا...".

"ليس تمامًا، أنا واثق بدرجةٍ معقولة. فكل شيء يبدو منطقيًّا ومتماسكًا على خير نحو".

"فَمتى إذَن؟".

قال چاكسُن: "كُلَّما أسرعنا كان خيرًا. لكن كيف سندخل؟ هل هنكسر نافذة؟".

ابتسم هنتون، ومدَّ يده في جيبه، وأخرج مفتاحًا يتلاعب به أمامَ أنف چاكسُن.

"كيف حَصَلتَ على ذلك؟ مِن جارتلي؟".

فقال هنتون: "بل مِن أحد مُفتِّشي الولاية، اسمه مارتن".

"وهل يعرف ماذا نفعل؟".

"أعتقد أنه يشكُّ في الأمر. وقد حكى لي حكايةً غريبة منذ أسبوعين تقريبًا".

"حكاية تخصُّ العَصَّارة؟".

فقال هنتون: "لا، بل تخصُّ ثلَّاجة. هيَّا بنا".

***

تُوفِّيت آديل فراولي؛ وخِيطَ جسدها معًا على يد مُتعهِّد موتى يتحلَّى بالصبر، وهي راقدةٌ في كفنها. ومع ذلك فربما بقي في الماكينة جزءٌ مِن روحها، وإن كان كذلك فقد صرخَ هذا الجزء عاليًا. لو أنها كانت تعلم لحذَّرتهم. كانت عُرضة لمشكلات عُسر الهضم، ومن أجل هذا المرض الشائع كانت تتناول أقراصًا رائجةً للمعدة تسمَّى إي-زد چيل، يَسهُلُ شراؤها من فوق نُضُدِ أيِّ صيدليَّةٍ بتسعة وسبعين سنتًا. ثمَّة تحذير مطبوع على جانب العبوة يقول: يحظر تناول هذا الدواء على مَن يعانون مِن المياه الزرقاء؛ لأنَّ العنصر الفعَّال يُفاقِم مِن تلك الحالة. وبكل أسف، لم تكن آديل فراولي تعاني مِن تلك الحالة. لو كانت لا تزال حيَّة لربما تذكَّرَت أنها قد أسقطت مِن غير قصد عبوة كاملة من تلك الأقراص في داخل العصَّارة، حدث ذلك قُبيل أن تجرح شيري أوليت يدها. لكنها الآن ميتة، وغير مدركة أنَّ العنصر الفعَّال لهذا الدواء الذي يُخفِّف من حُرقة معدتها كان أحد المشتقَّات الكيماوية من نبتة "سِتّ الحسن"، والمعروفة باسمٍ غريبٍ وجَذَّاب في بعض الدول الأوروبية، وهو يد السمّو.

في الصمت الشبحي المخيِّم على مغسلة بلو ريبون، سَرَى فجأةً صوتُ تَجشُّؤ رهيب- رفرفَ خفَّاشٌ بجنون مفتِّشًا عن كوَّته المحفورة في المواد العازلة فوق المجفِّفات حيث جثم وقد لفَّ جناحيه حول وجهه الأعمى.

كانت أصوات غريبة كأنها ضحكات مكتومة.

أخـذت العصَّـارة تـدور برضرضـة مفاجئـة ومترنِّحـة- أسرعـت الأحزمـة تتسـابق وسـط الظـلام، والـتروس تتباعـد وتشـتبك وتسـحق، والبكـرات الأسـطوانية الثقيلـة تضغـط وتطحـن، بينـما تتعاقـب وتواصـل الـدوران مـرَّةً بعـد مـرَّة.

كانت الماكينة مستعدةً لاستقبالهما.

***

تجـاوز الوقـتُ منتصـفَ الليـل بقليـل والقمـر محجـوب وراء كُتلـة طافيـة مِـن السُّـحب، حينـما قـادَ هنتـون سـيارته إلى سـاحة الانتظـار. ضغـطَ عـلى المكابـح وأطفـأ الأضـواء بحركـة واحـدة؛ كاد رأسُ چاكسُـن أن يرتطـم بالتابلـوه المبطَّـن.

بمجـرَّدَ أن أطفـأ مُحـرِّك السـيارة حتَّـى اتَّضـح الضجيـج الثابـت مِـن الطَّـرق والفحيـح المتواصِلَـيْن. قـال ببـطء: "إنهـا العصَّـارة، إنهـا العصَّـارة. تديـر نفسـها بنفسـها، في منتصـف الليـل".

لبثـا جالسَـين وَهلـة في صمـت، وكلٌّ منهـما يشـعرُ بالخـوف يزحـف صاعـدًا عـلى سـاقيه.

قال هنتون: "لا بأس. هيَّا، لنعمل ما علينا".

خرجـا مـن السـيارة وسـارا إلى المبنـى، كان صـوت العصَّـارة يَعلـو أكـثر فأكـثر. حـين وضـع هنتـون المفتـاح في قفـل بـاب الخدمـة الخلفـي فكَّـر في أنَّ الماكينـة بـدت مـن صوتهـا حيَّـةً حقًّـا- كـما لـو كانـت تتنفَّـس بشـهقات حـارَّة هائلـة وتتحـدَّث لنفسـها عـبرَ الفحيـح بهمسـاتٍ هازئـة ذات فحيـح.

قـالَ چاكسُـن: "لأوَّل مـرَّة أشـعرُ بالـسرور لأنني برفقـة رَجُـل شرطـة". ونقـل الكيـس الورقـيَّ الـذي حملـه معـه مـن ذراعٍ إلى أخـرى، في الكيـس

كان برطمان صغير ممتلئ بالماء المقدَّس، وقد لفَّ البرطمان بورقٍ مُشمَّع، وأيضًا نسخة جمعية جدعون من الكتاب المقدَّس.

اجتازا الباب ودخلا، ومدَّ هنتون يده وضغط أزرار النُّور بجانب الباب، فومضت مصابيح النيون وأضاءت بحياةٍ باردة. في اللحظة نفسها توقَّفت العصَّارة عن العمل.

وفوق أسطواناتها تَدلَّى غشاءٌ مِن البخار. كانت بانتظارهما في صمتها الجديد المُنذِر بالشَّرِّ.

همسَ چاكسُن: "ربَّاه، إنها شيءٌ قبيح".

قال هنتون: "هيَّا، قبل أن تخوننا شجاعتنا".

سارا حتَّى العصَّارة، كان قضيب الأمان في موقعه، فوق الحزام الذي يغذِّي الماكينة بالغسيل.

مدَّ هنتون إحدى يديه. "نحن قريبان بما في الكفاية، يا مارك. أعطني الأشياء وأخبِرْني بما عليَّ أن أفعل".

"لكن...".

"لا مجال للنِّقاش".

ناوله چاكسُن الكيس الورقيَّ ووضعه هنتون على منضدة الملاءات قبالة الماكينة. أعطى الكتاب المقدس لچاكسُن.

قال چاكسُن: "سوف أقرأ، وعندما أعطيك إشارة، انثُر الماء المقدَّس على الماكينة بأصابعك. وأنت تقول: باسم الآب، والابن، والروح القدس، اخرُج مِن هذا المكان، أيها النَّجِس. فَهِمتَني؟".

"أَجَل".

"وحين أعطيك إشارةً في المرة الثانية، اكسَر رقاقة القربان وكَرِّر نفس التعويذة مرة أخرى".

"وكيف سنعلم إن كان هذا ناجعًا؟".

"ستعلم. الأرجح أنَّ هذا الشيء في خروجه سيكسر كل نافذة موجودة في المكان. وإن لم نفلح في المحاولة الأولى سوف نواصل تكرار الطقس نفسه مرة بعد أخرى حتى ننجح".

قال هنتون: "أنا ميِّت مِن الرُّعب".

"وأنا أيضًا، بكل صراحة".

"وماذا لو كنَّا مُخطِئين بخصوص يد السمّو...؟".

چاكسُن: "لسنا مُخطِئين، هيا بنا".

وبدأ يتلو، ملأ صوته المغسلة الخاوية بأصداء شَبَحيَّة. "لا تلتفتوا إلى الأوثان، وآلهةً مسبوكةً لا تصنعوا لأنفسكم. أنا الرَّب إلهكم...". كانت الكلمات تتساقط كالحصوات في صمتٍ أصبحَ فجأة مشحونًا ببردٍ مخيف كأنه برد القبور. ظلَّت العصَّارة ساكِنةً وصامتة تحت أضواء النيون، أمَّا بالنسبة لهنتون فقد بدت كأنها لا تزال تبتسم باستهزاء. "فلا تقذفكم الأرضُ بتنجيسكم إيَّاها كما قذَفَت الشعوبَ التي قَبلكم". رفع چاكسُن بصره، كانت ملامح وجهه مُتوتِّرة مشدودة، وأعطى صاحِبَه الإشارة.

نثرَ هنتون الماء المقدَّس عبرَ حزام الماكينة.

انبعثت فجأة صرخةٌ كأنها صرير أسنان لمعدنٍ يتعذَّب. صعدَ البخارُ مِن المواضع التي لمسها الماء المقدَّس على أحزمة القنَّب الخَشِن، وأخذت تتلوَّى وظهرت أشكالٌ مخضَّبة بالحُمرة. في لمح البصر كانت العصَّارة تهتزُّ وتنتفض بالحياة.

صاحَ چاكسُن بصوتٍ يعلو الضجيج المتصاعد: "لقد نلنا منه! إنه يحاول الفرار!".

شرعَ يقـرأ مـن جديـد، وعـلا صوتـه فـوق صـوت الماكينـة. وأعطـى هنتـون الإشـارة الثانيـة، وأخـذ هنتـون ينـثر بعضًـا مِـن فُتـات القُربـان. وبينـما كان يفعـل هـذا اجتاحتـه بغتـةً مَوجَـةُ ذُعـرٍ يُجمِّـد العظـام، إحسـاسٌ مفاجـئ وواضـح بـأنَّ خطـأً مـا قـد وقـع، وبـأنَّ الماكينـة قـد نجحـت في خداعهـم- وبأنهـا كانـت الطـرف الأقـوى.

كان صوت چاكسن لا يزال يتصاعد، مقاربًا لحظة الذروة.

بـدأت شرارات تومـض متواثِبـةً عـبر القـوس مـا بـين المحـرِّك الرئيـسي والمحـرِّك الثانـوي؛ وامتـلأ الهـواء بِنَفـح غـاز الأوزون، مثـل رائحـةٍ نُحاسـيَّةٍ لـدمٍ سـاخن. يُطلـقُ المحـرِّكُ الرئيـسي الآن دخانًـا؛ وصـارت العصَّـارة تـدور بسرعـة مجنونـة تغـشى الأبصـار؛ لـو أنَّ إصبعًـا واحـدة لمسـت الحـزام المركـزي فسـوف يُسحَب جسـد صاحـب هـذه الإصبـع كامـلًا ويُلتَهـم بالداخـل ويتحـوَّل إلى بِسـاطٍ دمـوي في خمـس ثـوانٍ لا أكـثر. كانـت أرضيَّـة الإسـمنت تحـت أقدامهـم ترتـجُّ وتُدَمـدِمُ.

انفجـرَت إحـدى سـبائك المحَـرِّك الرئيسـية بوميـض احـتراق بنفسـجيٍّ، ومـلأت الهـواء البـارد برائحـة عواصـف رعديَّـة، ولم تَـزَل العصَّـارة تـدور، أسرع فـأسرع، والأحزمـة والأسـطوانات الـدوَّارة والـتروس تتحـرَّك بسرعـةٍ تجعلهـا جميعًـا تختلـط وتندمـج معًـا، وتتغـيَّر، وتـذوب، وتتحـوَّل شـيئًا آخَـر...

هنتـون، الـذي ظـلَّ واقفًـا في موضعـه يـكاد يكـون منوَّمًـا، تراجـع خطـوة للـوراء فجـأة. وصرخ عاليًـا فـوق الضَّجَّـة المدويـة "اهـرَبْ!".

أجابه چاكسُن صائحًا: "أوشكنا أن ننالَ منه! فلماذا...".

انبثعـت فجـأةً جَلجلـة انشـقاقٍ لا سـبيل لوصفهـا، وأخـذ شِـقٌّ يـسري ممتـدًّا في الأرضيـة الإسـمنتية فجـأة ويتَّجـه صوبهـم ويتجاوزهـم مُتَّسِـعًا أكـثر فأكـثر. تطايـرَت شـظايا مـن الإسـمنت القديـم لأعـلى مثـل انفجـارات نجميـة.

نظر چاكسُن نحو العصَّارة وصرخ.

كانـت الماكينـة تحـاول أن تخلـع جذورهـا مِـن أرضيـة الإسـمنت، مثـل ديناصـور يحـاول الفـرار مِـن حفـرة ممتَلِئَـة بالقطـران. ولم تَعُـد ماكينـةً بالضبـط، كانـت لم تـزل تتغـيَّر، وتنصهـر. سـقط كابـل الكهربـاء بقـوة 550 ڤولـت عـلى الأسـطوانات الـدَّوَّارة، وهـو يفـحُّ نـارًا زرقـاء، ويتـآكل متضائـلًا. للحظـة حَدَّقَـت إليهـما كرتـان ناريَّتـان كأنهـما عينـان برَّاقتـان، عينـان مترعتـان بجـوعٍ عظيـم بـارد.

انفتـحَ شِـقٌّ ممـدود آخـر. ومالَـت العصَّـارة نحوهـما مـا إن تحـرَّرَت مِـن القواعـد الإسـمنتية التـي ترتكـز عليهـا. حدَّقـت فيهـما شـذرًا؛ ارتفـعَ قضيـبُ الأمـان بصـوت لَطمـةٍ، فأصبـح مـا رآه هنتـون هـو فـمٌ فاغـرٌ وجائـع ممتلـئ بخـارًا.

اسـتدارا ليَركُضَـا فانفتـح شِـقٌّ آخَـر مـن تحـت أقدامهـما. ومـن ورائهما، عَلـت زَمجَـرةٌ صيحـةٍ كـبرى حينـما أصبـحَ الـشيء حُـرًّا تمامًـا. وثـب هنتـون للأعـلى، ولكـن چاكسُـن تعـثَّر ووقـع منبطحًا.

اسـتدار هنتـون إليـه ليسـاعده، فسـقط فوقـه ظـلٌّ عظيـم لا شـكل لـه، وحجـب عنـه أنـوار مصابيـح النيون.

وقـفَ الـشيءُ فـوق چاكسُـن، الـذي رقـد عـلى ظهـره، يحـدِّق إلى الأعلى بفَـمٍ فاغـرٍ في صرخـة رُعـبٍ صامتـة- الأُضحيـة المثاليـة. لم يَبـقَ في وعـي هنتـون إلَّا انطبـاعٌ مُرتَبِـكٌ بـشيء مـا أسـود يتحـرك ويبلـغ جُرمـه ارتفاعًـا شـاهقًا فوقهـما كليهـما، شيء بعينـين تبرقـان بوميـض كهـربيٍّ وكل عـين في حجـم كـرة قـدم، وفـمٍ فاغـرٍ عـلى آخـره فيـه لسـان مِـن حـزام القنَّـب المتحـرك.

ركضَ؛ بينما تتبعه صرخة چاكسُن وهي تتلاشى وتغيب.

***

عندما استطاع روجر مارتن أن ينزل أخيراً عن فِراشه ليجيب على مَن يدقُّ جرس بابه، كان لم يُفِق بعدُ ولو ثُلُث إفاقة؛ لكن حينما رأى هنتون يدخل مترنِّحًا، تيقَّظ تمامًا على إثر صدمة صفعته بيدٍ شديدة ودفعته إلى العالم الحقيقي.

جحظت عينا هنتون من رأسه في جنون، وتحوَّلت يداه إلى مخالب إذ أخذ يخربش قميص نوم مارتن مِن قُبُل. كان على خدِّه جُرحٌ صغير يتفصَّد منه الدم، ووجه مغطًّى بفتات رمادي من غبار مسحوق الإسمنت.

وقد صار شَعرُه أبيضَ شاحِبًا منطفئًا.

"ساعِدْني... بحقِّ المسيح، ساعِدْني. مارك مات. چاكسُن مات".

فقال مارتن: "على مهلك، تعال لغرفة المعيشة".

تبعه هنتون، مُصدِرًا أصوات نحيب ونشيج غليظة، تشبه ما قد يصدر عن كلب.

صبَّ له مارتن مقدارًا كبيراً مِن ويسكي جِم بيم، فأمسك هنتون القدحَ بكلتا يديه، وصبَّ الخمر غير المُخفَّف في جوفه بجرعة خانقة. ثم أسقطَ القدحَ على السجادة بلا اهتمام، ومن جديد عادت يداه، مثل شَبحَيْن هائِمَيْن، تبحثان عن تلابيب مارتن للإمساك بها من جديد.

"العصَّارة قتلت مارك چاكسُن. إنها... إنها... آه، يا ربي، ربما تكون قد خَرَجَت! لا يمكننا أن ندعها تَخرُج! لا يمكن..لا يمكننا... آه". وبدأ يصرخ، شهقات مجنونة ترتفع وتنخفض في حلقات خشنة مسنَّنة.

حاولَ مارتن أن يناوله شرابًا آخَر، لكن هنتون دفع القدح جانبًا. قال: "لا بدَّ أن نحرقها. نحرقها قبل أن تتمكَّن من الخروج. آه، ماذا لو أنها خرجت؟ آه، يا يسوع، ماذا لو...". فجأة طرفت عيناه، والتمعت،

ودارت في محجريها للأعلى حتَّى ظهر بياضُهما، وسقطَ على السجادة فاقدًا الوعي مثل حَجر.

كانت السيدة مارتن تقف بمدخل الباب، تقبض على ياقة روبها حول رقبتها. "مَن يكون هذا، يا روج؟ وهل هو مجنون؟ اعتقَدتُ أنَّ...". واستولت عليها رجفة.

"لا أظنُّه مجنونًا". شعرت بالرُّعب فجأة مِن الظِّلّ السميك للخوف الذي كسا وجه زوجها. "كم أدعو الله أن يكون قد وصل إلى هنا بسرعة كافية".

واستدار نحو الهاتف، والتقط السمَّاعة، ثم تجمَّد في موضعه.

سمع أصواتًا خافتة، تعلو وتتَّضِح، من ناحية شرق المنزل، نفس الطريق الذي أتى منه هنتون. قرقعة طاحنة، ذات إيقاع ثابت، ترتفع أكثر فأكثر. كانت نافِذَة غُرفَة المعيشة نِصفَ مفتوحة، وتَبيَّن مارتن الآن في الهواء رائحةً قاتمة. نفحة من غاز الأوزون.... أو الدماء.

وقفَ ويده على الهاتف الذي لا نفع منه الآن، بينما أخذ صوت الطحن والسَّحق يعلو والدخان يقترب، وكان شيء ما في الشوارع ساخنًا ويطلق بخارًا. وامتلأت الغرفة بزَنخ الدماء.

سقَطَت يَدُه عن الهاتف.

فات الأوان، فإنها الآن في الخارج.

النبع

"أتيتُ إليكَ لأنني أريدُ أن أحكي قصتي لشخصٍ ما"، هذا ما قاله الرجل الجالس على أريكة دكتور هاربر. كان اسمُ الرجل ليستر بيلينجز من واتربيري، كونيتكِت. وِفقًا لبياناته التي أخذها الطبيب مِن الممرِّضة فيكرس، كان يبلغ ثمانية وعشرين عامًا، موظَّفًا في شركة صناعية مقرُّها نيويورك، ومطلَّق، وأب لثلاثة أطفال. مات ثلاثتهم.

"لا أستطيعُ الذهاب إلى قِسٍّ لأنني لستُ كاثوليكيًّا. ولا أستطيع الذهاب إلى محامٍ لأنني لم أفعل أي شيء تلزمه استشارة محامٍ. كل ما فعلتُ هو أنني قتلتُ أطفالي. واحدًا منهم كلَّ مرة. قتلتُهم جميعًا".

شغَّل دكتور هاربر جهاز مسجِّل الشرائط الصغير.

تمدَّد بيلينجز على الأريكة مستقيمًا تمامًا كأنَّه مسطرة قياس خشبية طويلة، من غير أن يسترخي ولو بأهون قدر مُمكِن. برزت قدماه متصلِّبَتَيْن فوق حافة الأريكة. المثال الحي لشخصٍ مُضطر

لتحمُّل مَذلَّةٍ لا مهربَ له منها. طوى يديه معًا على صدره كما يفعلون مع الجُثَث المُعَدَّة للدفن. وحرص على أن يحتفظ بوجهه جامدًا تمامًا. نظرَ للسقف الأبيض الصريح كما لو كان شاشةً يرى عليها مشاهدَ وصُوَرًا تتجسَّد هنالك.

"أتقصد أنكَ قتلتهم فِعلًا، أم...".

"لا". انتفضت يدُه في ضيق. "لكني كنتُ مسؤولًا. مات داني في 1967. وشيريل في 1971. وآندي هذا العام. أريد أن أحكي لك القصة".

لم يَقُل دكتور هاربر شيئًا. فكَّر في أنَّ بيلينجز يبدو مهزولًا مُسِنًّا، كان شعره خفيفًا وبشرته شاحبة. حملت عيناه كلَّ أسرار الويسكي التعِسة.

"لقد قُتلوا، تفهمني؟ المشكلة أنه لا أحد يصدِّق ذلك. لو أنهم يُصدِّقون فسوف ينصلح الحال".

"لكن لماذا؟".

"لأنَّ...".

توقَّف بيلينجز عن الكلام فجأة ونهض قليلًا معتمدًا على مرفقه، مُحدِّقًا إلى نقطةٍ ما على الناحية الأخرى من الغرفة. سأل بصوتٍ حاد: "ما ذلك؟"، ضاقت عيناه فكأنهما فتحتان سوداوان.

"ماذا تقصد؟".

"ذلك الباب".

فقال دكتور هاربر: "إنها الخزانة، حيث أعلِّق مِعطفي وأترك حذائي المطَّاطي العازِل".

"افتَحْه. أريد أن أرى بنفسي".

فقـامَ دكتـور هاربـر دونمـا كلام، واجتـاز الغرفـة، وفتـح الخزانـة. في الداخـل، معطـف مطـر حِنطـيُّ اللـون مُعلَّـق عـلى واحـدٍ مِـن أربعـة أو خمسـة مشـاجب. بالأسـفل كان حـذاء مطَّاطـي طويـل الرقبـة لامـع، وفي إحـدى فردتيـه نُسـخَة مـن مجلـة نيويـورك تايمـز مدسوسـة بعنايـة. ولا شيء غـير ذلـك.

سأله دكتور هاربر: "تمام؟".

"تمام"، أجابَ بيلينجز وفردَ مرفقيه مُستعيدًا وضعه السابق.

قـال دكتـور هاربـر بينـما يعـود للجلـوس في مقعـده ثانيـة: "كنـتَ تقـول إنـه إذا أمكـنَ إثبـات جريمـة قتـل أطفالـك الثلاثـة فـإنَّ جميـع مشـكلاتك سـوف تنتهـي. لمـاذا؟".

فقـال بيلينجـز عـلى الفـور: "لأننـي سـوف أُسـجَن، سـجنًا مؤبَّـدًا. وفي الزنازيـن يمكـن للمـرء أن يـرى كامـل المسـاحة ولا يمكـن أن يختفـي فيهـا شيء. كامـل المسـاحة". ابتسـم بـلا سـبب.

"كيف قُتلَ أطفالك؟".

"لا تحاول أن تستعجلني!".

ارتعد جسد بيلينجز وحدَّق في حنقٍ نحو هاربر.

"سـأحكي لـك، لا تقلـق. لسـتُ واحـدًا مِـن مخابيلـك الذيـن يتبخـترون متباهـين ومتظاهريـن بأنهـم نابليـون، أو أحـد الذيـن يـبرِّرون قائلـين أنـا أدمنـتُ الهيرويـن لأنَّ أمـي لم تحبنـي. أعلـم أنـك لـن تصدقنـي، ولا أكـترث. هـذه مسـألة غير مهمـة. يكفينـي أن أحـكي قصتـي".

"تمام"، قال دكتور هاربر وأخرج غَليونه.

"تزوَّجـتُ ريتـا سـنة 1965- كنـتُ في الحاديـة والعشريـن وهـي في الثامنـة عـشرة. كانـت حُبـلى. كان ذلـك هـو داني". الْتَـوَت شـفتاه بتكشـيرة ممطوطـة مخيفـة وسرعـان مـا اختفـت في لمـح البـصر. "اضطرتنـي هـذه

الظـروف لأن أهجـر الدراسـة في الجامعـة وأن أشـتغل، ولكنـي لم أمانـع. فقـد أحببتهـما كليهـما. كُنَّـا في غايـة السـعادة.

حملَـت ريتـا مُجـدَّدًا بعـد فـترة قصـيرة مِـن ولادة داني، فأتـت شـيريل في ديسـمبر 1966. وأتى آنـدي في صيـف 1969، وكان داني قـد مـات قبـل ذلـك. كان آنـدي غلطـةً، أو ذلـك مـا قالتـه ريتـا. قالـت إنَّ وسـائل منـع الحَمـل لا تمنعـه في بعـض الأحيـان. أنـا أظـنُّ أنَّ ذلـك كان أكـبر مـن مجـرَّد غلطـة. الأطفـال يقيِّـدون الرَّجُـل، كـما يمكنـك أن تتخيَّـل. وذلـك مـا تحبُّـه النسـاء، وخصوصًـا إذا كان الرجـل أذكى منهـنَّ. ألا تـرى ذلـك صحيحًـا؟".

أصدرَ هاربر همهمة مجاراة دون أن يعلِّق بكلمة.

"ومـع ذلـك، لا يهـمُّ. أحببتُـه هـو أيضًـا عـلى كل حـال". قالهـا بنـبرة تشـفٍّ تقريبًـا، كـما لـو أنَّـه أحـبَّ الطفـل نكايـة في زوجتـه.

سأل هاربر: "مَن الذي قتلَ الأطفال؟".

"البُعبع". هكذا أجابه بيلينجز في الحال.

"البعبـع قتلهـم جميعًـا. خـرج مـن الخزانـة بـكل بسـاطة وقتلهـم". مـالَ عـلى جانبـه ملتويًـا وابتسـم. "أنـت تعتقـد أننـي مجنـون، لا بـأس. هـذا واضـح عـلى وجهـك وضـوح الشـمس. ولكنـي لا أهتـم. كل مـا أريـده أن أحـكي لـكَ ثـم أغـور في داهيـة".

قال هاربر: "أنا مُنصت".

"بـدأ الأمـر عندمـا كان داني عمـره سـنتين تقريبًـا، وشـيريل طفلـة رضيعـة. بـدأ الولـد يبـكي كُلَّـما وضعتـه ريتـا في الفـراش لينـام. كان لدينـا منـزل صغـير بغرفتَـيْ نـوم. كانـت شـيريل تنـام في مَهـدٍ صغـير في نفـس غرفتنـا. في البدايـة ظننـتُ أنـه كان يبـكي لأنـه حُـرِمَ مِـن زجاجـة الرَّضعـة ولم يَعُـد يأخذهـا إلى الفِـراش كـما اعتـادَ سـابقًا. قالـت لي ريتـا ألَّا أضخِّـم الأمـر، وأن أكـبِّر دماغـي، وأدعـه يأخذهـا إلى أن يسـتغني عنهـا مـن

نفسه. ولكن هذه هي الطريقة التي يبدأ بها الأطفال طريق الفساد. تتساهل معهم وتفسدهم بالتدليل. ثم يحطِّمون قلبك. ينامون مع صبية ويجعلونها تحمل، مثلًا، أو يبدؤون في تعاطي المخدرات. إمَّا ذلك أو يصحبون مُخنَّثين. أيمكنك أن تتخيَّل أن تصحو من نومك ذات صباح لتجد طفلك -ابنك الولد- صارَ مخنَّثًا طريًّا؟

"ومع ذلك، صبرتُ فترة، وعندما لم يتوقَّف عن ذلك بدأتُ أضعه بنفسي في فراشه وقت النوم. وإذا لم يتوقَّف عن البكاء كنتُ أعطيه صفعة سريعة. ثم قالت ريتا إنه كان يقول كلمة "نور"، مرارًا وتكرارًا. طيِّب، لستُ متأكِّدًا. الأطفال في هذه السِّنِّ الصغيرة، كيف يمكنك أن تعرف ماذا يقولون. الأم فقط تفهمهم.

أرادت ريتا أن تضع له لمبة ونَّاسة، واحدة من تلك الأشياء التي توضَع في مقبس كهرباء الجدار مباشرة ويكون عليها صورة ميكي ماوس أو الكلب هاكلبري أو شيء مثل هذا. لم أدعها تفعل ذلك؛ لأن الطفل إن لم يتغلَّب على خوفه من الظلام وهو صغير فلن يتغلَّب عليه بعد ذلك أبدًا.

على كلٍّ، مات في الصيف الذي أعقب مولد شيريل. وضعته في الفراش تلك الليلة وأخذ يبكي مباشرةً. وفي هذه المرة سمعتُ ما قاله. أشارَ نحو الخزانة مباشرة وقالها. "البُعبُع"، قال الولد، "البعبع يا بابا".

أطفأتُ النور وذهبتُ إلى غرفتنا وسألتُ ريتا عن السبب الذي يجعلها تُعلِّم الطفل كلمة مثل تلك. ورغبتُ بشدَّة في صفعها قليلًا، لكني لم أفعل. قالت إنها لم تعلمه أن يقول ذلك أبدًا. فقلتُ لها إنها كذَّابة حقيرة.

كان ذلك صيفًا صعبًا عليَّ، كما تتخيَّل. العمل الوحيد الذي استطعت العثور عليه هو شحن وتفريغ سيارات نقل عبوات البيبسي

كـولا في أحـد المخـازن، وكنـتُ أشـعر بالتعـب طـوال الوقـت. وشـيريل كانـت تسـتيقظ وتظـلُّ تبـكي كل ليلـة وريتـا تأخذهـا وتتشـمَّمها. بـكل صراحـة، أحيانًـا رغبـتُ بشـدَّة في أن ألقـي الاثنتـين معًـا مـن النافـذة. ربَّـاه، الأطفـال يقودونـك للجنـون أحيانًـا، ويمكنـك أن تقتلهـم.

تمـام، تلـك الطفلـة أيقظتنـي في الثالثـة صباحًـا، في موعدهـا الثابـت تمامًـا. ذهبـتُ للحـمام، رُبـع صاحٍ فقـط، كـما تتخيَّـل، وطلبـت منـي ريتـا أن أتفقَّـد داني. أخبرتهـا أن تفعـل ذلـك بنفسـها وعـدتُ للفـراش. كنـتُ داخـلًا في النـوم حينـما أخـذت تـصرخ.

قمـتُ وذهبـت إليهـا. كان الطفـل راقـدًا عـلى ظهـره، وميِّتًـا. أبيـض تمامًـا مثـل الطحـين، عـدا تلـك المواضـع التـي كان الـدم قـد... قـد غـاصَ فيهـا. باطـن سـاقيه، وقفـا رأسـه، وردفـاه. كانـت عينـاه مفتوحتـين، وذلـك أسـوأ شيء، لـو تتخيَّـل. كانتـا مفتوحتـين عـلى آخرهـما وزُجاجيَّتَـيْن، مِثـل أعـين تلـك الأيائـل المحنَّطـة التـي يضـعُ بعـضُ النـاس رؤوسـها فـوق المدفـأة. مِثـل أولئـك الصِّبيـة الآسـيويين هنـاك في ڤيتنـام. لكـنَّ طفـلًا أمريكيًـا لا ينبغـي أن يبـدو بذلـك الشـكل. ميِّتًـا وراقـدًا عـلى ظهـره، مرتديًا حفَّاضـات وسروالًا مطَّاطيًّـا لأنـه عـادَ للتبـوُّل عـلى نفسـه مـن جديـد خلال الأسـبوعين الأخيريـن. أمـرٌ رهيـب، لَكَـم أحببـتُ ذلـك الطفـل".

أدارَ بيلينجـز رأسـه يمينًـا ويسـارًا ببـطء، ثـم أسـفرَ وجهـه مـرة ثانيـة عـن تلـك التكشـيرة المطاطيـة المخيفـة. "كانـت ريتـا تمـلأ الدنيـا صراخًـا، حاولـت أن ترفـعَ داني وتأخـذه وتهدهـده، لكنـي لم أدعهـا تفعـل. لا تحـب الشرطـة أن يلمـس أحـدُ أيًّـا مِـن الأدِلَّـة. أعـرف أنَّ...".

سألَ هاربر بهدوء: "هل علمتَ آنذاك أنَّ القاتل كان البُعبع؟".

"لا، لا. ليـس آنـذاك. لكنـي رأيـتُ شـيئًا واحـدًا، لم يعـنِ لي أي شيء سـاعتها، ولكـنَّ عقـلي اختزنـه وحفظـه لحـين الرجـوع إليـه".

"وما كان ذلك؟".

"كان بـاب الخزانـة مفتوحًـا. ليـس كثـيراً، مجـرَّد شِـقٍّ رفيـع، لكنـي كنـتُ موقنًـا مِـن أننـي تركتُـه مُغلَقًـا بإحـكام، أتفهمنـي؟ إذ يوجـد فيـه أكيـاس المنظِّفـات الجافَّـة. يمكـن لطفـل أن يعبـث بأحـد تلـك الأشـياء وخـلاص. اختنـاق. تعلـم ذلـك؟".

"صحيح. وماذا حدثَ بعد ذلك؟".

رفـعَ بيلينجـز منكبيـه. "زرعنـاه كالبـذرة في الأرض". ورنـا في حُـزنٍ نحـو يديـه، اليديـن اللتـين أهالتـا الـتراب فـوق ثلاثـة توابيـت صغـيرة.

"هل أُجريَ تحقيق؟".

"طبعًـا". ومضـت عينـا بيلينجـز بـذكاءٍ تهكُّمـيٍّ. "أتى واحـدٌ متخلِّـفٌ عقليًّـا يبـدو أنـه نشـأ في آخِـر الدنيـا، بسـمَّاعة طبيـة وكيـس أسـود ممتلـئ بحلـوى النعنـاع وشـهادة مثـل عَدمهـا أعطوهـا لـه في كليـة لتخريـج البقـر والجامـوس. وشـخَّص الأمـر بحالـة مـوتٍ في المهـد![1] هـل سـبقَ لـك أن سـمعتَ كتلـة هـراء عَفِنـة مثـل تلـك؟ كان الولـد عنـده ثـلاث سـنين!".

قـال هاربـر في حـرص: "صحيـح أنَّ المـوت في المهـد أكـثر شـيوعًا خـلال السـنة الأولى، لكـنَّ ذلـك التشـخيص يُثبَـت أحيانًـا في شـهادات وفـاة لأطفـال أكـبر سـنًّا، وصـولًا لسِـنِّ الخامسـة في حـال عَـدم توفُّـر مـا هـو أفضـل مِـن...".

"كلام فارغ!" بصقها بيلينجز في عنف.

أعادَ هاربر إشعال غليونه.

"نقلنـا شـيريل إلى غرفـة داني القديمـة بعـد مـرور شـهرٍ عـلى الجِنـازة. قاومـت ريتـا ذلـك بـكل ضراوة، لكـنَّ الكلمـة الأخـيرة كانـت لي. آلمنـي

---

(1) Crib death: المـوت في المَهـد، أو حالـة المـوت المفاجـئ للرَّضـع، تحـدث غالبًـا في أثنـاء النـوم لطفـلٍ حالتـه الصحيـة لا تشـوبها شـائبة وعمـره أقـل مِـن سـنة واحـدة، ولا يُعـرَف في أغلـب الحـالات لـه سـببٌ مُحـدَّد قاطـع.

هـذا، بالطبـع آلمنـي. ربّـاه، لقـد أحببـتُ وجـود الطفلـة معنـا في غرفتنـا. لكـن عـلى المـرء ألّا يُفـرط في حمايـة أطفالـه؛ فَبهـذا تصنـعُ منهـم مخلوقـاتٍ عاجـزةً. عندمـا كنـتُ طفـلًا كانـت أمـي تأخـذني إلى الشـاطئ ثـم تبـدأ في وصلـة الـصراخ عـليّ حتّـى يُبَـحّ صوتهـا. "لا تدخـل بعيـدًا! لا تذهـب إلى هنـاك! هنـاك تيّـار تَحتـيٌّ مُعاكِـس قـد يسـحبك! أنـت أكَلـتَ منـذ سـاعة واحـدة فقـط! لا تُغطِّـس رأسـك تحـت المـاء!". بـل كانـت تقـف مترقِّبـةً ظهـور أسـماك القـرش، أقسـم باللـه. وانظـر مـاذا حـدث؟ لا أسـتطيع مجـرَّدَ الاقـتراب مـن أي شـاطئ. هـذه هـي الحقيقـة. تتقلَّـص عضـلاتي وتتخشَّـب إذا اقتربـت مـن شـاطئ. ذاتَ مـرة جعلتنـي ريتـا آخذهـا هـي والأطفـال إلى مُنتـزه سـافين روك عندمـا كان داني لم يـزل حيًّـا. أُصِبـتُ بوعكـة وغثيـان فظيعَيْن. أنـا أعـرف هـذا، أتفهمنـي؟ عـلى المـرء ألّا يُفـرط في حمايـة أطفالـه. وعليـكَ أيضًـا ألّا تفسـد نفسـك بالتدليـل. الحيـاة تسـتمر. ذهبـت شـيريل إلى مَهـد داني مبـاشرةً. لكننـا تخلّصنـا مِـن حشـية الفـراش القديمـة، فلـم أرغـب أن تُصـاب ابنتـي بأيـة جراثيـم.

"وهكـذا تمـرُّ سـنة أخـرى، وذات ليلـة وبينـما أضـع شـيريل في مهدهـا لتنـام انفتحـت فجـأة في العـواء والـصراخ والبـكاء. "البعبـع يـا بابـا، البعبـع، البعبع!".

"جعلنـي ذلـك أجفـل وأنتبـه. كان الأمـر كـما حـدث مـع داني. وبـدأتُ أتذكَّـر مسـألة بـاب الخزانـة، وكيـف كان مفتوحًـا فتحـة صغـيرة عندمـا وجـدتُ الولـد. أردتُ أن آخذهـا إلى غرفتنـا لتبيـت معنـا تلـك الليلـة".

"وهل أخذتَها؟".

"لا". رمـقَ بيلينجـز يديـه واختلـجَ وجهـه. "كيـف كان عسـاي أن أذهـب إلى ريتـا وأقـرَّ بأنتـي كنـتُ مُخطئًـا؟ كان عـليَّ أن أكـون قويًّـا. كانـت هـي دائمًـا خَرِعَـة وضعيفـة الشـخصية مثـل قنديـل البحـر الرَّخـو... انظـر كـم كان مـن السـهل عليهـا أن تنـام معـي دون أن يجمعنـا زواج".

قال هاربر: "ومِن ناحية أخرى، انظر كم كان من السهل عليك أنت أن تنام معها هي".

أوقفَ بيلينجز حركة ضبط يديه فجأة وأدار رأسه ببطء لينظر إلى هاربر: "هل تحاول أن تكون حكيمَ زمانِك؟".

فقال هاربر: "لا، أبدًا".

فردَّ عليه بيلينجز بسرعة وحدة: "إذًا، فلتتركني أحكِ بطريقتي، فأنا أتيتُ إلى هُنا لكي أزيح هذا الهمَّ عن صدري. لكي أحكي قصتي. لن أتحدَّث عن حياتي الجنسية، إذا كان هذا ما تنتظره. أنا وريتا عشنا حياة جنسيَّةً عاديَّة جدًّا، ليس فيها أي من تلك الأمور المقرفة. أعلمُ أنَّ بعضَ الناس يجدون لذَّةً في الحديث عن حياتهم الجنسية، لكني لستُ واحدًا مِن هؤلاء".

فقال هاربر: "أوكي".

"أوكي"، ردَّد بيلينجز كلمته بغطرسةٍ لا تخلو مِن سأم. بدا كأنه فقدَ خيط أفكاره، وجالَ بصره واتجه في قلقٍ نحو باب الخزانة، الذي كان مغلقًا بإحكام.

سأله هاربر: "هل تريد أن أُبقِيَه مفتوحًا؟".

فقال بيلينجز في هدوء: "لا!"، وأطلق ضحكة متوترة صغيرة. "لأي سببٍ قد أرغبُ في النَّظر إلى حذائك المطاطي؟".

قال بيلينجز: "وقد نالَ البُعبُع منها، هي أيضًا". مسح بأصابعه على جبينه، كأنه يخطِّط صورة سريعة لذكرياته. "بعد ذلك بشهر واحد. لكنَّ شيئًا ما قد حدث قبل ذلك. سمعتُ جلبة بالداخل ذات ليلة. ثم صرخَت. فتحتُ الباب بمنتهى السرعة -كان مصباح الطُّرقة مُضاءً- وهي... كانت هي جالسةً في مهدها تبكي و... تَحرَّك شيٌ ما. بالخلف وسط الظلال، بجانب الخزانة. شيءٌ ما انزلق".

"هل كان باب الخزانة مفتوحًا؟".

"قليلًا. مجرَّد شقٍّ". لعقَ بيلينجز شفتيه. "كانت شيريل تصيح عن البُعبع. وقالت كلمة أخرى بَدَت مِثل "مخالب"، لكنها لم تنطقها إلَّا "خِلانا"، كما تعلم. الأطفال الصغار لديهم مشكلة أحيانًا في نطق الكلمات. صعدت ريتا للطابق العلوي وسألت ما الأمر. فقلتُ لها إنها شعرَت بالخوف من ظلال فروع الأشجار تتحرَّك على السقف".

فقال هاربر: "أو خِزانا...".

"هه؟".

"خِزانا... خِزانة. ربما كانت تحاول أن تقول (خزانة)...".

قال بيلينجز: "ربما، ربما كان الأمر كذلك. لكني لا أظنُّ. أعتقد أنها كانت تحاول أن تقول (مخالب)"... بدأت عيناه تفتِّش عن باب الخزانة مِن جديد. "مخالب، مخالب طويلة". انخفضَ صوته إلى حَدِّ الهَمس.

"هل نظرتَ بداخل الخزانة؟".

"نَـ... نَعم". كانت يدا بيلينجز معقودتَيْن بإحكام على صدره، بإحكامٍ شديد بما يكفي لأن تظهر حلقة صغيرة بيضاء عند كل مفصل مِن مفاصل أصابعه.

"أكانَ هناك أي شيء بداخلها؟ هل رأيت الـ..".

صرخَ بيلينجز فجأة: "أنا لم أرَ أي شيء!". اندفعت الكلمات خارِجةً منه كما لو كانت سدَّادة سوداء قد انتُزِعَت من قاع روحه. "عثرتُ عليها عندما ماتت. كانت سوداء. سوداء كلها. ابتَلَعَت لسانها، وكانت سوداء كأنها أحد هؤلاء الزنوج في عروض التسلية الجوَّالة، وكانت تحدِّق فيَّ. عيناها، بدت عيناها مثل تلك التي تراها مُثبَّتة في وجوه دُمى الحيوانات المحشوَّة، لامعة جدًّا ورهيبة، مثل كُريَّات زجاجية

ولكـن حيَّـة، وكانتـا تقـولان لقـد أخـذني، يـا بابـا، أنـت تركتـه يأخـذني، أنـت قتلتنـي، سـاعدته في قتـلي...". انخفـض صوتـه وتلاشـت كلماتـه شـيئًا فشـيئًا. تكـوَّرَت دمعـة واحـدة كبـيرة جـدًّا في صمـت، وانحـدرت عـلى جانـب وجهـه.

"كانـت حالـة تشـنُّج عصبـي، أتـرى؟ ذلـك يحـدث للأطفـال أحيانًـا. إشـارة سـيئة مِـن المـخ. قامـوا بتشريـح الجثـة في مستشـفى هارتفـورد وأخـبروني أنهـا اختنقـت بلسـانها مِـن التشـنُّج. وكان عـليَّ أن أرجـع للمنـزل بمفـردي لأنهـم أبقـوا ريتـا تحـت تأثـير المهدِّئـات. كانـت قـد فقـدت صوابهـا. كان عـليَّ أن أرجـع لذلـك المنـزل بمفـردي تمامًـا، وأنـا أعلـم أنَّـه مِـن المسـتحيل أن يصـاب طفـل بالتشـنُّجات لمجـرَّد أنَّ عقلـه اضطـرب فجـأة، لكـن يمكـن لـك أن تخيـف طفـلًا إلى أن تصيبـه تشـنُّجات. وكان عـليَّ أن أرجـع لذلـك المنـزل حيـث كان ذلـك الـشيء موجـودًا".

همسَ: "نمتُ على الأريكة، وتركتُ المصابيح مُضاءَة".

"هل حدث أي شيء؟".

قـال بيلينجـز: "رأيـتُ حُلـمًا، رأيـتُ نفسي في غرفـة مُظلِمـة وكان هنـاك شيءٌ مـا لم أسـتطع... لم أسـتطع أن أتبيَّنـه بوضـوح، في الخزانـة. وكان يصـدر جلبـة... جلبـة تُشـبه خطـوات تخـوض في الوحـل. وذكَّـرني هـذا بكتـاب مصـوَّر قرأتـه عندمـا كنـتُ طفـلًا. حكايـات مِـن الـسِّرداب، لعلَّـك تتذكَّـره. يـا ربي! كان لديهـم ذلـك الرسَّـام جراهـام إنجلـز[1]؛ كان يسـتطيع أن يرسـم أبشـع وأفظـع الأشـياء في العالَـم كلـه- وبعـض أشـياء مِـن خـارج هـذا العالَـم أصـلًا. في هـذه القصـة امـرأة مـا أغرقـت زوجهـا، أتـرى؟ رَبطـت كُتَـلًا إسـمنتية في قدميـه وأسـقطته في مَسـيل أحـد المحاجـر. المشـكلة أنـه عـاد. كان مجـرَّد جثَّـة متفسِّـخة تمامًـا لونهـا أخـضر مُسـودٌّ وقـد التهـم السـمك إحـدى عينيـه وعلقـت أعشـاب البحـر في شَـعر رأسـه. عـادَ

(1) Graham Ingles: (1915-1991).

وقتلها. وعندما استيقظتُ في منتصف الليل، ظننتُ أنه كان ينحني عليَّ. بمخالب... مخالب طويلة...".

نظرَ دكتور هاربر نحو الساعة الرقمية المثبَّتة في سطح مكتبه. كان ليستر بيلينجز يتحدَّث لما يقرب مِن نصف ساعة. قالَ: "عندما رجعت زوجتك إلى المنزل، ماذا كان موقفها منك؟".

أجابَ بيلينجز في افتخار: "كانت لا تزال تحبُّني، ولا تزال ترغب في عَمل ما آمرها به. ذلك هو المكان المناسب للزوجة، صحيح؟ كل هذا الكلام حول تحرُّر المرأة لا يصنع إلَّا أشخاصًا مرضى. أهم شيء في الحياة أن يعرف كلُّ واحد مكانه المناسب. وأن يجد... يجد في الحياة... آااا...".

"موقعه في الحياة؟".

"بالضبط!". قال بيلينجز مُطَرقِعًا إصبعيه. "تلك هي الكلمة بالضبط. وعلى المرأة أن تتبع زوجها أينما ذهب. آه، لكنها ظلَّت باهتة وبلا حيوية خلال الأربعة أو الخمسة أشهر التالية- تُجَرجِر نفسها من هنا لهناك في المنزل، لم تُغنِّ، ولم تشاهد التليفزيون، ولم تضحك. كنتُ أعرف أنها سوف تتجاوز الأمر. حينما يرحل الأطفال في سِنٍّ صغيرة هكذا لا تكون مرتبطًا بهم للغاية. وبعد فترة يتحتَّم عليك أن تستخرج صورهم من دُرج المكتب لكي تتذكَّر كيف كان شكلهم بالضبط".

أضافَ مُغتمًّا: "أرادت طفلًا آخَر، قلتُ لها إنَّها فكرة سيئة. آه، طبعًا ليس للأبد، ولكن لفترة ما. قلتُ لها إنَّ هذا الوقت لنا نحن؛ لكي نتجاوز ما مرَّ، ونبدأ في الاستمتاع ببعضنا بعضًا. لم تُتَح لنا الفرصة لأن نفعل ذلك مِن قبل. كُلَّما أراد المرء أن يذهب للسينما كان عليه أن يعاني بحثًا عن جليسة أطفال، كما لا يمكنني النزول للبلدة لمشاهدة مباراة كرة يلعبها فريق الميتس إلَّا إذا وافق أهلها على أن يستضيفوا

الأطفال؛ لأنَّ أمي تجنَّبَتنا وقطعت صِلَتَها بنا تمامًا. وُلِدَ داني بعد أن تزوَّجنا مباشرةً، أترى؟ قالت إن ريتا لم تكن إلَّا أفَّاقة، مجرد متسكِّعة أرصِفَة صغيرة مُبتَذَلَة. دائمًا كانت ماما تسميهنَّ هكذا: متسكِّعات الأرصفة. أليس ذلك عجيبًا؟ ذات مرَّة أجلستني وأخبرتني بالأمراض التي يمكن أن تصيبني إذا ذهبتُ إلى واحدة من المتسكِّع.... إلى مومس يعني. وكيف أنَّ شَيئك.. ذَكَرَك يعني، يتكوَّن عليه التهابٌ صغير للغاية في أوَّل يوم، وفي اليوم التالي يتقيَّح تمامًا. إنها حتَّى لم تحضر زفافنا".

نقرَ بيلنيجز على صدره بأصابعه.

"طبيب النساء الذي تتردَّد عليه ريتا أخبرها عن هذا الشيء الذي يُسمَّى اللَّولَب- جهاز صغير يُزرَع في الرَّحم. مضمون المفعول، هكذا قال الطبيب. ودسَّه ببساطة في داخل... شَيئها، وانتهى الأمر. إذا كان هناك أي شيء بالداخل فلا يمكن أن تتخصَّب البويضة. لا تشعر حتَّى بوجوده هناك". ابتسم ناظرًا للسقف باستمتاعٍ قاتم. "لا أحد يعلم إن كان هناك شيء بالداخل أم لا. وفي العام التالي حمَلت من جديد. مضمون المفعول فِعلًا!".

قال هاربر: "لا توجد وسيلة مضمونة مائة في المائة لمنع الحمل، الأقراص لا تتجاوز نسبَةُ كفاءتها الثمانية وتسعين بالمئة. واللولب ربما يُلفَظ خارج الرحم بسبب تقلُّصات، أو تدفُّق قوي لدَمِ الدَّورة الشهرية، أو في حالات استثنائية بسبب التبوُّل".

"صحيح. أو يمكن للمرأة أن تُخرجه".

"ذلك ممكن".

"وماذا حدثَ بعد ذلك؟ ها هي تحيكُ ثيابًا صغيرة بخيوط الصوف، وتغني وهي تأخذ حمَّامًا، وتأكل مخلَّلات كالمسعورة، وتجلس على حِجري وتقول لي لا بدَّ أنها إرادة الله. فليأخذكِ الله".

"ووُلِدَ الطفل في نهاية أوَّل سنة مرَّت على موت شيريل؟".

"صحيح. وَلَد. أسمته آندرو ليستر بيلينجز. لم أرغب في التدخُّل ولو بأي قَدر، في البداية على الأقل. كان شِعاري هي مَن أخطأت فلتتركها تعتني بكل شيء. أعرف كيف يبدو هذا، ولكن عليك أن تتذكَّر أنني واجهتُ الكثير حتَّى ذلك الحين.

لكنَّ قلبي لانَ له، أتفهمني؟ كان الابن الوحيد بين كل مَن أنجبتَهم لي الذي يشبهني، لهذا السبب على الأقل. كان داني يشبه أمه، وشيريل لم تشبه أحدًا، ما عدا ربَّما جدَّتي آن. لكنَّ آندي كان شَبهي الخالق الناطق.

أصبحتُ بمجرَّد أن أرجع للبيت من العمل أجدني ألعب معه وهو في مَهد اللعب الخشبي الخاص به، وكان يمسك إصبعي فقط ويبتسم لي ويغرغر ويُقَرقِر. الولد عمره تسعة أسابيع وكان يبتسم لأبيه. أتصدِّق ذلك؟

ثم ذات ليلة، ها أنا خارجٌ مِن متجرٍ ما ومعي لُعبة ذات أشكالٍ وألوان جميلة ممَّا يُعلَّق فوق مهود الرُّضَّع. أنا! الذي كان شعاري طوال الوقت أنَّ الأطفال لا يقدِّرون الهدايا حتى يكبروا بما يكفي لقول "شُكرًا". ولكن هأنذا، أشتري له هذا الشيء السخيف، فأدركُ فجأة عندئذٍ أنني أحبُّه أكثر مِن أي شيءٍ آخَر في الدنيا. كنتُ في وظيفة أخرى آنذاك، وظيفة جيدة جدًّا، أبيع أَسِنَّة المثقاب الفولاذية لصالح شركة كلويت وأبنائه. وكان وَضعي فيها لا بأس به بالمرة، وعندما بلغ آندي سنته الأولى انتقلنا إلى واتربري. كان المنزل القديم فيه الكثير من الذكريات السيئة.

والكثير للغاية من الخزانات.

كان ذلك العام التالي هو الأفضل في حياتنا. إنني على استعدادٍ أن أتخلَّى عن كل أصابع يدي اليُمنى لأستعيد ذلك العام مرة أخرى.

صحيح، كانت الحرب في ڤيتنام ما زالت متواصِلةً، وأولئك الهيبيز ما زالوا يركضون هنا وهناك وهم عَرايا تقريبًا، والزنوج كانوا يصرخون ويصيحون كثيرًا، لكنَّ شيئًا مِن هذا لم يمسَّنا. كُنَّا نعيش في شارعٍ هادئ وسط جيران دَمِثين. كُنَّا سعداء". هكذا أوجز الأمر. "سألتُ ريتا ذات مرة إن لم تكن تشعر بالقلق. يعني، كما تعرف، يقولون إنَّ الحظ السيِّئ يضرب دائمًا ثلاث مرات، وكل ذلك الكلام. لكنها قالت ليس بالنسبة لنا. وقالت إنَّ آندي كان مميَّزًا، وأنَّ الله وضعَ عليه حارسًا يحميه من كل سوء".

نظرَ بيلينجز إلى السقف في غَمٍّ.

"لم يكن العام الماضي جيِّدًا للغاية. شيءٌ غير مُحَدَّد تبدَّل في المنزل. بدأتُ أحتفظ بأحذيتي الطويلة في الرَّدهة لأني لم أوَدَّ أن أفتح باب الخزانة بعد ذلك. ظللتُ أفكِّر: حسنًا، ماذا لو كان موجودًا بالداخل؟ رابضًا بالأسفل ومستعدًّا ليثبَ فجأة في الثانية التي أفتح فيها الباب؟ وبدأتُ أعتقد أنني أسمع جلبة موحلة، كأنَّ شيئًا أخضر وأسود ومُبتَلًّا يتحرَّك بالداخل حركةً محدودة.

سألتني ريتا إن كنتُ أرهق نفسي في العمل، وبدأت أحدثها بحدَّة وزَهق، كما كنتُ أفعل في الأيام القديمة تمامًا. تؤلمني معدتي كلَّما تركتهما بمفردهما لأذهب للعمل، ومع ذلك فكان يسرُّني أن أخرج. فليكن الله في عوني، كان يسرُّني أن أخرج. بدأتُ أقول لنفسي، أرأيت؟ لقد ضلَّ عنَّا وفقدنا لفترة عندما انتقلنا لمنزل جديد. كان عليه أن يخرج ليتصيَّدَنا هنا وهناك، ينسلَّ خفيًّا عبر الشوارع في الليل وربما زاحفًا في المجارير، متشمِّمًا بحثًا عنَّا. اقتضى الأمر منه سنة، لكنه عثر علينا. عادَ. يريد آندي ويريدني. بدأتُ أفكِّر، ربما إذا فكَّر المرء في شيءٍ ما وقتًا طويلًا بما فيه الكفاية، وآمن به؛ فإنه يصبح حقيقيًّا. ربما جميع الوحوش التي كانت تُفزِعنا ونحن صغار -فرانكشتاين والرجل

الذئب والمومياء- ربما كانت جميعها حقيقيَّة. حقيقية بما فيه الكفاية لأن تقتل الأطفال الذين افترَض الآخرون أنهم قد سقطوا في مقلع حجارة أو غرقوا في بحيرات أو فُقِدوا بالمطلق فَلم يُعثَر لهم على أثرٍ أبدًا. ربما...".

"هل تحاول تجنُّب الحديث عن أمرٍ ما، يا سيِّد بيلينجز؟".

ظلَّ بيلينجز صامتًا لبرهة طويلة- مرَّت دقيقتان كما ظهر من إشارات الساعة الرقمية. ثم قال فجأة: "مات آندي في فبراير. لم تكن ريتا موجودة. كانت قد تلقَّت اتصالًا من أبيها، أخبرها بأن أمها أصيبت في حادث سيارة في اليوم التالي على ليلة رأس السنة الجديدة ومِن المُستَبعد أن تنجو. أخذت حافلة وذهبت إليهما في نفس الليلة.

لم تَمُت أمُّها، لكنها ظلَّت في حالة خطيرة لا يُرجى شفاؤها لفترة طويلة- شهرين. كان لديَّ سيدة جيدة جدًّا لكي تبقى مع آندي في النهار، وكنَّا نهتمُّ بشؤون المنزل في الليل. وأبقينا أبواب الخزائن مفتوحة. ربما يكون [دكتور بنچامين] سبوك أو واحدٌ آخَر مِن أولئك الدجَّالين الآخَرين قال إنه من السيِّئ للأطفال النوم مع والديهم، تفهمني؟ لأنه من المحتمل أن تحدث لهم صدمية عصبية بسبب الجنس وما إلى ذلك. لكننا لم نمارس الجنس أبدًا إلَّا إن كان الطفل نائمًا. ولم أرغب في أن أنقله إلى غرفة أخرى. كنتُ خائفًا مِن ذلك، بعدما حدث مع داني وشيريل".

سأل دكتور هاربر: "لكنكَ نقلته إلى غرفة أخرى، صحيح؟".

قال بيلينجز: "صحيح"، وابتسم ابتسامةً صفراء سقيمة. "نقلته فعلًا".

الصمت من جديد، كان بيلينجز يغالبُ الصمت.

"كنتُ مُضطرًّا!". صاحَ أخيراً. "كنتُ مُضطرًّا! ظلَّت الأمور مُحتملة طالما كانت ريتا موجودة معنا، ولكن عندما ذهبت بدأ ذلك الشيء يصبح أجرأ. بدأ...". أدار عينيه نحو هاربر وكشَّر عن أنيابه في صورة وحشية. "آه، لن تصدِّقَني. أعرف فيمَ تفكِّر، إنه مجرَّد معتوه آخر ينضمُّ لملف حالاتك، أعرف ذلك، لكنَّكَ لم تكن هناك، أيُّها المتعجرف القذر المُحِبُّ للتَّلصُّص على خصوصيات الآخرين.

ذات ليلة دُفعَ كلُّ باب في المنزل لينفتحَ على آخِره. وذات صباح نهضتُ من الفراش فوجدتُ أثرًا طويلًا مِن الوَحل والقَذر يمتدُّ عبرَ الرَّدهة ما بين خزانة المعاطف والباب الأمامي. هل كان خارجًا؟ أم كان داخلًا؟ لا أعرف! المسيح يشهد عليَّ، أنا ببساطة لا أعرف! جميع الأسطوانات مُخربَشة وتكسوها مادة لزجة، ومرايا مكسورة... والأصوات... الأصوات...".

مرَّر يدًا في شَعره. "يستيقظ المرء في الثالثة صباحًا ويحدِّق في الظلام ولأوَّل وهلة يقول: "ما هو إلَّا صوت ساعة الحائط". لكن تحت ذلك الصوت يمكنه أن يسمع شيئًا يتحرَّك خِلسةً. ولكن ليس خِلسةً أشدَّ ممَّا يجب؛ لأنه يريدك أن تسمعه. صوت لَزِج ومنزلق كأنه صادر عن ماسورة حوض المطبخ. أو مثل تكتكة، كأنها مخالب تُجَرجِر بخفَّة فوق درابزين السُّلَّم. ويغمض المرء عينيه، وهو يعلم أنَّ مجرد السمع كان سيئًا، أمَّا أن يرى بعينيه فهذا...

ودائمًا ستكون في خوفٍ مِن أنَّ الجلبة قد تتوقَّف لوهلة يسيرة، ثم تتفجَّر ضحكة فوق رأسك مباشرة ويلفح وجهك نَفَسٌ مثل كرنب حامض، ثم تجد يدين حول رقبتك".

كان بيلينجز ممتقعًا ومرتعدًا.

"وهكذا نقلتُه لغرفةٍ أخرى. علمتُ أنه سيذهب لينالَ منه، تفهمني؟ لأنه كان أضعف. وهذا ما كان. في الليلة الأولى تلك نفسها

صرخَ في منتصف الليل وأخيراً، عندما استطعتُ أن أستجمع شجاعتي وأدخل، كان يقف في فراشه ويصرخ. "البُعبع، يا بابا... البعبع. أريد أذهبَ معك بابا، أذهب معك بابا"". صارَ صوت بيلينجز مرتفعًا حادًّا، مثل صوت الأطفال. وبدا كأنَّ عينيه اتَّسَعَتَا فملأت وجهه بكامله؛ وأنَّ جسده انكمش تقريبًا على الأريكة.

"لكني لم أستطع"، تواصَل الصوت الطفولي المتقصِّف. "لم أستطع. وبعد ساعةٍ على ذلك انبعثت صرخة. كانت صرخةً رهيبة ذات قرقرة. وأدركتُ كم أحببته لأنني ركضتُ إليه، لم أشعل الأضواء حتَّى، ركضت، ركضت، ركضت، وآه، يا ربُّ، يا مسيح، يا عذراء، أمسكَ به ونالَ منه؛ كان يهزُّه، تمامًا كما قد يهزُّ كلبُ صيدٍ خِرقَةً هشَّة ورأيتُ شيئًا بكتفين منخفضتين رهيبتين ورأس فزَّاعة حقل وشممتُ شيئًا مثل فأر ميت في زجاجة مشروب غازي وسمعت...". انخفض صوته وانقطع، ثم انبعثَ من جديد مُستعيدًا نبرة البالغين. "سمعتُ صوت انكسار رقبة آندي". كان صوت بيلينجز باردًا وميتًا. "لقد صدر عنها صوتٌ يشبه تكسُّرَ طبقة الثلج عند التزلُّج على بحيرة ريفية في الشتاء".

"ثُمَّ ماذا حدث؟".

"آه، فَرَرتُ". قال بيلينجز بنفس الصوت البارد الميت. "ذهبتُ إلى مطعم يفتح أبوابه طوال الليل. أليس في ذلك علامة جُبنٍ تام؟ ركضتُ لمطعم يفتح طوال الليل وشربت ستَّةَ أقداح قهوة. ثم رجعت إلى البيت. كان الفجر قد طلع من قبل. اتَّصلتُ بالشرطة حتَّى قبل أن أصعد للطابق العلوي حيث غرف النوم. كان راقدًا على الأرض محدِّقًا فيَّ. يتَّهِمني. قدرٌ ضئيل للغاية من الدم نزف من إحدى أذنيه. مجرَّد قطرة، حقًّا. وكان باب الخزانة مفتوحًا- لكن مجرَّد شِقٍّ صغير".

توقَّف الصوت. نظر هاربر إلى الساعة الرقمية. مرَّت خمسون دقيقة.

قال له: "حدِّد موعدًا مع الممرِّضة. بل في الحقيقة، حدِّد مواعيد عدَّة. أيام الثلاثاء والخميس تناسبك؟".

قال بيلينجز: "أتيتُ فقط لأحكي قصتي، لأزيحها عن صدري. كذبتُ على الشرطة، كما ترى. قلتُ لهم إنَّ الطفل لا بدَّ قد حاول أن يخرج من مهده في الليل و... هُم ابتلعوا الأمر. بالطبع ابتلعوه. فذلك ما بدا عليه الأمر فعلًا. مجرَّد حادث، مثل الحوادث الأخرى. لكنَّ ريتا عرفت. ريتا... أخيرًا... عرفت...".

غطَّى عينيه بذراعه اليمنى وشرعَ يبكي.

قال دكتور هاربر بعد وقفة صمت: "سيد بيلينجز، سيكون لدينا الكثير لنتحدَّث عنه، وأعتقد أننا نستطيع التخلُّص مِن بعض الذنب الذي ظللت تحمله، ولكن أوَّلًا لا بدَّ أن تكون راغبًا في التخلُّص منه".

صاح بيلينجز: "ألا تعتقد أنني أرغب؟"، رافعًا ذراعه عن عينيه. كانت عيناه محمرَّتَين، داميتين، جريحتين.

فقالَ هاربر بهدوء: "ليس بَعد، هل أيام الثلاثاء والخميس تناسبك؟".

بعد صمت طويل، دمدمَ بيلينجز قائلًا: "إخصائيٌّ نفسي لعين. تمام. تمام".

"حدِّدْ موعدًا مع الممرضة، يا سيد بيلينجز. وأتمنَّى لك يومًا طيِّبًا".

ضحكَ بيلينجز ضحكةً فارغة وخرج من غرفة مكتب الطبيب بسرعة، من غير أن يلتفت خلفه.

كان مكان جلوس الممرضة فارغًا. وثمَّة لافتة صغيرة على نشَّافة المكتب تقول: سأعود بعد دقيقة.

استدارَ بيلينجز وعاد للمكتب. "يا دكتور، مُمرِّضتُكَ...".

كانت الغرفة خاوية.

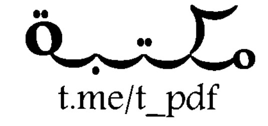
لكنَّ باب الخزانة كان مفتوحًا. مجرد شِقٍّ رفيع.

"لطيف جدًّا"، هكذا ردَّد الصوت المنبعث من الخزانة. "لطيف جدًّا." بدا وقع الكلمات وكأنها ربما تصدر عن فمٍ ممتلئ بأعشاب البحر العَفِنة.

انغرسَ بيلينجز في موضعه حينما تأرجحَ باب الخزانة منفتحًا، وبالكاد أحسَّ بالدفء في حوضه إذ بلَّل نفسه.

"لطيف جدًّا"، قال البُعبع وهو يخرج مُتثاقِلًا مجرجرًا نفسه.

كان لا يزال يحمل قناعَ دكتور هاربر بين مخالب يدٍ مُتفسِّخة وعريضة كالمجراف.



مادَّة رَماديَّة

منـذ بدايـة الأسـبوع كانـوا يتنبَّـؤون أن تهـبَّ ريـح شـمالية عاصفـة حتَّـى أتتنـا مـع يـوم الخميـس، عاصفـة حقيقيـة ذات جلبـة كوَّمـت الثلوج بارتفـاع ثمـاني بوصـات بحلـول الرابعـة بعـد الظهـر، ولم يبـدُ أي شيء يـدل عـلى أنَّهـا سـوف تخفِّـف مـن حدَّتهـا قريبًـا. كُنَّـا نفـس الخمسـة أو السِّـتَّة رجـال، الشِّـلَّة المعتـادة، مُتجمِّعـين حـول المدفـأة (الريلايبـل) في متجـر نايـت- أُول، لصاحبـه هـنري، وهـو متجـر البقالـة الصغـير الوحيـد عـلى هـذه الناحيـة مـن بانجـور الـذي يبقـى مفتوحًـا خـلال الأربـع وعشريـن سـاعة.

حركـة البيـع في متجـر هـنري ليسـت عـلى أفضـل مـا يُـرام -أغلـب الأوقـات، يقتـصر الأمـر عـلى بيـع البـيرة والنبيـذ لطلبـة الجامعـة- لكـنَّ هـنري يعـرف كيـف يدبِّـر أمـوره، كـما أنـه مـكان لنـا، نحـنُ شِـلَّةَ الحمقـى المُسـنِّين ممَّـن يعيشـون عـلى معونـات الضـمان الاجتماعـي، نجتمـع فيـه ونتحـدَّث عمَّـن تـوفِّي حديثًـا وكيـف ينهـار العالَـم وينحـدر نحـو الجحيـم.

في ساعة الأصيل هذه كان هنري لدى نُضُد البيع؛ وبقيَّتنا أنا وبيل بيلهام وبيرتي كونورز وكارل ليتيلفيل نميلُ متحلِّقين حول المدفأة. خارج المتجر، لم تكن هناك سيارة واحدة تتحرَّك في شارع أوهايو، وجرَّافات الثلج تتقدَّم بمشقَّة بالِغةٍ. كانت الريح تضرب وتجرف أمامها قطعًا جليديَّة مموَّجة مثل عمود فقري لديناصور.

لم يدخل متجر هنري سوى ثلاثة زبائن طوال فترة العصر- هذا إن احتسبنا إيدي الأعمى. كان إيدي في نحو السبعين من عمره، ولم يكن أعمى تمام العَمَى، غير أنه كان يرتطم بالأشياء معظم الوقت. كان يأتي إلى المتجر مرَّةً أو اثنتين كل أسبوع، ويدسُّ رغيف خبز داخل معطفه ثم يخرج وعلى وجهه تعبيرٌ يقول: ها، أيُّها الحمقى أولاد القحبة، استغفلتكم مرة ثانية.

ذات مرة سأل بيرتي هنري لماذا لا يعترض على ذلك أبدًا.

فقال هنري: "سوف أخبرك، منذ بضع سنين احتاجت القوات الجوِّيَّة إلى عشرين مليون دولار لكي تنفِّذ نموذجًا قادرًا على التَّحليق لطائرةٍ ما كانوا قد صمَّموها. ماشي، كلَّفهم تنفيذها خمسة وسبعين مليون، وبعد ذلك لم يفلح ذلك الشيء اللعين ولم يَطِر. جرى هذا منذ عشر سنين، عندما كنتُ أنا وإيدي الأعمى صغارًا في السِّنِّ إلى حدٍّ ما، وقد أعطيتُ صوتي في الانتخابات للمرأة التي دعَّمَت دَفع تكلفة ذلك الشيء اللعين، أمَّا إيدي الأعمى فلم يعطِها صوته. ومنذ ذلك الحين أعتبر نفسي أدفع له ثمن خبزه".

لم يبدُ على بيرتي أنه فهمَ الغرض من هذه القصة، فاضطجع في مجلسه وأخذ يتأمَّلها.

الآن يُفتحُ البابُ من جديد، فتسنح الفرصة لدخول هبَّة من هواء رمادي بارد، ويدخل للمكان فتى يافع، يطبع بحذائه طويل الرقبة لطخاتٍ من الثلج على الأرض. عرفتُ مَن يكون بعد ثانية. إنه ابن

ريتشي جرانادين، وقد بَدَت على وجهه أمارات القرف والبؤس، تفّاحة آدم في عنقه كانت تعلو وتهبط ولون وجهه مثل مفرَشٍ مشمَّع قديم حائل.

خاطبَ هنري قائلًا: "سيد بارمالي،" وعيناه تدوران في رأسه كأنهما كُرَيَّات رصاصيَّة في عجلة، "لا بُدَّ أن تأتي. لا بُدَّ أن تأخذ له بِيرته وتأتي. لا أظن أنني سوف أتحمَّل الرجوع إلى هنالك. أنا خائف".

فقال هنري وهو يخلع مريول الجِزارة الأبيض ويخرج من وراء النُّضُد: "الآن اهدأ وأفهِمْني بلا عجلة. ما الأمر؟ هل شربَ أبوك حتى سَكر؟".

حينما قال ذلك انتبهتُ إلى أنَّ ريتشي لم يأتِ إلى هنا منذ فترة لا بأس بها. في العادة كان يمرُّ بالمتجر مرَّةً كلَّ يوم لكي يأخذ صندوقًا صغيرًا مِن أي نوع بيرة هي الأرخص سِعرًا في ذلك الوقت، رجلٌ بدينٌ ضخم، له لُغدٌ مثل ردف خنزيرٍ، وذراعان مثل فخذي خنزير. لَطالما كان ريتشي خنزيرًا شَديد الشراهة لشرب البيرة، لكنه ظلَّ مسيطرًا على عادته عندما كان يعمل في مطحنة لُباب خشَبٍ تقع في كليفتن، ثم حدثَ أمرٌ ما -حمولة فاسدة من ماكينة فَصل اللُّباب أصابته بسوء، أو ربما ريتشي هو مَن جعلَ الأمر يبدو على هذا النحو- فصُرفَ مِن العمل، حرًّا وخالي البال، مع تعويض دفعته له الشركة. شيءٌ ما في ظَهره.

على أي حال، أصبحَ بدينًا بَدانةً لا تُصدَّق. لم يأتِ إلى المتجر منذ فترة، ومع ذلك فقد كنتُ أرى ابنه بين الحين والآخر يأتي ليحصل على صندوق البيرة الليليِّ الخاص بأبيه. ولدٌ لطيفٌ جدًّا. وكان هنري يبيعه البيرة فقط لأنه يعرف أنَّ الولد ينفِّذ أوامر أبيه.

كان الصبي يقول الآن: "نَعم، كان يسكر، لكن ليست هذه هي المشكلة. الأمر... إنَّه... آه، يا ربي، شيء رهيب!".

رأى هـنري أنَّ الولـد أجهـش بالبـكاء، فقـالَ مِـن فـوره: "كارل، أيمكنـك أن تأخـذ مـكاني دقيقـة واحـدة؟".

"بكل تأكيد".

"والآن، يـا تيمـي، تعـالَ معـي إلى المخـزن في الخلـف واحـكِ لي كل شيء".

قـادَ الولـدَ بعيـدًا، والتـفَّ كارل وجلـس عـلى المقعـد المرتفـع وراء النُّضُـد. لم يَقُـل أحـدٌ شـيئًا لبرهـة. كان بوسـعنا أن نسـمع صوتيهـما هنـاك في الخلـف، صـوت هـنري الأجـش البطـيء، ثـم صـوت تيمـي جرانادين المرتفـع، وهـو يتكلّـم بسرعـة بالغـة. ثـم شرعَ الصبـي يبـكي، فتنحنـحَ بيـل بيلهـام وأخـذ يمـلأ غليونـه بالتبـغ.

قلتُ: "أنا لم أرَ ريتشي منذ شهرين أو نحوهما".

نخر بيل وقال: "من حسن حظِّكَ".

فقـال كارل: "أتى إلى هنـا... إمممـم، في أواخـر أكتوبـر، في عيـد الهالويـن تقريبًـا. واشـتري صندوقًـا صغـيرًا مـن بـيرة شـليتز. وكان يـزداد بدانـةً بشـكل مُخيـف".

لم نجـد مـا يُقـالُ أكـثر مِـن هـذا. كان الصبـي لم يـزل يبـكي، لكنـه كان يتحـدث في الوقـت نفسـه. بالخـارج، واصلَـت الريـحُ زمجرتهـا وعواءهـا، وقـال الراديـو إنَّ عُمـقَ طبقـة الثلـوج سـوف تصـل إلى سـتِّ بوصـات أخـرى بحلـول الصبـاح. كنـا في منتصـف ينايـر؛ مـا جعلنـي أتسـاءل إن كان هنـاك أي شـخص قـد رأى ريتـشي منـذ شـهر أكتوبـر- أي مـا عـدا ابنـه.

تواصـل حديثهـما فـترة لا بـأس بهـا، لكـنَّ هـنري والولـد خرجَـا أخـيرًا عائِدَيْـن. كان الولـد قـد خلـع معطفـه، لكـنَّ هـنري قـد ارتـدى معطفـه. كان الولـد يلتقـطُ أنفاسًـا سريعـة فيعلـو صدره ويهبـط كـما يفعـل مَـن

أزاحَ عبئًا عن صدره، لكنَّ عينيه كانتا حمراوين وما إن ينظر في وجهك حتَّى يخفض بصره للأرض.

بدا هنري قلقًا. "فكَّرتُ أن أرسلَ تيمي للطابق العلوي حتَّى تعدَّ له زوجتي شطيرة جُبنٍ مُحمَّصة أو لُقمةً ما. ربما يودُّ بعضٌ منكم أن يذهب معي إلى بيت ريتشي. فإنَّ تيمي يقول إنه يرغب في بعض البيرة. وقد أعطاني النقود". حاولَ أن يبتسم، لكن المسألة برُمَّتها كانت مزعجة فأقلع عن المحاولة. قال بيرتي: "طبعًا، أي نوعٍ مِن البيرة؟ سأحضرها بنفسي".

قال هنري: "هاروز سوبريم، لدينا في الخلف بعض الصناديق عليها تخفيض".

أنا أيضًا نهضت. لا بدَّ أنَّ مَن سيذهب أنا وبيرتي. كارل يعاني التهاب المفاصيل وتزداد حالته سوءًا في مثل هذه الأيام شديدة البرودة، وبيلي بيلهام لم يعد قادرًا على الانتفاع بذراعه اليمنى كثيرًا.

أحضر بيرتي أربعَ كراتين من بيرة هاروز، في الواحدة سِتُّ عُلب، وحزمتُها في صندوق بينما أخذ هنري الصبي وصعدا إلى حيث الشقَّة في الطابق العلوي.

تمام، ضبط أموره مع السيدة زوجته ونزل عائدًا إلينا، وألقى نظرة سريعة للوراء ليتأكَّد مِن أنَّ باب الطابق العلوي مُغلَقٌ. بادرَ بيلي بالحديث بما لديه، منفجرًا تقريبًا: "ما الحكاية؟ هل كان ريتشي يضرب هذا الفتى؟".

فقالَ هنري: "كلَّا، لكني أُفضِّل ألَّا أقول أي شيء الآن. سيبدو كلامي جُنونًا. سوف أريكم شيئًا ما. النقود التي كان على تيمي أن يدفعها ثمنَ البيرة". أخرجَ من جيبه أربع ورقات نقدية فئة الدولار، وأمسكها من طرفها، ولا لومَ عليه. بدت كلها مُغطَّاة بمادة رماديَّة لَزِجة أَشبه بطبقةٍ الخَبَث فوق الأغذية المحفوظة حين تفسَد. وضعَ الأوراق

النقدية على النُّضد بابتسامة غريبة وقال مخاطبًا كارل: "لا تَدع أي شخص يلمسها. يجب تَجنُّبها ولو كان ما يصفه الفتى هو نصف الحقيقة فقط!".

واتجه نحو حوض الصنبور بجانب نضد بيع اللحوم وغسل يديه.

نهضتُ وارتديتُ معطفي القصير والكوفية وأغلقت الأزرار. لم تكن هناك جدوى مِن ركوب سيارة؛ لأنَّ ريتشي يعيش في مبنى شُقَقٍ سكنية بشارع كيرف، وهو قريب للغاية بحيث يمكن أن نسير إليه مُباشرةً كما يجيز القانون في مثل هذا الطقس، وهو آخِر موضع تصله جَرَّافات الثلج.

بينما كنَّا خارجين، صاح بيل بيلهام مِن وراءنا: "والآن سيروا بحرص".

أومأ له هنري وحسب ووضع صندوق البيرة على عربة اليد الصغيرة التي يحتفظ بها بجانب الباب، وشرعنا نتدحرج على مَهلنا.

ضربتنا الريح بحدَّةِ شَفرةِ مِنشارٍ، ومن فوري شددتُ الكوفية للأعلى حول أذنيَّ. توقَّفنا لدى المدخل لثانية واحدة ريثما يُحكم بيرتي قفازيه حول أصابعه. ارتسم على وجهه نوعٌ مِن الجفول المتألِّم، وكنتُ أدرك طبيعة شعوره. لا بأس بالمرة للشباب الصغار أن يخرجوا ويتزلَّجوا على الجليد طوال النهار أو يتراكضون بعربات الثلج اللعينة تلك التي تسمَّى جناح البعوضة طوال نصف الليل، ولكن حينما تكون قد تجاوزت السبعين فإنَّ نهوضك من مكانك يحتاج لتغيير زيت، كما أنك تشعر بتلك الريح الشمالية الشرقيَّة تهب حول قلبك نفسه.

خاطبنا هنري ولم تَزَل تلك الابتسامة الغريبة تعلو وجهه، ابتسامة أقرب للاشمئزاز: "لا أريد أن أخيفكم يا أولاد، ولكني سأريكم هذا

رغـم كل شيء. وسـوف أخبركـم بمـا حدَّثنـي بـه الفتـى بينـما نسـير إلى هنـاك... لأننـي أريدكـم أن تعرفـوا، تفهموننـي؟".

وسـحبَ مِـن جيـب معطفـه مسـدَّس هوللِـج عيـار 45، نفـس المسـدس الـذي احتفـظ بـه مُذَخَّـرًا تحـت نُضُـد البيـع منـذ أن بـدأ يفتـح المتجـر طـوال الأربـع والعشريـن سـاعة في عـام 1958. لا أعلـمُ مِـن أيـن أتى بـه، لكنـي أعلـم أنـه أظهـره لسـارقٍ فاسـتدارَ الرجـل للبـاب وخـرجَ في لمح البـصر. كان هـنري رابـط الجـأش، بـلا شـك. رأيتُـه يطـرد شـابًّا جامعيًّـا دخـل ذات مـرَّة وأثـار أعصابـه بسـبب مُلاحَقَتـه لصبيـة. سـار الصبـي مبتعـدًا كـما لـو كان يوشـك أن يتغـوَّط عـلى نفسـه.

تَمـام، أقـول لكـم ذلـك لأن هـنري أرادَ منـي أنـا وبـيرتي أن نعلـم أنـه لم يكـن يمـزح، وقـد علمنـا.

وهكـذا انطلقنـا، نميـل في الريـح مثـل غاسـلات الثيـاب عـلى النَّبـع قديمًـا، دحـرجَ هـنري عربـة اليـد تلـك وأخبرنـا بمـا قـال الفتـى. كانـت الريـح تحـاول أن تقتلـع الكلـمات وتلقـي بهـا بعيـدًا قبـل أن نتمكَّـن مـن سـماعها، غـير أن آذاننـا تصيَّـدَت أكثرهـا- بـل أكـثر مـمَّا أردنـا. وكـم كنـتُ مـسرورًا لأنَّ هـنري أبعـدَ صاحبـه المعـدني الصغـير وأودعـه جيـبَ معطفـه.

قـال الفتـى إنَّ البـيرة هـي السـبب بـلا شـك- تعلـم كيـف يمكـن للمـرء أن يـشربَ عُلبـة فاسـدة بـين حـينٍ وآخَـر. عُلبـة تافهـة المـذاق بـلا نكهـة، أو ذات رائحـة كريهـة، أو مخـضرَّة مثـل قطـرات بـول أيرلنـدي في لباسـه الداخـلي. أخـبرني أحدُهـم ذات يـوم أنَّ الأمـر لا يحتـاج لأكـثر مِـن ثقـب دقيـق جـدًا حتَّـى يسـمح بدخـول بَكتيريـا وسـوف تفعـل أشـياء غريبـة ملعونـة، وقـد يكـون هـذا الثقـب صغـيراً للغايـة بحيـث لا تـكاد تتـسرَّب منـه بـيرة، لكـن البكتيريـا يمكنهـا الدخـول. والبـيرة غـذاء طيِّـب لبعـض أنـواع البَـقِّ.

على أي حال، قال الفتى إنَّ ريتشي أحضر معه كرتونة من عُلب الجولدن لايت كما هو الحال دائمًا، في تلك الليلة من شهر أكتوبر، وجلس ليأتي عليها سريعًا بينما عكفَ تيمي على واجباته الدراسية. حينَ كان تيمي على وشك الرقاد في فراشه سمعَ ريتشي يقول: "يا يسوع المسيح، ذلك ليس جيدًا".

فيسأله تيمي: "ما الأمر، يا بابا؟".

فيقول ريتشي: "البيرة، ربَّاه، إنَّ لها أسوأ مذاق دخل فمي طوال عُمري".

قد يتساءل أغلب الناس لأي سببٍ مجنون شربَها ما دام كان مذاقها بهذا السوء، ولكن مهلًا، فأغلب الناس لم يسبق لهم أن رأوا ريتشي جرانادين وهو يعبُّ بيرته. وقد كنتُ في "والي سبَا"، ذات أصيلٍ، ورأيتُه بعينيَّ يكسب أشنَعَ رهانٍ مُمكِن. راهنَ رجلًا أنَّه قادر على شرب عشرين كأسًا طويلة من البيرة في دقيقة واحدة. لا أحد مِن السُّكَّان المحليين قد يتحدَّاه في شيءٍ كهذا، لكنَّ بائعًا جوَّالًا مِن مونتبلير وضعَ على الطاولة عشرين دولارًا ووضعَ ريتشي مثلها. شرب العشرين كأسًا كلها وقد تبقَّت سبع ثوانٍ مِن الدقيقة- بالرغم مِن أنه عندما سارَ خارجًا كان يترنَّح مثل شراعٍ تتلاعب به الريح؛ ولهذا أتوقَّع أنَّ أغلب محتوى علبة البيرة الفاسدة تلك كان قد أصبحَ في جوفه مِن قبل أن ينتبه عقله ويحذِّره.

يقول ريتشي: "سوف أتقيَّأ، انتَبِه!".

لكن حينما شرعَ يسمع تنبيه عقله كان الأوان قد فات واستقرَّ في جوفه ما شرب، وهكذا انتهى الأمر. قال الفتى إنه شمَّ رائحة العلبة، وكانت رائحتها كأنَّ شيئًا ما زحف لداخلها ومات فيها. كما كان هناك على رأس العلبة أيضًا قَطرة رمادية صغيرة.

مرَّ يومان على تلك الواقعة، ثم عادَ الفتى للبيت من المدرسة ذات مرَّة فإذا بريتشي جالسًا قبالة جهاز التليفزيون يشاهد برامج آخِر النهار المؤثِّرة المبكية، وقد أسدلَ جميع خصاص النوافذ في الشقة فحجبَ كلَّ ضوء.

سأله تيمي: "ما الأمر؟"، فقد كان مِن النادر أن يرجعَ ريتشي إلى البيت قبل التاسعة مساءً.

فيقول له ريتشي: "أنا أشاهد التليفزيون، لم أشعر برغبة في الخروج اليوم".

أضاء تيمي مصباحًا أعلى حوض المطبخ، فصاحَ فيه ريتشي: "وأطفئ ذلك النور المقرف!".

وأطاعَ تيمي أمرَ أبيه، ولم يسأل حتَّى كيف سيؤدِّي واجباته الدراسية في الظلام. فعندما يكون ريتشي في تلك الحالة المزاجية من الأفضل ألَّا تسأله عن شيء.

ويقول ريتشي: "واخرُجْ هات لي كرتونة أخرى، النقود على المائدة".

وعندما يعود الفتى مِن الخارج يجد والده لم يزل جالسًا في الظلام، الفرق الوحيد أنَّ الظلمة حلَّت بالخارج أيضًا. وكان جهاز التليفزيون مطفأ، ويبدأ الخوف يعتري الفتى، طبعًا، ومَن لا يخاف لو كان في مكانه؟ لا شيء حوله إلَّا شقة تُغلِّفها الظُّلمَة الحالِكَة، وأبوه جالسٌ في الركن مثل كُتلة ضخمة.

وهكذا يضعُ الفتى البيرة على المائدة؛ لِعلمه أنَّ ريتشي لا يُحبُّها شديدة البرودة فتَخِزُ جبينه، وحين يقترب مِن أبيه يبدأ في ملاحظة رائحة شيءٍ عَفِن، مثل جبن قديم تركه شخصٌ ما هنالك على النضد طوال نهاية الأسبوع. لا يقول كلمةَ ضِيق ولا يغمضُ عينيه، فالرجل الكبير لم يكن أبدًا ممَّا يمكن أن ندعوه شديد النظافة. وبدلًا مِن ذلك

يدخلُ غرفته ويغلق على نفسه بابها ويؤدي واجباته المدرسية، وبعد بُرهة يتناهى إليه صوت التليفزيون وقد بدأ يشتغل وصوت ريتشي وهو يفتح بيرته الأولى للمساء.

واستمرَّت الأمور على هذا المنوال لمدة أسبوعين أو نحوهما. ينهض الفتى في الصباح ويذهب إلى المدرسة وحينما يرجع للبيت يكون ريتشي أمامَ التليفزيون، ونقود البيرة على المائدة.

كما كانت رائحة الشقَّة تزداد نتنًا وخُبثًا. لم يكن ريتشي يرفع خصاص النوافذ على الإطلاق، وفي منتصف نوڤمبر تقريبًا جعل تيمي يتوقَّف عن استذكار دروسه في غرفته. قال إنه لم يَعُد يحتمل النور المنبعث مِن تحت عقب الباب. فبدأ تيمي يذهب إلى بيت صديق له غير بعيد بعد أن يحضر لأبيه البيرة.

ثمَّ ذات يوم بعد أن عادَ تيمي للبيت من المدرسة -كانت الرابعة مساءً وتكاد الظلمة تحلُّ- قال له ريتشي: "أشعل النور".

أشعلَ الولد النور الذي فوق حوض المطبخ، ولولا أن كان ريتشي مُدثَّرًا تمامًا في بطانية لرأى مشهدًا مريعًا.

"انظر"، هكذا يقول ريتشي بينما تزحف إحدى يديه لتظهر من تحت البطانية. غير أنها لم تكن يدًا بالمرة. شيء رمادي، هذا هو كل ما استطاع الفتى أن يقوله لهنري. لم تبدُ مثل يدٍ بالمرة. مجرد كتلة رمادية.

حسنًا، استولى الذعر على تيمي جرانادين. يقول: "بابا، ماذا يحدث لك؟".

فيقول ريتشي: "لا أعلم. ولكنه غير مؤلم. إنه شعور... لطيف نوعًا".

وهكذا، يقول تيمي: "سوف أتصل بدكتور ويستفيل".

فتبدأ البطَّانية ترتعش بكاملها، كما لو كان شيء ما يرجُّها رجًّا -بكاملها- من تحتها. ويقول ريتشي: "إيَّاك أن تفعل. لو فعلت سوف ألمسك وهكذا ستصير". ويزيح البطانية من على وجهه لدقيقة واحدة.

آنذاك كنَّا قد بلغنا تقاطُع هارلو مع شارع كيرف، وكنت أشد برودة من درجة الحرارة التي يُظهِرها الترمومتر المثبَّت على إعلان زجاجة كراش برتقال في متجر هنري عندما خرجنا. لا يريد أي شخص أن يصدِّق وقوع مثل تلك الأمور، ومع ذلك فلا زالت هناك أمور شديدة الغرابة في هذا العالَم.

ذات مرة عرفت رجلًا اسمه چورچ كيلسو، وكان يعمل في قسم الأشغال العامة في بانجور، أمضى خمسَ عشرةَ سنة في تثبيت خطوط المياه الرئيسية وإصلاح كابلات الكهرباء وكل ذلك، ثم ذات يوم استقالَ فجأة، قبل عامين أو أقل من موعد تقاعُدِه الرسمي. قال فرانكي هالدمان، والذي كان يعرفه، أنَّ چورچ نزل في بالوعة مجاري في منطقة إسكس وهو يضحك ويمزح كعادته دائمًا وخرج منها بعد رُبع ساعة وقد غزا الشيبُ شعرَ رأسه كله، صارَ في بياض الثلج وكانت عيناه تحدِّقان مثل مَن نظرَ مِن نافذة تطلُّ على الجحيم. سارَ مباشرةً نحو مرآب قسم الأشغال العامَّة، وختم بطاقة حضوره في الساعة الإلكترونية، واتَّجه رأسًا إلى حانة والي سبا، وبدأ يشرب واستمرَّ يشرب حتَّى هلك من الشراب بعد مرور عامين. قال فرانكي إنه حاول أن يتحدث معه عن الأمر، وأخبره چورچ بشيءٍ ما في إحدى المرَّات، كان ذلك ذات مرة بلغ به السُّكر مَداه. التفت چورچ نحوه وهو جالس على مقعد البار المرتفع، وسأل فرانكي هالدمان إن كان قد سبقَ له أن رأي عنكبوتًا ضخمًا ضخامة كلبٍ متوسط الحجم، مستقرًّا في قلب شبكة ممتلئة بِهِرَرَةٍ وكلها ملفوفة بخيوط نسيجه. تمام، وماذا عساه يقول في ذلك؟ أنا لا أقول إنَّ مثل هذا الأمر حقيقي بأي درجة،

لكنـي أقـول إنَّ هنـاك أمـورًا في أركان العالَـم قـد تُفقـد المـرء عقلـه بمجـرد أن تنظـرَ في عينيـه مبـاشرةً.

وهكـذا توقَّفنـا دقيقـة عنـد الناصيـة، عـلى الرغـم مِـن الريـح التـي كنـت تهـبُّ مُزَمجِـرَةً بامتـداد الشـارع.

سأل بيرتي: "ما الذي رآه؟".

فأجـابَ هـنري: "قـال إنـه كان لا يـزال بوسـعه رؤيـة أبيـه، ولكنـه قـال إنَّـه كان مدفونًـا تحـت هُـلامٍ رمـادي... وكان كل شيء مهروسًـا معًـا في كتلـة واحـدة، قـال إنَّ ملابسـه كانـت ملتصقـة تحـت وفـوق بشرتـه، كأنهـا ذابـت وانصهـرت في جسـمه".

قال بيرتي: "يا مُغيث يا رب".

"ثُـمَّ غطَّـى نفسـه تمامًـا مـن جديـد وشرعَ يـصرخ عـلى الفتـى ليطفـئ النور".

فقلتُ: "كما لو كان مِن الفِطريَّات".

فقال هنري: "نَعم، شيء من هذا القبيل".

قال له بيرتي: "احتفظ بذلك المسدس قريبًا مِن يدك".

فأجابـه: "نَعـم، هكـذا سـأفعل"، وعندئـذٍ بدأنـا ننقـل الخطـى داخلـين في شـارع كـيرڤ.

كانــت البنايــة الســكنية التــي تقــع فيهــا شــقة ريتــشي جرانادـيــن تـكاد تكـون عـلى رأس التـل، أحـد تلـك الوحـوش المعماريـة عـلى الطـراز الڤكتـوري والتـي شـيَّدها أباطـرة صناعـة لُبـاب الخشـب والـورق عنـد بدايـة القـرن. وكانــت قــد تحوَّلَــت، جميعهــا تقريبًــا، إلى مبــاني شــقق سـكنية في الوقـت الراهـن. عندمـا التقـط بـيرتي أنفاسـه أخبرنـا بـأنَّ ريتـشي يعيـش في الطابـق الثالـث، تحـت ذلـك الجملـون المدبَّـب البـارز للأعـلى

كأنـه حاجـب مرفـوع. انتهـزت فرصـة وقفتنـا لأسـأل هـنري عـمَّا جـرى للفتـى بعـد ذلـك.

في وقـت مـا مِـن الأسـبوع الثالـث في شـهر نوفمـبر، عـادَ الفتـى للبيـت ذاتَ أصيـلٍ ليجـدَ ريتـشي وقـد انتقـل درجـةً أخـرى زائـدة بعـد مرحلـة الاكتفـاء بإسـدال خصـاص النوافـذ. فقـد فـردَ بطاطـين وثبَّتهـا بمسـامير أمـام أي وكل نافـذة موجـودة في المـكان. كـما كانـت رائحـة النَّـتَن قـد بـدأت تـزداد سـوءًا، نـوع مـن النَّـتَن الرخـوي، كـما يحـدث للفاكهـة عندمـا تُـترك فتتخمَّـر ويعلوهـا زَبـدٌ لَـزج.

بعـد أسـبوعٍ أو نحـوه، بـدأ ريتـشي يجعـلُ الفتـى يسـخِّن لـه بيرتـه عـلى موقـد الغـاز. أيمكنهـم تخيُّـل ذلـك؟ الفتـى بمفـرده تمامًـا في تلـك الشـقة، مـع أبيـه الـذي تحـوَّل إلى... إمممـم، إلى شيءٍ مـا... وهـو يسـخِّن لـه بيرتـه، ثـم يكـون عليـه أن يسـمع صوتـه هـذا الرجـل -بـل هـذا الشيء- وهـو يشربهـا بأصـوات شَـفْطٍ غليظـة رهيبـة، كـما قـد يـأكل رجـلٌ عجـوز حسـاءً غليـظ القـوام: أيمكنكـم تخيُّـل ذلـك؟

وعـلى هـذا النحـو مَضَـت الأمـور حتَّـى اليـوم، عندمـا سـمحوا للطُّـلَّاب بالخـروج مبكِّـرًا مِـن مدرسـة الفتـى بسـبب العاصفـة.

حـكى لنـا هـنري قائـلًا: "يقـول الفتـى إنـه ذهـب للبيـت مبـاشرة، لم يجـد مصبـاح إضـاءة في طرقـة السُّـلَّم -يزعـم الفتـى أنَّ أبـاه لا بُـدَّ تسـلَّل للخـارج في ليلـةٍ مـا وحطَّمـه- وهكـذا كان عليـه أن يتلمَّـس طريقـه حتَّـى بـاب شـقَّته.

طيـب، سـمعَ شـيئًا يتحـرَّك في داخـل الشـقة هنـاك، وهكـذا فجـأة قفـز إلى عقلـه أنَّـه لا يعـرف شـيئًا عـمَّا يفعلـه ريتـشي طـوال النهـار خـلال أيـام الأسـبوع. فَلـم يكـن قـد رأى أبـاه ينهـض واقفًـا مِـن ذلـك المقعـد لقرابـة شـهرٍ، وعـلى كل إنسـانٍ أن ينـام أو حتـى يذهـب لقضـاء حاجتـه في بعـض الأحيان.

ثمة عين سِحرية مثبتة في منتصف الباب، وكان يُفترض أنَّ لها مزلاجًا صغيرًا من الداخل لإغلاقها، ولكنه كان مكسورًا منذ أن سكنا هناك. وهكذا فقد اقترب الفتى من الباب بهدوء وخفَّة، ودفعَ مزلاجَ العين السحرية قليلًا بإبهامه واختلس النظر".

آنذاك كنَّا واقفين أدنى الدَّرَج والمنزل ينهض مِن فوقنا مثل وجه عالٍ وقبيح، وكأنَّ النافذتين في الطابق الثالث عينا ذلك الوجه. رفعتُ بصري إليهما، وبكل تأكيد كانت النافذتين حالِكتان، كأنَّ شخصًا غطَّاهما بالبطاطين أو طلاهما بالسَّواد.

"لزمته دقيقة حتَّى تعتاد عيناه العَتمة. ثم رأى كتلة رمادية كبيرة هائلة، لا تشبه الإنسان في شيءٍ بالمرة، تزحف فوق الأرض، تاركةً وراءها خطًّا رماديًّا رفيعًا. ثم مدَّت ذراعًا -أو شيئًا كالذراع- تتلوَّى كالحيَّة وتنزع عن الجدار لوحًا خشبيًّا، وتتناول من ورائه قطَّة". توقَّف هنري لثانية. كان يضرب يديه معًا؛ فقد كان البرد لعينًا بالخارج في الشارع، ومع ذلك فلا أحد منَّا كان مستعدًّا للصعود بعدُ. واصلَ هنري حديثه قائلًا: "قطَّة ميِّتة قد تفسَّخَت. قال الفتى إنها بدت منتفخة ومتخشِّبة... وكانت هناك كائنات بيضاء صغيرة تزحف على كل موضعٍ منها...".

قال بيرتي: "كفاية، باللهِ عليكَ كفاية".

"ثم أكلها أبوه".

حاولتُ أن أبلعَ ريقي لكنَّ مذاقًا لزجًا مرَّ بحلقي.

أنهى هنري حديثه بصوتٍ خفيض: "وعندئذٍ أغلق تيمي العين السحرية وجرى بعيدًا".

قال بيرتي: "لا أظنُّ أنني قادر على الصعود إلى هناك".

لم يَقُل هنري شيئًا، فقط نقلَ بصره بيني وبين بيرتي مرة بعد أخرى.

فقلتُ: "أظن أنَّ علينا الصعود، فقد أحضرنا البيرة لريتشي".

لم يُعقِّب بيرتي بشيءٍ على ذلك، فأخذنا نصعد الدرج الخارجي ودخلنا من باب الردهة الأمامية. كانت الرائحة واضحة مِن هناك.

أتعرف ما هي رائحة معمل تخمير شراب التُّفَّاح المُسكِر في فصل الصيف؟ لا يمكنك بالمرة أن تُميِّز فيها رائحة التفاح، ولكن في فصل الخريف لا بأس هناك؛ لأن الرائحة تكون لاذعة وحادَّةً بما يكفي لأن تخترق أنفك وتَبريها. أمَّا في الصيف، تكون مجرَّدَ رائحة خبيثة، كانت هذه الرائحة مثل تلك، لكنها أسوأ قليلًا.

كان هناك مصباح واحد فقط في ردهة الطابق الأرضي، شيء أصفر شحيح في زجاجٍ مبرقش يرمي ضوءًا ضعيفًا يشبه مخيض اللبن. ثم تلك الدرجات الصاعدة غارقة في الظلال.

أوقفَ هنري عربة اليد الصغيرة، وبينما كان يرفع منها صندوق البيرة، ضغطتُ الزِّرَّ الموجود عند أسفل الدَّرَج لإضاءة مصباح بَسْطَةَ سُلَّم الطابق الثاني، غير أن المصباح كان مكسورًا، كما قال الفتى تمامًا.

قال بيرتي بصوتٍ مرتعش: "سأحمل أنا البيرة. اهتم أنت فقط بذلك المسدَّس".

لم يجادله هنري في هذا، وناوله الصندوق وبدأنا نصعد، هنري أولًا، ثم أنا، ثم بيرتي مع الصندوق بين ذراعيه. حينما بلغنا بسطة الطابق الثاني كانت رائحة النَّتَن أشدَّ وأشنع كثيرًا. مثل تفَّاحٍ تَعَفَّن، تخمَّر واهترأ تمامًا، تحت تلك الرائحة ثمَّة زَنَخٌ أبشَعُ.

عندما عشتُ فترةً في بلاد المشرق العربي كان لديَّ كلبٌ ذات مرة، وكان رِكس، هذا هو اسمه، كلبًا هجينًا جيِّدًا، غير أنه كان متهوِّرًا

بخصوص السيارات، فارتطم بسيارة مُسرِعة للغاية ذات أصيل بينما كنتُ في العمل وزحفَ في فجوة تحت أساس البيت وهنالك مات. ربَّاه، ما أبشع الرائحة. كان عليَّ في نهاية الأمر أن أنزل تحت وأسحبه للخارج بقضيبٍ معدني طويل. كانت تلك الرائحة الكريهة الأخرى مشابهة لذلك؛ عَفنة وفاسدة وقذرة بقدر عرنوس ذرة منخور.

حتَّى تلك اللحظة ظللتُ أفكر بأنَّ ذلك كله ربما يكون مَزحَة ما، ولكني رأيتُ أنه ليس كذلك. سألتُ: "ربَّاه، لماذا لم يتقدَّم الجيران بشكوى ضدَّه؟".

تساءل هنري: "أي جيران؟"، وكان يبتسم من جديد تلك الابتسامة الغريبة.

نظرتُ حولي فرأيتُ الطُّرقة مُغَبَّرة نوعًا ما، وتبدو غير مُستَخدَمَة وأبواب جميع الشقق الثلاثة في الطابق الثاني موصدة ومقفولة بإحكام.

تساءل بيرتي: "تُرى مَن يكون صاحب العقار؟"، وهو يضع الصندوق على قائم الدرابزين ويلتقط أنفاسه. "عجيب أنه لم يأتِ إلى هنا ويطرده للشارع".

سأل هنري: "مَن سيجرؤ أن يصعد إلى هنا ويطرده؟ هل ستفعل أنت؟".

لم يَقُل بيرتي شيئًا.

والآن شرعنا نصعد درج الطابق التالي، والذي كان أشدَّ ضيقًا وانحدارًا مِن الطابق السابق. كما كان أشدَّ حرارة أيضًا، وبدا كأنَّ كل مِشعاع حرارة في المكان يُصدِر قعقعةً وهسيسًا. وكانت الرائحة لا تُطاق، وبدأت أشعرُ كأنَّ أحدًا يقلِّب أمعائي بعَصا.

في أعـلى نقطـة وجدنـا ردهـة قصـيرة وبابًـا واحـدًا في منتصفـه عـين سـحرية صغـيرة.

أطلـقَ بـيرتي شـهقةً صغـيرة ناعمـة، وهمـس قائـلًا: "انظـرا مـا الـذي نخطـو عليـه!".

نظـرتُ للأسـفل فرأيـتُ هـذه المـادة الغرويّـة اللَّزِجَـة عـلى أرضيـة الرَّدهـة؛ في بِـرَكٍ صغـيرة. بـدا أنَّـه كانـت هنـاك سـجّادة ذات مـرة، لكـن المـادة الرماديـة أذابتهـا وأكلتهـا كلهـا تدريجيًّـا.

خطـا هـنري نحـو البـاب، وخطونـا خلفـه. لا أعـرف بمـاذا كان يشـعر بـيرتي، لكـنَّ سـاقَيَّ كانتـا ترتعـدان. ورغـم ذلـك فَلـم يـتردَّد هـنري بالمـرة؛ أشـهرَ المسـدَّس ونقـر بكعبـه عـلى البـاب.

صـاحَ: "ريتـشي؟"، ولم يَنُـمَّ صوتـه عـن خـوفٍ ولـو قليـلًا، عـلى الرغـم مـن أنَّ وجهـه شـاحب شـحوبَ المـوتى. "أنـا هـنري بارمـالاي مـن متجـر النايـت أُول، وأحـضرتُ لـك بِيرَتَـكَ".

لم يكـن هنـاك جـواب ربمـا لدقيقـة كاملـة، ثـم قـال صـوتٌ مـا: "أيـن تيمـي؟ أيـن ولـدي؟".

عندئـذٍ أوشـكتُ عـلى أن أركـض هاربًـا، فذلـك لم يكـن صوتًـا آدميًّـا بالمـرة. كان غريبًـا وخفيضًـا وفقّاعيًّـا، كأنَّ شـخصًا يتكلـم بفـمٍ مكتـظٍّ بشَـحم ودُهْـنٍ.

قـال هـنري: "إنـه في متجـري، يـأكل لُقمـة طَيبـة. فَهـو نحيـف كأنـه قطّـة بانـت ضلوعهـا مـن الجـوع يـا ريتـشي".

لم يكـن هنـاك أي شيء لوَهلـة، ثـم سـمعنا جلبـةً رهيبـة كأنها طرطشـة، كأنَّ رجـلًا في حـذاء مطاطـي طويـل يخـوض في الوحـل. ثـم عـادَ ذلـك الصـوت الرميـم المضعضـع يُحدِّثنـا مِـن الجانـب الآخَـر للبـاب.

قـال: "افتـحَ البـاب وادفـع البـيرة عـبره، ولكـن قبـل ذلـك عليـك أن تفتـح كل العُلـب بنفسـك، فأنـا لـن أسـتطيع".

قال هنري: "حاضر، في دقيقة واحدة، لكن ماذا أصابك يا ريتشي؟".

أجابـه الصـوت، وكان متلهِّفًـا ونافِـدَ الصـبر بدرجـة رهيبـة: "لا تشـغل بالـك، فقـط ادفـع البـيرة مـن البـاب واذهـب!".

فقـال هـنري: "لم يَعُـد الأمـر قـاصرًا عـلى القطـط الميتـة، صحيـح؟"، وبـدا صوتـه حزينًـا. لم يَعُـد يرفـع كعـب المسـدس؛ بـل كان يوجِّـه الآن فوَّهَتـه للأمـام.

وفجـأة، في لمـح البـصر، ربـطَ عقـلي بـين نفـس الأمريـن اللَّذَيْـن ربـط بينهـما هـنري مـن قبـل، وربمـا حتَّـى فعـلَ ذلـك بينـما كان تيمـي يـروي لـه قصتـه. بـدت رائحـة التَّفسُّـخ والتَّحلُّـل تتضاعـفُ في منخـاريَّ عندمـا تذكَّـرتُ. فتاتـان صغيرتـان وعجـوز سِـكِّير يتبـع جيـش الخـلاص الخـيري قـد اختفـوا جميعًـا في البلـدة خـلال الأسـابيع الثلاثـة الأخـيرة تقريبًـا- جميعهـم اختفـوا في ظـلام الليـل.

قال الصوت: "ادفع البيرة وإلَّا سأخرج لكم وأحصل عليها بنفسي".

أشارَ هنري لنا بالتَّراجُع، ففعلنا.

أشهر مسدسه: "أظنُّ من الأفضل أن تخرج، يا ريتشي".

لم يحـدث أي شيء عندئـذٍ، ولكـن ليـس لوقـت طويـل. ولأقـول الحـق، بـدأتُ أشـعر كـما لـو كان الأمـر كلـه قـد انتهـى. ثـم اندفـع ذلـك البـاب للأمـام مفتوحًـا، بغتـةً تمامًـا وبقـوَّةٍ شـديدة بحيـث انبعـجَ للأمـام قبـل أن ينخلـع مرتطـمًا بالجـدار، ويظهـر مـن خلفـه ريتـشي.

كانـت ثانيـة واحـدة لا أكـثر، مجـرَّد ثانيـة مـرت قبـل أن نركـض أنـا وبـيرتي نازلـين الـدَّرج مثـل تلميذيـن صغيريـن، كل خطـوة ننـزل أربـع

أو خمـس درجـات، ثـم نخـرج مـن البـاب إلى الثلـوج في الخـارج، ونحـن ننزلـق ونتعـثَّر.

حـين صرنـا بالأسـفل سـمعنا هـنري يطلـق ثـلاث رصاصـات، وتَـرَدَّد صداهـا عاليًـا كأنهـا قنابـل في تلـك الرَّدهـات المغلَقَـة للمنـزل الملعـون الخـاوي.

مـا رأينـاه في مـدة الثانيـة أو الثانيتـين تلـك سـوف يبقـى معـي طـوال عمـري- أو مـا تبقَّـى لي منـه أيًّـا كان. كان أقـرب لموجـةٍ هائلـة مـن هُـلامٍ رمـادي، هُـلام لـه صـورة إنسـان وليـس بإنسـان، مُخلِّفًـا أثـرًا ممتـدًّا مـن مخـاطٍ لَـزِج.

غـير أن ذلـك لم يكـن أسـوأ مـا في الأمـر. كانـت عينـا ذلـك الـشيء مُسـطَّحتَيْن وصفراويـن وضاريتـين، لا تطـلُّ منهـما روحٌ إنسـانية بالمرة. كـما لم تكـن عينـين اثنتـين فقـط، بـل أربـع أعـين، وفي منتصـف ذلـك الـشيء تمامًـا، مـا بـين زوجَـيْ الأعـين خـطٌّ لِيفـيٌّ أبيـض لـه لحـمٌ قرنفـلي نابـض يُظهـر مـا خلفـه مثـل شِـقٍّ في بطـن خنزيـر.

كان ينقسم، تفهمني؟ كان ذلك الشيء ينقسم إلى اثنين.

لا أنـا ولا بـيرتي وجَّـه أحدنـا كلمـة واحـدة للآخـر بينـما نرجـع إلى المتجـر. لم أعـرف مـا الـذي كان يـدور في عقلـه، لكنـي أعـرف جيِّـدًا مـا الـذي كان يـدور في عقـلي أنـا: جـدول الـضرب. اثنـين في اثنـين أربعـة، وأربعـة في اثنـين ثمانيـة، وثمانيـة في اثنـين سـتة عـشر، وسـتة عـشر في اثنـين...

رجعنـا. وَثَـبَ كلٌّ مِـن كارل وبيـل بيلهـام واقِفَـيْن وأخـذا يُمطرانِنـا بالأسـئلة مبـاشرة. لم نُجِـب عليهـما، لا أنـا ولا بـيرتي. فقـط اسـتدرنا ناظِريـن نحـو البـاب، في انتظـار أن نـرى إن كان هـنري سـوف يطـلُّ علينا من وسـط هـذا الثلـج. كنـتُ قـد وصلـت لرقـم 32,768 في اثنـين، وهـي سـتكون نهايـة النـوع البـشري، وهكـذا جلسـنا هنالـك في الـدفء وسـط كل تلـك

البـيرة، في انتظـار أن نـرى أي الاثنـين سـوف يرجـع في نهايـة المطـاف؛ وهـا نحــنُ لم نــزل جالســين ننتظــر.

أتمنَّى أن يكون هنري هو مَن سيأتي. أتمنَّى ذلك بكل تأكيد.

ساحَةُ المعرَكَة

"سيد رينشو؟".

استوقفه صوتُ موظف الاستقبال وهو في منتصف المسافة إلى المصعد، فاستدار له رينشو بنَفاد صَبرٍ، وهو ينقل حقيبة سَفَرِه مِن يدٍ إلى الأخرى. المظروف الذي في جيب معطفه محشوٌّ بأوراق نقدية فئة العشرين والخمسين، تصدرُ عنه خشخشةٌ ذاتُ ثِقَل. أتمَّ المَهمَّة على ما يُرام، وكان الأجر ممتازًا- حتَّى بعد كَشْط نسبة الوسيط (15 بالمائة) لصالح المنظَّمة. والآن كان كل ما يريده حمَّامًا ساخنًا وكأسَ جِن وتونيك، ثم ينام.

"ما هذا؟".

"طَرد، يا سيدي. هلَّا وقَّعتَ لي بالاستلام؟".

وقَّع رينشو ونظر متفكِّرًا في الطرد المستطيل. كان اسمه وعنوانه مكتوبين على وريقة ملصوقة وبخطٍّ يَدٍ مائل لليسار ومُدبَّب النهايات

بـدا لـه مألوفًـا. هـزَّ الحزمـة قليـلًا عـلى سـطح مكتـب الاسـتقبال مـن الرخـام المقلَّـد، وأصـدر شيءٌ مـا مِـن داخلهـا قعقعـةً مكتومـة.

"هل أرسلها لك بالأعلى، سيد رينشو؟".

"كلَّا، سـآخذها معـي". كان الطَّـرد حـوالي ثمـاني عـشرة بوصـة مـن جانبـه الطويـل فحملـه بغـير ارتيـاحٍ تحـت إبطـه. وضعـه عـلى السـجادة المخمليـة التـي تغطِّـي أرضيـة المصعـد وأدارَ مفتاحـه في فُرجـة أعـلى المسـتطيل المعتـاد لأزرار بقيـة الطوابـق، فُرجـة مفتـاح جناحـه الخـاص أعـلى البنايـة. ارتفـع المصعـد بـه في سَلاسَـةٍ وصمـت. أغمـض عينيـه وتـرك أحـداث المَهمَّـة تُعـرَض مُجـدَّدًا عـلى الشاشـة المعتمـة لعقلـه.

أولًا، وكـما هـو الحـال عـلى الـدوام، اتصـال مِـن كال بيتـس: "هـل أنـت متـاح، يـا چـوني؟".

كان متاحًـا مرَّتَـين في العـام، بأجـر عـشرة آلاف دولار حـدًّا أدنى. كان ماهـرًا للغايـة، وجديـرًا بالثقـة للغايـة، لكـنَّ موهبتـه التـي لا تُخطـئ في الافـتراس هـي الـشيء الـذي كان عمـلاؤه يدفعـون مقابلـه. كان چـون رينشـو صقـرًا بشريًّـا، أهَّلَتـه الچينـات الوراثيـة والبيئـة ليـؤدِّي مَهمَّتَـين عـلى أكفـأ نحـو: أن يَقتـل وأن يُفلـت.

بعـد اتصـال بيتـس، وصـل إلى صنـدوق بريـد رينشـو ظـرفٌ رسـميٌّ بلـونٍ بُنِّـيٍّ فاتـح، وفيـه اسـم وعنـوان وصـورة فوتوغرافيـة. عهـدَ بهـا جميعًـا لذاكِرَتـه؛ ثُـمَّ أسـقط رمـاد الظـرف المحـترق بمحتوياتـه في سـلَّة المهمـلات.

في هـذه المهمـة كان وجهًـا شـاحبًا لرجـل أعـمال مِـن ميامـي يُدعَـى هانـز موريـس، مؤسِّـس ومالِـك شركـة لعـب أطفـال موريـس. وقـد أرادَ شـخصٌ مـا أن يتخلَّـص مِـن موريـس فتوجَّـه إلى المنظمـة، وبدورهـا تحدَّثَـت المنظمـة إلى چـون رينشـو، ممثَّلـة في شـخص كالڤـن بيتـس. ثـم طـاخ! ثـم نعـيٌ في الصحـف، ويُرجَـى مـن المعزِّيـن عـدم إرسـال الزهـور.

انفتـح مصراعـا البـاب عـلى الجانبـين، رفـعَ طـرده وخـرج. فتـح بـاب جناحـه ودخـل. في هـذا الوقـت مـن اليـوم، بعـد الثالثـة عـصرًا بقليـل، كانـت غرفـة المعيشـة الواسـعة تسـتحمُّ في ضـوء شـمس أبريـل. توقَّـف لحظـة ليسـتمتع بهـا، ثـم وضـع الطَّـرد عـلى طـرف طاولـة مجـاورة للبـاب وفـكَّ ربـاط عنقـه. أسـقطَ المظـروف فوقهـا وسـارَ نحـو الشرفـة.

دفـع البـاب الزجاجـيَّ المُنزَلِـق ودخـل الشرفـة. كان الجـوُّ بـاردًا، والريح تشـقُّ طريقهـا عـبر معطفـه الخفيـف. غـير أنـه لبـث بُرهـةً هنالـك، يرنـو للمدينـة مـن أعـلى كـما قـد يسـتطلع قائـد جيـش بلـدةً وقعـت أسـيرةً بـين يديـه. ازدحمـت السـيارات المـارَّة في الشـوارع كأنهـا مجـرَّد خنافـس. وبعيـدًا للغايـة، يبـدو جـسر خليـج سـان فرانسيسـكو لامعًـا كأنـه سراب رَجُـلٍ مجنـون، يـكاد يُدفَـن في ضبـاب الأصيـل الذهبـي. أمَّـا جهـة الـشرق، فـكل شيء مَخفـي وراء البنايـات الشـاهقة في وسـط المدينـة، تلـك العمائـر السـكنية القـذرة والمكتظَّـة بالنـاس، تُكلِّلهـا غابـاتٌ مِـن هوائيـات التليفزيـون مـن الصُّلـب المقـاوم للصـدأ. مِـن الأفضـل لـه أن يكـون بالأعلى هُنـا، أفضـل كثـيرًا مِـن العيـش في البالوعـات والمجاريـر.

عـادَ إلى داخـل الجنـاح، وجـرَّ البـاب فأغلقـه، ودخـل إلى الحـمام مِـن أجـل حـمامٍ سـاخن طويـل.

حينَـما جلـسَ بعـد خمـسٍ وأربعـين دقيقـة ليتفقَّـد طـرده، ومشروبـه في يـده، كانـت الظِّـلال قـد زحفـت واحتلَّـت نصـف مسـاحة السـجَّادة النبيذيَّـة وقـد انقـضى معظـم الأصيـل.

كانت قنبلة.

بالطبـع لم تكـن قنبلـة، ولكـن عليـه (هـو بالـذات) أن يتعامـل كـما لـو كانـت كذلـك، فلهـذا السـبب ظـلَّ (هـو بالـذات) حيًّـا يمـشي عـلى قدميـه ويتنفَّـس ويتغـذَّى، بينـما ذهـبَ كثـيرون غـيره إلى مكتـب البطالـة الهائـل الـذي في السـماء.

لـو كانـت قنبلـة، فإنهـا غـير مؤقَّتـة. ظـلَّ ذلـك الـشيء سـاكنًا هنـاك في صمـتٍ مُطبِـق؛ غامضًـا وغـير مبـالٍ. لكـن عـلى أي حـال، صـارت القنابـل البلاسـتيكية هـي الأكـثر رواجًـا في تلـك الأيـام، فهـي أضمـن وأضبـط مِـن نوابـض السـاعات التـي تُصنِّعهـا شركات وسـتكلوكس وبيـج بـين.

نظـرَ رينشـو إلى خاتـم البريـد. ميامـي، 15 أبريـل. منـذ خمسـة أيـام. وهكـذا فـإن القنبلـة لم تكـن مضبوطـةً عـلى وقـتٍ مُحـدَّد، وإلَّا لانفجـرت في خزانـة أمانـات الفنـدق.

ميامـي. نَعـم. وذلـك الخـطُّ المائـل حـادُّ الزوايـا. كانـت هنـاك صـورة فوتوغرافيـة مؤطَّـرة عـلى مكتـب رجـل الأعـمال الشـاحب، صـورة حيزبـون عجـوز أشـدَّ حتَّـى شـحوبًا مِـن القتيـل، تضـع عـلى رأسـها وشـاحًا مُزركَشًـا معقـودًا. وثمـة كتابـة بخـطٍّ مائِـلٍ حـادِّ الزوايـا عـلى حافَّـة الصـورة الدنيـا: "أفضـل الأمنيـات مِـن أفضـل فكـرة لـك عـن الفتيـات- مامـا".

تُـرى، يـا مامـا، أي نـوعٍ مِـن أفضـل فكـرة في هـذا الطـرد؟ مجموعـة أدوات لإعـداد هَـلاكَك بنفسـك؟

رمـقَ الطـردَ بتركيـزٍ تـام، دون أن يُبـدي حـراكًا، بيديـن مطويَّتَـيْن. لم تعترضـه أسـئلة طارئـة ليـس هـذا وقتهـا، مِـن قبيـل كيـف عـسى لمامـا أو أفضـل فكـرة عـن الفتيـات عنـد الأخ موريـس أن تكتشـف عنوانـه. سـيحين لهـا وقتهـا، وسـوف يطرحهـا عـلى كال بيتـس، لكـن لا أهميـة لهـا الآن.

وبحركـة مفاجئـة، تـكاد تكـون غـير واعيـة، أخـرجَ مِـن محفظـة نقـوده بطاقـة روزنامـة صغـيرة ومغلَّفـة بالسِّـلولويد وأقحمهـا برشـاقة ورفـق تحـت الدُّوبـارة المعقـودة حـول ورقِ التغليـف البُنِّـيِّ. مـرَّ بالبطاقـة تحـت الشريـط اللاصـق الـذي يلصـق طيَّـةً مُثلَّثـة للـورق، فانفكَّـت الطَّيَّـة وارتخـت أمـام الدوبـارة.

توقَّـف لوهلـة، مكتفيًـا بالمُراقَبَـة، ثـم انحنـى قريبًـا وتشـمَّم. روائـح كرتـون وورق وخيـط. لا شيء أكـثر. دار حـول الصنـدوق، وأقعـى بسـهولة

معتمـدًا عـلى وَرِكَيـه، وكـرَّر العمليـة ثانيـة. كان الغسـق يغـزو شـقَّته بأصابـع رماديـة ظليلـة.

انفلتـت إحـدى طيَّـات ورق التغليـف وتحـرَّرَت مـن خيـط الدوبـارة المُحكَـم، وكشـفت مِـن تحتهـا صنـدوق أخـضر باهتًـا. صندوقًـا معدنيًّـا ذا مفصـلات. تنـاولَ مطـواةَ جَيـبٍ وقطـع خيـط الدوبـارة، فسـقطَ مفكـوكًا، وبضربـات مسـاعدة قليلـة بطـرف المطـواة انكشـف الصنـدوق تمامًـا.

كان أخـضر بعلامـاتٍ سـوداء، مـع كتابـة مطبوعـة على واجهتـه بحروف بيضـاء: كتيبـة ڤيتنـام چـي آي چـو[1]. وتحـت ذلـك: عـشرون جنـدي مُشـاة، عـشر طائـرات هليكوبـتر، عـشرون جنديًّـا ببنـادق أوتوماتيكيـة، جنديَّـان بمدافـع البـازوكا، مُسـعِفان، 4 سـيارات چيـب. وتحـت ذلـك: أعـلام قابلـة لِلَّصـق. وتحـت ذلـك، في الرُّكـن: شركـة موريـس لألعـاب الأطفـال، ميامـي، فلوريدا.

مدَّ يده متلمسًا، ثم سحبها. شيءٌ ما تحرَّك في الصندوق.

نهـض رينشـو واقفًـا، بـلا تَعجُّـل، وتراجـع عـبرَ الغرفـة نحـو المطبـخ والطرقـة. أضـاء المصابيـح الكهربائيـة.

إن صنـدوق الكتيبـة الڤيتناميـة كان يرتـجُّ في موضعـه؛ مـا جعـل ورق التغليـف مِـن تحتـه يُخَشـخِش. وفجـأة فقـد الصنـدوق توازُنَـه وسـقط عـلى السـجادة في صـوت رضَّـةٍ مكتومـة، واقعًـا عـلى أحـد أطرافـه الرفيعـة، غـير أن الطـرف ذا المفصـلات انفـرجَ قليـلًا عـن شِـقٍّ قـد لا يزيـد عـلى البوصتـين.

بـدأ يزحـف خـارج الصنـدوق جنـودٌ مُشـاة صغـار، طـول الواحـد منهـم بوصـة ونصـف. راقبهـم رينشـو دون أن تطـرَف لـه عـينٌ. لم يبـذل عقلـه أيَّ

(1) G.I. JOE: اسـم شـهرة لمجموعـات دُمـى للأطفـال، رائجـة منـذ سـتينيات القـرن العشريـن في أمريـكا، تُمثِّـل مجموعـات شـخصيات إثـارة وحركـة مـن إنتـاج شركـة ألعـاب هسـبرو، وتتضمَّـن منتجاتهـا جنـود وأسـلحة الفـروع الأربعـة المختلفـة للقـوات المسـلحة الأمريكيـة.

جَهدٍ لكي يُميِّز ما الجانب الحقيقي وما الجانب الوهمي فيما يبصر- فقد انشغلَ بالعواقب المحتَملَة لما يرى وتهديدها لحياته.

كان الجنود مرتدين زِيَّ قتالٍ مصغَّر، وعلى رؤوسهم الخوذات، وعلى ظهورهم حقائب لوازم الميدان، وتتدلَّى من أكتافهم بنادق قصيرة دقيقة الحجم. عبرَ الغُرفة، ألقى اثنان منهم نظرةً سريعة نحو رينشو. التمعت أعينهم التي ليست أكبر من سِنِّ قلم رصاص.

خمسة، عشرة، اثنا عشر، ثم العشرون جميعهم. أحدهم كان يومئ ويشير ويُوجِّه الأوامر للآخرين. اصطفُّوا على امتداد الشقِّ الذي صنعه سقوط العلبة وأخذوا يدفعون معًا فأخذ الشق يتَّسع.

رفعَ رينشو إحدى الوسائد الكبيرة عن الأريكة وأخذَ يسير نحوهم. التفتَ الضابط الآمِر وأومأ نحوه، فاستدار الآخرون ونزعوا بنادقهم مِن أكتافهم. صدرت أصوات فرقعة ضئيلة للغاية، تكاد تكون رقيقة هشَّة، وأحسَّ رينشو فجأة كما لو كان لَدَغَه النَّحل.

رمى الوسادة فَارتطمت بهم ودفعتهم فتناثروا وانتشروا، ثم ارتطمت بالصندوق وفتحته على اتِّساعه. سحابةٌ مِن طائرات هليكوبتر مُنَمنَمَة، مطليَّة بأخضر زيتي، خرجت مِن الصندوق وحلَّقت، مِثل سربٍ مِن الحشرات، بصوت طنين حادٍّ وخافت كأنها براغيث.

فرقعة واهنة! طك! بلغت الأصوات أذنَيْ رينشو ورأى ومضاتٍ بحجم رؤوس الدبابيس تصدر من أبواب المروحيات المفتوحة، وانغرست إبرٌ في بطنه، وفي ذراعه اليُمنى، وفي جانب عنقه. مدَّ أصابعه كالمخالب وأمسك بإحداها- ألمٌ مباغِت في أصابعه؛ ودمٌ يطفر منها. الشفرات الحادة المدوِّمة للمروحيات قطَّعت أصابعه حتى بلغت عِظامَها، تارِكةً علامات نهشٍ قرمزيَّة مائلة. ابتعدت الطائرات الأخرى عن مجاله، وأخذت تدور حوله مِثل ذباب الخيل. سقطت المروحية المحطَّمة على السجادة ومكثَت هناك جامدة.

أحسَّ بألمٍ مُبرّح في قدمه دفعه لأن يصرخ. كان أحد جنود المشاة مرتكزًا على حذائه بينما يطعن كاحله. تطلّع الوجه الصغير نحوه، لاهثًا مكشِّرًا.

ركله رينشو بعيدًا فطارَ الجسد الدقيق عبرَ الغرفة حتَّى ارتطم بالجدار فترَكَ لطخة هناك، لم يخلِّف دمًا بل بقعة بنفسجية لَزِجَة.

ثم انبعث صوتُ انفجارٍ صغيرٍ كالسُّعال ومزَّق فخذه ألمٌ بالغ يُعشي البصر. كان أحد رجال البازوكا قد خرج من العُلبة، وارتفعت من سلاحه في كَسَلٍ ضَفيرةُ دخان. خفض رينشو بصره نحو قدمه ورأي ثقبًا مسودًا مدخَّنًا في سرواله بحجم عُملَة معدنية صغيرة، كان اللحم من تحته متفحِّمًا.

ابن الحرام الصغير فتح عليَّ النار!

استدار وركض في الرَّدهة ثم نحو غرفة نومه. واحدة مِن المروحيات أزَّت بجوار وجنته، بينما شفرات مروحتها تدوِّم هادِرةً. انطلقت منها دفقة صغيرة مِن إحدى البنادق الأوتوماتيكية، ثم اندفعت مبتعدة.

كان المسدَّس الموضوع تحت وسادته مِن نوع ماجنوم 44. وكبيرًا بما يكفي لأن يصنع فجوة بحجم قبضتَيْن في أي شيءٍ يُطلَق عليه. استدار رينشو، وهو مُمسِكٌ بالمسدَّس بكلتَا يديه. أدركَ بهدوء أنه سوف يطلق على هدفٍ متحرّك ليس أكبرَ من لمبة صغيرة طائرة.

حوَّمت مروحيَّتان داخِلَتَيْن للغرفة. جالسًا على الفراش، أطلق رينشو رصاصة. انفجرت إحدى المروحيَّتين فصارت هباءً منثورًا. ذلك يجعلهما اثنتين مُحطَّمَتَيْن، هكذا فكَّر. أحكمَ التصويب على الثانية... وضغطَ الزناد... اللعنة! اهتزَّت وارتجَّت!

انقضَّت عليه مروحية بمنحنى مفاجئ قاتل، وأخذت تلك اللُّعب الصغيرة تُدَوِّم فوق رأسه للأمام والوراء بسرعة لاهثة. لمحَ رينشو

خطفًا أحد الرجال المسلَّحين ببنادق آلية وقد أقعى عند الباب المفتوح لمقصورة المروحية، ويطلق من سلاحه دفعات قصيرة مُميتة، فألقى رينشو نفسه على الأرض وأخذ يتقلَّب.

عيناي، ابن الحرام كان يصوب على عينيَّ!

ارتمى على ظهره عند الجدار البعيد، ممسكًا بالمسدس عند مستوى صدره. غير أنَّ المروحية تقهقرت، بدا أنها توقَّفت لوهلة ثم غطست للأسفل؛ اعترافًا بتفوُّق القدرة النارية لسلاح رينشو. ثم ذهبت بعد ذلك، رجوعًا نحو غرفة المعيشة.

نهضَ رينشو، وقد جفلَ فزعًا إذ اعتمدَ بثقله على الساق الجريحة. كان الدَّمُ ينزف منها مِدرارًا. ولِمَ لا؟ هكذا فكَّر مُغتمًّا. كَم من الناس قد يُصاب إصابةً مباشرة بقذيفة بازوكا ويظلُّ حيًّا ليحكي عن الأمر.

إذَن فقد كانت ماما هي أفضل فكرة عن الفتيات لديه، ألم تكن كذلك؟ كانت ذلك كله وزيادة.

أفرغَ وسادةً صغيرة مِن كيسها ومزَّقه وعمل منه ضِمادَةً لساقه، ثم تناول مرآةَ الحلاقة عن منضدة الزينة وذهب نحو الباب المؤدِّي للرُّواق. راكعًا، دفعَ المرآة للخارج على السجادة بزاوية مائلة وتطلَّع فيها.

كانوا يقيمون معسكرهم بجانب الصندوق، بالطبع كانوا يفعلون. جنودٌ مصَغَّرون ينتشرون ويتحرَّكون مِن هنا إلى هناك، ينصبون الخيام. سيارات جيب بِطول بوصتين تجري في الأنحاء بإحساس الأهمية. ورجل إسعاف كان يعتني بالجندي الذي ركله رينشو. والمروحيَّات الثماني المتبقية تُحلِّق في سِربٍ حمايةً فوقهم، على مستوى منضدة القهوة الصغيرة.

فجأة انتبهوا للمِرآة، وركعَ ثلاثة جنود مُشاة على رُكَبهم وشرعوا في إطلاق الرصاص. ما هي إلَّا ثواني بعد ذلك وتكسَّرَت المرآة متناثِرةً في أربعة مواضع. أوكي، أوكي، ماشي.

عادَ رينشو إلى منضدة الزينة وأحضر صندوقًا ثقيلًا من خشب الموجنا يحتفظ فيه بأشياء صغيرة متنوِّعة كانت قد أهدته له ليندا بمناسبة الكريسماس. رفعه مختبراً وزنه، وأومأ في رضا، وذهب إلى فتحة الباب واندفع خلاله. اندفع وأطلق الرصاص عليهم مثل لاعب بيسبول يرمي كرةً سريعة، وكان الصندوق نصرًا خاطفًا مُحقَّقًا فقد حطَّم الرجال الصغار كما لو كانوا قناني خشبيَّةً أمام كرة البولِنج الثقيلة. إحدى سيارات الجيب انقلبت مرَّتَين. تقدَّم رينشو نحو مدخل غرفة الجلوس، مُسدِّدًا نحو أحد الجنود المنتشرين حتَّى أرداه.

تعافى عدد كبير مِن الآخرين. بعضهم راكِعٌ على ركبته ويطلق النار بهيئة رسميَّة وقورة، وغيرهم اتَّخذوا سواتِرَ، بينما آثر آخرون الانسحاب إلى داخل صندوقهم المعدني.

بدأت قَرصات النحل تُمطر ساقيه وجذعه، لكنَّ أيًّا منها لم تصل أعلى من قفصه الصدري. ربما كان النطاق أوسع مِن أن تبلغه رمياتهم. لم يهتم؛ فلم يكن لديه أي نية للتراجع أو الهرب. حُسمَ الأمر.

طاشت رميته الثانية، فقد كان الملعونون صغارًا جدًّا جدًّا، غير أنَّ الرمية التالية أطارت جنديًّا آخَرَ فانبطحَ مُكَسَّرًا.

كانت المروحيات تُحلِّق صوبه وهي تطنُّ بعنفٍ وضراوة، وقد أخذت الطلقات الضئيلة الآن ترتطم بوجهه، فوق عينيه وتحتهما. قبضَ على المروحية القائدة للسِّرب، ثم على الثانية. ضبَّبت رؤيته شرائط مُسنَّنة مِن الألم.

انشقَّ سِربُ المروحيات السِّتِّ المتبقية إلى جناحين متراجِعَيْن. كان وجهه مُبلَّلًا بالدماء، فمسحه بساعده. كان متأهِّبًا لإطلاق النار من

جديد عندما ثبتَ متوقِّفًا. الجنود الذين تراجعوا ودخلوا إلى صندوقهم قد خرجوا الآن وأخذوا يدحرجون شيئًا ما. بدا ذلك الشيء مِثل...

انبعث أزيز سريع عن نار صفراء تعمي البصر، وانفجرت مِن الحائط على يساره كتلةٌ من الخشب والجبس.

... مِثل قاذفة صواريخ!

صوَّب نحوها رميةً لم تُصِبها، فاستدار وركض نحوَ الحمَّام في طرف الرَّدهة البعيد. ردَّ الباب بشدَّة خلفه ثم قفله بالمزلاج. طالَعَه في مِرآة الحمَّام وجهُ مُحارِب مِن الهنود الحُمر بعينين مذهولتين ملتاعتين، هندي أطارت المعركة صوابه وقد ارتسمت على وجهه شرائط رفيعة مِن طلاءٍ أحمر نازفٍ، تمتدُّ نازِلةً مِن ثقوب ليست أكبر من حبَّات الفلفل، وتدلَّت مِزقَةٌ مُتهرِّئة مِن جلده على إحدى وجنتيه، وفي عنقه تغضُّنٌ أجوفُ.

إنني أخسر المعركة!

مرَّر يدًا مُرتعشة خلال شَعره. قُطِعَ أمامه الطريق إلى الباب الأمامي، وكذلك إلى الهاتف أو رُكن الطَّبخ. كان لديهم قاذفة صواريخ لعينة وإصابة مباشرة يمكنها أن تنزع رأسه مِن جسده.

اللعنة، لم يكن ذلك حتَّى مكتوبًا على الصندوق!

بدأ يأخذ شهيقًا طويلًا غير أنه أطلقه بنَخرَةٍ مباغتة عندما انخلع جزءٌ مِن أسفل باب الحمام بحجم قبضة يد واندفعت للداخل كتلة متفحِّمة من الخشب. لوَهلة وَمَضَت ألسنةُ لهبٍ صغيرة للغاية حول الحواف المسنَّنة للفجوة التي في الباب، ورأى بريقًا ساطعًا إذ أطلقوا رميةً أخرى. اندفع مزيدٌ مِن الخشب إلى الداخل، وتناثَرَت قِطَعٌ فضِّيَّة ملتهبة على سجادة الحمَّام، فداسَها بقدميه ليطفئها بينما

مـرَّت عـبر الفجـوة مروحيَّتـان تهـدران في غضـب. طلقـات متتاليـة مِـن بندقيـة أوتوماتيكيـة خاطـت صَـدره مثـل إبـرٍ متسـارعة.

مـع أنـين متوجِّـع وزمجـرة غضـب حطَّـم إحـدى المروحيَّتـين وهـي في الهـواء بيـده المجـرَّدة، مُتحمِّـلًا سلسـلة الشَّرطـات القصـيرة العميقـة التـي ارتسـمت عـلى راحتـه مثـل سـياج حديقـة. وفي نوبـة كَشـفٍ يائسـة داهمتـه، ألقـى منشـفة اسـتحمامٍ ثقيلـة فـوق المروحيـة الثانيـة. سـقطت عـلى الأرض ملتويـة متمعِّجـة، فأخـذ يدوسـها حتـى خمـدت الحيـاة فيهـا. كانـت أنفاسـه تخـرج في شـهقات خَشِـنة، والـدم يسـيل عـلى إحـدى عينيـه، سـاخنًا ولاسـعًا، فمسـحه عنهـا.

هكذا، يا ملاعين. هكذا. سوف يجعلكم هذا تفكِّرون.

ويبـدو حقًّـا أنَّ هـذا جعلهـم يفكِّـرون. لم تَبـدر عنهـم حركـة لنحـو خمـسَ عـشرةَ دقيقـة. جلـس رينشـو عـلى حافَّـة حـوض الاسـتحمام، بأفـكارٍ محمومـة. لا بـدَّ مِـن وجـود وسـيلة مـا للخـروج مِـن هـذا الزُّقـاق المسـدود، لا بـدَّ مِـن وجودهـا. لـو أنَّ لديـه فقـط طريقـة لتجنُّبهـم...

واسـتدار فجـأة ونظـر نحـو النافـذة الصغـيرة فـوق حـوض الاسـتحمام. نَعـم، تُوجَـد وسـيلة. بـكل تأكيـد تُوجـد وسـيلة.

وقعـت عينـاه عـلى عُلبـة صغـيرة لسـائل مَـلء الولَّاعـات فـوق خزانـة الأدويـة. كان يمـدُّ يـده يتناولهـا حـين سـمع الحفيـف.

دارَ بسرعـة، وهـو يشـهر مسدسـه الماجنـوم... لكنَّهـا لم تكـن أكـثرَ مِـن قصاصـة صغـيرة مـن الـورق دُسَّـت مِـن تحـت عقـب البـاب. كان العقـب، كـما لاحـظ رينشـو في غَـمٍّ، أضيَـقَ مِـن أن يَنفُـذَ عَـبرَه حتَّـى واحِـدٌ منهـم.

كانت هناك كلمة واحدة صغيرة مكتوبة على الورقة:

"استَسلِمْ".

ابتسم رينشو في ضيق ووضع سائل القدّاحات في جيبه فوق صدره. وجد إلى جانب السائل كعب قلم رصاص مُضَعضَع كأنه ممضوغ، فخربشَ كلمة واحدة على الورقة وردَّها إليهم مِن تحت عقب الباب. كانت الكلمة:

"مجانين".

عندئذٍ باغته وابلٌ يُعشي البصر مِن القذائف الصاروخية، فتراجعَ رينشو بعيدًا عن مرماها. مرَّت القذائف راسِمةً قوسًا عبر فجوة الباب وانفجرت على بلاطات الجدار فاتحة الزُّرقة فوق حامِل المناشِف، فجعلت الجدارَ الأنيق أقرب إلى صورة من سطح القمر ذي النُّقَر والتجاويف. حَمَى رينشو عينيه بإحدى يديه إذ تطايرت قطع الجصّ في مطرٍ ساخن من الشظايا. وتوالت الثقوب الحارقة مُمزِّقَةً قميصَه من قُبُل ومن دُبُر.

حينما توقَّف الوابل تحرَّك رينشو. صعدَ فوق حوض الاستحمام وانزلق نحو فتحة النافذة. أرسلت نجومٌ باردة نظرتها ترمقه. كانت نافذة ضيقة، ومِن تحتها إفريز ضيق، غير أنه ليس لديه وقت للتفكير في ذلك.

رفعَ نفسه ليمُرَّ عبرها، ولطمه الهواء البارد مِثل راحة يد مفرودة على وجهه ورقبته المنقوشين بالثقوب. كان محنيًّا للأمام معتمدًا على نقطة توازُن يديه، مُحدِّقًا للأسفل مباشرةً، حيث الأرض بعيدة بمسافة أربعين طابقًا. بدا الشارع مِن ارتفاعه هذا ليس أوسعَ مِن قضبان قطار لعبة أطفال. الأضواء الساطعة للمدينة كانت تومض وتنطفئ، لامعةً بجنون مِن تحته مثل جواهر مَرمية منثورة.

بسهولة خادعة وجديرة برياضيٍّ مُدرَّب مثل رينشو، رفعَ ركبتيه عاليًا ليستريحَ على الحافة المنخفضة للنافذة. إذا ما طارت الآن إحدى تلك المروحيَّات التي في حجم الدبابير عبرَ فجوة الباب فإنَّ رمية

واحـدة منهـا يتلقَّاهـا في مؤخِّرَتـه كفيلـة بإرسـاله للأسـفل مبـاشرة، صارخًـا طـوال رحلـة الأربعـين طابقًـا.

لكنَّ أيًّا منها لم يظهر.

التـوى وأخـرج سـاقًا واحـدة، ويـدًا امتـدَّت وتشـبَّثَت جيـدًا بالكورنيـش الـذي يعلـوه. بعـد لحظـة واحـدة كان واقفًـا عـلى الإفريـز خـارج النافـذة.

تجنَّـبَ عامـدًا التفكـير في الهـوَّة الرهيبـة أسـفل كعبيـه، كـما تجنَّـب التفكـير فيـما قـد يحـدث إن لاحقتـه إحـدى المروحيـات بطنينهـا إلى موضعـه هـذا. نقـل رينشـو خطواتـه عـلى الحافـة متَّجِهًـا نحـو زاويـة المبنـى.

بقيـت خمـسَ عـشرةَ خُطـوَة... عـشر خطـوات... ثـلاثٌ فقـط. توقَّـف، كان صـدره منضغطًـا إلى الجـدار، وراحتـاه مفرودتَـيْن على سـطحه الخشـن. كان بوسـعه أن يحـسَّ بعبـوة سـائل الولَّاعـات في جيبـه العلـوي، والثِّقَـل المُطَمئِن للمسـدَّس مدسوسًـا بـين نطـاق سرواله وخـصره.

عليه الآن أن يلتفَّ حول الزاوية الملعونة.

بهـدوء ورِفـق، دفـعَ إحـدى قدميـه حـول الزاويـة وأزاحَ ثِقَلَـه عليهـا. كانـت الزاويـة اليُمنـى الآن مضغوطـة مثـل حَـدِّ الشـفرة في صـدره وبطنـه. وجـدَ لطخـة ذُراق طائـرٍ مـا قبالـة عينيـه عـلى الحجـر الخَشِـن. ربَّـاه، فكَّـر في جنـون، لم أكُـن أعلـم أنهـا تسـتطيع الطـيران حتَّـى هـذا الارتفـاع.

زَلَّت قدمه اليسرى بعيدًا عن موضعها.

وللحظـة عجيبـة توقَّـف فيهـا الزَّمـن، تزعـزع وتمايَـلَ فـوق شـفير الهاويـة، وذراعـه اليُمنـى تُرَفـرِف للخلـف بجنـونٍ لاسـتعادة التـوازن، ثـم كان يقبـض عـلى كلا جانِبَـيْ المبنـى في عنـاق عاشـق، ووجهـه مضغـوط عـلى الزاويـة الحـادَّة الصُّلبـة، وقـد تهدَّجـت أنفاسـه في رئتيـه خروجًـا ودخـولًا.

قليـلًا قليـلًا في كل مـرة، نقـلَ قدمـه الأخـرى للجانـب الآخَـر مِـن زاويـة المبنى.

عـلى مسـافة ثلاثـين قدمًـا كانـت شرفـة غرفـة جلوسـه ناتِئـةً عـن الجـدار.

اتَّخـذ طريقـه نحوهـا، وأنفاسـه تنزلـق شـهيقًا وزفـيرًا مـن رئتيـه بقـوة ضَحلَـة. اضطـرَّ للوقـوف مرَّتَـيْن حـين حاولـت هبَّـات هـواء حـادة أن تقتلعـه بعيـدًا عـن الحافَّـة.

ثـم وجـدَ نفسـه هنالـك أخـيرًا، قابضًـا عـلى درابزيـن الحديـد المطـروق في زخـارف.

اعتـلى الدرابزيـن دونمـا أي جلبـة. كان قـد تـرك السـتائر نصـف مُسـدَلة أمـام جانبَـيْ البـاب الزجاجـي الجـرَّار، والآن نظـر للداخـل وكلـه حـذر. كانـوا كـما أرادهـم تمامًـا- مُوَلِّـين الأدبـار لـه.

تُـرِكَ أربعـة جنـود ومروحيـة لحراسـة صندوقهـم المعـدني بمـا فيـه، وعـلى هـذا فـإن مَـن تبقَّـى مِنهـم كانـوا مرابطـين أمـامَ بـاب الحـمَّام مع قاذفـة الصواريـخ.

تمـام. عليـه أن يقتحـم فتحـة الشرفـة بعنـف مثـل رَجُـل عصابـات، وأن يحطِّـم الجنـود بجانـب الصنـدوق المعـدني، ثـم إلى بـاب الشـقة مبـاشرة. وبعـد ذلـك سـيارة أجـرة سريعـة إلى المطـار، ومنـه يطـير إلى ميامـي لـكي يعـثر عـلى المامـا، أفضـل فكـرة عـن الفتـاة لـدى السَّـيِّد موريـس. فكَّـر في أنـه قـد يحـرق وجههـا بقاذفـة لهـب، سـيكون هـذا جـزاءً مِـن جِنـس العَمـل.

خلـع قميصـه ومـزعَ شريطًـا طويـلًا مـن أحـد كُمَّيْـه. أسـقط مـا تبقـى منـه فرفـرفَ مهلهـلًا لـدى قدميـه، وأزالَ الغطـاء البلاسـتيكي الصغـير عـن علبـة سـائِلِ مـلء الولَّاعـات. حـشرَ أحـد طـرفي الشريـط القـماشي بداخـل

العُلبـة، وسـحبه، وحـشر الطـرف الآخـر بالداخـل بحيـث يكـون يتـدلّى منـه حُـرًّا شريـطٌ قُطنـيٌّ مُبلَّـل بطـول سـت بوصـات فقـط.

أخـرجَ ولَّاعتـه، وأخـذ نفسًـا عميقًـا، وضغـط عـلى عجلتهـا. أمـالَ لسـان اللهـب نحـو خرقـة القـماش المبللـة وفي نفـس اللحظـة التـي اشـتعلت باللهـب أزاح مـصراع البـاب الزجاجـي وفتحـه واندفـع للداخـل عـبره.

عـلى الفـور اسـتجابت المروحيـة بـردِّ الفعـل، وغطسـت نحـوه في حركـة انتحاريـة إذ هجـم هـو عـبر السـجادة، تتسـاقط منـه بقـعٌ ورشاشـات مِـن نـارٍ سـائلة. هجـم رينشـو هجومًـا مبـاشرًا، حتَّـى إنـه لم يلحـظ إلا بالـكاد رَجَّـة الألم التـي سَرَت عـبر ذراعـه حـينَ قطَّعـت الشـفرات الـدوَّارة للمروحيـة لحمـه وزخرفتـه جراحًـا مفتوحـة.

انتـشر جنـود المشـاة الصِّغـار عـلى الفـور واختبـؤوا داخـل الصنـدوق المعـدني. بعـد ذلـك، وقـع كل شيء بسرعـة خاطفـة.

صـبَّ رينشـو سـائل الولَّاعـات، اشـتعلت العلبـة وتحوَّلـت إلى كـرة مـن اللهـب تحـرق مـا حولهـا. في اللحظـة التاليـة كان يسـتدير ليركـض نحـو بـاب الشـقة.

لم يعرف قَطُّ ولن يعرف أبدًا بماذا رَموه فأصابوه.

كان الأمـر أقـرب للخبطـة التـي قـد تُحدِثهـا خزانـة مـن الصُّلـب إذا مـا سـقطت مـن ارتفـاع معقـول، غـير أن هـذه الخبطـة تـردَّدَت عـبر كامـل المبنـى السـكني شـاهق الارتفـاع، مُقرقعـةً إطارهـا الصُّلـب مثـل تَـردُّد شـوكة رنَّانـة.

كان بـاب جنـاح السـطح الفاخـر قـد انفجـر منخلعًـا عـن مفصلاتـه وتهشـم قطعًـا في الجـدار البعيـد.

كان رجلٌ وامرأة يسيران يدًا في يد بالأسفل أمام المبنى، فرفعا ناظريهما يتطلَّعان في اللحظة المناسبة ليريا وميضًا أبيض هائلًا للغاية، كما لو مائة آلة وميض للتصوير انطلقت معًا في اللحظة ذاتها.

قال الرجل: "الكهرباء ضربت في شقَّة أحدهم، على ما أظنُّ...".

سألت الفتاة: "لكن ما ذلك الشيء؟".

كان شيءٌ ما يُرَفرِف في تكاسُل نحوهما؛ فمدَّ هو يده وأمسك به. "ربَّاه، إنه قميص رجلٍ ما. ممتلئ بثقوبٍ صغيرة، وعليه دماء أيضًا".

فقالت في انفعال: "لا أرتاح لهذا. استَوقِفْ سيارة تاكسي، هه، يا رالف؟ سوف نضطرُّ للتحدُّث مع رجال الشرطة إذا وقع شيء هناك بالأعلى، ولا يُفترض أصلًا أن أخرج معك".

"صحيح، طبعًا".

نظر حوله، ورأى سيارة أجرى فصفَّر لها. ومَضَت أضواء مكابحها فركضا يقطعان الشارع نحوها.

ووراءهما، مِن غير أن يشاهد أحد، طَفَت في الهواء قصاصة ورق صغيرة جدًّا وهبطت حتَّى حطَّت قريبًا مِن بقايا قميص چون رينشو. كانت عليها كتابة بخط اليد المائل مُدبَّب الحروف:

"مرحبًا يا أطفال! خصِّيصًا وحصريًّا في هذه المجموعة لحرب ڤيتنام!

(فقط لفترة محدودة)



عدد واحد قاذفة صواريخ

عدد 20 صاروخ "إعصاري" أرض- جَوّ

عدد واحد نموذج مصغَّر مِن سلاح حراري- نووي".

شاحِنات

كان اسمُ الرجل سوندجراس وكنتُ أراه يتأهَّب لعملٍ مجنون. اتَّسعَت عيناه واستولى على حدقتيه البياضُ، مثل كلبٍ يتأهَّب لعِراك. كان الشابَّان اللذان دخلا إلى موقف انتظار السيارات منزلقين ومُتَدحرِجَيْن في سيارتهما الفيري القديمة يحاولان التحدُّث إليه، لكن رأسه كان مائلًا ومتصلِّبًا كما لو كان يسمع أصواتًا أخرى. كان له كَرشٌ صغير مُكتَنِز تكسوه بدلة جيدة يلتمعُ قماشها قليلًا مِن عند مِقعدته. كان مندوب مبيعات جوَّالًا واحتفظ بحقيبة عَرض بضائعه قريبةً منه، كأنها كلب أليف استغرقَ في النُعاس.

قال سائق الشاحنة الواقف عند الكاونتر: "جرِّب الراديو مرة أخرى".

طاهـي الوجبـات السريعـة رفـع منكبيـه بقلّـة حيلـةٍ وشـغَّل الراديـو، أخـذ ينتقـل بالمـؤشّر عـبر الأطـوال الموجيـة دون أن يحصـل عـلى شيء أكـثر مِـن الخروشـة والخشخشـة.

احتـجَّ سـائق الشـاحنة: "أنـتَ حرّكـت المـؤشّر أسرع مِـن الـلازم، ربمـا فَـوَّت شـيئًا".

فقـالَ الطاهـي: "أُف". كان رجـلًا مُسِـنًّا أسـود لـه بعـض أسـنان ذهبيـة ولم يكـن ينظـر نحـو سـائق الشـاحنة، بـل كان ينظـر نحـو سـاحة إيقـاف السـيارات عـبر الواجهـة الزجاجيـة الممتـدَّة بامتـداد المطعـم الصغـير.

وهنـاك بالخـارج كانـت سـبعُ أو ثمـاني شـاحنات نقـلٍ ثقيـل متوقِّفـة بينـما تزمجـر محرِّكاتهـا وهـي تـدور بحركـة بطيئـة بـدا هديرهـا مثـل صـوت قطـطٍ كبـيرة تَهِـرُّ وتخرخـر. كانـت هنـاك شـاحنتان مـن نـوع ماكـس، واثنتـان أخريـان مـن نـوع هيمنجـواي، وأربـع أو خمـس مـن نـوع ريـو. مقطـورات هائلـة، وسـيارات نقـل ضخمـة تسـافر بـين الولايـات المختلفـة بكثـيرٍ مِـن ألـواح الأرقـام والبيانـات وفـوق ظهورهـا تعلـو الهوائيـات الخفاقـة المرنـة.

كانـت سـيارة الصبيَّـيْن "الفـيري" مقلوبـة عـلى سـقفها عنـد نهايـة علامـات التَّدحـرُج اللولبيـة التـي تركتهـا العجـلات عـلى الصخـور الصغـيرة المفتَّتـة المنفلتـة لسـاحة الانتظـار. كانـت السـيارة قـد تحطَّمـت حتَّـى صـارت كَومـةَ خُـردَة لا نفـع فيهـا. عنـد مدخـل المنعطـف الخـاص بموقـف الشـاحنات، كانـت هنـاك سـيارة كاديـلاك مُدمَّـرة، وصاحبهـا يحـدِّق بنظـرة جامـدة خـارج الزجـاج الأمامـي المـشروخ عـلى شـكل نجمـة، ونظَّارتـه، بإطارهـا تقليـد العَظـم، متدلِّيـة مِـن إحـدى أذنيـه.

في منتصـف المسـافة مِـن موضـع السـيارة حتَّـى نهايـة سـاحة السـيارات كانـت جُثَّـة الفتـاة ذات الثـوب الزهـري راقِـدةً هنـاك. كانـت قـد قفـزت مِـن الكاديـلاك عندمـا رأت أنَّ السـيارة لـن تنجـو مِـن الهجـوم. كانـت قـد

انطلقـت تركـض، لكـنَّ نجاتهـا كان مسـتحيلة. كانـت إصابتهـا هـي الأسـوأ، حتـى وإن كانـت مقلوبـةً ووجهـا نحـو الأرض. اجتَمَعَـت حـول جُثَّتهـا سُـحُبٌ مِـن الذُّبـاب.

عـلى الناحيـة الأخـرى مِـن الطريـق سـيارة قديمـة مـن نـوع فـورد ستيشـن واجـن ارتطَمَـت بحواجـز الأمـان عـلى جانـب الطريـق. مـرَّت سـاعة واحـدة عـلى ذلـك. ولم يَمـرَّ أيُّ أحـد منـذ ذلـك الحـين. ليـس بوسـع أحـد أن يـرى بوابـة دفـع الرسـوم عـلى الطريـق السريـع مِـن واجهـة المطعـم، وكان الهاتـف خـارجَ الخدمـة.

كان سـائق الشـاحنة يواصـل احتجاجـه: " أنـتَ حرَّكـتَ المـؤشِّر أسرع مِـن الـلازم، عليـكَ أن...".

وفي هـذه اللحظـة انفجـرَ المَدعـو سـوندجراس. قلـبَ المائـدة ونهـض واقفًـا، فحطَّـم أقـداح القهـوة ونـثرَ السـكَّر في فـوضى عارمـة. كانـت عينـاه أشـدَّ ضَراوةً مِـن أيِّ وقـتٍ سـابق، وفمـه مفتوحًـا وفَكُّـه مُتدلِّيًـا رخـوًا، وأخـذت الكلـمات تتدافـع خارِجـةً منـه بـلا كابـح: "لا بـدَّ أن نخـرجَ مِـن هُنـا. لا بـدَّ أنخـرج نخرجهُنـا لابدَّنخرمِهُنـا...".

صاح الشاب وأخذت فتاته تصرخ.

كنـتُ جالسًـا عـلى مقعـدٍ مرتفـع هـو الأقـرب للبـاب، فقبضـتُ عـلى قطعـةٍ مِـن قيمصـه لكنـه مزَّقـه وانفلَـتَ. كان قـد بلـغَ منتهـاه ونفَـدَ صَـبرُه تمامًـا، وكان سـيمرُّ حتَّـى ولـو مِـن بـاب خزانـة مصفَّحـة في بنـك.

فتـحَ البـابَ بِدَفعَـةٍ عنيفـة ثـم ركـض بسرعـة خاطفـة عـبر السـاحة المفروشـة بالحـصى صـوب القنـاة الضيقـة لتصريـف الميـاه جهـةَ اليسـار. اندفعـت شـاحنتان خلفـه، ومدخناتهـما تطلقـان عـادمَ الوقـود بُنِّيًـا داكنًـا عـلى خلفيـة السـماء، بينـما تنـثر العجـلات الخلفيـة العملاقـة الحـصى وتدفعـه عاليًـا مِـن حولهـا مثـل طلقـات مدافـع آليـة.

لم يستطع أن يقطع أكثر مِن خمس أو سِت خطوات راكضة مِن حافة ساحة انتظار السيارات المسطَّحة عندما استدار ليلقي نظرة، وقد شخبطَ الخوف على وجهه، واشتبكت قَدَمُه اليسرى باليمنى فَتعثَّرَ وكاد يسقط استعاد توازنه مِن جديد، لكن كان أوانُ الهَرب قد فات.

أفسحَت إحدى الشاحِنَتَيْن السبيلَ فانقضَّت الأخرى، كانت الشَّبكَة الأمامية الضَّخمة تلتمع بهمجيَّةٍ في ضوء الشمس. صرخَ سوندجراس، خرجَ صوته عاليًا حادًّا، لكنه تبدَّد تقريبًا تحت هدير الديزل الثقيل لشاحنة الريو.

لم تُجَرجِره الشاحنة تحت مقدِّمَتها، ولو حدثَ هذا لكان أفضل كَما تبيَّن، فبدلًا مِن ذلك فقد قذفته عاليًا وبعيدًا كما قد يركل لاعبٌ كرةً في بداية مباراة بيسبول. وللحظةٍ قصيرة بدا مجرَّد كتلةٍ مُظلَّلة أمام سماء الأصيل الساخنة، فَكأنَّه فزَّاعة حقلٍ عاجزة عن الحركة، ثم اختفى تمامًا في قناة تصريف المياه.

ثم أطلقت مكابح الشَّاحِنة الكبيرة فحيحًا مثل أنفاس تنِّين، واتَّخَذَت عجلاتها الأمامية وضعَ الإغلاق، شاقَّةً أخاديد في قشرة الحصى التي تغطِّي أرض ساحة الانتظار، وتوقَّفَت قبل أن تميل مُقدِّمتها للأمام ببوصات قليلة. بنت الحرام.

صرخت الفتاة الجالسة في مقصورة الركن، وكلتا يديها تضغطان على وجنتيها وتشدَّان لحم وجهها للأسفل، فتجعله أقرب لقناع عرَّافة حيزبون.

سمعتُ صوتَ انكسار زجاج، التفتُّ فرأيتُ سائق الشاحنة قد اعتصر كأسه بيده حتَّى هشَّمه. لا أعتقد أنه أدرك ما حدث بعدُ. انسكب الحليب على الكاونتر الخشبي مع بضع قطرات مِن الدم.

كان الطاهي الأسود متجمِّدًا جنبَ جهاز الراديو، وفي يده خرقة تنظيف، وعلى وجهه تعبير ذهول. التمعَ ذهبُ أسنانه. وللحظة لم

يكـن هنـاك أي صـوت عـدا أزيـز سـاعة الويسـتكلوكس وهديـر محـرك شـاحنة الريـو إذ رجعـت لتنضـمَّ إلى رفيقاتهـا. ثـم أخـذت الفتـاة تبـكي وقـد كان هـذا مقبـولًا- أو عـلى الأقـل أفضـل.

كانـت سـيارتي لـدى المنعطـف لا تَبـينُ مِـن هُنـا، وهـي الأخـرى قـد تحطَّمـت تمامًـا. كانـت سـيارة كامـارو موديـل 1971، لا أزال أُسَـدِّد أقسـاط ثمنهـا، لكنـي لا أظـن أنَّ لذلـك أي أهميـة الآن.

لم يكن هناك أي إنسان في داخل تلك الشاحنات بالخارج.

انعكسـت الشـمس وومضـت لامِعـةً عـلى كبائـن قيـادة خاليـة، والعجـلات تديـر نفسـها بنفسـها. لا يمكنـكَ أن تطيـل التفكـير في الأمـر، فَسـوف تفقـد عقلـك إن فعلـت. مثـل سـوندجراس.

مـرَّت سـاعتان. بـدأت الشـمس رحلـة هبوطهـا. بالخـارج، أخـذت الشـاحنات تـدور بنظـام بحركـة بطيئـة في دوائـر أو أشـكال رقـم 8، وقـد أضيئـت فيهـا مصابيـح الإيقـاف ومصابيـح التشـغيل معًـا.

سِرتُ عـلى امتـداد الكاونـتر مرَّتَـيْن لأفـكَّ عُقَـد سـاقيَّ، ثـم جلسـتُ في مقصـورةٍ إلى جانـب الواجهـة الأماميـة الطويلـة. كانـت محطَّـة عاديـة لتَوَقُّـف الشـاحنات، قريبـة مِـن الطريـق السريـع متعـدِّد الحـارات، وتُوجـد بالخلـف منشـأة توفِّـر كافـة الخدمـات، كلًّا مِـن البنزيـن ووقـود الديـزل. يـأتي سـائقو الشـاحنات إلى هنـا لتنـاول كعكـة وشُرْب قهـوة.

"سيدي؟"، كان الصوتُ متردِّدًا.

التفـتُّ. كانـا الشَّـابَّيْن مِـن السـيارة الفـيري. بـدا الفتـى في نحـو الثامنـة عـشرة. كان شَـعر رأسـه طويـلًا، ولحيتـه بـدأت للتَّـوِّ تتَّضِـح وتنتـشر. وبـدت فتاتـه أصغـر منـه سـنًّا.

"نَعم؟".

"ماذا حدث لك؟".

رفعتُ منكبيَّ، وقلتُ: "كنتُ أقود سيارتي على الطريق بين الولايات قاصدًا بيلسون، رأيتُ شاحنةً آتية مِن خلفي بأقصى سُرعة لها، كان بوسعي رؤيتها في المِرآة مِن مسافة بعيدة، ويمكنك سماع صوتها مِن مسافة ميلٍ على الطريق. دَفَعت جانبيًا سيارة (خُنفسة) ڤولكس واجن، فدَفَعَتها خارج الطريق تمامًا بضربة سريعة من المقطورة، تمامًا كما قد تدفع بإصبعك كُرَةً من ورق عن منضدة. ظننتُ أنَّ الشاحنة سوف تنزلق عن الطريق هي أيضًا، فَلا يوجد سائق يمكنه أن يسيطر عليها بهذا الوضع بينما مقطورتها تتلوَّى مثل السوط. لكنها لم تختفِ. أما الخنفسة فقد راحت تتشقلب ستَّ أو سَبعَ مرات قبل أن تنفجر. والشاحنة كرَّرَت نفس الضربة مع السيارة التي أتت بعدها مباشرة. كانت تتَّجِه نحوي؛ فَعلى الفور أخذتُ أوَّلَ مُنحَدَر يخرج بي عن الطريق السريع". ضحكتُ، ولكن مِن غير قَلب. "لأجد نفسي هُنا، أمام محطَّة انتظار شاحنات، مِن بين كل الأماكن الأخرى. يعني هربتُ مِن الجمر للنار".

بلَعَت الفتاة ريقها، وقالت: "رأينا حافلة رُكَّاب تبع شركة جرايهاوند تسير صوب الشَّمال في الطريق المتَّجه نحو الجنوب. كانت... كانت تشقُّ طريقها... فوق السيارات الأخرى. انفجرت واحترقت ولكن بعد... بعد المجزرة".

حافلة رُكَّاب. كان هذا أمرًا جديدًا. ومخيفًا.

بالخارج، أُنيرت جميع الأضواء الأمامية فجأة في حركة مُوحَّدة، فأغرقت ساحة السيارات في وَهجٍ ضحل وغريب على نحوٍ مخيف. أخذت تسير للوراء وللأمام، بأصوات دَمدَمةٍ. بَدَت الأضواء الأمامية كأنها تمنحها عيونًا، وفي العَتَمَة المتزايدة، ظهرت صناديق المقطورات المُعتِمة مثل أكتاف مَحنيَّة ومربَّعة لعمالقة مِن عصور ما قبل التاريخ.

قال الطاهي: "هل مِن الأمان أن نُشعِلَ الأضواء؟".

فقلتُ له: "أشعِلْها واكتشِفْ".

نقر الأزرار في المقابس فأنيرت سلسلةٌ مِن كراتٍ بالسقف تُغطِّيها فضلات الذباب. وفي اللحظة ذاتها استردَّت حياتَها بتردُّد وتَلعثُمٍ لافتةُ نيون بالواجهة في الخارج: كونانت، استراحة شاحنات ومطعم- مأكولات شهية. لم يحدث شيء. واصَلَت الشاحنات دوريَّات طوافها كالحَرَس.

قال سائق الشاحنة: "لا أستطيع أن أفهم هذا". كان قد نزل عن مقعده المرتفع وأخذ يسير في المكان جيئةً وذهابًا، وقد ضمَّد يَدَه بوشاح رأس أحمر مزركش. "لم تكن عندي أي مشكلة مع شاحنتي المقطورة. إنها عجوزٌ طيِّبة. وقد توقَّفتُ هُنا بعد الواحدة بقليل لآكل طبق "إسباجيتي"، فيحدث كل هذا". لوَّح بذراعه فانفكَّ الوشاحُ الصغير عن يده. "شاحنتي هناك بالخارج الآن حالًا، إنها ذات المصباح الخلفي الضعيف، ظللتُ أسوقها سِتَّ سنوات. ومع ذلك فإذا خطوتُ خطوةً واحدة فقط خارج هذا الباب...".

قال الطاهي مِن خلف الكاونتر: "إنها البداية فقط". كانت جفونه بارزةً، وحَولَ عينيه ظِلالٌ داكِنَة. "لا بدَّ أنَّ الوضع خطيرٌ ما دام ذلك الراديو قد تعطَّل. إنها البداية فقط".

غاضَ لونُ وجه الفتاة فصار شاحبًا أبيض كالحليب. قلتُ للبائع: "لا عليك مِن ذلك، ليس هو المشكلة الآن".

تساءل سائق الشاحنة في قلق: "وماذا قد يكون سبب ذلك؟ عواصف كهربية في الغلاف الجوي؟ اختبارات نووية؟ ماذا؟".

فقلتُ: "ربما جُنَّت الشاحنات وحسب".

***

في حـوالي السـابعة سِرتُ إلى الطاهـي، وسـألته: "كيـف حـال مؤونتنـا هُنـا؟ أعنـي إذا مـا اضطررنـا للمكـوث بعـض الوقـت؟".

قطَّـب مُفكِّـرًا. "وَضعُنـا ليـس بالِـغَ السُّـوء. أمـس فقـط تسـلَّمنا المؤونة. لدينـا مائـة أو مائتـان مـن فطائـر مَحشـوَّة باللحـم البقـري، والفواكـه والخضروات المعَلَّبـة، والحبـوب الجافَّـة، والبيـض... لا يوجـد حليـبٌ غـير الموجـود في الثلاجـة، ولكـن المـاء مِـن البـئر. إذا اضطررنـا فيمكـن لنـا نحـن الخمسـة أن نجـد مـا يكفينـا لشـهرٍ أو أكـثر".

اقـتربَ سـائق الشـاحنة وقـال وهـو يغمـز لنـا: "لقـد نَفَـدَت سـجائري. والآن هـل ماكينـة السـجائر هـذه تَبَعـك...".

فقاطعه الطاهي قائلًا: "لا يا سيدي، ليست تَبَعي".

كان مـع سـائق الشـاحنة عَتلـة صُلـب قـد جـاء بهـا مِـن حجـرة الخزين التـي في الخلـف، وأخـذَ يُعالِـج بهـا الماكينة.

ذهـبَ الفتـى إلى حيـث كان صنـدوق الموسـيقى يلتمـع ويومـض ودَسَّ في فتحتـه عُملَـة معدنيـة برُبـع دولار، فبـدأ چـون فوجـارتي يغنِّـي عـن كونـه مولـودًا عنـدَ الغديـر.

جلسـتُ ونظـرتُ عـبر الواجهـة الزجاجيَّـة. رأيـتُ شـيئًا أثـار قلقـي في الحـال. تحرَّكَـت سـيارة نقـل خفيـف مـن نـوع الشـيڤروليه، انضمَّـت لدوريـات الحراسـة كـما قـد يدخـل مُهرُ شِـتلاند ضئيـلٌ وسـط قطيـع مـن خيـول الجَـرِّ الضخمـة. راقبتُهـا إلى أن دَهسـت بتَجـرُّدٍ وحيـاد فـوق جسـد الفتـاة مـن السـيارة الكاديـلاك، ثـم أشـحتُ بنظـري بعيـدًا.

صاحـت الفتـاة في سَـورة تعاسـة مفاجِئَـة: "نحـنُ صنعناهـا! لا يمكنهـا هـذا!".

أخبرهـا فتاهـا أن تسـكت. نجـحَ سـائق الشـاحنة في أن يفتـح ماكينـة بيـع السـجائر وخـدمَ نفسـه بِسـتٍّ أو ثمـاني عُلَـب ڤايـسروي، وزَّعهـا عـلى

جيـوب مختلفـة في ثيابـه، ثـم فتـحَ واحـدة منهـا. ومِـن تعبـير التصميـم والعـزم المرتَسِـم عـلى وجهـه، لم أكـن متأكِّـدًا إن كان سـيُدخِّنها أم سـيأكلها.

انبعثت أغنية أخرى مِن صندوق الموسيقى. كانت الثامِنةَ تمامًا.

في الثامنة والنصف انقطعت الكهرباء.

حينـما انطفـأت الأضـواء صرخـت الفتـاة، وانقطعـت صرختهـا بغتـةً، كـما لـو أنَّ فتاهـا قـد وضـع يـده عـلى فمهـا. توقّـف صنـدوق الموسـيقى عـن العمـل بصـوت خمـودٍ يغـور عميقًـا.

قال سائق الشاحنة: "أخ، ماذا الآن؟".

ناديت على الطاهي: "ألديك أي شموع؟".

"أظنُّ ذلك. انتَظِر... نَعم. عندي قليل منها".

قمـتُ وتناولـتُ منـه الشـموع، وبدأنـا أنـا وهـو نضعهـا هنـا وهنـاك. قلـتُ لـه: "كُـنْ حَـذِرًا، إذا احـترقَ المـكان لأي خطـأ سـوف تُفتَـح أبـواب جهنـم حرفيًّـا".

فأطلق ضحكة خافتة تقطرُ مرارةً. "هذا لا شكَّ فيه".

عندمـا انتهينـا مِـن تثبيـت الشـموع، كان الفتـى والفتـاة متحاضِنَـيْن معًـا، وسـائق الشـاحنة لـدى البـاب الخلفـي، يراقـبُ سِـتَّ شـاحنات أخـرى مِـن النقـل الثقيـل تتلـوَّى داخِلـةً طالِعـةً مِـن بـين الجُـزر الإسـمنتية لمضخَّـات الوقـود. قلـتُ: "هكـذا تتغـيَّر أمـور المؤونـة، صحيـح؟".

"صحيـح للأسـف، سـوف يسـوء حالنـا لـو اسـتمرَّ انقطـاع الكهربـاء هكـذا".

"بأي درجة؟".

"الهامبرجـر سـوف يَفسَـد خـلال ثلاثـة أيـام. أمَّـا البيـض وبقيـة اللحـوم سـتكون انتهـت بـأسرع مِـن هـذا. أمَّـا المُعلَّبـات فسـوف تبقـى بخـير، هـي

والمأكـولات الجافَّـة. غـير أن هـذا ليـس أسـوأ شيء، فلـن نسـتطيع الحصـول علـى مـاء مـن غـير الطُلمبـة".

"كَم نستطيع الاستمرار؟".

"مِن غير ماء؟ أسبوع".

"امـلأ كل وعـاء فـارغ لديـك. املأهـا جميعًـا حتـى لا يمكنـك أن تشـدَّ أي شيء سـوى الهـواء. أيـن دورات الميـاه؟ يوجـد مـاء صالـح للـشُّرب في الخزَّانـات".

"حمَّامـات العاملـين في المـكان هُنـا في الخلـف. أمَّـا حمَّامـات الرجـال والنسـاء فـلا بـدَّ أن تخـرج لـكي تصـل إليهـا".

"عـبرَ مبنـى خِدمـة السـيارات؟". لم أكـن واثقًـا مِـن ذلـك. ربمـا فيـما بعـد، لكـن ليـس الآن.

"لا. عند الباب الجانبي وبعيدة قليلًا".

"أعطِني دلوَيْن أو ثلاثة".

وجـدَ دلوَيْـن مـن المعـدن المطـلي بطبقـة حمايـة مـن التـآكُل. تمـشَّى الفتـى قريبًـا منَّـا.

"ماذا تفعل؟".

"لا بدَّ أن يكون لدينا ماء. كل ما يمكننا الحصول عليه".

"أعطِني دلوًا إذَن".

ناولتُه واحدًا.

صاحت الفتاة عليه: "يا چيري! أنت...".

رماها بنظرةٍ فلم تَقُل أي كلمة أخرى، لكنها التقطت منديلًا ورقيًا مِن مناديل المائدة وأخذت تُمزِّقه مِن الأركان. كان سائق الشاحنة يُدخِّن سيجارة أخرى ويرنو في عبوسٍ نحو الأرضية. لم ينطق بكلمة.

سِرنا حتَّى الباب الجانبي الذي دخلتُ منه في أصيل هذا اليوم نفسه ووقفنا لدى الباب للحظة، وراقبنا الظِّلال تمتدُّ وتنكمش مستجيبة لحركة الشاحنات للوراء والأمام.

قال الفتى: "الآن؟". مسَّت ذراعه ذراعي مسًّا خفيفًا فأحسستُ بعضلاته متوتِّرة ومتوثِّبة كأنها أسلاك مشدودة، ولو أنَّ أي شخص ارتطمَ به لاندفع للسماء مباشرة.

قلتُ له: "اهدَأ".

ابتسم قليلًا. كانت ابتسامة سقيمة، لكنها خير مِن لا شيء.

"أوكي".

تسلَّلنا للخارج.

كان هواء الليل قد ابترد، ويُسمَع صرير الجداجد بين الأعشاب ونقيق الضفادع وقَرعها وسط مياه مجرى التصريف. هنا في الخارج كانت جلبة الشاحنات أعلى وأوضح، أشدَّ تهديدًا، صوت الوحوش. مِن الداخل الأمر أقرب لمشاهدة فيلم، أمَّا هنا في الخارج فقد كان حقيقةً، وهلاكُكَ احتمالٌ وارِد.

أخذنا نتسحَّب على امتداد الجدار الخارجي المبلَّط، وقد منحنا بروزٌ طفيفٌ بعضَ الظِّلّ. كانت سيارتي الكامارو رابضةً بجانب السياج المشبَّك على الناحية الأخرى من موضعنا، وثمَّة ضوء ضعيف مِن لافتة على جانب الطريق ينعكس وميضها على المعدن المتكسِّر وبِرك الوقود والزيت.

همست: "خُذْ أنت حمَّام السيدات، املأ دلوك مِن خزان المرحاض وانتظرني".

دمدمة وزمجرة ثابتة مِن محرِّكات الديزل. كانت خدعة؛ إذ تظنُّ أنها آتية إليك، لكنها كانت فقط أصداء تتردَّد من جانب لآخر في الأركان الغريبة للمبنى. كانت المسافة عشرين قدمًا فقط، لكنها بَدَت أبعد مِن ذلك كثيراً.

فتحَ باب حمَّام السيدات ودخله. ومضيتُ أنا إلى حمَّام الرجال حتَّى دخلتُه. شعرتُ بعضلاتي تنبسط بعد توتُّرها وبزفيرٍ طويل يخرج مصفِّرًا من صدري. لمحت صورتي في المرآة، وجهٌ شاحبٌ مُجهَد وعينان داكنتان.

رفعتُ الغطاء الخَزَفِيَّ لخزَّان المرحاض وغطَّست الدلو حتَّى امتلأ. أعدتُ صَبَّ قليلٍ منه لكيلا يندلق ويُهدَر ثم سرتُ حتَّى الباب. "ها؟".

تنفَّس قائلًا: "نَعم".

"جاهز؟".

"نَعم".

خرجنا مِن جديد. كنَّا قد سِرنا ربما سِتَّ خطوات قبل أن تتوهَّج الأضواء في وجهينا. كانت قد زحَفَت خِلسةً حتَّى هنا، العجلات الكبيرة لم تكد تلتفُّ فوق الحصى. كانت رابضةً في انتظارٍ، والآن وَثَبَت نحونا، الكشَّافات الأمامية الكهربائية تسطع في دوائر همجية، والهوَّايات الكروم الضخمة بدت كأنها تزمجر في غضب.

جمُدَ الفتى في موضعه، وانطبع الرُّعب على مُحيَّاه، ابيَضَّت عيناه وتقلَّصَت حدقتاه حتَّى صارت كل حدقة مثل رأس دبوس. أعطيتُه دفعة قوية فاندلقَ نصف مائِه.

"تحرَّكْ!".

ارتفعَ هديرُ محرِّك الديزل حتَّى صار صرخةً حادَّة. مددتُ يدي نحو كتف الفتى ليفتح الباب، لكن قبل أن أتمكَّن من ذلك دُفعَ الباب بشدَّة مِن الداخل. دخلَ الفتى بسرعة خاطفة وتبعته على الفور. نظرتُ للوراء فرأيتُ الشاحنة -كانت بيتيربليت ضخمةً- يحتكُّ بوزها المسطَّح ببلاطات الجدار الخارجي وينتزعها في كتلٍ مُسنَّنة. كانت تنبعث ضوضاء حادَّة تطحن الأذن، مثل صوت أصابع عملاقة تحك سُبُّورة. ثم تحطَّم الرفرف الأيمن وأركان الهوَّاية في الباب الذي لم يزل مفتوحًا، فقذف زجاجًا متكسِّرًا ونثره وخلع مفصلات الباب التي من الصُّلب كأنها مناديل ورقية. طارَ الباب في قلب الليل مثل شيءٍ خارجٍ مِن إحدى لوحات سلڤادور دالي، ورفعت الشاحنة سرعتها نحو ساحة الانتظار الأمامية، وهي تقصف عادمها مثل نيران مدفع رشاش. أطلَقَت صوتًا محبطًا غاضبًا.

وضعَ الفتى دلوه على الأرض وارتمى منهارًا بين ذراعي فتاته، وجسده ينتفض.

كان قلبي يضرب بقوة ثقيلًا في صدري ومفاصل وسْطي سائِبةً كأنها ماء، وبمناسبة الماء، فقد استطعنا نحن الاثنين معًا إحضارَ نحو دلوٍ ورُبع. لم يبدُ أنَّ هذا استحقَّ المخاطَرَة.

قلتُ للطاهي: "أريد أن أسدَّ ذلك المدخل أمامهم تمامًا، ماذا يمكننا أن نستخدم؟".

"إمممم...".

تدخَّل سائق الشاحنة: "لماذا؟ فلا واحدة مِن تلك الشاحنات الضخمة يمكنها أن تُدخلَ عجلةً واحدة من خلاله".

"ليست الشاحنات الضخمة هي سبب قلقي".

بدأ سائق الشاحنة يشعل سيجارة أخرى.

قال الطاهي: "لدينا بعض ألواح خشبية في غرفة المؤونة، كان صاحب المكان ينوي أن يبني سقيفةً لتخزين غاز البيوتان فيها".

"سوف نضعها بالعَرض وندعِّمها باثنتين مِن المقاصير الخشبيَّة".

قال سائق الشاحنة: "سَأساعدك".

استغرقَ الأمر حوالي ساعة، وفي نهايتها كنَّا قد تعاوَنَّا على العمل جميعًا، حتَّى الفتاة. كان الحاجز صُلبًا بدرجةٍ لا بأس بها. وبالطبع، هذه الدرجة لن تكون جيِّدة بما فيه الكفاية، وخصوصًا لو صدمه شيءٌ ما يتحرَّك بأقصى سرعة مُمكِنَة. أعتقد أنَّ جميع الموجودين علموا بذلك.

لم تزل هناك ثلاث مقاصير للجلوس بامتداد الواجهة الزجاجية الكبيرة، فجلستُ في إحداها. توقَّفت عقارب الساعة التي وراء الكاونتر على 8:32، لكن بدا الوقت في العاشرة تقريبًا. بالخارج واصَلَت الشاحنات دوريَّاتها ودَويَّها. غادر البعض منها، في عَجلة مُنطَلِقين نحو مهامَّ مجهولة، وأتى بعضٌ آخر. انضمَّت الآن ثلاث سيارات بيك آب، تلفُّ وتدور شاعرةً بأهمِّيَّتها وسط شقيقاتها الأكبر.

بدأ يناوشني النُّعاس، وبدلًا مِن أن أحصي الشياه كما يفعل مَن يبتغي النوم أخذتُ أحصي الشَّاحنات. كَم منها في الولاية، وكم في أمريكا كلها؟ المقطورات، والنقل، والشاحنات المسطَّحة المكشوفة، وناقلات البضائع الضَّخمة، وسيارات النقل الصغيرة بحمولة ثلاثة أرباع طِن، وشاحنات النقل التابعة للجيش وعددها عشرات الآلاف، وحافلات الركَّاب. لاحت أمامي رؤيا كابوسيَّة لإحدى حافلات المدينة، عجلتان من جانب في قُنيَّة تصريف المياه بمحاذاة الرصيف، وعجلتان من جانبها الآخر فوق رصيف المُشاة نفسه، تَهدِرُ وتُزَمجِر وهي تحصد الناس السائرين أمامها كأنهم قناني خشبية في لعبة بولنج.

هـزززتُ رأسي ونفضـت عنـي هـذه الرؤيـة، ورحـتُ في نـومٍ خفيـف قَلِـق.

***

حينـما أخـذ سـوندجراس يـصرخ كانَ ذلـك في أولى سـاعات اليـوم الجديـد بـلا شـك. ارتفـع في السـماء هـلالٌ نحيـل وأخـذ يـبرق بوميـضٍ جليـديٍ مِـن خـلال غيمـة عاليـة مِـن السُّحب. أضيفـت نغمـة خشخشـة جديـدة، ممتزجـة ومتناغمـة مـع الهديـر الخَشِـن للمحـرِّكات الدائـرة للشـاحنات الضخمـة. بحثـتُ عنهـا فرأيـتُ عربـة زراعيَّـة لقَطـع وحَـزم القَـشِّ تـدور بالخـارج قريبًـا مِـن اللافتـة المعتمـة. سـقط نـور القمـر عـلى السُّـنون الحـادَّة الـدوَّارة لبَكـرة حَـزم القـش.

ثـم انبعـثَ الـصراخ مِـن جديـد، بـلا أدنى شـكٍّ أتى مـن مجـرى تصريـف الميـاه: "انجـدووو.. نيـيي...".

تسـاءلَت الفتـاة: "مـا ذلـك الصـوت؟". كانـت عيناهـا وسـط الظـلام واسِـعَتَيْن، وبَـدَت مذعـورةً لأقـصى حـدٍّ.

قلتُ: "لا شيء".

"ساعدووو... نييييي".

همست الفتاة: "إنه حَيٌّ، آه، يا الله. حيٌّ".

لم أكـن بحاجـةٍ لأن أراه، فقـد كان بوسـعي أن أتخيَّـل الأمـر كلـه بأوضح مـا يمكـن. سـوندجراس راقـدٌ نِصفـه في مـصرف الميـاه ونصفـه خارجـه، مكسـور الظهـر والسـاقين، وبدلتـه المكويَّـة جيِّـدًا معجونـة بالوحـل، ووجـهٌ شـاحِب منقطـع الأنفـاس ملتَفِـتٌ للأعـلى نحـو الهـلال غـير المبـالي...

قلتُ: "أنا لا أسمع أي شيء، أتسمعين أنتِ؟".

نظَرَت نحوي. "كيف يُمكِنكَ هذا؟ كيف؟".

قلتُ لها وأنا أشير بإبهامي نحو صديقها الفتى: "الآن إن أيقظتِه من نومه فربَّما يسمع هو شيئًا ما. بل ربما يخرج إلى هناك. أيعجبكِ ذلك؟".

بدأ وجهها يختلج ويتوتَّر كأنَّ إبَرًا خَفيَّةً تخيطه. همسَت: "لا شيء، لا شيء يوجَد هناك".

رجعت إلى حبيبها ودسَّت رأسها في صدره. مدَّ ذراعيه وأحاطها بهما وهو نائم.

لم يستيقِظْ أحدٌ آخر. أخذ سوندجراس يصيح وينتحب ويصرخ وقتًا طويلًا، ثم كَفَّ.

***

الفَجر.

وصلت شاحنة أخرى، كانت هذه من النوع المسطَّح المكشوف لها محفَّة عملاقة لقَطر السيارات فوقها. وأتى في إثرها بلدوزر، وقد أخافني ذلك.

اقتربَ سائق الشاحنة مني وشدَّ ذراعي بقوَّة. همسَ في انفعال: "تعالَ إلى الخلف"، كان الآخرون لا يزالون نائمين. "تعالَ لتنظر إلى هذا".

تبعته للخلف نحو غرفة المؤونة. بالخارج كانت حوالي عشر شاحنات تطوف في جَولات حراسة، ولم أرَ أي شيء جديدًا.

قال هو: "أترى؟"، وأشار. "هناك تحديدًا".

وعندئذٍ رأيت. إحدى سيارات البيك أب خمَدَت وتوقَّفَت عن الحركة تمامًا. كانت رابِضةً هناك مثل كُتلَة ميِّتة، وقد انسحب منها كل التهديد المخيف.

"نفد وقودها؟".

"هـو كذلـك، يـا صاحبـي. وهـم لا يمكنهـم أن يملـؤوا أنفسـهم بالوقـود. لقـد ضَمَنَّـا الفـوز عليهـم. كل مـا علينـا هـو الانتظـار". وابتسـم وتلمَّـس جيوبـه ليأخـذ سـيجارة.

كانـت السـاعة التاسـعة صباحًـا وكنـتُ آكل قِطعـةً مِـن فطـيرة أمـس عـلى سـبيل الفطـور عندمـا بـدأ إطـلاق النفـير الهـوائي- انفجـارات صوتيـة طويلـة وجيَّاشـة تفلـق الجمجمـة. ذهبنـا جميعًـا إلى الواجهـة الزجاجيـة ونظرنـا عبرهـا. كانـت السـيارات تربـض ثابِتـةً، تهـدر لكـن بـلا حـراك. إحـدى الشـاحنات المقطـورة، مـن نـوع ريـو الضخـم بكابينـة حمـراء، كادت أن تصعـد عـلى حافَّـة العُشـب الضيقـة مـا بـين المطعـم وسـاحة انتظـار السيارات. ومِـن هـذه المسـافة بـدت الهَوَّايـة المعدنيـة لهـا ضخمـةً وقاتِلـة. كانـت إطاراتهـا تصـل إلى مسـتوى القفـص الصـدري لأي رجـل.

بـدأ البـوق يزعـق مُدويًّـا مـرةً أخـرى؛ صرخـات صلبـة وجائعـة تنتقـل في خطـوطٍ مبـاشرة ومسـتقيمة وتـترك خلفهـا صـدى يـتردَّد. كان هنـاك نمطٌ مُتكـرِّر في زعقـات البـوق، قصـارٍ وطـوالٍ، بإيقـاعٍ منتظـم نوعًـا مـا.

قال الفتى چيري، وقد تحمَّس فجأة: "إنها شَفرة مورس!".

نظر سائق الشاحنة إليه. "وكيف تعلم؟".

تـضرَّج وجـه الفتـى بـشيءٍ مِـن الخجـل. "تعلَّمتُهـا في فريـق جوَّالـة الصِّبيـة".

فتسـاءل سـائق الشـاحنة وهـو يهـزُّ رأسـه عجبًـا: "أنـتَ؟ أنـتَ؟ عجيبـة".

فقلتُ: "دعكَ مِن هذا، هل تتذكَّرها بما يكفي لأن...".

"طبعًا. دعني أستمع. معك قلم رصاص؟".

ناوله الطاهي قلمًا، وأخذ الفتى يكتب حروفًا على منديل مائدة. بعد بُرهة توقَّف عن الكتابة. "إنها فقط تقول "انتباه"، وتُكرِّر هذه الكلمة مرَّةً بعد مرَّة. انتظروا".

وانتظرَنا وأخذَ البوق الهوائيُّ يضرب إشاراته الطويلة والقصيرة في هواء الصباح الساكن. ثم تبدَّل النَّمَطُ وشرعَ الفتى يكتب مِن جديد. تجمَّعنا مِن وراء ظهره وراقبنا الرسالة بينما تتشكَّل. "شخصٌ ما لا بدَّ يضخُّ الوقود. شخصٌ ما لن يتعرَّض لأذًى. كل الوقود لا بدَّ أن يُضَخّ. لا بدَّ أن يحدث هذا الآن. شخص ما سوف يضخُّ الوقود لنا الآن".

تواصَلَت زعقات البوق الهوائي، غيرَ أن الفتى توقَّف عن الكتابة. قال: "إنها فقط تُكرِّر كلمة "انتباه" مِن جديد".

كرَّرَت الشاحنة رسالتها مرَّةً بعد أخرى. لم يعجبني منظر الكلمات، مكتوبة هكذا بحروف متفرِّقة على منديل المائدة. بدت مثل آلاتٍ بلا قلب ولا رحمة. لن يكون هناك أيَّة حلول وَسط قد نتوصَّل إليها مع تلك الكلمات. فإمَّا أن نفعل وإمَّا ألَّا نفعل.

قال الفتى: "والآن، ما العَمل؟".

قال سائق الشاحنة: "لا شيء". ارتَسَمَت على وجهه أمارات الانفعال والتحفُّز. " كل ما علينا هو الانتظار. لا بدَّ أنها جميعًا تعاني نقصًا في الوقود، واحدة من الصغيرات هناك بالخلف توقَّفَت عن الحركة وخلاص. كل ما علينا هو...".

توقَّف صوتُ البوق. تراجَعَت الشاحنة ولحقت برفيقاتها، وانتظروا جميعًا هناك في شِبه دائرة، والمصابيح الأمامية مصوَّبة نحونا.

قلتُ: "يُوجد بلدوزر هناك معها".

نظر چيري إليَّ. "تعتقد أنها سوف تهدم المكان علينا؟".

"نَعم".

فنظرَ إلى الطاهي، وسأله: "لا يستطيعون ذلك، صحيح؟".

رفعَ الطاهي منكبَيْه.

قـال سـائق الشـاحنة: "فلنأخـذ الأصـوات. لا للابتـزاز، ملعـون أبوهـم. كل مـا علينـا هـو الانتظـار". كان قـد أخـذ يُكـرِّر عبارتـه هـذه لثـلاث مـرات حتَّـى الآن، كأنهـا تعويـذة.

قلتُ: "تمام، فلنأخذ الأصوات".

قال سائق الشاحنة في الحال: "ننتظر".

قلـتُ: "أعتقـد أن علينـا أن نُزوِّدهـا بالوقـود، يمكننـا أن ننتظـر فرصـةً أفضـل للنجـاة. مـا رأيـك أيُّهـا الطاهـي؟".

قـال: "نبقـى هنـا، أم تريـد أن نصير عبيـدًا لهـم؟ هـذا هو ما سـيحدث. أتريـد أن تقـضي بقيـة حياتـك تُغـيِّر لهـم فلاتـر الزيـت في كل مـرَّة تَقـرَع فيهـا واحِـدةٌ مِـن تلـك... الأشـياء بُوقَهـا؟ أنـا لـن أفعـل، ليـس أنـا". ونظـر باغتـمامٍ وغَيـظٍ عـبر الواجهـة الزجاجيـة. "دَعهـم يتضـوَّروا جوعًـا".

نظرتُ إلى الفتى والفتاة.

قـال: "أظـنُّ أنَّـه مُحِـقٌّ، هـذه هـي الطريقـة الوحيـدة لإيقافهـم. لـو أنَّ شـخصًا مـا سـوف ينجدنـا لـكان قـد فعـل. ويعلـم الله مـا الـذي يحـدث في الأماكـن الأخـرى". أمَّـا الفتـاة، فقـد أومَـأَت برأسـها، وفي عينيهـا ذِكـرى سـوندجراس، واقترَبَـت خطـوةً مِـن فتاهـا.

قلتُ: "حُسمَ الأمر إذن".

اتَّجهـتُ نحـو ماكينـة السـجائر وحصلـتُ عـلى علبـة مـن غـير أن أنظـر نحـو نوعهـا. كنـتُ قـد أقلعـتُ عـن التدخـين منـذ عـام، ولكـن بـدا هـذا الوقـت مناسـبًا للبـدء مـن جديـد. كشـطَ الدخـانُ رئتـيَّ حـادًّا حارقًـا.

مـرَّت عـشرون دقيقـة زاحفـة ببطء. ظلَّـت الشـاحنات التـي في الأمـام منتظـرة، أمَّـا التـي في الخلـف فقـد اصطفَّـت أمـام مضخَّـات الوقـود.

قال سائق الشاحنة: "أظنُّ أن الحكاية كلها كانت خدعة. مجرَّد...".

وعندئـذٍ داهمنـا صـوتٌ أعـلى وأشـد حِـدَّة وهياجًـا، صـوت محـرِّك يتسـارع ويصمـت، ثـم يتسـارع مـرَّةً أخـرى. إنـه البلـدوزر.

كان يلتمـع مثـل دبُّـور أصفـر في ضـوء الشـمس، كان جـرَّارًا مـن نـوع "كاتـر بيلـر" لـه سـيورٌ دوَّارة مـن صُلـبٍ غليـظ تُقَعقِـع وتُصَلصِـل، وينفـثُ دخانًـا أسـود مِـن مدخنتـه القصـيرة بينـما يديـر عجلاتـه ليواجهنـا.

قـالَ سـائق الشـاحنة: "سـوف يهجـم". كان عـلى وجهـه تعبـير دهشـة تامَّـة. "سـوف يهجـم!".

قلتُ: "ارجعوا للخلف، وراء الكاونتر".

كان البلـدورز لا يـزال يديـر مُحرِّكَـه متأهِّبًـا، وذراع تغيـير السُّرعـات تُحـرِّك نفسـها بنفسـها، ومِـن فـوق مدخنتـه تَعلَّـق وميـضٌ حـادٌّ مِـن فـرط الحـرارة. ارتفعـت فجـأة شـفرته الأماميـة، مُنحنـى ثقيـلٌ مـن الصلـب تجمَّـد عليـه تـرابٌ جـافٌّ. ثـم انبعـث عـواء صـارخ مِـن الطاقـة، هـدرَ وزمجـر في مواجهتنـا مبـاشرة.

قلتُ: "إلى الكاونتر!". ونخستُ سائق الشاحنة فانتبه وتحرَّك.

كانـت هنـاك حافَّـة إسـمنتيَّة صغـيرة بـين سـاحة السـيارات والعشـب، فطلـعَ عليهـا البلـدوزر، ورفـع شـفرته للحظـة، ثـم انقـضَّ بهـا عـلى الجـدار الأمامـي بحركـة رأسـية. انفجـرَ الزجـاج في الداخـل بصـوت تهشُّـمٍ ثقيـل حـادٍّ، وتحطَّـم الإطـار الخشـبي إلى كـسرات وشـظايا حـادَّة. سـقط أحـد مصابيـح السـقف المكـوَّرة، فتناثـر المزيـد مـن الزجـاج. وتسـاقطت آنِيَـةٌ خَزفيَّـة مـن عـلى الأرفـف. كانـت الفتـاة تـصرخ ولكـن صـوت صراخهـا تـاه تقريبًـا تحـت القـرع الثابـت المتواصـل لمحـرك البلـدوزر.

تراجـعَ، وأخـذَ يُقعقـع عـبر شريـط العشـب المهـروس، وانقـضَّ إلى الأمـام مِـن جديـد، فأطـاح بمـا تبقـى مِـن مقصـورات خشـبية مهشَّـمة ومتناثـرة. الحافظـة الزجاجيـة للفطائـر سـقطت عـن الكاونـتر، فانزلقـت مثلثَّـات الفطائـر المقطَّعـة عـلى طـول الأرضيـة.

كان الطاهـي مُقعيًـا وعينـاه مغمضتـان، والفتـى يضـمُّ فتاتـه إليـه، وازوَّرَت عينـا سـائق الشـاحنة مـن الرُّعـب.

غمغـم بغـير وضـوح: "لا بـدَّ مـن إيقافـه... قُـل لهـم إننـا سـنفعل مـا يريـدون، سـنفعل أي شيء...".

"فات الأوان، أليس كذلك؟".

تراجـعَ البلـدوزر وأخـذَ يتأهَّـب لهَجمـةٍ أخـرى. ظهـرت في شـفرته أخاديـد وأثـلامٌ جديـدةٌ، والتمعـت كالمرايـا في ضـوء الشـمس. تقـدَّم مُتمايِـلًا بصـوت زَمجَـرةٍ هـادِرَة، وفي هـذه المـرة هـدَّم العمـود الرئيـسي لبقايـا مـا كان قبـل قليـل الواجهـةَ الزُّجاجيَّـةَ، فسـقط في داخـل المـكان ذلـك الجـزء مـن السـقف بصـوت تحطُّـم طاحِـن، تموَّجَـت سُـحبٌ مـن غبـار الجـصِّ.

جـرَّ البلـدوزر نفسـه وتراجـعَ متحـرِّرًا، ومِـن خلفـه كان بوسـعي أن أرى جماعـة الشـاحنات، تنتظـر.

أمسـكتُ الطاهـي. "أيـن براميـل الوقـود؟". كانـت أفـران الطهـي تُـزوَّد بغـاز البيوتـان، لكنـي قـد رأيـتُ فتحـات تهويـة لفُـرن هـواء سـاخِن.

قال: "بالمخزن في الخلف".

أمسكتُ الفتي: "هيَّا".

نهضنـا وركضنـا حتَّـى دخلنـا المخـزن. ضربَ البلـدوزر ضربـةً أخـرى فانتفـض المبنـى. ضربتـان أو ثـلاثٌ أخـرى وسـيكون بوسـعه أن يسـير مبـاشرة حتَّـى يصـل إلى الكاونـتر ويطلـب قهـوة.

كان هناك برميلان كبيران بسِعة خمسين جالون بخراطيم تغذية للفرن وصنابير للتحكُّم في الوقود. رأيتُ بالقرب من الباب الخلفي صندوقًا ورقيًّا لقوارير "الكَتشَب" الفارغة. "أحضِرْ تلك، يا چيري".

بينما كان يحضرها، خلعتُ قميصي ومزَّعته خرقًا. ضرب البلدوزر ضربة ثم أخرى، وكل ضربة صحبها صوتُ المزيد من التحطُّم والانهداد.

ملأتُ أربع قوارير "كتشب" مِن صُنبور الوقود، ودسَّ هو فيها الخِرَق المُمزَّقة. سألته: "هل لكَ في كرة القدم الأمريكية؟".

"كنتُ، أيامَ المدرسة الثانوية".

"تمام. تظاهَرْ بأنَّكَ تُراوغ الفريق الخصم محتضنًا كُرتك للنهاية".

عُدنا إلى المطعم. كان الجدار الأمامي مكشوفًا بكامله الآن على السماء. جزازات متناثرة من الزجاج التَمَعَت مثل فُتات الماس. سقطت عارضة خشبية ثقيلةٌ بمَيلٍ أمام الفجوة. كان البلدوزر يتراجع قليلًا لينتزعها وفكَّرتُ أنه سوف يواصل التقدُّم هذه المرة، شاقًّا طريقه عبر المقاعد المخلَّعة حتَّى الكاونتر نفسه ليقوِّضَه تمامًا.

ركعنا أرضًا وأخرجنا القوارير. قلتُ لسائق الشاحنة: "أشعِلْها".

أخرجَ عُلبة ثقابه، لكنَّ يديه كانتا ترتعشان بشدَّة فأسقط الثقاب، التقطها الطاهي وأشعل عودًا منها وسرعان ما توهَّجَت مِزقُ القميص بلهبٍ زيتيٍّ ناعم.

قلتُ: "بسرعة".

ركضنا، الفتى يسبقني قليلًا. تحت أقدامنا أصدرَ الزجاج أصوات جَرشٍ وصَحنٍ. كانت هناك رائحة زيتيَّة ساخنة في الهواء. كلُّ شيءٍ كان صَخبًا ولمعانًا شديدَيْن.

تقـدَّم البلـدوزر مهاجـمًا. انحنـى الفتـى وتملَّـص خارجًـا مِـن تحـت العارضـة الخشـبية ووقـف هيـكلًا مُعتِـمًا قُبالَـةَ تلـك الشـفرة الثقيلـة مِـن الصُّلـب المقـسَّى. خرجـتُ إلى جهـة اليمـين. الرميـة الأولى للفتـى كانـت أقـرب مـمَّا يجـب فلـم تُصِـب البلـدوزر، رميتـه الثانيـة ضربـت الشـفرة وانتـثر اللهـب دون أن يُصيبهـا بـضَرَر.

حـاولَ أن يلتفـت وعندئـذٍ انقـضَّ عليـه، قـوة طاغيـة عـلى عجـلات، قـوة تَـزِنُ أربعـة أطنـان مـن الصُّلـب. ارتفعـت يـدا الفتـى فـوق رأسـه كأنهـما جناحـين ثـم اختفـى، ممضوغًـا تحـت البلـدوزر.

التففـتُ وقذفـتُ برميـة مقوَّسـة قـارورةً في مقصـورة القيـادة المفتوحـة والقـارورة الثانيـة إلى الأجـزاء الداخليـة. انفجـرت العبوتـان معًـا في صيحـة لهـبٍ واثبـة.

للحظـة ارتفـع صـوت مُحـرك البلـدوزر بصرخـة حـادَّة الصـوت، صرخـة غضـبٍ وألم، تـكاد تكـون إنسـانيَّةً. أخـذَ يرتـجُّ بحركـةٍ مُخبَّلـة نصـف دائريـة، منتزعًـا الرُّكـنَ الأيـسر مـن مبنـى المطعـم، ومتدحرجًـا كالمخمـور نحـو قنـاة تصريـف الميـاه.

سيور الصُّلـب الـدوَّارة ارتسـمت عليهـا خطـوط وبقـعٌ مِـن دَمٍ متجلِّط، وفي الموضـع الـذي كان فيـه الفتـى بـدا شيءٌ مـا مثـل منشـفة مُجعَّـدة ومُكوَّمـة.

لم يكـد البلـدوزر يصـل إلى قُنَيَّـة تصريـف المياه، وكانـت النـيران تمـور مِـن تحـت غطـاء مُحرِّكـه ومـن مقصـورة القيـادة، ثـم انفجـرَ نافـورةً مِـن لَهـب.

تراجعـتُ متعـثِّرًا وأوشـكتُ أن أسـقط فـوق كومـة مـن الحُطـام. كان ثمَّـة رائحـة حـارَّة ليسـت مجـرَّد زيـت، بـل رائحـة شَـعر يشـيط. كانـت النـار مُمسِـكةً بي.

جذبتُ مفرش مائدة، وكبستُه على رأسي، وركضتُ نحو الكاونتر، وغطستُ رأسي في حوض الماء بشدَّة كافية لأن يرتطم جبيني بقعر الحوض. كانت الفتاة تصيحُ باسم چيري مرارًا وتكرارًا كأنه ابتهالٌ مجنونٌ صارِخ.

التفتُّ فرأيتُ حاملة السيارات الهائلة تتقدَّم ببطء نحو واجهة المطعم المكشوفة الآن بلا حماية.

صرخ سائق الشاحنة واندفع هاربًا مِن الباب الجانبي.

صاح به الطاهي: "لا! لا تفعل هذا..."، لكنه كان قد خرج وشرعَ يركض بسرعة نحو مصرف المياه والحقل المفتوح وراءه.

لا بدَّ أنَّ الشاحنة كانت تقف حِراسة خارج مرمى البصر قريبًا للغاية مِن الباب الجانبي- وعلى جانبها مُلصَقٌ تجاريٌّ صغير مكتوب عليه "مغسلة وونج- ادفع واستَلِم". لقد طَرحته أرضًا تقريبًا قبل أن تستوعب عينا المرء ما يحدث. ثم مضت ولم يتبقَّ سوى سائق الشاحنة، ملتوي الأطراف وسط الأرض المرصوفة بالحصى والزلط. لقد بوغتَ الرجل وانتهى في غمضة عين.

دارت حاملة السيارات ببطء فوق الحافَّة الإسمنتية، وفوق العشب، وفوق رفات الفتى، ثُمَّ توقَّفَت وخَطمُها يمتدُّ ويجوس داخل المطعم.

أطلقَ بوقها الهوائيُّ نفيرًا مفاجئًا مُزَلزِلًا، تبعه آخر، وآخر.

صاحت الفتاة باكيةً: "كفى! كفى، آه، كفاية، رجاءً...".

غيرَ أن النفير استمرَّ لوقتٍ طويل. لم نكن بحاجةٍ لأكثر مِن دقيقة حتَّى نتبيَّن النمط المتكرِّر، كان على نفس منوال النمط السابق. كانت تطالبُ بأن يخرجَ واحدٌ منَّا ليطعمها هي والأخريات.

قلتُ: "سوف أذهب، هل المضخَّات مفتوحة؟".

أومأ الطاهي برأسه إيجابًا، كان قد شاخَ عامًا فوق عمره.

صرخـت الفتـاة: "لا!". رَمَـت نفسـها عـليَّ. "لا بُـدَّ أن توقفهـا! اضربهـا، أحرِقْهـا، اكسَرْهـا...". كان صوتهـا يتهـدَّج ويرتعـد ويتكـسَّر إلى شـهقاتٍ مُترَعـة بالحـسرة والفقـد.

أمسـكَها الطاهـي. درتُ حـولَ رُكـن الكاونـتر، شـاقًّا طريقـي بصعوبـة عـبر الحُطـام، وللخـارج عـبر غرفـة المؤونـة. كان قلبـي يـضرب بقـوة وثِقَـل حينـما خطـوتُ خـارج المبنـى وصرتُ تحـت الشـمس الدافئـة. رغبـتُ في تدخـين سيجارة أخـرى، لكـن هـذا محظـور بالقـرب مـن مضخَّـات الوقـود.

كانـت الشـاحنات لا تـزال مُصطفَّـةً. ربضَـت شـاحنة المغسـلة عـلى الناحيـة الأخـرى مـن الـدرب المرصـوف كأنهـا كلـب صيـد، يُزَمجِـر ويخربـش الأرض بقدميـه الأماميتـين. مجـرَّد حركـة واحـدة غريبـة منـي وسـوف تَعجِنُنـي عجنًـا. التمعـت الشـمس عـلى الزجـاج الأمامـي لهـا وانتفـض جسـمي، كان الأمـر أقـرب للتحديـق في وجـه شـخص مخبـول.

أدرتُ مفتـاح المضخـة لأفتحهـا، وجذبـتُ فوهـة الخرطـوم؛ وفككـتُ أول غطـاء وقـود وبـدأت أضخُّـه.

اسـتغرقتُ نصـف سـاعة ثـم نضـب الوقـود في أوَّل خـزان ثـم انتقلـتُ إلى المضخـة الثانيـة. كنـتُ أتنقَّـل بـين مضخَّـات البنزيـن والديـزل. كانـت الشـاحنات تمـرُّ متقاطـرة بـلا نهايـة. الآن فقـط بـدأتُ أفهـم. الآن فقـط بـدأت أرى. كان النـاس في كل مـكان مِـن البـلاد يفعلـون هـذا الأمـر نفسـه، وإلَّا فَهـم راقـدون مـوتى مثـل سـائق الشـاحنة، وقـد أُخـذوا عـلى حـين غـرَّة مـع علامـات العَجـل العريـض الثقيـل منطبعـة فـوق أحشـائهم.

جـفَّ خـزان الوقـود الثـاني فانتقلـتُ إلى الثالـث. كانـت الشـمس تـدقُّ كالمطرقـة وأخـذت رأسي تتألَّـم مـن الأدخنـة والروائـح. كانـت هنـاك قـروحٌ بسـبب الوقـود في النسـيج اللحمـيِّ الناعـم بـين إصبعـي السـبابة والإبهـام. غـير أنَّ هـذه الشـاحنات لا تعـرفُ عـن ذلـك شـيئًا، هـي تعـرفُ فقـط الصِّمامـات التـي تُـسرِّب والحشـوات السـيئة والوصـلات المفصليـة

المتجمِّـدة، ولكـن ليـس القـروح ولا ضربـة الشـمس ولا الرغبـة في الـصراخ. لم يكونـوا بحاجـةٍ لأن يعرفـوا إلَّا شيئًا واحـدًا فقـط عن سـادتهم السـابقين، وقـد عرفـوه؛ أنَّنـا ننـزف.

امتَصَصـتُ آخـر قطـرةٍ مِـن آخِـر خـزَّان وقـود ورميـتُ فوهـة الخرطـوم عـلى الأرض. لم يَـزَل هنـاك المزيـد مـن الشـاحنات، مصطفَّـةً في طابـور عنـد الزاويـة. ثنيـتُ رأسي لأريـحَ تيبُّسًـا في عنقـي وحدَّقـتُ، كان الطابـور يتجـاوز سـاحة الانتظـار الأماميـة ويمـضي حتـى الطريـق العـام ويمتـدُّ إلى أن يغيـب عـن بـصري، بعُمـق حارتـين أو ثـلاث. كان المشـهد مثـل كابـوس لطريـق لـوس أنجلـس السريـع في سـاعة الـذُّروة. والأفـق يلتمـع ويتراقـص مـن فـرط حـرارة عادمهـا؛ وأنـتنَ الهـواء برائحـة احـتراق الوقـود.

قلتُ: "كلَّا، نَفَدَ الوقود. انتهى كله، يا جماعة".

ثـم انطلقَـت قعقعـة أثقـل، صـوتٌ جهير خشِـنٌ يجعـل الأسـنان تـصرُّ. كانـت شـاحنة فضِّيَّـة عِملاقـة متوقِّفـة، ناقلـة بـترول، كُتِـبَ عـلى جانبهـا: "امـلأ سـيارتك ببنزيـن فيليبـس -66 وقـود چيـت بـورت"!

ومِن مؤخِّرة الناقلة أُسقطَ خرطومٌ ثقيل.

ذهبـتُ إلى هنـاك وتناولتُـه، ورفعـتُ قُـرصَ التغذيـة لخـزَّان الوقـود الأول، ووصَّلـتُ الخرطـوم. أخـذت الناقلـة تضـخُّ الوقـود تلقائيًّـا. هبطـت عـليَّ الرائحـة البتروليـة الزَّنخـة- لا بـدَّ أنَّ الديناصـورات كانـوا يشـمُّون نفـس هـذه الرائحـة الزنخـة بينـما يتسـاقطون في مهـاوي القطـران. مـلأتُ الخزانـين الآخريـن وعندئـذٍ رجعـتُ للعَمـل مـن جديـد.

بـدأ إدراكي يتقلَّـص مثـل ضـوءٍ يبتعـد حتَّـى بلغـتُ حـدًّا فقَـدتُ عنـده إحسـاسي بالوقـت وبعـدد الشـاحنات. كنـتُ أفتـح غطـاء التانـك وأحـشر فوَّهــة الخرطــوم في الفجــوة وأضــخُّ البنزيــن حتَّــى يطرطــش الســائل الســاخن الثقيـل خارجهـا، ثـم أضـع الغطـاء في موضعـه. انفتحـت قـروحُ أصابعـي وتقطَّـر الصديـد منهـا عـلى طـول رسـغيَّ. وكان رأسي يـدقُّ بوجـع

كأنـه سِـنٌّ مُسوَّسـة، ومعـدتي تضطـرب عاجـزةً عـن تحمُّـل زَنَـخ مُركَّبـات الكربـون والهيدروچـين تلـك.

سـوف يغـشى عـليَّ. سـوف يغـشى عـليَّ وسـتكون هـذه هـي نهايتـي. سـوف أظـل أضـخ البنزيـن لهـا حتَّـى أقـع مِـن طـولي.

ثـم أحسسـتُ بيديـن عـلى كتفـيَّ، اليـدان السـودوان للطاهـي في المطعـم. قـال لي: "ادخـل أنـت، اسـترِح. سـوف أتـولَّى الأمـر حتَّـى يحـلَّ الظـلام. حـاوِلْ أن تنـام".

أسلمتُه المضخَّة.

***

لكني عجزتُ عن النوم.

الفتـاة نائمـة. تمـدَّدَت أرضًـا في أحـد الأركان ورأسـها عـلى مفـرش مائـدة ووجهها مُنعقِـد الملامـح حتَّـى في سُـبُاتها. إنـه وجـهٌ بـلا عُمـر، وجـه عجـوز شـمطاء مكلومـة مـن الحـرب. سـيكون عـليَّ أن أوقظهـا في وقـت قريـب، فقـد حـلَّ الغسـق والطاهـي ظـلَّ هنـاك بالخـارج لخمـس سـاعات.

لم تـزل الشـاحنات تواصـل المجـيء. أرنـو عـبر الواجهـة المحطَّمـة فـأرى كشَّـافاتها الأماميـة تمتـدُّ لمسـافة ميـلٍ أو أكـثر، تومـض مثـل يواقيـت صُفـرٍ في الحلكـة الزاحفـة. لا بـدَّ أنهـا مُصطفَّـة في طابـورٍ طويـل يصـل حتَّـى بوابـات دفـع الرسـوم، وربمـا لنقطـة أبعـد مـن تلـك.

سـيكون عـلى الفتـاة أن تأخـذ دورهـا. يمكننـي أن أريهـا مـاذا عليهـا أن تفعـل. سـتقول إنهـا لا تسـتطيع، لكنهـا سـتفعل؛ فهـي تريـد أن تعيـش.

تريـد أن نصـير عبيـدًا لهـم؟ هكـذا قـال الطاهـي. هـذا هـو مـا سـيحدث. أتريـد أن تقـضي بقيـة حياتـك تُغـيِّر لهـم فلاتـر الزيـت في كل مـرة تقـرع فيهـا واحـدة مِـن تلـك... الأشـياء بوقهـا؟

نستطيع أن نهرب، ربما. سيكون من السهل عبور مصرف المياه الآن، بالطريقة التي تتكدَّس بها هكذا على المضخَّات. أن نجري عبر الحقول، عبر المواضع السَّبِخة الراكدة حيث الشاحنات سوف تغوص مثل حيوانات الماستودون الضخمة البائدة وتذهب- عائِدةً إلى الكهوف.

تصاوير بالفحم الحجري. هذا هو القمر الرَّبُّ. وهذه شجرة. وهذه شاحنة "ماك" تكاد تتغلَّب على صيَّادٍ بَرِّيٍّ.

لكن حتَّى ذلك غير ممكن؛ إذ تُوجُد الآن طرق معبَّدة تقود إلى أي موضع في العالَم، حتَّى الملاعب صارت معبَّدة بحيث تتحمَّل العجلات. أمَّا الحقول والسَّبخات والغابات العميقة فيُوجد مِن أجلها دبَّابات ونصف مُجَنزَرات وشاحنات مسطَّحة مكشوفة، وكلها مُجهَّزة بالليزر والميزر والرادار الكاشف عن الحرارة. وشيئًا فشيئًا، يمكنهم أن يجعلوا العالَم كله مواتيًا لهم وفقَ مشيئتهم.

يمكنني أن أتصوَّر أرتالًا مِن الشاحنات تملأ مستنقعات أوكفينوكي بالرمال، وبلدوزرات تُسقط كل شجرة أو نبتة في الحدائق الوطنية والمحميَّات الطبيعية، وتُمهِّد الأرض وتبسطها وتدعسها حتَّى تصير بكاملها سَهلًا مُسطَّحًا هائلًا. وبعد ذلك تصل شاحنات المعادن المُذابَة.

لكنها مجرَّد آلات. وأيًّا كان ما جرى لها، وأيًّا كان الوعي الجمعي الذي منحناه لها، فهي لا تستطيع التكاثر. وفي غضون خمسين أو ستين عامًا سوف تنتهي إلى هياكل صَدِئَة وقد تبخَّرَت منها كلُّ قُوَّة مُهدِّدة، جُثَث هامدة عاجزة يمكن للبشر الأحرار أن يرجموها أو يبصقوا عليها.

وإذ أغمض عينيَّ أستطيع أن أتصوَّر خطوط إنتاج تعمل في ديترويت وفي ديربورن، في يونجستاون وماكيناك، وشاحنات جديدة يتمُّ تجميعها بأيدي عُمَّال لم يعودوا مضطرِّين لدَقِّ بطاقات الحضور والانصراف في

الساعة الإلكترونية، بل فقط يَسقطون صرعى ليحلَّ مَحلَّهم آخرون في الحال.

بائع المطعم يترنَّح قليلًا الآن. إنه هَرِم، مِثل حالي. عليَّ أن أوقظ الفتاة.

بالأعلى طيَّارتان ترسمان خلفهما ذيولًا فضية طويلة منقوشة عبر الأفق الشرقي المظلم.

ليتني أستطيع أن أُصدِّق أن بداخلهما بَشَرًا.

أحيانًا يعودون

كانت زوجة چيم نورمان في انتظاره منذ الساعة الثانية، وحين رأت السيارة تقف أمام مسكنهما، خرجت لتلقاه، ذهبت قبلها إلى المتجر وابتاعت وجبة للاحتفال: بضعة شرائح من اللحم، وزجاجة نبيذ لانسرز، ورأس من الخس، وصلصة الألف جزيرة. الآن، وهي تراقبه خارجًا من السيارة، وجدت نفسها تأمل مع شيء من الاستماتة (وليس للمرة الأولى هذا اليوم) أن يوجد شيء ما يحتفلان به.

تقدَّم نحو الممشى، حاملًا حقيبته الجديدة في يد، وأربعة كتب في الأخرى، استطاعت أن ترى عنوان الكتاب العلوي: "مقدِّمة في النحو"، وضعت يديها على كتفه وسألت: "كيف صار الأمر؟".

وابتسم.

لكن في تلك الليلة، راوده الحلم القديم للمرة الأولى منذ وقت طويل جدًّا، واستيقظ متعرِّقًا مع صرخة وراء شفتيه.

أجـرى معـه المقابلـة ناظـر مدرسـة هارولـد داڤيـس الثانويـة ورئيـس قسـم اللغـة الإنجليزيـة، وأثـير موضـوع انهيـاره العصبـي.

توقَّع حدوث ذلك.

مـال الناظـر إلى الـوراء، وهـو رجـل أصلـع شـديد الشـحوب يُدعـى ڤينتـون، وتطلـع إلى السـقف، وأشـعل سـيمونز رئيـس قسـم اللغـة الإنجليزيـة غليونـه.

قـال چيـم نورمـان: "كنـتُ وقتَئِـذٍ تحـت ضغـط رهيـب". أرادت أصابعـه أن تتراقـص في حِجـرِه، لكنـه لم يسـمح لهـا.

قـال ڤينتـون مبتسـمًا: "أظـنُّ أننـا نفهـم ذلـك، وفي حـين أنـه لا رغبـة لدينـا في التفتيـش عـن الأسرار، فأنـا متأكِّـد أننـا مُتَّفقـون أن التدريـس مهنـة ضاغطـة، خاصـة في المرحلـة الثانويـة، أنـت تقـف عـلى خشـبة المـسرح في خمـس حصـص دراسـية مـن أصل سـبعة، وتـؤدِّي دورك أمـام أقـسى جمهـور في العـالم، هـذا هـو السـبب".

أنهى حديثه بشيء من التفاخُر.

"يعـاني المدرِّسـون مـن تَقَـرُّح المعـدة أكـثر مـن أصحـاب أي مهنـة أخـرى، باسـتثناء المراقبـين الجويِّـين".

قـال چيـم: "كانـت الضغـوط التـي سـاهمت في انهيـاري العصبـي شديدةَ الوَطـأَة".

أومـأ ڤينتـون وسـيمونز بتشـجيعٍ غـير مُلـزم، وطقطـق سـيمونز قدَّاحته كي يؤجِّـج غليونـه. فجـأة بـدا المكتـب ضيقًـا جـدًّا وقريبًـا جـدًّا. انتـاب چيـم ذلـك الإحسـاس الغريـب أن شـخصًا مـا أشـعل مصباحًـا حراريًّـا خلـف عُنُقـه. أرادت أصابعـه أن تتراقـص في حِجـرِه، لكنـه أوقفهـا.

"كنـت في سـنتي النهائيـة وأزاول التدريـس. ماتـت أمـي في الصيـف الـذي يسـبقه -بالسرطـان- وفي محـاورتي الأخـيرة معهـا، طلَبَـت منـي أن

أمضي في طريقي وأسوِّي أموري. شقيقي، شقيقي الأكبر، مات حين كنَّا صغارًا. كان يُخطط أن يصير مدرِّسًا، وهي ظَنَّت...".

رأى في عيونهم أنه كان يتساءل ويفكِّر: ربَّاه، إني اقترف حماقةً.

"نَفَّذتُ ما طلَبَته منِّي". هكذا قال، تاركًا العلاقة المعقَّدَة لأمِّه وشقيقه واين، واين المسكين القتيل، وذاته وراء ظهره.

"خلال الأسبوع الثاني من تدرُّبي على التدريس، وقعت خطيبتي في حادثة اصطدام وهروب بالسيارة، وكانت هي التي تعرَّضَت للاصطدام، من قِبَل فتًى يقود سيارة مُعدَّلة، لم يقبضوا عليه قطُّ".

أصدر سيمونز صوت تشجيع رقيق.

"ذهبتُ من فوري، لم يبدُ أن هناك سبيلًا آخر، كانت تُقاسي ألمًا عظيمًا: ساق مكسورة بشدَّة، وأربعة أضلاع متكسِّرة، ولكن لا شيء خطير، لا أظن أني عرفت الضغط الذي رزحت تحته حقَّ المعرفة".

احترس الآن، فهنا تنحدر الأرض بشدَّة.

قال جيم: "تدرَّبتُ في مدرسة سنتر ستريت الثانوية للتعليم المهني".

قال ڤينتون: "إنها فردوس المدينة: مطاوي، أحذية طويلة للدراجات البخارية، أسلحة مُصنَّعة يدويًّا في الدواليب، مضارب لحراسة أموال الغداء، وواحد من كل ثلاثة فتيان يبيع المخدرات للولدين الآخرَيْن، أعلم بشأن المدرسة".

قال جيم: "كان هناك فتى يُدعى ماك زيمرمان، فتى حسَّاس يعزف على الجيتار، حظيت به في فصل التأليف الموسيقيِّ، وكان موهوبًا. جئتُ ذات صباح حيث كان يمسك به ولدان بينما يحطِّم الثالثُ جيتاره الياماها قُبالَةَ المُبرِّد. كان زيمرمان يصرخ. صرخت فيهم كي يتوقَّفوا ويعطوني الجيتار، تحرَّكتُ نحوهم، ولكمني أحدهم". هَزَّ

چيـم كتفيـه "قُـضيَ الأمـر، انهَـرتُ عصبيًـا، لم أصرخ هسـتيريًّا أو أنـزوِ في ركـن الفصـل. لم أقـدر فحسـب عـلى العـودة. حـين أقـترب مـن المدرسـة، يضيـق صـدري، ولا أسـتطيع التَّنفُّـس كـما يجـب، وأتعـرَّق عرقًـا بـاردًا...".

قال ڤينتون بودٌ: "هذا أيضًا يحدث لي".

"خضَعـتُ للتحليـل النفـسي، ضمـن برنامـج علاجـي مُجتَمعـيٍّ، لم أقـدر عـلى تحمُّـل تكاليـف طبيـبٍ نفـسي، نفـع الأمـر معـي. سـالي وأنـا تزوَّجنـا، كان لديهـا عَـرَجٌ بسـيط وندبـة، وفيـما عـدا ذلـك، طابـت حالتهـا مـن جديـد". نظـر إليهـما مبـاشرة. "أظـنُّ أنـه يمكنكـما قـول نفـس الـشيء بخصـوصي".

قـال ڤينتـون: "أَتمَمـتَ شرطَ تدريبـك عـلى التدريـس في مدرسـة كورتيـز الثانويـة، هكـذا أظـنُّ".

قال سيمونز: "ولم يكن الطريق مفروشًا بالورود أيضًا".

قـال چيـم: "أردتُ مَدرسـةً صعبـة، بادَلـتُ مـع شـابٍّ آخـر لأكـون في كورتيـز".

علَّق سيمونز: "حصلتَ على درجات الامتياز من مُشرِفك ومُوَجِّهك".

"نعم".

"مـع مُعـدَّل تَراكُمـي 3.88 في السـنوات الأربـع، اقترَبـتُ بشـدَّة مـن درجـات الامتيـاز".

"استمَتعتُ بمُنجَزي الجامعي".

تبـادل ڤينتـون وسـيمونز النظـرات فيـما بينهـما، ثـم وقفـا، ووقـف چيـم.

قـال ڤينتـون: "سـنبقى عـلى اتِّصـال يـا سـيد نورمـان، لدينـا المزيـد مـن المتقدِّمـين كي نقابلهـم بالتأكيـد".

"نعم، بالطَّبع".

"لكن بيني وبين نفسي، فأنا مُنبَهرٌ بدرجاتك الجامعية، وصراحتك الشخصية".

"أمرٌ طيِّب منكَ قَولُ هذا".

"سيم، ربما يَوَدُّ السيد نورمان فنجانًا من القهوة قبل أن يغادر".

تصافَحَا.

في القاعة، قال سيمونز: "أظنُّ أنَّكَ حصَلتَ على الوظيفة إن كُنتَ تريدها. هذا الكلام بيني وبينكَ بالطَّبع".

أومأ چيم، فقد أبقى الكثير بينه وبين نفسه.

كانت مدرسة ديڤيس الثانوية صخرةً مَنيعةً، تشتمل على معمَلٍ فائِقِ العصريَّة، فقد مُوِّلَ الجَناحُ العِلميُّ وحده بمليون ونصف مليون دولار في ميزانية العام الفائت. أمَّا الفصول التي ما زالت مأهولةً بأشباح عُمَّال "م. ت. م[1]" وأطفال فترة ما بعد الحرب الذين كانوا أوَّلَ رُوَّادها، فقد فُرِشَت بتُخَت حديثة وسَبُّورَات ملساء. كان الطلاب نظيفين، ومُهندمين في الملبس، ونشيطين، ومُوسرين. يمتلك سِتَّةٌ من كُلِّ عشرة طُلَّاب في السنة النهائية سياراتهم الخاصة. مدرسة جيدة في المُجمل، مدرسة ممتازة للتدريس فيها خلال حقبة السبعينات المُقزِّزة. إنها تجعل مدرسة سنتر ستريت الثانوية للتعليم المهني تبدو وكأنها مجاهِلُ إفريقيا.

ولكن بعد ذهاب الفتية، تتَّضِح هَيمَنةُ شيء ما ساكِنٍ وعتيق على القاعات، ويهمس في الغُرَف الخاوية. شبح أسود مُؤذٍ لا يظهر أبدًا للعَيَان. أحيانًا، حين يتمشَّى في ممرِّ الجناح الرابع نحو المرآب مع

(1) اختصارًا لـ(منظمة تقدم المهن) (المترجم)

حقيبتـه الجديـدة في يـد واحـدة، يَظـنُّ نورمـان أنـه تقريبًـا يسـمعه وهـو يتنفَّــس.

راوده الحلــم ثانيــة في نهايــة أكتوبــر، وهــذه المـرة صرخ، خمــش بأظافــره طريقــه إلى الواقــع اليَقِـظ ليجِــدَ زوجتــه جالِســةً في الفــراش بجــواره، مُمسِــكةً كتفــه. كان قلبــه يجلجــل بشــدَّة.

قال: "ربَّاه"، وفَرَكَ وجهه بيَدِه.

"هل أنتَ بخير؟".

"بالتأكيد، أنا صرختُ، أليس كذلك؟".

"ويحي، طبعًا، أكان كابوسًا؟".

"نعم".

"شيء ما من وقت كَسرِ أولئك الفتية جيتار ذلك الولد؟".

قـال: "لا، بـل أقـدم بكثـير مـن هـذا، أحيانًـا يعـود إليَّ، هـذا كل شيء. ليســت مشــكلةً".

"متأكِّد؟".

"نعم".

"أتريد كوبًا من الحليب؟". كانت عيناها داكِنَتَيْن مع الانشغال.

قَبَّل كتفها "لا، اخلدي إلى النوم".

أطفأت المصباح، ورقد هناك، محدِّقًا إلى الظلام.

حظـي بجـدول حصـص جيِّـد بالنسـبة لمـدرِّس جديـد ضمـن طاقـم العمـل، الحصَّـة الأولى حصـة حُـرَّة، والثانيـة والثالثـة حصَّتـا كتابـة لطلبـة السَّـنة الأولى، توجـد مجموعـة بليـدة، ومجموعـة مَرِحَـة بعـض الـشيء، والحصـة الرابعـة حصتـه المُثـلَى: أدب أمريـكي مـع طلبـة في السـنة النهائيـة

ينـوون الالتحـاق بالجامعـة ويتلـذَّذون بتقريـع المدَرِّسـين القدامـى يوميًّـا لمـدَّة حصَّـة، الحصـة الخامسـة "حصَّـة استشـارية"، حيـث يتوجَّـب مقابلـة الطلبـة ذوي المشـاكل الشـخصية أو الأكاديميـة. ثمَّـة قِلَّـة قليلـة مِمَّـن يبـدو أن لديهـما الاثنـين (أو أرادوا مناقشـتها معـه)، وأمـضى أغلـب هـذه الحصـص مـع روايـة جيِّـدة. الحصـة السادسـة دورة في النحـو، جافَّـة مثـل غُبـار الطُّبشـور.

كانـت الحصـة السـابعة هـي صليبـه الوحيـد، تُدعـى الحصـة "الحيـاة مـع الأدب"، وتُعقـد في فصـل كالعُلبَـة الصغـيرة في الطابـق الثالـث. كانـت الغرفـة حـارَّةً في بواكـير الخريـف، وبـاردة مـع اقـتراب الشـتاء. الحصـة في حـدِّ ذاتهـا اختياريـة لمـن تُطلِـق عليـه كتالوجـات المدرسـة تأدُّبًـا "بطـيء التَّعلُّـم".

كان يوجـد 27 فتـى "بطـيء التَّعلُّـم" في فصـل جيـم، أغلبهـم مـن الرياضيِّـين في المدرسـة. أكـثر شيء مهـذب يمكنـك اتهامهـم بـه هـو عـدم الاكـتراث، ولـدى بعضهـم نـزوع إلى العـداء الصريـح، دخـل في يـوم مـن الأيـام ليجـد رسـمًا كاريكاتوريًّـا لـه، فاحِشًـا وقاسـيًا في دِقَّتـه، على السـبورة، مـع عبـارة "الأسـتاذ نورمـان"، مكتوبـة تحتهـا بـلا داعٍ.

مسحها دون تعليق، وباشر الدرس رغم أنف "الأحذية الرياضية".

وضـع خططًـا مثـيرة للـدروس، تشـتمل عـلى مـواد سـمعية/ بصريـة، مع طَلَبِـه بضعـة كتـب رفيعـة الـذوق تتطلَّـب إدراكًا عاليًـا، وذهـب كل هـذا سُـدًى. تراوَحَـت حالـة الفصـل بـين الصَّخـب الجامـح والصمـت المتجهِّـم. في بواكـير نوفمـبر، اندلعـت مشـاجرة بـين ولدَيْـن خـلال مناقشـة لروايـة "عـن الرجـال والفـئران". فضَّهـا جيـم وأرسـل الولديـن إلى المكتـب. حـين فتـح كتابـه حيـث تركـه، وجـد عبـارة "غـور في داهيـة" سـاطِعةً أمامـه.

حمـل المشـكلة إلى سـيمونز الـذي رفـع كتفيـه وأشـعل غليونـه، "ليـس لـديَّ حَـلٌّ فِعـليٌّ يـا جيـم. الحصَّـة الأخـيرة دائمًـا ملعونـة، والحصـول

علـى تقديـر "مقبـول" بالنسـبة لهـم معنـاه أنـه لا مزيـد مـن كـرة القـدم الأمريكيـة أو كـرة السـلة، ولديهـم دورات يسـيرة أخـرى في اللغـة الإنجليزيـة؛ لـذا فهـم عالقـون".

قال چيم بكآبة: "وأنا أيضًا".

أومـأ سـيمونز: "أظهِـرْ لهـم الجدِّيَّـة، وسـيعملون بجـدٍّ، ولـو حتـى فقـط ليحافظـوا عـلى جدارتهـم الرياضيـة".

ولكن بقيت الحصة السابعة شوكةً دائمةً في خاصرته.

مـن أكـبر مشـاكل فصـل "الحيـاة مـع الأدب" حيـوان مـوظ ضخـم بطـيء الحركـة يُدعـى شـيب أوزواي، في بدايـة سـبتمبر، وخـلال الوقفـة الوجيـزة بـين كـرة القـدم الأمريكيـة وكـرة السـلة (أوزواي لعـب كلتيهـما)، ضبـط معـه چيـم قصاصـة ورق يغـشُّ منهـا، وطـرده مـن الفصـل.

صـاح أوزواي في الممـرِّ المعتـم للـدور الثالـث: "إذا أسـقطتني في الامتحـان، سـننال منـك يـا ابـن العاهـرة!".

قال چيم: "اذهب، لا تُهدِرْ أنفاسَكَ".

"سننال منك أيها المسخ!".

عـاد چيـم إلى فصلـه، نظـروا إليـه مُداهنـين، فالوجـوه لا تخـدع أحـدًا. شـعر بدَفقَـةٍ مـن الـلا واقعيَّـة، مثـل إحسـاسٍ غَمَـرَه مـن قبـل.

"سننال منكَ أيُّها المسخ!".

أخـذ دفـتر الدرجـات مـن عـلى مكتبـه، وفتحـه عـلى صفحـة تحـت عنـوان "الحيـاة مـع الأدب"، وبحـرصٍ كَتَـبَ تقديـر "ضعيـف" في خانـة الامتحـان بجـوار اسـم شـيب أوزواي.

في تلك الليلة عاوَدَه الحُلمُ مرَّةً أخرى.

كان الحلم على الدوام قاسِيًا في بُطئِه، حيث يتَّسِع الوقتُ لرؤية كل شيء والإحساس به، مع حضور الرُّعب الإضافي في مُعايَشَة الأحداث من جديد، وهو مغلوبٌ على أمره مثل رجلٍ مُقيَّد داخل سيارة مُتَّجِهَة نحو جُرفٍ.

في الحلم، كان في التاسعة من عمره، وشقيقه واين في الحادية عشرة من عمره، كانا ذاهبين إلى شارعٍ فسيح في ستراتفورد، كونتيكنت، في الطريق إلى مكتبة ستراتفورد العامة. كُتُب جيم متأخِّرة يومَيْن عن موعد إعادتها، وتَحتَّم عليه سرقة أربعة سنتات من الزبدية في دولاب المطبخ لدفع الغرامة. كانت عطلةً صيفيَّةً، حيث تُشَمُّ رائحة العشب المجزوز لتوِّه، وتُسمَع أصداء مباراة كروية من نافذة شَقَّة في الدور الثاني، حيث يتقدَّم فريق "يانكيز" على فريق "ريد سوكس" بستَّة مقابل لا شيء في النصف الأول من الشوط الثامن، وتيد ويليامز يضرب الكرة، وترى الظِّلالَ الآتية من مبنى شركة بوريتس وهي تتكاثف على مهلٍ عبر الشارع بينما تُظلِمُ السَّماء رُوَيدًا رويدًا.

وراء متجر تيدي وبوريتس، كان ثمَّة جسرٌ علويٌّ للسِّكَّة الحديد، وعلى الناحية الأخرى، يحوم عدد من فشلة المنطقة حول محطة غاز مُغلَقَة، خمسة أو ستة فتية يرتدون معاطِفَ جِلديَّةً وبناطيل جينز منثنية. كره جيم المرور عليهم، كانوا يصيحون منادين إياه بـ "يا ذا العيون الأربعة"، و"يا صاحب كعوب الأحذية الخرائيَّة"، و"هاي... ألَدَيكَ رُبع دولار؟"، وذات مرة طاردوه حتى منتصف حيٍّ سَكنيٍّ، لكن واين لن يأخذ الطريق الطويل، سيعدُّ هذا جُبنًا.

في الحلم، لاح الجسر أقربَ فأقربَ، حيث تبدأ في الشعور بنزاع مُقلِق في حلقِكَ مثل طائر أسود كبير. أنت ترى كل شيء: لافتة بوريتس الفلورية- تبدأ لتَوِّها في التذبذب بين إضاءةٍ وانطفاء، والتقشُّرات على

الجسر الأخضر من الصدأ، وبهارِجَ الزُّجاج المنكسر في رماد قاعدة السِّكَّة الحديد، وإطار دراجة مكسورًا في القناة.

تحاول إخبار واين أنَّكَ مَرَرتَ بهذا من قبل مائة مرَّة. هذه المرَّة لا يحوم فَشَلةُ المنطقة حول محطَّة الغاز، وإنما يختبئون في الظلال تحت دعامة الجسر، لكنه لن يظهر. أنت عاجِزٌ.

بعدها أنت بالأسفل، وتتحرَّر بعض الظلال من الجدران، ويُدفَع واين على يَدِ فَتًى طويلٍ ذي قَصَّة شَعرٍ مُتدرِّجة شقراء وأنفٍ مكسورٍ قُبالَةَ قوالب الرَّماد قائلًا: "أَعطِنا بعضَ المال".

"دَعني وشأني".

تحاول الهروب، ولكن يشدُّكَ فتى بدينٌ ذو شعر أسود دُهنيٍّ ويُلقي بك قبالةَ الجدار جوار شقيقك، ويرفُّ جَفنُ عينه اليسرى لأعلى وأسفل بعصبيَّةٍ ويقول: "هيَّا يا ولد، كم معكَ من المال؟".

"أ... أربعة سنتات".

"يا لكَ من كذَّاب لعين".

يحاول واين الإفلات، ويساعد ولد ذو شَعر غريبٍ بُرتقاليِّ اللَّون الوَلَدَ الأشقرَ في الإمساك به، والفتى ذو الجفن المهتاج يُناوِلُكَ لَكمَةً في الفم. تشعر بثِقَلٍ مفاجئ في فَخِذِكَ، وتظهر بقعةٌ داكِنةٌ على بنطالك الچينز.

"انظُرْ يا ڤيني، لقد بَلَّل نَفسَه".

اهتاج واين في نزاعه، وأوشك أو لم يوشك على التحرُّر، وألقى به إلى مكانه فتًى آخر يرتدي بنطال شينو أسود وتي- شيرت أبيض. كانت توجد وَحمَة فراولة صغيرة على ذقنه. بدأ الحَلقُ الصَّخريُّ للجسر في الارتعاش، والتقطت العوارضُ المعدنية ذبذباتٍ رتيبةً. القطار قادم.

يُوقِع فتًى ما الكُتُبَ من بين يديك، ويركلها الفتى ذو الوحمة على الذَّقن إلى القناة المائية، وأفلَتَت فجأةً قَدَمُ واين اليمنى، وضربت الفتى ذا الوجه الغضوب بين منفرج ساقيه. صرخ.

"ڤيني، إنه يهرب".

صرخ الفتى ذو الوجه الغضوب بسبب خصيتَيْه، لكنَّ عواءه ضاع مع الدَّويِّ المزَلزِل المتصاعد للقطار المُقترب، ثم طغى عليهم، وملأ الدنيا بضجيجه.

تومض الأضواء على المطاوي. يمسك الفتى ذو قصَّة الشَّعر المُتدرِّجة الشقراء بواحدة، والوحمة بالأخرى. لا تقدر على سماع واين، لكن كلماته المتشكِّلة على هيئة شفاه كانت:

"اجري يا چيمي، اجري".

تتعثَّر على رُكبتَيْك، وقد رحَلَت الأيادي القابضة عليك، وتنزلق بين زوجٍ من السيقان مثل ضفدعة. تصفعك كفٌّ على ظهرك، تحاول أن تجرِّك، فتعود صفرًا. ثم تركض عائدًا من حيث أتيت، مع كل البطء اللزج المُريع للأحلام. تنظر للوراء من فوق كتفك وترى. استيقظ في الظلام، وسالي نائمة بجواره في سلام. كتم الصرخة، وحين اختنقت، تراجع إلى الوراء.

حين تطلَّع إلى الوراء، إلى الوراء نحو الظُّلمة المنفغرة للجسر، رأى الفتى الأشقر والفتى ذا الوحمة يُوَجِّهان نصالهم نحو شقيقه: نصل الأشقر أسفل عظم الصدر، ونصل الوحمة مُوَجَّه مباشرة نحو مَغْبِن شقيقه.

رقد في الظلام، متنفِّسًا بصعوبة، ومنتظرًا رحيل الشبح صاحب السنوات التِّسع، ومنتظرًا نومًا خالِصًا يُبطل وجود كلِّ هذا.

وبعد وقت لاحق غير معلوم، حدث هذا.

اندمجت عطلة الكريسماس مع إجازة نصف السنة في إدارة المدينة التعليمية، وامتدَّت الإجازة شهرًا تقريبًا. حضر الحُلم خلالها مرَّتَيْن، ولم يحضر ثانيةً. توجَّه هو وسالي لزيارة شقيقتها في فيرمونت، وتزلَّجا كثيرًا، كانا سعداء.

بدت مشكلة جيم مع فصل "الحياة مع الأدب" غيرَ مُهِمَّة وتافهة بعض الشيء في الهواء المفتوح الشفَّاف. عاد إلى المدرسة مع اسمرارٍ شِتائيٍّ للبَشرة، شاعرًا بالانتعاش ورباطة الجأش.

استوقفه سيمونز في الطريق إلى حصَّته الثانية وناوله ملفًّا، "طالب جديد، الحصَّة السابعة، الاسم روبرت لاوسون، مُحوَّل".

"ويحك، لديَّ 27 طالبًا الآن في الداخل يا سيم، أنا مُثقل".

"ما زال لديكَ 27، فقد قُتل بيل ستيرنز يوم الثلاثاء بعد الكريسماس، حادث سيارة، اصطدام وهروب بالسيارة".

"بيلي؟".

تكوَّنَت الصورة في ذهنه بالأبيض والأسود، مثل صورة عتيقة. ويليام ستيرنز: رابطة كاي كلوب (1)، كرة القدم (1، 2)، بن آند لانس (2)، كان من الجيِّدين القلائل في فصل "الحياة مع الأدب". هادئ، ودائم الحصول على تقديرات "امتياز" و"جيِّد جدًّا" في الامتحانات، لم يكن مبادِرًا على الدوام، لكنه استدعى في العادة الإجاباتِ الصَّحيحةَ (معجونة بحسٍّ ساخر مُحبَّب) عند سؤاله. مات؟ في الخامسة عشرة من عمره. ترك فَناءُ ذاته فجأة أثرًا في عظامه مثل تيَّار هواء بارد تحت عُقب باب.

"يا للمسيح! هذا رهيب، هل يعرفون ماذا حدث؟".

"رجال الشرطة يُحقِّقون في هذا، كان في وسط المدينة يبدِّل هدية كريسماس. بدأ المسير عبر شارع رامبارت، فصدمته سيَّارة فورد سيدان

قديمة. لم يلتقط أحدٌ رقمَ لوحة السيارة، بينما كُتِبَت كلمَتَيْ "عيني الثعبان" على الباب الجانبي، بطريقة قد يفعلها طفل".

قال چيم ثانية: "يا للمسيح!".

قال سيمونز: "ها هو الجرس".

أسرَعَ الخُطى، وتوقَّف ليُفرِّق جمعًا من الفتية حول نافورة شُرب الماء. توجَّه چيم نحو فصله، شاعرًا بالفراغ.

خلال حصَّته الحُرَّة، قلَّب في ملف روبرت لاوسون. أول صفحة كانت ورقة خضراء من مدرسة ميلفورد الثانوية التي لم يسمع عنها چيم قطُّ. الصفحة الثانية وثيقة تعريفية طُلَّابيَّة. مُعدَّل الذكاء 78. مع بعض المهارات اليدوية، ليست كثيرة. أجوبة غير اجتماعية على اختبار بارنيت- هدسون لتحديد الشخصية. درجات ضعيفة في القدرات. فكَّر چيم بمرارة أنه كان ابنًا لـ "الحياة مع الأدب" على طول الخَطِّ.

كانت الصفحة التالية سِجِلًا انضباطيًا، الورقة الصفراء. كانت ورقةَ ميلفورد بيضاء بإطار أسود، حَسَنَة التعبئة بشكل مُحبط. كان لاوسون يقاسي مائة صنف من المشاكل.

قلب إلى الصفحة التالية، لمح تحتها صورةً مدرسيَّة لروبرت لاوسون، ثم نظر ثانية. زحف الرُّعبُ فجأةً إلى تجويف بطنه وتلوَّى هناك، دافئًا ومهسهسًا.

كان لاوسون يحدِّق بعدوانية إلى الكاميرا، كما لو كان يَتَموضَع من أجل صورة جنائية للشرطة وليس أمام مصوِّر مدرسي. كانت توجد وحمة فراولة صغيرة على ذقنه.

بحلول الحصة السابعة، كان قد استحضر كلَّ المُبرِّرات العقلانية في أفق النظر، حَدَّث نفسه بحتميَّة وجود الآف الفِتيَة أصحاب الوحمات الحمراء على ذقونهم. قال لنفسه إن ابن الضواحي الذي طعن

شقيقه في ذلك اليوم منذ 16 عامًا فاتت وماتت سيكون سِنُّه الآن اثنين وعشرين عامًا على الأقل.

ولكن بقيت الفكرة في أثناء صعوده إلى الطابق الثالث، مع خوفٍ آخرَ مُصاحِب: هذا ما شعرت به حين انهرت عصبيًّا. تذوَّقَ في فمه الطعم الفولاذيَّ اللامع للذُّعر.

كانت عُصبَة الفتية المعتادة تعبث حول باب الغرفة 33، ودخل بعضهم حين رأوا جيم يخرج، تسكَّع عددٌ منهم، متحدِّثين بأصوات خفيضة مع ابتسامات. رأى الولد الجديد واقفًا خلف شيب أوزواي. كان روبرت لاوسون يرتدي جينز أزرق وحذاءً طويلًا تراكتور أصفر؛ موضة هذا العام.

"شيب، تعال".

ابتسم ببلاهة في وجه جيم، "أهذا أمر؟".

"بالتأكيد".

"هل أسقطتَني في هذا الامتحان؟".

"طبعًا".

"نعم، هذا..". وجاء بقيَّة الكلام غَمغمَةً غير مسموعة.

استدار جيم إلى روبرت لاوسون، وقال: "أنت مُستَجدٌّ، أردت فقط إخبارك كيف ندير الأمور هنا".

"بالتأكيد يا سيد نورمان". يقسم حاجبه الأيمن جُرح صغير، جُرح مَيَّزه جيم، لا يمكن أن يُصيبَه اللبس. كان محضَ جنون، خَبلًا تامًّا، لكنه أيضًا حقيقة. منذ ستة عشر عامًا، دفع هذا الفتى مُديَةً في جسد شقيقه.

رأى نفسه وهو فاقد الإحساس، كما لو كان من مسافة بعيدة، حيث شرع في تلخيص قواعد وتوجيهات الفصل. شَبَكَ روبرت لاوسون إبهامَيْه على حزامه العسكري، واستمع، وابتسم، وبدأ الإيماء، كما لو كانا أصدقاء قدامى.

"چيم؟".

"هاااا؟".

"أيوجد خَطبٌ ما؟".

"لا".

"أيُضايِقُكَ أحدٌ من فتية "الحياة مع الأدب؟"".

لا جواب.

"چيم؟".

"لا".

"لِمَ لا تذهب إلى الفراش مُبكِّرًا الليلة؟". لكنه لم يفعل.

كان الحلم سيِّئًا جدًّا تلك الليلة، حين طعن الفتى ذو وحمة الفراولة شقيقَه بمُديَته، نادى على چيم: "أنت التالي يا ولد، وبكل ما في حوزتي مباشرة".

استيقظ صارخًا.

كان يُدرِّس رواية "أمير الذباب" هذا الأسبوع، ويتحدَّث عن الرمزية حين رفع لاوسون يده.

قال في هدوء: "روبرت؟".

"لماذا تستمرُّ في التحديق إليَّ؟".

طرفت عين چيم وشعر بجفاف فمه.

"أترى شيئًا أخضر؟ أم أن سَحَّاب بنطالي مفتوح؟".

انبعثت ضحكة مكتومة مُهتاجة من الفصل.

ردَّ چيم بهدوء: "لم أكُن أُحدِّق إليك يا سيد لاوسون، أيمكنك أن تخبرنا لماذا اختلف رالف وچاك على...".

"كُنتَ تُحدِّق إليَّ".

"أتريد أن نتحدث في الأمر مع السيد ڤينتون؟". بدا على لاوسون أنه يفكِّر مليًّا.

"لا".

"جيد، إذن أخبِرني لماذا اختلف رالف وچاك...".

"لم أقرأه، أظنُّ أنه كتاب غبي".

ابتسم چيم في ضيق.

"أهذا رأيُكَ، الآن؟ ينبغي عليك التذكُّر أنه حينما تحكم على الكتاب، فالكتاب أيضًا يحكم عليك. والآن أيمكن لأحد آخر أن يخبرني عن سبب اختلافهما على وجود الوحش؟".

رفَعَت كاثي سلاڤن يدها، وتَمَعَّن فيها لاوسون بسخرية، وقال شيئًا ما لشيب أوزواي. بدت الكلمات التي غادرت شفتيه على شاكلة "ثديين جميلين". أومأ شيب.

"كاثي؟".

"أليس هذا لأن چاك أراد اصطياد الوحش؟".

"رائع"، استدار وبدأ الكتابة على السبورة. ولحظة استدار بظهره، انسحقت ثمرة جريب فروت قُبالةَ السبُّورة بجوار رأسه.

اهتزَّ للخلف واستدار. ضحك بعض طلاب الفصل، لكن أوزواي ولاوسون فقط نظَرَا إلى چيم ببراءة.

انحنى چيم والتقط ثمرة الجريب فروت، قال وهو ينظر إلى جدار الحجرة: "شخص ما ينبغي عليه أن يحشر هذه في حنجرته اللعينة".

شهقَت كاثي سلاڤن.

ألقى ثمرة الجريب فروت في سَلَّة المهملات، وعاد إلى السبورة.

فتح جريدة الصباح، محتسيًا قهوته، ورأى العنوان الرئيسي أثناء مطالعته تقريبًا. قال: "يا إلهي!"، كاسِرًا بذلك التدفُّقَ اليَسيرَ لثرثرة زوجَتِه الصباحية. شعر فجأة بامتلاء بطنه بالشظايا، "سقوط فتاة مراهقة نحو حتفها": كاثرين سلاڤن، طالبة السنة الثالثة في مدرسة هارولد داڤيس الثانوية ذات السبعة عشر عامًا، إمَّا أنها سقطت أو دُفِع بها من فوق سطح مسكنها في وسط المدينة في وقت مبكر من مساء الأمس. الفتاة التي أبقت على عُشٍّ حَمامٍ على السطح وصعدت إلى الأعلى ومعها جوالُ الطَّعام، حسبما تقول أمُّها.

"ذكَرَت الشرطة أن سيدة غير معروفة الهوية في حيٍّ سكَنيٍّ قَيدِ التطوير رأت ثلاثة صبية يركضون على السطح في الساعة السادسة إلا الربع مساءً بعد أن كانت جُثَّة الفتاة... (يُتبع في صفحة 3)".

"چيم، أكانت طالِبةً من طُلَّابِك؟". لكن لم يَسَعه سوى النظر إليها صامتًا.

بعد أسبوعين، قابله سيمونز في القاعة بعد جرس وقت الغداء مع مُلفٍّ في يده، وشعر چيم بانقباض رهيب في بطنه.

قال لسيمونز برتابة: "طالِبٌ جديد، فصل "الحياة مع الأدب"".

ارتفع حاجِبَا سيم: "كيف عَرَفتَ؟".

هزَّ چيم كتفيه، ومدَّ يده لأجل الملف.

قال سيمونز: "عليَّ أن أركض؛ رؤساء الأقسام مجتمعون بخصوص تقييم المقرَّرات الدراسية، تبدو مُرهَقًا، هل أنتَ بخير؟".

هذا صحيح، مُرهَقٌ قليلًا، مثل بيلي ستيرنز.

قال: "طبعًا".

قال سيمونز: "كم هذا عظيم"، وربت على ظهره.

حين ذهب، فتح چيم الملف على الصورة، وجَفَلَ مسبقًا، مثل رَجُلٍ على وشك أن يُضرب.

لكنه لم يألف وجهه في الحال، مجرَّد وجهِ فتًى، ربما رآه من قبل، وربما لا. الفتى داڤيد جارسيا كان ولدًا ضخمَ الجُثَّة، داكِنَ الشَّعر، وله شفاهٌ داكنة شبه زنجية، وعينان ناعستان. تقول الورقة الصفراء إنه هو الآخر من مدرسة ميلفورد الثانوية، وقضى عامين في إصلاحية جرانفيل. سرقة سيارة.

أغلق چيم الملفَّ بأيدٍ مُرتَعِشة، بخِفَّة.

"سالي؟".

نَظَرت إليه من عند طاولة الكي. كان يُحدِّق إلى مباراة كرة سلة على التلفاز دون مشاهدته فعليًّا.

قال: "لا شيء، انسَيْ ما كنتُ سأقوله".

"حتمًا كانت كذبةً".

ابتسم بطريقة آليَّةٍ ونظر مُجدَّدًا إلى التلفاز، كان سيفصح بكل شيء كان على طرف لسانه، لكن كيف يمكنه ذلك؟ كان الأمر أسوأ من الجنون. من أين تبدأ؟ الحلم؟ الانهيار العصبي؟ ظهور روبرت لاوسون؟

لا، ابدأ مع واين، شقيقِك.

لكنـه لم يخبر أحـدًا بهـذا، ولا حتـى في جلسـات التحليـل. تحوَّلـت أفـكاره نحـو داڤيـد جارسـيا، والرعـب الحُلمـي الـذي غمـره حـين نظـر أحدهـما للآخـر في القاعـة. بالطبـع بـدا في الصـورة مألوفـًا بطريقـة غامضة. الصـور لا تتحـرّك ولا تتنفـض.

كان جارسـيا واقفـًا مـع لاوسـون وشـيب أوزواي، وحـين تطلّـع ورأى چيـم نورمـان، ابتسـم وبـدأ جَفنُـه يَـرفُّ لأعـلى ولأسـفل، وتحدَّثَـت الأصـوات في رأس چيـم بوضـوحٍ خـارق للمألـوف:

تعال يا ولد، كم معك من المال؟ أ... أربعة سِنتات.

أيُّها الكاذب اللعين، انظُر يا ڤيني، لقد بَلَّل نفسه.

"چيم، هل كنتَ تقول شيئًا؟".

"لا". لكنه لم يتأكَّد سواء أقال شيئًا أم لم يَقُل، صار خائفًا جدًّا.

ذات يـوم بعـد المدرسـة في بواكـير فبرايـر، قُـرِعَ بـاب غرفـة المُعلِّمـين، وحـين فتحـه چـاك، كان شـيب أوزواي واقفـًا عنـده، بـدا مُرتَعِـدًا. كان چيـم بمفـرده، كانـت السـاعة الرابعـة وعـشر دقائـق، وعـاد آخـر المدرِّسـين إلى منزلـه منـذ سـاعة مضـت. كان يصحِّـح حزمـة مـن مواضيـع الأدب الأمريـكي.

قال چيم بهدوء: "شيب".

تحـرَّك شـيب مُتثاقِـلًا: "أيمكننـي التحـدُّث معـك دقيقـة يـا سـيد نورمـان؟".

"بالتأكيد، ولكن إن كان الأمر بخصوص الامتحان، فأنت تُضيع...".

"ليس بخصوص هذا، آآ، أيمكنني التدخين هنا؟".

"تَفضَّل".

أشـعل سـيجارة بِيَـدٍ مرتعشـة بعـض الـشيء، لم يتفـوَّه بكلمـة ربمـا لأكـثر مـن دقيقـة، بـدا أنـه غـير قـادر، شـفتاه ترتعشـان، ويـداه متلاقيتـان، وعينـاه ضيقتـان، كأنَّ شـخصًا في داخلـه يجاهـد لإيجـاد تعبـير.

فجـأة اندفـع في الحديـث: "إذا فعلوهـا، أريـدك أن تعـرف أني لم أكـن متورِّطًـا! لسـت مثـل أولئـك الفتيـة، إنهـم مسـوخ".

"أي فتية يا شيب؟".

"لاوسون، وذلك المسخ جارسيا".

"هـل يُخطِّطـان للنَّيـل منِّـي؟". سـيطر عليـه الرعـب الحُلمـيُّ الرهيـب، وعـرف الإجابـة.

قـال شـيب: "أحببتهـما في البدايـة، خرجنـا معًـا وشربنـا بعـض البـيرة، بـدأت أشـكو منـك ومـن الامتحـان، وكيـف كنـتُ سـأنال منـك، لكـن الأمـر لم يتعـدَّ حاجـز الـكلام، أقسـم لـك".

"ماذا حدث؟".

"اشـتركا معـي في الحـال، سـألنا في أي وقـت تغـادر المدرسـة، وأي طـراز سـيارة تقـوده، كل هـذه الأشـياء، فقلـتُ مـاذا لديكما ضِدَّه، وقال جارسـيا إنهـما يعرفانـك منـذ وقـت طويـل، هـاي، هـل أنـت بخـير؟".

قال بغلظة: "السيجارة، لم أعتَد قَطُّ على الدُّخان".

داس شيب عليها.

"سـألتهما متـى عَرَفـاكَ، وقـال بـوب لاوسـون إني كنـتُ وَقتَئـذٍ مـا زِلـتُ أُبلِّـل حفَّاضـاتي، لكنهـما في السـابعة عـشرة مـن العمـر، مثـلي".

"ماذا إذن؟".

"طيِّـب، لاوسـون مـال عـلى الطاولـة وقـال لي: لـن تسـتطيع النَّيـل منـه بشـدَّة إن كنـت حتـى لا تعـرف موعـد مغادرتـه المدرسـة اللعينـة، مـاذا

كنـتَ سـتفعل؟ لـذا قلـت إني كنـتُ سـأثقب عجـلات سـيَّارَتك وأتـركك مـع أربـع عجـلات فارغـة". نظـر إلى چيـم بعينـين متضرِّعَتَـيْن "مـا كنـت سـأقترف هـذا، قلـت هـذا لأني...".

"كنتَ خائفًا؟". هكذا سأل چيم بسرعة.

"نعم، وما زِلتُ خائفًا".

"ماذا كان ظنُّهم بخصوص فكرتك؟".

ارتعـد شـيب. "قـال بـوب لارسـون: أهـذا مـا كنـتَ سـتفعله يـا وجـه القضيـب؟ وقلـت في محاولـةٍ لأكـون صارمًـا: مـاذا كنـت سـتفعل، تقتلـه؟، وأخـرج جارسـيا -الـذي بـدأت عينـاه تعلـوان وتهبطـان- شـيئًا مـا مـن جيبـه، وفتحـه، وكانـت مطـواةً. كان هـذا وقتـما غـادرت".

"متى كان هذا يا شيب؟".

"يـوم أمـس، أنـا خائـف مـن القعـود مـع أولئـك الفتيـة الآن يـا سـيد نورمـان".

قال چيم: "حسنًا".

"حسـنًا". أخفـض رأسـه نحـو الأوراق التـي كان يُصحِّحهـا دون النظـر فيهـا.

"ماذا ستفعل؟".

"لا أعلم، حقيقةً لا أعلم".

في صبـاح يـوم الاثنـين، كان مـا يـزال لا يعلـم، كانـت أوَّلَ خاطِـرَةٍ لديـه أن يُخبِر سـالي بـكل شيء، بدايـةً مـن مَقتَـل شـقيقه منـذ سـتة عـشر عامًـا، لكـن هـذا مسـتحيل، سـتتعاطف، ولكـن بخـوفٍ وعـدم تصديـق.

سـيمونز؟ مسـتحيلٌ أيضًـا، قـد يظـنُّ سـيمونز أنـك مجنـون، وربمـا هكذا يَظـنُّ بالفعـل. قـال رجـلٌ في جلسـة تعـارُفٍ جماعيَّـة حضرهـا إن الانهيـار

العصبي يُشبه كسر مزهريَّةٍ، ثم لصق كسراتِها معًا من جديد، حيث لن تَثِقَ أبدًا في نفسِكَ بخصوص التعامُل مع تلك المزهرية مرَّةً أخرى بأي يقين، لن تستطيع وضع زهرة فيها لأن الزهور تحتاج إلى الماء، والماء قد يذيب الغراء.

إذن، هل أنا مجنون؟

إن كان هو كذلك، فشيب أوزاوي هو الآخر هكذا، خطَرَت له هذه الخاطِرةُ وهو يركب سيارته، واجتاحته صاعِقَةٌ من الإثارة.

بالطَّبع! لاوسون وجارسيا هدَّداه في حضور شيب أوزواي. قد لا يُعترف بهذا أمام الجهات القضائية، لكنه سيتسبَّب في فصلهما إذا جعل شيب يعيد سَردَ قِصَّته في مكتب ڤينتون. وكان على يقين تقريبًا أنه يقدر على دفع شيب لفِعلِ ذلك. لدى شيب أسبابه الخاصَّة في رغبته في إبعادهما.

كان يقود السيارة إلى المرآب حين فكَّر فيما حدث لبيلي ستيرنز وكاتي سلاڤن.

خلال حِصَّته الحُرَّة، اتَّجه إلى المكتب، ومال على مكتب سكرتيرة تسجيل الحضور. كانت تُعِدُّ قائمة الغائبين.

سأل بشكلٍ عارضٍ: "هل شيب أوزواي هنا اليوم؟".

نظَرَت إليه متشكِّكةً: "شيب؟".

صحَّح چيم: "تشارلز أوزواي، واسم شُهرَته شيب".

قلَّبَت في كومَةٍ من القصاصات، ولمحت واحِدةً وأخرَجَتها.

"إنه غائِبٌ يا سيد نورمان".

"أيُمكِنُك أن تعطيني رقم هاتفه؟".

حشَرَت قلمها الرصاص في شعرها، وقالت: "طبعًا"، فتَّشَت عنه داخل الملف وناوَلَته إيَّاه. اتَّصل جيم بالرقم من هاتف مكتبي.

رنَّ الجرس بضعةَ مَرَّاتٍ، كان على وشك إغلاق الخط حين ردَّ عليه صوتٌ فَظٌّ يَغْشاه النوم: "ألو؟".

"سيِّد أوزواي؟".

"باري أوزواي مات منذ ست سنوات، أنا جاري دينكينجر".

"هل أنت زوج والدة شيب أوزواي؟".

"ماذا فعل؟".

"عفوًا؟".

"لقد هرب، أريد أن أعرف ماذا فعل".

"لا شيء حسبما أعرف حتى الآن، أرَدتُ فقط التَّحدُّث إليه، ألديكَ أيُّ فكرةٍ أين قد يكون؟".

"لا؛ فأنا أعمل ليلًا، لا أعرف أحدًا من أصدقائه".

"ألديكَ فِكرة عن...".

"لا؛ فقد أخذ حقيبته القديمة وخمسين دولارًا ادَّخَرها من سرقة قطع السيارات أو بيع المخدِّرات- أو أيًّا كان ما يفعله الفتية من أجل المال. ذهب على حَدٍّ علمي إلى سان فرانسيسكو ليصير هيبيًّا".

"لو عَرَفتَ عنه شيئًا، أيُمكِنُكَ الاتِّصال بي في المدرسة؟ أنا جيم نورمان، من جناح اللغة الإنجليزية".

"سأفعل بالتأكيد".

وضع جيم السَّمَّاعة. تطلَّعَت سكرتيرة مكتب التسجيل وأظهَرَت ابتسامةً وجيزةً لا معنى لها. لم يبادلها جيم الابتسام.

بعـد يومـين، ظهـرت كلِمَتَـا "غـادَرَ المدرسـة" بعـد اسـم شـيب أوزواي في ورقـة الحضـور الصباحـي. بـدأ چيـم ينتظـر ظهـور سـيمونز مـع ملـفٍّ جديـد، وقـد فعلهـا بعـد أسـبوع.

نظـر مُتَملمِـلًا إلى الصـورة. لا حـيرة في أمـر هــذا الطالــب. اسـتُبدِلَ الشَّـعر الطويـل مـع قَصَّـة الشَّـعر المتَدرِّجـة، لكنـه مـا يـزال أشـقرَ، والوجـه هـو ذاتـه، ڤِنسِـنت كـوري، أو "ڤينـي" بالنسـبة لأصدقائـه ورفاقـه. حـدَّق إلى چيـم مـن الصـورة. ابتسـامة وَقِحَـة عـلى شـفتيه.

حـين قـارب عـلى حصَّتـه السـابعة، خفـق قلبـه خفقًـا مُميتًـا في صـدره. كان لاوسـون وجارسـيا وڤينــي كـوري واقفـين بمحـاذاة لوحـة الإعلانـات خـارج البـاب، واعتدلـوا حـين جـاء نحوهـم.

ابتسـم ڤينـي ابتسـامته الوقحـة، بينـما كانـت عينـاه بارِدَتـيْن وميِّتَتَـيْن مثـل أطـواف الجليـد.

"حتمًا أنت السيد نورمان، أهلًا يا نورم".

ضحك لاوسون وجارسيا ضحكةً خافِتَة.

قـال چيـم مُتجاهِـلًا يـد ڤينـي الممـدودة إليـه: "أنـا السَّـيِّد نورمـان، هـل سـتتذكَّر هـذا؟".

"بالتأكيد سأتذكَّره، كيف حال أخيك؟".

تجمَّـدَ چيـم، وشـعر بارتخـاء مَثانَتِـه، وكـما لـو كان مـن مبعـدة، مـن أسـفل ممـرٍّ طويـل في موضـعٍ مـا داخـل جُمجُمَتِـه، سـمع صوتًـا شـبحيًّا: انظـر، لقـد بَلَّـل نفسـه.

سأل بغِلظةٍ: "ماذا تعرف عن أخي؟".

قـال ڤينـي: "لا شيء، ليـس الكثـير"، ابتسـموا لـه ابتسـاماتهم الخاويـة الخَطِـرَة.

دقَّ الجرس، ومشوا على مَهلٍ إلى الداخل.

في كابينـة الهاتـف داخـل الدّرَجسـتور، السـاعة العـاشرة مـن هـذه الليلـة.

"يـا مُشَـغِّل الهاتـف، أريـد الاتصـال بقسـم الشرطـة في سـتراتفورد بكونيتيكـت. لا، لا أعـرف الرقـم".

تكتكات على الخَطِّ. مُداوَلات.

كان الشرطـي هـو السـيد نيـل، أبيـض الشَّـعر في تلـك الأيـام، وربمـا في منتصـف الخمسـينيات مـن عمـره. يصعـب التمييـز حـين تكـون طفـلًا فحسـب. والدهـما ميِّـت، وعـرف السـيد نيـل هـذا بطريقـة مـا.

نادوني السيد نيل يا أولاد.

التقـي چيـم وشـقيقه يوميًّـا في وقـت الغـداء، وذهبـا إلى حافلـة الطعام لتنـاوُلِ محتويـات أكيـاس غدائهـما. أعطـت الأمُّ لِـكُلٍّ منهـما خمسـةَ سِـنتات لـشراء الحليـب، وكان هـذا قبـل بـدء تطبيـق برامـج الحليـب المـدرسي، وفي بعـض الأحيـان يدخـل السـيد نيـل، حيـث يُصـدِر حزامُـه الجلـديُّ صريـرًا مـن حِمـل كَرِشـه ومسدَّسـه طـراز 38، ويبتـاع لـكُلٍّ منهـما فطـيرة آلا مـود[1].

أين كُنتَ حين طعنوا شقيقي يا سيد نيل؟

أجرى الاتصال، ورنَّ جَرسُ الهاتف مرَّةً واحدة.

"شرطة ستراتفورد".

"مرحبًـا، اسـمي چيمـس نورمـان أيُّهـا الضابـط، وأتَّصِـل مـن مـكانٍ بعيـد". ذكـر اسـم المدينـة، "أريـد أن أعـرف إن أمكَنـكَ توصيـلي بِرَجُـلٍ كان عـلى قـوة الشرطـة في العـام 1957 تقريبًـا".

---

(1) حلوى أمريكية تقدم مع الآيس كريم، والترجمة الحرفية لاسمها (فطيرة على الموضة) (المترجم)

"ابقَ على الخَطِّ لحظة يا سيد نورمان".

وقفة، ثم صوت جديد.

"أنـا الرقيـب مورتـون ليفنجسـتون يـا سـيد نورمـان، مَـن الـذي تحـاول الوصـول إليـه؟".

قـال چيـم: "طيِّـب، في الصِّغَـر كُنَّـا نناديـه فحسـب السـيد نيـل، هـل هـذا...؟".

"سـحقًا، نعــم! دون نيــل مُحــال إلى التقاعُــد الآن، إنــه في الثالثــة والســبعين أو الرابعــة والســبعين".

"هل ما يزال يعيش في ستراتفورد؟".

"نعم، في بارنوم آڤينيو، أتريد العنوان؟".

"ورقم الهاتف إن كان لديكَ".

"حسنًا، هل تعرف دون؟".

"اعتــاد أن يبتــاع لي ولأخــي فطـيرة تفــاح آلا مــود في حافلــة طعــام ســتراتفورد".

"يا للمسيح! لقد وَلَّت هذه منذ عشر سنوات. انتَظِرْ دقيقة".

عـاد عـلى الخَـطِّ وأمـلى عنوانًـا ورقـم هاتـف. دوَّنهـما چيـم، وشـكر ليفنجسـتون، وأغلـق الخـطَّ.

اتَّصـل مـرَّةً أخـرى، وأعطـى الرقـم وانتظـر. حـين بـدأ جـرس الهاتـف يـرنُّ، مـلأه توتُّـرٌ حـارٌّ مُفاجـئ وانحنـى إلى الإمـام، مبتعـدًا بتلقائيَّـةٍ عـن ماكينـة المشروبـات الغازيـة في الدّرَجسـتور، رغـم عـدم وجـود أحد هنـاك مـا عـدا فتـاة مراهقـة ممتلئـة الجسـم تقـرأ مجلـة.

ردَّ عـلى الهاتـف صـوتٌ أنيـق، ذكـوريٌّ، لا يبـدو عجـوزًا عـلى الإطـلاق، "ألـو؟"، أطلقـت هـذه الكلمـة الوحيـدة سلسـلةَ تفاعُـلاتٍ مُغـبرَّة مـن

الذكريـات والمشـاعر، مُذهلـة، مثـل اسـتجابةٍ انعكاسـيَّةٍ تنطلـق عـن طريـق سـماع تسـجيل قديـم عـلى المذيـاع.

"سيد نيل؟ دونالد نيل؟".

"نعم".

"اسمي چيمس نورمان يا سيد نيل، تتذكَّرني، أليس كذلك؟".

"نعـم". هكـذا ردَّ الصـوت في الحـال "فطـيرة آلا مـود، قُتِـلَ شـقيقُكَ بمُديَـةٍ، يـا للعـار! كان ولـدًا محبوبًـا".

انهـار چيـم قُبالـةَ إحـدى الجـدران الزجاجيـة للكابينـة، تركـه الرحيـلُ المفاجـئ للتوتُّـر ضعيفًـا مثـل دُميَـةٍ مَحشـوَّة. وجـد نفسـه عـلى حافَّـة البـوح بـكل شيء واسـتمات في كبـح هـذه الرغبـة.

"سيد نيل، لم يُقبَض قَطُّ على أولئك الفِتيَة".

قـال نيـل: "لا، كان لدينـا مُشـتَبَهٌ بهـم، وحسـبما أتذكَّـر، أوقفناهـم في طابـور عـرض في قسـم شرطـة بريدجبـورت".

"هل كان أولئك المشبوهون معروفين لي بالاسم؟".

"لا، فالإجـراء المُتَّبـع في العـرض الشُّرَطـيِ هـو منـاداة المشـاركين بالأرقام، مـا سـبب اهتمامـك بهـذا الآن يـا سـيد نورمـان؟".

قـال چيـم: "دعنـي أُلـقِ عـلى مسـامِعِكَ بضعـة أسـماء، أريـد معرفـة إن كانـوا يُذَكِّرونـكَ بـشيء ذي صِلـةٍ بالقضيـة".

"يا بُنيَّ، أنا لن...".

"ربَّمـا تتذكَّـر". هكـذا قـال چيـم، شـاعِرًا بـشيء مـن الاسـتماتة. "روبـرت لاوسـون، داڤيـد جارسـيا، ڤنسـنت كـوري، هـل أحـدٌ مـن هـؤلاء...".

"كـوري". هكـذا قـال السـيد نيـل بنـبرةٍ قاطِعَـة. "أتذكَّـرُه، ڤينـي الأفعى، نعـم، كان في حَوزَتِنـا في هـذه القضيـة. قَدَّمَـت أمُّـه حجَّـةً تفيـد غيابـه عـن

موقـع الجريمـة. لم أتلـقَّ أي شيء عـن روبـرت لاوسـون. قـد يكـون اسـمًا لأي شـخص، بينـما جارسـيا هـذا يُذكّـرني بـشيء مـا، ولا أعلـم السـبب. سُـحقًا، أنـا رجُـلٌ مُسِـنٌّ". بـدا صوتـه شـاعِرًا بالاشـمئزاز.

"يا سيد نيل، أتوجد طريقةٌ للتأكُّد من أولئك الفتية؟".

"في الحقيقة نعم، لم يعودوا صِبيةً بعد الآن".

أوه، حقًّا؟

"اسمع يا جيمي، هل ظَهَرَ واحِدٌ من هؤلاء الفتية وضايَقَكَ؟".

"لا أعـرف، حدَثَـت بعـض الوقائـع الغريبـة، وقائِـعُ تَتعلَّـق بطَعْـن شـقيقي".

"أيُّ وقائع؟".

"يا سيد نيل، لا أستطيع إخبارَك، ستَظنُّ أني كنتُ مجنونًا".

جاء رَدُّه سريعًا وحاسِمًا ومُهتمًّا: "هل أنتَ كذلك؟".

تجمَّد جيم. قال: "لا".

"حسـنًا، يمكننـي فَحـصُ الأسـماء مـن خـلال سـجلّات سـتراتفورد المدنيَّة، كيـف أتواصـل معك؟".

أعطـاه جيـم رقـم هاتفـه، "سـتجدني عـلى الأرجـح مسـاء الثلاثـاء"، كان يتواجـد كلَّ لَيلـةٍ تقريبًـا، بينـما تذهـب زوجتـه في ليـالي الثلاثـاء إلى درس الفخّـار.

"ماذا تفعل هذه الأيام يا سيد جيم؟".

"أعمل مُدرِّسًا في المدرسة".

"جيِّـد، سيسـتغرق الأمـرُ أيامًـا قليلـة؛ فأنـتَ تَعلـمُ، أنـا الآن مُحـالٌ إلى التَّقاعُـد".

"يبدو صوتُكَ كسابِقِ عَهدِه".

ضحـك مُتكَتِّمًا: "آه لـو أَمكَنَـكَ رؤيتـي، أمـا زِلـتَ تَـودُّ قطعـةً شـهيَّةً مـن فطـيرة آلا مـود يـا چيمـي؟".

قال چيم: "بالتأكيد"، كانت كِذبةً؛ كان يَكرَه فطيرة آلا مود.

"مسرورٌ لِسَماع هذا، طيِّب، إذا لم يوجد أمرٌ آخر، فأنا سـ...".

"هناك أمرٌ آخر، أتوجد في ستراتفورد مدرسة ميلفورد الثانوية؟".

"لم أسمع بها".

"هذا ما كنت آ...".

"مـكانٌ واحِـدٌ فقـط في الجـوار باسـم ميلفـورد، وهـي مقـبرة ميلفـورد عـلى طريـق آش هايتـس، ولم يتخـرَّج أحـدٌ قَـطُّ منهـا". ضحـك ضحكـةً خافِتـةً جافَّـة، بَـدَت في أذنَيْ چيـم مثـل قَعقَعَـةٍ مُفاجِئـة للعظـام في حُفـرَة.

سمع نفسه يقول: "شكرًا لك، إلى اللقاء".

ذهـب السـيد نيـل، طلـب منـه مُشـغِّل الهاتـف أن يُـودِعَ سِـتِّين سِـنتًا، ووضعهـا أوتوماتيكيًـا. اسـتدار وحَملَـقَ إلى وجـهٍ مُـروِّع مُنسَـحِق مُلتَصِـق قُبالـةَ الزُّجـاج، تُؤَطِّـره يـدان متباعدتـان، مـع أصابـع مُفَلطَحَـة تسـطَّحَت حتـى ابيَضَّـت قُبالـةَ الزُّجـاج، وكذلـك كانـت أرنبـة أنفـه.

كان ڤيني، يبتسم ابتسامةً عريضةً له.

صرخ چيم.

الفصل مرَّة أخرى.

كان طُـلَّابُ فصـل "الحيـاة مـع الأدب" يُنجـزون تمرينًـا كتابيًـا، وأغلبهـم مُنكَفِئـون عـلى أوراقهـم كادحـين، يصبُّـون أفكارهـم بإحبـاطٍ عـلى الصفحة كـما لـو كانـوا ينـشرون الخَشَـب. كلُّهـم إلَّا ثلاثة: روبـرت لاوسـون- الجالس

في مقعَدِ بيلي ستيم، وداڤيد جارسيا- مكان كاتي سلاڤن، وڤيني كوري- محل شيب أوزواي. جلسوا وأمامهم أوراقهم البيضاء وهم يراقبونه.

قبل الجرس بهُنَيْهَة، قال چيم بنبرة ليِّنة: "أريد التَّحدُّث معك لدقيقة بعد الحِصَّة يا سيد كوري".

"بالتأكيد يا نورم".

ضحك لاوسون وجارسيا بصخب، أمَّا بقيَّة الفصل فلا. حين دَقَّ الجَرسُ، سَلَّموا أوراقهم وانسحبوا من الباب بلباقة. بَقِيَ لاوسون وجارسيا، وشعر چيم بانقباضٍ في مَعِدَته.

كيف سيصير الأمر الآن؟

ثم أومأ لاوسون إلى ڤيني، "أراكَ لاحقًا".

"حسنًا".

غادَروا. أغلق لاوسون الباب، ومن وراء الزُّجاج المُصَنفَر، صاح داڤيد جارسيا فجأةً بصوتٍ أجشّ: "نورم يأكله!"، تطلَّع ڤيني إلى الباب، ثم إلى چاك ثانيةً، وابتسم.

قال: "كنتُ أتساءَلُ إن كُنتَ سَتُزاوِل عملَكَ أصلًا".

قال چيم: "حَقًّا؟".

"أَخَفتُكَ تلك الليلةَ في كابينة الهاتف، أليس كذلك يا والدي؟".

"لم يَعُد أحدٌ يقول "والدي" يا ڤيني، هذا ليس طريفًا، وهذا لا يخلو فحَسبُ من الطَّرافة، وإنما مات مثل بادي هولي".

قال ڤيني: "أتَحدَّث بالطَّريقة التي تروق لي".

"أين الآخر؟ ذلك الفتى ذو الشَّعر الأحمر الغريب".

"افترَقنـا يـا رَجُـل"، ولكـن تحـت لا مُبالاتِـه المدروسَـةِ، استشـعَرَ چيـم حَـذَرًا.

"إنـه عـلى قَيْـدِ الحيـاة، أليـس كذلـك؟ لهـذا هـو ليـس هنـا، إنـه حـيٌّ يُـرزَق، وفي سِـنِّ الثانيـة والثلاثـين أو الثالثـة والثلاثـين، نفـس مـا كُنـتَ سَـتصير عليـه لـو كُنـتَ...".

"أعاقنا "المُبيض" على الدَّوام، إنه نَكِرَة".

جلـس ڤينـي وراء تَختَتِـه، وفـرَدَ يديـه عـلى الجراڤيتـي القديـم. وَمَضَت عيناه.

"يـا رَجُـل، أتذكَّـرُكَ عنـد طابـور العـرض هـذا، بَـدَوتَ عـلى وَشـكِ أن تُبلِّـل سِرواـلَكَ القصـير القديـم. رأيتُـكَ تنظـر إليَّ وإلى دايڤـي، فألقَيـتُ عليـكَ تعويـذتي".

قـال چيـم: "أظُنُّـكَ فَعَلتَهـا، مَنَحتَنـي سِـتَّة عـشر عامًـا مـن الكوابيـس، ألم يكـن هـذا كافيًـا؟ لِـمَ لا؟ لمـاذا أنـا؟".

بـدا ڤينـي حائـرًا، ثـم ابتسـم ثانيـة، "لأنَّـكَ مُشـكِلة مُعلَّقـة يـا رَجُـل، ويَجِـبُ مَحْـوُكَ".

سأل چيم: "أين كُنتَ؟ قبلها".

نَحَفَت شَفَتا ڤيني: "نحن لا نتحدَّث عن هذا. أتَودُّ هذا؟".

"حفـروا لـك حُفـرةً، أليـس كذلـك يـا ڤينـي؟ عـلى عُمـق سِـتِّ أقـدام، في قلـب مقـبرة ميلفـورد، سِـتِّ أقـدامٍ مـن...".

"اخرَسْ!".

كان عـلى قدميـه. وقعـت التَّختَـة في الممـشى. قـال چيـم: "لـن أتسـاهَلَ، لـن أُسَـهِّلَ الأمـرَ عليـكَ".

"سنَقتُلُكَ يا والدي، ستكتشف أمرَ هذه الحُفرَة".

"اخرُجْ من هنا".

"ورُبّما زوجتك الشابّة أيضًا".

"أيُّها السّافِل الملعون، إذا لمستَها...". تحرّك إلى الأمام مُتعامِيًا، شاعرًا بالاختراق ومُرتَعِدًا من ذِكر سالي.

ابتسم ڤيني وتحرّك نحو الباب. "اهدأ فحسب، هادئ مثل الأبله"، وضحك في خفوت.

"إذا لَمستَ زوجتي، سأقتلك".

اتَّسَعَت ابتسامة ڤيني، "تَقتُلُني؟ يا رَجُل، ظَنَنتُ أنَّكَ تدري، أنا ميِّت فعلًا".

غادر، وتردَّد وَقعُ أقدامه في الدِّهليز لوقتٍ طويل.

"ماذا تقرأ يا حُبِّي؟".

أمسَكَ چيم بغلاف كتاب "تربية الشياطين" من أجلها كي تقرأ العنوان.

"يع...".

استدارت من جديدٍ إلى المرآة كي تتفحَّص شَعرَها.

سأل: "هل ستستَقِلِّين سيارة أجرة إلى المنزل؟".

"إنه على بُعد أربعة أحياء فقط، كما أن المشي مفيدٌ لقوامي".

كذب قائلًا: "شخصٌ ما اختطف إحدى فتياتي من شارع سمر، ظنَّت أن الاغتصاب كان مبتغاه".

"حقًّا؟ مَن؟".

قال مختلقًا اسمًا عشوائيًّا: "ديانا سنو، فتاة هادئة الطِّباع، رَفِّهي عن نفسك بركوب سيارة أجرة، اتَّفَقنا؟".

قالــت: "اتَّفقنــا"، توقَّفَــت بمحــاذاة كُرســيِّه، وجَثَــت عــلى ركبتيهــا، ووضعــت يديهــا عــلى خدَّيــه، وتطلَّعَــت إلى عينيــه.

"ما خَطبُكَ يا چيم؟".

"لا شيء".

"بل هناك شيء ما".

"ليس بشيءٍ لا يمكنني التعامُلُ معه".

"أهناك خَطبٌ ما بخصوص شَقيقِكَ؟".

داهَمَته رياحُ الخوف، كما لو انفتح بابٌ داخليٌّ.

"لِمَ تقولين هذا؟".

"كُنــتَ تَنــوح باســمه خــلال نَومِــكَ في الليلــة الفائتــة. "وايــن، وايــن". كنــتَ تقــول: "اجــري يــا وايــن"".

"هذا لا شيء".

لكنــه ليــس كذلــك، أدرك كلاهــما هــذا. راقَبَهــا وهــي ذاهبــة. اتَّصــل السـيد نيــل في السـاعة الثامنــة والربــع. قــال:"لا ينبغــي عليــكَ القَلَــقُ بخصــوص أولئــك الفتيــة، فجميعهــم أمــواتٌ".

"أهكذا حقًّا؟".

علَّــم موضــع قراءتــه في كتــاب "تربيــة الشــياطين" بســبَّابَتِه وهــو يتحــدَّث.

"حــادث اصطــدام ســيارة، بعــد ســتة أشــهر مــن مقتــل أخيــكَ. كان يلاحقهــم شُرطــيٌّ، والشُّرطــيُّ في الحقيقــة كان فرانــك سيمون. يعمــل حاليًــا في شركــة سيكورســكاي، ربمــا يجنــي مــالًا أكــثر".

"واصطدموا بالسيارة".

"خرجـت السـيارة عـن الطريـق عنـد سُرعَـةٍ تَجـاوَزَت المائـة ميـل في السـاعة، واصطَدَمَـت بـبُرج رئيـسيٍّ لنقـل الكهربـاء، وحـين نجحـوا في النهايـة في إغـلاق الكهربـاء، وأخرجوهـم منهـا، اسـتوت لحـوم أجسـادهم لدرجـة متوسِّـطة".

أغلق چيم عينيه.

"هل رأيتَ التقرير؟".

"طالَعتُه بنفسي".

"أيُّ شيءٍ بخصوص السَّيَّارة؟".

"كانت سيارة مُعَدَّلة".

"أيوجد وَصفٌ لها؟".

"سـيارة فـورد سـيدان سـوداء طـراز 1954، ومكتـوبٌ عـلى جانبهـا "عينـي الثعبـان"، تُطابِـق الأوصـافَ بمـا يكفـي، لقـد قضـوا نحبهـم حقًّـا".

"كان معهـم مُرافِـقٌ يـا سـيِّد نيـل، لا أعـرف اسـمه، لكنـه مُلقَّـب بالمُبيِّـض".

قـال السـيد نيـل بـلا تَـردُّد: "إنـه تشـارلي سـبوندر، بَيَّـض شَـعرَه بالكلوروكـس ذات مـرَّة. أتذكَّـر هـذا. صـار شَـعرُه أبيـضَ مُخطَّـطًا، وحـاول أن يصبغـه ثانيـة، فصـارت الخطـوط برتقاليَّـةَ اللـون".

"أتعرف ماذا يفعل الآن؟".

"تَطـوَّع في الجيـش، انضـمَّ إليـه سـنة 58 أو 59، بعـد أن حبَّـل فتـاةً مَحلِّيَّـة".

"أيُمكِنُني التَّواصُلَ معه؟".

"والدته تعيش في ستراتفورد. هي أدرى".

"أيُمكِنُكَ أن تُعطيَني عنوانَها؟".

"لن أقدر يا جيمي، إلى أن تخبرني ما الذي يَشغَلُكَ".

"لا أستطيع يا سيد نيل، ستظنُّ أنِّي مجنون".

"جَرِّبْني".

"لا أستطيع".

"حسنًا يا بُنيَّ".

"هل سـ..."، لكنَّ الخَطَّ انقطع.

قـال جيـم: "يـا لـكَ مـن لقيـط"، ووضـع الهاتـف عـلى الحامـل، رنَّ تَحـتَ يَـدِه وابتعـدَ عنـه مُرتَجِفًـا كـما لـو أحرَقَـه فجـأةً. نظـر إليه، مُتنفِّسًـا بصعوبـة. رنَّ ثـلاث مـرات، أربـع. رفـع السـماعة، واسـتمع، وأغمـض عينيه.

أوقفــه شُرطــيٌّ في طريقــه إلى المستشــفى، ثــم اتَّجــه رأسًــا نحــوه، وصُفَّـارة الإنـذار تـصرخ. تواجَـدَ طبيـبٌ شـابٌّ لـه شـارِبٌ بهيئـة فُرشـاة أسـنان في غرفـة الطـوارئ. نظـر إلى جيـم بعيـونٍ مُظلِمَـة بـلا عاطفـة.

"اعذُرْني، أنا جيمس نورمان و...".

"أنـا آسـف يـا سـيد نورمـان، لقـد ماتـت في السـاعة التاسـعة وأربـع دقائـق مسـاء".

كان سـيُغمَى عليـه، صـار العـالم بعيـدًا وزائغًـا، وسرى صفـيرٌ عـالٍ في أذنيـه. جالـت عينـاه بـلا هـدف، تريـان جـدرانَ قرميديَّـةً خضراء، ونقَّالـة مُتحرِّكـة تلمـع تحـت المصابيـح الفلوريَّـة فـوق الـرؤوس، ومُمرِّضـة مـع قُبَّعَتهـا المعوجَّـة، حـان الوقـت لتنتعـش يـا حبيبـي. مـال مُمـرِّضٌ قُبالـةَ الجـدار خـارج غرفـة الطـوارئ رقـم 1، يرتـدي ملابِـسَ بيضـاء قَـذِرَة مـع بضعـة قطـراتٍ مـن الدِّمـاء الجافَّـة المتناثـرة عـبر الواجهـة، وينظِّـف أظافِرَه

بِمُدْيَـةٍ. تطلَّـع المُمـرِّض إلى عينَـيْ جيـم وابتسـم، كان المُمـرِّض داڤيـد جارسـيا.

جيمي أغمي عليه.

الجنـازة، مثـل رقصـة في ثـلاث حـركات: المنـزل، دار الجنـازات، وجـوه آتيـة مـن اللامـكان، تغـدو مُقتَرِبَـة، وتـروح خارِجـةً إلى الظـلام ثانيـة. والدة سـالي: تنهمـر عيناهـا بالدُّمـوع وراء خـمار أسـود. والدهـا: يبـدو مصدومًـا ومُسِـنًّا. الآخـرون: عَرَّفـوا بأنفسـهم وصافحـوا يـده. أومـأ برأسـه وهـو لا يتذكّـر أسـماءهم. أحـضَرَت بعـضُ النسـاء أطعِمَـةً، وجلبـت سـيِّدةٌ فطـيرةَ تُفَّـاح، وأكل شـخصٌ مـا قطعـةً، وحـين توجَّـه إلى المطبـخ، رآهـا قابِعـةً عـلى المنضـدة، قُطِعَـت حتـى بانـت حَشـوَتُها، تنِـزُّ عُصـارةً مثـل دمـاء كهرمانيَّـة في طبـق الفطـيرة، وأطـرق مُفكِّـرًا: ينبغـي وضـع بولـة كبـيرة مـن الآيـس كريـم فوقهـا مبـاشرة.

شـعر بيديـه ورجليـه ترتعشـان، راغبًـا في المـرور جـوار المنضـدة والإلقاء بالفطـيرة عـلى الجدار.

ثـم ذهبـوا، وكان يراقـب نفسـه، كمثـل الطريقـة التـي تـرى بها نفسـك في فيلـمٍ منـزليٍّ، وهـو يصافـح ويومـئ ويقـول: شـكرًا لـك، نعم سـأفعل.

شكرًا لكِ، أنا متأكِّد أنها كذلك، شكرًا لك.

حـين ذهبـوا، وصـار المنـزل لـه مـن جديـد. توجَّـه إلى الـرف، حيـث تراكمـت عليـه تـذكاراتُ زواجهـما: دُميَـة كلـبٍ مَحشـوَّة ذات عينـين مُرَصَّعَتَـيْن بالجواهـر فـازت بهـا في كـوني آيلانـد خـلال شـهر عسـلهما، حافظتـان جلديَّتـان فيهـما شـهادات دبلومِـه مـن جامعـة بوسـطن، ودبلومِهـا مـن جامعـة ماساتشوسـتس. زوجـان ضخـمان مـن أحجـار الـنَّرد مـن السـتايروفوم أعطتهـما إيَّـاه كمزحَـةٍ بعدمـا أهدر سـتة عـشر دولارًا في لعبـة بوكـر بينـكي سيلڤرسـتاين منـذ عـام أو نحـو ذلـك قبلهـا، كـوبٌ رفيـع مـن الخـزف الصينـي اشـترته مـن مَتجـرٍ للأشـياء المسـتعملة في كليفلانـد

في العام الماضي، وفي منتصف الرف صورةُ زفافهما. أدارها ثم قعد في كرسيه ونظر إلى التلفاز الخاوي. بدأت فكرةٌ في التَّشكُّل وراء عينيه.

بعد ساعةٍ رَنَّ جرس الهاتف؛ ممَّا أخرجه من نومٍ خفيف، وتلمَّس طريقه إليه.

"أنت التالي يا نورم".

"ڤيني؟".

"يا رَجُل، كانت مثلَ واحِدةٍ من تلك الأقراص الطائرة في مضمارٍ للرِّماية، تضربها بالرصاص فتتناثر".

"سأكون في المدرسة الليلة يا ڤيني، غرفة رقم 33، سأطفئ الأضواء، ستكون مثل الجسر في اليوم إيَّاه، وأظنُّ أني أقدر على إحضار القطار".

"تريد أن تُنهي الأمر بِرُمَّتِه، أليس كذلك؟".

قال چيم: "هذا صحيح، أستأتي؟".

"ربما".

قال چيم: "ستكون هناك"، ثم أغلق الخَطَّ.

كانت السماء مُظلِمَةً تقريبًا حين وصل إلى المدرسة. ركن السيارة في مكانه المعتاد، وفتح الباب الخلفي بمفتاح مروره، واتَّجه أولًا إلى مكتب قسم اللغة الإنجليزية في الطابق الثاني. دخل، وفتح خزانة الأسطوانات، وبدأ التقليب بين الأسطوانات. توقَّف في منتصف عمليَّة البحث بين الكومة، وأخرج ألبومًا يُدعى "مؤثِّرات صوتية عالية الجودة"، وقلَّبه. كان المقطع الثالث من الوجه الأول بعنوان "قطار بضائع 3:04". وضع الألبوم على رأس جهاز الستيريو النَّقَّال للقسم، وأخرج كتاب "تربية الشياطين" من جيب معطفه، وفتحه على فقرة مُعَلَّمة، وقرأ شيئًا ما، وأومأ برأسه، وأطفأ الأضواء.

غرفة رقم 33.

أعـدَّ جهـاز السـتيريو، حيـث وسَّـع مجـال السَّـمَّاعات إلى أبعـد مـدى، وشـغَّل مقطـع قطـار الشَّـحن، جـاء الصـوت رنَّانًـا مـن الـلا شيء إلى أن مـلأت الغرفـة بأسرهـا القَعقَعـةُ المزعجـة لمحَـرِّكات الديـزل واحتـكاك الفـولاذ بالفـولاذ.

بعينـين مُغمضتـين، صـدَّق بالـكاد أنـه أسـفل منصَّـة الشـارع العريضـة، مدفوعًـا إلى ركبتيـه، مراقبًـا وصـول الدرامـا الوحشـية الصغـيرة إلى خاتمتهـا المحتومة.

فتـح عينيـه، وأخـرج الأسـطوانة ثـم أعادهـا لوضعهـا السـابق، جلـس خلـف المكتـب وفتـح كتـاب "تربيـة الشـياطين" على فصـلٍ بعنـوان "الأرواح المؤذيـة وكيفيَّـة اسـتدعائها". تحرَّكَـت شـفتاه وهـو يقـرأ، وتوقَّـف عنـد الفواصـل ليُخـرِجَ أشـياء مـن جيبـه ووضعهـا عـلى المكتـب.

أولًا: صـورة كـوداك قديمـة ومتجعِّـدة لـه ولشـقيقه، وهـما واقفـان عـلى المـرج أمـام البنايـة السـكنية في الشـارع العريـض حيـث عاشـا، لـدى كلاهـما قَصَّـات شَـعرٍ مُتدرِّجـة، مبتَسِـمَيْن بخجـلٍ إلى الكامـيرا.

ثانيًـا: زجاجـة صغـيرة مـن الدمـاء، حيـث أمسـك قطَّـة شـارِعٍ ضالَّـة وذبحهـا بمطـواة جيبـه.

ثالثًا: مطواة الجيب ذاتها.

أخـيرًا: عصابـة رأس مقطوعـة مـن بطانـة قُبَّعـة صغـيرة قديمـة لرابطـة البيسـبول. قبَّعـة وايـن. أبقاهـا جيـم في الخفـاء عـلى أمـل أن يُـرزَق هـو وسـالي بابـنٍ يرتديهـا.

قام من مقعده، وتوجَّه إلى النافذة، ونظر إلى الخارج. المرآب خاوٍ.

بـدأ يدفـع تُخَـت المدرسـة نحـو الجـدران، صانعًـا دائـرة متماسِـكَة في منتصـف الغرفـة، وحـين أنجـز هـذا، أحـضر طبشـورةً مـن دُرج مكتبـه،

ومـع اتِّباعـه الرسـم الموجـود في الكتـاب بدِقَّـةٍ واسـتخدامه عصـا قيـاس، رسـم نجمـةً خُماسـيَّة عـلى الأرض.

اشـتدَّ نَفَسُـه الآن، أطفـأ الأنـوار، وجمـع أشـيائه في يَـدٍ واحـدة، وبـدأ الترديـد.

"أيُّهـا الأب المُظلـم، اسـمعني لأجـل خاطـر روحـي، أنـا امـرؤ يَعِـدُ بأُضحِيَـة، أنـا امـرؤٌ يتوسَّـل لأجـل هبـة شريـرة كأضحيـة، أنـا امـرؤ يَنشُـد انتقـام اليـد اليُـسرى، أجلـب الدمـاء وعـدًا بالأضحيـة".

أدار غطـاء البرطـمان، الـذي حـوى في الأصـل زُبـدَة الفـول السـوداني، وسـكبه داخـل النجمـة الخماسـية.

حــدث شيء مــا في الغرفــة المظلمــة، لم يكــن مــن الممكــن تحديــد ماهيَّتـه، لكـنَّ الهـواءَ صـار أثقـل، وسَرَت فيـه كثافـة تبـدو أنهـا تملأ الحَلـقَ والبَطـن بفـولاذٍ رمـاديٍّ. تنامـى الصَّمـتُ العميـق، يزيـد مـن وطأتـه صمـتٌ لا مَـرئيٌّ.

فَعَلَ مثلما تُملِي الشَّعائِرُ القديمة.

الآن، إحسـاس في الهـواء يُذكِّـر چيـم بوقـت حصولـه عـلى فصـلٍ دراسي لزيـارة محطَّـةٍ للجهـد العـالي، إحسـاس اكتـظَّ فيـه الهـواءُ ذاتـه بتيَّـارٍ كهربـائي وبـات مُزلـزِلًا، ثـم جـاء صـوتٌ، خفيـض بشـكل غريـب، وكريـه، متحدِّثًـا إليـه:

"ماذا تطلب؟".

لم يستَطِع التمييز إن كان يسمعه حقًّا أم أنه يَظنُّ أنه سَمِعَه.

تفوَّه بجُملَتَين.

"إنها هِبَةٌ صغيرة، ماذا ستقدِّم؟".

تحدَّث چيم بكلمتين.

همس الصوتُ: "كلاهما، اليُمنى واليُسرى، موافق؟".

"نعم".

"إذن امنحني ما هو لي".

فتح مطواته، واستدار نحو مكتبه، وفرد عليها يده اليمنى، وقطع سبَّابته اليُمنى بأربع قَطعاتٍ قاسية. تطايَرَت الدِّماء على الورق النَّشَّاف في أشكالٍ داكنة. لم يؤلِم الأمرُ إطلاقًا، نَحَّى الأصبع جانبًا، وحوَّل المطواة إلى يَدِه اليُمنى. كان قَطعُ الأصبع اليسرى أصعبَ، بدت يَدُه الممدودة غريبةً وغيرَ مألوفَةٍ مع الأصبع المنقوص، واستمرَّت المُديَةُ تَنزَلِق. في النهاية، ومع نَخرَةٍ من نَفاد الصبر، رمى المُديَةَ بعيدًا، وكسر العظمة، واقتلع الأصبع فتحرَّرت. التقط كلتيهما مثل أصابع البقسماط، وألقى بهما في النجمة الخماسية. بزغ شُعاعٌ ساطِعٌ من الضوء، مثل بودرة فلاش المصوِّر عتيقة الطراز. لاحظ عدم وجود دخان، ولا رائحة للكبريت.

"أي أشياء أحضرتها؟".

"صورة فوتوغرافية، ورباط قماشي غُمِسَ بِعَرَقِه".

"العَرَقُ شيءٌ نفيس". هكذا أشار الصوت، وفي نبرته جَشَعٌ بارد جعل چيم يرتعش "أعطِهم لي".

ألقى بهم چيم في النجمة الخماسية، وومض الضوء.

قال الصوت: "هذا جيِّد".

قال چيم: "هذا إذا جاؤوا".

لا رَدَّ، ذهب الصوت، هذا إنْ وُجِدَ من الأساس. انحنى مقتربًا من النجمة الخماسية. كانت الصورة ما زالت موجودةً، لكنها اسوَدَّت وتَفحَّمَت، واختفت عصابة الرأس.

في الشارع سَرَت ضوضاء، خافتة في البدء، ثم تزايَدَت. وفدت سيَّارة مُعدَّلة مُزوَّدة بكاتم صوتٍ زُجاجيٍّ، انعطفت في البداية إلى شارع داڤيس، ثم اقتربت. جلس چيم، مُصغيًا كي يسمع إن كانت السيارة ستمرُّ أم ستستدير.

واستدارت.

وَقعُ أقدامٍ على السلالم، وصدى يتردَّد.

قهقهة روبرت لاوسون عالِيَة النَّبرة، وبعدها شخصٌ ما يقول "شششششش!"، وبعدها يُقَهقِه لاوسون ثانية. صار وَقْعُ الأقدام أقربَ، وفقدت صداها، ثم انفتح الباب الزجاجي عند رأس السلالم بخبطة.

"يوو-هوو، نورمي!". هكذا نادى داڤيد جارسيا بنبرةٍ عالية مُصطَنَعة.

همس لاوسون ثم قهقه: "هل أنت هناك يا نورمي؟ إنته كونتي هيناك يا شولي؟".

ڤيني لم يتكلَّم، لكن كلما حثُّوا المسير في الصالة، استطاع چيم رؤية ظلالهم، ڤيني كان الأطولَ بينهم، مُمسِكًا بشيء طويل في يَدٍ واحدة. صدر صوتُ قَرقَعةٍ خفيفة، وصار الشيء الطويل أطولَ.

كانوا يقفون عند الباب، ڤيني في المنتصف، حملوا جميعهم مَطاوي.

قال ڤيني بِرقَّة: "ها قد جئنا يا رجل، ها قد جئنا من أجل مؤخِّرتِك".

تحرَّك چيم إلى مُشغِّل الأسطوانات.

صرخ جارسيا قافزًا: "يا للمسيح، ما هذا؟"، كان قطار الشحن يقترب. يمكنك الإحساسُ تقريبًا بالقرع على الجدران معه.

لم يَبدُ الصَّوتُ بعد الآن خارجًا من السَّمَّاعات، وإنما من الصالةِ، من مساراتٍ سُفليَّة من مكانٍ ما بعيدٍ في الزمان مثلما يبعد في المكان.

قال لاوسون: "لستُ مرتاحًا لهذا يا رجل".

قال ڤيني: "فات الأوان"، خطى للأمام ولوَّح بمُديَةٍ، "أعطِنا أموالَكَ يا والدي".

هيا بنا نذهب.

ارتدَّ جارسيا، "ماذا بحقِّ الجحيم..."، لكن ڤيني لم يتراجع، أشار إلى الآخرين كي ينتشروا، وربما كان ذلك الشيء في عينيه مصدرَ راحةٍ.

سأل جارسيا فجأة: "تعال يا وَلَد، كم معك من المال؟".

قال چيم: "أربعة سِنتات"، كان هذا صحيحًا، فقد التقطهم من برطمان الفَكَّة في غرفة النوم، وأحدثهم تاريخًا كان من سنة1956.

"أيُّها الكاذِبُ اللَّعين".

دَعْه وشأنه.

ألقى لاوسون نظرةً من فوق كتفه، وضاقت عيناه. صارت الجدران ضبابيَّةً وغير ملموسة. عوى قِطارُ الشَّحن، واحمَرَّت الإضاءة الآتية من مصباح الشارع عند المرآب مثل لافِتَةٍ بناية شركة بورتيس، المتذبذبة قُبالَةَ الغَسَق في السماء.

شيء ما خرج من النجمة الخماسية، شيء ما له وَجهُ فَتًى صغيرٍ في الحادية عشرة من عُمره ربما، فتًى ذي قَصَّة شَعرٍ مُتدرِّجة.

وَثَبَ جارسيا للأمام، ولكم چيم في الفم. شمَّ في نَفَسِه خليطَ الثُّوم مع الببروني. كان الأمرُ بطيئًا ولا يؤلم.

شعر چيم بثِقَلٍ مفاجئ، مثل الرصاص في فخذه، وتحرَّرَت مَثانَتُه.

نظر إلى الأسفل ورأى بُقعَةً داكِنةً تَظهَر وتنتشر على بنطاله.

صرخ لاوسون: "انظر يا ڤيني، لقد بَلَّل نفسه". كانت نبرة الصوت صحيحةً، لكنَّ التعبير على وجهه تعبيرُ ذُعرٍ، تعبير وَجهٍ لدُميَةٍ عادت إلى الحياة لتكتشف أنها مربوطة بخيطان.

"دعوه وشأنه". هكذا قال الشيء حامل هيئة واين، لكنه لم يَكُن صوتَ واين، كان الصوت البارد الجَشِع للشيء الخارج من النجمة الخماسية. "اجري يا جيمي! اجري! اجري! اجري!".

انزلق جيم على ركبتيه، وصَفَعَته كَفٌّ على ظهره، تُحاوِلُ أن تَجُرَّه، فتعود صفرًا.

نظر إلى أعلى ورأى ڤيني، وجهه مشدودٌ، حتى بات صورةً ساخرة عن الكراهية، وجَّه مُديَتَه نحو الشيء حامل هيئة واين أسفل عظم الصَّدر بالضبط، ثم صرخ، انطوى وجهه على ذاته، واحترق، واسوَدَّ، وصار بشعًا.

ثم رحل.

بعدها بهُنَيهَةٍ، صُعِق جارسيا ولاوسون، وانطويا، واحترقا، واختفيا.

رقد جيم على الأرض، مُتنفِّسًا بصعوبةٍ، وتلاشى صوتُ قطار الشَّحن.

كانَ شقيقه يدنو بنَظَرِه إليه.

"واين؟". قال وهو يتنفَّس.

ثم تَبَدَّل الوجه، بدا أنه يذوب ويسيل معًا. اصفرَّت العينان، وتطلَّع إليه خُبثٌ مُتبَسِم مُريع.

همس الصوتُ البارد: :سأعود يا جيم".

واختفى.

قام على مهل، وأطفأ مُشغِّل الأسطوانات بِيَدٍ واحدة مُشوَّهة. لمس فمه، كان ينزف من لكمة جارسيا، تحرَّك وأطفأ الأنوار. كانت

الغُرفَـةُ خاويَـةً. تَطلَّـع إلى المـرآب وكان خاويًـا هـو الآخـر، إلَّا مـن طاسـة إطـار سـيَّارة انعكـس عليهـا القمـر في أداءٍ إيمـائِيٍّ أحمـق. بَـدَت رائحـة الفصـل قديمـةً وعَفِنَـة، أجـواء المقابـر. مسـح النَّجمَـة الخماسـية مـن عـلى الأرض، وبـدأ يصـفُّ التُّخَـت مـن أجـل المُـدرِّس البديـل في اليـوم التـالي. آلمتـه أصابِعُـه لأسـوأ درجـة، أي أصابـع؟ ينبغـي عليـه زيـارة طبيـب. أغلـق البـاب ونـزل السَّـلالم ببُـطء، عاقـدًا يديـه عـلى صـدره. في منتصـف طريقـه للأسـفل، شيءُ مـا غامـض دفعـه لأن يسـتدير، لعلَّـه ظِـل أو لعلـه مجـرد حـدس.

يبدو أن شيء ما غير مرئي قد وَثَبَ.

تذكَّـر چيـم التحذيـر مـن كتـاب "تربيـة الشـياطين"، والخطـر الـذي يتضمَّنـه.

يُمكِنُـك بالطَّبـع اسـتدعاؤهم، وربمـا توجيههـم لإنجـاز أعمالـك، ويمكنـك حتَّـى التَّخلُّـص منهـم.

لكنهم أحيانًا يعودون.

نزل السلالم ثانية، مُتسائِلًا إن كان الكابوس قد انقضى من الأساس.

رَبيعُ الفَراولَة

سبرنجهيل چاك.

رأيـت هاتـين الكلمتـين في الجريـدة هـذا الصبـاح، ويـا إلهـي، كـم أعادتـاني بالزمـن إلى الـوراء. حـدث كل هـذا تقريبًـا منـذ ثمـاني سـنوات مضـت بالتـمام والكـمال. في وقـت حـدوث هـذا، رأيـتُ نفـسي ذاتَ مَـرَّة عـلى شاشـة التِّلفـاز الوطنـي ضمـن تقريـرٍ للمُذيـع والـتر كرونكيـت. مُجرَّد وجـه مُـسرِعٍ في الخلفيـة الواسـعة خلـف المذيـع، لكـن رفاقـي عرفـوني في الحـال، واتَّصلـوا بي مـن خـارج المدينـة. طلـب منـي أبي المُفعـم بالانفتـاح والـودِّ والتَّكتُّـم تحليـلي للموقـف، وأرادت أمـي فقـط أن أعـود للمنـزل، لكنـي لم أُرِد العـودة للمنـزل. كنـتُ مفتونًـا.

مفتونًـا بربيـع الفراولـة المُظلِـم المأهـول بالضَّبـاب، وبِظـلِّ المـوت العنيـف الـذي سـار في تلـك الليـالي منـذ ثمـاني سـنوات. ظِـلِّ سـبرنجهيل چـاك.

في نيـو إنجلانـد يطلقـون عليـه ربيـع الفراولـة. لا أحـد يعلـم لمـاذا، مُجـرَّد عبارة يسـتخدمها كبـار السـن. يقولـون إنـه يحـلُّ مَـرَّة واحـدة كل ثمـاني أو عـشر سـنوات. قـد يكـون مـا جـرى في كليـة نيـو شـارون للمُعلّمين في ربيـع الفراولـة هـذا دورة ملازمـة لـه أيضًـا، لكـن لـو عـرف أحـدٌ مـا جـرى، مـا كان سـيفتح فمـه أبـدًا.

في نيـو شـارون، بـدأ ربيـع الفراولـة في السـادس عـشر من مـارس 1968، حيـث حَـلَّ في هـذا اليـوم أبـردُ شـتاءٍ مُنـذُ عشريـن عامًـا. أمطـرت الدنيـا، وكان يُمكِنُـكَ شَـمُّ رائحـة البحـر مـن مسـافة عشريـن ميـلًا غـرب الشـواطئ، وبـدأ الجليـدُ البالـغُ عُمقُـه 35 إنشًـا في بعـض المواضـع في الذَّوبـان، وجـرى الثَّلـجُ السَّـائِلُ في ممـرَّات الحـرم الجامعـي، وأخـيرًا بـدأ ارتخـاء وتقلُّـص المنحوتـات الثلجيـة لكرنفـال الشـتاء التـي حافَظَـت عـلى دقَّتهـا ووضـوح معالمهـا لمـدَّة شـهرين تحـت درجـات حـرارةٍ تحـت صِفريَّـة، وذرف الرسـم الكاريكاتـوري للرئيـس لينـدون چونسـون قُبالَـةَ مَقـرِّ أَخَويَّـة "تيـب" دموعًـا ذائبـة، وفقَـدَت الحمامـة أمـام قاعـة براشـنر ريشـاتِها المُتجمِّـدة، وظهـرت جمجمتهـا مـن الخشـب الرقيـق في هيئـة مُحزِنـة عـلى مـرأى مـن الجميـع في بعـض الأماكـن.

وحـين حـلَّ الليـل، أتى معـه الضبـاب، متحـرِّكًا في صمـتٍ، ومُتَّشِـحًا بالبيـاض عـبر الممـرَّات والطرقـات الضيقـة للكُلِّيَّـة. بـزغ بـين أشـجار الصنوبـر عـلى الجـدار مثـل أصابـع يُعـدُّ عليهـا، كان ينجـرف بطيئًـا مثـل دخـان سـيجارة، أسـفل الجـسر الصغـير عنـد مدافـع الحـرب الأهليـة؛ ممَّـا جعـل الأشـياء تبـدو غـير مترابطـة وعجيبـة وسـاحرة. قـد يخـرج المسـافر الغافِـلُ مـن فـوضى الأضـواء السـاطعة والإيقاعـات الصاخبـة في مطعـم "جرينـدر"، متوقِّعًـا أن يُهَيمِـن عليـه البـزوغُ الصـافي السـاطع للنجـوم في الشـتاء، لكنـه بـدلًا مـن ذلـك، يجـد نفسـه فجـأة في عـالم صامـت مُغطًّـى بضبـاب أبيـض جـارف، حيـث الأصـوات الوحيـدة هـي وقـع أقدامـه، والتقاطـر الرقيـق للـماء مـن المزاريـب القديمـة. كنـت تتنظـر تقريبًـا أن

تـرى جولـوم أو فـرودو وسـام يهرعـون بعيـدًا، أو أن تسـتدير لتكتشـف أن "جرينـدر" اختفـى، راح، حـلَّ مَحلَّـه بانوراما ضبابيَّـة مـن المسـتنقعات وأشـجار الطقسـوس وربمـا حلقـة درويديَّـة، أو خاتـم سـحري لامـع.

شـغَّل صُنـدوق الموسـيقى أغنيـة "لاف إيـز بلـو" هـذا العـام. وشـغَّل أغنيـة "هـاي، جـود" بـلا نهايـة، بـلا نهايـة. وشـغَّل أغنيـة "سـكاربورو فير".

وبعـد عـشر دقائـق مـن حلـول السـاعة الحاديـة عـشرة مـن تلـك الليلـة، شرع طالِـبٌ في السـنة الأولى يُدعـى چـون دانـسي في طريقـه إلى مسـكنه في الـصراخ عـبر الضبـاب، مُوقِعًـا كُتبـه مـا بـين وعـلى السـاقين المنفرِجَتَـيْن للفتـاة الميتـة الراقـدة في رُكـنٍ ظليـلٍ مـن مـرآب قسـم الدراسـات الحيوانيـة، رقبتهـا مشـقوقة مـن الأذن لـلأذن، لكـنْ عيناهـا مفتوحتـان، تبـدوان كأنهـما وامِضَتـان، كـما لـو أنهـا ألقـت أطـرَفَ مَزحَـةٍ في حياتهـا القصـيرة. صرخ دانـسي طالـب التربيـة مـع تخصُّـصٍ فرعـيٍّ في الخطابـة، وصرخ ثـم صرخ.

كان اليـوم التـالي غائمًـا وكئيبًـا، توجَّهنـا إلى قاعـات المحـاضرات مـع أسـئلة مُلِحَّـة عـلى أفواهنـا: مـن؟ لمـاذا؟ متـى تظـنُّ أنهـم سـيقبضون عليـه؟ والسـؤال الختامـي المثـير؟ هـل كنـتَ تعرفهـا؟ هـل كنـتَ تعرفهـا؟

نعم، حَضرتُ فصلَ الفن معها.

نعـم، واعَدَهـا أحـدُ أصدقـاء شريـكي في السَّـكن في الفصـل الـدراسي الأخـير.

نعـم، طلَبَـت منِّـي مـرة إشـعال سـيجارتها في "جرينـدر". كانـت جالسـة في الطاولـة المجاورة.

نعم. نعم. أنا...

نعم، نعم، أوه نعم، أنا...

كنَّا جميعًا نعرفها، كان اسمها جايل كيرمان، وتُنطق "كير- مان"، كان تدرس الفن. ارتدت نظَّارة الجَدَّة، وتمتَّعَت بشخصية طيبة. كانت محبوبة، رغم كراهية شريكاتها في السكن لها. لم تكن تخرج كثيراً، رغم أنها من أكثر فتيات الحرم الجامعي انحلالًا. كانت قبيحةً، لكنها رقيقة. كانت فتاةً مَرِحَة، قليلًا ما تتحدَّث، ونادرًا ما تبتسم. كانت حُبلَى ومصابة بسرطان الدم. كانت مثليَّةً قُتِلَت على يد حبيبها. كان أوان ربيع الفراولة، وفي صباح السابع عشر من مارس كلُّنا عرفنا جايل كيرمان.

زحَفَت إلى الحرم الجامعي نصفُ دستة من سيارات شرطة الولاية، أغلبها مركونة أمام قاعة جوديث فرانكلين، حيث عاشت الفتاة كيرمان. في طريقي خلال مروري، طُلِب مني إظهار بطاقة هويَّتي الطُّلَّابية، كنتُ حاذقًا، أريته بطاقتي ذات الصورة بدون النابَيْن.

سأل الشرطي بكياسة: "هل تحمل سكِّينًا؟".

بعد أن أخبرته أن أكثر غَرَضٍ فَتَّاك أحمله معي ميدالية مفاتيح على هيئة قدم أرنب، سألته: "هل هذا بخصوص جايل كيرمان؟".

انقض عليَّ: "ما دافِعُكَ للسُّؤال؟".

كنتُ مُتأخِّرًا خمس دقائق على الفصل.

كان أوان ربيع الفراولة، ولم يتحرَّك أحدٌ بمفرده في هذا الحرم الجامعي نصف الأكاديمي نصف الخيالي في الليل. هبط الضباب ثانية، يفوح منه رائحة البحر، هادئًا وعميقًا.

في حوالي الساعة التاسعة، اندفع شريكي في السَّكن إلى غرفتي، وأنا أعصر دماغي على مقالة عن ميلتون منذ الساعة السابعة. قال: "قبضوا عليه، سمعت بالأمر في مطعم "جريندر"".

"مِمَّن؟".

"لا أعلم، شخصٌ ما، حبيبها ارتكب الجريمة، اسمه كارل آمالارا".

رجعتُ للوراء، مسترخيًا ومُحبَطًا، مع اسمٍ كهذا ينبغي أن يكون الأمر حقيقيًا. جريمة عشق خسيسة ومميتة.

قُلت: "حسنًا، هذا جيد".

غادر الغرفة كي ينشر الأخبار في السكن الجامعي. أعدتُ قراءة مقالتي عن ميلتون، لم أفهم ما كنت أحاول قوله، مزَّقتُها وبدأت من جديد.

نُشِرَ الخبر في الصحف في اليوم التالي. كانت صورةً أنيقة لآمالارا بما لا يتلاءم معه، ربما صورة التخرُّج من المدرسة الثانوية، حيث أظهرت فتى على سيمائه الحزن مع بشرة زيتونية وعيون داكنة وبثور على أنفه. لم يعترف الفتى بعد، لكنَّ الدليل ضده قويٌّ. اختلف هو وجايل كيرمان كثيرًا في الشهر الفائت أو نحو ذلك، وانفصلا في الأسبوع الماضي. قال شريك آمالارا في السكن إنه كان "قانِطًا". عثَرَت الشرطة في خزانة صغيرة تحت السرير على سكِّين صَيدٍ ذي 7 إنشات من متجر ل. ل. بين، وصورة للفتاة يبدو أنها قُطِعَت بالمقص.

تجاوَرَت صورة لجايل كيرمان مع صورة آمالارا، أظهرت كلبًا بشكلٍ غائم، وطائر فلامنجو مقصوصًا على المرج، وأيضًا فتاة شقراء ضئيلة الجسد ترتدي نظارة. انقلبت شفتاها بابتسامةٍ غير مُريحة، وانحرفت عيناها. وُضعت يدٌ واحدة على رأس الكلب، كان الأمر حقيقيًا وقتئذ، كان ينبغي أن يكون حقيقيًا.

حلَّ الضباب ثانية تلك الليلة، ليس في هدوء وخفَّة، وإنما في تَمدُّد صامت غير ملائم. تمشَّيتُ في هذه الليلة، كان عندي صداع وخرجت لشَمِّ الهواء، الفائح برائحة الربيع الرطبة الغامضة التي كانت تجلو الثلجَ العنيد ببطء، مخلِّفة رُقعًا لا حياة فيها من عشب العام الماضي عارية دون غطاء، كمثل رأس جَدَّة عجوز أنانة.

بالنسبة لي، كانت هذه واحدة من أجمل الليالي التي يَسَعُني تَذكُّرها. كان الأشخاص الذين مرَرتُ عليهم تحت الأضواء المُشعَّة ظلالًا مُتهامِسَة، بدوا جميعهم عُشَّاقًا، سائرين بأيدٍ وأعيُن مُتواصِلَة، والثلج الذائب سال وجرى، وسال وجرى، واندفع صوت البحر من كل مصرف مُظلِمٍ لمياه الأمطار، وانحسر الآن بقوَّة بحر الشتاء الداكن.

تمشَّيتُ حتى منتصف الليل تقريبًا إلى أن تعفَّنتُ تمامًا، ومَرَرتُ على كثير من الظلال، وسمعت كثيراً من خطوات الأقدام تنقر على الطرقات المتعرِّجة، مَن كان يقول إن واحدة من تلك الظلال لم تكن للرجل أو الشيء الذي بات يُعرف بسبرنجهيل چاك؟ ليس أنا، لأني مرَرتُ على كثير من الظلال، لكنِّي في الضباب لم أرَ وجوهًا.

في الصباح التالي، أيقظني الصخب في السكن الجامعي، اندفعت لمعرفة من جُنِّد إجباريًا، ممشِّطًا شَعري بكلتا يديَّ، وساحبًا اليرقة الزَّغِبَة التي حلَّت مَحلَّ لساني بمهارة عبر سقف حلقي الجاف.

قال لي شخصٌ ما، ووجهه شاحب من الانفعال: "نال من شخص آخر، عليهم أن يدعوه وشأنه".

"مَن يَدعونه وشأنه؟".

قال شخصٌ آخر بابتهاجٍ: "آمالارا، كان قابعًا في السجن حين حدث ما حدث".

سألتُ في صبر: "متى.. ماذا حدث؟"، عاجلًا أم آجلًا كنتُ سأعرف، كنتُ مُتيقِّنًا من ذلك.

"الرجل قتل شخصًا آخر في الليلة الماضية، وجميعهم الآن يفتشون الأرجاء كافة".

"بحثًا عن ماذا؟".

ترنَّـح ذو الوجـه الشـاحب أمامـي ثانيـة: "عـن رأسـها، قاتِلُهـا أخـذَ رأسَـها معـه".

نيـو شـارون ليسـت كُلِّيَّـةً كبـيرة، وكانـت حتـى وقتئـذ أصغـر، كانـت مـن نوعيـة المنشـآت التـي يشـير إليهـا مُوظَّفـو العلاقـات العامـة بصـدقٍ عـلى أنهـا "كُلِّيَّـة مُجتَمَعيَّـة"، وكانـت حقًّـا أشـبه بمجتمـع صغـير، عـلى الأقـل في تلـك الأيـام: بينـك وبـين أصدقائـك، مـن المحتمـل أنـك تعرفـت عـلى الجميـع مـع أصدقائهـم ولـو بالإيمـاء عـلى الأقـل.

جايـل كيرمـان كانـت مـن صنـف الفتيـات التـي كنـتَ تومـئ لهـا لِتَـوِّكَ؛ فينتابـك تفكـيرٌ ضبـابيٌّ أنَّـكَ رأيتَهـا في الجـوار.

عرفنـا جميعًـا آن بـراي. كانـت أوَّلَ مُتنافِسَـة في مسـابقة ملكـة جـمال نيـو إنجلانـد في العـام الفائـت، واشـتمل عرضهـا الأدائي عـلى تدويـر قضيبٍ مُشـتَعِل عـلى أنغـام أغنيـة "هـاي، لـوك مـي أوفـر". كانـت ذكيَّـة أيضًـا، عملـت حتـى وفاتهـا محـرِّرةً في جريـدة الكُلِّيَّـة (قصاصـة ورقيـة أسـبوعية تحـوي العديـد مـن الرسـوم الكاريكاتوريـة السياسـية والرسـائل المُنمَّقـة)، وعضـوة في جمعيـة المسـرح الطـلابي، ورئيسـة نـادي الطالبـات للخدمـة الوطنيـة، شـعبة نيـو شـارون. خـلال فـورة حـماسي وعنفـواني الشـبابي في السَّـنَة الأولى، تقدَّمـتُ للجريـدة بفكـرةِ مقـالٍ، وعرَضـتُ عليهـا الخـروج في موعـدٍ غرامـي، وردَّت عـلى كليهـما بالرَّفـض.

والآن هي ميِّتة، بل أسوأ من ميتة.

تمشَّـيتُ كي أحـضر فصـولي لفـترة بعـد الظهـيرة مثـل الجميـع، مومِئًـا بـرأسي لمـن أعرفهـم حيـث ألقـي التحيـات مـع اضطـرار أَزيَـدَ عـن المعتـاد، كـما لـو كان هـذا سـيعوِّض عـن طريقـة تَفرُّسي وجوههـم عـن قـرب، وهـي نفـس الطريقـة التـي تفرَّسـوا بهـا وجهـي. كان يوجـد بيننـا شـخص مُظلِـمٌ، مُظلـمٌ مثـل الطُّرقـات الملتويـة عـبر المركـز التجـاري، أو الملتفـة بـين أشـجار البلـوط ذات المائـة عـام في سـاحة الكُلِّيَّـة وراء الصالـة الرياضيـة.

مُظلم مثل المدافع الثقيلة من الحرب الأهلية، المرئية عبر الغشاء الضبابي المتماوج. تطلّعنا إلى وجوه بعضنا البعض، وحاولنا استنطاق الظلام وراء أي منها.

لم تقبض الشرطة على أحدٍ هذه المرة. تجوّلَت الخنافس الزرقاء في دوريات بلا توقُّف في الليالي الربيعية الضبابية الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين، وغُرِزَت الكشّافاتُ في الأركان والزوايا المظلِمَة بحماسٍ غير معتاد. فرضت الإدارةُ حَظرَ تِجوالٍ إلزاميٍّ ابتداءً من الساعة التاسعة. ضُبِط حبيبان طائشان وهما يتبادلان القبلات بين الشجيرات المتناسِقَة الواقعة شمال مبنى خرِّيجي تيت، واقتيدا إلى قسم شرطة نيو شارون، وتعرَّضا للاستجواب بلا هَوادَةٍ لمدة ثلاث ساعات.

وقع إنذارٌ هيستيريٌّ كاذب في الليلة العشرين حين عُثر على فتًى فاقِدٍ الوَعيَ في نفس المرآب حيث اكتُشِفت جُثَّة جايل كيرمان، حمله شرطيٌّ ثرثار من الحرم الجامعي إلى المقعد الخلفي لسيارته الكروزر، ووضع خريطةَ المقاطعة فوق وجهه دون مبالاةٍ بقياس النبض، وتحرّك إلى المستشفى المحلي، وعَوَت صفارة الإنذار عبر الحَرَم الجامعي المهجور مثل حلقة من أرواح البانشي.

في منتصف الطريق إلى هناك، انبعث الجُثمانُ الكائن في المقعد الخلفي من رقاده، وسأل بصوتٍ غائر: "أين أنا بحقِّ الجحيم؟". صاح الشرطي وحاد عن الطريق. اتَّضَح أن الجثمان طالِبٌ جامعي يُدعى دونالد موريس، قضى آخر يومين في الفراش مصابًا بإنفلونزا حادَّة، أكانت إنفلونزا آسيوية في العام الأخير؟ لا أتذكّر. على أيَّة حال، فقد أغمى عليه في المرآب في طريقه إلى "جريندر" من أجل زبديَّة حساء وبعض الخبز المُحمَّص.

استمرَّت الأيام دافِئةً ومُلبَّدة بالغيوم. تجمَّع الأفراد في مجموعات صغيرة ميّالة إلى الانفصال والتجمُّع ثانية بسرعة مفاجئة. إن التطلُّع

إلى نفس تشكيلة الوجوه لمدة طويلة جدًّا يعطيك أفكارًا مُضحِكة عن بعضهم. وبدأت سرعة انتشار الشائعات من أحدِ أطراف الحرم الجامعي إلى الآخر في الاقتراب من سرعة الضوء. سُمِع صوت أستاذ تاريخ محبوب وهو يضحك وينتحب عند جسر صغير، فقد تَرَكَت جايل كيرمان رسالةً مُلغِزةً من كلمتين، كتبتهما بدمها على الأرض المطليَّة بالقار لمرآبِ قسم الدراسات الحيوانية، كلتا الجريمتين في الواقع جرائِمُ سياسيَّة، جرائم شَعائِريَّة اقترفها أحدُ فروع جمعية "ط.م.د"[1]؛ احتجاجًا على الحرب. كان الأمر مَدعاةً للضحك، فلدى فرع "ط.م.د" في نيو شارون سبعة أعضاء، ويمكن لفرع كبير أن يتسبَّب في إفلاس الجمعية بأَسْرِها. جلبت هذه الحقيقة المزيدَ من الرونق الخبيث من طرف اليمينيين في الحرم الجامعي، المحرَّضين من الخارج؛ لذا خلال تلك الأيام العجيبة الدافئة، احترسنا منهم جميعًا.

تجاهَلَت الصحافة المتلوِّنة على الدوام التشابُهَ الكبير الذي حمله قاتلنا مع چاك السفاح، وحفرت لما هو أبعد وصولًا إلى العام 1812. عُثر على آن براي على طريق رطب على بعد 12 قَدَمًا من أقرب رصيف، ومع ذلك لا توجد آثار أقدام، ولا حتى لها. عُمِّد القاتل باسم سبرنجهيل چاك على يد صحافيٍّ مقدامٍ مُولَع بالغموض من نيو هامبشير؛ نسبةً إلى الطبيب سيِّئ السُّمعة چون هوكنز من بريستول، الذي قتل خمسًا من زوجاته بعقاقير غريبة، وبقي الاسم؛ غالبًا بسبب الطريق الرَّطب الخالي من العلامات.

في الليلة الحادية والعشرين أمطرت الدنيا ثانية، وتحوَّل المركز التجاري وباحة الكُلِّيَّة إلى مُستَنقَع. أعلنت الشرطة أنها نشرت مُحقِّقين، رجالًا ونساء، بملابس مدنية في الأرجاء كافَّة، وسُحبت نصف سيارات الشرطة خارج نطاق الخدمة.

---

(1) اختصارًا لـ(طلاب من أجل مجتمع ديمقراطي) (المترجم)

نـشرت جريـدة الحـرم الجامعـي افتتاحيَّـةً غاضبـة وركيكـة بعـض الـشيء احتجاجًـا عـلى هـذا. بَـدَت خلاصتـه أنـه مـع تخفِّـي رجـال الشرطـة بدرجاتهـم كافَّـة في هيئـة طُلَّاب، فسـيكون مـن المسـتحيل تمييـز المُحـرِّض الحقيقـي مـن المزيَّـف.

حـلَّ الغسـق ومعـه الضبـاب، منجرفًـا ببطء في طرقـات تحفُّها الأشـجار، وتقريبًـا بعنايـة، متشرِّبًـا البنايـات واحِـدَةً تلـو الأخـرى، كان شـيئًا رقيقًـا لا قـوامَ لـه، لكنـه عـلى نحـوٍ مـا عنيـد ومخيـف.

***

كان سـبرنجهيل چـاك رَجُـلًا، لم يُشـكِّك أحـدٌ في هـذا، لكـن الضبـاب الشريـك في الجريمـة أنثـى، أو هكـذا بـدا لي. بـدا الأمـر كـما لـو كانـت كُلِّيَّتنـا الصغـيرة عالِقـةً بينهـما، يعتصرهـا عنـاقُ حَبيـبٍ مجنـون، جـزء مـن مراسـم زواج يكتمـل بالـدم. جلَسـتُ ودَخَّنـتُ ورَأيـتُ المصابيـح تُضـاء في الظـلام المتنامـي وتسـاءَلتُ إنْ كان الأمـر انتهـى. دخـل شريـكي في السَّـكَن وأغلـق البـاب وراءه بهـدوء.

قال: "سيهطل الثلج عمَّا قريب".

استَدَرتُ ونظرت إليه. "هل يذكر المذياع ذلك؟".

قـال: "لا، مَـن يحتـاج لمذيـع نـشرة جويـة؟ هـل سَـمِعتَ مـن قبلُ عـن ربيـع الفراولة؟".

قلـتُ: "رُبَّمـا، منـذ زمـن بعيـد، كان أمـرًا تتحـدَّث بخصوصـه الجَـدَّات، أليـس كذلـك؟".

وقف بجواري، ناظرًا إلى الليل الزَّاحف.

قـال: "ربيـع الفراولـة يشـبه الصيـف الهنـدي، إلا أنـه أنـدَرُ في الحدوث، أنـت تحظـى بصيـفٍ هِنـديٍّ طيِّـب في هـذه البقعـة مـن البـلاد مـرَّةً كُلَّ

عامين أو ثلاثة أعوام، والتعويذة الجَوِّيَّة التي نحن فيها حاليًا من المفترض أن تحلَّ فقط كلَّ ثماني أو عشر سنوات. إنه ربيع زائف، ربيع كاذب، مثلما يُعَدُّ الصيف الهندي صيفًا غير حقيقيٍّ، اعتادت جَدَّتي على القول إن ربيع الفراولة معناه أن أسوأ رياح شمالية في الشتاء ما تزال على الأبواب، وكلَّما طال به الأمد، كلَّما اشتدَّت العاصفة".

قُلتُ: "حكايات خرافية، لا تُصدِّق كلمة". نظرت إليه، "لكني قَلِقٌ، ألَستَ قَلِقًا أيضًا؟".

ابتسم ابتسامةً عذبة، ثم سرق إحدى سيجارتي من العلبة المفتوحة على حافَّة الشُّبَّاك. قال: "أشكُّ في الجميع، إلا أنا، وأنت"، ثم خَبَت الابتسامةُ بعض الشيء. "وفي بعض الأحيان أتساءل بشأنِك، أترغب في الذهاب إلى الاتحاد ولعب البلياردو؟ سأعطيك عشرة دولارات".

"الأسبوع القادم امتحان حساب المثلَّثات، سأقبع مع قلم لبَّاد وكومة جديدة من الأوراق".

بقيتُ فقط أنظر من النافذة لوقت طويل بعد ذهابه، حتى بعدما فتَحتُ كتابي وبدأت الاستذكار، كان جزءٌ منِّي ما يزال هناك، يتمشَّى في الظلال حيث يتولَّى زِمامَ الأمور الآن شيء مُظلِم.

في تلك الليلة، قُتِلَت آديل باركنز. كانت هناك سبع سيارات شرطة، وسبعة عشر شخصًا ذوو مَظهَرٍ جامعيٍّ (ثمانية منهم كُنَّ نِساءً قَطَعن مسافةً طويلة من بوسطن) يحرسون الحرم الجامعي. لكن سبرنجهيل چاك قتَلَها بنفس الكيفية، مستهدفًا أحدَنا دون خطأ.

ساعده وحرَّضَه الربيع الزائف، الربيع الكاذب، قتلها وتركها مُرتكِزةً خلف مِقوَدِ سيَّارتها الدودچ، موديل 1964، ليُعثَرَ عليها في الصباح التالي، ووجدوا جزءًا منها في المقعد الخلفي، وجُزءًا منها في صندوق السيارة، وكُتِبَت كلمتان بالدماء على الزجاج الأمامي -وهذه المرة حقيقة لا إشاعة- هما: ها! ها!

صار الحرم الجامعي جنونيًّا بعض الشيء عقب هذا. جميعنا، ولا أحد مِنَّا كان يعرف آديل باركنز، كانت من أولئك النسوة المُرهَقات عديمات الأسماء اللواتي عَمَلنَ في مناوَبةٍ قاصِمَةٍ للظَّهر في "جريندر" من الساعة السادسة وحتى الحادية عشرة ليلًا، في مواجهة جحافِلَ من شطائر الهمبرجر، والطلبة السُّعَداء في استراحةٍ من الاستذكار في المكتبة على ناصية الطريق. ربما كان الأمر هيِّنًا عليها نسبيًّا في تلك الليالي الضبابية الثلاث الأخيرة في حياتها، حيث كان حظر التجوال مُطبَّقًا بصرامة، وبعد التاسعة يكون زبائن "جريندر" فقط من رجال الشرطة الجوعى وعُمَّال النظافة السُّعَداء، فقد حَسَّنَت المباني الخاويةُ من مزاجهم السيِّئ المألوف بشكل ملحوظ.

بقي القليل ممَّا يُقال. فأفراد الشرطة -الشَّاعرين بالانزعاج والميَّالين للهيستريا مثل أيِّ أحدٍ فينا- قد قبضوا على طالب دراساتٍ عُليا مِثليِّ الجِنس، يدرس علم الاجتماع، ولا يؤذي أحدًا- يُدعى هانسون جراي، الذي ادَّعى أنه "لا يستطيع تَذَكُّر" أين أمضى بعضًا من تلك الليالي المميتة، وُجِّه له الاتِّهام، واستُدعِي للمُحاكمة، وتركوه يعود فارًّا -وبسُرعَة- إلى مسقط رأسه في بلدته بنيو هامبشير بعد آخر ليلة لا تُوصف من ربيع الفراولة، حين ذُبِحَت مارشا كوران في المركز التجاري.

سيبقى سبب خروجها وبقائها وحيدةً خارج نطاق المعلوم إلى الأبد، كانت فتاةً بَدينةً، وحلوةً بِشَكلٍ مُحزِن، عاشت في شقَّة في البلدة مع ثلاث فتيات أخريات، تسلَّلَت إلى الحرم الجامعي في صَمتٍ ويُسرٍ مثل سبرينجهيل چاك نفسه. ما الذي جاء بها؟ ربما كانت حاجتها عميقةً ومُلِحَّةً مثل حاجة قاتِلِها، وبعيدة عن الإدراك. ربما كان الاحتياج لرومانسية مُتَّقِدة ومُفرِطة مع الليل الدافئ والضباب الدافئ ورائحة البحر والسِّكِّين البارد.

حدث هذا في الليلة الثالثة والعشرين، وفي اليوم الرابع والعشرين، أعلن عميد الكُلِّيَّة عن تقديم موعد عطلة الربيع أسبوعًا، وتفرَّقنا غيرَ مُبتَهِجين، وإنما مثل الخراف المذعورة قبل العاصفة، تاركين الحَرَمَ الجامعي خاويًا ومسكونًا بالشرطة مع شبح مُظلِمٍ.

كانت لديَّ سيَّارتي في الحرم الجامعي، واصطَحبتُ معي ستَّة أشخاص إلى وسط المدينة. كانت أمتعتهم محشورةً بشكل فوضويٍّ. لم تكن رحلةً لطيفة. أيٌّ مِنَّا يُدرِك أن سبرينجهيل چاك قد يكون معنا في السيارة.

في تلك الليلة تناقَصَ مُؤشِّر الحرارة بمقدار 15 درجة، وطُوِّقَت المنطقة الشمالية من نيو إنجلاند بأَسْرِها برياح شمالية صيَّاحة، بدأت بمَطَر مُتجمِّد وانتهت بعلو قدمٍ من الثلج، وبعدها حَلَّ أبريل كالسِّحر. غيث نَقيٌّ وليالٍ مُرصَّعة بالنجوم.

أسموه ربيع الفراولة، الرَّبُّ يعلم السبب، وكان وقتًا كاذبًا شريرًا يأتي مرَّةً كُلَّ ثماني أو عشر سنوات. رحل سبرينجهيل چاك مع الضَّباب، ومع مطلع يونيو، تحوَّلَت مُحادَثات الحرم الجامعي إلى سلسلةِ مُظاهَرات ضِدَّ الخدمة العسكرية واعتصامات في المبنى الذي يُجري فيه مُصنِّعُ قَنابِل نابالم معروفٌ مُقابَلاتِ عَمَل، وبحلول يونيو، تمَّ التغاضي -بالإجماع تقريبًا- عن مسألة سبرينجهيل چاك. عندي شَكٌّ أن الكثيرين قد قلَّبوا الموضوع في سِرِّيَّة على وجوه كافَّة، باحثين عن ذلك الشرخ في بيضة الجنون المتروكة التي ستجعل الأمر مفهومًا.

كانت هذه سنة تَخرُّجي، والسنة التالية كانت سنةَ زواجي. حَظيتُ بوظيفةٍ جَيِّدة في دار نشرٍ مُحلِّيَّة. في العام 1971 أنجبنا طفلًا، وهو الآن في سن المدرسة. فتى طيِّبٌ ومقدامٌ، حظي بعينيَّ وفَمِها.

ثم، صحيفة اليوم.

علمت بالطبع أنه هناك، عَلِمتُ صباح أمس حين استيقظتُ وسمعت الصَّوتَ الغامض للثلج السائل يجري في المزاريب، وشَمَمتُ الرائحة المِلحيَّة للمُحيط من شرفتنا الأمامية، حيث أقرب شاطئ على بُعد تسعة أميال. عَلمتُ بحلول ربيع الفراولة ثانيةً حين عُدتُ بالسيارة من العمل إلى المنزل، وكان عليَّ تشغيل المصابيح الأمامية في مواجهة الضباب الذي بدأ الزحف من الحقول والتجاويف، طامسًا صفوف المباني، ومانحًا مصابيح الطريق هالات خيالية.

ذكَرَت صحيفةُ اليوم أن فتاةً قُتِلَت في حرم نيو شارون الجامعي بالقرب من مدافع الحرب الأهلية. قُتِلَت الليلة الماضية، وعُثِر على جُثَّتها في كومة ثَلجٍ آخِذَةٍ في الذَّوبان، لم يكن جَسَدُها كله هناك.

ابتأَسَت زوجتي، أرادت أن تعرف أين كنتُ الليلةَ الماضية، لا أستطيع إخبارها لأني لا أتذكَّر، أتذكَّر تَحرُّكي بالسيارة من العمل إلى المنزل، وأتذكَّر تشغيلي لمصباحي الأمامي كي أفتِّش عن طريقي عبر هذا الضباب الزاحف الجميل، وهذا كل ما أتذكَّره.

كنتُ أفكِّر في الليلة الضبابية حين انتابني الصُّداع وخَرَجتُ لشَمِّ الهواء ومَرَرتُ على كُلِّ الظِّلال الجميلة عديمة الهيئة والقوام. كل ما كنتُ أفكِّر فيه صندوقُ سيارتي، يا لها من كلمة قبيحة: صندوق! مُتسائِلًا: لماذا ينبغي عليَّ الخوف لهذه الدرجة من فتحه.

يمكنني سَماعُ زوجتي وأنا أكتب هذا، في الغرفة المجاورة، وهي تبكي، تظنُّ أنني كنتُ مع امرأة أخرى الليلة الماضية.

ويا إلهي القدير، هكذا أظنُّ أيضًا.

الإفريز

"هيًا، انظُرْ ماذا يوجد في الحقيبة". هكذا قال كريسنر ثانية.

كنًا في شقًته العلوية، على ارتفاع ثلاثة وأربعين طابقًا، كانت السجًادة وَبَريَّة مقصوصة قاتمة، لونها برتقالي محروقٌ، وفي المنتصف بين المقعد الباسكيِّ المنخفض الذي يجلس عليه كريسنر، والأريكة الجلدية الأصلية التي لا يجلس عليها أحد- تقبَعُ حقيبةُ تَسوُّق بُنِّيَّة.

قلت: "لو كانت هذه رشوة، انسَ؛ فأنا أحبُّها".

"إنها أموال، لكنها ليست رشوةً، انظر...". كان ري يدخِّن سيجارة تركيَّةً موضوعةً في حامل من العقيق. سمح لي نظامُ التهوية بنفحةٍ فاتِرَة من التَّبغ، سرعان ما انقشعت. كان يرتدي روبًا حريريًّا، طُرِّز عليه تِنِّين. عيناه ساكنتان ومُتَّقِدتان وراء نظارته، كان يبدو مثلما يكون على أرض الواقع: أهم شخص على الإطلاق، وزنه 500 قيراط، ابن قحبة حتى النخاع، أحبَبتُ زوجته، وهي أحبَّتني. توقَّعتُ أنه

سيُثير مشكلة، وعَلِمتُ أن هذا ما سيكون، لكني لم أكن متيقِّنًا من نوع المشكلة.

اتَّجهتُ إلى حقيبة التَّسوُّق وقَلَّبتها، رُزَم أموال مربوطة تَدَحرَجَت على السجادة، كلها من فئة العشرين دولارًا، التقطتُ إحدى الرُّزَم وأحصَيتُ الأموال، عشر أوراق نقدية في الرُّزمة، توجد الكثير من الرُّزَم.

"عشرون ألف دولار". هكذا قال، ونفخ دخان سيجارته.

توقَّفتُ. "حسنًا".

"إنها لك".

"لا أريدها".

"ومعها زوجتي".

لم أَقُل شيئًا، حذَّرَتني مارسيا من كيفيَّة سريان الأمر. إنه مثل القِطِّ، "توم" عجوزٌ ممتلئ بالدَّناءة، سيحاول أن يُحَوِّلَك إلى فأر.

قال: "إذن، أنت محترفٌ في رياضة التِّنِس، لا أصدِّق أني لم أصادف لاعِبَ تِنِس من قبل".

"أتَقصِدُ أن مُحقِّقيكَ لم يُحضِروا لك أي صور؟".

لوَّح بحامل السيجارة دون اكتراث. "أوه، نعم، ولا حتى ڤيديو لكما أنتما الاثنين في ذلك الموتيل المحاذي للبحر، وراء المرآة كانت توجَدُ كاميرا، لكنَّ الصُّور كانت هي نفسها تقريبًا، أليست كذلك؟".

"إن كان هذا رأيكَ".

هكذا قالت مارسيا: سيواصل تبديلَ المسارات، تلك هي طريقته لوضع الأشخاص في حالة الدفاع عن أنفسهم، وعمَّا قريب سيُذهِبكَ أينما تظنُّ أنه سيتواجد، فيأتي بك إلى مكانٍ آخر. قَلِّل من كلامك قدر المستطاع يا ستان، وتذكَّر أني أحِبُّكَ.

"دَعَوتُـكَ إلى هنـا لأني ظَنَنـتُ أننـا سـنتحدَّث قليـلًا رَجُـلًا لرَجُـل يـا سـيد نوريـس، مجـرَّد حديـث ودود بـين رَجُلَـيْن مُتحضِّرَيْـن، أحدهـما سـلب الآخـر زوجتـه".

أوشَكتُ على الرَّدِّ، لكني قرَّرتُ ألَّا أَرُدَّ.

قـال كريسـنر، نافِثًـا الدخـان في تكاسُـل: "هـل اسـتمتعتَ بوقتـك في سـجن سـان كوينـتن؟".

"ليس كثيراً".

"أظـنُّ أنَّـكَ أمضيـتَ ثـلاث سـنوات، مُتَّهَـمًا بالاقتحـام والسرقـة. إن كنـتُ عـلى صـواب".

قلـتُ: "مارسـيا تعلـم بالأمـر"، وعـلى الفـور وَددتُ لـو لم أقُـل ذلـك. كنـتُ ألعـب لُعبَتَـه، بالضَّبـط مثلـما حَذَّرتنـي مارسـيا بالضبـط، أقـذف إليـه الكُـرات، فيردُّهـا إليَّ بضربـات قويـة.

"سَـمحتُ لنفـسي بنَقـلِ سـيَّارَتِك". هكـذا قـال وهـو يتطلَّـع خـارج النافـذة في الطـرف الأدنى مـن الغرفـة، لم تكـن في الحقيقـة نافِـذةً بأيَّـة حـال، كان الجـدار بـأَسْرِه زُجاجيًـا. في المنتصـف بـاب زجاجـي جـرَّار، ووراءه شُرفَـة في حجـم طابـع بريـدي، ووراءهـا، مهبَـطٌ طويـل جـدًّا. ثَمَّـة شيء غريـب حيـال البـاب، لكنـي لم أضـع يـدي عليـه.

قـال كريسـنر: "هـذه بنايـة لطيفـة جـدًّا، مـع تأمـينٍ جَيِّـد، ونظـام مراقبـة وهكـذا أشـياء. حـين عرفـتُ أنَّـكَ في الـرواق، أجرَيـتُ مُكالَمـةً هاتفيـة، وبعدهـا أدار موظَّـفٌ مفتـاح تشـغيل سـيارتك وقادهـا مـن موقـف السـيارات هنـا إلى مـرآبٍ عـامٍّ عـلى بُعـد بضعـة بنايـات".

ألقـى نظـرةً عـلى السـاعة العصريـة شَمسـيَّة الشـكل فـوق الأريكـة، كانـت السـاعة الثامنـة وخمـس دقائـق.

"عنـد حلـول السـاعة الثامنـة والثلـث، نفـس الموظـف سـيتَّصِل بالشرطـة مـن كابينـة هاتـف عموميـة بخصوص سيارتك، وعنـد السـاعة الثامنـة والنصـف، في نهايـة المطـاف، سـيعثر رجـال الشرطـة عـلى سـبع أوقيـات مـن الهيرويـن المخفـي في عجَلـةِ سـيَّارتك الاحتياطيـة، سيسـعون وراءك بـكلِّ حَـماسٍ يـا سـيد نوريـس".

دبَّـر لي مكيـدة، حاوَلـتُ حمايـة نفـسي قـدر اسـتطاعتي، لكنـه اعتـبرني مجـرَّدَ لُعبَـة أطفـال.

"هـذا مـا سـيحدث إلَّا إذا اتَّصَلـتُ بموظَّفـي وأخبرتـه أن ينـسى أمـر المكالمـة الهاتفيـة".

قلـتُ: "وكل مـا عـليَّ فِعلُـه إخبـارُكَ بمـكان مارسـيا، لـن أعقـد صفقـةً يـا كريسـنر، لا أعـرف، خَطَّطنـا للأمـر هكـذا مـن أجلـكَ".

"رجالي يتبعونها".

"لا أظنُّ، ويُهيَّأ لي أنهم فقدوا أثرنا في المطار".

تنهَّـد كريسـنر، وأزال حامِـلَ السـيجارة المشـتعلة، وألقاهـا في مطفـأة مطليَّـة بالكـروم ذات غطـاء مُنزَلِـق. بـلا ضجَّـة ولا فـوضى، جـرى التعامُـل مـع كلٍّ مـن السـيجارة المسـتعمَلَة وسـتان نوريـس عـلى قـدم المسـاواة.

قـال: "في الحقيقـة، أنـت عـلى حَـقٍّ. حيلـة الاختفـاء القديمـة داخـل دورة الميـاه، انزعـج جواسـيسي مـن انخداعهـم بحيلـةٍ قديمـة مثـل هـذه، أظـنُّ أنهـا قديمـة جـدًّا لدرجـة أنهـم لم يتوقَّعوهـا".

لم أَقُـل شـيئًا. بعـد تَخلُّـص مارسـيا مـن جواسـيس كريسـنر في المطـار، سـافَرَت بالبـاص عائِـدةً إلى المدينـة، ثـم إلى محطَّـة البـاص، وكانـت هـذه هـي الخُطَّـة. كان معهـا مائتـا دولار، وهـي كل الأمـوال المتوافِـرَة في حسـابي الادِّخـاري. يمكـن لمائتـي دولارٍ وبـاص شركـة "جـراي هاونـد" أن يأخـذاكَ لأيٍّ مـكانٍ في البـلاد.

سـأل كريسـنر، وبـدا عليـه اهتـمامٌ فِعـليٌّ: "هـل أنـتَ دائمًـا قليـل الـكلام؟".

"تلك كانت نصيحةَ مارسيا".

قـال ببعـض الحِـدَّة: "إذن، أتصوَّر أنَّـكَ سـتعرف حقوقـك حـين تقبـض عليـك الشرطـة، وقـد تكـون المـرَّة القادمـة التـي سـتري فيهـا زوجتـي حـين تصـير جَـدَّةً عجـوزًا جالِسـةً عـلى كـرسيٍّ هَـزَّاز، هـل فكَّـرتَ في هـذا مَلِيًّـا؟ أتصـوَّر أن حيـازة سِـتِّ أوقيَّـات مـن الهيرويـن قـد تسـجنك أربعـين عامًـا".

"هذا لن يُعيدَ مارسيا إليكَ".

ابتسـم مُتلَطِّفًـا: "وهـذا هـو لُـبُّ الموضـوع، أليـس كذلـك؟ هَلُـمَّ بنـا نُراجِـع مـا نحـن عليـه؟ أنـتَ وزوجتـي وقعتـما في الحـب، حظيتـما بنـزوة، إلَّا إذا أردتَ أن تعتـبر سلسـلةً مـن ليـالي المُضاجَعـات العابِـرَة في موتيـلات رخيصـة هـي مُـرادِف النَّـزوَة، وهجرتنـي زوجتـي. مـع ذلـك، أنـت في حـوزتي، وكـما يقـول النـاس- موثـوق الأيـدي، هـل في هـذا خُلاصَـة شـافِيَة؟".

قلتُ: "أتصوَّر لماذا هي تَعِبَت منكَ".

أدهشـني أنـه مـال برأسـه وضحـك. "أتعلـم، أنـت تعجبنـي، أنـت وَقِـحٌ ومُقامِـرٌ، ولكـن يبـدو أنـك شـغوف. هكـذا وَصَفتـكَ مارسـيا، كنـتُ أشـكُّ في هـذا، فحُكمُهـا لَـيِّنٌ عـلى الأشـخاص، لكنَّـكَ تملـك حيويَّـةً مـا؛ ولهـذا السـبب أعـدَدتُ الأمـور عـلى طريقتـي. لا شـكَّ أن مارسـيا أخبَرَتـكَ كـم أنـا مُولَـعٌ بالتَّحدِّيـات".

"نعـم"، الآن عرفـت مـا خَطـبُ البـاب في منتصـف الجـدار الزجاجـي، كان الوقـت منتصـف الشـتاء، ولا أحـد يريـد أن يـشرب الشـاي في شُرفَـةٍ عـلى ارتفـاع ثلاثـة وأربعـين طابقًـا. أُخلِيَـت الشُّرفـة مـن الأثـاث، وأُزيـل السـتار عـن البـاب. الآن لماذا فعـل كريسـنر هـذا؟

قال كريسنر وهو يُثبِّت سيجارةً أخرى في الحامِل: "لا أحبُّ زوجتي كثيرًا، هذا ليس سرًّا، أنا متأكِّد أنها أخبَرتكَ كما أتوقَّع، وأنا على يقين أن رَجُلًا بخِبرَتِكَ يدرك أن الزوجات القانعات لا يُمارِسن الجِنسَ مع لاعب تنس محترف عند سقوط مضرب التنس. في رأيي، مارسيا متزمِّتة، وفتاة شاحبة الوجه مُتصنِّعةٌ للحَياء، ومُتذمِّرة، وبَكَّاءة، ونَقَّالة للقيل والقال، و...".

"في هذا الكفاية". هكذا قُلتُ.

ابتسم في برودٍ، "أستَميحُكَ العُذر، لا أنفكُّ أنسى أننا نتناقش بخصوص محبوبتي، إنها الآن الثامنة وست عشرة دقيقة، هل أنت متوتِّر؟".

هَزَزتُ كتفي.

أشعل سيجارته وقال: "عنيدٌ حتى النهاية، عمومًا، ربَّما تتساءل عن السبب، إذا كنتُ لا أحبُّ مارسيا كثيرًا، فَلِمَ ببساطة لا أعطيها حُرِّيَّتها...".

"لا، أنا لا أتساءل على الإطلاق".

قطَّب لي وجهه.

"أنتَ أنانيٌّ، وجَشِع، وابن قحبة مُحِبٌّ لِذَاتِه، هذا هو السبب، لا أحدَ يأخذ ما هو لَكَ، حتى لو لم ترغب فيه بعد الآن".

احمرَّ وَجهُه ثم ضحك. "نقطة لصالحك يا سيد نوريس، جيِّد جدًّا".

هَزَزتُ كتفي ثانية.

"سأعرض عليك تحدِّيًا، إذا فُزتَ به، ستغادر من هنا مع المال، والمرأة، وحُرِّيَّتك، وعلى الناحية الأخرى، إذا خسرت، ستخسر حياتك".

نظرتُ إلى الساعة، لا حيلةَ لي في الأمر، كانت الساعة الثامنة وتسع عشرة دقيقة.

"حسنًا". ها قد قُلتُها، ماذا أيضًا؟ قد يمنحني هذا المزيد من الوقت، أو على الأقل وقتًا للتفكير في طريقة للهرب مِن هُنا، بالمال أو بدونه.

رفع كريسنر سمّاعة الهاتف بجواره، وطلب رقمًا.

"توني؟ الخطة رقم 2، نعم".

أُغلِق الخَطُّ.

سألت: "ما هي الخطة رقم 2؟".

"سأتَّصِل بتوني مُجدَّدًا خلال ربع ساعة، وسيُخرِج المواد المخالِفة من صندوق سيارتك، ويعود بها إلى هنا. إذا لم أتَّصِل، سيتَّصِل هو بالشرطة".

"لا يبعث الأمرُ كثيرًا على الثِّقة، أليس كذلك؟".

"تَعقَّلْ يا سيد نوريس، توجد عشرون ألف دولار على السجادة بيننا. في هذه المدينة، تُرتكَبُ جريمة القتل مقابل عشرين سنتًا".

"ما هو الرِّهان؟".

بدا مُنزَعِجًا على حَقٍّ.

"تحدٍّ يا سيد نوريس، تَحَدٍّ، السادة يخوضون التَّحدِّيات، والدُّهَماء يضعون الرِّهانات".

"أيًّا كان قولكَ".

"ممتاز، رأيتك تتطلَّع إلى شُرفَتي".

"حاجز الباب مخلوع".

"نعـم، أزَلتُـه بعـد الظهـيرة، مـا أعرضـه عليـك هـو التـالي: أن تمـشي حـول البنايـة عـلى الإفريـز البـارز تحـت طابـق الشَّـقَّة العلويـة، فـإذا دُرتَ حـول البنايـة بنجـاح؛ فالجائـزة الكـبرى مـن نصيبـك".

"أنتَ مجنون".

"بالعكـس، عرَضـتُ هـذا التحـدِّي سِـتَّ مَـرَّاتٍ عـلى سـتة أشـخاص مختلفـين خـلال سـنواتي الاثنتـي عـشرة في هـذه الشـقة، ثلاثـة مـن أولئـك السِّـتَّة رياضيُّـون مُحتَرفـون، مثلـك، أحدهـم كان لاعِـبَ ظهـير ربعـي سـيئَ السُّـمعَة، اشـتهر بفضـل إعلاناتـه التَّلفزيَّـة أكـثر مـن تمريراتـه الكرويـة، والثـاني لاعـب بيسـبول، والثالـث فـارِس سـباقات شـهيرًا، جنـى أجـرًا سـنويًّا غـير عـاديٍّ، وابتُـليَ أيضًـا بمشـاكل غـير عاديـة في نفقـات الطَّـلاق. الثلاثـة الآخـرون كانـوا مواطنـين عاديِّـين أكـثر، يشـغلون وظائـف متنوِّعَـة، ولكـن يجمعهـم شـيئان: الاحتيـاج للـمال ومسـتوى مُعيَّن مـن رشـاقة الجسـد". نفـث دخـان سـيجارته متفكِّـرًا، ثـم واصـل الحديـث: "رُفِـضَ التحـدِّي دون تفكـيرٍ خَمسَ مـرَّات، وقُبِـلَ التَّحـدِّي في مناسـبة أخـرى، كان الـشرط عشريـن ألـف دولار أو العمـل في خدمتـي سـتَّةَ أشـهر، فجمعـت المـال. احتـاج الأمـر مـن الرجـل نظـرةً واحـدة أسـفل حافَّـة الشرفـة، وكاد أن يُغمَـى عليـه". بـدا كريسـنر مُستَمتِعًا وسـاخِرًا. "قـال إن كلَّ شيء بالأسـفل بـدا فائِـقَ الصِّغَـر، هـذا مـا أتلـف أعصابـه".

"ماذا يَدفَعُكَ للتَّفكير...".

قاطَـعَ حديثـي بتلويـحٍ مُنزَعِـج بيَـدِه. "لا تُضجِـرْني يـا سـيد نوريـس، أظـنُّ أنَّـكَ سـتفعلها لأنـه ليـس لديـك خيـار، إمَّـا التَّحـدِّي في يَـدٍ، أو أربعـون عامًـا في سـجن سـان كوينـتن في اليَـدِ الأخـرى. المـال وزوجتـي مـا هُـما إلَّا إضافـات للتدليـل عـلى طبيعتـي الخـيِّرة".

"أيُّ ضمانٍ في يـديَّ أنـك لـن تخدعنـي؟ ربمـا سـأفعلها وأكتشـف أنَّـكَ اتَّصلـتَ بتـوني وأخبرتَـه أن يُبـاشِرَ الخُطَّـة عـلى أي حـال".

تنهَّـد، "أنـت بارانويـا تسـير عـلى قدمَـيْن يـا سـيد نوريـس، أنـا لا أحـبُّ زوجتـي، وجودهـا في الجـوار لـن يُسـدي أيَّ نفـع عـلى الإطـلاق لشـخصي الأسـطوري، عـشرون ألـف دولار بالنسـبة لي مبلَـغٌ زهيـد، أدفـع أربعـة أضعـاف هـذا المبلـغ كل أسـبوع للجُبـاة مـن الشرطـة، وبالنسـبة لهـذا التحـدِّي، فعـلى أيَّـة حـال...".

فكَّـرتُ في الأمـر، وتركنـي. أظـنُّ أنـه أدرك أن الهـدف الفعـلي مُقنِـعٌ في ذاتـه، كنـتُ مُـشرَّدًا يلعـب التنـس في السادسـة والثلاثـين مـن عمـره، وكان النـادي يفكِّـر في الاسـتغناء عنـي وقتـما فرَضَـت مارسـيا بعـضَ الضغـوط الناعمـة. كانـت رياضـةُ التِّنـس مِهنَتـي الوحيـدة التـي أعرفهـا، وبدونهـا؛ سـيصعب عـليَّ الحصـول عـلى عمـلٍ، حتـى لـو عامـل نظافـة، خاصَّـة في وجـود سِـجِلٍّ ريـاضي. كانـت مسـألةً طفوليَّـة، لكـن رؤسـاء الأعـمال لا يبالـون.

والـشيء الطريـف أني أحبَبـتُ مارسـيا كريسـنر، وقَعـتُ في حُبِّهـا بعـد درسَيْ تِنِـس عُقِـدَا في السـاعة التاسـعة، ووَقَعَـت في حبِّـي بنفـس الدرجـة، كان الأمـر مثـالًا عـلى حَـظِّ سـتان نوريـس، حسـنًا إذن. بعـد سِـتَّة وثلاثـين عامًـا مـن العزوبيَّـة السـعيدة، وقَعـتُ مثـل جـوالِ رسـائِلَ في حُـبِّ زَوجَـةِ زَعيـم تنظيـمٍ إجرامـي.

تـوم العجـوز يجلـس هنـاك، نافثًـا دخـان سـيجارته التركيـة المسـتوردة، عالِـمًا بـكل هـذا طبعًـا. وثمَّـة شيء آخـر كذلـك، ليـس لـديَّ ضمانـة أنـه لـن يُسـلِّمني إذا لم أقبـل تَحدِّيَـه وأفـوز بـه، لكنـي أُدرِك حَـقَّ الإدراك أني سأُسـجَنُ بحلـول السـاعة العـاشرة إذا لم أوافـق، والمـرَّة القادمـة التـي سأسـتَرِدُّ فيهـا حُرِّيَّتـي سـتكون مـع بدايـة قـرن جديـد.

قلتُ: "أريد معرفة شيء واحد".

"ماذا عساه أن يكون يا سيد نوريس؟".

"انظُرْ إلى وجهي وأخبِرْني إن كنتَ سَتُخلِفُ وَعدَكَ أم لا".

نظر إليَّ مباشرة، وقال بهدوء: "سيِّد نوريس، أنا لا أُخلِفُ وعودي أبدًا".

قلتُ: "حسنًا"، أيوجد خيارٌ آخر؟

وقف مُبتَهِجًا. "ممتاز! حقًّا ممتاز! اقتَرِب معي من الباب والشُّرفة يا سيد نوريس".

تَمشَّينا معًا، وجهه وَجهُ رَجُلٍ حَلُمَ بهذا المشهد مئات المرَّات، مستمتعًا بتحقُّقه لأقصى مدى.

قال بنبرة حالِمَة: "عَرضُ الإفريز خمسة إنشات، قِستُه بنفسي، بل في الحقيقة وَقَفتُ عليه، مستمسكًا بالشُّرفة طبعًا، كلُّ ما عَليكَ فِعلُه أن تُخفض جَسَدَكَ تحت الدَّرابزين الحديدي، سترتفع بصَدرِك، ولكن بالطَّبع وراء الدرابزين لا يوجد شيء تُمسِكُ به، سيتحتَّم عليك التقدُّم ببُطءٍ على امتداد طريقك، حريصًا كل الحرص ألَّا تفقد توازُنَكَ".

تركَّزَت عيناي على شيءٍ آخر خارج النافذة، شيء ما جعل درجة حرارة دمائي تنخفض بضعةَ درجات، كان مقياسًا لسرعة الرياح.

كانت شقَّة كريسنر قريبةً من البحيرة، وعالية بما يكفي، دون وجودٍ لمبانٍ أعلى تعمل كمَصدَّات للرياح، ستكون الرِّيح باردةً، وقاطِعةً مثل سِكِّين. استقرَّت الإبرة عند عشرة بشيء من الثَّبات، لكنَّ زَوبَعةً ما قد ترفع الإبرة إلى خمسة وعشرين تقريبًا لبضع ثوانٍ قبل انخفاضها.

قال كريسنر بمَرَحٍ: :آهه... أرى أنك لاحَظتَ وجودَ مقياسي للرِّياح، في الحقيقة، الرياح تُسَيطِرُ على الناحية الأخرى؛ لذا قد يصير النسيم أقوى قليلًا في هذه الناحية. لكن في الحقيقة هذه ليلةٌ ساكِنة تمامًا، شَهِدتُ أمسياتٍ عَصَفَت فيها الرياحُ وصولًا إلى خمسة وثمانين، تشعر معها في الحقيقة أن المبنى يهتزُّ بعض الشيء، كمثل تواجُدِكَ على

سفينة، واقفًا داخل عُشّ الغراب، والريح خفيفة في هذا الوقت من العام".

أشار بيده، ورأيت الأرقام المضاءة فوق قمَّة ناطحة سحاب بنكية ناحية اليسار، قالوا إنها أربعٌ وأربعون درجة، لكن مع الريح، سيوصل ذلك مُؤشِّرَ البرودة إلى نُقطَةٍ ما في منتصف التِّسعينات.

سألت: "ألَدَيكَ مِعطَف؟"، كنتُ أرتدي سُترةً خفيفة.

"وا آسفاه! لا".

تبدَّلَت الأرقام المضيئة على البنك كي تُظهر الوقت. كانت الساعة الثامنة واثنتين وثلاثين دقيقة، "وأظنُّ أنه يجب عليك البَدءُ يا سيد نوريس؛ حتى أتَّصِلَ بتوني لتفعيل الخُطَّة الثالثة، وماذا يكون الفتى الصالح سوى نَزُوعٍ نحو الاندفاع، أتفهمني؟".

فَهِمتُ كُلَّ شيء جيدًا، جيدًا جدًّا بحقِّ اللعنة.

لكن فكرة التواجد مع مارسيا، والفكاك من مخالب كريسنر مع أموالٍ كافية للبدء في شيء ما- جعلتني أدفع الباب الجرَّار الزُّجاجيَّ والخروج نحو الشرفة، كان الجوُّ باردًا ورطبًا، ونَفَشت الرِّيحُ شعري، فدَخَلَ في عينيَّ.

"بونسوار"، هكذا قال كريسنر من خلفي، لكني لم أُكلِّف نفسي عناء النظر ورائي. اقتربت من الدرابزين، لكني لم أنظر لأسفل، ليس بعدُ. بدأتُ آخذ أنفاسًا عميقة.

هذا ليس تمرينًا على الإطلاق، وإنما شكلٌ من أشكال التنويم المغناطيسي الذاتي. مع كل شهيقٍ وزفير، يتنامى خارج عقلك مصدرُ إلهاءٍ، حتى لا يتبقَّى شيءٌ سوى المباراة التي تنتظرك. تخلَّصتُ من الأموال بنَفَسٍ واحد، ومن كريسنر ذاته بنَفَسَيْن. احتاجت مارسيا وقتًا أطول، ظلَّ وَجهُها يبزغ داخل عقلي، مُخبِرَةً إيَّاي ألَّا أكون غبيًّا، وألَّا

ألعب لعبته، وأنه ربما لم يُخلِف كريسنر وعوده قَطُّ، لكنه دائمًا ما احتاط لرهاناته. لم أصغِ. لم أَقْوَ على ذلك. إذا خسرتُ هذه المباراة، لن أضطرَّ إلى شراء البيرة ونَيل السُّخرية، وإنما سأتحوَّل بشكلٍ كبير إلى تَرَسُّبٍ قُرمزيٍّ مُتناثِر عند امتداد بناية في شارع دايكمان على كلا الاتجاهين.

حين ظنَنتُ بامتلاكي الزمام، نَظَرتُ إلى الأسفل.

المبنى مُنحَدِر مثل جُرفٍ طباشيريٍّ أَملسَ يهبط عميقًا نحو الشارع. السيارات المصفوفة هناك تُشبِه قوالب عُلَب أعواد الثِّقاب التي تستطيع شراءها من متجر بيعٍ بالتجزئة، والسيارات المُساقة عند البناية مُجرَّد نقاط ضوء ضئيلة. إذا سقَطتَ من هذا الارتفاع، سيصير لديك مُتَّسَعٌ من الوقت كي تلحظ ما كان يحدث فحسب، وترى الرياح تنفخ ملابِسَك بينما تجذبك الأرض أسرعَ فأسرعَ. سيتَّسِع لديكَ الوقت كي تصرخ صرخةً طويلة طويلة، وسيصبح الصوت الذي تصنعه لحظةَ اصطدامك بالرصيف مثل صوت بطيخة متفسِّخة.

فَهِمتُ لماذا جَبُنَ الرَّجلُ الآخر، لكنه حمل هَمَّ سِتَّة أشهر فقط، وأنا أحدِّق، وكل ما أراه أربعون عامًا طويلة، كئيبة، خالية من مارسيا.

نظرت إلى الإفريز، بدا صغيرًا، لم أرَ قَطُّ خَمسةَ إنشات تبدو مُضاعَفةً لهذا الحَدِّ. على الأقل البناية جديدة تمامًا، فلن تنهار من تحت أقدامي.

رَجوتُ ذلك.

تأرجَحتُ على الدرابزين وأخفَضتُ جَسَدي بحرصٍ، حتى بِتُّ واقفًا على الإفريز، كانت ركبتاي على المهبط. أرضية الشرفة مرتفعة حتى الصدر تقريبًا، وكنت أنظر إلى شقة كريسنر العلوية عبر قضبان الحديد المُزَخرَفَة. كان يقف وراء الباب، يدخِّن، ويراقبني مُراقَبةَ عالِمٍ لخنزير غينيٍّ؛ ليرى آخِرَ حُقنَةٍ سيستخدمها.

قلتُ وأنا مُمسِكٌ بالدرابزين: "أَجْرِ الاتِّصال".

"ماذا؟".

"اتَّصِلْ بتوني، لن أتحرَّك إلى أن تتَّصِل".

عاد إلى الصالة، بدت دافِئةً ومُريحَة وآمِنَة لدرجة مُدهِشة، ورفع سمَّاعة الهاتف. كانت بادِرةً لا قيمةَ لها، صدقًا. مع الرياح لم أفلح في سماع كلمة ممَّا كان يقوله. أنزل سمَّاعةَ الهاتف وعاد.

"تمَّ الاعتناءُ بالمسألة يا سيد نوريس".

"يُفضَّل أن يكون كذلك".

"وداعًا يا سيد نوريس، أراك بعد قليل، ربَّما".

حان وقتها، انتهى وقت الكلام. أَدَعُ نفسي تفكِّر في مارسيا مرَّةً أخيرة، في شَعرِها البُنِّيِّ الخفيف، وعينَيْها الرَّماديَّتَيْن الواسِعَتيْن، وجسدها الجميل، ثم أُخرِجها من عقلي تمامًا. لا مزيد من النظر أيضًا لأسفل. سيكون من السهولة بمكان أن يصيبني العَجزُ من النظر لأسفل عبر هذا الفضاء. يسهل جدًّا أن تتجمَّد فحسب إلى أن تفقد توازُنَكَ أو يُغمَى عليكَ من الخوف. حان الوقت للرؤية النَّفقيَّة، والوقت لعدم التركيز على شيء سوى القَدَمِ اليُسرى والقدم اليُمنى.

بدأتُ التَّحرُّك ناحية اليمين، متمسِّكًا بدرابزين الشرفة لأطول وقتٍ مُمكِن. لم يستغرقني الأمر طويلًا لأكتشف حاجتي لكلِّ عضلات التنس التي يملكها كاحِلاي، ومع ارتكاز كعوبي وراء الحافَّة، يمكن لتلك الأوتار أن تحمل وزني كاملًا.

وصَلتُ إلى نهاية الشرفة، ولِلَحظَةٍ لم أظُنَّ أني قادر على التَّخلِّي عن هذا الأمان. أجبَرتُ نفسي على فِعلها. خمسة إنشات، يا للجحيم، إنها مسافَةٌ كبيرة. لو كان الإفريز من البداية مجرَّد قَدمٍ بدلًا من 400

قـدم، كنـتَ سـتركض حـول هـذه البنايـة في أربـع دقائـق بالتـمام والكـمال، هكـذا قُلـتُ لنفـسي؛ لـذا تَظاهَـرْ فَحَسـبُ أنهـا كذلـك.

نعـم، وإذا أفلَتَـت قَـدمٌ عـن الإفريـز خـارج الأرضيـة، قُـلْ كلمـة "جـرذان!"، وحـاوِلْ مَـرَّةً أخـرى؛ فهنـا في الأعـلى لديـك فرصـة واحـدة فقط.

حَثَثْـتُ قَدمـي اليُمنـى قُدُمًـا، ثـم أَتيـتُ بِقَدَمـي اليُـسرى جوارهـا. ترَكـتُ الدرابزيـن. فـرَدتُ يـديَّ للأعـلى، سـامِحًا لراحتَيْهـما أن تسـتندا عـلى الحجـر الخَشِـن للبنايـة السـكنية. ربتـت عـلى الحجـر، كان بمقـدوري تقبيلـه.

خبَطَتنـي زَوبَعـةُ ريـح، فضَغَطَـت ياقـة سـترتي عـلى وجهـي؛ مِمَّا جعـل جسـمي يميـل عـن الإفريـز. قفـز قلبـي إلى حلقـي وبقـي هنـاك حتـى سـكنت الريـح. كان يُمكِـن لزوبعـة قويَّـة بمـا يكفـي أن تُنزِلَنـي مـن عليـائي، وتُرسِـلَني لأطـير في الليـل. وسـتكون الريـح أعتـى في الناحيـة الأخـرى.

أمَلـتُ رأسي ناحيـة اليسـار، ضاغطًـا خَـدِّي عـلى الحجـر. كان كريسـنر يتَّكِـئُ عـلى الشرفـة مُراقِبًـا إيَّـاي.

سأل بوداعَةٍ: "أتستَمتعُ بوَقتِكَ؟".

كان يرتدي معطفًا بُنِّيًّا مصنوعًا من وبر الجِمال.

قلتُ: "ظَنَنتُ أنَّك لا تملك معطفًا".

ردَّ برصانة: "كذبتُ، أكذب بشأن أشياء عديدة".

"ماذا يُفترض أن يعني هذا الكلام؟".

"لا شيءَ، لا شيء عـلى الإطـلاق، أو ربمـا قـد يعنـي شـيئًا، حربًـا نفسـيَّة، صـح يـا سـيد نوريـس؟ ينبغـي أن أخـبرك ألَّا تتباطـأ لوَقـتٍ أطـول مـمَّا يجـب؛ فالكاحـلان يـزداد تعبهـما، وإذا انهـارا..."، أخـرَجَ تُفَّاحَـةً مـن جيبـه، وقضـم منهـا قضمـةً، ثـم ألقاهـا عـلى الإفريـز. لم يصـدر صَـوتٌ لوقـت

طويـل، وبعدهـا جـاء صـوت خافِـتٌ وكريـه، ضحـك كريسـنر ضحكـة مكتومـة.

شـتَّت انتباهـي، وشـعرتُ بالقلـق يقضـم أطـراف مخِّـي بأسـنان معدنيـة. سيلٌ عـارِمٌ مـن الخـوف يتـوق لأن يسـارع ويُغرقنـي، أدَرتُ رأسي بعيـدًا عنـه، وتنفَّسـتُ بعُمـق، دافعًـا القلـق بعيـدًا. كنـت أنظـر إلى لافتـة البنـك المضيئـة، والتـي تشـير إلى السـاعة الآن الثامنـة وسـتٍّ وأربعـين دقيقـة، آن آوان الإيـداع في صنـدوق مشـترك!

مـع الوقـت، باتـت الأرقـام المضيئـة هـي الثامنـة وتسـعًا وأربعـين دقيقـة، شـعرت أني ملَكـتُ زمـام نفـسي ثانيـة. أظـنُّ أن كريسـنر حكـم أني تَجمَّـدتُ لا محالـة، وسـمعت طقطقـةً سـاخرة مـن التصفيـق حـين بـدأت المسـير نحـو زاويـة البنايـة مجـدَّدًا.

بـدأت أشـعر بالـبرد. أثـارت البحـيرة حافَّـةَ الريـح، وعضَّـت رطوبَتُهـا النَّدِيَّـةُ جلـدي مثـل برِّيمـة حفـر. تلاطَمَـت سُـترَتي الخفيفـة مـن خلفـي في أثنـاء مسـيري قُدُمًـا. تحرَّكـتُ ببُـطء، سـواء شـعرت بالـبرد أم لا. إذا كنـت سـأفعلها، عـليَّ السـير ببـطء وتريُّـث، وإذا تعجَّلـتُ سـأقع.

أشـارت سـاعة البنـك إلى الثامنـة واثنتـين وخمسـين دقيقـة حـين وصلت إلى الزاويـة، لم يَبـدُ الأمـر مُشـكِلةً؛ فالإفريـز يـدور في كافَّـة النواحـي؛ مـمَّا يصنـع زاويـةً مُربَّعـةً، لكـن يـدي اليمنـى تُحدِّثنـي بوجـود ريـح مُعاكسـة. إذا ضُبِطـتُ وأنـا أميـل نحـو المسـار الخاطـئ، سـأقطع مسـافةً طويلـة بسرعـة فائقـة.

انتظَـرتُ هـدوء الريـاح، لكنهـا أَبَـت لوَقـتٍ طويـل أن تهـدأ، كأنهـا حليـفٌ مُـوالٍ لكريسـنر، صفَعَتنـي بأصابِـعَ خَفيَّـة وحشـيَّة، تقضـم وتنغـز وتَخِـزُ. في النهايـة، بعـد زوبعـة قويَّـة بعينهـا زعزعـت وقفتـي عـلى أطـراف أصابعـي، أدرَكـتُ أني سـأنتظر للأبـد ولـن تهـدأ الريـاح عـلى طـول الطريق.

لـذا في المرة التاليـة حـين سَـكَنَت قليـلًا، حرَّكـتُ يـدي اليُمنـى للاتِّجـاه المعاكـس، وتشـبَّثتُ بالجدارَيْـن بكلتـا يـديَّ، واسـتَدَرتُ. دفعتنـي الريـاح المتعامـدة في اتِّجاهَـيْن في آنٍ واحـد، وترنَّحـتُ. لمـدة ثانيـة، كنـتُ متأكِّـدًا بشـكلٍ مُقـزِّز أن كريسـنر فـاز بتحدِّيـه، ثـم تَزلَّقـتُ خطـوةً إضافيـة للأمـام وضغطـتُ نفـسي بقـوة قبالـة الجـدار، وانسـحَبَت زفـرَةٌ مكتومـةٌ مـن حلقـي الجـاف.

كان هذا حين اختفى الصوت الساخر بالكاد من أذنيَّ.

ويـا لدهشـتي حـين تقهقَـرتُ إلى حافَـة التـوازن ذاتهـا. فقَـدَت يـدي الجـدار، والتفَّـت بجنـون مثـل دولاب هـوائي باحِثـةً عـن التـوازُن. ظنَنـتُ أنـه إذا اصطدَمَـت إحداهـما بالوجـه الصخـري للبنايـة، لكُنـتُ في خـبر كان. لكـن بعـد وقـتٍ -بـدا سرمديًـا- قـرَّرَت الجاذبيـة أن تتركنـي أعـود إلى الجـدار بـدلًا مـن أن تُرسِـلَني نحـو الرصيـف مـن عـلى ارتفـاع ثلاثـة وأربعـين طابقًـا.

خرَجَـت شـهقاتي مـن رئتـيَّ في صفـيرٍ مُوجِـع، وتَمطَّـت قدمـاي، وأوتـار كاحـليَّ تطنَّـان مثـل سِـلك الجهـد العـالي. لم أشـعر قَـطُّ مـن قَبـلُ أني فـانٍ لا محالـة. الرجـل ذو المنجـل قريـبٌ بمـا يكفـي كي يطَّلِـع عـلى مـا أفعلـه.

لويـتُ عُنُقـي، ونظَـرتُ، كان كريسـنر واقفًـا، مُنحَنِيًـا مـن نافـذة غرفـة نَومِـه فوقـي بأربعـة أقـدام، مبتسـمًا، ممسـكًا في يـده اليمنـى صفـارة ليلـة رأس السـنة.

قال: "أُبقيكَ فَحسبُ على أطراف أصابِعكَ".

لم أهـدر أنفـاسي. لم أعُـد قـادرًا عـلى التَّفـوُّه بأكـثر مـن صـوتٍ أجـشّ. كان قلبـي يُجَلجِـلُ بجنـون في صـدري، مشـيتُ خمـسَ أو سِـتَّ أقـدامٍ للأمـام عـلى مهـل، فقـط في حـال تفكـيره أن يطـلَّ عـليَّ ويمنحنـي دفعـة جيـدة، ثـم توقَّفـت وأغمضـت عينـيَّ وتَنفَّسـتُ بعُمـقٍ حتـى اسـتَجمَعتُ شَـتات نفـسي مـن جديـد.

كنتُ على الجانب القصير من البناية الآن. من على يميني تكتَّلَت من فوقي أعلى أبراج في المدينة. ومن اليسار الحلقة المُظلِمَة للبحيرة فحسب، مع بضعة نقاط ضوئيَّة حامت فوقها. صخبت الريح وأنَّت.

لم تكُن الريح المتعامدة عند الزاوية الثانية شديدةَ المراوغة، ونَجَحتُ في الالتفاف دون أي مشاكل، ثم عضَّني شيء ما.

لهَثتُ وارتعشت. أخافني تَغيُّر التوازن، وضغطت يداي بشدَّة على الجدار. تعرَّضتُ للعض ثانية، لا ليس عضًّا وإنما نَقْرٌ. نظرتُ إلى الأسفل.

كان يوجد حَمامٌ واقف على الإفريز، ينظر بأعيُن برَّاقة حاقِدَة.

تعتاد على وجود الحمام في هذه المدينة، فهو مُنتَشِرٌ مثل سائقي سيارات الأجرة الذين لا يملكون فكَّة عشرة دولارات، لا يحبُّ الطيران، ويتنازل عن الأرض على مَضَضٍ، كما لو كانت الأرصفة مِلكًا له بوَضعِ اليَد. أي نعم، وعليك الاستعداد للعثور على آثار تواجُدِه على غطاء سيَّارتك، لكنك لا تنتبه كثيرًا. قد يزعجك بِشَكلٍ عارِض، لكنه متطفِّلٌ في عالمنا.

لكني صِرتُ الآن في عالَمِه، قليل الحيلة تقريبًا، وبدا أنه يعلم هذا. نقَرَ كاحلي الأيمن المُتعب ثانيةً، مُرسِلًا دَفقَةً خفيفة من الألم إلى أعلى ساقي.

زمجَرتُ له: "امشِ، اخرج من هنا".

نقَرَني الحَمامُ مرَّةً أخرى فحسب. من الواضح أني كنتُ متواجدًا فيما اعتبره منزله، حيث غُطِّي هذا الجزء من الإفريز بالفضلات القديمة والجديدة.

زقزقة صامتة من أعلى.

لوَيتُ عُنُقي لأبعد ما يمكن الوصول إليه، ونظرت. انقضَّ منقار على وجهي، وبالكاد ارتدَدتُ إلى الوراء. لو كان انقضى أمرى، لَصِرتُ أوَّلَ قتيلٍ في المدينة بسبب حمامة، كانت حمامَةً أمًّا، تَحمي بضعة أفراخ تحت البروز الهَزيل للسطح، عالٍ جدًّا على أن أشرَئبَّ إليه، حَمدًا للرَّبِّ.

نقَرَني زوجها ثانية، والآن سال الدم، شعرت به. بدأت أتحسَّس طريقي ثانية، على أمل أن أهشَّ الحمام عن الإفريز. مُحال، فالحمام لا يخاف، ليس حمامَ المدينة على أي حال. لو كان لشاحنة متحرِّكة أن تدفعه إلى الإسراع قليلًا، فلن يَقدِرَ رَجُلٌ مُعلَّق على إفريزٍ عالٍ على إزعاجهم البَتَّة.

تراجع الحَمَامُ حين جرجَرتُ ساقيَّ إلى الأمام، لم تُفارِق أعينهم البرَّاقَةُ وجهي حين انحدر المنقارُ الحاد لينقر ركبتي. واشتدَّ الألم الآن. الطائر ينقر لحمًا نيِّئًا ويأكله على حسب علمي.

ركلته بقدمي اليمنى. كانت ركلة ضعيفة، الشيء الوحيد الذي استطَعتُ إليه سبيلًا. رفرف الحمام بجناحيه قليلًا فقط ثم عاود الهجوم، وأنا، على الناحية الأخرى، انصرَفتُ إلى الطرف.

نقرني الحمام ثانية، وثالثة، ورابعة. ضربتني نفحَةُ ريحٍ باردة، مُؤرجِحَةً إيَّاي على حافَّة التَّوازُن، واحتكَّت رؤوس أصابع يداي بالحجر الأملس، وتأتَّى لي أن أستند مع ضغط خدي الأيسر قبالة الجدار، مُتنفِّسًا بصعوبة.

ما كان سيخطر في بال كريسنر وسيلةَ تعذيبٍ أشنع لو خَطَّط للأمر على مدار عشر سنوات. نقرة واحدة ليست بهذا السوء، اثنتان أو ثلاثة ستكونان أسوأ قليلًا، لكن هذا الطائر اللعين نقرني حتمًا ستِّين مرَّةً، إلى أن وصلت إلى الدرابزين الحديدي المسبوك للشَّقَّة العلوية المقابِلَة لشقَّة كريسنر.

الوصـول إلى هـذا الدرابزيـن يُشـبِه الوصـول إلى أبـواب الفـردوس. التفَّـت يـدي بلُطـفٍ حـول القوائـم البـاردة وتمسَّـكَت بهـا كـما لـو كانـت لـن تُفلِتَهـا.

نقرة.

كان الطائـر يُحَملِـقُ إليَّ بنظـرةٍ شـبه مُتعَجرِفَـة مـن عينـين برَّاقَتَـيْن، واثقًـا مـن ضعفـي ومـن حصانتـه. تذكَّـرتُ عبـارة كريسـنر حـين قـادني خـارج الشرفـة في الجهـة الأخـرى مـن البنايـة.

ومـع قبضـةٍ أَشـدَّ عـلى القضبـان الحديـد، انهلـت بركلـة شـديدةٍ وقوية، وأمسـكت الحـمام مبـاشرة. أصـدر هديـلًا مُرضيًـا تمامًـا وارتفـع في الهـواء، ورفـرف بجناحيـه. اسـتقرَّت بضـع ريشـات ذات لـون رمـادي حمامـي عـلى الإفريـز أو اختفـت ببـطء في الظـلام، حائِمـةً في الهـواء جيئـةً وذهابًـا مثـل قـارب عـلى شـكل بجعـة.

مـع لهـاثي، زحَفْـتُ إلى الشرفـة وانهـرت هنـاك، كان جسـدي يقطـر عَرَقًـا رغـم البـرد. لا أعـرف كـم مـن الوقـت اسـتلقيتُ هنـاك حتـى أتعـافى. أخفَـت البنايـةُ سـاعةَ البنـك، وأنـا لا أرتـدي سـاعَةَ يَـدٍ.

جلسـت قبـل أن تتيبَّـس عضـلاتي، وأنزلـت جـوربي ملفوفًـا بعنايـة. الكاحـل الأيمـن مجـروحٌ وينـزف، لكـنَّ الجُـرحَ بـدا سـطحيًا، ومـع ذلـك، ينبغـي عـليَّ الاعتنـاء بـه، إذا خرَجـتُ مـن هنـا أصـلًا. الـرَّبُّ يعلـم أي جراثيـم يحملهـا معـه الحـمام. فكَّـرتُ في تضميـد الجلـد الدامـي، لكنِّـي قَـرَّرتُ ألَّا أفعـل. قـد أجـد لفافـةً للجـروح في وقـتٍ لاحـق بمـا يكفـي، عندئـذ يمكننـي شراء ضِـمادات بعشريـن ألـف دولار.

وقفـتُ وتطلَّعـتُ بشـوقٍ إلى الشـقة العلويـة المظلِمـة قُبالـةَ شـقَّة كريسـنر، قاحلـة وخاويـة ولا أحـد يعيـش فيهـا، كان البـاب الثقيـل الحاجـز للعواصـف فـوق هـذا البـاب. ربمـا أقـدر عـلى الاقتحـام، لكـن هـذا قـد يُخسِّـرني الرهـان، ولـديَّ مـا أخسـره أكـثر مـن المـال.

حين لم أَعُد قادرًا على التأجيل أكثر من ذلك، تسلَّلتُ فوق الدرابزين عائدًا إلى الإفريز، والحمام الذي تساقط منه بضع ريشات يقف دانيًا عند عُشّ قرينَتِه حيث يتكاثف الذُّراق على أشُدّه، مُتطلّعًا إليّ في بؤس، لكني لا أظنُّ أنه سيضايقني، ليس حين لاحظ ابتعادي.

كان الابتعاد صعبًا جدًّا، أصعب ممَّا تستَلزِمُه مغادرة شرفة كريسنر، أدرك عقلي وجوب فعل هذا، لكن جسدي، وخاصة كاحلاي، يصرخ بأنه من الحماقة تَركُ ملاذٍ آمِنٍ كهذا، لكني تركته، ووجه كريسنر في الظلام يحثُّني.

وصَلتُ إلى الجانب الآخر القصير، وبات الأمر وشيكًا، وجَرجَرتُ قدميَّ ببُطء في نطاق البناية. والآن وأنا أقترب، يُراوِدُني إلحاحٌ يَصعُب السيطرة عليه كي أسرع لأنتهي من الأمر برُمَّته، لكني لو أسرَعتُ سأموت؛ لذا أجبرتُ نفسي على المُضيّ ببُطءٍ.

جاءتني الريح المتعامِدةُ ثانيةً عند الزاوية الرابعة، وتسلَّلتُ حوله بفضل الحَظِّ أكثر من المهارة. استَرَحتُ قُبالةَ البناية مستعيدًا أنفاسي. لكني أدرَكتُ لأول مرة أني سأنجح، أني سأفوز. بَدَت يداي مثل شرائح لحم شبه بارِدَة، وكاحلاي يؤلمانني مثل النيران (خاصَّة أن الحمام نقر كاحلي الأيمن)، وظلَّ العَرَقُ يتدفَّق إلى عيني، لكني عرفت أني سأنجح. في منتصف الطريق على امتداد البناية، تسرَّب ضوءٌ أصفر هادئ من شرفة كريسنر.

رأيتُ من بعيدٍ لافِتةَ البنك تشعُّ مثل لافتة الترحيب. كانت الساعة العاشرة وثماني وأربعين دقيقة، لكن يبدو لي أني قَضَيتُ حياتي بأَسْرِها على هذا الإفريز ذي الخمس إنشات.

وليكن الرَّبُّ في عون كريسنر إذا حاولَ إخلاف وعده، اختفت الرغبةُ في الإسراع، وتوانَيتُ تقريبًا. كانت الساعة الحادية عشرة وتسع دقائق حين وَضَعتُ يدي اليمنى للمرة الأولى على الدرابزين الحديد

المسبوك ثـم يـدي اليـسري. سـحبت نفـسي إلى الأعـلى، وشـقَقتُ طريقـي نحـو القِّمَّـة، وانهـرت عـلى الأرض في سـعادة، وشـعرت بالفوَّهـة الصُّلبـة البـاردة لمسـدَّس عيـار 45 موجَّهـة نحـو صدغـي.

نظـرتُ إلى أعـلى، ورأيـتُ تابِعًـا قبيحًـا بمـا يكفـي لإيقـاف سـاعة بيج بـن عـن عَمَلِهـا الآلي، وكان يبتسـم ابتسـامةً عريضـةً.

"ممتـاز". هكـذا صـاح كريسـنر مـن الداخـل. "أحيِّيـكَ يـا سـيد نوريـس!"، واسـتمرَّ فقـط في التَّحيَّـة. "أَحـضِرْه إلى الدَّاخـل يـا تـوني".

سـحَبَني تـوني إلى الأعـلى وأوقفنـي عـلى قدمـيَّ فجـأةً، حتـى إنَّ كاحِـلَيَّ التويـا تقريبًـا، وفي أثنـاء الدخـول، ترنَّحـتُ عنـد بـاب الشُّرفَـة.

كان كريسـنر واقفًـا أمـام مدفـأة الصَّالَـة، يحتـسي البرانـدي مـن كأسٍ بحجـم حـوض سـمك. أعيـد المـالُ إلى حقيبـة التَّسـوُّق الواقفـة في سـكونٍ في منتصـف السَّـجَّادة ذات اللـون البرتقـاليِّ المحـروق.

اقتنَصـتُ نظـرةً إلى ذاتي في مـرآةٍ صغـيرة في الجانـب الآخـر مـن الغُرفَـة، كان الشَّـعرُ أشَـعثَ، والوجـه شـاحِبًا، مـا عـدا بُقعَتَـيْن ناصِعَتَـيْ اللـون عـلى الخـدود، وبـدت العينـان مجنونتَيْن.

حَظَيـتُ بنظـرةٍ خاطفـة فقـط؛ لأني طِـرتُ في اللحظـة التاليـة عـبر الغرفـة، اصطَدَمـتُ بالكـرسي الباسـكي ووقَعـتُ عليـه، جاذِبًـا إيَّـاه مـن فوقـي، ليُجـنَّ جُنـوني.

حـين أرجَعتُـه لوضعـه، جلسـتُ وتدبَّـرتُ أمـري: "أيُّهـا المُخـادِعُ الخسـيس، أنـتَ دَبَّـرتَ هـذا".

قـال كريسـنر وهـو يضـع كأس البرانـدي بحـرصٍ عـلى الـرَّفِّ: "فَعَلتُهـا بالتأكيـد، لكنـي لسـت مُخادِعًـا يـا سـيد نوريـس، بالطبـع لا، مجـرَّد خـاسر في أوج غضبـه، تـوني متواجِـدٌ فقـط كي يتأكَّـد أنـك لـن تفعـل شـيئًا.. إنـه يفتقـر إلى الحكمـة".

وضـع أصابعـه تحـت ذقنـه، وضحـك قليـلًا في خفـوت، لم يَبـدُ مثـل خـاسِرٍ في أوج غضبـه، بـل بـدا أكـثر مثـل قِـطٍّ مـع ريـش طائـر كنـاري عـلى خطمـه. قُمـتُ، شـاعِرًا فجـأة أني خائـف أكـثر مـمَّا كنـتُ عليـه وأنـا عـلى الإفريـز.

قلتُ على مهل: "أنتَ أَصلحتَ الأمور، أَصلَحتَها بطريقةٍ ما".

"كَلَّا عـلى الإطـلاق، أزَلنـا الهيرويـن من سـيارتك. السـيارة نفسـها أُعيدَت لمكانهـا في المـرآب. وهـا هـو المال هنـاك. يُمكِنُـكَ أن تأخـذه وترحل".

قلتُ: "حسنًا".

وقـف تـوني بمحـاذاة البـاب الزجاجـي عنـد الشرفـة، مـا زال يبـدو مثـل شيء مـتروك منـذ الهالوويـن. مُسـدَّس الــ 45 في يـده. مشـيتُ إلى حقيبـة التسـوُّق، وأمسـكتها، وتوجَّهـتُ نحـو البـاب عـلى كاحِـليَّ المُهتاجَـيْن، مُتوَقِّعًا تمـام التوقُّـع أنـه سـيقتلني، لكنـي حـين فتحـتُ الباب، بـدأ يجتاحنـي نفس الشـعور الـذي شـعرته حـين كنـتُ عـلى الإفريـز، ودُرتُ حـول الزاويـة الرابعـة، وهـي أني سـأنجح.

أوقفني صوت كريسنر الخامل المبتهج.

"أنـتَ لا تظـنُّ حقًّـا أن خُدعـة حـمَّام السـيدات انطلـت عـلى أحـد، أليـس كذلـك؟".

استَدَرتُ ببطء، وحقيبة التسوُّق في يدي، "ماذا تقصد؟".

"أخبَرتُـكَ أني لسـت مُخادِعًـا، وأنـا لا أخـادع أبـدًا، أنـتَ فُـزتَ بثلاثـة أشـياء يـا سـيد نوريـس: المـال، وحريتـك، وزوجتـي. في حوزَتِـكَ أول شـيئين، ويمكنـك الحصـول عـلى الثالثـة مـن مشرحـة المقاطَعَـة".

حَملَقـتُ إليـه، دون قُـدرَةٍ عـلى الحركـة، مُتجمِّـدًا في رِعـدَةٍ خرسـاء مـن الصَّدمة.

سألني بصوتٍ مُشفِق: "أنتَ لم تَظُنَّ حقًّا أني سأدَعُكَ تحصل عليها، أوه لا، بالنسبة للمال: نعم، وحُرِّيَّتِكَ: نعم، لكن مارسيا لا، ومع ذلك فأنا لست مُخادِعًا، وبعد أن تدفنها...".

لم أقترب منه، ليس في التَّوِّ، وإنما لاحقًا. مشيتُ نحو توني الذي بدا مندهشًا بعض الشيء، إلى أن قال كريسنر بصوتٍ مَلول: "أطلِقْ عليه النار يا توني".

قذَفتُ حقيبة الأموال، واصطَدَمتُ مباشرة بيده الحامِلَة للمسدس، وخبَطتُه بقوَّة. لم أستخدم يديَّ ورسغيَّ هناك، وهما أفضل جُزأَيْن لدى أي لاعب تنس. انطلَقَت رصاصته نحو السجادة ذات اللون البرتقالي المحروق، ثم تولَّيتُ أمره.

كان وجهه أقسى ما فيه، انتزعت السِّلاح من يده، وضربته بفوهة المسدَّس على جسر الأنف، وسقط مُصدِرًا نخرةً واحِدةً مُتَعَبة غريبة، وبدا مثل روندو هاتون.

كريسنر كان خارِجَ الباب تقريبًا حين أطلقت رصاصة فوق كتفه قائلًا: "قِفْ عندك، وإلا ستَمُت".

فكَّر في الأمر وتوقَّف، وحين استدار، تجمَّد رَدُّ فِعله المُنهك المعتاد من أهل العالم، وتجمَّد أكثر حين رأى توني راقدًا على الأرض مختنقًا في دمائه.

قال بسرعة: "إنها لم تَمُت، كان عليَّ إنقاذ ما يُمكِنُ إنقاذه، أليس كذلك؟"، ابتسمَ لي ابتسامةً سقيمةً كأنه يأكل الجبن.

قلتُ: "أنا فاشِلٌ، لكنني لست فاشلًا لهذه الدرجة"، بدا صوتي لا حياةَ فيه، مَيِّت، لِمَ لا؟ كانت مارسيا حياتي، وهذا الرجل وضعها على طاولة تشريح.

بإصبع ترتعش بخِفَّة، أشار كريسنر إلى المال المبعثر حول قَدَميْ توني، وقال: "هذا، هذا مُجرَّد طعامٍ للدَّجاج، يمكنني أن أعطيك مائة ألف، أو خمسة، أو ماذا عن مليون، والمبلغ بأكمله في حسابٍ بَنكيٍّ في سويسرا؟ ما رأيُكَ في هذا؟ ما رأيُكَ...".

قلتُ على مهلٍ: "سأعقد معك رهانًا".

نظر من فوَّهة المسدَّس إلى وجهي "آآ...".

كرَّرتُ كلامي: "رِهانٌ، وليس تحدِّيًا، مجرَّد رهانٍ قديم وبسيط، سأراهن أنك لن تستطيع السير حول هذه البناية على الإفريز في الخارج هناك".

شحب وجهه شحوب الموت، ظنَنتُ لهُنَيهَةٍ أنه سيُغمَى عليه.

همس: "أنتَ...".

قلتُ بصوتي الميِّت: "إليكَ جائِزةَ الرِّهان: إذا نجَحتَ، سأتركك لحال سبيلك، ما رأيك في هذا؟".

همس: "لا!، كانت عيناه ضخمتَيْن ومُحدِّقتَيْن.

قلتُ: "حسنًا"، ورَدَدتُ زناد المسدَّس.

قال وهو يهزُّ يديه: "لا! لا! إيَّاكَ! أنا.. حسنًا"، ولَعَقَ شَفَتيْه.

تحرَّكتُ مع المسدس، وسبقني للخارج نحو الشرفة، قلتُ له: "أنت ترتعش، ستُصَعِّب الأمر على نفسك".

قال: "مليونان..."، ولم يَعلُ صَوتُه لأكثر من نحيبٍ مبحوح، "مليونان بأوراقٍ نَقديَّة غير مُؤشَّرة".

قلتُ: "لا، ولا حتى بعشرة مليون، لكن لو نجحت، ستذهب دون مقابل، أنا جادٌّ في كلامي".

بعدها بدقيقة كان يقف على الإفريز. كان أقصرَ مني، يمكنك فحسب أن ترى عينيه من فوق الحافَّة، واسعتَيْن ومُتَضرِّعَتَيْن، ومفاصل يدَيْه البيضاء تقبضان على الدرابزين الحديد مثل قبضان السجن.

همس: "أرجوكَ، سأعطيك أي شيء".

قلتُ: "أنت تُضيع الوقت، وتستنزف كاحِلَيْكَ".

لكنه لم يستطع التَّحرُّك حتى وَضَعتُ فوَّهةَ المسدس قبالة جبهته، ثم بدأ السير متثاقلًا ناحية اليمين وهو ينوح. ألقيتُ نظرة على ساعة البنك، كانت الساعة الحادية عشرة وتسعًا وعشرين دقيقة.

لم أتخيَّل أنه سينجح في الوصول حتى الزاوية الأولى، لم يرغب في التَّزحزُح على الإطلاق، وحينما فعلها، تحرَّك مُرتَعِشًا، مُجازِفًا بنقطة توازنه، وانتفخ ثوبه بالهواء في الليل.

اختفى عند الزاوية وعن مجال النظر في الدقيقة الأولى بعد الساعة الثانية عشرة. منذ أربعين دقيقة مَضَت تقريبًا، استَمَعتُ عن كثب بحثًا عن صرخة واهِنَة مع وصول الرياح المتعامِدة إليه، لكنها لم تأتِ. ربما انخفض منسوبُ الرِّيح، أتذكَّر تفكيري في وقوف الريح في صَفِّه حين كنتُ في الخارج، أو ربما كان محظوظًا فحسب، ربما هو عند الشرفة الأخرى الآن، يرتعش على حين غِرَّة، خائفًا من التقدُّم خطوةً أخرى.

لكنه ربما يعلم أنه إذا أمسَكتُ به هناك وهو منهارٌ عند الشقَّة العلوية الثانية، سأطلق عليه الرصاص مثل الكلب، وبالحديث عن الناحية الأخرى من البناية، أتساءل عن إحساسه حيال الحمام.

أكانت هذه صرخة؟ لا أعرف، ربما كانت الريح، لا يهمُّ، تشير ساعة البنك إلى الثانية عشرة وأربع وأربعين دقيقة. عمَّا قريب سأقتحم الشقَّة الأخرى وأتفحَّص الشُّرفَة، ولكن في اللحظة الراهنة

أنـا جالِـسٌ فحســب في شرفـة كريســنر ومســدَّس تـوني عيـار45 في يـدي، فقـط مـن أجـل احتماليَّـةِ وصولـه عنـد الزاويـة الأخـيرة مـع ردائـه المنتفـخ بالهـواء مــن ورائــه.

قال كريسنر إنه لم يُخادِع بخصوص رهان.

بينما أنا معروفٌ بهذا.

جَزَّازُ العُشب

في السَّنوات الماضية، افتخر هارولد باركيت بمَرجِ عُشبِه الأخضر، وامتلك جَزَّازة عُشبٍ فضِّيَّة كبيرة، وكان يدفع خمسة دولارات لفتًى من الحَيِّ في عملية الجَزِّ الواحدة كي يشغلها. في تلك الأيام، تابع هارولد باركيت فريق بوسطن ريد سوكس عبر المذياع، مع عُلبَةِ بيرةٍ في اليَدِ، ومعرفة بوجود الرَّبِّ في ملكوته، وأن كل شيء في العالم على ما يُرام، بما في ذلك مَرجُ العُشب. لكن في العام الفائت، وفي منتصف شهر أكتوبر، اقترف القَدَرُ مع هارولد باركيت خُدعةً دَنيئةً، فبينما كان الفتى يَجزُّ العُشب للمرَّة الأخيرة في الموسم، طارد كلبُ آل كاستونميير قِطًّ آل سميث حتى انتهى به المطاف أسفل الجزَّازة.

تقيَّأَت ابنةُ هارولد ثمن جالون من شراب كول- إيد بنكهة الكرز في حِجر سُترَتِها الجديدة، وبعدها راوَدَت الكوابيس زوجته أسبوعًا، وعلى الرغم أنها جاءت بعد الواقعة، فقد وصَلَت في لحظتها لترى هارولد والفتى مُخضرَّ الوجه ينظِّفان الشفرات. وقفت ابنتهما

والسيدة سميث من كُتُبٍ تنتحبان، رغم أن إليسيا أخذت ما يكفي من الوقت كي تُبدِّل بنطال الجينز وواحدة من القمصان الصوفيَّة الضَّيِّقة المقرفة بسُترتِها، كانت تُكِنُّ الإعجاب للفتى جزَّاز العُشب.

بعد أسبوع من الاستماع إلى نُواح زوجته واضطرابها في الفراش المقابل، قرَّر هارولد أن يتخلَّص من جزَّازة العشب. افترض أنه لم يكن يحتاج أصلًا لجزَّازَةِ عُشبٍ. في هذا العام عيَّن صَبيًّا، وفي العام القادم سيُعيِّن صبيًّا ويأتي بجزَّازة عُشب، وربما تتوقَّف كارلا عن النواح في نومها، وربما يمارس الجنس مرة أخرى.

لذا حمل جزَّازة العُشب الفضية إلى محطة سونوكو عند "فيل"، وقايَضَها مع "فيل"، وخرج هارولد بعَجَلة سيَّارة كيلي بلاكويل جديدة، وخزَّان معبَّأ بالوقود عالي الأوكتان، ووضع فيل جزَّازة العُشب الفضِّيَّة على واحدة من ماكينات ضخِّ البنزين، واضعًا عليها لافتة "للبيع" بخَطِّ اليد.

في هذا العام، ظلَّ هارولد يؤجِّل تعيين الفتى رغم الضرورة، وحينما تسنَّى له أخيراً أن يتَّصِل بفتى العام الماضي، أخبرته أمُّه أن فرانك التحق بجامعة الولاية، هزَّ هارولد رأسه مُتعجِّبًا واتَّجه إلى الثلاجة ليأتي بعلبة بيرة. الوقت حتمًا يطير، أليس كذلك؟ يا إلهي! نعم.

أجَّل مَهمَّة تعيين فتى جديد بينما انسرب شهر مايو أولًا ومن بعده يونيو وراءه، وواصل فريق ريد سوكس التَّخبُّط في المركز الرابع. كان يقعد في الرواق الأمامي في عطلات نهاية الأسبوع، مراقبًا في كآبةٍ ما لم يَشهَده من قبل من توافُدٍ لا نهائي للفتية الصغار قبل أن يأتي من بينهم مَن يُردِّد تحيَّةً سريعة قبل أن يصطحب ابنته ممتلِئَة الثَّديَيْن إلى سينما السيارات المحلية، ونما العشب وترعرع بشكل بديع. كان صيفًا طيِّبًا للعُشب، ثلاثة أيام من الإشراق تلاها يوم من الإمطار الرقيق، في انتظام شبه آليٍّ تقريبًا.

بحلـول منتصـف شـهر يوليـو، صـار المَـرجُ أشـبَهَ بروضـة أكـثر مـن كونـه باحَـةً خلفيـة في الضواحـي، وبـدأ ﭼـاك كاسـتونميير يلقـي كلَّ صنـوف النِّـكات غـير المُضحكـة، وأغلبهـا يتعلَّـق بأسـعار التـبن والبرسـيم، كـما اتَّخَذتـه ﭼينـي -ابنـة دون سـميث ذات الأربـع سـنوات- مخبـأً حـين يكـون الشُّـوفان وجبـةَ الإفطـار، والسـبانخ وجبـةَ العشـاء.

ذات يـوم في نهايـة يوليـو، خـرج هارولـد إلى الفِنـاء بـين نصفَـيْ الشـوط السـابع مـن المبـاراة، ورأى حطَّابًـا يقعـد مبتهجًـا عـلى الممـشى الخلفـي المكسـوِّ بالعشـب، وقـرَّر أنـه حـان الوقـت. أطفـأ المذيـاع، وأمسـك بالجريـدة، وفتـح صفحـة الإعلانـات المبوَّبـة، وفي أثنـاء تصفُّحـه عمـود وظائـف الـدوام الجـزئي، عـثر عـلى هـذا: نَجِـزُّ العُشـب، بأسـعار معقولـة، 7762390.

اتَّصـل هارولـد بالرقـم، مُتَوقِّعًـا أن تجيبـه ربَّـةُ منـزل تكنـس بالمكنسـة الكهربائيـة وتصيـح منادِيـةً عـلى ابنهـا، وبـدلًا مـن هـذا جـاء صـوتُ شـخصٍ احـترافي بعـض الـشيء: "باسـترول لخدمـات البَسـتَنَة والأماكـن المفتوحـة، كيـف نسـاعدك؟".

أخـبر هارولـد صاحِـبَ الصـوت بحَـذَرٍ عـن كيفيـة مسـاعدة باسـترول لخدمـات البَسـتَنَة لـه، هـل وصـل الأمـر إلى هـذا الحَـدِّ إذن؟ هـل بـدأ جـزَّازو العُشـب في إنشـاء مشـاريعهم الخاصـة وتقديـم يـد العـون مـن المكاتـب؟ سـأل صاحـب الصَّـوت عـن الأسـعار، وأمـلى عليـه صاحِـبُ الصَّـوت سـعرًا معقـولًا.

أغلـق هارولـد الخَـطَّ مـع إحسـاسٍ بـاقٍ بعـدم الارتيـاح، وعـاد إلى الـرواق. قعـد وأدار المذيـاع، وتطلَّـع إلى عشـبه المـليء بالفطريـات في غيـمات السَّـبتِ المتحرِّكـة ببطء عـبر سـماء السـبت. كانـت كارلا وإليسـيا في منـزل حماتـه، والمنـزل بأكملـه لـه. سـتكون مفاجـأةً لطيفـة لهـم إذا انتهـى الفتـى الآتي لجَـزِّ العُشـب مـن عملـه قبـل عودتهـما.

فتح علبة بيرة، وتنهَّد حينما ابتُلِيَ "ديك دراجو" بالخروج مرَّتين ثم خبطه المهاجم. مرَّت نسمة خفيفة عبر الشرفة. همهمت صراصير الليل برِقَّةٍ في العشب الطويل. نخر هارولد قائلًا شيئًا غيرَ طَيِّب عن ديك دراجو، ثم غفا.

ارتجَّ مستيقظًا من نومه بعد نصف ساعة بسبب جرس الباب. أوقع علبة البيرة خلال قيامه لفتح الباب.

وقف رَجُلٌ يرتدي مريولًا من الدنيم مُتَّسخًا بسبب العُشب عند المنحدر الأمامي، وهو يضغط بأسنانه على خِلَّة الأسنان. كان سمينًا. دفعت انحناءَةُ كرشه مريولَه الأزرق الباهت لدرجة أن هارولد اشتبه تقريبًا أنه ابتلع كرة سلَّة.

"نعم؟". هكذا سأل هارولد باركيت، وهو ما يزال شبه نائم.

ابتسم الرجل، مُدَحرِجًا خِلَّة الأسنان من أحد رُكنَيْ فمه إلى الركن الآخر، وهو يشدُّ بطانة مريوله، ورفع قبعة البيسبول الخضراء دَرَجَة فوق جبهته، وكانت توجد لطخة من زيت المحرِّكات الجديد على حافَّة قُبَّعته، وها هو ذا، يفوح بروائح العشب والأرض والزيت، مبتسمًا لهارولد باركيت.

قال في بشاشة وهو يهرشُ بين منفرج ساقيه: "أنتَ اتَّصَلتَ، أليس كذلك؟ أليس كذلك يا صاحبي؟"، وظلَّ يبتسم بلا نهاية.

حملق هارولد بحماقَةٍ: "آه، المرج، أهو أنتَ؟".

"نعم، أنا". هكذا رفع جَزَّازُ العُشب صوته بضحكة منتعشة في وجه هارولد المنتفخ من أثر النوم.

وقف هارولد جانبًا بلا حَولٍ ولا قوة، وتسكَّع جزَّاز العُشب قُدمًا في الصالة، وعبر غرفة المعيشة والمطبخ، وصولًا إلى الرواق الخلفي. الآن أتى هارولد بالرَّجُل، وكلُّ شيء على ما يرام. تعامل مع هذه العَيِّنة

مـن الأشـخاص مـن قبـل؛ العاملـين في الـصَّرف الصِّحِّـي، وفـرق إصلاحـات الطُّـرُق السريعـة في الشـارع الرئيـسي، ينحنـون عـلى معاولهـم دائمًـا خـلال دقيقـة مـن الراحـة ويُدخِّنـون سـجائر "لاكي سـترايك" أو "كَمِـلْ"، ينظـرون إليـك كـما لـو كانـوا مِلـحُ الأرض، يَقـدِرون عـلى مهاجمتـك مقابـل خمسـة دولارات، أو النـوم مـع زوجتـك في أي وقـتٍ يشـاؤون. يخـاف هارولـد عـلى الـدوام مـن رجـالٍ مثـل هـؤلاء، اسـمَرَّت جلودهـم لِلَّـون البُنِّـيِّ الداكـن، ودائمًــا هنــاك شــبكات مــن التجاعيــد حــول عيونهــم، ويدركــون عــلى الـدوام مـا يريدونـه.

قـال الرَّجُـل بصـوتٍ عميـق لا شـعوري: "المـرج الخلفـيُّ يَتطلَّـب عمـلًا شـاقًّا، إنـه فسـيح جـدًّا، ولا توجـد أي عوائـق، لكنـه متنـامٍ بشـكلٍ جيـد". ثـم ارتَـدَّت نـبرة صوتـه مُجـدَّدًا إلى وضعـه الطبيعـي، ووجـد نفسـه يعتذر: "أخـشى أنـه يتوجَّـب عـليَّ توديعـه".

"المسـألة بسـيطة يـا صاحبـي، وبـلا ضغـوط، عظيـم. عظيـم. عظيـم". ابتسـم إليـه جـزَّاز العُشـب ناظـرًا إلى عينيـه، وفي بالـه ألـفُ مَزحَـةٍ عـن رجـل المبيعـات المرتَحِـل، "كلَّـما طـال كلَّـما كان أفضـل، تربـة صِحِّيَّـة، هـذا مـا لديـك هنـا، حسـب سيرسـه[1]، هـذا مـا أقولـه دومًـا".

حسب سيرسه؟

كـوَّم جـزَّاز العُشـب رأسـه عنـد المذيـاع، ياسترمسـكي هوجِـمَ لتـوِّه، "أنــتَ مُعجَــبٌ بريــد ســوكس؟ عــن نفــسي أنــا مُحِــبٌّ لفريــق يانكيــز"، وعــاد في تثاقُــلٍ إلى المنــزل وصــولًا إلى الصالــة الأماميــة. راقبــه هارولــد بمــرارة.

(1) في الميثولوجيـا اليونانيـة، (سيرسـه) سـاحرة تسـتطيع أن تحـول أعدائهـا إلى حيوانـات، ورد ذكرهـا في ملحمـة هومـر الشـعرية الشـهيرة (الأوديسـة) حـين حولـت رجـال أوديسـيوس أو عوليـس إلى خنازيـر خـلال رحلـة عودتـه الطويلـة عقـب انتهـاء حـروب طـروادة (المترجـم)

قعـد ثانيـة، وتطلّـع بعينـين مُتَّهِمَتَـيْن لهنيهـة إلى بِركَـةِ البـيرة تحـت الطاولـة مـع علبـة بـيرة كـورز المندلقـة في وسـطها، فكَّـر في الإتيـان بالممسـحة مـن المطبـخ، وقـرَّر أن يتركهـا لحالهـا.

المسألة بسيطة، بلا ضغوط.

فتـح جريدتـه عـلى القسـم الاقتصـادي وسَـلَّط عينًـا خبـيرة عـلى أسـعار إغـلاق الأسـهم، وكأي جمهـوري صالـح، اعتـبر موظَّفـي وول سـتريت الإداريـين الواقفـين وراء العواميـد بمثابـة أنصـاف آلهـة عـلى الأقـل (حسـب سيرسـه؟) وتمنَّـى مـرَّات عديـدة لـو كان مـن الأفضـل أن يفهـم الكلمـة، مثلـما لُقِّنَـت عـلى الجبـل، ليـس عـلى لوحَـيْن حجريَّـيْن، وإنمـا في صـورة اختصـارات مُبهَمَـة مثـل "ن.م، ك.د.ك، 3.28 إلى 2/3". اشـترى ذات مـرَّةٍ -بعـد قـرارٍ حكيـم- ثلاثـة أسـهم مـن شركـة تُدعَـى ميدويسـت المحـدودة لبرجـر لحـم البيسـون، والتـي أفلَسَـت في العـام 1968. خـسر اسـتثماره المؤلَّـف مـن خمسـة وسـبعين دولارًا أمريكيًّـا، والآن أَدرَكَ أن برجـر لحـم البيسـون كان بمثابـة الصرعـة القادمـة، موجـة المسـتقبل. تناقـش طيلـة الوقـت مـع سـوني السـاقي في جولدفيـش بـول في هـذا الأمـر، لكـن سـوني أخـبر هارولـد أن مشـكلته أنـه جـاء مبكِّـرًا عـن موعـده بخمـس سـنوات، وأنـه ينبغـي عليـه...

أخرَجَته ضوضاء مُدَوِّية مفاجئة من نعاس واقِع كان ينزلق إليه.

قفز هارولد على قَدَميْه، موقعًا الكرسي ومحدِّقًا لما حوله بغلظة.

سـأل هارولـد باركيـت المطبـخ: "هـل هـو جـزَّاز عُشـبٍ؟ يـا إلهـي، إنـه جـزَّاز عُشـب".

سـارع عـبر المنـزل، وحَـدَّق خـارج البـاب الأمامـي، لا شيء هنـاك سـوى شـاحِنَةٍ خـضراء مُنحَـدِرة إلى الخلـف، كُتـب عليهـا "شركـة باسـترول المحـدودة لخدمـات البسـتنة "مرسـومة عـلى جانـب الشـاحنة. عـاد صـوت

الـدَّويِّ في الداخـل، وسـارع هارولـد إلى منزلـه ثانيـة، واندفـع إلى الـرُّواق الخلفـي، وتجمَّـد في وقفتـه.

كان المشهد مسيئًا.

كانت مَهزلَةً.

كانـت جـزَّازَةُ العُشـب العتيقـة ذات زِرِّ التشـغيل الأحمـر التـي أحضرهـا الرجـل البديـن في شـاحنته تعمـل بمفردهـا، لا يدفعهـا أحـد. في الحقيقـة، لا يوجَـدُ أحـدٌ عـلى مـدار خمـسِ أقـدام منهـا، كانـت تـدور في اتِّقـادٍ شـديد، شـاقَّةً طريقهـا عـبر مَـرجِ هارولـد باركيـت العشـبي الخلفـي سـيِّئ الحـظ مثـل شـيطانٍ أحمـر ناقِـمٍ آتٍ مبـاشرة مـن الجحيـم، صرَخَـت وخـارت وضَرَطَـت دُخانًـا أزرقَ زيتيًـا في ضربٍ مخبـول مـن الجنـون الآلي؛ مِـمَّا أسـقم هارولـد فَزعًـا. تعلَّقَـت الرائحـة الذَّابلـة للعشـب المجـزوز في الهـواء مثـل النبيـذ الحامـض.

لكن جزَّاز العُشب نفسه هو الإساءة الحقيقيَّة.

خلـع جـزَّاز العُشـب ملابسـه، حتـى آخـر فَتلَـةِ خيـط. كانـت مطويَّـةً بعنايـة في حـمَّام الطيـور المنتصـب في منتصـف المـرج الخلفـي. كان يزحـف عاريًـا ومُتَّسِـخًا مــن العشــب مــن مسـافة خمـسِ أقـدامٍ وراء جـزَّازة العشـب، يـأكل مـن العشـب المجـزوز. جَـرَت العُصـارةُ الخـضراءُ عـلى ذقنـه وانسربـت وصـولًا إلى كرشـه المتـدلِّي، وفي كل مـرَّةٍ يـدور فيهـا جـزَّازُ العُشـب حـول ركـن، يصعـد ويقفـز قفـزةً غريبـة وثَّابـةً قبـل انبطاحـه مـن جديـد.

صرخ هارولد باركيت: "تَوَقَّفْ! توقَّف عن هذا!".

لكـنَّ جـزَّاز العُشـب لم يُلـقِ لـه بـالًا، ولم يُبطِئـه الوَجـهُ القُرمـزيُّ الصـارخ، بـل يبـدو عـلى الأحـرى أنـه سَرَّعـه.

بـدا عـلى شـبكتها المعدنيـة النيكليـة أنهـا تبتسـم إلى هارولـد وهـي تَرشَـحُ، بينـما هـو مهتـاج.

ثـم رأى هارولـد حيـوان الخُلـد، حتـمًا كان مختبئـًا في رعـبٍ جَسـيم أمـام جـزَّازة العشـب، بـين أعـواد العشـب المُنتظـر ذبحهـا. انطلـق عـبر كومـة العشـب المجـزوز إلى بَـرِّ الأمـان تحـت الـرواق، بُقعـة بُنِّيَّـة مذعـورة.

انحرَفَت جزَّازة العُشب.

هَـدَرَت في صُراخٍ وعـواء فـوق حيـوان الخُلـد وبَصَقَتـه في هيئـة فِـراءٍ وأحشـاء؛ مـمَّا ذَكَّـر هارولـد بقِـطٍّ آل سـميث، انسـحق حيـوان الخُلـد، وسـارعت جـزَّازةُ العُشـب بالعـودة إلى وظيفتهـا الرئيسـة.

زحـف جزَّاز العُشـب بسرعـة، يـأكل العشـب. وقـف هارولـد مشـلولًا مـن الرعـب، مـع نسـيانٍ تـامٍّ لأمـور الأسـهم والسَّـنَدات الماليـة وبرجـر لحـم البيسـون. كان بمقـدوره أن يـرى الكَـرِشَ المتـدلِّي الضخـم يتمـدَّد. انحـرف جـزَّازُ العُشـب وأكل حيـوان الخُلـد.

حينهـا انحنـى هارولـد باركيـت خـارج البـاب السِّـلكي، وتقيَّـأ عـلى أزهـار الزِّينيـا. بـات العـالم رماديًـا، وأدرك أنـه سـيغمى عليـه، وقـد أغمـى عليـه، حيـث تقهقـر وانهـار عـلى أرض الـرُّواق، وانغلقـت عينـاه.

شـخصٌ مـا كان يهـزُّه، كارلا كانـت تهـزُّه، لم يغسـل الصحـون أو يفـرغ القمامـة، وكان مـن المفـترض أن تغضـب كارلا، لكـن الأمـر سـار عـلى مـا يُـرام. كانـت توقظـه، سـاحِبةً إيَّـاه خـارج الكابـوس الشـنيع الـذي يـراوده، ومُعيـدَةً إيَّـاه إلى العـالم الطبيعـي، كارلا اللطيفـة السَّـويَّة التـي ترتـدي مشـدَّ "بـلاي تكـس" الحيـويَّ للخصر، وسِـنَّتاها الأماميَّـتان البارِزَتـان، نعـم، سِـنَّتان أماميَّتـان بارِزَتـان، لكنهـما ليسـتا سِـنَّتَيْ كارلا البارِزَتَـيْن. لـدى كارلا سِـنَّتان بارزتـان سـنجابيَّتان قبيحَتـا المظهـر، لكـنْ هاتـان السِّـنَّتان كانتـا... مُشـعِرتَيْن.

نَمَت شُعَيراتٌ خضراء على تينك السِّنَّتَيْن البارزتين، بدت تقريبًا وكأنها... عُشب؟

"يا إلهي!". هكذا قال هارولد.

"أُغمَى عليكَ يا صاحبي، أليس كذلك؟ هاه". كان جزّاز العُشب يميل فوقه، مبتسمًا بأسنانه المُشعِرَة. وأشعرت شَفتَاه وذقنه أيضًا. صار كلُّ شيء مُشعِرًا، وأخضر. فاحت حديقة المنزل بالرائحة الكريهة للعُشب والغاز، وأيضًا الصَّمت المفاجئ.

تثبَّت هارولد على وضع الجلوس، وحدَّق إلى جزَّازة العشب المتوقِّفة، حيث جزَّت كُلَّ العشب بعناية، ولا حاجة بعد الآن لتجميعه حسبما لاحظ هارولد في بؤس. إذا فوَّتَ جزَّازُ العُشب شفرةً واحدة، فهو لم يرها. نظر شزرًا بطريقة غير مباشرة إلى جزَّاز العُشب وأجفل. كان ما يزال عاريًا، ما يزال بدينًا، ما يزال مُخيفًا. جَرَت القطرات الخضراء من ركنَيْ فمه.

سأل هارولد: "ما هذا؟".

لوَّح جزَّاز العُشب بيده بلُطفٍ نحو العشب. "هذا؟ طيِّب، إنه شيء جديد يُجرِّبه المدير، والأمور تسير على ما يرام، على ما يرام حقًّا يا صاحبي. نضرب عصفورين بحجر واحد، نسير قُدُمًا نحو المرحلة الأخيرة، ونجني المال لدعم عملياتنا الأخرى فتصير غنيمةً، أتفهم ما أقصده؟ يصادفنا بالطَّبع عميلٌ لا يستوعب ما نفعله من حينٍ إلى آخر، بعض الناس لا تُقدِّر الكفاءات، أليس كذلك؟ لكن المدير دائمًا مَرِنٌ بخصوص الموافقة على تقديم تضحية تُبقي العجَلات مُشحَّمة، إذا كنتَ تفهم ما أقصده".

هارولد لم يَقُل شيئًا، حيث رَنَّت كلمة في رأسه مرارًا وتكرارًا، والكلمة كانت "تضحيةً"، رأى بعين عقله جزَّازة العشب الحمراء المعطوبة وهي تتقيَّأ حيوان الخُلد.

قام على مهله، مثل رجل عجوز مشلول، قال: "بالطبع"، وكل ما خطر في ذهنه مجرَّد جُملَةٍ من مجموعة أسطوانات أليسيا لموسيقى الرُّوك الفلكلوري: "فليُبارِكْ الرَّبُّ العُشبَ".

خبط جزَّازُ العُشب بيده على فخذٍ صيفيٍّ بلون التُّفَّاح، "جميل جدًّا يا صاحبي، في الواقع، هذا جميل فوق العادة، أرى أنك اكتسبت الروح الملائمة، هل تمانع لو دوَّنتُ هذا حين أعود إلى المكتب؟ وهو ما سيُترجَم إلى علاوة".

قال هارولد: "بالتَّأكيد"، مُتراجِعًا نحو الباب الخلفي، ومجتهدًا في الحفاظ على ابتسامته الذَّاوية في محلِّها.

"امضِ قُدُمًا وانتهِ من عَمَلِك، أظنُّ أني سأحظى بقيلولةٍ قصيرة".

قال جزَّاز العُشب: "بالتأكيد يا صاحبي"، مُلقِيًا بثِقَلِه على قدميه. لاحظ هارولد ذلك الشِّقَّ العميق غير العادي بين الأصبعَيْن الأولى والثَّانية، كما لو كانت القَدَمان، لِنَقُل، مشقوقَتَيْن.

قال جزَّاز العُشب: "الأمر يصدم الجميع في البداية، ستعتاد عليه". حدَّق بدهاءٍ إلى جسد هارولد السمين، "في الواقع، ربما ترغب في التجربة، فالمدير دومًا لديه نظرة بخصوص أي موهبة جديدة".

ردَّد هارولد واهنًا: "المدير".

توقَّف جزَّازُ العُشب عند السلالم السُّفلى، ونظر في تسامُحٍ إلى هارولد باركيت: "طيِّب، اسمعني يا صاحبي، أظنُّ أنَّكَ خَمَّنتَ بالفعل... فليُبارِكْ الرَّبُّ العُشبَ وكُلَّ شيء".

هزَّ هارولد رأسه برفق، وضحك جزَّاز العُشب.

"بـان، المديـر يُدعـى بـان[1]"، ثـم قفـز نصـف قفـزةٍ، ودلـف نصـف دَلفَـةٍ عـلى العشـب المجـزوز لتَـوِّه، وصاحـت الجـزَّازةُ بصـوت الحيـاة، وشرعـت في الـدّوَران حـول المنـزل.

بـدأ هارولـد بالقـول: "الجيـران..."، لكـنَّ جـزَّاز العُشـب اكتفـى بالتلويح مبتهجًـا واختفى.

صرخـت جـزَّازَةُ العشـب وعَـوَت في الهـواء الطلـق. رفـض هارولـد باركيـت أن ينظـر، وكأنـه قـادِرٌ برفضـه هـذا عـلى إنـكار المشـهد البَشِـع الـذي تَشَرَّبـه كُلٌّ مـن آل كاسـتونمبير وآل سـميث -وكلاهـما مـن الديمقراطيِّـين البائسـين- بأعيُن مُرتَعِـدة، أكَّـدَت صدقهـا في رؤياهـا عـلى حـقٍّ، ودون ريـب.

وبـدلًا مـن النظـر، اتَّجـه هارولـد إلى التليفـون، وانتـزع السَّـمَّاعة، وطلـب رقـم مقـرِّ الشرطـة مـن شـارة الطـوارئ المُلصقـة عـلى سـمَّاعة الهاتـف.

ردَّ صوتٌ من الطرف الآخر: "معك الرقيب هال".

دسَّ هارولـد إصْبَعًـا في أذنـه الخاويـة، وقـال: "اسـمي هارولـد باركيـت، عنـواني 1421 شـارع شرق إنديكـوت، أودُّ تقديـم بـلاغ...".

عن ماذا؟ عمَّ يريد تقديم بلاغ؟

رجـلٌ يـشرع في اغتصـاب وقَتـلِ مَـرجٍ عُشـبيٍّ، ويعمـل لصالـح شـخص يُدعـى بـان، ولـه سـاقان مشـقوقان؟

"نعم يا سيد باركيت؟".

أدركني الإلهام.

---

(1) إشـارة ثانيـة إلى الميثولوجيـا اليونانيـة، حيـث (بـان) هـو إلـه المراعـي والطبيعـة والبراري، لـه جـذع إنسـان وسـاقي ماعـز (المترجـم)

"أودُّ الإبلاغ عن واقعة مخالِفَة للاحتشام".

كرَّر الرقيب هال: "مخالِفَة للاحتشام".

"نعم، هناك رَجُلٌ يَجزُّ عُشبي، إنه.. آآ، كلِّيًّا".

سأل الرقيب هال بارتياب مهذَّب: "أتقصد أنه عارٍ؟".

وافقه هارولد القول: "عارٍ!"، مستمسكًا بنهايات أعصابه المتوتِّرة.

"مُتجرِّد، دون ملابس، مكشوف المؤخِّرة، على مرج عشبي الأمامي، والآن هل سترسلون شخصًا ما إلى هنا بِحَقِّ الجحيم؟".

سأل الرقيب هال في ارتباك: "أكان العنوان1421 شارع غرب إنديكوت؟".

صاح هارولد: "شرق! بحقِّ الرب...".

"أتقول إنه عارٍ تمامًا؟ تستطيع رؤية..آآ.. أعضائه التناسلية وما إلى ذلك؟".

حاول هارولد أن يتحدَّث، وكل ما أصدره مجرَّد غرغرة، بدا صوت جزَّاز العُشب وكأنه يعلو شيئًا فشيئًا، بل متعاليًا على كل شيء في الكون. شعر بصعود حلقومه.

غمغم صوت الرقيب هال: "أيمكنك أن ترفع صوتك؟ توجد ضوضاء على الخطِّ من عندك...".

فُتِحَ الباب الأمامي عُنوةً.

نظر هارولد من حوله، ورأى الرفيق الآلي لجزَّاز العُشب يتقدَّم عبر الباب، ومن وراءه جزَّاز العُشب ذاته، وما زال عاريًا، ومع شيء ما يقترب من الجنون الفِعليِّ، رأى هارولد شَعرَ عانَةِ الرَّجُل أخضرَ نَضِرًا، وخَشِنًا. كان يلفُّ قُبَّعة البيسبول على إصبع واحدة.

قال جزّاز العُشب مُوبِّخًا: "ثمّة خطأ يا صاحبي، عليك التّمسُّك بعبارة: فليبارك الرب العُشب".

"آلو! آلو! سيد باركيت...".

سقَطَت سمّاعةُ الهاتف من بين أصابع هارولد الواهنة حينما تقدَّمت نحوه جزّازةُ العُشب وهي تُمزِّق سجادة كارلا الجديدة من طراز موهوك، وتبصق في طريقها كُتَلَ الخيوط البنية.

حدَّق هارولد إليها كمثل نظرة مُتبادَلَة بين طائرٍ وثُعبانٍ، إلى أن وصَلَت عند طاولة القهوة، وحين رَكَنَتها الجزّازة جانبًا، جزَّت إحدى سيقانها فصارَت نشارةَ خَشبٍ وشقوقًا كما هو الحال دائمًا. صعد فوق ظَهرِ كرسيِّه وبدأ في التراجُع نحو المطبخ، دافعًا الكرسي أمامه.

قال جزّاز العُشب متلطِّفًا: "لن يُجدي هذا نفعًا يا صاحبي، وقد يجنح نحو الفوضى أيضًا. الآن إذا كان غرَضُك فحسب أن تريني المكان الذي تُبقي فيه أكثر سكِّينة جِزارة حادَّة لديك، علينا الانتهاء من مسألة التضحية دون ألَمٍ فِعليٍّ، أظنُّ أن حمام الطيور سيتكفَّل بالأمر، وبعدها...".

حشر هارولد الكرسي في جزّازة العُشب التي حاصَرَته بمهارة، بينما استرعى انتباهه الرَّجُل العاري، وانسحب من باب الدخول. زمجرت جزّازةُ العُشب حول الكرسي، تنفث العادم، وحطَّم هارولد الباب السلكي للرواق وقفز على السلالم. سَمِعَها وشَمَّها وأحسَّ بها في أعقابه.

غادَرَت جزّازةُ العُشب درجة السُّلَّم العليا مثل مُتزلِّج يهبط قافزًا، وانطلق هارولد نحو مَرج عُشبِه المجزوز حديثًا، حيثُ شرب الكثير من عُلَب البيرة، ونام فيها القيلولة كثيرًا. شعر باقترابها منه، وصارت بعدها في أعقابه، وبعدها نظر من فوق كتفه، وتعثَّر على قدميه.

آخـر مـا رآه هارولـد باركيـت القسـوةَ الطَّاحنـة لجَـزَّازة العشـب المُعبَّـأة، متأرجِحـةً إلى الـوراء، كاشِـفَةً عـن شـفراتها اللامعـة الملطَّخـة باللـون الأخـضر، ومـن فوقهـا الوجـهُ السَّـمين لجـزّاز العُشـب، هـازًّا رأسـه في تأنيـبٍ وَدودٍ.

"بئـس الأمـر". هكـذا قـال المـلازم جودويـن وقـت التقـاط الصُّـور الأخـيرة. أومـأ إلى رجلـين يرتديـان ملابـس بيضـاء، فدفعـا سَـلَّتَيهما عـبر مَـرجِ العُشـب.

"أَبلَـغَ عـن رَجُـلٍ عـارٍ مـا عـلى مَـرجِ عُشـبه منـذ وقـتٍ لم يتجـاوز السـاعتين".

سأل شرطيُّ الدَّوريَّة كولي: "أهكذا حقًّا؟".

"نعـم، اتَّصَـلَ أحـدُ الجـيران أيضًـا، رجُـلٌ يُدعـى كاسـتوميير، كان يَظنُّـه باركيـت ذات نفسـه، وربمـا كان هـو يـا كـولي، ربمـا كان".

"سيدي؟".

قـال المـلازم جودويـن متأثِّـرًا وهـو يلتقـط الإرسـال: "جُـنَّ جُنونُـه مـن حـرارة الجَـوِّ، سـكيزو -خـراء- فيرينيـا".

قال كولي بإجلالٍ: "نعم يا سيدي".

سألت أحدَ مُرتَدِي المعاطِف البيضاء: "أين بقيَّته؟".

قال جودوين: "في حمَّام الطُّيور"، وأمعن النظر في السماء.

سأل مُرتَدي المعطف الأبيض: "هل قُلتَ حمَّام الطيور؟".

أكَّـد المـلازم جودويـن عـلى كلامـه: "قلـت ذلـك بالفعـل"، نظـر شرطـيُّ الدوريـة كـولي إلى حـمام الطيـور، وفجـأةً راح قَـدرٌ كبـير مـن اسـمرار بشرتـه.

قال الملازم جودوين: "مهووسٌ جِنسيٌّ، حتمًا كان كذلك".

سأل كولي بغلظة: "أتوجد بَصماتٌ؟".

قـال جودويـن: "قـد تسـأل أيضًـا عن آثـار الأقـدام"، وأشـار إلى العشـب المجـزوز لتَوِّه.

أصدر شرطي الدورية كولي من جوفه صوتًا مُختنقًا.

حـشر المـلازم جودويـن يديـه في جيبيـه وارتـدَّ عـلى أعقابـه، وقـال بتأثُّـر: "العـالم مـليءٌ بالمخابيـل، فصامِيُّـون، لا تنـسَ هـذا يـا كـولي، يقـول فِتيَـةُ المعمـل الجنـائي إن شـخصًا مـا لاحـق هارولـد باركيـت بجَزَّازة عُشـبٍ عـبر غرفـة معيشـته، أتتخيَّـل ذلـك؟".

قال كولي: "لا يا سيِّدي".

تطلَّـع جودويـن إلى مَـرج العشـب المُشـذَّب بعنايَـةٍ. "طيِّـب، مثلـما قـال الرجـل حينـما رأى السـويدي أسـود الشَّـعر، إنـه حتـمًا رجـلٌ نـورديٌّ مـن طـراز مُختَلِـف".

جـال جودويـن حـول المنـزل، وتبعـه كـولي، ومـن خلفهـما، بقيـت الرائحـة الزَّكيَّـة للعُشـب المجـزوز حديثًـا في الهـواء.

شَرِكَة المُقلِعين المتَّحِدَة

كان موريسون في انتظار شخصٍ ما عالِقٍ في الزحام المروري الجوِّيِّ فوق مطار كينيدي الدولي- حين رأى وجهًا مألوفًا عند نهاية البار، وسار نحوه.

"چيمي؟ چيمي ماكان؟".

كان أكثَرَ امتلاءً عَمَّا رآه عليه موريسون في معرض أطلانطا العام الفائت، ما عدا ذلك، حَسُنَ تَناسُقُ جَسَدِه. كان نحيفًا خلال فترة الكُلِّية، ومُدخِّنًا شَرِهًا، شاحِبَ الوجه، مَدفونًا وراء نظَّارَةٍ مصنوعة من قرون الحيوانات، وبدَّلَها -كما هو واضِحٌ- بعدسات لاصقة.

"ديك موريسون؟".

"نعم، تبدو متألِّقًا"، مَدَّ يده وتَصافَحَا.

قال ماكان: "وأنتَ أيضًا"، لكن موريسون أدرك أنها كذبة، كان مفرطًا في العمل، مفرطًا في تناول الطعام، مفرطًا في التدخين.

"ماذا تشرب؟".

قال موريسون: "بوربون مع المِزر المرِّ". لَفَّ ساقيه حول مقعد البار، وأشعل سيجارة. "هل ستقابل أحدًا يا جيمي؟".

"لا، أنا ذاهِبٌ إلى ميامي لحضور مؤتمر، عميل ثري، ستة مليون دولار. من المفترض أن أدعِّمَه؛ لأننا خسرنا صفقةً كبرى للربيع القادم".

"أَمَا زِلتَ تعمل مع كراجر وبارتون؟".

"صِرتُ الآن نائِبَ الرئيس التنفيذي".

"مُذهِل! مبروك! متى حدث كل هذا؟". حاول أن يقول لنفسه بأن دودةَ الغيرة الصغيرة السَّاكِنَة في بطنه مجرَّد عُسر هَضمٍ حادٍّ، أخرج شريطًا من الحبوب المضادَّة للحموضة وطحن واحدة في فمه.

"أغسطس الماضي، حدث شيءٌ ما غير حياتي، ربما تهتمُّ"، نظر إلى موريسون محاوِلًا التخمين ورشف شرابه.

فكَّر موريسون في إجفال كامن: يا إلهي، جيمي ماكان أسَّس ديانةً.

قال: "بالتأكيد"، وتجرَّع شرابه حين وصل. قال ماكان: "لم أكُن بِخَير حالٍ، مشاكل شخصيَّة مع شارون، ووفاة والدي بأزمة قلبية، وازداد عليَّ ذلك السُّعال اللَّعين. مرَّ بوبي كراجر ذات يوم على مكتبي، وحدَّثني ببعض الحديث الحَماسيِّ الأبوي، أتتذكَّر ماهيَّةَ هذا الحديث؟".

قال: "نعم"، فقد عمل مع كراجر وبارتون لمدة 18 شهرًا قبل انضمامه لوكالة مورتون. "أَغرِقْ مُؤخِّرتَكَ في العمل أو أَخرِجْها".

ضحك ماكان، "تَعرِف ما قاله، حسنًا، وصولًا إلى مغزاي، فقد أخبرني الطبيب أنِّ أُعاني من بوادِر قُرحَة، ونصحني بالإقلاع عن التدخين، كأنه يطلب مني أن أقطَعَ التَّنفُّس". تَجهَّم ماكان.

أومأ موريسون في تفهُّمٍ بالِغٍ. يمكن لغير المدخِّنين أن يعتدُّوا بأنفسهم. تطلَّع إلى سيجارته بقرف، وسَحَقَ عُقبها، وهو يعلم أنه سيشعل سيجارة أخرى خلال خمس دقائق.

سأل: "هل أقلَعتَ عن التَّدخين؟".

"نعم. أقلعتُ، لم أظنَّ نفسي في البداية بقادر على هذا، كنتُ أغشُّ كثيراً، ثم قابَلتُ شخصًا أخبرني بخصوص شركة واقعة في شارع 46، اختصاصيِّين، قُلتُ ما الذي لديَّ لأخسره وذهبت إلى هناك، ولم أدخِّن منذ ذلك الحين".

اتَّسَعَت عينا موريسون. "ماذا فعلوا؟ مَلؤوا جسدَكَ بمُخدِّرٍ ما؟".

"لا"، أخرجَ محفظتَه وفتَّشها. "ها هي ذا، كنتُ أعلم أن معي واحدة"، ووضع بطاقة أعمال بيضاء عادية على البار بينهما.

شركة المُقلِعين المتَّحِدة.

توقَّفْ عن تدمير نَفسِكَ بالدُّخَان!

237 شرق شارع 46.

المعامَلاتُ حَسبَ المواعيد المُسبَقَة.

قال ماكان: "خُذْها لو أَردتَ، سيعالجونك، والأمر مضمون".

"كيف؟".

قال ماكان: "لا أستطيع إخبارَك".

"هه! لِمَ لا؟".

"هـذا جُـزءٌ مـن العَقـد الـذي يجعلونـك تُوَقِّـع عليـه، عـلي أيِّ حـال، سـيخبرونك كيـف يسـير الأمـر حـين يُجـرون معـكَ المُقابَلَـة".

"وَقَّعتَ على عَقدٍ؟".

"وبموجَبِه...".

"أيـوه". ابتسـم إلى موريسـون الـذي أطـرق مُفكِّـرًا: حسـنًا، حـدث الأمـر، چيـم مـاكان انضـمَّ لعصبـة الأوغـاد الراضـين عـن أنفسـهم.

"لِـمَ السِّرِّيَّـة الشـديدة إذا كانـت تلـك الشَّركـة شـديدةَ الرَّوعَـة؟ كيـف لم أُصـادِف قَـطُّ أيَّ دعايـة في التلفـاز أو اللوحـات الإعلانيـة أو المجـلَّات...".

"يحظَـوْن بزبائنهـم الذيـن يتعاملـون معهـم مـن خـلال الدِّعايـة الشَّـفاهية".

"أنت تعمل في الإعلانات يا چيم، لا يمكن أن تصدِّق هذا".

قال ماكان: "بل أصدِّق، فلديهم نسبة تعافٍ تبلغ 98%".

قـال موريسـون: "مهـلًا"، وأشـار طالِبًـا شرابًـا آخـر، وأشـعل سـيجارةً "هـل يُقيِّـدُكَ أولئـك الأشـخاص ويجبرونـك عـلى التدخـين حتـى تتقيَّـأ؟".

"لا".

"يُعطونَك شيئًا ما حتى تتعب في كل مرَّةٍ تُشعِل فيها...".

"لا، لا شيء مـن هـذا القبيـل، اذهـب وانظـر بنفسـك"، وأشـار إلى سـيجارة موريسـون. "أنـتَ لا تُحـبُّ هـذه، أليـس كذلـك؟".

"لاااا، ولكن...".

قـال مـاكان: "بالنسـبة لي، فالإقـلاع عـن التَّدخـين غـيَّرَ أركانَ حيـاتي، لا أفـترضُ أنـه يعمـل بنفـس التَّأثـير بالنِّسـبة لـكلِّ شـخصٍ، لكنَّـه كان بالنسـبة لي مثـل قطـع دومينو مُتسـاقِطَة. شـعرت شـعورًا أفضـل، وتحسَّـنَت علاقتي مـع سـوزان، صـار لـديَّ المزيـد مـن الطَّاقَـة، وتحسَّـن أدائي الوظيفـي".

"انظُرْ، لقد أثَرتَ فضولي، ألا يُمكِنُكَ فحسب أن...".

"أنـا آسـف يـا ديـك، لا أسـتطيع إخبـارك بخصـوص هـذا"، كان صوتـه حازمًـا.

"هل زاد وَزنُكَ؟".

ظـنَّ لِلَحظَـةٍ أن جيمـي مـاكان بـدا متجهِّـمًا بعـض الـشيء. "نعـم، زاد كثـيرًا جـدًّا في الحقيقـة. لكنـي أنقَصتُـه ثانيـةً، عـلى وشـكِ هـذا الآن، كنـتُ نحيفًـا فيـما مـضى".

"الرِّحلـة رقـم 206 تهبـط الآن عنـد بوابـة 9". هكـذا أعلـن مُكـبِّرُ الصَّـوت.

قـال مـاكان وهـو يقـوم مـن مقعـده: "هـذه الرحلـة التـي أنتظرهـا"، وألقـى ورقـة بخمسـة دولارات عـلى البـار، "اشرب كأسًـا آخـر إذا أرَدتَ، وفكِّـر بحَـقٍّ فيـما قُلتُـه لـك يـا ديـك"، ثـم ذهـب، شـاقًّا طريقـه بـين الحشـود، مُتَّجِهًـا نحـو السـلالم المتحرِّكـة. التقـط موريسـون البطاقـة، وأمعـن النظـر إليهـا، ثـم طواهـا داخـل محفظتـه ونسـاها.

وقعـت البطاقـة خـارج المحفظـة عـلى بـار آخـر بعدهـا بشـهر، كان قـد غـادر المكتـب مبكِّـرًا، وجـاء إلى هنـا حتـى ينـسى -فـترة العصـاري- بصُحبَـة الـشراب. لم تَـسِر الأحـوال عـلى مـا يـرام في وكالـة مورتـون، بـل في الواقـع، كانـت الأحـوال شـديدةً الشَّـناعة.

منـح هـنري عـشرة دولارات مقابـل شرابـه، ثـم التقَـطَ البطاقـة الصغـيرة وقرأهـا مـن جديـد، 237 شرق شـارع 46 عـلى بُعـدِ بنايَتَـيْن مـن

هنـا، كان يومَـا أكتوبريًـا مُشمِسًـا ومُنعِشًـا في الخـارج، وحـين أحـضر هـنري لـه الباقـي، وربمـا مـع بعـض الضحـك المكتـوم- أنهـى شرابـه ثـم خـرج للتمشـية.

كانـت شركـة المُقلِعـين المتحـدة في بنايـة جديـدة يقـترب فيهـا الإيجـار الشـهري لمسـاحة مكتبيـة- مـن راتـب موريسـون السَّـنوي. وفقًـا لدليـل شـاغِلي الطابـق، بـدا لـه وكأن مكاتبهـم تشـغل طابقًـا كامـلًا، وفي هـذا أثـرٌ طـاغٍ للـمال، الكثـير مـن المـال.

اسـتقلَّ المصعـد إلى أعـلى، وخـرج وهـو يضـع قدميـه في بهـوٍ فَخـمٍ مفـروش بالسـجَّاد، مؤدِّيًـا مـن هنـاك إلى غرفـة اسـتقبال أنيقـة التجهيـز مـع نافِـذَةٍ واسِـعَةٍ تُطِـلُّ عـلى الحـشرات المهرولـة في الأسـفل. قعـد ثلاثـة رجـال وامـرأة واحـدة عـلى كـراسي مُلاصِقَـة للجـدران، يتصفَّحـون المجـلَّات، كلهـم مـن طـراز روَّاد الأعـمال. تَوَجَّـه موريسـون إلى المكتـب.

قـال: "صديـقٌ لي أعطـاني هـذه"، ومـرَّر البطاقـة إلى موظَّفـة الاسـتقبال. "أظُـنُّ أنَّـكِ سـتقولين إنـه مـن الخريجـين".

ابتسَمَت وأدخَلَت استمارةً في آلتها الكاتبة: "ما اسمُكَ يا سيِّدي؟".

"ريتشارد موريسون".

تك-تكتك-تك

لكنَّهـا تكتـكاتٌ مكتومَـةٌ جـدًّا، كانـت الآلـة الكاتبـة مـن طـراز "آي-بي-إم".

"عنوانك؟".

"22 مابيل لاين، كلنتون، نيويورك".

"مُتزوِّج؟".

"نعم".

"ألَديكَ أطفال؟".

"طفلٌ واحد"، فكَّر في آلفن واكفَهَرَّ وَجهُهُ بعضَ الشَّيء، "طِفلٌ واحد" عبارة خاطئة، ربما تكون "نِصف طفل" أدقَّ. كان ابنه مُعاقًا ذهنيًا، ومُقيمًا في مدرسة خاصة في نيوچيرسي.

"مَن رَشَّحكَ لنا يا سيد موريسون؟".

"صديق دراسة قديم، چيمس ماكان".

"جيد جدًا، أيمكنك أن تَقعُد؟ أمامنا يومٌ شَديدُ الازدحام".

"حسنًا".

جلس بين المرأة التي ترتدي بذلةً زرقاء مُفصَّلَة، ورَجُلٍ من عيِّنَة المديرين التنفيذيين الشباب وله سوالف عصرية، ويرتدي معطفًا بنسيج متعرِّج الخطوط. أخرج علبة سجائره، ونظر من حوله، ولاحظ عدم وجود أي مَنافِض للسجائر.

أدخل العُلبَةَ ثانية، كان هذا لا بأس به، كان سيواصل لُعبَتَه الصغيرة ثم يشعل السِّيجارة حين يغادر، وربما حتى يُخلِّفَ وراءه بعضَ الرماد على السجَّادة الكستنائية الطويلة- إذا جعلوه ينتظر وقتًا طويلًا بما يكفي.

أمسك نُسخَةً من مجلة تايم، وبدأ يتصفَّحها.

نُودي اسمُه بعد ربع ساعة، بعد المرأة ذات البَذلَة الزرقاء. كان مركز النيكوتين في داخله يتحدَّث بصوتٍ عالٍ الآن. جاء رجُلٌ من بعده ليُخرِجَ عُلبَة سجائره، وفتحها بحِدَّة، ولاحظ عدم وجود أي منافض للسجائر، ونحَّاها جانبًا وهو يبدو شاعِرًا بالذنب، وخطر في بال موريسون أن هذا أشعره شعورًا أفضل.

في النهاية مَنحته مُوظَّفةُ الاستقبال ابتسامةً مُشرِقةً، وقالت: "تَفضَّل يا سيد موريسون".

سـار موريسـون مبـاشرةً نحـو البـاب خلـف مكتبهـا، ووجـد نفسـه في رواقٍ مُضـاء بشَـكلٍ غـير مُبـاشِر. صافحـه رَجُـلٌ عريـض الجَسَـد لـه شَـعرٌ أَبيـضُ يبـدو زائفًـا، وابتسـم بوداعَـةٍ، وقـال لـه: "اتبعنـي يـا سـيد موريسـون".

قـاد موريسـون إلى عـددٍ مـن الأبـواب المغلقـة غـير المميَّـزة، ثـم فتـح بمفتـاحٍ بابًـا منهـم عنـد منتصـف الطريـق إلى الصالـة. خلـف هـذا البـاب غرفـة صغـيرة خَلَـت مـن كل زينـة، مُبطَّنـة بقوالـب فِلّـين بيضـاء منغـرزة، والأثـاث الوحيـد مكتـب مـع كُـرسيٍّ في كُلِّ ناحيـة، ووُجِـد مـا يبـدو أنـه نافـذة مسـتطيلة صغـيرة في الجـدار وراء المكتـب، لكنهـا غُطِّيَـت بسـتارة خـضراء قصـيرة. عـلى يسـار موريسـون كانـت توجـد صـورةٌ مُعلَّقـة عـلى الجـدار لِرَجُـلٍ طويـل رمـاديِّ الشَّـعر. كان يمسـك بقصاصـة ورقٍ في يـد، بـدا مألوفًـا عـلى نحـو غامـض.

"أنـا ڤيـك دونـاتي". هكـذا قـال الرجـل عريـض الجسـد. "إذا قـرَّرتَ المُـضيَّ قُدُمًـا في برنامجنـا، سـأكون المسـؤولَ عـن حالتـك".

قال موريسون: "سعيدٌ بمَعرِفَتِكَ"، أراد إشعال سيجارة لدرجة اليأس.

"اقعُد".

وضـع دونـاتي اسـتمارةَ مُوظَّفـة الاسـتقبال عـلى المكتـب، ثـم سـحب اسـتمارةً أخـرى مـن درج المكتـب، تطلّـع مبـاشرة إلى عينَـيْ موريسـون "هـل تريـد الإقـلاع عـن التدخـين؟".

تَنَحنَـحَ موريسـون، ووضـع سـاقًا عـلى الأخـرى، وحـاول التفكـير في طريقَـةٍ للمُراوَغـة، ولم يفلـح. قـال: "نعـم".

"أَيُمكِنُكَ التَّوقيعُ على هذه؟".

نـاوَلَ موريسـون الاسـتمارة، وتصفَّحهـا عـلى عَجَـل. المُوقِّع أدنـاه يوافق عـلى عـدم الإفشـاء عـن الأسـاليب أو التقنيـات أو... إلـخ. إلـخ. إلـخ.

قـال: "بالتَّأكيـد"، ووضـع لـه دونـاتي قلـمًا في يـده. خربـش اسـمَه، وتحتـه وقَّـع دونـاتي. بعدهـا بهُنَيهَـةٍ، اختفـت الورقـة مُجـدَّدًا في درج المكتـب. أطـرق مفكِّـرًا في سـخرية: حسـنًا، هـا قـد أوفيـتُ بالعهـد.

قـال دونـاتي: "حسـنًا، نحـن لا نشـغل بالنـا بالدعايـة هنـا يـا سـيد موريسـون، أو بخصـوص الصِّحَّـة أو النفقـات أو السُّـلوك الاجتماعـي. لا نبـالي البَتَّـةَ حـول سـبب رغبتـك في الإقـلاع عـن التدخـين، فنحـن أشـخاص عَمَليُّـون".

قال موريسون بنبرةٍ خاوية: "حسنًا".

"نحـن لا نسـتعمل أيَّ أدويـة، ولا نسـتعين بأشـخاصٍ مـن عَيِّنـة ديـل كارنيجـي ليلقـوا عليـكَ مواعِـظَ، ولا نـوصي بحَمِيَّـة غذائيـة خاصَّـة، ولا نتقـاضى أي مدفوعـات ماليـة إلى أن تتوقَّـف عـن التدخـين لمـدة عـام".

قال موريسون: "يا إلهي".

"ألم يُخبِركَ السَّيِّد ماكان بهذا؟".

"لا".

"بالمناسبة، كيف حال السيد ماكان؟ أهو بخير؟".

"إنه بخير".

"رائـع، ممتـاز، والآن... بضعـة أسـئلة يـا سـيد موريسـون، وهـي أسـئلة شـخصيَّة بعـض الـشيء، لكنـي أؤكِّـد لـك أن إجاباتـك سـتظلُّ في أقـصى درجـات السِّرِّيَّـة".

سأل موريسون دون هدفٍ: "نعم؟".

"ما اسمُ زَوجَتِكَ؟".

"لوسيندا موريسون، واسم عائلتها قبل الزواج رامزي".

"أَتُحِبُّها؟".

نظر موريسون بجِدَّة، لكن دوناتي نظر إليه بلُطفٍ.

قال: "نعم، طبعًا".

"هل مَرَرتَ من قبلُ بمشاكل زوجية؟ ربما انفصال؟".

سأل موريسون: "وما علاقة هذا بالإقلاع عن عادة التدخين؟"، بدا صوته غضوبًا أكثرَ عَمَّا انتواه، لكنه أراد... سحقًا، كان يحتاج إلى سيجارة.

قال دوناتي: "لها علاقة كبيرة، اصبر معي فحسب".

"لا، لا شيء من هذا القبيل"، بالرغم من تَوَتُّر الأحوال بعض الشيء مؤخَّرًا.

"أنجبتما فقط هذا الطفل؟".

"نعم، آلفن، إنه في مدرسة خاصَّة".

"أيُّ مدرسة تلك؟".

قال موريسون متجهِّمًا: "هذا ما لن أخبِرَك به".

قال دوناتي موافقًا: "طيِّب"، وابتسم إلى موريسون مُخفِّفًا من تَحَفُّزه.

"كل أسئلتك سيجاب عليها يوم غد في أولى جلسات علاجك".

قال موريسون: "هذا شيء حَسَن"، ثم نهض.

قال دوناتي: "سؤال أخير، أنت لم تُدخِّن سيجارةً منذ أكثر من ساعة، كيف تشعر؟".

"إحساسٌ جَيِّد. هكذا كذب موريسون. "جيِّد فحَسبُ".

هتف دوناتي: "أحسَنتَ!". مشى حول المكتب وفتح الباب، "استَمتِعْ بهم الليلة، فبعد الغَدِ، لن تُدخِّن مرَّةً أخرى أبدًا".

"أهذا صحيح؟".

قال دوناتي برصانَةٍ: "يا سيد موريسون، نضمن لك هذا".

كان يجلس في المكتب الخارجي في شركة المُقلِعين المتحدة، استَيقَظَ في اليوم التالي عند الساعة الثالثة. قضى أغلب اليوم مُتردِّدًا بين تفويت الموعد الذي رتَّبَته له موظفة الاستقبال عند خروجه من الشركة، والانغماس في روح المشاركة العنيدة. أرِني أفضل رَميَةٍ لديكَ أيُّها الكريه!

في نهاية المطاف، شيء ما قاله چيمي ماكان قد أقنعه بالقدوم في الموعد، "غيَّرَ أركان حياتي". يعلَمُ الرَّبُّ أن حياته قد تفلح بشيءٍ من التغيير، ومن بعدها قاده فضوله. قبل استقلاله المصعد، دخَّنَ سيجارةً كاملة وصولًا إلى الفلتر. أطرَقَ مُفكِّرًا: يا للَّعنَة اللَّعناء لو كانت تلك السيجارة الأخيرة، فطعمها شنيعٌ.

أمضى وقتًا أقصر خلال الانتظار في المكتب الخارجي هذه المرَّة، وحين أبلغته موظَّفةُ الاستقبال كي يدخل، كان دوناتي ينتظره، مدَّ يَدَه بالسلام وابتسم، وبَدَت الابتسامة بالنسبة لموريسون شِبهَ إلزاميَّة. بدأ يشعر ببعض التوتُّر؛ وهو ما جعله يرغب في سيجارة.

"تعال معي". هكذا قال دوناتي، وقاد المسير إلى الغرفة الصغيرة. قعد خلف المكتب ثانية، وأخذ موريسون الكرسي الآخر.

قال دوناتي: "مُمتَنٌّ جدًّا لقدومك، كثير جدًّا من العُمَلاء المحتَمَلين لم يظهروا مرة أخرى بعد المقابلة الأولى، حيث يكتشفون أنهم لا يرغبون في الإقلاع عن التدخين بشكلٍ مُلِحٍّ حسبما ظَنُّوا، سيكون من دواعي سروري العمل معك على هذا".

"متى سيبدأ العلاج؟".

كان يفكِّر: تنويمٌ مغناطيسيٌّ، حتمًا سيكون تنويمًا مغناطيسيًّا.

"أوه، لقـد بـدأ فعليًّـا، بـدأ حـين تصافحنـا في الصالـة، هـل في حَوزَتِـكَ سـجائر يـا سـيد موريسـون؟".

"نعم".

"أيُمكِنُني الحصول عليها، من فضلك؟".

موريسـون نـاول دونـاتي عُلبَتَـه وهـو يهـزُّ كتفيـه، تَبقَـى داخلهـا سـيجارتان أو ثـلاث عـلى أيَّـة حـال.

وضـع دونـاتي العلبـة عـلى المكتـب، ثـم مـع ابتسـامَةٍ إلى عينَـيْ موريسـون، كـوَّر يـده اليمنـى حتـى استحالت قبضـةً، وبـدأ يـدقُّ بهـا على علبـة السـجائر، حتـى انهرسـت وانسـحقت، وطـار منهـا طـرفُ سـيجارةٍ مكسـورة، وتبَعـثَرَ فُتـاتُ التَّبـغ. أحـدث صـوتُ قَبضَـةِ دونـاتي دويًّـا هائِـلًا في الغرفـة المغلَقـة. بقيـت الابتسـامةُ عـلى وجهـه رغـم قُـوَّة الضربـات، واقشَـعرَّ لهـا بَـدَنُ موريسـون. كان يفكِّـر أن هـذا هـو الأثـر الـذي يرغبـون في إحداثـه.

في النهايـة توقَّـف دونـاتي عـن الهرس. التقـط علبـة السـجائر، بعدمـا اسـتحالت بقايـا تالِفَـةً منسـحقة، قـال: "لـن تُصـدِّق مـدى المتعـة التـي أنالهـا مـن ذلـك"، وألقـى العُلَبَـة في سَـلَّة المهمـلات، "مـا زِلـتُ أسـتمتع بهـذا حتـى بعـد مـرور ثـلاث سـنوات عـلى إنشـاء الشركـة".

قـال موريسـون بـبرود: "إذا اعتبرنـا هـذا علاجًـا، فهـو يُحافـظ بداخـلي عـلى رغبَـةٍ مـا، يوجـد كُشـكٌ للصُّحـف في رَدهَـةِ هـذه البنايـة ذاتهـا، ويبيعـون جميـعَ أصنـاف السـجائر".

قـال دونـاتي مُشـبكًا يديـه: "كـما تشـاء. ابنـك، آلفـن داوز موريسـون، في مدرسـة باترسـون للأطفـال المعاقـين، وُلـد بتَلَـفٍ في الفـص القَحفـيِّ مـن المـخ، مُعـدَّل ذكائـه 46، لا ينـدرج بالضَّبـط ضمـن فئـة المعاقـين القابِلِـين للتَّعلُّـم، أمَّـا زَوجَتُـكَ...".

رفـع موريسـون صَوتَـه: "كيـف عَرفـتَ هـذا؟"، كان مذهـولًا وغاضبًـا، "ليـس لـكَ أَيُّ حَـقٍّ لعـين أن تحـشر نَفسَـكَ في...".

قـال دونـاتي بعذوبَـةٍ: "نعلـم عنـكَ الكثـير، ولكـن مثلـما قُلـتَ، كل شيء سـيبقى في أقـصى درجـات السِّرِّيَّـة".

قـال موريسـون بصـوتٍ واهِـنٍ: "سـأخرُجُ مـن هنـا"، ثـم قـام مـن مقعـده.

"ابقَ لِوَقتٍ أطولَ".

نظـر موريسـون إليـه عـن قُـربٍ. لم يكـن دونـاتي مُنزَعِجًـا، في الواقـع، بـدا مسـتمتعًا بعـض الـشيء، كان وجـهَ رَجُـلٍ رأى رِدَّةَ الفعـل هـذه مـرَّاتٍ عديـدة، ربمـا مئـات المـرات.

"حسنًا، يجدر بالأمر أن يستحقَّ".

"آه، إنه يستَحِقُّ".

مـال دونـاتي إلى الـوراء. "أخبَرتُـكَ أننـا أشـخاص عمليُّـون هنـا، ولأننـا عمليُّـون؛ ينبغـي علينـا البـدء في إدراك مـدى صعوبـة التَّعـافي مـن إدمـان التَّبـغ، يبلـغ مُعـدَّل الانتـكاس 85% تقريبًـا، ومُعـدَّل الانتـكاس بـين مُدمِني الهيرويـن أقـلُّ مـن ذلـك، يـا لهـا مـن مشـكلة غـير عاديـة، غـير عاديـة!".

ألقـى موريسـون نظـرةً إلى سَـلَّة المهمـلات. بـدت إحـدى السـجائر رغـم اعوجاجهـا صالِحَـةً للتَّدخين.

ضحـك دونـاتي ضحكـةً وَدودَةً، ومـدَّ يـده إلى سَـلَّة المهمـلات، وقَصَمهـا بـين أصابعـه.

"أحيانًـا، تتلقَّـى الهيئـات التشريعيـة في الدولـة طلبًـا ينـصُّ عـلى إلغـاء أنظمـة السـجون للحصـص الأسـبوعية مـن السـجائر، اقتراحـات مثـل هـذه تُحبِـطُ عـلى الـدَّوام، وفي حـال تمريرهـا في حـالات قليلـة، تنشـب أعـمال شـغب ضاريـة، أعـمال شَـغبٍ يـا سـيد موريسـون. تخيَّـل!".

قال موريسون: "لَم أُفاجَأ".

"ولكن فَكِّر في العواقب، حين تحبس رَجُلًا في سجنٍ، فأنتَ تَسلبُه الحياة الجنسية الطبيعية، وتنتزع منه شرابه الكحوليَّ، وقَناعاتِه السياسية، وحُرِّيَّته في الحركة. لا أعمال شغب، أو بعض منها بالمقارنة مع عدد السجون، ولكن حين تسلبه سجائره، وااام! بااام!". انهال بقبضته على المكتب تأكيدًا على الفكرة.

"خلال الحرب العالمية الأولى، وحين لم يفلح أحدٌ على الجبهة الداخلية الألمانية في جلب السجائر، كان من الشَّائع رؤية الأرستقراطيِّين الألمان وهم يلتقطون أعقاب السجائر من مصارف المياه. في الحرب العالمية الثانية، تحوَّلت الكثيرات من النساء الأمريكيات إلى تدخين الغليون حين لم يُفلِحن في الحصول على السجائر. معضلة مثيرة لشَخصٍ عَمليٍّ على حَقٍّ يا سيد موريسون".

"هل يمكننا مباشرة العلاج؟".

"حالًا، اصعد هنا من فضلك"، قام دوناتي ووقف بجوار الستائر الخضراء التي لحظها موريسون أمس. أزاح دوناتي الستائر، وانكشفت نافذةٌ مستطيلة تُفضي إلى غرفة خاوية، لا، ليست خاويةً بالضبط، كان يوجد أرنبٌ على الأرض، يأكل حبيبات من طبق.

علَّق موريسون قائلًا: "أرنب لطيف".

"بالفعل، راقِبْه".

ضغط دوناتي زِرًّا عند حافَّة النافذة، توقَّف الأرنب عن الأكل وشَرَعَ في تَقافُزٍ جنوني، وبدا أنه يقفز لارتفاع أعلى في كل مرة تطأ فيها أقدامُه الأرض، وانتصب فراؤه مثل الشَّوكِ في أطراف جسده، وتوحَّشَت عيناه.

"توَقَّفْ عن هذا، أنت تُكَهرِبُه!".

ترك دوناتي الزِّرَّ، "بالعكس، في الأرض شحنة كهربية مُنخَفِضَة جدًّا. راقِبْ الأرنب يا سيد موريسون".

كان الأرنب رابضًا على بُعدِ عشرِ أقدامٍ من طبق الحبيبات، وتلوَّى أَنفُه، وفي دفعة واحدة قفز بعيدًا إلى أحد الأركان.

قال دوناتي: "حين يتعرَّض الأرنب للصَّعقِ في أثناء الأكل بما يكفي، سيستوعب بسُرعَةٍ فائقة أن الأكل مَصدَرُ الألم؛ لهذا لن يأكل، ومع بضعة صعقات إضافيَّةٍ، سيجوع الأرنب حتى الموت على مرأى من طعامه، وهذا ما يطلقون عليه التدريب على النُّفور".

بزغ الضَّوء داخل رأس موريسون.

"لا. شُكرًا!"، واتَّجه نحو الباب.

"انتَظِرْ من فضلك يا موريسون".

موريسون لم يتوقَّف، وأمسك بمقبض الباب، وشعر أنه يُفلِتُ من يده بِقوَّة، "فُكَّ قُفلَ الباب".

"سيِّد موريسون، لو جَلستَ فحَسبُ...".

"فُكَّ قُفلَ هذا الباب، وإلا سأستدعي لك الشرطة قبل أن تتفوَّه بعبارة "رجل المارلبورو"".

"اجلِسٍ". خرج الصَّوتُ باردًا مثل الثلج المكشوط.

نظر موريسون إلى دوناتي، كانت عيناه البُنِّيَّتان مُعكَّرَتَين ومُخيفتَين. أطرق مفكِّرًا: يا إلهي، أنا مُحتَجَزٌ هنا مع شخصٍ مُختلٍّ. لعَقَ شفتيه، ورغب في سيجارة أكثر من أي وقت مضى في حياته.

قال دوناتي: "سأشرح لك خُطَّة العلاج بمزيد من التفصيل".

قال موريسون بصبرٍ زائِف: "أنتَ لا تفهم، أنا لا أريد العلاج، قرَّرتُ ألَّا أحصل عليه".

"لا يا سيد موريسون، أنت الذي لا تفهم، أنت لا تملك خيارًا، حين أخبَرتُكَ أن العلاج بدأ بالفعل، كنتُ أقول الحقيقة بالحرف الواحد، كنتُ أظنُّ أنك فَطِنتَ لهذا الآن".

قال موريسون مُتعجِّبًا: "أنتَ مجنون".

"لا، أنا عملي فحسب، دعني أخبِرَك كل شيء عن خطَّة العلاج".

قال موريسون: "طبعًا، طالما أدرَكتَ أني بمجرَّد خروجي من هنا، سأشتري خمس علب سجائر وسأدخِّنها كُلَّها في طريقي إلى قسم الشرطة". لاحَظَ فجأةً أنه كان يقضم ظفر إبهامه، ويمصُّه، ودفع نفسه للتوقُّف.

"كما تشاء، لكنَّكَ ستُغيِّر رأيكَ حين ترى الصورة الكاملة".

لم يَقُل موريسون شيئًا، قعد ثانية وشبك يديه.

قال دوناتي: "في الشهر الأول من العلاج، سيضعك عملاؤنا تحت الملاحظة المستمرَّة، ستقدر على تحديد بعضهم، وليس جميعهم، لكنهم سيكونون دائمًا معي، دائمًا، إذا رأوك تُدخِّن سيجارةً، سيتَّصِلون بي".

قال موريسون: "وأتصوَّر أنك ستحضرني إلى هنا وتمارس عليَّ حيلة الأرنب القديمة"، وحاول أن يبدو باردًا وساخرًا، لكنه فجأة شعر بخوفٍ مُروِّع، كان هذا كابوسًا.

قال دوناتي: "أوه لا، ستُنفِّذ حيلة الأرنب على زوجتك، وليس عليكَ".

نظر إليه موريسون فاقِدًا النُّطق.

ابتسم دوناتي، وقال: "وينبغي عليك المشاهدة".

بعدما تركه دوناتي يخرج، تَمشَّى موريسون لأكثر من ساعتين في ذهولٍ تامٍّ. كان يومًا طيِّبًا آخر، لكنه لم يَلحَظ ذلك، حيث تغلغلت وحشيَّةُ ابتسامة دوناتي في كل شيء.

كان يقول: "أترى، تتطلَّب المعضلة العَمليَّة حلولًا عملية، يجب أن تدرك أن مصالحك العليا في سويداء القلب".

وفقًا لدوناتي، كانت شركة المُقلعين المتَّحِدة أشبهَ بالمؤسَّسة، مُنظَّمة غير هادفة للربح، أنشأها الرَّجُلُ الموجود في صورة الجدار، كان السَّيِّد رَجُلًا فائِقَ النجاح في عِدَّة أعمال تجارية عائلية، بما فيها ماكينات القمار، وصالونات التدليك، واليانصيب، بالإضافة إلى تجارة مُنتَعِشَة (رغم التَّكتُّم عليها) بين نيويورك وتركيا.

كان مورت مينيللي "ذو الأصابع الثلاثة" مُدخِّنًا شَرِهًا، بمعدَّل ثلاث علب سجائر في اليوم، والورقة التي كان يحملها في الصورة فيها تشخيص الطبيب: سرطان في الرِّئَة. مات مورت في العام 1970 بعد التَّصدُّق بأموالٍ لإنشاء شركة المُقلِعين المتَّحِدَة بتمويلٍ عائلي.

قال دوناتي: "نحاول قدر الإمكان الوصول لنقطةِ تَعادُل، لكننا مُهتَمُّون أكثر بمساعدة رفيقنا، وبالطبع، الحصول على عائِدٍ ضريبيٍّ هائل".

كانت خُطَّة العلاج بسيطةً لدَرَجةٍ مُخيفة. مع أوَّل مخالفة: تُحضَر سيندي إلى ما أطلق عليه دوناتي "حجرة الأرنب". ثاني مخالفة: سيُصعَق موريسون بالكهرباء. ثالث مخالفة: سيُقتادان كلاهما معًا. أمَّا مع رابع مخالفة يظهر معها مشاكل خطيرة في إبداء التعاون، ستتطلَّب إجراءاتٍ أشدَّ صَرامَةً، حيث سيُرسَلُ عميلٌ إلى مدرسة آلفن ليضرب الفتى ضربًا مبرِّحًا.

قــال دونــاتي مبتســمًا: "تَخيَّـلْ الوَقـعَ الرَّهيـب لهـذا عـلى الولـد، لـن يفهـم حتـى لـو تَطـوَّع أَحـدٌ بالـشَّرح لـه، كل مـا سـيعرفه هـو أن شـخصًا مـا يؤذيـه لأن بابـا شـخص سـيئ، سـيخاف أشـدَّ الخـوف".

قـال موريسـون بقِلَّـة حيلـة، وشـعر أنـك يوشـك عـلى البـكاء: "أيُّهـا اللقيـط، أيُّهـا اللقيـط القَـذِر الوسـخ".

قــال دونــاتي وهــو يبتســم مُتضامِنًــا معــه: "لا تُسـئ فَهمـي، أنـا عـلى يقـينٍ أن هـذا لـن يحـدث، أربعـون بالمائـة مـن عملائنـا لم يحتاجـوا قَـطُّ إلى التأديـب، وعـشرة بالمائـة فقـط مَـن سـقطوا مـن النعمـة أكـثر مـن ثـلاث مـرات، يـا لهـا مـن أرقـام مُطَمئِنَـة، أليسـت كذلـك؟".

لم يَرَ موريسون أيَّ طُمَأنينة في هذه الأرقام، بل وجدها مُرعِبَة.

"وبالطَّبع إذا ارتَكبتَ مُخالَفةً خامِسة...".

"ماذا تقصد؟".

وضَّـح دونـاتي مقصـده: "أنـتَ وزَوجَتُـكَ سـتدخلان الغرفـة، ويتعـرَّض ابنُـكَ للـضرب مـرَّةً ثانيـة، كـما سـتُضرب زوجَتُـكَ".

اندفـع موريسـون بقـوَّة عـلى مكتـب دونـاتي، منقـادًا لمـا وراء نقطـة الاسـتيعاب المنطقـي. تحـرَّك دونـاتي بسرعـة شـديدة بالنسـبة لرَجُـلٍ كان يبـدو مسترخيًا تمامًـا. دفـع الكـرسي إلى الخلـف، ودفـع كلتـا قدميـه فـوق المكتـب ونحـو بطـن موريسـون. ترنَّـح موريسـون إلى الـوراء وهـو يَسـعَلُ ويوشِـكُ عـلى التقيُّـؤ.

قـال دونـاتي مُتلطِّفًـا: "اجلِـسْ يـا سـيد موريسـون، ودعنـا نتناقـش في هـذا مثـل الرِّجـال العُقَـلاء".

حـين اسـتعاد أنفاسـه، امتثـل موريسـون لمـا أُمِـر بـه، عـلى الكوابيـس أن تنتهـي في وقـتٍ مـا، أليـس كذلـك؟

اســتفاض دونــاتي في الــشرح: "في شركــة المُقلِعــين المتحــدة، نطبِّــق مقياسًــا للعقوبــات يتكــوَّن مــن عــشر درجــات، حيــث تشــتمل الدرجــات السادســة والســابعة والثامنــة عــلى المزيــد مــن الرحــلات إلى حجــرة الأرنــب (مــع مضاعفــة الجهــد الكهــربي) والمزيــد مــن الــضَّرب المــبرِّح، أمَّــا الخطــوة التاســعة ســتكون تكســيرَ ذراعَــيْ ابنِــكَ".

سأل موريسون وقد جف فمه: "والعاشرة؟".

هــزَّ دونــاتي رأســه في حــزن: "وقتَئِــذٍ نستســلم يــا ســيد موريســون؛ حيــث ســتصير فــردًا مــن الــ 2% مــن غــير المولوديــن مــن جديــد".

"أتستسلم حقًّا؟".

"بطريقَــةٍ مــا"، ثــم فتــح أحــد أدراج المكتــب ووضــع مُسدَّسًــا عيــار 45. مُزوَّدًا بكاتِــمٍ للصــوت عــلى المكتــب، ابتســم لمــرأى عينــي موريســون، "لكــن حتــى الــ 2% الذيــن لا يُولــدون مــن جديــد لــن يُدَخِّنــوا مــرَّةً أخــرى؛ فنحــن نضمــن هــذا".

كان فيلــم أمســية الجمعــة (بوليــت)[1]، أحــدَ أفــلام ســيندي المفضَّلــة، ولكــن بعــد ســاعة مــن غَمغَــماتِ وتَملمُــلات موريســون- فقَــدَت تركيزهــا.

"ما خَطبُكَ؟". هكذا سألَت خلال مشهد الانكشاف في المحطَّة.

دمدم موريسون: "لا شيء.. كل شيء.. أقلَعتُ عن التَّدخين".

ضَحِكَت، "منذ متى، منذ خمس دقائق؟".

"منذ الساعة الثالثة بعد ظهر هذا اليوم".

"ومن وقتها، لم تُدخِّن سيجارةً حقًّا؟".

قال: "لا"، ثم شرع في قضم ظفر إبهامه، كان مقصوصًا حتى الجلد.

"رائع! ما الذي دفعَكَ لِتُقرِّر الإقلاع عن التدخين؟".

---

(1) فيلم من إنتاج العام 1968، ومن بطولة النجم الراحل ستيف ماكوين (المترجم)

قال: "أنتِ، و... وآلفن".

اتَّسعَت عيناها، وحين عاد الفيلم، لم تلحظ الأمر.

نـادرًا مـا يذكـر ديـك ابنهـما المعـاق، اسـتدارت، ونظَـرَت إلى منفضـة السـجائر الفارغـة عنـد يـده اليمنـى، ثـم إلى عينيـه، "أتحـاول حقًّـا أن تقلع عـن التدخـين يـا ديـك[1]؟".

"حقًّـا وصدقًـا"، وأضـاف في ذهنـه: ولـو ذَهَبـتُ إلى الشرطـة، سـتأتي عُصبَـةُ المُجرمـين المحلِّيَّـة إلى الجـوار لتُغـيِّر قَسَـمات وَجهِـكِ يـا سـيندي.

"أشـعر بالامتنـان، وحتـى إذا لم تنجـح، نشـكرك كلانـا عـلى التفكـير في ذلـك يـا ديـك".

قـال: "أوه، أظـنُّ أني سـأنجح"، وهـو يفكِّـر في النظـرة القَـذِرة الفتَّاكـة الصـادرة مـن عينَـيْ دونـاتي حـين ركلـه في بطنـه.

لم يَنَـم جيِّـدًا في تلـك الليلـة، في تنـاوُبٍ بـين الغفـو والصحـو، واسـتيقظ تمامًـا حـوالي السـاعة الثالثـة. كانـت رغبتـه في سـيجارة مثـل حُمَّـى منخفضـة. نـزل عـلى السـلالم متوجِّهًـا إلى غرفـة مكتبـه، وتقـع الغرفـة في قلـب المنـزل، بـلا نوافـذ. فتَـحَ الـدُّرجَ العلـوي في مكتبـه وفتَّـش فيـه، فتنـه صنـدوقُ السـجائر. نظـر مـن حولـه ولعـق شـفَتَيْه.

دونـاتي قـال لـه قبـلًا: مُراقبـة متواصِلَـة خـلال الشـهر الأول، ومراقبـة لمـدة 18 سـاعة في اليـوم خـلال الشـهرين التَّاليَـيْن -لكنـه لم يعـرف قَـطُّ أيَّ 18 سـاعة في اليـوم بالتحديـد- وخـلال الشـهر الرابـع، وهـو الشـهر الـذي ينتكـس فيـه أغلـبُ العُمَـلاء، تعـود "الخِدمَـةُ" لتصـير 24 سـاعة في اليـوم، ثـم 12 سـاعة مـن المراقبـة المتقطِّعـة يوميًّـا بقيَّـةَ العـام، وبعـد ذلـك؟ مراقبـة عشـوائية عـلى مـدار بقيَّـة حيـاة العميـل.

لبقيَّة حياته.

---

(1) اسم تدليل يطلق دومًا على من اسمهم (ريتشارد) في العموم (المترجم)

قـال دونـاتي: "قـد نُراجِعُـكَ كلَّ شـهرين، أو كل يومـين، أو ربمـا بشـكلٍ مُتواصِـلٍ لمـدَّة أسـبوع بعـد سـنتين مـن الآن، الخُلاصـة أنـك لـن تعـرف أبـدًا، إذا دخَّنـتَ، سـتقامر بـنردٍ مغشـوش. هـل يراقبوننـي؟ هـل سـيختطفون زوجتـي أو يرسـلون رَجُـلًا في إثـر ابنـي في التَّـوِّ واللحظـة؟ شيء جميـل، أليـس كذلـك؟ وإذا هرَّبـتَ سـيجارة، سـتذوق طعـمًا مُـرًا، سـيكون طعمُـه مثـل دمـاء ابنـك".

ولكن لا يمكن أن يراقبوا الآن، في عَتَمَة الليل، في غرفة مكتبه.

كان المنزل هادئًا مثل القبور.

تطلَّـع إلى السـجائر في الصنـدوق لمـدة دقيقتـين تقريبًـا، دون قُـدرَةٍ عـلى التحديـق بعيـدًا، ثـم اتَّجـه إلى بـاب حجـرة المكتـب، مُطيـلًا النظـر إلى الصالـة الخاويـة، ثـم عـاد ثانيـة للتطلُّـع إلى السـجائر لمزيـدٍ مـن الوقـت. بـزغ مشـهدٌ مُـروِّع: حياتـه تمتـدُّ أمـام ناظريـه دون وجـود سـيجارة في الأفـق، كيـف سيتسـنَّى لـه بحَـقِّ الـرب أن يُقـدِّم عرضًـا تلخيصيًـا متماسِـكًا لعميـل قَلِـقٍ مـن غـير سـيجارة تحـترق بـين إصبعيـه دون اكـتراثٍ في أثنـاء تقديمـه للجـداول والتصميـمات؟ كيـف سـيقدر عـلى تَحمُّـل برامـج سـيندي التِّلفزيَّـة التـي لا تنتهـي عـن الحدائـق دون سيجارة؟ كيـف سيسـتيقظ في الصبـاح أصـلًا ويواجـه يومَـه دون سـيجارة يُدخِّنهـا وهـو يـشرب القهـوة ويُطالـع الجريـدة؟

شـتم نفسـه عـلى تَوَرُّطِـه في هـذا، وشـتم دونـاتي، والأهـم مـن ذلـك أنـه شـتم چيمـي مـاكان، كيـف فعـل هـذا فيـه؟ ابـن القحبـة كان يعلـم، ارتعشـت يـداه مـن رغبتهـا في الإمسـاك بچيمـي "يهـوذا" مـاكان.

حـدَّق مـن حولـه خلسـة في حجـرة المكتـب، مـدَّ يـده إلى الـدرج وأخـرج سـيجارة. داعبهـا ودَلَّلَهـا. مـاذا كان هـذا الشـعار التجـاري القديـم؟ شـديدة الاسـتدارة، شـديدة التماسُـك، محشـوَّة بالكامـل. لم تُقَـلْ

قَطُّ كلماتٌ أصدَق من هذه. وضع السيجارة في فمه ثم توقَّف وهو يدير رأسه.

هل صدر ولو أوهن صوتٍ من الخزانة؟ تحرَّك طفيف؟ بالطبع لا، ولكن في مشهد آخر في ذهنه، قفز ذلك الأرنب بجنونٍ وهو تحت سيطرة الكهرباء، والتفكير في وجود سيندي في هذه الغرفة. أنصَتَ باستماتة ولم يسمع شيئًا. أخبر نفسه أن كل ما عليه فعله هو الذهاب إلى باب الخزانة وشَدُّه ليفتحه. لكن خوفه اشتدَّ ممَّا قد يجد، عاد إلى الفراش ولم يَنَم لوقت طويل.

رغم إحساسه السيِّئ في الصباح، بدا طعم الإفطار طيِّبًا. بعد هُنَيهَةٍ من التَّردُّد، أكل بيضًا مخفوقًا بعد زبديَّته المعتادة من رقائق الذرة. كان يغسل الطاسة في تَجهُّمٍ حينما نزلت سيندي مُرتَدِيَةً روبها.

"ريتشارد موريسون، أنت لم تأكل بيضًا على الإفطار منذ كان هكتور جروًا[1]".

نخر موريسون، اعتبر عبارة "منذ كان هكتور جروًا" من أغبي مقولات سيندي، على قدم المساواة مع عبارة "سأبتسم وأُقبِّل خنزيرًا[2]".

سألَت وهي تصبُّ عصير البرتقال: "هل دَخَّنتَ؟".

"لا".

أعلنت مَرِحَةً: "ستعود إليها بحلول الظَّهيرة".

---

(1) عبارة شهيرة جرت على الألسن منذ حقبة العشرينيات في القرن العشرين، ومعناها "منذ وقت طويل جدًا"، ويعود أصلها حين كان طلبة المدارس الأمريكية يدرسون اللغة اليونانية، وانتشرت عادة تسمية كلابهم باسم (هكتور) نسبة إلى أمير طروادة وقائد الجيش في ملحمة هومر الشهيرة (الإلياذة) (المترجم)

(2) إشارة إلى ضرب من المسابقات المدرسية، من يحصل فيها على أغلبية الأصوات ويُقبل الخنزير، فهو الخاسر (المترجم)

ردَّ بخشـونة وهـو يسـتدير لهـا: "ونِعـمَ العَـوْن اللعـين الـذي تُقدِّمينـه، أنـتِ وأي شـخص آخـر لا يدخِّـن، تَظُنِّـين أنَّـكِ آآ... لا تهتمِّـي".

توقَّـعَ منهـا أن تغضـب، لكنهـا كانـت تنظـر إليـه، وعـلى وجهها تعبـيرٌ يُشـبه الاندهـاش.

قالت: "أنتَ جادٌ حقًّا، أنتَ كذلك".

"أنا جادٌ حقًّا"، آمل ألَّا تعرفي أبدًا مدى جدِّيَّتي.

قالـت وهـي مُتَّجِهـة إليـه: "حبيبـي المسـكين، تبـدو وكأن المـوتَ زارَكَ مـن جديـد، كـم أشـعر بالفخـر".

عانَقَها موريسون بقوة.

مَشاهِدُ من حياة ريتشارد موريسون، أكتوبر/نوڤمبر:

موريسـون في صُحبَـة صديـق مُقـرَّب مـن سـتوديوهات لاركن، جالسـان في بـار چـاك دمبـسي، الصديـق يقـدِّم لـه سـيجارة، موريسـون يسـحب كأسـه ويشـدُّ عليـه ويقـول: إني مُقلِـعٌ عـن التدخـين، يضحـك الصديـق ويقـول: سـأُمهِلُكَ أسـبوعًا.

موريسـون في انتظـار قطـار الصبـاح، يلقـي نظـرةً مـن فـوق جريـدة التايمـز عـلى شـاب يرتـدي بذلـة زرقـاء. بـات الآن في كلِّ صبـاح تقريبًـا يـرى الشـاب، وأحيانًـا في أماكـن أخـرى، في "أونـدي"، حيـث يعقـد لقـاءً مـع عميـل، أو وهـو يبحـث عـن أسـطوانة ذات 45 دورة في متجـر "سـام جـودي"، حيـث يبحـث موريسـون عـن ألبـوم سـام كـوك، وذات مـرَّة ضمـن مجموعـة مـن أربعـة أشـخاص خلـف مجموعـة موريسـون في مجمـع الجولـف المحـلي.

موريسـون سَـكِرَ في حفلـة، راغبًـا في سـيجارة، لكنـه لم يسـكر بمـا يكفـي كي يأخـذ سـيجارة.

موريسون يزور ابنه، مُحضِرًا له كُرَةً كبيرة تُصَرصِر عند الضغط عليها. لم تَعُد قُبلة آلفن المبتهجة المبلَّلة باللعاب مُنَفِّرَة كما كانت قبلًا. يحتضن ابنه بقوة، مُستَوعِبًا -ويا للسخرية!- ما فطِنَ إليه دوناتي وزملاؤه من قبله: الحُبُّ أكثر مُخدِّرٍ ضار بين المخدِّرات كافَّةً، دَعْ الرومانسيِّين يتجادلون حول وجوده، بينما يَتَقبَّلُه البراجماتيُّون ويستغلُّونه.

موريسون يفقد الدافع الجسماني للتدخين رويدًا رويدًا، لكنه لا يفقد أبدًا الاشتهاء النفسي، أو الاحتياج لوجودِ شيء ما في فمه: أقراص استحلاب، حلوى لايف سيفرز، خِلَّة أسنان، وكلها بدائل ضعيفة.

وفي النهاية، عَلَقَ موريسون في زحام مروري مهول في نفق ميدتاون، ظلام، نفير أبواق السيارات، هواء عَفِن، مسارات مرورية متشابكة دون أمل. وفجأة، خبط فاتحًا تابلوه السيارة ورأى بداخلها علبة سجائر نصف مفتوحة. نظر إليها للحظة، ثم اختلس سيجارة وأشعلها بولاعة السيارة. قال لنفسه مُتحدِّيًا: لو حدث أي شيء، فهو خطأ سيندي، قلتُ لها أن تتخلَّص من كل السجائر اللعينة.

دفعته أول سحبة من السيجارة أن يُخرج الدخان في كُحَّة شَرِسَة، والثانية أدمعت عيناه، وأشعرته الثالثة بخفَّة الرأس والإغماء، كان يفكِّر: طعمها يقرف.

وفي أعقاب هذا: يا إلهي، ما الذي اقترفه؟

صرَخَت أبواق السيارات من خلفه بنفاد صبر، وفي الطليعة بدأ المرور يتحرَّك من جديد، سحق عقب السيجارة في المنفضة، وفتح النافذتين الأماميَّتين، وفتح منافذ الهواء، ثم رَوَّح بيده الهواءَ بشكلٍ بائِسٍ مثل فتى شَدَّ السيفون على أول عقب سيجارة له في المرحاض.

انضمَّ مُرتَبِكًا إلى التيار المروري، وقاد السيارة إلى المنزل.

نادى قائلًا: "سيندي، أنا في المنزل".

لا رَدٌّ.

"سيندي، أين أنتِ؟".

رنَّ جرس الهاتف، وانقضَّ عليه.

"ألو، سيندي؟".

أجـاب دونـاتي، وبـدا صوتـه نشـيطًا وعمليًـا بطريقـة مُحبَّبـة: "مرحبًـا يـا سـيد موريسـون، يبـدو أن لدينـا مسـألة بسـيطة تسـتلزم حضـورك، أيناسـبك الحضـور عنـد السـاعة الخامسـة؟".

"هل زوجتي عِندَكَ؟".

ضحك دوناتي مُتَبسِّطًا: "نعم، طبعًا".

هـذى موريسـون: "دَعْهـا تذهـب، لـن يتكـرَّر مـا حـدث ثانيـة، كانـت هفـوةً، مُجـرَّد هَفـوَة، هـذا كل شيء. سَـحَبتُ ثلاثـة أنفـاس مـن السـيجارة، وبحَـقِّ الـرَّبِّ لم يَطِـبْ لي طَعمُهـا!".

"يـا للعـار، أتوقَّـع منـك إذن أن تـأتي في السـاعة الخامسـة، أليـس كذلـك؟".

قـال موريسـون موشِـكًا أن يـذرف الدمـوع: "أرجـوك، أرجـوك.."، وبـات يتحـدَّث إلى خَـطٍّ مُغلَـق.

في السـاعة الخامسـة مسـاء، كانـت غرفـة الاسـتقبال خاوِيـةً إلَّا مـن السـكرتيرة، التـي مَنحَتـه ابتسـامةً لحظيَّـة، متجاهِلَـةً شـحوب وجـه موريسـون ومظهـره غـير المُهَنـدَم.

قالـت السـكرتيرة عـبر جهـاز الاتصـال الداخـلي: "سـيد دونـاتي؟ حـضر السـيد موريسـون لمقابلتـك".

كان دوناتي ينتظر خارج الغرفة غير المميَّزة مع رَجُلٍ يرتدي قميصًا قطنيًّا طُبِعَت عليه كلمة "ابتَسِمْ"، ويحمل مسدَّسًا من طراز إي 38. كان بنيان جسده مثل القرد.

قال موريسون لدوناتي: "اسمع، يمكننا التَّوصُّل لحَلٍّ ما، سأدفع لك، ســـ...".

"إيييخرررص". هكذا صرخ الرجل المرتدي قميص "ابتسم".

قال دوناتي: "كم جميل أن نراك، آسف على حدوث هذا تحت ظروف مناوِئَة، هلَّا تأتي معي؟ سنوجز الأمر قدر المستطاع، أؤكِّد لك أن زوجتك لن يطالها أذى.. هذه المرَّة".

شدَّ موريسون نفسه قافزًا نحو دوناتي.

قال دوناتي وهو يبدو متضايقًا: "تعال تعال، إذا فعَلتَ ذلك، سيضربك چانك بقبضة يد المسدس، ومع ذلك ستنال زوجتك نصيبها، والآن ما المكسب من وراء هذا؟".

قال لدوناتي: "آمل أن تتعفَّن في الجحيم".

تنهَّد دوناتي. "لو حصَلتُ على "نيكل" عن كُلِّ مرَّة أبدى فيها شخصٌ ما وجهة نظرٍ كهذه إليَّ؛ فسوف أتقاعد، فليَكُن هذا درسًا لك: حين يحاول الرومانسيُّ أن يقوم بفِعلٍ طيِّب ويفشل، سيمنحونه ميدالية، وحين ينجح الشخص العملي، يتمنَّون ذهابه إلى الجحيم، هَلُمَّ نذهب؟".

تحرَّك چانك مع المسدس.

سبقهم موريسون إلى الغرفة، شاعِرًا بالخَدَر.

سُحِبَت الستارة الخضراء الصغيرة، ونخسه چانك بالمسدَّس، أطرق مُفكِّرًا: بالتأكيد هذا ما يكون عليه حال الشاهد في غرفة الإعدام بالغاز.

نظر إلى الداخل، كانت سيندي هناك، تنظر من حولها مذهولةً.

نادى موريسون في يأس: "سيندي! سيندي، إنهم...".

قال دوناتي: "لن تستطيع سماعَكَ أو رؤيتَكَ، إنه زُجاجٌ عازِلٌ، حسنًا، لننتهِ من هذه المسألة، كان الأمر مُجرَّد هفوة صغيرة جدًا، أظنُّ أن ثلاثين ثانية تكفي. چانك؟".

ضغط چانك على الزِّرِّ بِيَدٍ واحدة وأبقى المسدَّسَ محشورًا بشدَّة في ظهر موريسون مع الآخر.

كانت أطولَ ثلاثين ثانية في حياته.

حين انتهى الصَّعقُ، وضع دوناتي يدًا فوق كتف موريسون، وقال: "هل ستتقيَّأ؟".

قال موريسون واهنًا: "لا"، وجبهته قُبالَة الزجاج، وصارت قدماه هُلَّاميَّتَيْن، "لا أظنُّ ذلك". استدار واكتشف ذهاب چانك.

قال دوناتي: "تعالَ معي".

سأل موريسون دون مبالاة: "إلى أين؟".

"أظنُّ أن لديك بضعة أشياء لِتُوَضِّحَها، ألستَ كذلك؟".

"كيف سأواجهها؟ كيف سأخبرها أن.. آآ..آ...".

قال دوناتي: "أَظُنُّ أنك ستُفاجَأ".

خلَت الغرفة إلا من أريكة، جلست عليها سيندي، تَشهَقُ باكِيَةً وهي مغلوبة على أمرها.

قال برِقَّة: "سيندي؟".

تطلَّعَت بنظرها، وتعاظَمَت الدموع في عينيها. همَسَت: "ديك؟ ديك؟ يا.. يا إلهي"، احتضَنَها بقوَّة، وقالت ووجهها على صدره:

"رَجُلان، في المنزل، ظَنَنتُ في البداية أنهما لِصَّان، ثم ظَنَنتُ أنهما سيغتصبانني، ثم أخذاني إلى مكانٍ ما مع عِصابَةٍ فوقَ عينيَّ و... و... آه ما حدث كان رهيبًا".

قال: "ششششش، ششششش".

سألت وهي تنظر إليه: "ولكن لماذا؟ لماذا هم...؟".

قال: "بسببي أنا، عليَّ أن أُخبِرَكِ قصَّةً".

حين فرغ من الحكي، صمتَ لِلَحظَةٍ، ثم قال: "أظنُّ أنك تكرهينني، لن ألومَكِ".

كان ينظر إلى الأرض، وأخذت وجهه بين يديها، وأدارته نحو وجهها. قالت: "لا، أنا لا أكرَهُكَ".

نظر إليها في اندهاش صامت.

قالت: "كان الأمر يستحقُّ، فليبارك الرَّبُّ أولئك الأشخاص، فقد حَرَّروكَ من سجنِكَ".

"أتعنين ما تقولين؟".

قالت: "نعم"، وقبَّلَته، "أيمكننا العودة للمنزل الآن؟ أشعر بتحسُّنٍ كبير، كبير جدًّا".

رنَّ جَرَسُ الهاتف ذات ليلة بعد أسبوع، وحين ميَّز موريسون صوت دوناتي، قال: "فتيانُكَ مُخطِئون، لم أقترب أصلًا من سيجارة".

"نعلم هذا، لدينا مسألة أخيرة نتناقش حولها، أيُمكِنُكَ المرور علينا غدًا بعد الظهر؟".

"هل...".

"لا، ليس شيئًا خطيرًا، مجرَّد تسجيلات في الدفاتر، بالمناسبة، مبروك على ترقيَتِكَ".

"كيف عَلِمتَ بهذا؟".

قال دوناتي بنبرَةٍ مُحايِدة: "نحتفظ بأجهزة تنصُّت"، وأغلق الخَطَّ.

حين دخلا الغرفة الصغيرة، قال دوناتي: "لا تَتوتَّرْ هكذا، لن يَعضَّكَ أحدٌ، اصعد إلى هنا من فضلك".

رأى موريسون ميزانَ حَمَّامٍ تقليديًّا. "اسمع، لقد زاد وزني قليلًا، لكن...".

"نعم، هكذا حال 73% من عُمَلائنا، اصعد من فضلك".

امتثل موريسون، ومالت المؤشِّرات إلى مائة وأربعة وسبعين.

"حسنًا، تمام، يُمكِنُكَ النزول. كم طولُكَ يا سيد موريسون؟".

"5.11".

"حسنًا، لِنَرَ".

سحب بطاقة صغيرة مُغلَّفة بالبلاستيك من جيبه عند الصدر. "حسنًا، هذا ليس سيِّئًا، سأكتب لك وصفةً ببعض حبوب التخسيس المحظورة قانونًا، استَخدِمها باعتدال حسب الإرشادات، وسأُحدِّد لك الوزن الأقصى عند... لِنَرَ...".

راجَعَ البطاقة ثانية. "182، ما رأيك في هذا؟ وبما أننا في الأول من ديسمبر، سأنتظرك أوَّلَ كُلِّ شهر من أجل قياس الوزن، إذا لم تَستَطِع فلا مشكلة، طالما اتَّصَلتَ من قبلها".

"وماذا يحدث إذا زدت عن 182؟".

ابتَسَمَ دوناتي وقال: "سنرسل شخصًا ما إلى منزلك كي يقطع إصبع زوجتك الخنصر، يمكنك المغادرة من هذا الباب يا سيد موريسون، أتمنَّى لك يومًا طيبًا".

بعد ثمانية أشهر:

موريسون يسارع إلى الصديق من ستوديوهات لاركن في حانة دمبسي، موريسون وصل إلى ما تُسمِّيه سيندي بفَخرٍ "وزنه القتالي": 167. يتمرَّن ثلاث مرات في الأسبوع، ويبدو جسدُه مَمشوقًا مثل الوتر، أمَّا الصديق من لاركن، فيبدو بالمقارنة مثل قِطٍّ مَجرور.

الصديق: يا إلهي، كيف أقلَعتَ من الأساس؟ أنا أسيرٌ لهذه العادة أكثر من تيلي. يُخرِج الصَّديقُ سيجارته باشمئزازٍ صادق، ويشرب كأس الويسكي.

موريسون ينظر إليه متأمِّلًا ثم يُخرِج من محفظته بطاقةَ أعمالٍ بيضاء صغيرة. يَضَعُها على البار بينهما، قال: أتعلم، أولئك الناس غيَّروا حياتي.

بعد اثنَيْ عشر شهرًا:

موريسون يتلقَّى فاتورة عبر البريد، وَرَدَ في الفاتورة:

شركة المُقلعين المتَّحِدَة

237 شرق شارع 46

مدينة نيويورك، 10017

علاج: 2500$

استشارة (ڤكتور دوناتي): 2500$

كهرباء: 50 $

المجموع (برجاء دفع المبلغ المذكور): 5000.50$

انفجـر قائـلًا: "أبنـاء القِحـاب، غرَّمـوني المـال مقابـل الكهربـاء التـي اعتـادوا أن... أن...".

قالت له: "ادفع المال فحَسبُ"، وقَبَّلَته.

بعد عشرين شهرًا:

بالصُّدفـة، موريسـون وزوجتـه التقيـا بچيمـي مـاكان وزوجتـه في مسرح هيلـين هايـز، وجـرى التعـارُف بـين الجميـع. چيمـي بـدا في حالـة طيِّبـة إن لم يكـن أفضـلَ مـن يـوم التقـاه في صالـة الوصـول في المطـار منـذ زمـن طويـل، ولم يكـن موريسـون قـد التقـى بزوجتـه مـن قبـل، كانـت لجمالهـا إشراقـةٌ تنبثـق مـن الفتيـات العاديَّـات حـين يَكُـنَّ في أعـلى قِمَـم السـعادة.

مـدَّت يدهـا وصافحهـا موريسـون. شيء غريـب في مِسـكَةِ يدهـا، أدرك ماهيَّتـه خـلال الفصـل الثـاني تقريبًـا. إصبـع الخنـصر في يَدِهـا اليُمنـى غـيرُ موجودٍ.

أعرِفُ ما تُريدين

"أعرف ما تريدين".

رفَعَت إليزابيث ناظِرَيْها عن كتاب علم الاجتماع، وذُهِلَت، حيث رأت شابًا شِبهَ مُستَعصٍ على الوَصف، يرتدي معطفًا عسكريًّا أخضر، ظنَّت للحظة أنه يبدو مألوفًا لها، كما لو أنها تعرفه من قبل، كان إحساسًا أقرب ما يكون للديچا ڤو، ثم ولَّى الإحساس. كان في نفس طولها تقريبًا، ونحيفًا، و... مُتشنِّجًا، تلك هي الكلمة. لم يكن يتحرَّك، لكنه بدا أنه يتشنَّج داخل جلده، شيءٌ خارِجٌ عن نطاق النظر. كان شَعرُه أسودَ وغيرَ مُمشَّط. ارتدى نظَّارَةً مصنوعة من قرون الحيوانات؛ مِمَّا كبَّر حجم عينَيْه البُنِّيَّتَيْن الدَّاكِنَتيْن، وبدتا العَدَستان مُتَّسِخَتَيْن. لا، كانت متأكِّدةً أنها لم تره من قبل.

قالت: "أتعلم، أشكُّ في ذلك".

"تريدين مخروطًا فيه بولَتَان من آيس كريم الفراولة، صح؟".

غمَـزَت بعينيهـا، وبـان عليهـا الدهشـة، كانـت تفكّـر في مـكانٍ مـا داخـل مؤخِّـرَة رأسـها في الحصـول عـلى اسـتراحة مـن أجـل الآيـس كريـم. كانـت تسـتذكر مـن أجـل الاختبـارات النهائيـة في إحـدى مقصـورات الـدَّور الثالـث في اتِّحـاد الطُّـلَّاب، ومـا زال أمامهـا -ويـا للحُـزن!- طريـقٌ طويـلٌ لتمـضي فيـه.

"صح؟".

تمسَّـكَ بكلامـه وابتسـم، وهـو مـا حَـوَّل وجهـه مـن شيءٍ شـبه قبيـح ومُغـالٍ في الانفعـال إلى شيءٍ آخـر جـذَّاب بشـكل غريـب. خطـر في بالهـا كلمـة "رقيـق"، وهـي ليسـت بكلمـة يليـق أن يُبتـلى بهـا ولـد، لكنهـا صـارت الكلمـة المُلِحَّـة حـين ابتسـم، بادَلَتـه الابتسـامة قبـل أن يتسـنَّى لهـا حبسـها وراء شـفَتَيْها، وهـو مـا لم تحتَـجْ إليـه، أن تُضطـرَّ لتضييـع الوقـت في إبعـاد شـخصٍ غريـب قـرَّر اختيـار التوقيـت الخطـأ مـن العـام كي يحـاول تَـرك انطبـاعٍ مـا. مـا زال أمامهـا سـتَّة عـشر فصـلًا مـن كتـاب مُقدِّمـة في علـم الاجتـماع كي تجتازهـم.

قالت: "لا. شكرًا!".

"حَسبُكِ! إذا ضغطـتِ عـلى نفسـك أكـثر مـن ذلـك، سـتُصابين بصُـداعٍ، كُنـتِ تَسـتَذكِرين منـذ سـاعَتَيْن دون اسـتراحة".

"كيف عرفتَ ذلك؟".

قـال عـلى الفـور: "كنـتُ أُراقِبُـكِ"، لكـنَّ ابتسـامته الصبيانيـة هـذه المـرة تركـت أثرهـا عليهـا. إنهـا تعـاني بالفعـل مـن صـداع.

قالـت بنـبرة أكـثر حـدَّة مـمَّا انتـوَت: "حسـنًا، توقَّـفْ عـن هـذا، لا أحــبُّ تحديـق النـاس إليَّ".

"أنا آسِف".

شعرَت بالحسرة عليه بعض الشيء، مثلما تشعر بالحسرة حيالَ الكلاب الضَّالَّة. بدا أنه يغوص داخل معطفه العسكري الأخضر، و... نعم، جَورباه غير مُتطابِقَيْن: أحدهما أسود، والآخر بُنِّيٌّ. أحسَّت نفسها على استعداد للابتسام ثانية، فألجمت الابتسامة.

قالت برقَّة: "لديَّ تلك الاختبارات النهائية".

قال: "طبعًا، بالتأكيد".

نظَرَت إليه لهُنَيهَةٍ في حالة من التَّفكُّر، ثم أخفضت نظرها نحو كتابها، ولكن بقي من هذا اللقاء أثَرُ صورةٍ بعد زوالها من أفق النظر: بولتان من آيس كريم الفراولة.

أشارت الساعة إلى الحادية عشرة والربع مساء حين عادت إلى مسكنها، وآليس مُتمدِّدة على فِراشها، تستمع إلى نيل دايموند وتقرأ رواية "قصة أُو[1]".

قالت إليزابيث: "لم أعرف أنهم كلَّفوكِ بدراسة هذه الرواية في أ- ش 17".

جلَسَت آليس.

"أُوسِّع آفاقي يا عزيزتي، وأنشر رياحي الثقافية، وأرتقي بـ.. ليز؟".

"همممم؟".

"أسِمعتِ ما قُلته؟".

"لا، آسفة، أنا...".

"تبدين كأنَّ أحدًا ضَرَبك على رأسك يا صبية".

---

(1) رواية إيروتيكية فرنسية شهيرة صدرت في العام 1954، كتبتها الروائية الفرنسية آن ديكلو تحت الاسم المستعار بولين رياج، وظلت هوية المؤلفة مجهولة بعد نشرها لمدة أربعين عامًا (المترجم)

"قابَلتُ الليلةَ فتًى، فتى غريبًا بعض الشيء".

"أوه؟ إنـه لأَمـرٌ جَلَـلٌ حتـمًا إذا اسـتطاع أن يفصـل روجـان العظيمـة عـن كتبهـا الحبيبـة".

"اسـمه إدوارد چاكسـون هامـنر. طالـب في السـنة الثالثـة لا أكـثر، قصير، نحيـف، يبـدو وكأنـه غسـل شَـعرَ رأسـه وقـت عيـد ميـلاد واشـنطن[1] تقريبًـا، ولديـه جَورَبـان غـيرَ متطابِقَـيْن: جـورب أسـود وجـورب بنـي".

"ظَنَنتُ أنَّكِ تنجذبين لنموذج فتية الأندية الطلابية".

"لا شيء فيـه مـن هـذا يـا آليـس، كنـت أسـتَذكِرُ في الاتِّحـاد في الـدور الثالـث في المقصـورة، ودعـاني عـلى آيـس كريـم في مطعـم "جرينـدر". قُلـتُ لـه لا، وبعدهـا انسـلَّ خفيَـةً بعـض الـشيء، لكنـه بمجـرَّد أن أثـار تفكـيري في الآيـس كريـم، لم أسـتَطِع المقاومـة، قـرَّرتُ الاستسـلام فحسـب، وأخـذتُ اسـتراحة، وكان هنـاك يحمـل مخروطَـيْن كبيريـن في كُلٍّ منهـما بولتـان مـن آيـس كريـم الفراولـة".

"ارتعد من سماع الخاتمة".

تذمَّـرَت إليزابيـث: "طَيِّـب، لم أسـتَطِع أن أقـول لا؛ لـذا جلـس، واتَّضـح أنـه درس علـم الاجتـماع مـع البروفيسـور برانـر في العـام المـاضي".

"المُعجِـزات لا تنقطـع، رحـماك يـا رب، في أرض جَاسَـان إلى عيـد الميـلاد...".

"اسـمعي، هـذا أمـر مُثـيرٌ حقًّـا، تعرفـين كيـف كنـتُ أكـدَحُ في هـذا الفصـل الـدراسي؟".

"نعم، أنتِ تتحدَّثين عن هذا في أثناء نومك، فعليًّا".

---

(1) عيـد قومـي في الولايـات المتحـدة الأميركيـة، يحتفـل فيـه الأميركيـون بذكـرى ميـلاد چـورچ واشـنطن، أول رئيـس للولايـات المتحـدة الأميركيـة، في ثالـث يـوم اثنـين في شـهر فبرايـر مـن كل عـام (المترجـم)

"حصَلتُ على مُعدَّلٍ تَراكُميٍّ 78، كان ينبغي عليَّ الوصول إلى 80 درجة للحفاظ على منحتي الدراسية، وهو ما يعني أنِّي في حاجة لـ 84 درجة في الاختبار النهائي. طيِّب، إد هامنر هذا يقول إن برانر يلجأ لنفس الاختبار النهائي تقريبًا كل عام، و"إد" وَلَدٌ قَويُّ الذَّاكرة".

"أتقصدين أنه يملك.. ما اسمها.. ذاكرة تصويرية؟".

"نعم، انظري إلى هذا"، وفتَحَت كتابَ عِلم الاجتماع وأخرجت ثلاث ورقات من دفترها مسطورة بالكتابة.

أخذتهم آليس. "إنها مثل أسئلة الاختيار من مُتعدِّد".

"إنها كذلك، يقول إد إن هذا اختبار برانر النهائي للعام الفائت، كلمة بكلمة".

قالت آليس بصوتٍ خافِتٍ: "لا أصدِّق ما أراه".

"لكنَّه يُغطِّي المادَّةَ بأَسرِها!".

"ما زِلتُ لا أصدِّق"، وأعادت الأوراق، "فقط لأن هذا الشبح...".

"إنه ليس شبحًا، لا تنادِيه بهذا".

"حاضر، هذا الفتى الصغير لم يُوهِمْكِ بأن تحفظي هذه الأوراق غَيبًا دون استذكار على الإطلاق، أليس كذلك؟".

قالت بنبرة مُتشكِّكَة: "بالطَّبع لا".

"وحتى لو كان هذا يشبه الاختبار، أتظُنِّين أن هذا فِعلٌ أخلاقيٌّ؟".

فاجأها الغضب وأفلَتَ لِسانها قبل أن تكبحه.

"هذا شيء عظيم بالنسبة لك، طبعًا، تحصلين على تقدير من العميد في كل فصل دراسي، ورُفَقاؤك يساهمون في النفقات، أنتِ لست...".

"حسنًا، أنا آسِفَة، لا داعي لكل هذا".

هـزَّت آليـس كتفيهـا، وانفتـح فَمُهـا عـلى شـكل حـرف O، وحافـظ وجهُهـا عـلى حياديَّـة التعبـير. "لا، أنـتِ عـلى حَـقٍّ، هـذا ليـس مـن شـأني، ولكـن لِـم لا تسـتذكرين الكتـاب، مـن بـاب الاحتيـاط فقـط؟".

"سأفعل بالطَّبع".

لكنَّهـا اسـتَذكَرَت في المقـام الأول أوراقَ الاختبـار التـي زوَّدَهـا بهـا إدوارد چاكسـون هامـنر چونيور.

حـين خرَجَـت مـن قاعـة المحـاضرات بعـد الاختبـار، كان يجلـس في الرَّدهـة، غائصًـا في معطفـه العسـكري الأخـضر. ابتسـم لهـا في تـردُّدٍ. "كيـف سـار الاختبـار؟".

اندفعـت وقبَّلَتـه عـلى خَـدِّه، لا تتذكَّـر أنهـا شـعرت مـن قبـل بهـذا الإحسـاس السـعيد بالارتيـاح.

"أظنُّ أني برعت فيه".

"حقًّا؟ عظيم، أتَودِّين تناوُلَ البرجر؟".

قالـت ذاهِلَـةً: "أَوَدُّ شـطيرةً"، كان عقلهـا مـا يـزال مـع الاختبـار، كان نفـس الاختبـار الـذي أعطـاه إيَّاهـا إد، كلمـة بكلمـة تقريبًـا، وقـد تبحَّـرت فيـه.

سألته وهما يتناولان البرجر عن حاله مع اختباراته النهائية.

"ليـس لـديَّ اختبـاراتٌ نهائيـة؛ فأنـا في سـلك الدراسـة الشرفيـة، ولا أخـوض الاختبـارات إلَّا لـو أردتُ ذلـك، وأدَّيـتُ بشـكلٍ طَيِّـب؛ لِـذا لم أَخُـض الاختبـارات".

"ولكن لماذا ما زلت هنا؟".

"وَجَبَ عليَّ الاطمئنان على أدائك في الاختبار، أليس كذلك؟".

"إد، أنتَ تمزح، كم هذا جميل، ولكن...". أثارتها النظرة المُجرَّدة في عينيه، فقد رأتها من قبل، كانت فتاةً جميلة.

قال بِرقَّة: "بلى، بلى فعلت".

"إد، أنا مُمتَنَّة، أظنُّ أنَّك أنقذتَ منحتي الدراسية، مُمتنَّة حقًّا، ولكن أتعلم، لي حبيبٌ".

سأل في محاولة بائسة للتحدُّث بلا مبالاة: "أحقًّا؟".

قالت مُتماشِيَةً مع نغمة صوته: "جدًّا، شبه مخطوبَيْن".

"هل يدرك أنه محظوظٌ؟ هل يدرك كم هو محظوظ؟".

قالت وهي تُفكِّر في توم لومبارد.

قال فجأة: "بِث...".

قالت في ذهول: "ماذا؟".

"لا يناديكِ أحدٌ بهذا الاسم، صح؟".

"لماذا... لا، لا، لا ينادوني به".

"ولا حتى هذا الشاب؟".

"لا"، توني كان يناديها: ليز، وأحيانًا ليزي، وهذا أسوأ.

انحنى إلى الأمام.

"لكنَّكِ تُفضِّلين بِث أكثر، صح؟".

ضحكت لتداري ارتباكها.

"أيًّا كان ما يجرى في هذا العالم".

ابتسم ابتسامته الصبيانية، "لا يهم، سأناديكِ بِث، فهذا أفضل، والآن كُلي شطيرة بُرجرك".

وانتهت سَنَتُها الدراسية الثالثة، وكانت تُودِّع آليس؛ فقد فترت علاقتهما، وتحسَّرَت إليزابيث على هذا. افترضت أن الخطأ خطؤها: صاحت بصوتٍ عالٍ بعض الشيء حين أُعلِنَت نتيجة اختبارها النهائي في علم الاجتماع، فقد حصلت على 97 درجة، الأعلى على مستوى القسم.

في الواقع، قالت لنفسها وهي تنتظر نداء رحلتها في المطار- إنه ما كان في هذا الفِعلَة انعدامٌ للحِسِّ الأخلاقي أكثر من استسلامها لحشر المعلومات في مقصورة الطابق الثالث، لم يكن الحشر استذكارًا حقيقيًا، بل مجرَّد حِفظ ببغائي يتبخَّر ويصير هباءً بمجرَّد انتهاء الاختبار.

لمست الظَّرف البارز من حقيبة يدها، وهو إشعارٌ بحزمة الإقراض الخاصَّة بمِنحَتِها الدراسية للسَّنَة النهائية: ألفَا دولار. هي وتوني سيعملان معًا هذا الصيف في مدينة بوثباي بولاية ماين، وسترفعها الأموال التي ستكسبها هناك فوق القِمَّة، والفضل يعود لإد هامنر، سيكون صيفًا جميلًا، مع إبحار رائق على الدَّوام.

لكنه بات أتعسَ صَيفٍ في حياتها.

كان يونيو مَطيرًا، كما أحبط نُقصانُ النفط حركة السِّياحة[1]، وبقشيشها من العمل في نُزُل بوثباي متواضِعٍ، والأسوأ من ذلك أن توني كان يُلحُّ عليها في مسألة الزواج، قال إن بمقدوره الحصول على وظيفة في الحرم الجامعي القريب، وبمقدورها الحصول على درجتها الجامعية في مجال الموضة بمنحةِ الدَّعم الطلابية. فوجِئَت لاكتشافها أن الفكرة أخافتها بدلًا أن تُسعِدَها.

يوجد خَطبٌ ما.

---

(1) تدور أحداث القصة خلال عامي 1973 و1974، وهي الفترة التي شهدت أزمة النفط الشهيرة التي مرت بها أميركا بعد قطع الدول العربية لإمدادات البترول عنها تضامنًا مع مصر في حربها ضد إسرائيل في العام 1973 (المترجم)

لم تـدرك ماهيَّتـه، لكـنَّ شـيئًا مـا مفقـود، خـارج نطـاق السـيطرة، خـارج متنـاول اليَـدِ. ذات ليلـة متأخِّـرة في يوليـو، ارتعـدت بالانخـراط في نوبـة بُـكاءٍ هيسـتيريَّة. الحَسَـنة الجيِّـدة الوحيـدة في هـذا أن رفيقتهـا في السَّـكن -وهـي فتـاة صغـيرة هادئـة تُدعـى سـاندرا آكرمـان- كانـت خـارج المنـزل في موعـدٍ غَرامـيٍّ.

حـلَّ الكابـوس في مطلـع أغسـطس، كانـت ترقـد في جـوفَ قـبرٍ مفتـوحٍ، غـير قـادرة عـلى الحركـة. هطَـلَ المطـرُ مـن سـماءٍ بيضـاء عـلى وجههـا المرفـوع، ثـم وقـف تـوني مـن فوقهـا، مرتديًـا خـوذة الأمـان الصَّفـراء الخاصَّـة بمواقـع البنـاء.

قال وهو ينظر إليها بنظرة موحيَةٍ: "تَزوَّجيني يا ليز، تزوَّجيني وإلَّا...".

حاوَلَـت أن تتحـدَّث، أن توافـق، سـتفعل أيَّ شيء مقابـل إخراجهـا مـن هـذه الحفـرة الموحِلَـة البَشِـعَة، لكنهـا كانـت مشـلولة.

قال: "حسنًا، إذن فهي "وإلَّا"...".

راح بعيدًا. حاوَلَت أن تَنعَتِقَ من شَلَلِها، ولم تفلح.

ثم سَمِعت صوت الجرَّافة.

رأتهـا بعدهـا بلحظـة، وحـش أصفـر ضخـم، يدفـع أَكَمـةً مـن الأرض المبتلَّـة أمـام شـفرة الجـرَّار. دنـا تـوني بوجهـه عديـم الشـفقة مـن الحُجَـيرة المفتوحـة.

سيدفنها حيَّةً.

كل مـا اسـتطاعت إليـه سـبيلًا مـن داخـل جسـدها السـاكن والأخـرس- أن تراقـب في رُعـبٍ أبكـم. بـدأت قطـراتُ الـتراب في التقاطُـر إلى جوانـب الحفـرة. صرخ صـوتٌ مألـوف: "اذهـب! دَعْهـا وشـأنها الآن! اذهـب!".

سقط توني عن الجرَّافة وركض.

اجتاحها ارتياحٌ عظيم، كانت ستبكي لو كان بمقدورها. وها قد ظهر مُنقِذُها، واقفًا عند سفح المقبرة المفتوحة مثل قندلفت الكنيسة[1]، كان إد هامنر بعينه، غائِصًا في معطفه العَسكريِّ الأخضر، مع شَعرِهِ غير المَمَشَّط، ونظارته من قرون الحيوانات التي انزلقت نحوَ النُّتوء الصغير عند أرنبَةِ أنفه، مدَّ يده إليها.

قال بِرِقَّةٍ: "انهضي، أعرف ما تريدين، انهضي يا بِث".

واستطاعت النهوض، وتنهَّدَت من الارتياح. حاولت أن تشكره، وانسكبت كلماتها فوق بعضها البعض. اكتفى إد بالابتسام وأومأ برأسه. أخَذَت يده وأخفضت نظرها لترى موضِعَ قدميها، وحين نظرت ثانيةً للأعلى، كانت مُمسِكةً بكَفٍّ ضخمةٍ لذِئبٍ من الغابات يسيل لُعابُه، له عينان حمراوان حُمرَةَ المصابيح الزَّيتيَّة، وأسنان سميكة وشائكة ومتأهِّبة للعَضِّ.

استيقَظَت وجلست مستقيمةَ الظَّهر في الفِراش، وتشبَّعَت ثياب النَّومِ بالعَرَق. ارتعش جسدها دون مقدِرَةٍ على السيطرة عليه، وحتى بعد حمَّامٍ دافئ وكوب من الحليب، لم تفلح في مصالحة ذاتها مع الظلام. نامت والمصباح مُضاء.

بعدها بأسبوع، توني مات.

فتَحَت الباب وهي مُرتَدِيَة روبها، متوقِّعةً أن ترى توني، لكنه كان داني كلمر، أحد رفاق العمل. كان داني شابًّا مَرِحًا، خرجت بصُحبَة توني لملاقاته وفتاته بِضعةَ مَرَّات، لكنه في وقفته عند مدخل شقَّتها في الدور الثاني لم يَبدُ جادًّا فقط، وإنما مُعتلًّا.

قالت: "توني؟ ما الذي...".

(1) وظيفة كنسية، مهمة شاغلها الرئيسة صيانة مباني الكنيسة ورعاية المقابر (المترجم)

قال: "ليز، ليز، عليكِ أن تتماسكي، أنتِ.. آه يا ربي!"، خبط دُعامة الباب بِيَدٍ مُتَّسِخَة وضخمة المفاصل، ورأت أنه كان يبكي.

"داني، أهذا بخصوص توني؟ أيوجد خطبٌ ما...؟".

"توني مات"، هكذا قال داني، "كان..."، لكنه تحدَّث هباء، فقد أُغمي عليها.

مرَّ الأسبوع التالي مثل الحلم، تجمَّعَت شظايا القصة من القصة الصحافية الوجيزة بطريقة مُحزِنَة، ومِمَّا أخبره بها داني خلال شُرب البيرة في نُزُل هاربور.

كانا يُصلِحان الأنابيب المسَرِّبة في الطريق رقم 16، ويوجد جزءٌ غير مُمهَّد من الطريق، وتوني كان يشير للسيارات المارَّة. نزل الهضبة فتًى يقود سيَّارة فيات حمراء، وأشار له توني، لكن الفتى لم يُبطِئْ سيرَه أصلًا. توني كان واقفًا جوار شاحنة تفريغ، ودون مُتَّسَع للعودة إلى الخلف، ومُنِيَ فَتى الفِيات بجروحٍ في الرأس وذراع مكسورة، كان هستيريًّا وفي الوقت ذاته يَقِظًا تمامًا. اكتشفت الشرطة وجودَ بضعة ثقوب في أنابيب الفرامل، كأنها تعرَّضَت لسخونة مُفرِطَة ثم ذابت، كان سِجِلُّه في القيادة نظيفًا، وهو لم يستطع ببساطة إيقافَ سيارته، ومن هنا بات توني ضحيَّةً لأندر أنواع الحوادث المرورية: حادثة بريئة.

تزايَدَت صَدمَتُها وكآبتها بفعل الإحساس بالذنب. انتزعت الأقدارُ من يديها قرارها عمَّا ستفعل مع توني، وشعر جزءٌ مَريضٌ وسِرِّيٌّ في داخلها بالامتنان لأجل هذا؛ لأنها لم ترِد أن تتزوَّج توني، وذلك منذ ليلة كابوسها.

انهارت في اليوم السابق على عودتها إلى المنزل.

برزت للعَيان في جِلسَتِها على صخرة، وبعد ساعة أو نحو ذلك حلَّت الدموع، وفوجئت بضراوتها، بكَت حتى آلمتها مَعِدتُها وأوجعها رأسها، وحين وَلَّت الدموع لم تشعر بتحسُّنٍ، لكنها على الأقل مُستَنفَدَة وخاوية.

وجرى ذلك حين قال إد هامنر: "بِث؟".

شعرت بالخداع، امتلأ فمها بالمذاق النُّحاسيِّ للخوف، شبه متوقِّعة أن ترى الذِّئبَ المُزَمجِر من كابوسها، لكنه كان إد هامنر فحسب، يبدو محترقًا من الشمس، ودون حماية على نحوٍ غريب من غير ارتدائه لمعطفه العسكري وبنطاله الجينز الأزرق، كان يرتدي سراويل قصيرة توقَّفَت فحسب عند رُكبَتَيْه العظميَّتين، وتي شيرت أبيض مُتلاطِمًا على صدره النحيف مثل شراع طليقٍ عبر نسيم المحيط، وصندلًا مطَّاطيًا. لم يكن مبتسمًا، وحالت الشمس الضارية المنعكسة على نظارته دون رؤية عينيه.

قالت في تَردُّد: "إد؟"، وهي شبه مقتنعة أن هذه محض هَلوَسَة ناجِمَة عن الحزن. "أهذا حقًا...؟".

"نعم، هذا أنا".

"كيف؟".

"كنتُ أعمل في مسرح ليكوود في بلدة سكوهيجان. هرعت إلى رفيقتك في السكن.. آليس، هل هذا اسمها؟".

"نعم".

"أخبَرَتني بما حدث، فجِئتُ على الفور، مسكينة يا بِث".

حرَّك رأسه، بمقدار درجةٍ فقط أو ما شابه، لكن سطوع الشمس انزاح عن نظارته، ولم تَرَ أيَّ ملامح ذئبية، ولا شيء مفترس، وإنما مجرَّد تعاطُفٍ هادئ دافئ.

بـدأت في الانتحـاب ثانيـة، وترنَّحَـت قليـلًا أمـام قُوَّتـه غـير المُتَوقَّعـة. ثـم أمسـك بهـا وبـات كلُّ شيء عـلى مـا يـرام.

تنـاوَلَا العشـاء في مطعـم "ذا سـايلنت وومـن" في ووترفـل، والـذي كان يبعـد خمسـةً وعشريـن ميـلًا، ربمـا نفـس المسـافة التـي احتاجتهـا بالضبـط. اتَّجَهـا إلى سـيارة إد، سـيارة كورفيـت جديـدة، وقادهـا جيِّـدًا حسـب حَدسِـها عنـه، دون إبطـاءٍ ودون تَعجُّـل. لم ترغـب في التحـدُّث ولم ترغـب في الابتهـاج. بـدا أنـه يـدرك ذلـك، وشـغَّل موسـيقى هادئـة عـلى المذيـاع.

وطلـب -دون استشـارتها- مأكـولاتٍ بحريَّـةً. ظنَّـت أنهـا غـير جائعـة، ولكـن حـين وصـل الطعـام انهالـت عليـه بشراهـة.

وحـين رفعـت رأسـها ثانيـة، بـات الطبـق فارغًـا، وضحكَـت بعصبيَّـة. كان إد يُدخِّـن سـيجارة ويراقبهـا.

قالـت: "الشَّـابَّة الحزينـة تناوَلَـت وليمـةً عامـرة، حتـمًا تظـنُّ أني فظيعـة".

قـال: "لا، فقـد مَـرَرتِ بالكثـير وتحتاجـين إلى اسـتعادة قوَّتِـك، كأنـك كنـتِ مريضـة، أليـس كذلـك؟".

"نعم، إنه حقًّا كذلك".

أمسك يديها عبر الطاولة، ضاغطًا عليها لوقتٍ وَجيز، ثم تركها.

"ولكن الآن أوان التعافي يا بِث".

"فعلًا؟ أهو كذلك حقًّا؟".

قال: "نعم؛ لذا أخبريني، ما هي خُطَطُكِ؟".

"سأعود إلى مسقط رأسي غدًا، وبعدها لا أعرف".

"ستعودين إلى الكُلِّيَّة، أليس كذلك؟".

"لا أعلم فحسب، فبعد هذا، يبدو الأمر في غاية... غاية التفاهة، وراح معه الكثير من مغزاه، وكل ما فيه من مُتعَة".

"سيعود، يصعب عليكِ أن تُصدِّقي الآن، لكن هذا حقيقيٌّ، جَرِّبي لمدة ستة أسابيع وسترين. ليس لديكِ شيء أفضل تؤدِّينه"، وبدت الجملة الأخيرة سؤالًا.

"هذا صحيح، حسبما أظنُّ، والآن أيمكنني الحصول على سيجارة؟".

"طبعًا، ولكنها بنكهة المنثول، آسف".

أخذت سيجارة.

"كيف عرفت أني لا أحب سجائر المنثول؟".

هزَّ كتفيه، "تبدين فحسب أنَّكِ لَستِ من مُحِبِّيها، حسبما أظنُّ".

ابتسَمَت، "أنتَ ظريف، أتعلم ذلك؟".

ابتسم ابتسامةً مُحايِدَة.

"لا، حقًّا، لأنَّكَ من بين سائر الأشخاص الذين ظهروا... كنتُ أظنُّ أني لا أريد رؤية أحد، لكني ممتنَّةٌ حقًّا أنَّكَ كُنتَ هذا الشخص يا إد".

"شيء طيب أحيانًا أن تتواجد مع شخص لا تُغرَم به".

"بالضبط، هكذا أظنُّ". توقَّفَت عن الحديث. "مَن أنتَ يا إد بجانب كونِكَ أبي الرُّوحي السحري؟ مَن أنت حقًّا؟". اهتمَّت فجأة أن تعرف.

هزَّ كتفيه: "لا أحد ذو شأن، مجرَّد فتى من الفتية غريبي المظهر الذين ترينهم يتسكَّعون في أرجاء الحرم الجامعي مع حمولة من الكتب تحت ذراع واحدة".

"إد، أنتَ لست غريبَ المظهر".

قال وابتسم: "أنا كذلك طبعًا، لم أتعافَ أبدًا من حَبِّ الشباب في فترة الدراسة الثانوية، ولم تَسعَ ورائي أيُّ جماعة طلابية، ولم أصنع أيَّ إثارة في دائرتي الاجتماعية، بل كنتُ مُجرَّدَ فأر منزليٍّ يحصد الدرجات الدراسية. هذا كل شيء. حين تُجري الشركاتُ الكبرى مقابلاتِ عَمَلٍ في الحرم الجامعي في الربيع القادم، سأتعاقد مع إحداها على الأرجح، وسيختفي إد هامنر إلى الأبد".

قالت برقَّةٍ: "سيُشكِّل هذا مصدر حُزنٍ عظيم". ابتسم، وكانت ابتسامةً غريبة، مريرة بعض الشيء.

سألت: "وماذا عن رفاقك؟ أين تسكن؟ ماذا تحب أن تفعل...".

"في وقت آخر". هكذا قال. "يجب أن أعود، أمامك رحلة طويلة بالطائرة غدًا، والكثير من المتاعب".

جعَلَتها الأمسية في حالة استرخاء للمرَّة الأولى منذ وفاة توني، بدون ذلك الإحساس بتعرَّض الدَّافِعُ المُحفِّز لجرحٍ تلو الجُرح وصولًا إلى نقطة الانهيار، ظنَّت أن النوم سيأتي بسهولة، وهذا لم يحدث.

ألحَّت عليها أسئلة صغيرة.

آليس أخبرتني، مسكينة يا بِث.

لكن آليس كانت تقضي الصيف في بلدة كيتري، على بُعد ثمانية أميال من بلدة سكوهيجان. حتمًا كانت في ليكوود من أجل حضور مسرحية.

سيارة الكورفيت، طراز هذا العام، باهِظَة الثمن، لن يتكفَّل عَمَلُه في كواليس مسرح ليكوود بثمنها، هل كان والداه ثريَّيْن؟

طلب من الطعام ما كانت ستطلبه لنفسها، ربما كانت الأكلةَ الوحيدة في قائِمَة الطعام التي كانت ستأكل منها ما يكفي حتى تكتشف أنها كانت جائعة.

سجائر المنثول، وطريقة تقبيله، متمنِّيًا لها ليلةً سعيدة، بالضَّبط كيفما أرادت أن تُقبَّل، بالإضافة إلى: "أمامك رحلة طويلة بالطائرة غدًا".

كان يعرف أنها ستعود إلى مَوطِنها لأنَّها أخبرته، لكن كيف عرف أنها ستسافر بالطائرة؟ أو أنها ستكون رحلةً طويلةً؟

أزعَجَها الأمر، أزعجها لأنها كانت على وشك الوقوع في حُبِّ إد هامنر.

أعرف ما تريدين.

جاءت كلمات ترحيبه بها مثل صوتِ قُبطان الغَوَّاصة وهو يسبر أغوار المياه، فغرَقَت بعدها في النوم.

لم يأتِ إلى مطار أوجستا الصغير كي يُودِّعَها، وفي أثناء انتظارها للطائرة، ذُهِلَت من خيبة أملها، فكَّرَت بهدوءٍ في كيفيَّة ازدياد اعتمادك على شخصٍ ما، تقريبًا مثل المُدمِن المداوم، حيث يخدع مُدمِنُ المخدِّرات نفسه أنه يمكنه تناوُل تلك المادَّة المُخَدِّرة أو يتخلَّى عنها طواعية، بينما في الحقيقة... "إليزابيث روجان، برجاء الرَّدِّ على المكالمة على الهاتف الأبيض". هكذا أعلن نداءُ الرُّكَّاب.

هرعَت إليه، وكان صوت إد: "بِث؟"...

"إد، كم جميل أن أسمع صوتك، ظنَنتُ أنَّك...".

"سأُقابِلُكِ؟". ضحك. "لستِ في حاجة إليَّ في هذا، أنتِ فتاة ناضجة وقويَّة، وجميلة أيضًا، يُمكِنُكِ التَّعامُل مع هذا، هل سأراكِ في الكُلِّيَّة؟".

"آآ... نعم، أظنُّ ذلك".

"جيِّد". حانت لحظة صمت، ثم قال: "لأنِّي أُحبُّكِ. أحبُّكِ منذ رَأيتُكِ أوَّل مَرَّة".

انعقد لسانها، لم تستطع التَّحدُّث، طافت ألفُ فكرة في رأسها.

ضحك ثانية، بِرِقّة. "لا، لا تقولي شيئًا، ليس الآن، سألتقيكِ، عندئذ سيكون لدينا الوقت، كل وقت العالم، رحلة سعيدة يا بِث، إلى اللقاء".

وذهب، تاركًا إيّاها مع هاتفٍ أبيض في يدها، ومع فوضى أفكارها وأسئلتها.

سبتمبر.

استعادت إليزابيث النظام القديم للكلية والفصول الدراسية، مثل امرأة قوطِعَت في أثناء الحياكة. تشارَكَت السكن مع آليس ثانية، بالطبع. كانتا شريكتَيْن في السكن منذ السنة الأولى، حينما ألقى بهما معًا حاسوبُ قِسم تَسكين الطُّلّاب، كانتا دومًا على وفاق، رغم اختلاف الاهتمامات والطبائع. آليس هي المواظبة في الدراسة، متخصِّصة في الكيمياء مع مجموعٍ تراكُميٍّ 3.6. إليزابيث أكثر اجتماعية وأقلُّ اطِّلاعًا على الكتب، مع تَخصُّص بالمناصفة بين علم التربية والرياضيات.

ما زالتا على وفاق، ولكن يبدو أن ثمَّةَ برودةً طفيفة نَمَت بينهما على مدار الصيف، عَزَت إليزابيث ذلك إلى الاختلاف في الرأي حول الاختبار النهائي في علم الاجتماع، ولم تذكر الأمر.

بدأت أحداث الصيف تبدو مثل الحُلم. بدا لها بطريقة غريبة أحيانًا أنه ربما كان توني وَلَدًا تعرفه من المدرسة الثانوية، ما زال من المؤلم التفكير فيه، وتجنَّبَت فتح الموضوع مع آليس. كان الألَمُ يَنبض من جُرحٍ قديم، وليس ألمًا حيًّا من جرح مفتوح.

أكثر ما آلمها تقصير إد هامنر في الاتِّصال.

مرَّ أسبوع، واثنان، ثم حَلَّ شهر أكتوبر. وصلت للسِّجلِّ الطُّلّابي من خلال الاتحاد وفتَّشَت عن اسمه. لم يُسعِفها في شيء، حيث تلا اسمه فقط كَلِمَتا "شارع ميل"، وكان ميل شارعًا طويلًا جدًّا بالفعل؛ لذا انتظرت، وحين عُرِضَ عليها الخروج في مواعيد غرامية، وهو أمرٌ

دائـم الحـدوث، كانـت تـردُّ بالرفـض. اسـتغربت آليـس لكنهـا لم تَقُـل شـيئًا، حيث دُفِنَـت حيَّـةً في دراسـة الكيميـاء الحيويـة لمدة سـت أسـابيع، وقضـت معظـم أمسـياتها في المكتبـة. لاحظـت إليزابيـث الأظـرُفَ البيضـاء الطويلـة التـي تتلقَّاهـا شريكتهـا في السَّـكَن مـرَّةً أو مرَّتَـيْن أسـبوعيًا في البريـد، بمـا أنهـا في العـادة أوَّل مَـن تعـود مـن المحـاضرة، لكنهـا لم تَظُـنَّ أي شيء بخصوصهـا. كانـت وكالـة التحقيقـات السريـة مُتكتِّمَـة، ولم تنسـخ عنـوان المُرسِـل عـلى أظرفهـا.

حـين دَقَّ جهـاز التواصـل الداخـلي، كانـت آليـس تسـتذكر. "رُدِّي عليـه أنـتِ يـا ليـز، فربمـا يكـون مـن أجلـك".

اتَّجهَت إليزابيث إلى جهاز التواصُل الداخلي: "نعم؟".

"رَجُلٌ يَدقُّ الباب يا ليز".

يا إلهي.

سـألت: "مَـن يكـون؟"، ومَـرَّت عـبر أكـوام الحجَـج الخائبـة: صُـداعٌ نِصفـيٌّ، لم تلجـأ إلى هـذه الحُجَّـة في هـذا الأسـبوع.

قالـت فتـاة المكتـب مبتهجـة: "اسـمه إدوارد چاكسـون هامـر، چونيور. فقـط". وأخفضـت صوتهـا قائلـة: "جَوْرَبـاه غـير متطابِقَيْن".

طـارت يـد إليزابيـث نحـو ياقـة روبهـا: "يـا إلهـي، أخبريـه أني سـأنزل في الحـال، لا، أخبريـه أني سـأنزل بعـد دقيقـة، لا، بضـع دقائـق، حسـنًا؟".

قال الصوت مُتشكِّكًا: "أكيد، ولكن لا تنزفي".

أخرجـت إليزابيـث بنطـال مـن دولابهـا، وسـحبت تنُّـورةً قصـيرة مـن الدَّينـم. شـعرت بالبَكَـرات في شَـعرِها وتَذمَّـرَت، وانتزعتهـا.

راقَبَـت آليـس كلَّ هـذا في هـدوء، دون كلام، لكنهـا تطلَّعَـت إلى البـاب مُتَفرِّسَـةً فيـه لوقـت طويـل بعـد مغـادرة إليزابيـث.

كان عـلى حالـه، لم يتغـيَّر البتَّـة. كان يرتـدي معطفـه العسـكريَّ الأخـضر، ومـا زال يبـدو أكـبرَ عليـه بمقاسَـيْن عـلى الأقـل. صَلَّـح أحـد إطـارَيْ النَّظَّـارة المصنوعـة مـن قـرون الحيوانـات بشريـطٍ لاصـق للأسـلاك. بـدا بنطالـه الجينـز جديـدًا وخَشِـنًا، مختلفًـا تمـام الاختـلاف عـن الطَّلَّـة الرقيقـة الشـاحبة التـي ظهـر بهـا تـوني دون عنـاء. كان يرتـدي جوربًـا أخـضر، وجوربًـا بُنِّيًّـا.

وأدركت أنها أحبَّته.

سألت وهي مُتوجِّهَة إليه: "لماذا لم تَتَّصِل من قبل؟".

حـشر يديـه في جيبَـيْ معطفـه وابتسـم في خجـل. "فَكَّـرتُ أن أَمنَحَـكِ بعـض الوقـت للخـروج في مواعيـد غراميـة، وتُقابِـلي بعـض الفتيـة، وتعـرفي مـا تريديـن".

"أظنُّ أني أعرف".

"جميل، أتَودِّين الذهاب لمشاهدة فيلم؟".

قالت: "أي شيء، أي شيء في العموم".

مـع مـرور الأيـام، خطـر لهـا أنهـا لم تتعـرَّف قَـطُّ عـلى أحـدٍ -سـواء ذكَرًا أم أنثـى- بـدا أنـه يسـتَوعِبُ حالاتهـا المزاجيـة واحتياجاتهـا بهـذا الكـمال أو بهـذا الهـدوء. تلاقـت أذواقهـما، فبينـما اسـتمتع تـوني بأفـلام عنيفـة مـن عيِّنَـة فيلـم "الأب الروحـي"- بـدا إد مُحِبًّـا أكـثر للأفـلام الكوميديـة أو الدراميـات غـير العنيفـة. اصطحبهـا ذات ليلـة إلى السـيرك حـين أحسَّـت بالكآبـة، وأمضيـا وقتًـا سـعيدًا وشـديد المـرح. كانـت مواعـدات الاسـتذكار بمثابـة مواعـدات اسـتذكار عـلى حَـقٍّ، وليسـت مُجـرَّد حُجَّـة لتَلمُّـس الطريـق إلى الـدور الثالـث في الاتحـاد. اصطحبهـا إلى الرَّقصـات، وبـدت جيِّـدةً، عـلى الأخـصِّ في الرقصـات الكلاسـيكية التـي أحبَّتهـا. فـازا بـكأس جولـة الخمسـينيات بفضـل رقصـة نوسـتالجيا العـودة إلى الوطـن.

الأكثر من ذلك، بدا أنه يدرك وقت احتياجها إلى العاطفة، لم يُجبِرها أو يُلِحَّ عليها، لم تَشعُر قَطُّ بذلك الشعور الذي أحسَّته مع بعض الفتية الآخرين الذين خرَجَت معهم، والذي مفاده وجود جدول زمني حَدسيٍّ للجِنسِ، بداية من قُبلَة التَّمنيِّ بليلة سعيدة في الموعد الغرامي الأول، وانتهاءً بليلَةٍ في شَقَّةٍ مُستعارَة من صديقٍ ما بحلول الموعد العاشر. كانت شقَّة شارع ميل تابعة حصرًا لإد، تقع في الدور الثالث. تَوَجَّها إلى هناك على الدوام، وتوجَّهَت إليزابيث دون الإحساس بمسيرها نحو مخدَعٍ دون چوان الصغير. لم يضغط عليها. بدا بأمانَةٍ أنه يريد ما كانت تريده حين تريده، وتطوَّرَت الأمور.

حين عادت الدراسة في الكُلِّيَّة بعد عطلة الفصل الدراسي، بدت آليس مُنشَغِلَةً بشكل غريب. فتَّشَت عنها إليزابيث عدَّةَ مَرَّات بعد الظهيرة قبل مجيء إد لاصطحابها، حيث كانا ذاهبَيْن لتناول العشاء، ووجدت شريكتها في السَّكَن عابِسَةً على مرأى ملفٍّ ضَخمٍ على مكتبها. كادت إليزابيث أن تسألها ذات مَرَّة، لكنها عَدَلَت عن هذا القرار. ربما مشروع جديد.

كان الجليد يهطلُ بِشدَّة حين عاد بها إد إلى مسكنها.

سألها: "غدًا؟ في مسكني؟".

"بالتأكيد، سأعدُّ بعض الفشار".

قال: "عظيم"، ثم قَبَّلها، "أُحِبُّكِ يا بِث".

"وأنا أيضًا أحِبُّكَ".

سأل إد بنبرةٍ ساكنة: "أَتودِّين المبيتَ؟ مساءَ غَدٍ؟".

"حسنًا يا إد". تطلَّع إلى عينيها. "أيًّا كان ما تريده".

قال بوَداعَةٍ: "جميل، نامي جيِّدًا يا طفلتي".

"وأنتَ أيضًا".

توقَّعَت أن تَجِدَ آليس نائِمةً، ودَخَلَت الغرفة بهدوء، لكن آليس كانت مستَيقِظَةً وجالِسَةً قُبالَةَ مَكتَبِها.

"آليس، هل أنتِ بخير؟".

"ينبغي أن أتحدَّث معكِ يا ليز، بخصوص إد".

"ماذا عنه؟".

قالت آليس بحرص: "أَظُنُّ أنه حين أفرغ من الحديث معكِ، لن نصير صديقَتَيْن بعد الآن، وهذا بالنسبة لي خسارة كبيرة؛ لذا أريدكِ أن تسمعيني جيدًا".

"إذن فمن الأفضل ألَّا تقولي شيئًا".

"عليَّ المحاوَلَة".

شعرَت إليزابيث أن فضولها الأوَّليَّ أثار نيران الغضب. "هل كنتِ تحومين حول إد؟".

اكتفت آليس بالنظر إليها.

"هل شعرتِ بالغيرة منَّا؟".

"لا، لو كنتُ غيورةً منكِ ومن مواعيدك الغرامية، لانتقلت إلى مَسكَنٍ آخر منذ عامَيْن".

نظَرَت إليزابيث إليها، مُرتَبِكَة. أدرَكَت صِدقَ ما قالته آليس، وشعرت فجأة بالخوف.

قالت آليس: "أمران جعلاني أتساءل بخصوص إد هامنر، أولهما: حين كتبتِ إليَّ عن موت توني وقلتِ إنِّي محظوظةٌ حين رأيتُ إد في مسرح ليكوود، وكيف جاء مباشرة إلى بوثباي وأعانَكِ حَقَّ العَون، لكني لم أَرَه قَطُّ، لم أكن على مقربة من مسرح ليكوود في الصيف الماضي".

"ولكن...".

"ولكن كيف عرف بموت توني؟ ليس لديَّ فكرة. أعرف فقط أنه لم يعرف المعلومة منِّي، والأمر الآخر مسألة الذاكرة التصويريَّة، يا إلهي يا ليز، إنه حتى لا يتذكَّر أي جوارب يرتديها!".

عانَدَت ليز: "هذا شيء مختلف تمامًا، إنه...".

قالت آليس بهدوء: "إد هامنر كان في لاس ڤيجاس الصيف الماضي، وعاد في منتصف يوليو وحجز غرفةً في موتيل في بيماكويد، من ناحية طريق ميناء بوثباي، كأنه كان في انتظار احتياجكِ إليه".

"هذا جنون! وما أدراكِ أن إد كان في لاس ڤيجاس؟".

"سارَعتُ إلى شيرلي دي أنطونيو قبل بداية الكُلِّيَّة، فقد عمَلَت في مطعم باينز الواقع ناحية المسرح. قالت إنها لم تَرَ أحدًا قَطُّ على شاكلة إد هامنر؛ لذا أدرَكتُ أنه كذب عليك حول بضعة أشياء؛ ولذا تَوجَّهتُ إلى أبي وشَرَحتُ له المسألة ومنحني الموافقة".

سألت إليزابيث مذهولةً: "على ماذا؟".

"أن أستعين بوكالة تحقيقات خاصَّة".

وقَفَت إليزابيث على قدميها: "في هذا الكفاية يا آليس، لا تزيدي"، كانت ستلحق بالباص مُتَّجِهةً إلى البلدة، وتقضي الليلة في شقَّة إد، كانت أصلًا تنتظره فقط كي يطلب منها.

"اعرفي على الأقل، والقرار قراركِ".

"ليس عليَّ معرفة أي شيء ماعدا كونه طيِّبًا وصالِحًا و...".

قالت آليس: "الحُبُّ أعمى، صح؟"، وابتسَمَت بمرارَةٍ. "حسنًا، رُبَّما تَصادَفَ أنِّي أحِبُّكِ قليلًا يا ليز، هل فكَّرتِ في هذا؟".

استدارت إليزابيث ونظرت إليها لبرهة، وقالت: "إذا كنتِ تحبينني، فلديك طريقة غريبة في إظهار ذلك، أكملي كلامك إذن، ربما أنتِ على حقٍّ. ربما أدين لكِ بالكثير أيَّتها الحمقاء".

قالت آليس بهدوء: "أنتِ تعرفينه منذُ زَمَنٍ طويل".

"أنا! ماذا؟".

"م.ح. 119[1]، في بريدجبورت بولاية كونتيكيت".

صُعِقَت إليزابيث من الصدمة، فقد عاشت مع والديها في بريدجبورت لمدَّة سِتٍّ سنوات، وانتقلوا إلى موطنهم الحالي بعد إتمامها الصَّفَّ الثاني بعام واحد، ودرست في م.ح. 119، ولكن...

"آليس، هل أنتِ مُتأكِّدَة؟".

"هل تتذكَّرينه؟".

"لا، بالطبع لا!". لكنها تَذَكَّرَت الإحساس الذي راودها أوَّلَ مَرَّة رأت فيها إد، إحساس الديجا ڤو.

"أظنُّ أن الجميلات لا يَتذكَّرن القِباحَ. ربما كان مُعجَبًا بكِ، كنتِ معه في الصَّفِّ الأول يا ليز، ربما كان يجلس في خلفيَّة الفصل، مكتفيًا بالمراقبة، أو في ملعب المدرسة. مجرَّد طفل نَكِرَة صغير كان يرتدي نظارات، وربما يضع تقويمًا للأسنان، ولا تستطيعين أصلًا أن تتذكَّريه، لكني سأراهن أنَّه يتذكَّركِ".

قالت إليزابيث: "وماذا أيضًا؟".

(1) اختصارًا لكلمتي (مدرسة حكومية) مثلما وردت في الأصل، حيث من المعتاد الإشارة إلى المدارس الابتدائية الحكومية في الولايات المتحدة الأمريكية بهذا الاختصار مشفوعًا برقم المدرسة (المترجم)

"تَعَقَّبَتـه الوكالـة مـن بصـمات أصابعـه مـن المدرسـة، بعـد ذلـك اقتَـصَرَت المسـألة عـلى إيجـاد أشـخاصٍ للحديـث معهـم. قـال العميـل الـذي تـولَّى القضيـة إنـه لم يفهـم بعضًـا مـمَّا وَصَـلَ إليـه، ولا أنـا أيضًـا. بعـض هـذه الأمـور مُخيفَـة".

قالت إليزابيث وهي تزمُّ شَفَتَيْها: "يُفضَّل أن تكون كذلك".

"كان إد هامـر الأب مُدمِنًـا للقـمار، عمـل في وكالـة إعـلان رفيعـة المسـتوى في نيويـورك، ثـم انتقـل إلى بريدجبـورت فيـما يُشـبِه الهـروب. يقـول العميـل إنـه تقريبًـا لا توجـد لعبـة بوكـر بأمـوالٍ طائلـة أو سِـجِلُّ مراهَنـات عاليـة القيمـة إلا وتَحمِـلُ علاماتـه".

أغمَضَـت إليزابيـث عينيهـا. "أولئـك النـاس رأوا أنَّـكِ تحملـين في جَعبَتِكِ مقـدارًا هائـلًا مـن القـذارة مقابـل مـا تدفعـين، أليـس كذلك؟".

"رُبَّمـا، عمومًـا، وقـع والـد إد في مـأزقٍ آخـر في بريدجبـورت، كان القُـمار مـرَّةً أخـرى، لكـن هـذه المـرة حسـبه أحدهـم مُقـرِضَ أمـوالٍ بـارز، وبطريقـة مـا كُسِـرَت سـاقه وذراعـه، يقـول العميـل إنـه يشـكُّ في كونـه حادِثًـا".

سألَت إليزابيث: "أهناك شيء آخر؟ ضرب للأطفال؟ اختلاس أموال؟".

"حصـل عـلى وظيفـة في وكالـة إعـلان غـير ذاتِ شـأنٍ في لـوس أنجلـوس في العـام 1961، وكان هـذا أقـربَ مـن الـلازم مـن لاس ڤيجـاس، فبـدأ يمـضي عُطـلات نهايـة الأسـبوع هنـاك، ويُفـرِط في المقامـرة، ثـم بـدأ يصطحـب إد الابـنَ معـه، وبـدأ يفـوز".

"أنتِ تختلقين كل هذا، حتمًا تختلقينه".

نقَـرَت آليـس عـلى التقريـر أمامهـا، "كُلُّ شيء مُسـجَّلٌ هنـا يـا ليـز، لا يوجـد دليـلٌ عـلى بعـض مـا ورد فيـه، لكـنَّ العميـل يقـول إنـه ليـس لـدى أحـدٍ مـن الأشـخاص الذيـن تحـدَّث معهـم سـببٌ للكـذب، أطلـق والـد إد

على إد "تميمة حَظِّه السَّعيد". في البداية، لم يعترض أحدٌ على الفتى رغم عدم قانونيَّة تواجُدِه في الكازينوهات. كان والده سَمكَةً ذهبية، لكن بعدها بدأ الأب يتمسَّك فقط بالرُّوليت، ويلعب فحسب لُعبَةَ الفردي والزوجي، ولعبة الأحمر والأسود. مع نهاية العام جاوَزَ الفتى الحدودَ في كُلِّ كازينو على طول القطاع، واحترف والِدُه ضربًا جديدًا من المقامرة".

"ما هو؟".

"سوق الأسهم، حين انتقل آل هامنر إلى لوس أنجلوس في منتصف العام 1961، حيث عاشا في "علبة جُبن" بإيجار تسعين دولارًا في الشهر، وكان السيد هامنر يقود سيارة شيڤروليه من طراز 1952. مع نهاية العام 1962، وبعد ستة عشر شهرًا فحسب، بات السيد هامنر يقود سيارة ثاندربيرد حديثة الطراز، وقادت السيد هامنر سيارة ڤولكس واجن. أترين، وجود فتى صغير في كازينوهات نيڤادا أمر ضدَّ القانون، بينما لم يَقدِر أحدٌ أن يسحب من يديه صفحة سوق الأسهم".

"هل تُلَمِّحين إلى أن إد... أنه يقدر على... أنتِ مجنونة".

"أنا لا أُلمِّح لأي شيء، إلا لو كان يعرف ما يريده أبوه".

أعرف ما تريدين.

كأنَّ الكلمات قيلت لها همسًا في أذنها، فارتجفت.

"قَضَت السيدة هامنر السنوات السِّتَّ التالية داخل وخارج مصحَّات عقلية مختلفة؛ بسبب اضطرابات عصبية كما يُقال، لكن المخبر تَحدَّث مع مُمرِّضٍ وقال إنه كان أقربَ ما يكون لاضطرابٍ ذُهانيٍّ، فقد ادَّعَت أن ابنَها تابِعٌ للشيطان، طَعَنَته بمقصٍّ في العام 1964، وحاوَلَت قتله، إنها... ليز؟ ليز، ما الخطب؟".

تَمتَمَـت قائِلـةً: "النَّدبَـة، ذهبنـا للعـوم في حـمام سـباحة الجامعـة في ليلـة مفتوحـة منـذ شـهر مـضى، لديـه نَدبَـةٌ غائِـرَة ذات نُقـرة، عـلى كتفـه.. هنـا". وَضَعَـت يدهـا فـوق ثَديِهـا الأيـسر بالضبـط، "قـال..."، وحاوَلَـت دَفقَـةٌ مـن الغثيـان أن تصعـد إلى حلقهـا، وبـات عليهـا انتظـار انحسـارها حتـى تُواصِـلَ الحديـث، "قـال إنـه وقـع عـلى سـياجٍ خَشـبيٍّ حـين كان صبيًّـا".

"هل أواصل حديثي؟".

"أكمِلي، لِمَ لا؟ ما الذي قد يُؤلِم الآن؟".

"سُرِّحَـت أُمُّـه مـن مصحَّـةٍ عَقليَّـةٍ شـديدة الفخامـة في وادي سـان خواكـين في العـام 1968. ذهـب ثلاثتهـم في عطلـة، وتوقَّفـوا عنـد منتـزه عـلى الطريـق 101. كان الفتـى يجمـع الحطـب حـين قـادت السيارة فـوق الحافَّـة عنـد المنحـدر فـوق المحيـط، وهـي وزوجهـا في السـيارة، ربمـا كانت مُحاوَلـةً منهـا لتصـدم إد بالسـيارة، كان سِـنُّه وقتئـذ 18 عامًـا تقريبًـا. خلـف لـه والـده سـندات بمليـون دولار. اتجـه إد شرقًـا بعـد عـام ونصـف، وسـجَّل اسـمه هنـا، وكانـت تلـك النهايـة".

"ألا توجد مزيد من الجماجم المُخزَّنة؟".

"ليز، أليس في هذا الكفاية؟".

قامت من مكانها.

"لا عجـب أنـه لم يَـرِد قَـطُّ ذِكـرُ سيرة أُسرَتـه، لكنَّـكِ قَـرَّرتِ النبـش عـن الجُثَّـة المدفونـة، أليـس كذلك؟".

قالـت آليـس: "أنـتِ عميـاء". ارتـدت إليزابيـث معطفهـا. "أظـنُّ أنـكِ سـتذهبين إليـه".

"طبعًا".

"لأنَّكِ تُحبِّينه".

"طبعًا".

عـبَرَت آليـس الغُرفَـةَ وشَـدَّت ذراعهـا. "ألـن تُزيـلي تلـك الملامـح المتَجهِّمَـة العدوانيـة عـن وجهـكِ لثانِيَـةٍ واحـدة كي تُفكِّـري! إد هامـنر قادِرٌ عـلى اقـتراف أمـور قـد يتخيَّلها بقيَّتُنـا فقـط. لقـد جلـب لوالـده حصَّـةً رابحـة في لعبـة الروليـت، وجعلـه ثريًّـا مـن التَّلاعُـب في سـوق الأسـهم. يبـدو أنـه قـادر عـلى الفـوز حسـب رغبتـه. ربمـا هـو وسـيطٌ روحـانيٌّ وَضيـعٌ نوعًـا مـا. ربمـا يمتلـك عِلـمَ الغيـب، لا أعـرف. ثمَّـة أشـخاص يملكـون نفحـات مـن هـذا. ليـز، ألم يخطـر في بالـك أنـه أجـبرك أن تحبِّيـه؟".

اسـتدارت ليـز إليهـا ببـطء. "لم أسـمع شـيئًا قَـطُّ بهـذه السـخافة في حيـاتي".

"أهـو سـخيفٌ حقًّـا؟ أعطـاكِ اختبـار علـم الاجتـماع بنفـس طريقـة منحـه والـده للجانـب الفائـز مـن طاولـة الروليـت! اسـمه غـير مُسجَّل في أي دورةٍ لعلـم الاجتـماع! تأكَّـدتُ مـن هـذا. لقـد فعـل ذلـك لأنهـا الطريقـة الوحيـدة التـي يُمكِنُـكِ بهـا أخـذه عـلى محمـل الجـدِّ!".

صرَخَت ليز: "توَقَّفي!"، ووضَعَت يديها على أذنيها.

"كان يعلـم بالاختبـار، ويعلـم بمقتـل تـوني، وعـرف بعودَتِـكِ إلى البلـدة بالطائـرة! بـل حتـى عـرف اللحظـة النَّفسـيَّة المؤاتيـة كي يدخـل حياتَـكِ في أكتوبـر المـاضي".

ابتَعَدَت عنها إليزابيث وفتحت الباب.

قالـت آليـس: "أرجـوكِ، أرجـوكِ يـا ليـز، اسـمعي. لا أعـرف كيفيَّـةَ قيامـه بهـذه الأشـياء، بـل أشـكُّ حتـى أنـه يعـرف عـلى وجـه التأكيـد، ربمـا لا ينـوي أذيَّتَـكِ، لكنـه آذاكِ بالفعـل، جعلـك تُحبِّينـه بمعرفـة كلِّ شـأنٍ سِرِّيٍّ تعرفينـه وتريدينـه، وليـس هـذا حبًّـا، بـل اغتصـاب".

أغلَقَت الباب بعُنفٍ وهرعت على السلالم.

لحقَت بآخر باص مُتَّجِه إلى البلدة في المساء. هطل الثلج بكثافةٍ أكثر من ذي قبل، وسار الباص مُتثاقِلًا عبر مُنحنَياتٍ بَزَغَت في الطريق مثل خنفساء عرجاء. جلست إليزابيث في الخلف، كانت واحِدةً بين ستَّة أو سبعة رُكَّاب فقط في الباص، مع ألف فكرة في رأسها.

سجائر المنثول، سوق الأوراق المالية، طريقة معرفته أن ديدي هو اسمُ التدليل لوالدتها، وَلَدٌ صغير جالس في خلفية الفصل لطلبة الصف الأول، مُصطَنِعًا نظرات الحملان أمام طفلة نشيطة وشديدة الصِّغَر على إدراك ذلك. أعرف ما تريدين.

لا لا لا، أنا أحبه!

هل تُحبُّه؟ أم كانت مُبتَهِجةً ببساطة لتواجُدِها مع شخص ما طلب على الدوام الشَّيءَ الصحيح، واصطحبها إلى الفيلم المناسب، ولم يرغب في الذهاب إلى مكانٍ ما أو القيام بشيء ما لا ترغب فيه؟ هل كان مجرَّدَ مِرآةٍ مُستَبصِرَة، تَعرضُ لها ما تريد رؤيته فقط؟ هداياه لها كانت دومًا الهدايا المناسبة. حين بردَ الجوُّ فجأة، تاقت نفسُها لمُجفِّفٍ للشَّعر، فمَن سيعطيها واحدًا؟ طبعًا إد هامنر. كان سيقول لها إنَّه رأى للتَّوِّ مُجفِّفَ شَعرٍ معروضًا بسِعرٍ مُخفَّض في متجر دايز. وكانت ستَسعَد بالطَّبع.

ليس هذا حُبًّا، بل اغتصاب.

خدَشَت الرِّياحُ وجهها حين خرجت عند منعطف شارِعَيْ ماين وميل، وأجفلت قُبالَته حين مضى الباص مع هدير هادئ صادر من مُحرِّك الديزل. ومضت الأضواء الخلفيَّة في الليل الثلجي لهُنَيهَةٍ خاطفة ثم ذَوَت.

لم تشعر قَطُّ باشتداد الوحدة هكذا في حياتها.

وقفت خارج باب منزله بعد خمس دقائق من الطَّرقِ دون ارتباك. خطَرَ لها أنه لا فِكرةَ لديها عمَّا فعله إد أو عمَّن قابل أثناء غيابها. لم يَخطُر الموضوع على بالها قَطُّ.

ربما كان يرفع سعر مُجفَّف شَعرٍ آخر في لعبة بوكر.

وقَفَت على أصابع قدميها في قرارٍ مُفاجئ، وتحسَّسَت أعلى دعامة الباب على استقامته بحثًا عن مفتاح احتياطيٍّ تعرف أنه يُبقيه هناك. تعثَّرَت أصابعها فيه، ووقع على أرضية المدخل مُصَلصِلًا.

التقطته وفتحت به القفل.

بَدَت الشَّقَّةُ مُختَلِفةً في غياب إد، مُصطَنَعَة مثل ديكور مسرحي. فتنها على الدوام أن شخصًا ما قليلًا ما يبالي بمظهره الشخصي ويمتلك سَكنًا أنيقًا وفاتِنًا هكذا، كما لو أنه تأثَّثَ من أجلها لا من أجله، لكن هذا جُنونيٌّ بالطَّبع، أليس كذلك؟

خَطَر في بالها مرَّةً أخرى، كأنها كانت أول مرة، مدى حُبِّها لذلك الكرسي الذي قعدت عليه حين استذكارهما أو مشاهدتهما للتلفاز، كان مناسبًا بالضبط مثلما كان مقعد الدُّبِّ الابن بالنسبة للفتاة جولديلوكس، لا شديد التَّصلُّب، ولا شديد الرخاوة. مضبوط، مثل كل شيء مرتبط بإد.

يوجد بابان يؤدِّيان إلى خارج الصالة، أحدهما إلى المطبخ الصغير، والآخر إلى غرفة نومه. صفَّرت الرياح في الخارج؛ ممَّا جعل البناية السكنية القديمة تُحدِث صريرًا ثم هدأت.

في غرفة النوم، حدَّقَت إلى السرير النحاسي، لم يَبدُ شديدَ التَّصلُّب ولا شديد الرخاوة، بل ملائمًا جدًّا. اصطَنَع صوتًا ماكِرَ الابتسامة قائلًا: أقرب ما يكون للمثالي، أليس كذلك؟

توجَّهَت إلى خزانة الكتب ومَرَقَت عيناها بلا هدف على العناوين. قفز عنوان إلى ناظريها وسَحَبَته:

صرعات الرقص في حقبة الخمسينيات، انفتح الكتابُ بالضبط عند نقطة الانتهاء من قراءة ثلاثة أرباعه، عند فصل يُدعَى "رقصة السترول[1]"ـ حيث أُحيطَت الكلمة بدائرة كثيفة بقلم الرصاص الأحمر الشَّحميِّ، وفي الهامش كلمة "بِث" مكتوبة بحروف كبيرة تحمل نبرة اتِّهام.

قالت لنفسها: عليَّ الذهاب الآن، ما يزال بمقدوري إنقاذ شيء ما، إذا عاد الآن، فلن أقدر على التَّطلُّع إلى وجهه ثانية، وستفوز آليس، وستحصل حقًّا على مقابِلٍ لأموالها.

لكنها لم تستطع التَّوقُّف، عَلِمَت هذا، حيث تجاوَزَت الأشياء كلَّ الحدود.

توجَّهَت إلى الخزانة، وأدارت المقبض، لكنه لم يستجب، إنه مُقفَل.

وبشيء من الأمل، وقفت على أطراف أصابعها مرة أخرى، وتحسَّسَت أعلى عتبة الباب، واستشعرت أصابِعُ يَدِها مفتاحًا، أخذته، وفي داخلها صوتٌ يقول بوضوح تام: لا تفعلي هذا. فكَّرَت في زوجة صاحب اللِّحية الزرقاء[2] وما عثرت عليه حين فتَحَت الباب الخطأ، ولكن فات الأوان تمامًا، إذا لم تواصل الآن؛ ستظلُّ تتساءل دومًا. فتحت باب الخزانة.

---

(1) اسم رقصة شهيرة ذات رتم بطئ عُرفت خلال حقبة الخمسينيات، وهي من رقصات الروك آند رول (المترجم)

(2) إشارة إلى حكاية خرافية فرنسية شهيرة، تحكي عن رجل ثري مزواج، وكل زوجاته السابقات اختفين في ظروف غامضة، فحين تزوج من جديد، اضطر ذات مرة لمغادرة البلاد، وترك مفاتيح القصر مع زوجته الجديدة، وحذرها من دخول غرفة واقعة تحت الأرض، لكنها لم تمتثل لأمره، وحين فتحت الغرفة، وجدت فيها جميع جثامين الزوجات السابقات (المترجم)

وراودها أغرب إحساس بأن هذا هو المكان الفعلي الذي اختبأ فيه إد هامنر الابن طيلة الوقت.

كانت الخزانة فوضويَّةً: كومة مختلطة من الملابس، كتب، مضرب تنس خالٍ من الخيوط، زوجان من أحذية التِّنس المتمزِّقة، اختبارات تمهيدية وتقارير دراسية قديمة محشورة بفوضويَّةٍ شديدة، عبوة مُنسَكِبَة من تَبغِ بوركام ريف للغليون. كان مِعطَفُه العسكري الأخضر مُلقًّى في أقصى رُكنٍ.

أمسَكَت أحد الكتب وألقت نظرة على العنوان: "الغُصن الذَّهبي"، وعلى كتاب آخر: "طقوس قديمة وألغاز حديثة"، وكتاب آخر: "سِحر الفودو في هاييتي"، وكتاب أخير، مُجلد بجِلدٍ قديم مُتشقِّق، والعنوان ممسوحٌ من على الجلد من فرط الاستخدام تقريبًا، تفوح منه بغموضٍ رائِحَةٌ مثل السمك العَفِن: نيكروميكون. فتحته بعشوائية، وأجفلَت، وألقته بعيدًا. ما زال العملُ المُشينُ يَلوحُ أمام ناظِرَيْها.

ولاستعادة رباطة جأشها أكثر من أي شيء آخر؛ مَدَّت يدها نحو المعطف العسكري الأخضر، دون أن تعترف لنفسها أنها قصَدَت أن تُفتِّش في جيوبه، ولكنها حينما رفعته لمحت شيئًا آخر، علبة صفيحية صغيرة.

بدافع من الفضول، أمسكته وقلَّبَته بين يديها، وهي تسمع أشياءَ تُجَلجِلُ داخله، كان من عيِّنة العُلَب الصغيرة التي قد يختارها طفلٌ صغير ليُبقي فيها غنائمه، دُمِغَت بأحرف بارزة أسفل العلبة الصفيحية كلمات "شركة بريدجبورت للحلوى". فتَحَتها.

وقَفَت الدُّميَةُ في أعلى العلبة، دمية إليزابيث.

نظَرَت إليها وبدأت ترتجف.

كانت الدُّمية ترتدي قُصاصةً من النايلون الأحمر، مزقَة من وشاحٍ فَقَدَته منذ شهرَيْن أو ثلاثة أشهر، حينما حضرت لمشاهدة فيلم مع إد. الذِّراعان مُنظِّفَتا غلايين مَكسوَّتان بمادةٍ شبيهة بالطَّحالب الزرقاء، ربما طحالب المقابر. كان يوجد شَعرٌ على رأس الدمية، لكنه غيرَ مُتلائِم معها. كان كِتَّانٌ أبيضُ ناعِمٌ مُلصَقًا على رأس الممحاة الورديّ للدُّمية. شَعرُها نفسه أشقرَ رمليَّ اللَّون وأكثر خشونة منه. أقرب ما يكون لشعرِها حين كانت فتاة صغيرة.

ابتلَعت ريقها وطَقَّ حَنَكُها، ألم تُوزع عليهم جميعًا مقصَّات في الصف الأول، مقصات صغيرة ذات شفرات مستديرة، مناسبة تمامًا ليد طفل؟ ألم يتسلَّل ذلك الولد الصغير من ورائها، ربما خلال فترة القيلولة، و... وضعت إليزابيث الدُّمية جانبًا ونظرت إلى العلبة ثانية.

كانت توجد رقاقة بوكر زرقاء ذات شكل سُداسيٍّ غريب، مرسوم عليها بالحبر الأحمر. نعي مَقصوص من الجريدة: السيد والسيدة هامنر، كلاهما يبتسم ابتسامةً خرقاء في الصورة المصاحِبَة، ورأت نفس الشكل السداسي الذي رُسِمَ على وجوههما، هذه المرَّة بالحبر الأسود، مثل الطَّلسم. دميتان إضافيتان، إحداهما مذكَّرة، والأخرى مُؤنَّثة. كان تَشابُه الوَجهَيْن في صورة النعي شنيعًا لدرجةٍ لا تُخطِئها العين.

وشيء آخر.

تلمَّسَته يدها، وارتعشت أصابعها بشدَّة حتى أوشكت أن تُوقِعَه. فرَّ منها صوت ضعيف.

كان نموذج سيَّارة، من النوعية التي يشتريها الصبية الصغار في الدِّرَجستورات ومتاجر الهوايات، جُمِع بواسطة غراء نماذج الطائرات. هذه السيارة من طراز فيات، مَطليَّة باللون الأحمر، وأُلصِقَت في المقدِّمة قُصاصة من أحد قمصان توني حسبما يبدو.

قلبت نموذج السيارة على جانبيه. شخصٌ ما حوَّل الناحية السفلية إلى شظايا.

"إذن، عَثَرتِ عليه، أيَّتُها المومس الجاحِدَة".

صرَخَت، وأوقعت السيارة والعُلبَة. تناثَرَت غَنائِمُه القَذِرَة في أرجاء الأرضية.

كان واقفًا عند المدخل، يتطلَّع إليها. لم تَرَ قَطُّ نظرةَ كَراهيَةٍ مثل هذه تعلو وجهَ بَشريٍّ.

قالت: "أنتَ قَتلتَ توني".

ابتسم ابتسامةً كريهة، "أتَظُنِّين أنكِ قادرة على إثبات ذلك؟".

قالت وهي شاعرة بالمفاجأة من ثبات نبرة صوته: "لا يَهمُّ. أنا أعرف. ولا أريد أن أراك مرَّةً أخرى. أبدًا. وإذا اقتَرَفتَ... أيَّ شيء... مع أيِّ شخص آخر، سأعرف، وسأُلقي المسؤوليَّةَ عليك. بطريقةٍ ما".

التوى وجهُه، "أهذا هو الشُّكرُ الذي أستَحِقُّه. مَنَحتُكِ كلَّ شيء رَغبتِ فيه. أشياء لم يكن سيمنحها لكِ رجُلٌ آخر. اعتَرِفي بذلك. جَعَلتُكِ شديدةَ السَّعادة".

صرخَت فيه: "أنتَ قَتلتَ توني!".

خطى خُطوةً إضافية إلى داخل الغرفة، "نعم، وفَعَلتُها من أجلك، وماذا تكونين يا بِث؟ أنتِ لا تعلمين ما هو الحُبُّ. أحبَبتُكِ منذ رأيتك أول مرة، على مدار سبعة عشر عامًا. أيَقدِرُ توني أن يقول ذلك؟ لم يكن الأمر صعبًا عليكِ. أنتِ جميلة، لم يتحتَّم عليكِ التفكير في الرغبة أو الاحتياج أو الوحدة. لا يصعب عليك إيجاد طُرُقٍ أخرى للحصول على ما تحتاجين. كان توني موجودًا على الدَّوام ليمنحك إيَّاها. كل ما كان عليكِ فعله أن تبتسمي وتقولي: من فضلك". ارتَفَعَت نبرة صوته درجة. "لم أستطع قَطُّ الحصول على ما أريده بهذه الكيفيَّة. ألا تظنِّين

أني حاوَلتُ؟ لم يفلح الأمر مع والدي. كان يريد المزيد والمزيد فحسب، بل حتى لم يكن يُقَبِّلُني ليتمنَّى لي ليلة سعيدة أو يحتضنني إلا حين أجعله ثريًّا، وكانت أمي على نفس الشاكلة، أعَدَّت زيجتها لِنصَّابها من جديد، ولكن هل كان هذا كافيًا بالنسبة لها؟ كَرِهَتني! لم تكن تقترب مني! قالت إني غيرُ طبيعيٍّ! مَنَحتُها أشياء طيِّبة، ولكن... بِث، لا تفعلي ذلك! لا.. لاااااا".

دهَسَت دُميَة إليزابيث وسحقتها، وأدارت عليه كعب حذائها. اتَّقَدَ شيءٌ داخلها في ألم، ثم اختفى. لم تَعُد خائفة منه الآن. كان مُجرَّدَ وَلدٍ صغير منكمِشًا في جسد شابٍّ، وجورباه غير متطابِقَيْن.

قالت له: "لا أظنُّ أنَّكَ قادر أن تؤذيني بشيء يا إد، ليس الآن، هل أنا مُخطِئَة؟".

أدار وجهه عنها، وقال بصوت واهن: "اذهبي، اخرجي، ولكن اتركي علبتي، افعلي هذا على الأقل".

"سأترك العلبة، ولكن محتوياتها لا".

تخَطَّته، انتفضت كتفاه، كما لو كان سيستدير ويحاول أن يَشدَّها، لكنهما ارتخَتَا.

عند نزولها إلى الدَّور الثاني، جاء إلى السلالم العُليا ونادى عليها صارخًا: "فلتذهبي إذن! لكنك لن تَهنَئِي بالًا مع أي رَجُل من بعدي! وحين يذوي جَمالُكِ ويتوقَّف الرِّجالُ عن محاولة مَنحِكِ أيَّ شيء تريدينه، ستتمنَّينني! ستُفكِّرين فيما رميتِه!".

نزلَت السلالم وخرجت إلى الثلج، كان الإحساس ببرودته على وجهها طيِّبًا. تبلغ المسافة سيرًا على الأقدام إلى الحرم الجامعي ميلَيْن، لكنها لم تُبالِ، أرادت التَّمشية، أرادت البرد، أرادت منه أن يُطهِّرَها.

شعرت حياله بالأسى بطريقة شاذَّةٍ ومُلتَوِيَة، فتى صغير يملك قوَّةً هائِلةً تَعجُّ بها رُوحٌ مُتقزِّمة، ولد صغير حاول أن يجعل البشَرَ تتصرَّف مثل دُمى الجنود، ثم دمغهم بما يتوافق مع حالَةٍ مزاجيَّة لا يكونون عليها أو يكتشفونها.

ومَن كانت؟ مباركة بكل الخصال التي لم تَكُن لها، بلا خطأ منه أو جهد منها؟ تذكَّرَت طريقة رَدِّها على آليس، مُحاوِلَةً في عَمًى وغيرةٍ أن تتمسَّك بشيء ما سَهلٍ أكثر من كونِه جيِّدًا، بلا اكتراث، بلا اكتراث.

حين يذوي جَمالُكِ ويتوقَّف الرجال عن محاولة منحك أي شيء تريدينه، ستتمنَّينني! أعرف ما تريدين!

ولكن هل كانت ضئيلةَ الشأن هكذا كي تحتاج إلى أقلِّ القليل؟

أرجوكَ، يا إلهي العزيز، لا.

توقَّفَت على الجسر بين الحرم الجامعي والبلدة، وألقت ببقايا إد هامنر السِّحريَّة من على طرف الجسر، قطعة تلو القطعة. كانت سيَّارة الفيات المدهونة باللون الأحمر هي الأخيرة، وقَعَت رأسًا على عقب عبر الثلج الهاطل حتى غاب عن أفق النظر، ثم واصَلَت السَّيرَ.

أطفالُ الذُّرة

رفـع بـيرت صـوت المذيـاع ولم يخفضـه لأنهـما كانـا عـلى شـفا حفـرة مـن جـدالٍ آخـر، ولم يُـرِد حـدوثَ هـذا، كان مسـتميتًا كي لا يحـدث هـذا.

فيكي قالت شيئًا، وصاح قائلًا: "ماذا؟".

"أخفِضْ الصَّوت، هل تريد أن تخرق طبلتي أذنيَّ؟".

أطبق فكَّيه على ما كان سيصدر من فمه، وأخفض الصوت.

كانـت فيـكي تُهـوِّي نفسـها بوشـاحها رغـم أن سـيارة التـي- بـيرد مُكيَّفَة الهواء.

"أين نحن أصلًا؟".

"نبراسكا".

نظَرَت إليه نظرةً بارِدةً مُحايِدَة.

"نعـم يـا بـيرت، أعـرف أننـا في نبراسـكا يـا بـيرت، ولكـن أيـن نحـن بحـق الجحيـم؟".

"لديكِ أطلس الطُّرق، ابحثي فيه، أم أنكِ لا تُجيدين القراءة؟".

"يـا للدهـاء! لهـذا ابتعدنـا عـن الطريـق الرئيـس، حتَّـى نُمعِـن النظـر في ثلاثمائـة ميـل مـن حقـول الـذُّرة، ونَنعَـم بحكمـة وفطنـة بـيرت روبيسـن".

أحكـم قبضتـه عـلى عجلـة القيـادة حتـى ابيَضَّـت مفاصـل يديـه، وقـرَّر أن يَشُـدَّ يديـه عليهـا، لمـاذا؟ لأنـه حـين ترتخـي يـدٌ مـن يديـه، سـتنفلت إحداهـما وتخبـط الملكـة السـابقة لحفـل التخـرُّج مبـاشرةً بضربـة قويَّـة. قـال لنفسـه: نحـن ننقـذ زواجنـا، نعـم، ننقـذه بنفـس الطريقـة بينـما تَنـدُّ مِنَّـا النَّخـرات حيـال موضـوع إنقـاذ القـرى في الحـرب.

قـال بحـرص: "فيـكي، قُـدتُ السـيارة خمسـمائة ميـلٍ في الطُّرقـات الرئيسـة منـذ غادرنـا بوسـطن، قُـدتُ طـوال الطريـق لأنـك رفضـتِ قيـادة السـيارة، ثـم...".

ردَّت فيـكي بنـبرة محمومـة: "أنـا لم أرفـض! كل مـا في الأمـر أني أصـاب بصُـداعٍ نصفـيٍّ حـين أقـود السـيارة لفـترة طويلـة...".

"إذن، حـين طلبـتُ منـكِ أن تقـودي مـن أجـلي في الطُّرقـات الفرعيـة، قلـتِ: بالتأكيـد يـا بـيرت، كانـت تلـك كلماتـك بالضبـط. بالتأكيـد يـا بـيرت، وبعدهـا...".

"أحيانًا أتساءل كيف انتهى بي المطاف بالزَّواجِ مِنكَ".

"بأن تنطقي كلمتين قصيرتين".

حدَّقَـت إليـه لهُنَيهَـةٍ، بشـفاهٍ بيضـاء، ثـم أمسـكت أطلـس الطُّـرق، وقلَّبَـت الصفحـات بفظاظـة.

فكَّـر بـيرت بكآبـة: كان مـن الخطـأ تـرك الطريـق الرئيـس، بـل ومـن العـار أيضًـا؛ لأنهـما حتـى وقتئـذ كانـا عـلى مـا يـرام، يعامـلان بعضهـما البعـض تقريبًـا مثـل بنـي البـشر. تـراءى لـه في بعـض الأوقـات أن هـذه الرحلـة إلى السـاحل كانـت سـتؤتي ثمارهـا، والتـي تهـدف في الظاهـر لزيـارة شـقيق فيـكي وزوجتـه، أمَّـا في الباطـن؛ ففرصـة أخـيرة لإصـلاح حـال زواجهـما.

ولكـن منـذ تَرْكِهـما الطريـقَ الرَّئيـس، سـاء الحـال مـرَّةً أخـرى، سـاء لأي درجـة؟ في الحقيقـة سـاء كثـيرًا.

"غادرنا الطريق الرئيس عند هامبورج، صح؟".

"صح".

"لا شيء في الأفـق وصـولًا إلى جاتلـن، عـشرون ميـلًا، مـكان بـرِّيٌّ في الطريـق، أتظـنُّ أنـه يمكننـا التوقُّـف هنـاك لنتنـاول بعـض الطعـام؟ أم أن جدولـك الزمنـي -جـلَّ شَـأنُه- يقـول إنـه ينبغـي علينـا السـير حتـى السـاعة الثانيـة مثلـما فعلنـا البارحـة؟".

أشـاح بناظريـه عـن الطريـق كي ينظـر إليهـا. "اقـترب صبري مـن النَّفـاد يـا فيـكي، وطالمـا أنـا مهمـوم بهـذا، يمكننـا أن نلتـفَّ بالسيارة مـن هنـا ونعـود إلى المنـزل، وتُقابِـلي المحامـي الـذي أردتِ الحديـث معـه؛ لأن هـذا لا يفلـح عـلى...".

وجَّهَـت نظرهـا للأمـام ثانيـة، وتجمَّـدَ تَعبـيرُ وجهها، وتحـوَّل فجـأة إلى تعبـير ذهـولٍ وخَـوف، "بـيرت احـتَرِسْ. أنـتَ ذاهِـبٌ إلى...".

وجَّـه انتباهـه مـن جديـد إلى الطريـق في الوقـت المضبـوط لـيرى شـيئًا مـا يختفـي تحـت مَصـدِّ سـيَّارة التـي- بـيرد. بعدهـا بلحظـة، وحينـما شرع لتـوِّه في التبديـل مـن دوَّاسـة البنزيـن إلى دواسـة الفرامـل، شـعر بـشيء يرتطـم بطريقـة كريهـة تحـت العجـلات الأماميـة، والخلفيـة مـن بعدهـا.

ارتَمَيَا إلى الأمام أثناء فرملة السيارة عند نقطة الارتكاز، مع انخفاض السرعة من خمسين إلى صفر على امتداد علامات الاحتكاك السوداء.

قال: "كلب، قولي لي إنه كان كلبًا".

كان وجهها شاحِبًا مثل لون جبن القَريش، "ولد، ولد صغير، ركض للتَّوِّ خارج حقلِ الذُّرة و... مبروك أيها النَّمِر!".

تلمَّسَت باب السيارة لتفتحه، وانحنت إلى الخارج، وتقيَّأت.

جلس بيرت مستقيمَ الظَّهر خلف عجلة قيادة التي- بيرد، ما زال يمسكها بيدين مرتخيتَيْن، فَقَدَ لوَقتٍ طويل إدراكه لكل شيء ما عدا الرائحة الغَنيَّة المُبهَمَة للسَّماد.

ثم اكتشف اختفاء فيكي، وحين نظر في المرآة الخارجية، رآها تتعثَّر بطريقةٍ خرقاءَ نحو رُكامٍ مُتكدِّس يبدو مثل كومة من الخِرَق البالية. كانت في العادة امرأةً متسامية، والآن ذهب السُّموُّ، بل سُلِب منها.

"قَتلُ بالخطأ"، هذا ما يطلقونه عليه، سَرَحتُ بناظريَّ عن الطريق.

أطفأ مفتاح تشغيل السيارة وخرج. حفَّت الرياح عليلةً عبر سيقان الذُّرة المتنامية بطول البَشَر، صانِعةً صوتًا غريبًا يُشبِهُ التَّنفُّس. كانت فيكي واقِفةً فوق كومة الخِرَق الآن، وسمع نحيبها.

كان في منتصف الطريق بين السيارة وموضع وقوف فيكي، وشيء ما شدَّ نظرها، بُقعَةٌ صارخة من الأحمر وسط كل الخُضرة، برَّاقة مثل دهان الحظيرة.

توقَّفَ ووجَّه نظره مباشرة نحو الذُّرة. وجد نفسه يفكر (أي شيء يُشتِّته عن متابعة تلك الخِرَق البالية التي لم تكن خِرَقًا)، إنه حتمًا موسم نَماءٍ طَيِّب للذُّرة لحَدِّ الخيال. نَمَت مُتلاصِقةً، واقترب أوان قطافها. قد تنغمس بين هذه الصفوف الظليلة المتناسقة، وتقضي يومًا كاملًا تحاول شقَّ طريقك ثانية إلى الخارج. لكنَّ التَّناسُق انسحق

هنـا، حيـث انكسـرت بضعـة سـيقان طويلـة مـن الـذُّرة واعوَجَّـت. ومـا هـذا الـذي يسـكن هنـاك في الظـلال؟

صاحـت عليـه فيـكي: "بـيرت، ألا تريـد أن تـأتي لـترى؟ حتـى تُخـبِرَ كل رفاقـك في لعـب البوكـر مـاذا اغتَنَمـتَ مـن نبراسـكا؟ ألسـت...". لكـن ضـاع باقـي الـكلام في شـهقاتٍ جديـدة. تَشـوَّش ظِلُّهـا بطريقـة صارخـة حـول قدميهـا. اقـترب الوقـت مـن الظهـيرة.

غيَّـم فوقـه الظِّـلُّ حينـما شـقَّ طريقـه في حقـل الـذُّرة. كان دهـان المزرعـة الأحمـر دمـاءً، صـدر صـوتُ طنـينٍ خفيـض نعسـان حـين بـزغ الذُّبـاب وتـذوَّقَ وطَـنَّ ثانِيـةً، ربمـا ليخـبروا الآخريـن. مزيـدٌ مـن الدمـاء عـلى الأوراق مـع الاسـتمرار في التوغُّـل، أمـن الممكـن لهـا أن تتناثـر لـكل هـذه المسـافة؟ وبعدهـا وقـف عنـد الـشيء الـذي رآه عـلى الطريـق، وأمسـك بـه.

انكسر انتظـامُ الصفـوف هنـا، مالـت بضعـة سـيقان في ثُمالَـة، انكسر اثنـان منهـما مـن جذورهـما، وانثقبـت الأرض. كانـت توجـد دمـاء. خشخَشَـت الـذُّرة. عـاد مُجـدَّدًا إلى الطريـق ببعـض الرَّجفَـة.

مـرَّت فيـكي بنوبـة هسـتيريا، صرخـت فيهـا بكلـمات غـير مفهومـة، تبـكي وتضحـك، مَـن كان يظـنُّ بانتهـاء الأمـر بطريقـة ميلودراميَّـة هكـذا؟ نظـر إليهـا، ورأى أنـه لم يَمُـرَّ بأزمـة هويَّـة، أو تحـوُّلٍ حَيـاتِيٍّ شـاقٍّ، أو أيٍّ مـن تلـك الأمـور الشـائعة، كرههـا، صفعهـا صفعـةً قويَّـةً عـلى وجههـا.

توقَّفَـت لوقـتٍ وجيـز، ومـدَّت يدهـا عـلى العلامـات المُحمـرَّة مـن أثـر أصابعـه، قالـت بنـبرة رصينـة: "سـتذهب إلى السـجن يـا بـيرت".

قـال: "لا أظـنُّ ذلـك"، ووضـع الحقيبـة التـي عـثر عليهـا بـين الـذُّرة عنـد قد ميها.

"ما..؟".

"لا أعرف، أظن أنها تخصُّه"، وأشار إلى الجُثَّة المتمدِّدة المنبسطة على الطريق والمقلوبة على وجهها، ومن مظهره، لا يتجاوز سِنُّه ثلاثة عشر عامًا.

كانت الحقيبة قديمة، بَلِيَ جِلدُها البُنِّيُّ واهترأ. التفَّت حولها لفيفتان من حبال الغسيل، مربوطتان بأنشوطتَيْن بهلوانيَّتَيْن كبيرتَيْن، مالت فيكي لتفكَّ إحداهما، ورأت الدِّماء تصبغ الأنشوطة، فتراجَعت.

جثا بيرت وأدار الجثمان برَويَّة.

قالت فيكي وهي مُحدِّقة ببؤس إلى الأسفل: "لا أريد أن أنظر"، وفي أثناء تحديقها، انقلب الوجه الأعمى ليتحرَّك ناظريها إليه، فصرخت ثانية. كان وجه الفتى قَذِرًا، وقسمات وجهه ملتويةً من الرُّعب، ورقبته مشقوقة.

وقف بيرت ووضع ذراعيه حول فيكي حينما بدأ جسدها يتأرجح، قال بهدوء بالغ: "لا تقعي من الغشية، أتسمعينني يا فيكي؟ لا تقعي من الغشية".

أعاد ما قال مرارًا وتكرارًا، وفي النهاية بدأت في التَّعافي وتمسَّكَت به. ربما كانا يتراقصان، هناك على طريقٍ سَفَعَته شمسُ الظهيرة، مع جُثَّة فتًى عند أطراف أقدامهما.

"فيكي؟".

خمد صوتها في قميصه: "ماذا؟".

"عودي إلى السيارة وضعي المفاتيح في جيبك. أخرِجي البطاطين من المقعد الخلفي، وبندقيَّتي. أحضريهم إلى هنا".

"البندقيَّة؟".

"شـخص مـا ذبحـه، ربَّمـا مَـن يراقبنـا أيًّـا كان". حرَّكَـت رأسـها لأعـلى، وراقَبَـت عيناهـا الـذُّرة. سـار المجهـول بعيـدًا عـن مرمـى البـصر، غائصًـا لأعـلى وأسـفل مـع الانخفاضـات والارتفاعـات البسـيطة لـلأرض.

"أظنُّ أنه ذَهَبَ، ولكن لِمَ المخاطرة؟ اذهبي، هيًّا".

عـادت مُتخشِّـبَةً إلى السـيارة، يتبعهـا ظِلُّهـا، تعويـذة مُظلِمَـة مُلازمـة لهـذه السـاعة مـن النهـار. حـين مالـت إلى المقعـد الخلفـي، تَقَرفَـصَ بـيرت بجـوار الفتـى، ذَكَـرٍ أَبيـضَ، لا توجـد علامـاتٌ مُميَّـزة. أي نعـم تجـاوَزَ السُّرعـة، لكـن لا يمكـن للتـي- بـيرد أن تَشُـقَّ رقبـة الفتـى. قُطِّعَت بخشـونة ودون مهـارة -لا يوجـد رقيـب في الجيـش يـشرح للقاتـل النَّقـاطَ المثلى في الاغتيـال عـن مقربـة- لكـنَّ الأثـر النهـائي مُميـتٌ. إمَّـا أنـه هـرب أو دُفـع بـه عـبر آخـر ثلاثـين قدمًـا مـن حقـل الـذُّرة، ميِّتًـا أو جريحًـا بجُـرحٍ قاتـل، وبـيرت روبيسـن خبَطَـه بالسـيارة. لـو كان الفتـى مـا يـزال حيًّـا يُـرزَقُ حـين صدمتـه السـيارة، فقـد انتهـت حياتُـه بمـرور ثلاثـين ثانيـة عـلى الأكـثر.

نقَرَت فيكي على كتفه وقفز.

كانـت تقـف ببطانيـة عسـكرية بُنِّيَّـة فـوق ذراعهـا الأيـسر، والبندقيـة الهوائيـة في حقيبتهـا في يدهـا اليمنـى. اجتنـب النظـر إلى وجههـا. أخـذ البطَّانِيَّـة وفردهـا عـلى الطريـق، وجـرَّ الجُثَّـة إليهـا. نـدَّت عـن فيـكي تَنهِـدَةٌ قصـيرة يائسـة.

رفع نظره إليها: "هل أنتِ بخير؟ فيكي؟".

قالت بصوتٍ مُختَنِق: "بخير".

ثنـى أطـراف البطانيـة فـوق الجُثَّـة، ورفعهـا في عجالـة، كارهًـا وزنهـا الثَّخـين الميِّـت. حاوَلَـت الجُثَّـة أن تُشـكِّلَ حـرف U في ذراعيـه وتنزلـق مـن مِسـكَتِه المُحكَمَـة، قبـض عليهـا بإحـكامٍ ثـم سـارَا مُجـدَّدًا إلى التـي- بـيرد.

قال وهو ينخر: "افتحي صندوق السيارة".

كان صنـدوق السـيارة مليئًـا بأغـراض السـفر؛ حقائـب وتـذكارات، نقلـت فيـكي أغلبهـا إلى المقعـد الخلفـي، وزلـق بـيرت الجُثَّـة إلى الفـراغ المصنـوع، ثـم أغلـق الصنـدوق بعنـف. أفلتـت منـه تنَهِـدَة ارتيـاح.

كانـت فيـكي تقـف بمحـاذاة بـاب السـائق، ومـا زالـت ممسـكة بالبندقيـة في حقيبتهـا.

"ضعيها فحسب في الخلف واركبي".

نظـر إلى سـاعته واكتشـف مـرور خمـس عـشرة دقيقـة فقـط، بـدت كأنهـا سـاعات.

سألَت: "وماذا عن الحقيبة؟".

هـرول عائـدًا إلى الطريـق مـن حيـث وقـف عنـد الخَـطِّ الأبيـض، كمثـل نقطـة محوريـة في لوحـة تعبيريـة. أمسـكها مـن مقبضهـا المهترئ وتوقَّـف للحظـة. راوده شـعورٌ قـويٌّ أنـه مُراقَـب، كان إحساسًـا قـرأ عنـه في الكتـب، مـن روايـات رخيصـة في الأغلـب، وشَـكَّ دومًـا في حقيقَتِـه. الآن لا يشُـكُّ، وكأن هنـاك أشـخاصًا داخـل حقـل الـذُّرة، وربمـا الكثير منهـم، يحسـب في بـرودٍ مـا إذا أمكـن للمـرأة أن تُخـرِجَ السـلاح مـن الحقيبـة وتسـتخدمه قبـل أن يتسـنَّى لهـم اختطافـه، وجَـرُّه إلى الصفـوف الظَّليلَـة، وجَـزُّ رَقَبتِـه. دَقَّ القَلـبُ بغِلظَـةٍ. عـاد راكضًـا إلى السـيارة، وسـحب المفاتيـح مـن قفـل الصنـدوق، وركـب السـيارة.

كانـت فيـكي تصيـح مجـدَّدًا، وتحـرَّك بهـم بـيرت، وقبـل مـرور دقيقـة، لم يَعُـد بعـد الآن يُميِّـز البُقعَـةَ التـي وقعـت عندهـا الواقعـة مـن خـلال مـرآة الرؤيـة الخلفيـة.

سأل: "أيُّ بلدةٍ قلتِ عنها إنها التالية؟".

مالـت عـلى أطلـس الطُـرق ثانيـة: "أوه، جاتلـن، يُفـتَرَضُ أن نصير هنـاك خـلال عـشر دقائق".

"أتبدو بلدةً كبيرة كفاية ليكون فيها مخفر للشرطة؟".

"لا، إنها مجرَّد نُقطَة".

"ربَّما يتواجد مسؤولٌ أمنيٌّ هناك".

تَحرَّكا بالسيارة في صمتٍ لفترة. تجاوَزَا صومعة على جهة اليسار. لا شيء آخر سوى الذُّرة. لا شيء يَمرُّ عليهم في الطريق للاتجاه الآخر، ولا حتى شاحنة مزرعة.

"هل صادَفنا أي شيء منذ حِدنا عن الطريق الرئيس يا فيكي؟".

فكَّرَت في الأمر، "سيارة وجرار زراعي، عند هذا التقاطُع".

"لا، أقصد منذ وصلنا إلى هذا الطريق. الطريق رقم 17".

"لا، لا أظنُّ أننا صادفنا شيئًا"، في وقتٍ أبكر، كان سيغدو ذلك مدخلًا لتلميح جارح، والآن هي تحدِّق فحسب إلى الخارج من ناحيتها من الزُّجاج الأمامي على الطريق المنبسط، والخَطِّ المُنقَّط اللانهائي.

"فيكي، أيمكنكِ أن تفتحي الحقيبة؟".

"أتظنُّ أن هذا سيصنع فارقًا؟".

"لا أعلم، ربَّما".

حين أمسكت الأربطة (ثَبتَ وَجهُها على وضعٍ غريب، خالٍ من التعبير، مع شفاهٍ مَزمومَة، تعبير يتذكَّره بيرت من وجه أمِّه حين كانت تنتزع الأحشاء من دجاج يوم الأحد)، شَغَّل بيرت المذياعَ مرة أخرى.

مع تعرُّض محطة موسيقى البوب التي كانا يستمعان إليها لبعض التشويش، غيَّر بيرت المحطَّة، مُحرِّكًا المؤشِّرَ الأحمر بتؤدة على قُرص المذياع. بك أوينز، تامي واينت، أصواتهم جميعهم بعيدة، وتشوَّشت حتى استحالت تقريبًا إلى هَذَيان. بعدها، قرب نهاية قرص المذياع،

دوَّت كلمة واحدة من السَّمَّاعة، عالية وواضحة جدًّا، لدرجة أنه يُحتمل تواجُد الشِّفاه التي نطقت بها وراء شبيكة السَّمَّاعة في لوحة القيادة بالضبط.

صاح هذا الصوت قائلًا: "الكَفَّارة!".

شخر بيرت شخرةً مفاجِئَةً، وانتفضت فيكي.

زأر الصَّوتُ قائلًا: "بدم الحَمَلِ وَحده، نحظى بالخلاص". وأخفض بيرت الصوت في عُجالة، حسنًا، هذه المحطة قريبة. شديدة القُرب لا ريب، كانت هناك، يبزغ من الذُّرة في الأفق حامِلٌ ثُلاثيٌّ عنكبوتي أحمر يقف في وجه الزُّرقة، برج المذياع.

قال لهم الصوت، راميًا إلى نبرة حوارية أكثر: "الكَفَّارة هي الكلمة يا إخوتي وأخواتي"، في الخلفية، وبعيدًا عن الميكروفون، تَمتَمَت أصواتٌ قائلة: آمين، "هناك البَعضُ مِمَّن يظنُّون أنه لا بأس من الخروج إلى العالم، كما لو كنتم ستعملون وتمشون في أرجاء العالم دون تدنيس من العالم، والآن أهذا ما تُعلِّمنا إيَّاه كَلِمةُ الرَّبِّ؟".

قال صوتٌ عالٍ رغم بُعدِه عن الميكروفون: "لا!".

صاح المُبشِّر: "يسوع المقدَّس!"، وخرجت الكلمات الآن بإيقاعٍ قَويٍّ مُتدفِّق، فيه من الفتنة ما في إيقاع الروك آند رول من حيويَّة، "متى يدركون أن الموت مآل هذا السبيل؟ متى يعرفون أنهم يَلقَون جزاءهم في العالَمِ الآخر بما آتوا في هذا العالم؟ هه؟ هه؟ قال الرَّبُّ إن في بيته منازل كثيرة، ولكن لا منزل للزَّاني، ولا مَنزِلَ للطَّامع، ولا منزل لمُدنِّسِ الذُّرة، ولا مَنزِلَ للمثليِّين، ولا مَنزِلَ...". أطفأه بيرت بغتةً.

"هذا الهراء يشعرني بالاشمئزاز".

سألها بيرت: "ماذا قال؟ ماذا قال عن الذُّرَة؟".

"لم أُصغِ إليه".

كانت تفكُّ أنشوطةَ حَبل الغسيل الثاني.

"قال شيئًا ما عن الذُّرة، أعرف أنه قال شيئًا".

قالـت فيـكي: "فتَحتُهـا"، وانفتَحَـت الحقيبـة في حِجرهـا. مـرًّا عـلى لافتـة تقـول: جاتلـن بعـد 5 أميـال، قُـدْ سـيَّارَتَك بحـرصٍ؛ حمايـةً لأطفالنـا. أحاطـت حيوانـات الإلكـة باللافتـة، وعليهـا 22 ثقـب مـن الرصـاص.

قالـت فيـكي: "جـوارب، بنطـالان، قميـص، حـزام، ربطـة عنـق مـع آآ...". لجمـت نفسـها وهـي تُريـه مشـبوكةً مُذهَّبـةً مُتقـشِّرة. "مَـن هـذا؟".

حدَّق بيرت إلى المشبوكة. "هوبالونج كاسيدي[1]، حسبما أظنُّ".

"أوه"، أعادتها إلى مكانها. كانت تبكي ثانية.

بعـد لحظـة، قـال بـيرت: "ألا يوجـد مـا أَشـعَرَكِ بالاسـتغراب حيـال عِظَـةِ المذيـاع؟".

"لا، سَـمِعتُ مـا يكفـي مـن هـذه الأشـياء في الصِّغَـر لتبقـى معـي إلى الأبـد، حكيـت لـك عـن هـذا".

"ألا تَظنِّين أنه بدا صغيرَ السِّنِّ؟ ذلك الواعظ؟".

أطلقـت ضحكـةً لا تَـشِي بمَـرَحٍ: "مُراهِـق، ربَّمـا، ومـاذا إذن؟ هـذا أبشـع مـا في الرحلـة بأَسْرِهـا، يُحبُّـون أن يسـيطروا عليهـم حـين تكـون عقولهـم مُجـرَّد صفحـات بيضـاء، ويعرفـون كيـف يَصبُّـون فيهـا كلَّ القيـود والتوازُنـات العاطفيـة، حتـمًا كُنـتَ حـاضرًا في بعـض اجتماعـات الخيـام التـي جَـرَّني إليهـا أبي وأمـي.. والتـي نلـتُ في بعضهـا "الخـلاص"".

---

(1) إشـارة إلى شـخصية خياليـة لراعـي بقـر، ابتكرهـا الكاتـب كلارنـس إي مولفـورد وقدمهـا في عـدد كبـير مـن قصصـه القصـيرة (المترجـم)

"دعنا نَرَ، لدينا بيبي هورتنس، أعجوبة الغناء، كانت في سِنِّ الثامنة، كانت تأتي وتغنِّي ترنيمة "محمول على الأذرع الأبدية"، بينما يناول والِدُها الطَّبَق، مُخبِراً الجميع أن "احفروا عميقًا في دواخلكم، الآن، ولا تخذلوا ابنة الرَّبِّ تلك"، وكان هناك نورمان ستونتن، اعتاد أن يَعِظَ حول جحيم النار والكبريت وهو يرتدي رداء اللورد الصغير فونتليروي[1] ذي البنطال القصير، كانت سِنُّه سبعَ سنوات".

أومأ بتعبيرٍ يَنُمُّ عن عدم التصديق.

"لم يكونا هذين الاثنين فحسب، كان يوجد الكثير منهم في الحَلَقة، كانوا أوراقَ لعبٍ جَيِّدة". وبصَقَت الكلمة. "روبي ستامبنيل، كانت مُعالِجَةً إيمانيَّةً في سِنِّ العاشرة، والأختان جريس، اعتادتا على الظهور بهالاتٍ من ورق الألومنيوم فوق رأسيهما، و... أوه".

"ما هذا؟". أدار رأسه كي ينظر إليها، وإلى ما كانت تُمسِكُه بين يديها، والذي حدَّقَت إليه فيكي مُنتَشِيَةً. شقَّت يداها المبحرتان البطيئتان طريقهما إلى قلب الحقيبة وأخرجته أثناء حديثها، توقَّف بيرت بالسيارة ليُمعِنَ النظر جيدًا، ناولته إيَّاه دون كلمة.

كان صليبًا مصنوعًا من لفائف قشر الذُّرة، الأخضر في السابق، الجاف الآن. مربوط عليه كوز ذُرَةٍ مُتقزِّم بألياف الذُّرة المحبوكة. أُزيلَت أغلب حبَّات الذرة بعناية، وربما نُتِشَت واحدة تلو الأخرى بسكين جَيبٍ. شكَّلَت الحبَّاتُ الباقية جسدًا مصلوبًا بسيطًا بنقشٍ بارز مُصفَرٍّ. عينان من حبوب الذرة، كلتاهما مَشقوقة طوليًا لتكونا بمثابة بؤبؤَيْ العينَيْن، ذراعان ممدودتان من الحبوب، والساقان معًا،

(1) إشارة إلى الشخصية الرئيسة في رواية حملت نفس الاسم للكاتبة البريطانية- الأمريكية فرانسيس هودجسون بارنيت، وفي الثقافة الرائجة الأمريكية، باتت هذه التسمية ذات دلالة على الشخص المدلل المغرور الشاعر بالتفوق الأخلاقي (المترجم)

مقطوعتـان، في إشـارةٍ خَشِـنَة إلى قدَمَـيْن عاريتَـيْن، ظهـرت أيضًـا أربـع حـروف مـن القَولَحَـة البيضـاء بلـون العَظـم: "ي. ن. م. ي[1]".

قال: "يا لها من قطعةٍ مَصنوعةٍ ببَراعَة!".

قالت بصوتٍ فاترٍ متوتِّر: "إنَّها بَشِعَة، ارمِها".

"فيكي، ربما ترغب الشرطة في رؤيتها".

"لماذا؟".

"حقيقة، لا أعرف السبب، ربَّما...".

"ارمِها، أيمكنك أن تفعل ذلك من أجلي؟ لا أريدُها في السَّيَّارة".

"سـأضعها في الخلـف، وحينـما نقابـل الشرطـة، سـأتخلَّص منهـا بطريقـةٍ مـا أو بأخـرى، أَعِـدُكِ، تمـام؟".

صرَخَت فيه: "أوه، افعل أيًّا ما تريد فِعلَه، وستفعله على أيِّ حال!".

ألقـى بالـشيء في الخلـف وهـو مضطـرب، وهبـط فـوق كومـة مـن الملابـس، حدَّقَـت عينـاه حبَّتَـيْ الـذرة في نشـوةٍ إلى ضـوء سـقف سيارة التـي- بـيرد، توقَّـف بـيرت، حيـث اندفـع الحـصى مـن وراء العجـلات.

وعدهـا قائـلًا: "سنُسـلِّم الجُثَّـة وكلَّ مـا في الحقيبـة إلى الشرطـة، ومـن ثَـمَّ نصـير أحـرارًا".

فيـكي لم تَـرُدَّ، كانـت تنظـر إلى يديهـا. مَـرَّ ميـلٌ، وانحـسرت حقـول الذُّرة الـلا نهائيـة مـن الطريـق، وظهـرت المـزارع والمبـاني المُلحَقَـة. رَأَيـا في يـاردة واحـدة دجاجـاتٍ قَـذِرةً تُنقِّـب بـلا كَلَـلٍ في التُّربـة. كانـت توجـد لوحـات إعلانيـة باهِتَـة للكـولا واللبـان فـوق أسـطح الإسـطبلات. مـرَّا عـلى لوحـة

(1) في الأصـل I N R I، وهـي اختصـار لعبـارة Iesus Nazarenus, Rex Iudaeorum، والتـي تعنـي باللغـة العربيـة: "يَسُـوعُ النَّـاصِرِيُّ مَلِـكُ الْيَهُـودِ"، وأمـر بيلاطـس بكتابـة هـذه الحـروف الأربعـة عـلى رقعـة خشـبية، وعُلِّقـت عـلى الصليـب فـوق رأس يسـوع المسـيح (المترجـم)

إعلانيـة كبـيرة تقـول: "يسـوع وحـده المُخلِّـص"، مـرًا عـلى مقهـى مـع محطَّـة بنزيـن كونوكـو، لكـن بـيرت قـرَّر التَّوجُّـه إلى مركـز البلـدة، هـذا إن وُجِـدَ، وإذا لم يوجـد، يمكنهـما العـودة إلى المقهـى. خطـر لـه بعـد مرورهـما عليـه فقـط أن مـرآب السـيارات كان خاويًـا إلَّا مـن سـيارة نصـف نقـل قديمـة قَـذِرَة، بَـدَت وكأنهـا تقـف عـلى عجلتـين فارِغَتَـيْن مـن الهـواء.

فجـأة بـدأت فيـكي تضحـك، بصـوت عـالٍ ومُقَهقِـهٍ صُعِـقَ لـه بـيرت المشـارف عـلى درجـة خطـيرة مـن الهيسـتريا.

"ما المُضحِك لهذه الدَّرجَة؟".

قالـت في نَوبَـةِ لهـاثٍ وفـواق: "اللافتـات، ألم تكـن تقرؤهـا؟ مـا كانـوا يمزحـون حـين أطلقـوا عـلى هـذه المنطقـة اسـم الحـزام الإنجيـليِّ[1]، آه يـا إلهـي، هنـاك المزيـد". أفلتـت منهـا دَفعـةٌ ثانيـة مـن الضحـك الهسـتيريِّ، ووَضَعَـت كلتـا يديهـا عـلى فمهـا.

كل لافتـة تحمـل كلمـةً واحـدة فقـط، متَّكِئَـة عـلى عِـصيٍّ مدهونـة بمـاء الكلـس ومغروسـة في الحافَّـة الرَّمليَّـة منـذ وقـت طويـل عـلى مـا يبـدو، حيـث تقـشَّر الدهـان الكلـسيُّ وبَهَـت، يفصـل بـين كل لافتـة والأخـرى 80 قدمًـا، وقـرأ بـيرت المكتـوب:

"نَهَارًا..

فِي..

سَحَابٍ..

---

(1) تسـمية تُطلـق عـلى منطقـة شاسـعة تقـع في جنـوب الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، والتـي تعـد أكـثر منطقـة محافظـة دينيًـا واجتماعيًـا عـلى الإطـلاق في أمـيركا، كـما تتمتـع بأعـلى نسـب حضـور ومشـاركات في الأنشـطة الدينيـة والكنسـية، ويشـمل هـذا الحـزام ولايـات (آلاابامـا، آركنسـاس، جورجيـا، كنتـاكي، لويزيانـا، ميسيسـيبي، ميـزوري، نـورث كارولينـا، أوكلاهومـا، سـاوث كارولينـا، تينيـسي، تكسـاس، فيرجينيـا، ويسـت فيرجينـا)، بالإضافـة إلى مناطـق مـن ولايـات (فلوريـدا، إلينـوي، آيـوا، إنديانـا، كنسـاس، نيـو مكسـيكو، أوهايـو) (المترجـم)

وَلَيْلًا..

فِي..

عَمُودِ..

نَارٍ..."[1].

قالت فيكي وما زالت لا تتمالك نفسها من القهقهة: "نسوا أمرًا واحدًا".

سأل بيرت عابسًا: "ما هو؟".

"كريم حلاقة بورما شيف".

ضغطت بمفاصل يدها على فمها المفتوح لتَكتُمَ الضحكة، لكن قهقهاتها شبه الهيستيرية فاضت من حولها مثل فقاقيع شراب مزر الزنجبيل الغازي.

"فيكي، هل أنتِ بخير؟".

"سأكون بخير، حينما نصير على بُعدِ ألف ميلٍ من هنا، في كاليفورنيا الآثِمَة، المُشمِسَة، مع جبالٍ صَخريَّة تفصلنا عن نبراسكا".

ظهَرَت مجموعةٌ أخرى من اللافتات، وقرأها في صمت.

"يَقُولُ..

السَّيِّدُ..

الرَّبُّ:

خُذْ..

---

(1) اللافتات مستوحاة من الآية 21 من الإصحاح الثالث عشر من سفر الخروج، تقول الآية: وَكَانَ الرَّبُّ يَسِيرُ أَمَامَهُمْ نَهَارًا فِي عَمُودِ سَحَابٍ لِيَهْدِيَهُمْ فِي الطَّرِيقِ، وَلَيْلًا فِي عَمُودِ نَارٍ لِيُضِيءَ لَهُمْ. لِكَيْ يَمْشُوا نَهَارًا وَلَيْلًا (المترجم)

هَذَا..

وكُلْ...".

فكَّر بيرت: ولكن لماذا ينبغي عليَّ أن أربط اسم الإشارة غير المحدَّد هذا بالذرة؟ أليس هذا ما يقولونه لك في أثناء طقس المناولة؟ مَرَّ وقتٌ طويل جدًّا منذ أن تواجد في كنيسةٍ، لدرجة أنه لا يتذكَّر، لن يُفاجَأ إذا كانوا يلجؤون إلى خُبزِ الذُّرة ليكون الخُبزَ المُقدَّس في تلك الأرجاء. فتح فمه ليخبر فيكي بهذا، ثم عدل عن ذلك.

ارتقيا هضبةً مُعتَدِلَة، وباتت جاتلن دانيةً منهما، بأحيائها الثلاثة كافَّة، تبدو مثل موقع تصوير لفيلم عن فترة الكساد العظيم.

قال بيرت وتساءل عن السبب: "سيكون هناك مسؤول أمني".

من المؤكَّد أن مرأى هذه البلدة الريفية الرَّتيبة الغافية في الشمس قد أشعره بغصَّةٍ مُخيفة في الحلق.

مرَّا على لافتة تنبيهيَّةٍ عن السرعة تقول بعدم جواز زيادة سرعة القيادة عن 30، وبعدها لافتة أخرى مُرقَّطة بالصدأ، تقول: "أنت الآن تدخل بلدة جاتلن، ألطف بلدة صغيرة في نبراسكا، أو في أي مكان آخر! عدد السُّكَّان:4531".

وقفت أشجار الدردار المُغبرَّة على جانبي الطريق، أغلبها أشجار مريضة. تجاوَزَا ساحة أخشاب جاتلن، ومحطة وقود 76، حيث تتأرجح لافتات الأسعار بأناةٍ في نسيم الظهيرة الحار: "بنزين عادي 35.9، بنزين ممتاز 38.9"، ولافتة أخرى تقول: "بنزين ممتاز لشاحنات الديزل في الخلف".

عَبَرَا شارع إلم، ثم شارع بيرش، بعدها وَصَلَا إلى ساحة البلدة، كانت المنازل المتراصَفة على الشوارع من الخشب العادي مع شرفات محجوبة- عمليَّةً وذات زوايا. كانت مروج العشب صفراء وكئيبة، وفي

الأمام كلبٌ هجينٌ متباطئ في السير إلى منتصف شارع مايبل، وقف ينظر إليهما لهُنَيهَةٍ، ثم رقد على الطريق وأنفه على قدميه.

قالت فيكي: "توَقَّف، توقَّفْ هنا".

امتثل بيرت وأوقف السيارة عند الرصيف.

"دُرْ بالسيارة، ولنأخذ الجُثَّة إلى جراند آيلاند، ليست بعيدة، أليس كذلك، هيا بنا".

"فيكي، ما الخطب؟".

سألت وارتفع صوتها بوهن: "ماذا تقصد بـ "ما الخطب"؟ هذه البلدة خاوية يا بيرت، لا يوجد فيها أحدٌ غيرنا، ألا تشعر بذلك؟".

شعر بشيء ما، وما يزال يشعر به، بينما قال: "إنها تبدو على هذا النحو، لكن من المؤكَّد أنها بلدة ذات خرطوم مطافئ وحيد، ربما كلهم متواجدون في الساحة، يبيعون المخبوزات أو يلعبون لعبة بينجو".

"لا يوجد أحدٌ هنا". نطَقَت تلك الكلمات بتشديدٍ غَريبٍ وقَلَقٍ. "ألم تَرَ حال محطَّة وقود 76 هناك؟".

"بالتأكيد، عند ساحة الأخشاب، وماذا في ذلك؟". طاف عقله في مكانٍ آخر، مستمعًا إلى الأزيز المُضجِر لحشرة زيز تَنقُب في واحدة من أشجار الدردار القريبة. شمَّ روائح الذُّرة والأزهار المُتربة، والسماد بالطبع. كانا للمرَّة الأولى خارج الطريق الرئيس وداخل بلدة، بلدة في ولاية لم يتواجَدَا فيها من قبل (رغم مروره فوقها من وقت إلى آخر على متن طائرات بوينج 747 التابعة للخطوط الجوية المتحدة)، وعلى نحوٍ ما شعر بوجود خَطْبٍ، لكن الأمر على ما يرام. في مكان

مـا في الأفـق، سـيتواجد درَجسـتور وماكينـة مشروبـات غازيـة، ودار عـرض سـينمائية اسـمها "بايجـو"، ومدرسـة سُـمِّيَت تَيمُّنًـا بــ "چـي. إف. كي[1] ".

"بـيرت، السِّـعر المذكـور للبنزيـن العـادي 35.9، والبنزيـن عـالي الأوكتـان 38.9، كـم مَـرَّ مـن الزمـن منـذ دفـع شـخصٌ مـا تلـك الأسـعار في هـذه البلـدة؟".

اعترف قائلًا: "أربع سنوات على الأقل، ولكن يا فيكي...".

"نحن في قلب البلدة يا بيرت، ولا توجد سيَّارة واحدة! ولا سيارة!".

"جرانـد آيلانـد عـلى بُعـد سـبعين ميـلًا، سـيبدو أمـرًا غريبًـا إذا أخذنـاه معنـا إلى هنـاك".

"أنا لا أبالي".

"حسنًا، دعينا نَقُدْ السَّيَّارة حتى المحكمة، و...".

"لا! قُـضِي الأمـر، اللعنـة، لمـاذا ينهـار زواجنـا، باختصـار: لا، أنـا لـن أذهـب، لا يـا سـيدي، والأكـثر مـن ذلـك أني سـأحبس أنفـاسي حتـى يَـزرَقَّ وجهـي إذا لم تَدَعنـي أتـصرَّف بطريقتـي".

قال: "فيكي".

"أريد الخروج من هنا يا بيرت!".

"فيكي، اسمعيني".

"لِنَعُد أدراجنا، هيا بنا نذهب".

"فيكي، ألا تتوقَّفين لدقيقة؟".

"سـأتوقَّف حـين نتوجَّـه بالسـيارة في الطريـق الآخـر، والآن هيـا بنـا نذهــب".

---

(1) اختصارًا لاسم الرئيس الأمريكي الراحل جون إف كينيدي (المترجم)

انفعل عليها قائلًا: "معنا وَلدُ مَيِّت في صندوق سيارتنا!"، واستشعر لَذَّةً جَلِيَّةً في طريقة إجفالها، وتَجعُّد وجهها، وواصل حديثه بنبرةِ صَوتٍ أخفتَ: "شُقَّت رقبته، وأُلقيَ به على قارعة الطريق، وأنا صدمته بالسيارة، والآن سأقود السيارة إلى المحكمة أو أيًّا كان ما لديهم هنا، وسأبلغ عن الواقعة، لو أرَدتِ المسير إلى الطريق العام والذهاب إليه، سأحملك إلى هناك، ولكن لا تقولي لي أن أعود أدراجي وأقود سبعين ميلًا إلى جراند آيلاند كأنه لا شيء لدينا في صندوق السيارة سوى كيس قمامة. تَصادَفَ أنه ابنٌ له أُمٌّ، وسأُبلِغُ عن الواقعة قبل أن يفلت مَن قَتَلَه أيًّا كان إلى التلال، وإلى البُعد البعيد".

قالت وهي تبكي: "أيُّها اللقيط، ما الذي أفعله معك؟".

قال: "لا أعرف، لم أَعُد أعرف بعد الآن، ولكن يمكن إصلاح الموقف يا فيكي".

ابتعد عن الرصيف، رفع الكلبُ رأسه على مسمع الصرير الطفيف لعجلات السيارة، ثم أخفضها ثانية على قدميه.

قادا السيارة في الحَيِّ المتبقِّي من البلدة، وعند ملتقى شارعي ماين وبليزنت، تفرَّع شارع ماين إلى فرعَيْن، ووُجِدَت هناك ساحة بالفعل، حديقة معشوشبة، في قلبها منصَّة، وعند الطرف الآخر، حيث يعود شارع ماين ليصير شارعًا واحدًا مرَّةً ثانية، تواجَدَت بنايتان تبدوان حكوميَّتَيْن، استطاع بيرت تمييزَ المكتوب على إحداهما.

"مجلس بلدية جاتلن".

قال: "ها هو ذا"، فيكي لم تَرُدَّ.

في منتصف الطريق إلى الساحة، توقَّف بيرت بالسيارة من جديد، كانا بجوار صالة طعام: "حانة ومشويات جاتلن".

سألت فيكي مذعورةً في أثناء فتحه للباب: "إلى أين تذهب؟".

"لأعرف أين ذهب الجميع، اللافتة على النافذة تقول "مفتوح"".

"لن تَترُكَني وحدي هنا!".

"إذن تعالي، ماذا يمنعك؟".

فتحت بابها، وخَطَت إلى الخارج في أثناء عبوره أمام السيارة، رأى مدى شحوب وجهها، وشعر في الحال بالشَّفَقة عليها، إشفاق بلا أمل.

سألت حين انضمَّ إليها: "أتسمع هذا؟".

"أسمع ماذا؟".

"اللا شيء، لا سيارات، ولا بشر، ولا جرارات، لا شيء"، وبعدها، ومن على بُعدِ حَيٍّ واحد، سَمِعَا أصوات الضحكات العالية والمبتهجة للأطفال.

قال: "أَسمَعُ أصوات أطفال، ألا تسمعينهم؟".

نظَرَت إليه في اضطراب.

فتح باب صالة الطعام وخطا إلى قلب حرارة جافَّةٍ مُطهَّرة، كانت الأرضية مُتربة، وبريق الكروم منطفئًا، والشفرات الخشبية لمراوح السقف ثابِتةً لا تتحرَّك. طاولات فارغة، كراسي فارغة عند النُّضُد، لكن المرآة وراء النُّضد مُهشَّمة، وثمَّة شيءٌ آخر، أحسَّ به في لحظة: كل صنابير البيرة مخلوعة، ووُضِعَت مفرودةً على طول النضد مثل هدايا لحفلة غريبة.

كان صوت فيكي خاليَ البال وأقرب ما يكون إلى الانكسار: "بالتأكيد، اسأل أي شخص، المعذرة يا سيدي، ألا يمكنك أن تخبرني...".

"أوه... اخرسي"، لكنَّ صوته كان واهنًا بلا قوة، كانا يقفان في شريط من أشِعَّة الشمس، حمل معه الغُبار وسقط عبر نافذة صالة الطعام ذات الألواح الزجاجية، وراوده مرة أخرى ذلك الإحساس أنه

مُراقَبٌ، وفكَّر في الولد الكائن في صندوق سيارتهما، والضحكات العالية للأطفال. خطَرَت في ذهنه جُملَةٌ بلا سبب، جملة ذات وَقعٍ قانوني، وبدأت تتكرَّر في ذهنه بطريقة غامضة: "بلا حسيب أو رقيب، بلا حسيب أو رقيب، بلا حسيب أو رقيب".

جالت عيناه بين البطاقات المُصفرَّة المشبوكة خلف النضد:

"برجر بالجبن| 35 سنت

وورلدز بيست جو| 10 سنت

فطيرة الروبارب بالفراولة| 25 سنت

طبق اليوم المخصوص: لحم خنزير بصلصة العين الحمراء مع بطاطس مهروسة| 80 سنت".

كم مَرَّ من الزمن منذ رأى هكذا أسعار في صالة للطعام؟

كانت الإجابة عند فيكي، صاحت قائلة: "انظُرْ إلى هذا"، أشارت إلى الروزنامة على الجدار. "أظنُّ أنهم تواجدوا في ملتقى عشاء الفول[1] هذا لمدة أحد عشر عامًا"، ونَدَّت منها ضحكة وهي تصرُّ على أسنانها.

تمشَّى. أظهرت الصورةُ وَلَدَيْن يسبحان في مسبح، بينما اختطف كلبٌ لطيف صغير ملابسهما. تحت الصورة نقشٌ مكتوب: "نُحيِّيكم من جاتلن للأخشاب والأدوات المنزلية، ما تكسره نصلحه"، كان الشهر المذكور أغسطس 1964.

تلعثم في الكلام: "لا أفهم، لكني متأكِّدٌ أن...".

---

(1) عشاء الفول تقليد شهير في ولاية ماين تنظمه عدد كبير من الكنائس هناك، حيث يتجمع فيه الكثيرين من رواد الكنائس ليستمتعوا فيه معًا بتناول وجبة عشاء مكونة في الأساس من الفول والخبز البني، مع بعض الأطباق الإضافية (المترجم)

صاحت بهستيريا: "مُتأكِّد! بالتأكيد أنت مُتأكِّد! هذا جزء من مشكلتك يا بيرت، قَضيتَ حياتك بأَسْرِها مُتأكِّدًا".

استدار عائدًا إلى الباب، ثم تَبِعَتْه.

"إلى أين تذهب؟".

"إلى مجلس البلديَّة".

"بيرت، لماذا يجب أن تكون عنيدًا هكذا؟ أنت تعرف بوجود خَطبٍ ما هنا، ألا تعترف به فحسب؟".

"أنا لا أعاند، وإنما أريد أن أتخلَّص مِمَّا في صندوق السيارة".

خرجا إلى الممشى، وصُعِقَ بيرت من جديد من خواء البلدة، ومن رائحة السماد. على نحوٍ ما لم تُفكِّر قَطُّ في هذه الرائحة حين وَضَعتَ الزُّبدة على كوز ذُرَةٍ مطبوخ وأمْلَحْتَه وغَرَستَ فيه أسنانك، والفضل في ذلك للشمس والمطر وكلِّ أصناف الفوسفات المُصنَّع، مع جرعة صحِّيَّة وجيِّدة من خراء البقر، لكن بشكلٍ ما، هذه الرائحة مختلفة عن تلك التي تَربَّى عليها في الضواحي في شمال نيويورك. قُلْ ما تشاء قَولَه عن السماد العضوي، لكن فيه شيء عَبِقُ الرائحة حين يُفرش بمفرشة السماد في الحقول، ليست واحدة من عطورك الفاخرة، يا إلهي لا، ولكن حين يلتقطه نسيم الربيع نهاية فترة بعد الظهيرة، ويحمله إلى الحقول التي قُلِّبَت تُربَتُها حديثًا؛ تَصير رائحةً تحمل معها معاني طيبة، كانت تعني أن الشتاء انتهى فعليًّا، وتعني أن المدارس ستُغلِقُ أبوابها بقوَّةٍ لمدَّة سِتَّة أسابيع أو أكثر حتى ينغمس الجميع في الصيف. كانت رائحةً ترتبط اشتراطيًّا في ذهنه بروائح أخرى تصنع عطرًا: الإفليوم المرجي، زهر البرسيم، الأرض الطرية، زهور الخَطميَّة، نبات القرانيا.

كان يفكـر بأنـه عليهـم القيـام بأمـر مختلـف هنـا، كانـت الرائحـة قريبـة مـمَّا في ذاكرتـه، لكنهـا ليسـت نفسَـها، كان في باطنهـا شيءٌ حُلـوٌ حتـى السُّـقم، تـكاد تكـون رائحـة المـوت. ولأنـه كان مُمرِّضًـا في ڤيتنـام، بـات ضليعًـا بتلـك الرائحـة.

كانـت فيـكي تجلـس هادِئـةً في السـيارة، مُمسِـكَةً بصليـب الـذُّرة في حِجرهـا، تحـدِّق إليـه في اسـتغراق لم يُحبِّـذه بـيرت.

قال: "أَبعِدي هذا الشيء".

قالت دون النظر لأعلى: "لا، العَبْ أَلاعيبَكَ، وأنا سألعب ألاعيبي".

جهَّـز سـيارته وقادهـا إلى الزاويـة، حيـث عُلِّقَـت إشـارة مـرور ميِّتـة فـوق الـرؤوس، متأرجحـة مـع النسـيم الخفيـف، وعـلى جهـة اليسـار كنيسـة بيضـاء نظيفـة، العُشـبُ مَجـزوزٌ، كـما نَمَـت زهـورٌ حَظِيَـت بالعناية وراء الطريـق المرصـوف المـؤدِّي إلى البـاب. توقَّـف بـيرت بالسـيارة.

"ماذا تفعل؟".

قـال بـيرت: "سـأدخل وأُلقـي نظـرة؛ فهـو المـكان الوحيـد في البلـدة الـذي لم تتراكـم فوقـه أَترِبَـةُ السِّـنين العـشر، وانظـري إلى لوحـة العِظـات".

ألقَـت نظـرة، حـروفٌ بَيضـاءُ مُعلَّقـة بعنايـة تقـول: "القُـوَّة والنعمـة للمَشَّـاء خَلـفَ الصُّفـوف"، والتاريـخ المذكـور 27 يوليـو 1976، يـوم الأحـد المـاضي.

قال بيرت: "المشَّاءُ خَلفَ الصُّفوف"، وأطفأ مُشغِّل السيارة.

"أَظنُّـه اسـمًا مـن أسـماء الـرَّبِّ التِّسـعة آلاف، لكنـه يُسـتخدم فقـط في نبراسـكا، هـل سـتأتين؟".

لم تبتسم، "لن أدخُلَ مَعكَ".

"حسنًا، أيًّا كان ما تريدين".

"لم أدخل كنيسةً منذ غادَرتُ بلدتي، ولا أريد أن أكون في هذه الكنيسة، ولا أرغب في التَّواجُد في هذه البَلدَة يا بيرت، أنا خائِفةٌ لِحَدِّ الجنون، ألا يمكننا فقط أن نذهب؟".

"سيستغرقني الأمر دقيقة".

"معي مفاتيحي يا بيرت، إذا لم تَعُد خلال خمس دقائق، سأرحل بالسيارة وأتركك هنا".

"حَسبُكِ... وانتظري دقيقةً يا امرأة".

"هذا ما سأفعله، إلا إذا أردت أن تُهاجِمَني مثل لِصٍّ سُوقيٍّ، وتسلبني مفاتيحي، أظنُّ أنك ستفعلها".

"لكنَّكِ لا تظنين أني سأفعلها".

"لا".

كانت حقيبة يدها على المقعد بينهما. انتزعها، صرَخَت وأمسكت حزام الأمان، سحبها بعيدًا عن مُتناوَل يدها، ولم يُكلِّف نفسه عناء تفتيش الحقيبة، بل قَلَبها ببساطة رأسًا على عقب ليتساقط منها كل شيء: كانت ميدالية مفاتيحها اللامعة بين المناديل، وأدوات التجميل، والعملات المعدنية، وقوائم التَّسوُّق القديمة. اندفعت نحوها ثانيةً، لكنه ضربها مرَّةً أخرى ووضع المفاتيح في جيبه.

قالت وهي تبكي: "ما كان عليكَ فِعلُ ذلك، أَعِدْهُم لي".

قال: "لا، مُحال"، وابتسم لها ابتسامةً جافَّةً لا معنى لها.

"أرجوكَ يا بيرت! أنا خائفة"، ومدَّت يديها، مُتوسِّلَةَ الآن.

"ستنتظري دقيقتَيْن، وأرى أن هذا وقتٌ طويلٌ بما يكفي".

"أنا لن...".

"وستتحرَّكين بالسيارة وأنتِ تضحكين وتقولين لنفسك: "سيُلقِّن هذا بيرت درسًا ألَّا يَتخطَّاني حين أريد شيئًا"، ألم يكن هذا شِعارَك خلال حياتنا الزوجية؟ "أني سألقن بيرت درسًا على تخطِّيه إيَّاي"".

خرج من السيارة.

صاحَت مُنادِيَةً وهي تُحرِّك المقعد: "أرجوك، يا بيرت؟ اسمع.. أعرف... سنتحرك بالسيارة خارج البلدة ونُجري مُكالَمةً من كابينة هاتف، اتَّفقنا؟ معي كل فئات الفَكَّة، أنا فقط.. يمكننا... لا تتركني وحدي، بيرت، لا تتركني وحدي بالخارج هنا!".

خبط باب السيارة بالتَّزامُن مع صَيحَتِها، ثم مال لوَهلَةٍ على جانب التي- بيرد، وإبهاماه أمام عينيه المُغمَضَتَيْن، كانت تَطرُقُ على النافذة عند مقعد القيادة وتناديه باسمه، كان سيرتسم على وجهها تعبيرٌ رائِقٌ حين يجد شخصًا في موقع مسؤولٍ أخيراً كي يتولَّى مسؤوليَّة جُثَّة الفتى، أي نعم.

استدار وسار نحو الطريق المرصوف إلى أبواب الكنيسة، دقيقتان أو ثلاث، سيلقي نظرة فقط على الأرجاء، وسيعود أدراجه، وربما كان الباب حتى غيرَ موصَدٍ.

لكنه دفع الباب بصَمتٍ ويُسرٍ، مفصلات الباب مُزيَّتة جيِّدًا (أطرق مُفكِّرًا: مُزَيَّتة باحترام، وبدا هذا غريبًا لسبب غير مفهوم)، وخطا إلى دهليز فائق البرودة لدرجة شبه قارسة. احتاجت عيناه لحظة كي تعتادا على العَتَمَة.

أوَّل ما لحظه كومة من الحروف الخشبية في الركن البعيد، مُغبرَّة ومختلطة معًا بلا تمييز، اتَّجه إليها، شاعرًا بالفضول، بدت قديمةً ومَنسيَّةً مثل الروزنامة في الحانة ومطعم المشويَّات، على النقيض من بقيَّة الدهليز الذي كان مُرتَّبًا وخاليًا من الأتربة. بلغ ارتفاع الحروف قدمَيْن تقريبًا، وواضح أنه جُزءٌ من مجموعة. فرَدَهم على

السجادة -كان يوجد منها واحد وعشرون تقريبًا- وبدَّل فيما بينها مثل ألعاب ترتيب الأحرف: "نعم الناس معمدين"، لا، "مدينة أمل لكل ناس"، لم تُخرج جملةً مُفيدَةً أيضًا، ماعدا حرف ك في كلمة "لِكُلِّ"، فجمع بسرعة كلمة" كنيسة"، ووجد نفسه ينظر إلى جملة "إن لم أَدُم"، جملة سخيفة، جلس القرفصاء هنا ليلعب ألعابًا حمقاء بمجموعة من الأحرف، بينما يُجَنُّ جنون فيكي بالخارج في السيارة. بدأ بالقيام من مقعده، ثم أدرك الأمر. شكَّل كلمة "المعمدانية"، وبقى معه "المعنة"، وبتبديله حرفين، صارت معه كلمة "النعمة"، "كنيسة النعمة المعمدانية"، حتمًا كانت الأحرف موجودةً بالخارج، انتزعوها وألقوها دون فَرزٍ في الزاوية، وطُلِيَت جدران الكنيسة من وقتها فلن تعرف حتى المكان الأصلي للحروف.

لماذا؟

لأنها لم تَعُد كنيسةَ النعمة المعمدانية بعد الآن؛ هذا هو السبب. لذا أيَّ كنيسة كانت هذه؟ لسببٍ ما، سَرَت دفقةٌ من القلق من جرَّاء هذا السؤال، ووقف بسرعة وهو ينفض أصابعه من الغبار؛ لذا فقد انتزعوا بعض الحروف، وماذا في ذلك؟ ربما غيَّروا المكان ليصير كنيسةَ فليب ويلسون بالنظر إلى ما يحدث الآن.

ولكن ماذا حدث بعدها؟

تَخلَّص منها في نفاد صبر، واتَّجه إلى الأبواب الداخلية، وبات يقف الآن في ظهر الكنيسة ذاتها، وتطلَّع نحو صحن الكنيسة، استشعر خوفًا يقترب من قلبه وضغط بشدَّة، انقطع نَفَسُه بصوتٍ عالٍ في الصمت الثقيل لهذا المكان.

احتلَّت لوحةٌ عملاقة للمسيح تلك المساحة وراء منبر الوعظ، وفكَّر بيرت: إذا لم يتسبَّب أيُّ شيء في البلدة في صراخ فيكي صراخًا هيستيريًّا، فهذا ما سيدفعها لذلك.

كان المسيح مبتسمًا، ماكرًا، وعيناه واسعتين ومُحدِّقَتين؛ ممَّا ذكَّر بيرت بصعوبةٍ بالمُمثِّل لون شاني في فيلم "شبح الأوبرا"، في كل بؤبؤ من بؤبؤَيْ عينيه السوداوين الواسِعَتَيْن شخصٌ ما (يُحتَمَلُ أنه شخصُ خَطَّاء) غارق في بحيرة النار، لكن أغرب تفصيلة أن شَعرَ المسيح لونه أخضر، والذي يتَّضِح عند المعاينة عن قُربٍ أنه كُتلَة مجدولة من محصول ذُرَةٍ بواكير الصيف، رُسِمَت اللوحة بخشونةٍ، لكنها كانت مؤثِّرة، تبدو كأنها شريطٌ رسوميٌّ هَزليٌّ رسمه طفل موهوب، مسيح من العهد القديم، أو مسيحٌ وَثنيٌّ قد يَذبَحُ حملانه كأضحية بدلًا من تسييرهم في قطيع.

يوجد عند قاعدة الصفوف اليسرى من مقصورات الكنيسة أرغن ذو أنابيب، لم يستطع في البداية أن يفهم ما خَطبُه، تمشَّى إلى الناحية اليسرى من الممشى، ورأى في ذُعرٍ يبزغ ببطء أن المفاتيح مخلوعة، وأن مجموعات الأنابيب مُقتَلَعَة من أماكنها، والأنابيب نفسها محشوَّة بقشور ذُرة جافَّة، وفوق الأرغن لوحةٌ كُتِبَت بعناية تقول: "يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ: لا تُجرِ الموسيقى سِوَى على أَلْسِنَةِ البَشَر".

كانت فيكي على حَقٍّ، ثمَّة خَطبٌ ما يحدث هنا، تجادَلَ مع نفسه في العودة إلى فيكي دون استكشاف المزيد، وركوب السيارة فقط ومغادرة البلدة بأسرع ما يُمكِن، ولا يهم مجلس البلدية. شعر بالانزعاج، وأطرق مُفكِّرًا: قُل الحقيقة، تريد أن تُجرِّب مضاد التعرق "بان 5000" خاصتها قبل العودة والاعتراف أنها كانت مُحِقَّة كنقطة بداية.

سيعود خلال دقيقة أو نحو ذلك.

تمشَّى في اتجاه منبر الوعظ، وهو يفكِّر: الناس يمرُّون على جاتلن طيلة الوقت، يوجد بَشَرٌ حتمًا في البلدات المجاورة مِمَّن لديهم أصدقاء وأقرباء هنا، من المؤكَّد أن شرطة ولاية نبراسكا تَمرُّ هنا

مـن حـينٍ لآخـر، ومـاذا عـن شركـة الكهربـاء؟ إشـارة المـرور مُتوقِّفـة عـن العمـل، كانـوا سـيعرفون حتـمًا حـين تنقطـع الكهربـاء أحـد عـشر عامًـا.

الخلاصة: يستحيل تصديقُ ما يبدو أنه قد حدث في جاتلن.

مع هذا، شعر بالخوف.

صعـد درجـات السـلم المفروشـة الأربعـة وصـولًا إلى منـبر الوعـظ، وتطلـع إلى المقصـورات المهجـورة، الملتمعـة في أنصـاف الظِّـلال. بـدا أنـه يشـعر بوطـأة العينـين غـير المسـيحيَّتَيْن والمفزعتـين دون رَيـبٍ اللَّتَـيْن تثقبـان ظهـره.

كان يوجـد كتـاب مُقـدَّس ضخـم عـلى الحامـل، مفتـوح عـلى الأصحـاح الثامـن والثلاثـين مـن سِـفر أيـوب، ألقـى بـيرت نظـرة عليـه وقـرأ: "فَأَجَـابَ الـرَّبُّ أَيُّـوبَ مِـنَ الْعَاصِفَـةِ وَقَـالَ: مَـنْ هـذَا الَّـذِي يُظْلِـمُ الْقَضَـاءَ بِـكَلاَمٍ بِـلاَ مَعْرِفَـةٍ؟ أَيْـنَ كُنْـتَ حِـينَ أَسَّسْـتُ الأَرْضَ؟ أَخْـبِرْ إِنْ كَانَ عِنْـدَكَ فَهْـمٌ". الـرَّبُّ، ذلـك المشَّـاءُ خلـف الصفـوف، أخـبر إن كان عنـدك فهـم، واعـبُرْ حَقـلَ الـذُّرة.

قلـب صفحـات الكتـاب المُقـدس، وأحدثـت صوتًـا هامسًـا يابسًـا في قلـب الصمـت، صـوت قـد يصـدر عـن الأشـباح، هـذا إن وُجـدت أشـباح أصلًا، وقـد توشـك عـلى تصديـق هـذا في مـكان عـلى هـذه الشـاكلة. اقتُطِعَـت أجـزاء مـن الكتـاب المقـدَّس، أغلبهـا مـن العهـد الجديـد حسـبما رأى. شـخصٌ مـا قـرَّر أن يأخـذ عـلى عاتقـه مَهمَّـة تصحيـح نسـخة الملـك چيمـس الجيـدة بالمقـصِّ.

بينما العهد القديم سليمٌ لم يُمَسَّ.

كان عـلى وشـك مغـادرة منـبر الوعـظ حـين رأى كتابًـا آخـر موضوعًـا عـلى رَفٍّ أدنى وسَـحَبَه؛ ظنًّـا منـه أنـه قـد يكـون سِجِلَّ الكنيسـة للزيجـات والاعترافـات والدفنـات.

الْتَـوَت قَسَـماتُ وجهـه عـلى مـرأى الكلـمات المنقوشـة دون احترافيَّـةٍ عـلى الغـلاف مـن رقائـق الذهـب: يَقُـولُ السَّـيِّدُ الـرَّبُّ: فلتجتَـثَّ الظالمـين حتـى تُثمِـرَ الأرضُ ثانيـةً.

في الجـوار هنـا، يوجـد عـلى مـا يبـدو تَسَلسُـلٌ مُتحـرِّكٌ مـن الأفـكار، ولم يُبـالِ بـيرت كثـيراً أي مسـار يتَّخِـذه ليكـون وجهـة لـه.

فتـح الكتـاب عـلى الصفحـة الأولى العريضة والمُسـطَّرة، أدرك عـلى الفور أنهـا كتابـة طفـل مـا، ففـي عـدَّة مواضـع، اسـتخدم بحـرصٍ مُزيـلًا للحـبر، وفي حـين لا توجـد أي أخطـاء إملائيـة، كانـت الأحـرف كبـيرةً ومكتوبـةً بطريقـة طفوليَّـة، رَسـمٌ أكـثر منـه كتابـة، يذكـر العمـود الأول الآتي:

"عاموس دايجان1 (ريتشارد): وُلِدَ في 4 سبتمبر -1945 4 سبتمبر 1964.

إسحاق رينفرو (ويليام): وُلِد في 19 سبتمبر -1945 19 سبتمبر 1964.

صفنيا كيرك (چورچ): وُلد في 14 أكتوبر -1945 14 أكتوبر 1964.

مريم ويلز (روبرتا): وُلِدَت في 12 نوڤمبر -1945 12 نوڤمبر 1964.

يمن هوليز (إدوارد): وُلد في 5 يناير -1946 5 يناير 1965".

استـمرَّ بـيرت في تقليـب الصفحـات وهـو مُقطِّـب الجبـين، ومـع مـرور ثلاثـة أرباعـه، انتهـت العواميـد المزدوجـة فجـأة:

"راحيل ستيجمان (دونا): وُلِدَت في 21 يونيو -1957 21 يونيو 1976.

موسى ريتشاردسن (هنري): وُلد في 29 يوليو 1957.

ملاخي بوردمان (جريج): وُلد في 15 أغسطس 1957".

---

(1) نظـرًا لإتخـاذ جميـع الأطفـال المذكـورة أسـمائهم في الكتـاب الـذي عـثر عليـه بـيرت أسـماء مسـتوحاة مـن الكتـاب المقـدس، قررنـا اللجـوء مباشرة إلى اسـتخدام الأسـماء العربيـة للشـخوص التـي يسـتقي منهـا الأطفـال أسـمائهم بديـلًا عـن تعريـب الأسـماء الإنجليزيـة، وذلـك لتيسـير الإشـارة عـلى القـارئ إلى مصدرهـا الدينـي الرئيـس، وللتأكيـد (مثلـما يؤكـد كينـج نفسـه) عـلى التمايـز بـين اسـم الميـلاد والاسـم المسـيحي الـذي اختـاره كل منهـم (المترجـم)

كان آخر قَيدٍ في الكتاب من نصيب راعوث كلاوسن (ساندرا): وُلِدَت في 30 أبريل 1961. نظر بيرت إلى الرَّفِّ الذي وجد فيه الكتاب، ووجد كتابين آخرين، نُقِشَ على الأول نفس شعار "فلتجتثَّ الظالمين"، وواصل نفس منهج التسجيل، عمود واحد يتتبَّع تواريخ الميلاد والأسماء. في بواكير سبتمبر من العام 1964 وجد اسم أيوب جيلمان (كلايتون)، وُلِدَ في 6 سبتمبر، وكان الاسم التالي حوَّاء توبين، وُلِدَت في 16 يونيو 1965، بدون اسمٍ ثانٍ بين الأقواس.

كان الكتاب الثالث فارغًا.

فكَّر بيرت في الأمر وهو واقِفٌ وراء منبر الوعظ.

حدث شيءٌ ما في العام 1964، شيءٌ له علاقة بالدِّين والذُّرة والأطفال.

إلهي القدير، نلتمس بَرَكَتَكَ على الذُّرة، لأجل المسيح، آمين.

وارتفع السِّكِّين عاليًا للتضحية بالحَمَل، ولكن هل كان هناك حَمَل؟

ربما عصف بهم هَوَسٌ دينيٌّ، وهم وحيدين، وحيدين تمامًا، معزولين عن العالم الخارجي بمئات الأميال المربَّعة من الذُّرة السِّرِّيَّة المُخَشخِشَة، وحيدين تحت سبعين مليون أكر من السماوات الزرقاء، وحيدين تحت عَينِ الرَّبِّ الحارسة، والذي بات الآن إلهًا مُخضَرًّا غريبًا، إلهًا للذُّرة، شائِخًا وغريبًا وجائِعًا، ذلك المشَّاء خلف الصُّفوف.

شعر بيرت بقشعريرة تنسرب في جلده.

فيكي، دعيني أحكي لكِ حكاية، إنها عن عاموس دايجان، المولود تحت اسم ريتشارد دايجان في الرابع من سبتمبر 1945، اتَّخَذَ لنفسه اسم عاموس في العام 1964، اسم جيِّد من العهد القديم، عاموس، أحد الأنبياء الصِّغار. طيِّب، ما حدث يا فيكي -وامنعي الضحك- أن ديك دايجان وأصدقاءه بيلي رينفرو، وچورچ كيرك، وروبرتا ويلز، وإيدي هوليز من بين آخرين قد صارت لديهم ديانة، وقَتَلوا آباءهم، كلهم.

أليست هـذه صرخـة؟ أطلقـوا عليهـم الرَّصـاصَ في أَسِرَّتِهـم، أو طعنوهـم بالسـكاكين في مغاطسـهم، أو سَـمَّموا وجبـات عشـائهم، أو شـنقوهم، أو انتزعـوا أحشـاءهم، وذلـك حسـبما أعـرف.

السـبب؟ الـذُّرة، ربمـا كانـت تمـوت، ربمـا خطَـرَت لهـم الفكـرة عـلى نحـوٍ مـا أنهـا تمـوت بسـبب استفحال الخطايـا، وعـدم كفايـة الأُضحيـات، كانـوا سـيفعلونها في حقـول الـذُّرة، بـين الصفـوف.

وبطريقـةٍ مـا يـا فيـكي، وأنـا متأكِّـد مـن ذلـك، أنَّهـم تقريبًـا قـرَّروا أن تسـعة عـشر عامًـا هـو أكـبر سِـنٍّ يمكـن لأحدهـم أن يبلغـه في العيـش. ريتشـارد (عامـوس) دايجـان، بطـل حكايتنـا الصغـيرة، حظـي بعيـد ميـلاده التاسـع عـشر في الرابـع مـن سـبتمبر 1964، التاريـخ المُـدَوَّن في الكتـاب. أظـنُّ أنهـم ربمـا قتلـوه، وضَحُّـوا بـه في حقـول الـذُّرة، أليسـت هـذه حكاية سـخيفة؟

ولكـن لنَنظُـرْ إلى راحيـل سـتيجمان، التـي كان اسـمها دونـا سـتيجمان حتـى حلـول العـام 1964، صـارت في سِـنِّ التاسـعة عـشرة في الحـادي عـشر مـن يونيـو، منـذ شـهر واحـد فقـط. مـوسى ريتشاردسـن وُلِـدَ في التاسـع والعشريـن مـن يوليـو، سـيصير في سِـنِّ التاسـعة عـشرة بعـد ثلاثـة أيَّـامٍ فقـط ابتـداءً مـن اليـوم، ألديـكِ أيُّ فِكـرَةٍ عَـمَّا سـيحدث لمـوسى الكبـير في اليـوم التاسـع والعشريـن؟

يمكنني التكهُّن.

لعق بيرت شفتَيْه اللتَيْن أحسَّ بجفافهما.

أمرٌ آخـر يـا فيـكي، انظـري إلى هـذا، لدينـا أيـوب جيلـمان (كلايتـون) المولـود في 6 سـبتمبر 1964، لا يوجـد مواليـد آخـرون حتـى 16 يونيـو 1965، فجـوة زمنيـة تبلـغ عـشرة أشـهر، أتعرفـين مـا أظنُّـه؟ قَتَلـوا جميـع الآبـاء والأمهـات، حتـى الحوامـل منهـنَّ، هـذا مـا أظنُّـه، وإحداهـن حبلَـت

في أكتوبـر 1964، ووَلَـدَت حـوَّاء، فتـاة في سِـنِّ السـابعة عـشرة أو الثامنـة عـشرة. حـواء. المـرأة الأولى.

قلَّـب مُجـدَّدًا في الكتـاب وهـو محمـومٌ، وعـثر عـلى سِـجِلِّ حـوَّاء توبـين، وتحتهـا: آدم جرينـلاو، وُلِـدَ في 11 يوليـو 1965.

فكَّـر وبـدأ يشـعر بالتنميـل في جِلـدِه: كانـوا سـيصيرون أحـدَ عـشرَ طفـلًا الآن، وربمـا هـم بالخـارج الآن، في مـكانٍ مـا.

ولكـن كيـف تسـنَّى لأمـرٍ كهـذا أن يبقـى سِرًّا؟ كيـف كُتِـبَ لـه الاسـتمرار؟

كيف، إلا إذا رأى الرَّبُّ -مَحلُّ النقاش- أن ذلك حَسَن؟

قـال بـيرت في قلـب الصمـت: "يـا للمسـيح!"، وذلـك حـين بـدأ بـوق سـيارة التـي- بـيرد في الـدويِّ في فـترة بعـد الظهـر، صفـارة واحـدة طويلـة متَّصِلَـة.

قفـز بـيرت مـن منـبر الوعـظ، وهـرع إلى الممـرِّ الأوسـط، فتـح بـاب الرَّدهَـة الخارجيـة عـلى مصراعَيْـه، مُدخِـلًا أشـعَّةَ الشـمس الحـارَّة السـاطعة، وظهـرت فيـكي وهـي تجلـس باسـتقامة خلـف عجلـة القيـادة، وكلتـا يداهـا مُلتَصِقَتـان ببـوق السـيارة، ورأسـها يـدور بعنـف. توافـد الأطفـالُ مـن الأرجـاء كافَّـة، كان بعضهـم يضحـك مبتهجًـا. أمسـكوا بسـكاكين وفـؤوس ومواسـير وحجـارة ومَطـارِق، وأمسـكت فتـاة -ربمـا في سِـنِّ الثَّامنـة- ذات شَـعرٍ أشـقر طويـل بـذراعٍ رَفـعٍ. أسـلحة قرويـة، ليـس مـن بينهـا أسـلحة ناريـة. شـعر بـيرت برغبـة ضاريـة في النـداء عليهـم: مَـن فيكـم آدم وحـوَّاء؟ مَـن هُـنَّ الأمهـات؟ مَـن هُـنَّ البنـات؟ الآبـاء؟ الأبنـاء؟

أخبِروا إن كان عندكم فَهمٌ.

جـاؤوا مـن الشـوارع الجانبيـة، ومـن حديقـة البلـدة، وعـبر البوابـة في السـياج المسلسـل المحـاط بملعـب مدرسـة مـن حـيٍّ سَـكَنيٍّ يَبعُـدُ شرقًـا.

حـدَّق بعضهـم بـلا مبـالاة إلى بـيرت، الواقـف في جُمـودٍ عـلى درجـات سـلالم الكنيسـة، ولَكَـزوا بعضهـم البعـض بأكواعهـم ولوَّحـوا وابتسـموا بابتسـامات الأطفـال العذبـة.

ارتَـدَت الفتيـات صوفًـا بُنِّيًّـا طويـلًا وقلنسـوات باهتـةً واقِيَـةً مـن الشـمس، وارتـدى جميـع الفِتيَـة ملابِـسَ سـوداء وقُبَّعـات مسـتديرة قِمَّتها، مُسَـطَّحة حوافُهـا مثـل أفـراد طائفـة الكويكـرز، تدفَّقـوا عـبر سـاحة البلـدة في اتجـاه السـيارة، وعـبر المـروج، وجـاء بعضهـم عـبر الفِنـاء الأمامـي للبناية التـي عُرِفَـت حتـى العـام 1964 باسـم "كنيسـة النِّعمـة المعمدانيَّـة". واحـد أو اثنـان منهـم اقتربـا بمـا يكفـي لأن تلمسـهما.

صرخ بيرت: "البندقية! احضري البندقية يا فيكي!".

لكنهـا تجمَّـدَت في خوفهـا، رأى عينيهـا مـن عنـد درجـات السُّـلَّم، وشَـكَّ إن كانـت تسـتطيع سـماعه مـن النوافـذ المغلَقَة.

تجمَّعـوا عنـد السـيارة. بـدأت الفـؤوس والبُلَـط والقطـع الأنبوبيـة تعلو وتهبـط. فكَّـر وهـو يقـف مُتحجِّـرًا: يـا إلهـي، هـل أرى مـا أراه؟ سـقط مـن جانـب السـيارة سـهم مـن الكـروم، وطـارت حليـة غطـاء محـرِّك السـيارة. زحفـت السـكاكين متلوِلبَـةً عـبر أغطيـة العجلات فاسـتكانت السـيارة. دوَّى بـوق السـيارة مـرارًا وتكـرارًا، وغـام الزجـاج الأمامـي وانـشرخ تحـت وطـأة الهجـوم، وتناثَـرَت شـظايا زجـاج الأمـان إلى داخـل السـيارة فاسـتطاعت الرؤيـة مـن جديـد. جثمـت فيـكي إلى الـوراء، ويـدٌ واحـدة فقـط تضغـط عـلى البـوق الآن، ورفعـت اليـد الأخـرى لتحمـي وجههـا. امتـدَّت الأيـادي الصغـيرة المتلهِّفـة إلى الداخـل، مُتحسِّـسـةً زِرَّ فتـح وإقفـال البـاب، فصدَّتهم بغلظـة. تقطـع صـوت البـوق حتـى انقطـع تمامًـا.

شـدُّوا بـاب السـائق المخبـوط والمنبعـج، كانـوا يحاولـون جَرَّهـا خـارجَ السـيارة، لكـنَّ يديهـا التفَّتـا عـلى عجلـة القيـادة، ثـم انحنـى أحدهـم، مـع سـكِّينٍ في يـده، و...

انفـكَّ جمـوده وتقافـز عـلى السـلالم، وأوشـك أن يقـع، وهـرع إلى الطريـق المرصـوف، في اتجاههـم. اسـتدار أحدهـم نحـوَه بـشيءٍ مـن العفويـة، فتًـى في سـن السادسـة عـشرة تقريبًـا، شَـعرُه طويـل، طويـلٌ، يَنسَـدِلُ مـن خـارج قُبَّعَتـه، ومـرق شيء مـا في الهـواء. تقلَّـص ذراع بـيرت الأيـسر، وراوَدَتـه للحظَـةٍ تلـك الفكـرةُ السـخيفة أنـه تعـرَّض لضربـة مـن مسـافة بعيـدة، ثـم حـلَّ الألم، شـديد الحِـدَّة والفجائيـة لدرجـةٍ صـار معهـا العالَـم رماديًّـا.

فحـص ذراعـه في ذهـول أحمـق، حيـث بـرزت منهـا مطـواة جيـب ثمنهـا دولار ونصـف كأنهـا وَرَمٌ غريـب، واحمـرَّ كُـمُّ تي-شـيرته الريـاضي مـن چـي سي بينـي، مُحـاوِلًا أن يفهـم كيـف نبَتَـت في ذراعـه مطـواة جيـب... هـل هـذا ممكـن؟

حـين تطلَّـع بنظـره، بـات الفتـى ذو الشَّـعر الأحمـر فوقـه تقريبًـا، كان يبتسـم في ثِقَـة.

قال بيرت: "هاي، أيُّها اللَّقيط". كان صوته حادًّا ومصدومًا.

قـال الفتـى ذو الشـعر الأحمـر: "عُـدْ برُوحِـكَ إلى الـرَّبِّ، وسـتقف أمـام عرشـه في الحـال"، وانقـضَّ بأظافـره عـلى عـين بـيرت.

تراجـع بـيرت، وانتـزع المطـواة الرخيصـة مـن ذراعـه، وغرسـها في عنـق الفتـى ذي الشـعر الأحمـر، تدفَّقَـت الدمـاء عـلى الفـور بكَـمٍّ مَهـولٍ، وتلطَّـخ بـه بـيرت. بـدأ الفتـى ذو الشـعر الأحمـر يُقَرقِـرُ ويسـير في دورَةٍ كبـيرة. نشـب أظافـره عنـد السـكين، محـاولًا أن يُخرِجَـه، ولم يَقـدِر.

راقبـه بـيرت وهـو فاغِـرٌ فـاه، هـذا لا يحـدث، كان حُلـمًا. قَرْقَـرَ الفتـى ذو الشـعر الأحمـر وتحـرَّك قُدُمًـا، وكان صوتـه هـو الصـوت الوحيـد في بواكـير العصـاري الحـارَّة. والآخـرون راقبـوا وصُعقـوا.

فكَّر بيرت شاعِرًا بالخَدَر: لم يَرِد هذا الجُزءُ في النَّصّ، أنا وفيكي كُنّا في النص، والفتى في حقل الذُّرة الذي كان يحاول الفرار، لكنه لم يَكُن أحدَهم. حَدَّق إليهم بشراسة، راغبًا في الصراخ: ما رأيكم في هذا؟

قَرقَرَ الفتى ذو الشعر الأحمر قَرقَرةً واهِنةً أخيرة، وانهار على ركبتيه. أمعن النظر إلى بيرت للحظة، ثم وهنت يداه عن مقبض السكين، وسقط على الأرض.

نَدَّ صوت تَنهِدَةٍ رقيقة من الأطفال المجتمعين حول سيارة الثَّاندَربيرد. وحدَّقوا إلى بيرت، وبادَلَهم بيرت التحديق في ذهول، وذلك حين لاحظ اختفاء فيكي.

سأل: "أين هي؟ إلى أين أخذتموها؟".

رفع أحدُ الفتية سِكِّينَ صَيدٍ مُلطَّخًا بالدماء نحو رقبته، وحرَّكها بحركةٍ قاطعة. ابتسم، وكانت تلك إجابته الوحيدة.

جاء صوتٌ رقيق لولَدٍ أكبر سِنًّا من مكان ما في الوراء، يقول: "أَحضِروه".

بدأ الفِتيَةُ في السير نحوه، وتراجَعَ بيرت. بدؤوا يمشون أسرع، فتراجَعَ بيرت بوتيرةٍ أسرع. البندقية، البندقية اللعينة! خارج متناوَلِ اليَدِ. قلَّصَت الشمس ظلالهم بظُلَمةٍ على المرج الأخضر للكنيسة، ثم صار على الممشى، حيث استدار وهرب.

صرخ أحدهم: "اقتلوهّ". وتحرَّكوا في إثره.

ركض، ولكن على هُدًى من طريقه، طاف حول مجلس البلدية، لا يوجد عَونٌ هناك، سيحاصرونه مثل الفأر، وركض إلى شارع ماين، حيث تشعَّب الطريق، وصار الطريقُ السَّريعُ على بُعد بنايتين. لو كان استمع إلى كلامها، لتحرَّك هو وفيكي الآن على الطريق مُبتَعِدين من هنا.

ارتطم حذاؤه في الرصيف، استطاع أن يرى أمامه بضعة بنايات تجاريَّة، بما فيها متجر آيس كريم جاتلن، وبالطبع سينما بايجو، حيث تقول الحروف المُثبَّتة التي تكتَّلَت عليها الأتربة:

"يعر.. الآن

لـ.ترة مـ..دود..

إلي..ا..يث تايلور

كليوبا..را".

وراء التقاطع التالي محطَّة بنزين تُميِّز حافَّة البلدة، ووراءها الذُّرة التي تقفل المسار من جديد وصولًا إلى جهتي الطريق، مَدٌّ أخضر من الذُّرة.

ركض بيرت، استنفد أنفاسه بالفعل، وبدأ يؤلمه الجُرحُ العلوي في ذراعه، تاركًا خَيطًا من الدماء، وفي أثناء رَكضِه، اجتذب منديلَه من جيبه الخلفي وحشره داخل قميصه.

ركض، وانسحق حذاؤه في الأسمنت المتشقِّق للممشى، بُحَّ حَلقُه بصوتِ تَنفُّسه بالمزيد والمزيد من السخونة. بدأ ذراعه يخفق حقًّا. حاول جزءٌ لاذِعُ السخرية داخل عقله أن يتساءل إذا كان في مقدوره الرَّكض وصولًا إلى البلدة التالية، لو أنه يستطيع فقط أن يركض عشرين ميلًا على طريقٍ أسفلتيٍّ ثُنائيٍّ الاتجاهات.

ركض، وسمعهم من خلفه، أصغر منه سنًّا بخمسة عشر عامًا، وأسرع منه. طقطقت أقدامهم على الرصيف، هتفوا وصاحوا لأحدهم الآخر بالتبادُل، وفكَّر بيرت بطريقةٍ مُفكَّكَة: نالوا مُتعَةً أكبر ممَّا نالوها مع إنذار حريق استجابت له خمس وحدات مطافئ، سيتحدَّثون عن الأمر لسنوات قادمة.

ركض بيرت.

ركض مُتجاوِزًا محطة البنزين التي تُميِّز حافَّة البلدة، لهث نَفَسُه وهدر في صدره. انتهى الرصيف من تحت قدميه، والآن لم يتبقَّ سوى شيء واحد لفِعلِه، فرصة واحدة فقط لهزيمتهم والنجاة بحياته. اختفت البيوت، واختفت البلدة. تدفَّقَت حقول الذُّرة في موجة خضراء ناعمة وصولًا إلى أطراف الطريق. خَشخَشَت بِرِقَّةٍ الأوراقُ الخضراء الشبيهة بالسيوف، سيكون باطِنُ الحقل عميقًا، عميقًا وباردًا، وظليلًا بين صفوف الذُّرة التي تطول قامات البشر.

مرَّ على لافتة تقول: "أنت الآن تغادر جاتلن، ألطف بلدة صغيرة في نبراسكا، أو في أي مكان آخر! عاوِدٍ زيارتنا في أي وقت".

أطْرَقَ بيرت مُفكِّرًا في بلادة: سأحرص على ذلك.

ركض متجاوزًا اللافتة مثل عدَّاء يقترب من شريط نهاية السباق، ثم انحرف جِهَةَ اليسار عابرًا الطريق، ورمى حذاءه بعيدًا، بعدها بات داخل حَقلِ الذُّرة، وأقفل من ورائه ومن فوقه مثل أمواج بحر أخضر يَسحَبُه إلى الداخل، شعر براحَةٍ مُفاجِئَة وغير مُتَوقَّعة بالمرة تجتاحه، واستقبل في نفس اللحظة رياحه الثانية، وبَدَت رئتاه الضَّيِّقتان كأنهما تنفتحان وتمنحانه المزيد من الأنفاس.

سارع إلى أول صَفٍّ دخله، وتوارت رأسه، وكتفاه العريضتان تخبطان الأوراق وتَهزَّناها. بعد عشرين ياردة في الداخل اتجه إلى اليمين، على التَّوازي مع الطريق مرَّةً أخرى، واستمرَّ في الركض، منخفضًا بجسده حتى لا يروا رأسَه الدَّاكِن بارزًا بين شُرابات الذرة الصفراء، انعطف ثانية في اتجاه الطريق للحظاتٍ قليلة، وتقافز من صَفٍّ لصَفٍّ، خائضًا أكثر فأكثر داخل حقل الذُّرة.

في النهاية، انهار على ركبتيه ووضع جبهته على الأرض، كل ما سمعه فقط صوت تَنفُّسه المُرهق، والفكرة التي دارت في ذهنه مرَّةً تِلوَ الأخرى: أشكر الرَّبَّ على إقلاعي عن التدخين، أشكر الرب على

إقلاعـي عـن التدخـين، أشـكر الـرب... ثـم سـمعهم، ينـادون عـلى بعضهـم البعـض بالتنـاوب، ويخبـط أحـدٌ الآخـر في بعـض الحـالات (وَيحَـك، هـذا صَفِّـي!)، وشـدَّ الصـوتُ مـن أَزرِهِ، كانـوا بعيديـن عنـه مـن ناحيـة يسـاره، وبَـدَوا سَـيِّئين في التنظيـم.

سـحب منديلـه مـن قميصـه، وطـواه، وحـشره مـرة أخـرى بعدمـا نظـر إلى الجُـرح، يبـدو أن النزيـف قـد توقَّـف رغـم المجهـود البـدني الـذي بذلـه.

اسـتراح للحظـةٍ أطـول، ثـم أدرك فجـأة أنـه عـلى مـا يـرام، أفضـل جسـديًّا مِـمَّا كان عليـه منـذ سـنواتٍ، فيـما عـدا الخفقـان في ذراعـه، شـعر أنـه تـدرَّب جيـدًا، ويصـارع فجـأةً مُشـكِلةً لا لَبـسَ فيهـا (لا يهـمُّ مـدى جنونهـا) بعـد عامـين مـن محاولـة التأقلـم مـع مخلوقـات الجرملـين الجاثِمَـة التـي تَسـلبُه علاقتـه الزوجيـة.

قـال لنفسـه إنـه لا يسـتقيم أن يشـعر عـلى هـذا النحـو، كان في خَطـرٍ مُميـت، وزوجتـه تعرَّضـت للاختطـاف، ربمـا تكـون ميِّتـةً الآن، حـاول أن يسـتدعي وجـه فيـكي، مُبـدِّدًا بذلـك بعـض الشـعور الطيـب والغريـب، لكـن وجههـا لا يـأتي، وإنمـا جـاءه وجـهُ الفتـى ذي الشَّـعر الأحمـر مـع المطـواة في حلقـه.

صـار واعيًـا بعبـير الـذُّرة مـن حولـه في أنفـه الآن، صنعـت الريـحُ عـبر رؤوس النباتـات تَـردُّدات تشـبه الأصـوات، ذات وَقْـعٍ هـادئ. أيًّـا كان مـا اقـترف باسـم الـذُّرة، صـار الآن حاميـه.

لكنهم باتوا قريبين.

سـارَعَ إلى الصَّـفِّ الـذي كان فيـه وهـو يركـض مُحدَودِبًـا، وعـبر، والتـفَّ ثانيـة، وعـبَرَ المزيـد مـن الصفـوف، حـاول إبقـاء الأصـوات دائمًـا عـلى يمينـه، ولكـن مـع تَقـدُّم فـترةِ بعـد الظهـيرة، بـات الحفـاظ عـلى ذلـك أصعـب. خفتَـت الأصـوات، ودائمًـا مـا يُشـوِّش صـوتُ خَشخَشَـةِ الـذُّرة عليهـم مجتمعـين، كان سـيركض، ويسـترِقُ السَّـمع، ويركـض ثانيـة. كانـت

الأرض مُتصلِّبةً، وتركت قدماه المغطَّاتَان بالجوارب آثارًا طفيفة، أو لم تترك أثرًا.

حين توقَّفَ بعدها بكثير، كانت الشمس مُعلَّقةً فوق الحقول عن يمينه، حمراء ومتوقِّدَة، وحين نظر إلى ساعة يده، اكتشف أنها السابعة والربع مساء، صبغت الشَّمسُ رؤوسَ حَبَّات الذُّرة بلونٍ ذَهبيٍّ مُحمَرٍّ، لكنَّ الظلال هنا كانت مُظلِمَةً وقاتِمَة، كوَّم رأسه كي يسترق السمع، مع قدوم مغيب الشمس، ماتت الرياح تمامًا وسكنت الذُّرة، مُطلِقَةً عبيرَ نَمائِها في الهواء الدافئ. إذا كانوا ما زالوا متواجِدين في حقل الذُّرة، فإمَّا أنهم بعيدون جدًّا أو أنهم يتَحصَّنون وينصتون، لكن بيرت لم يَظنَّ أن مجموعة من الأطفال قد يبقون هادئين كل هذا الوقت، حتى الأشقياء منهم.

شكَّ أنهم اقترفوا أكثر فعل طفولي على الإطلاق: الاستسلام والعودة إلى المنزل، بغَضِّ النظر عن العواقب التي تنتظرهم.

استدار في اتجاه الشمس الغاربة، الغارقة بين الغيوم الطائفة في الأفق، وبدأ في السير، إذا حثَّ الخُطى في خَطٍّ مائِلٍ عبر الصفوف، سابقًا الشمس الغاربة، سيتَّجِه إلى الطريق 17 عاجلًا أم آجلًا.

استقرَّ الألم في ذراعه على خَفَقانٍ طفيف ولطيف بعض الشيء، وما زال يلازمه الإحساسُ الطَّيِّب، قرَّر أنه طالما تواجد هنا، سيترك الإحساس الطيب في داخله دون شعور بالذنب، سيعود الشعور بالذنب حين يتوجَّب عليه مواجهة السُّلطات، ويُحاسب على ما جرى في جاتلن، ولكن يمكن لهذا أن ينتظر.

تحرَّكَ بين الذرة؛ ظنًّا أنه لم يشعر قَطُّ بهذا القدر من الوعي الثاقب. بعد خمس عشرة دقيقة، صارت الشمس مجرَّدَ نِصفِ كُرَةٍ بارزة في الأفق، وتوقَّف ثانية؛ لأن وعيه الجديد نَبَّهه إلى نَمَطٍ لا يُحبُّه، كان على نحوٍ غامض... لِنَقُلْ، خائفًا على نحو غامض.

أحنى رأسه، وخشخشت الذرة.

كان بيرت واعيًا بذلك لبعض الوقت، وجمع شتات ما يحدث مع شيء آخر، صارت الرياح ساكِنةً، كيف يمكن ذلك؟

تلَفَّتَ حوله بحَذَرٍ، شبه متوقِّع أن يرى الأطفال المبتسمين المرتدين لمعاطف طائفة الكويكرز يزحفون من خارج حقل الذُّرة، مُمسِكين سكاكينهم في أياديهم. لا شيء من هذا القبيل، فقط الصوت المُخَشخِش عن جهة اليسار.

بدأ السير في هذا الاتجاه، دون اضطرار إلى الاندفاع بين الذرة بعد الآن، حيث يأخذه الصَّفُّ إلى الاتجاه الذي يريده بطريقة طبيعية، وصل الصَّفُّ إلى نهايته قُدمًا، انتهى؟ لا، بل انتهى المآل إلى أرضٍ فضاء، سمع صوت الخشخشة هناك.

توقَّف فجأة في خوف.

كانت رائحة الذُّرة قويَّةً بما يكفي لتُشعِرَه بالتُّخمَة، تشبَّثَت الصفوف بحرارة الشمس، وصار واعيًا أنه مُغطًّى بالعَرَق والقَشِّ والخيوط العنكبوتية الرفيعة لألياف الذُّرة، يفترض بالحشرات أن تزحف فوقه، لكنها لم تزحف.

وقف ساكنًا، محملقًا في اتجاه البقعة التي يتشعَّب منها حقل الذُّرة إلى دائرة كبيرة من الأرض المُجردة.

لا يوجد هنا ذبل ولا بعوض، ولا ذلفاوات ولا بَقٌّ أحمر، والذي كان يُطلِق عليه هو وفيكي اسم "حشرة سينما السيارات" حين كانا يتغازلان.

انتابته ذكرى حزينة فجأة ودون توقُّع، ولم يَرَ غُرابًا واحدًا، كم هذا غريب، حقل ذُرة بلا غراب؟

في آخر ضوء النهار، مَشَّطَ بعينيه صفَّ الذرة الواقع على يساره عن قرب، ورأى كل ورقة وساق في أحسن تقويم، وهذا غير ممكن، فلا وجود لآفاتٍ صفراء، ولا أوراق ممزَّقة، ولا شرانق فراشات، ولا جحور، ولا... اتَّسعَت عيناه.

يا إلهي، لا وجود لأي عشب!

ولا نوعٌ واحِدٌ منها، على مدى قَدَمٍ ونصف ارتفعت فيه الذُّرة عن الأرض، لا وجود للثمام الشَّعري، ولا الداتورا، ولا الصبغة الأمريكية، ولا حشيشة الكلاب، لا شيء.

حدَّق بيرت بعينين مُتَّسِعَتيْن، الضوء في الغرب يخبو، والغيوم الطائفة تَنحَسِرُ معًا، وتحتها يذوي الضوء الذهبي ليصير كلون القرنفل والغراء، ستظلم الدنيا عمَّا قريب.

حان وقت الهبوط إلى الأرض الفضاء بين الذُّرة واكتشاف ما يوجد هناك، ألم تكن تلك هي الخُطَّة منذ البداية؟ ظنَّ أنه يَشُقُّ طريقه نحو الطريق السريع، ألم يحمله هذا إلى ذلك المكان؟

اتَّجه إلى الصَّفِّ، شاعِرًا برِعدَةِ خَوفٍ في بطنه، ووقف على حافَّة الأرض الفضاء. يوجد ما يكفي من الضوء كي يرى ماذا هناك، لم يَستَطِع الصُّراخ، لا يبدو أنه قد تبقى هواء في رئتيه، ترنَّح على ساقيه مثل شرائح الخشب المنشقَّة. جحظت عيناه من وجهه المتعرِّق.

همس: "فيكي، أوه فيكي، يا إلهي...".

كانت مُعلَّقةً على عارضة خشبية مثل غنيمة قبيحة، ذراعاها مربوطتان من الرُّسغَيْن، ورِجلاها من الكاحِلَيْن بواسطة لفائف من السِّلكِ الشَّائك العادي الذي يُباع بسبعين سنتًا للياردة في أي متجرٍ للمُعِدَّات في نبراسكا، عيناها مقتلعتان، ومحجراهما محشوَّان بالخيوط

الكِتَّانيـة لأليـاف الـذُّرة، وفَكَّاهـا مفتوحـان غضبًـا في صرخَـةٍ صامتـة، وفمها مَحشـوٌّ بقـشر الـذُّرة.

عـلى يسـارها جمجمـة داخـل رداءٍ كهنـوتيٍّ مهترئ، ابتسـم فَكُّـه العاري، وبـدا عـلى محجـري العينـين أنهـما يُحدِّقـان إلى بـيرت مُمازِحَـيْن، كأنَّ مَـن كان قِـسَّ كنيسـة النعمـة المعمدانيـة في السـابق يقـول: ليـس مـن السيِّئ لهـذه الدرجـة أن يُضحِّـي بِـكِ شَـيطانٌ وَثنـيٌّ عـلى يـد أطفـال الـذُّرة، وأن تُقتلـع عينـاك حسـب شريعـة مـوسى. عـلى يسـار الهيـكل العَظمـيِّ المُغطَّى بالـرداء الكهنـوتي هيـكلٌ عَظمـيٌّ آخـر، والـذي تغطِّيـه بذلـة رسـمية زرقـاء متآكلـة، وتدلَّـت قُبَّعَـةٌ فـوق الجمجمـة، مُغطِّيَـةً عـلى العينـين، وفي أعـلى القبعـة شـارَةٌ تشـوبها الخـضرة كُتِـبَ عليهـا رئيـس الشرطـة.

كان هـذا حـين سـمع بـيرت بقدومـه، ليـس الأطفـال وإنمـا شيءٌ أكـبر بكثـير، يتحـرَّك عـبر حقـل الـذُّرة ونحـو الأرض الفضـاء، ليـس الأطفـال، لا، لـن يجـازف الأطفـال بالقـدوم إلى حقـل الـذُّرة في الليـل، فهـذا هـو المـكان المقـدَّس، مـكان المشَّـاء خلـف الصفـوف.

اسـتدار بـيرت في ارتبـاكٍ كي يلـوذ بالفـرار، اختفـى الصَّـفُّ الـذي دخـل منــه إلى الأرض الفضــاء، أُغلِـقَ، كُلُّ الصُّـفوف أُغلِقَـت، كان يقـترب الآن أكـثر واسـتطاع أن يسـمعه، يشـقُّ طريقـه في حقـل الـذُّرة. سـمع أنفاسـه، واسـتولى عليـه شـعورٌ غامِـرٌ بالرُّعـب الخـرافي. كان آتيًـا. فجـأة أظلمـت الـذُّرة المتواجِـدَةُ في الجانـب البعيـد مـن الأرض الجَـرداء، كـما لـو تَشَرَّبهـا ظِـلٌّ عمـلاق.

قادِم.

ذلك المشَّاءُ خلف الصفوف.

بـدأ في القـدوم نحـو الأرض الفضـاء، رأى بـيرت كيانًـا ضخـمًا، يُطـاوِلُ السَّـماء، كائِنًـا أخـضر لـه عينـان حمـراوان مخيفتـان بحجـم كُـرَتَيْ قـدَم.

كائـن رائحتـه مثـل قشـور ذُرة جافّـة تكدَّسَـت لسـنوات في مخـزن غـلال مُظلِـم.

شرع في الصراخ، لكنه لم يصرخ طويلًا.

وفي وقت لاحق، بزغ قمر حصاد منتفخ برتقالي اللون.

***

وقـف أطفـال الـذُّرة في الأرض الفضـاء في منتصـف النهـار ينظـرون إلى الهيكلَـيْن العَظميَّـين المصلوبَـيْن، وإلى الجُثَّتَـيْن.

لم تتحـوَّل الجُثَـث إلى هيـاكِلَ عظميَّـةٍ بَعـدُ، لكنهـا سـتصير كذلـك. في آخـر وقـت، وهنـا، في قلـب نبراسـكا، في حقـل الـذُّرة، حيـث لا شيء سـوى الوقـت.

"انظروا، راوَدَني حلم في الليل، وأظهر لي الرَّبُّ كل هذا".

اسـتداروا جميعًـا لينظـروا إلى إسـحاق برهبـة ودهشـة، بمـن فيهـم ملاخـي. كان إسـحاق في سِـنِّ التاسـعة فقـط، لكنـه أصبـح المتنبِّـئَ منـذ اسـتحوذت الـذُّرة عـلى داود منـذ عـامٍ مـضى، كان داود في سِـنِّ التاسـعة عـشرة، وسـار نحـو حقـل الـذُّرة في عيـد ميـلاده، بمجـرَّد حلـول الغسـق عـلى صفـوف الـذُّرة الصَّيفيَّـة.

والآن، واصـل إسـحاق حديثـه، بوجـهٍ صغـير وقـور تحـت قُبَّعَتِـه مسـتديرة القِمَّـة:

"وفي حلمـي، كان الـربُّ ظِـلًّا مشَّـاء خلـفَ الصفـوف، وتحـدث إليَّ بكلـمات اسـتخدمها مـع أخوتنـا الأقدمـين منـذ سـنواتٍ خَلَـت، إنـه غـير راضٍ كثـيراً عـن هـذه الأضحيـة".

أحدَثـوا جَلبـةً مـن التَّنهُّـد والنحيـب، وتطلَّعـوا إلى الجـدران الخـضراء المحيطـة.

"ويقول الرَّبُّ: ألم أمنحكم موضعًا للقتل تقيمون فيه الأضحيات؟ ألم أُظهِر لكم المعروف؟ لكن هذا الرجل نطق مُهرطِقًا عمَّا بداخلي، وأتممتُ بنفسي تلك الأضحية، مثل الرَّجُل الأزرق والقسِّ المُزَيَّف اللذَيْن هربا منذ سنوات عدَّة".

تهامسوا: "الرجل الأزرق والقسُّ المُزيَّف"، ونظروا إلى بعضهم البعض في اضطراب.

واصل إسحاق حديثه: "لذا خُفض سِنُّ رَدِّ المعروف من تِسعَة عشر موسمًا للنَّبتِ والحصاد إلى ثمانية عشر، أثْمِروا وتكاثروا مثلما تتكاثر الذُّرة، وسيتبيَّن لكم معروفي، ويحلُّ عليكم".

توقَّف إسحاق عن الحديث.

تحوَّلَت الأعين إلى ملاخي وجوزيف، الوحيدان في سنِّ الثامنة عشرة ضمن الجَمع، يوجد آخرون مثلهم في البلدة، ربما يبلغ عددهم عشرين.

انتظروا سماعَ ما سيقوله ملاخي، ملاخي الذي قاد حملةَ مُطارَدَة يافث، الذي سيُعرَف دائمًا وأبدًا باسم آحاز، الملعون من الرب.

قطع ملاخي رقبة آحاز، ورمى جُثَّته خارج حقل الذُّرة حتى لا يُدنِّسه ولا يُتلِفَه الجَسَدُ العَفِن.

همس ملاخي: "إني أمتثل لكلمة الرَّبِّ".

يبدو أن الذُّرة تَنهَّدَت بمباركتها.

في الأسابيع التالية، ستصنع الفتياتُ الكثير من الصلبان من أكواز الذُّرة لترعاهم من أي شَرٍّ يستجدُّ.

وفي تلك الليلة، سار في صمتٍ كُلُّ مَن تَخطَّوا سِنَّ رَدِّ المعروف إلى حقل الذُّرة ليجنوا المعروفَ المتواصل من المشَّاء خلف الصفوف.

صاحت راعوث: "وداعًا يا ملاخي"، لوَّحَت بيدها بلا عزاء، كبرَت بَطنُها بابن ملاخي، وجَرَت الدموع في صمتٍ على خدَّيها. لم يلتفت ملاخي، واستقام ظهره. ابتلعته الذُّرة.

ابتعَدَت راعوث، وما زالت تبكي، كانت تُكِنُّ كراهيَةً سِرِّيَّةً للذُّرة، وحلمت أحيانًا بالسير فيه حامِلةً شُعلَةً في كُلِّ يَدٍ حين يَحلُّ شَهرُ سبتمبر الجاف، مع موت السيقان، وقابليَّتها للاشتعال المتفجِّر. لكنها أيضًا خَشِيَت من هذا؛ ففي الخارج، وفي أثناء الليل، سار شيءٌ ما، ورأى كلَّ شيء... بما فيها الأسرار الكامنة في قلوب البشر.

غاب الغسق في جوف الليل، وخَشخَشَت الذُّرَةُ حول جاتلن، وهمَسَت سِرًّا. باتت راضِيَةً مَرضيَّة.

آخِرُ دَرَجةٍ على السُّلَّم

وصلتني أمس رسالةُ كاترينا، بعد أقلَّ من أسبوعٍ على عودتي أنا ووالدي من لوس أنجلوس. بُعِثَت الرسالة إلى ويلمنجتون بولاية ديلاوير، بعدما غيَّرتُ سكني مرَّتَيْن منذ ذلك الوقت. كثيراً ما يُغيِّر الناس الآن مساكنهم، ومن الطريف كيف تبدو مُلصَقات العناوين المشطوبة والمتغيِّرة كأنها اتهامات. كانت رسالتها مُتغضِّنة ومُلطَّخة، وتجعَّدَ أحد أطرافها مثل أذن الكلب بِسَبَب التوصيل. قرأت فحواها، والشيء التالي الذي أعرفه أنِّي كنتُ واقِفًا في حجرة المعيشة والهاتف في يدي، أتأهَّب لمهاتَفَة بابا. أنزلتُ سمَّاعة الهاتف بإحساسٍ يُشبِه الرُّعب، كان رَجُلًا عجوزًا، وعانى من أزمتين قلبيَّتَيْن. هل سأتصل به وأخبره عن رسالة كاترينا مبكِّرًا هكذا بعدما كُنَّا في لوس أنجلوس؟ الاتصال قد يقتله لا ريب.

لذا لم أتَّصِل، وليس لديَّ أحدٌ لأُخبِرَه.. بشيء كمثل هذه الرسالة، الأمر شديد الخصوصية على أن أحكي عنه لأحدٍ ما عدا زوجة أو

صديقًا مقرَّبًا جدًّا. لم أُكوِّن الكثير من الصداقات الوثيقة في السنوات الأخيرة، وزوجتي هيلينا وأنا حصلنا على الطلاق في العام 1971. ما نتبادله معًا الآن بطاقات الكريسماس: كيف حالُكِ؟ كيف أحوال العمل؟ أتمنَّى لك سنة سعيدة.

بَقيتُ مستيقظًا طيلة الليل معها، مع رسالة كاترينا، كان بمقدورها أن تقول ما يجول بخاطرها في بطاقة بريديَّة، توجد جُملَةٌ واحدة فقط تحت عبارة "عزيزي لاري"، ولكن يمكن لجُملَةٍ أن تُغني عمَّا سواها، في المعنى وفي الأثر.

تذكَّرتُ والدي على متن الطائرة، يبدو وجهه مُسِنًّا وهائمًا في أشِعَّة الشمس القاسية على ارتفاع 18000 قدم بينما نتَّجِه شرقًا من نيويورك. كنَّا "نَمرُّ فوق أوماها" حسبما يقول الطَّيَّار، وحينها قال والدي: "إنها أبعدُ بكثير عمَّا تبدو عليه يا لاري". ثَمَّة حزن ثقيل يسكن صوته جعلني غيرَ مرتاح لأني لم أستطع أن أفهمه، وفهمته على نحو أفضل بعد تلقِّي رسالة كاترينا.

ترعرعنا على بعد ثمانية أميال غرب أوماها في بلدة تُدعى همنجفورد هوم، أبي وأمي وشقيقتي كاترينا وأنا. كنتُ أكبرَ بعامَيْن من كاترينا، والتي أطلق عليها الجميع كيتي. كانت طفلةً جميلة وامرأة جميلة، حتى في سِنِّ الثامنة، في عام حادثة الحظيرة، حيث لن يغمَقَ لَونُ شَعرِها الشبيه بحرير الذُّرة أبدًا، وستظلُّ هاتان العينان زرقاوَيْن اسكندنافيَّتَيْن داكِنتَيْن، يُجنُّ جنون المرء من نظرةٍ من هاتين العينين.

أظنُّ أنك ستقول إننا ترعرعنا كريفيِّين أجلاف. امتلك والدي ثلاثمائة أكر من الأرض الغنية المُسطحَّة، وزرع فيها الذُّرة الرفيعة، وربَّى قطيعًا من الخراف. الكلُّ أطلق عليها "المَوطِن"، في تلك الأيام كانت جميعُ الطُّرُق تُرابيَّةً فيما عدا الطريق السريع 80 وطريق نبراسكا 96، وكنَّا ننتظر ثلاثة أيام من أجل الخروج في رحلة إلى البلدة.

في عصرنـا الحـالي، يعتبرونـني مـن أفضـل محامـيّ الـشَّركات المسـتقلَّة في أمـيركا، أو هكـذا يقولـون لي، وعـليَّ الاعـتراف بدافـعٍ مـن الأمانـة أنهـم عـلى حَـقٍّ. قدَّمَنـي ذات مـرة رئيـسُ شركـةٍ كـبرى إلى أعضـاء مجلـس إدارته بصفتـي سـلاحه المُسـتَأجَر. أرتـدي بـذلاتٍ باهِظَـةَ الثَّمـن، وحـذائي الجلدي مـن أفضـل طـراز. لـديَّ ثلاثـة مسـاعدين يعملـون بـدوامٍ كامـل، ويمكنـني اسـتدعاء آخريـن إذا احتَجـتُ إليهـم، ولكنـي في تلـك الأيـام، مَشـيتُ في طريـق تـرابي إلى إحـدى مـدارس الفصـل الواحـد مـع كتـبٍ مَحزومَـةٍ فـوق كتفـي، وتمشَّـت معـي كاترينـا. أحيانًـا كُنَّـا نسـير حُفـاةَ الأقـدام في الربيـع، وجـرى هـذا قبـل أن نفقـد قدرتنـا عـلى طلـب وجبـات في حافلـة طعـام أو التبضُّـع في سـوقٍ إلا لـو ارتدينـا أحذيتنـا.

بعدهـا بفـترة، ماتـت أمـي، وكاترينـا وأنـا كنَّـا وقتئـذ في المدرسـة الثانويـة في كولومبيـا سـيتي، وبعدهـا بعامَـيْن خسـر والـدي "الموطـن"، وتوجَّـه للعمـل في بيـع الجـرَّارات. كانـت نهايـةَ الأسرة، حتـى إذا لم يَبـدُ الأمـر وقتهـا بهـذا السُّـوء. تآلَـفَ والـدي مـع عملـه، واشـترى وكالـةً للبيـع، ونُصِّـبَ في مَنصـبٍ إداري منـذ تسـع سـنوات. أنـا حصلـت عـلى منحـةٍ كرويـة في جامعـة نبراسـكا، واسـتطعت أن أتعلَّـم شـيئًا بجانـب كيفيَّـة الركـض بالكـرة بعيـدًا عـن المركـز الخلفـي الأيمـن.

وكاترينا؟ هي من أريد الحكي عنها.

حدَثَـت واقعـة الحظـيرة ذات يـوم سـبتٍ في بواكـير شـهر نوفمـبر، وكي أكـون صريحًـا، لا أسـتطيع تحديـدَ السـنة فعليًـا، كان آيـك[1] وقتَئِـذٍ مـا يـزال رئيسًـا للجمهوريـة. كانـت أمـي في معـرضٍ للمخبـوزات في كولومبيـا سـيتي، ومـرَّ والـدي عـلى أقـرب جـارٍ لنـا (والـذي كان عـلى بُعِـد سـبعة

(1) نسـبة إلى دوايـت آيزنهـاور، الرئيـس الرابـع والثلاثـين للولايـات المتحـدة الأمريكيـة، حيـث كان رفاقـه في مقتبـل العمـر يلقبونـه بـ(آيـك)، وهـو اللقـب الـذي بقـى معـه في الكـبر، حتـى بعـد مشـاركته في الحـرب العالميـة الثانيـة، كـما اسـتخدمه في حملتـه الانتخابيـة لمنصـب رئاسـة الجمهوريـة خـلال حقبـة الخمسـينيات مـن خـلال الشـعار الشـهير "أنـا أحـب آيـك" (المترجـم)

أميـال منّـا) كي يسـاعد الرجـل في تصليـح مجرفـةٍ للقَـشّ، كان يفـترض تواجـد رَجُـلُ تصليحـات هنـاك، لكنـه لم يظهـر قَـطُّ في هـذا اليـوم، وفصلـه أبي بعدهـا بأقـلّ مـن شـهر.

تـرك لي أبي لائحـةً بالواجبـات المنزليـة (وتـرك بعـض من هـذه الواجبات لكيتـي أيضًـا)، وأمَرَنـا ألّا نلعـب إلا بعـد الانتهـاء منهـا جميعًـا، لكـن هـذا لم يسـتمرَّ طويـلًا. كُنّـا في نوفمـبر، وبحلـول هـذا الوقـت مـن العـام، مـرَّ الوقـت الحَـرِج في العمـل، وكنّـا سنُعيد الكَـرَّةَ ثانيـةً هـذا العـام، ومـا كُنّـا كذلـك عـلى الـدَّوام.

أتذكّـر هـذا اليـوم بوضـوحٍ تـام، حيـث تَلَبَّـدَت السـماء بالغيـوم، بينـما لم يَكُـن الجَـوُّ بـاردًا، وتشـعر أن الجَـوَّ يريـد أن يصـير بـاردًا، ويرغـب في الوصـول لنقطـة الصقيـع والتَّجمُّـد، والثلـج والمطـر المتجمِّـد. تَعـرَّت الحقـول، وخمَلَـت الحيوانـات وكَلَحَـت، ويبـدو أنـه ظهَـرَت فجـواتٌ صغـيرة غريبـة في المنـزل لم توجـد مـن قبـل.

في يـومٍ كهـذا، كان المـكان الملائـم الوحيـد للتواجُـد فيـه هـو الحظـيرة، كان دافئًـا، وعَبِقًـا برائحـةٍ طَيِّبَـة لمزيـجِ القَـشِّ والفِـراء والـرَّوَث، مـع قوقَـأةِ الدَّجاجـات وشقشـقة سـنونوات الحظـيرة في العلِّيَّـة الثالثـة، وإذا لَوَيـتَ عُنُقَـكَ إلى الأعـلى، سـترى الضيـاء النوفمـبريَّ الأبيـض الصـادر مـن فجـوات السَّـطح، وتحـاول منهـا أن تتهجّـى اسـمك. لُعبَـةً بـدت مناسـبة فقـط في أيـام الخريـف الغائمـة.

كان يوجـد سُـلَّمٌ مُثبَّـت بالمسـامير عـلى عارضـة خشـبية تـؤدِّي إلى العلِّيَّـة الثالثـة، وهـو سُـلَّمٌ يـؤدِّي مباشرة في حـال النـزول إلى بـاب الحظيرة الرئيـسي. كنّـا ممنوعـين مـن الصعـود عليـه لأنـه قديـمٌ ومُتقَلقِـل. قطـع والـدي عهـدًا لأُمِّـي أنـه سـيتخلَّص منـه ويضـع سُـلَّمًا أمْتَـنَ، ولكـن دائمًـا مـا يطـرأ ظَـرفٌ جديـد كلَّـما تَسـنَّى لـه الوقـت، مثـل مسـاعدة جـارٍ في

تصليح مجرفَةِ القَشِّ على سبيل المثال، وما كان الرجل الذي استعان بـه ذا نَفْـعٍ يُذكَـر.

إذا صعـدت عـلى هـذا السُّـلَّم المتقلقـل، سـتجد فيـه ثلاثًـا وأربعـين درجـةً بالتـمام والكـمال، كيتـي وأنـا أحصيناهـم بمـا فيـه الكفايـة، وينتهـي بـك المطـافُ فـوق عارضـة تَبعُـد سـبعين قدمًـا عـن أرض الحظـيرة المكسـوَّة بفضـلات القَـشِّ، وإذا أفلَحـتَ في الارتفـاع عـلى العارضـة بحـوالي اثنتـي عـشرة قدمًـا، تتشـنَّج رُكبَتـاك، ويُصـدر مِفصَـلا كاحِلَيْـك صـوتَ صريـر، وينشـف ريقُـكَ، ويصـير طعمـه مثـل الفتيـل المُسـتَعمَل، وتقـف فـوق مخـزن القَـشِّ. وبعدهـا تقفـز مباشرةً مـن فـوق العارضـة في سَـقطَةٍ حُـرَّة تبلـغ سـبعين قدمًـا، مـع انقضاضَـةٍ مُميتَـةٍ مُفزِعـة ومَرِحَـة عـلى فِـراشٍ ضَخـمٍ وثـير مـن القَـشِّ الوفـير. للقَـشِّ رائحـة حلـوة، وسيتسـنَّى لـك أن تسـترخي مـع رائحـة الصيـف المولـود مـن جديـد، وتُفارِقُـكَ مَعِدتُـكَ في الأعـلى هنـاك في قلـب الهـواء، وتشـعر... أنـك بخـير، كمثـل شـعور لعـازر[1] حتـمًا، فقـد جازَفـتَ بالسَّـقطة وعِشـتَ لـتروي مـا حـدث.

إنهـا رياضـةٌ مُحرَّمـة، حسـنًا، وإذا ضُبِطنـا مُتلبِّسـين، سـتثير أمـي الكثـير مـن اللَّغـط، وسـيضربنا أبي بالحـزام، حتـى مـع تَقَدُّمنـا في السِّـنِّ عـلى هـذا.

وبسـبب السُّـلَّم، وإذا فقـدتَ تَوازُنَـكَ وسـقَطتَ مـن فـوق العارضـة قبـل أن تضبـط وضعـك فـوق القـوام الرَّخـوِ للقَـشِّ، سـتَهلَكُ لا محالـة عـلى الألـواح الصُّلبـة لأرضيـة الحظـيرة.

لكـنَّ الإغـواء عظيـمٌ جـدًّا، وإذا غـاب القِـطُّ... حسـنًا، أنـتَ تَعلَـم مـا يحـدث في هـذه الحالـة.

---

(1) يقصـد القديـس لعـازر الـذي وردت حكايتـه في إنجيـل يوحنـا، والـذي قـام مـن بـين الأمـوات بفضـل معجـزة السـيد المسـيح (المترجـم)

بـدأ هـذا اليـوم مثـل سـائر الأيـام؛ إحسـاسٌ لذيـذٌ مـن الرَّهبـة المُمتَزِجَة بالتَّرقُّـب، وقفنـا عـلى عتبـة السُّـلَّم، ننظـر لبعضنـا البعـض. التَمَعَـت لـونُ بـشرة كيتـي، واغْمَـقَّ لـونُ عينيهـا، وتألَّقَـت أكـثر مـن ذي قبـل.

قلت لها: "أتحدَّاكِ".

قالت كيتي على الفور: "صاحب التَّحدِّي يصعد أوَّلًا".

رَدَدتُ على الفور: "الفتياتُ يَسبِقنَ الفِتيَةَ".

قالـت: "ليـس إذا كان الأمـر خطـيرًا"، وألقـت نظـرةً صارِمـةً، كأن الجميع لا يعـرف أنَّهـا ثـاني أكـثر فتـاة مسـترجلة في همنجفورد.

كان هذا موقفها، كانت ستصعد، لكنها لن تبادر بالصعود.

قلتُ: "حسنًا، ها أنا سأصعد".

كنـت في سِـنِّ العـاشرة هـذا العـام، ونحيفًـا مثـل الشـيطان سـكراتش، وزني 90 باونـدًا تقريبًـا. كانـت كيتـي في سِـنِّ الثامنـة، وأخـفَّ مِنِّـي وزنًـا بمقـدار 20 باونـد، تَحمَّـل السُّـلَّمُ ثِقَلَنـا عـلى الـدَّوام، وظَنَنَّـا أنـه سـيتحمَّلنا دائمًـا مـن جديـد، وهـي فلسـفة تُوقـع البـشر والأمـم في أزمـات مـرَّةً تِلـوَ المـرَّة.

أحسَسـتُ بهـذا الإحسـاس في ذلـك اليـوم، شـاعِرًا بهـزَّةٍ طَفيفـةٍ مـع صعـودي لأعـلى فأعـلى في هـواء الحظـيرة المُـترب، وعنـد اقـترابي مـن منتصـف طريـق صعـودي، اسـتمتعت بتخيـل مـا سـيحدث لي إذا أفلتـت يـداي فجـأة، واستسـلمت لشـبح المـوت، لكنِّـي واصَلـتُ الصعـود حتـى بِـتُّ قـادرًا عـلى التصفيـق بيـديَّ حـول العارضـة، دافعًـا بنفـسي إلى الأعـلى وناظـرًا إلى الأسـفل.

كان وجـه كيتـي المرتفـع لِيُراقِبَنـي وَجهًـا بيضاويًّـا أبيـضَ، بَـدَت مثـل الدُّميـة في قميصهـا الكاروهـات الباهـت، وبنطـال الدنيـم الأزرق، ومـا زال

فوقي مسافةٌ أعلى، وعند حواف السَّقف المُتربة، شقشقت السنونوات بصوت شجيٍّ.

مرَّة ثانية، من الذاكرة:

نادَيتُ: "هاي، أنتِ يا مَن بالأسفل"، وطاف صوتي إليها على ذرَّات القَشِّ المتطايرة.

"هاي، أنت يا مَن بالأعلى".

وقَفَت، وتمايَلَت قليلًا جيئةً وذهابًا، وكالعادة، ظهرت فجأةً مُجرَياتٌ غَريبةٌ في الهواء لم تكُن موجودةً بالأسفل. سَمعتُ دَقَّات قلبي وأنا أفرد ذراعيَّ لأحافظ على توازني. ذات مرة، انقضَّ طائر سنونو على مقربة من رأسي خلال هذه الفقرة من المغامرة، وحين تراجَعتُ، أوشَكتُ على فقدان توازني. عِشتُ في خوفٍ من تكرار ما حدث ثانية.

لكن ليس هذه المرة، في النهاية وقَفتُ فوق نقطة الأمان في اتِّجاه القَشِّ. لم يَعُد النظر لأسفل مُخيفًا أكثر من كونه مدغدغًا للحواس. ثمَّة لحظة من التَّوقُّع، ثم قفَزتُ إلى الفضاء، ممسكًا أنفي لإحداث الأثر المنشود، ومثلما حدث على الدوام، اجتذبتني القبضة المفاجئة للجاذبية بوحشيَّةٍ إلى أسفل؛ ممَّا جعلني أهبط عموديًّا، وجعلني أرغب في الصياح: أوه، أنا آسف، أخطأت، دعيني أَعُدْ إلى أعلى.

ثم اصطدَمتُ بالقَشِّ، انطَلقتُ نحوه مثل القذيفة، وامتلأ الهواء من حولي برائحته الحلوة المُتربة، وما زلتُ أغوص فيه، كأني أعوم في مياهٍ كثيفة، آتيًا في بُطءٍ كي أُدفَنَ في القَشِّ. كالعادة، شعرتُ بتنامي عَطسَةٍ داخل أنفي، وسمعت صوتَ فأر حقلٍ مذعور أو فأرين وهما يَفرَّان نحو رُكنٍ أهدأ من مخزن القَشِّ، وأشعر على نحوٍ غريب أني وُلِدتُ من جديد. أتذكَّر ما قالته لي كيتي ذات مرة أنها شعرت بانتعاشٍ وتَجدُّد بعد الغوص في القش، مثل الطفل. هَزَزتُ كتفي

وقتئذ، عارفًا ما تقصده تقريبًا، أو غير عارف إلى حدٍّ ما، لكني أفكر في هذا أيضًا منذ تلقَّيتُ رسالتها.

قفزتُ خارج القش، كأني كنت أعوم بداخله، حتى استطعت القفز خارجه إلى أرضيَّة الحظيرة، التصق القَشُّ ببنطالي وظهر قميصي، والتصق بحذائي الرياضي وكوعيَّ. أتوجد بذور قشٍّ في شعري؟ أكيد.

كانت في منتصف طريق صعودها على السُّلَّم وقتئذ، ارتدت ضفائر شعرها الذهبية على عظام كتفيها وهي تصعد عبر شعاع ضوء مُغبرٍّ. ربما كان هذا الضوء في أيامٍ أخرى يحمل نفس بريق شعرها، ولكن في هذا اليوم، لا منافس لضفائرها، كانت بكل سهولة أزهى شيء ملوَّن في الأعلى.

أتذكَّر تفكيري في عدم حُبِّي لتَمايُل السُّلَّم جيئة وذهابًا، بدا كأنه لم يكن "ملخلخًا" هكذا.

ثم صارت على العارضة، فوقي في الأعلى، وصِرتُ أنا الآن صغيرَ الحجم، كان وجهي هو البيضاوي الأبيض الصغير المقلوب، بينما طاف صوتها وصولًا إلى الأسفل على القَشِّ الهائم المتحرِّك مع خطواتي.

"هاي، أنت يا مَن بالأسفل".

"هاي، أنتِ يا مَن بالأعلى".

تقدَّمَت إلى حافة العارضة، وانخلع قلبي داخل صدري بعض الشيء حين ارتأيتُ أنها واقفة عند نقطة الأمان في اتِّجاه القش، هكذا كان الحال دائمًا، رغم أنها أرشقُ منِّي، وأكثر رياضيَّة منِّي، هذا إذا لم يُعتبر ذلك أمرًا غريبًا تقوله عن شقيقتك الصغرى.

وقَفَت مُحافِظةً على التوازن على أطراف حذائها الرياضي المنخفض من ماركة كيدس، ويداها مفرودتان أمامها، ثم طافت. تحدَّثْ عن أشياء لا تنساها، أشياء لا يسعك وصفها، حسنًا، يمكنني الوصف على

نحو ما، ولكن ليس بطريقة تساعدك على استيعاب مقدار جمالها، ومدى مثاليَّتها، أحد الأشياء القليلة في حياتي التي بَدَت حقيقيَّةً تمامًا، وصادقة تمامًا. لا، لا يسعني أن أخبرك بهذا، لا أمتلك القدرة على التعبير سواء بقلمي أو بلساني.

بَدَت للحظة أنها مُعلَّقة في الهواء، كأنما حمَلَتها واحدةٌ من تلك الكائنات الصاخبة الغامضة المتواجدة فقط في العلِّيَّة الثالثة، سنونوة متألِّقة ذات ريش ذهبي لم تشهد نبراسكا مثيلًا له، كانت كيتي، شقيقتي، ذراعاها مُرتَدَّتان إلى الوراء، وظهرها مُقوَّس، كم أحببتها لأجل هذه اللحظة الزمنية.

ثم نزلَت وانجرفت في القَشِّ وخارج حدود النظر، انبعث انفجارٌ من القش مع قهقهات من الحفرة التي صنعتها، كُنتُ نسيت مدى تَهالُك السُّلَّم في أثناء وقفتها على عتباته، ومع مرور الوقت خرَجَت، وصِرتُ في منتصف رحلة صعودي من جديد.

حاوَلتُ أن أميل جسدي، لكن الخوف اجتذبني كما هو عَهدُه دومًا، وتحوَّل تَمايُلي إلى قذيفة مدفَعٍ. أظنُّ أني لم أؤمن قَطُّ بوجود القَشِّ هناك بنفس درجة إيمان كيتي.

إلى متى استمرَّت اللعبة؟ يصعب الجَزمُ، لكني طمحت في عشر غطسات أو إحدى عشرة بعدها، وشهدت تغيُّرَ الضوء، كان أُمُّنا وأبانا على وشك العودة وكُلٌّ مِنَّا مُغطًّى بالقَشِّ كأنه اعتراف مُوقَّع. اتَّفقنا على مرَّةٍ إضافية لكل مِنَّا.

حين صعدت أولًا، شعرتُ بالسُّلَّم يتحرَّك من تحت قدميَّ، وسمعت على نحوٍ طفيف صوتَ الاحتكاك الآن للمسامير القديمة حيث وَهَن تماسُكِها، وللمرَّة الأولى كنت خائفًا حقًّا وصدقًا، أظنُّ أنني لو كنتُ أقربَ إلى القاع، لنزلت وكانت ستكون القاضية، لكن العارضة كانت أقربَ، وبَدَت أكثر أمانًا. تعالى صوتُ أنين المسامير المنخلعة من آخر

ثـلاث درجـات في قمَّـة السـلم، وبـردت فجـأة مـن شِـدَّة الخـوف، مـع يقينـي أني دَفعـتُ الأمـر لأقـصى مـداه.

وباتـت بـين يـديَّ العارضـة المنشـقَّة، حامِلَـةً وزني بعيـدًا عـن السُّـلَّم، وانسـلَّ عَـرَقٌ بـارد غـير مُحبَّـب غَطَّـى سيقان القـش عـلى جبينـي، اختفت المتعـة مـن اللعبـة.

سـارَعتُ في اتجـاه القـش وقَفَـزتُ، وحتـى الجـزء الممتـع في القفـزة اختفـى، تخيَّلـتُ شـعوري إذا وَجَـدتُ في اسـتقبالي ألـواح أرضيـة الحظـيرة الصُّلبـة بـدلًا مـن هَبَّـة الليونـة في القَـشِّ.

جِئـتُ عنـد منتصـف الحظـيرة لأرى كيتـي تسـارع بالصعـود عـلى السُّـلَّم، ناديتهـا: "هـاي، انـزلي! إنـه ليـس آمِنًـا!".

ردَّت بثِقَةٍ: "سيصمد؛ فأنا أخفُّ منك وزنًا".

"كيتي...".

لكن الجملة لم تكتمل، حيث انفلت السُّلَّمُ في حينها.

تفسَّـخ السُّـلَّمُ وانشـطر، أنـا صِحـتُ، وكيتـيَ صرَخَـت. كانـت في نفـس الموضـع حـين اقتنعـت أني غالَيـتُ في المجازفـة.

انكـسَرَت دَرجَـة السُّـلَّم التـي كانـت تقـف عليهـا، وانشـقَّ جانِبـا السُّـلَّم، بـدا السـلم مـن تحتهـا للحظـة بعـد انكسـاره بالكامـل مثـل حشرَةٍ خَرقـاءَ، أو سرعـوف، أو مجـرَّد سُـلَّم قـرَّر المغـادرة.

ثـم سـقط، واصطـدم بأرضيَّـة الحظـيرة في انبطـاحٍ مُـدوٍّ؛ مِـمَّا أثـار الأتربـة وأفـزع الأبقـار حتـى خـارت في قلـق، ورَكَلـت بقـرةٌ منهـم بـابَ حُجَيرتهـا.

صرخت كيتي صرخةً عاليةً ثاقِبَةً للآذان.

"لاري! لاري! انجدني!".

عرفت ما يجب فعله، أدركت على الفور، كنتُ مذعورًا، لكن ليس لدرجة فقدان السيطرة. كانت فوقي بمقدار ستّين قَدَمًا، وركلت بساقيها الملتفَّتَيْن في البنطال الأزرق عبر الهواء الخاوي، ثم شقشقت سنونوات الحظيرة من فوقها. حسنًا، كنتُ خائفًا، أتعرف، ما زِلتُ لا أقوى على مشاهدة الفقرة الأكروباتية الهوائية في السيرك، ولا حتى على التلفاز؛ فمعدتي تشعر بالوهن.

لكني عرفت ما يجب فِعلُه.

نادَيتُها بصوتٍ عالٍ: "كيتي! اثبتي! اثبتي فحسب!".

أطاعتني على الفور، توقَّفت ساقاها عن الرَّكل، وباتت مُعلَّقَةً، ويداها الصغيرتان ممسِكَتان بآخر درجة من الطرف المنكسر من السُّلَّم مثل لاعبة أكروبات تَعطَّلَت أرجوحتها.

ركضتُ إلى مخزنِ القَشِّ، وأحضرتُ كَمًّا مُضاعَفًا من القش، وعُدتُ، ورَميتُها، ذهبت ثانيًا، وثالثًا، ورابعًا.

لا أتذكَّر حقًّا ما جرى بعدها، سوى أن القَشَّ تَصاعَدَ إلى أنفي وعطست ولم أستطع التوقُّف. ركضت ذهابًا وإيابًا، صانعًا كَومَةَ قَشٍّ عند موضع طرف السُّلَّم، كانت كومةَ قَشٍّ صغيرة جدًّا، نظرت إلى الكومة، ثم نظرت إليها وهي مُعلَّقة في الأعلى على مسافة بعيدة، ربما فكَّرتُ في أحد الأفلام الرسوميَّة التي يقفز فيها المرءُ ثلاثمائة قدم ليهبط في كوب ماء.

ذهابًا وإيابًا، ذهابًا وإيابًا.

"لاري! لا أستطيع التَّمسُّكَ أكثر من ذلك!"، كان صوتها عاليًا ويائسًا.

"كيتي، عليكِ أن تتمسَّكي، عليكِ أن تتحمَّلي".

ذهابًا وإيابًا، والقشُّ على قميصي، ذهابًا وإيابًا، حتى صار القَشُّ يصل عند ذقني الآن، لكن مخزن القش الذي كنَّا نغوص فيه يبلغ

عمقـه خمسًـا وعشريـن قَدَمًـا. فكَّـرتُ أنـه إذا انكـسرت سـاقاها فقـط، سـيكون الـضَّررُ أخـفَّ، وأدركـتُ أنهـا إذا لم تقـع عـلى القـش، سـتموت.

ذهابًا وإيابًا.

"لاري! درجة السُّلَّم، إنها تنفلت!".

كنـتُ أسـمع العـواء المتواصِـلَ الخَشِـن لدرجـة السُّـلَّم وهـي تتحـرَّر تحـت وطـأة الـوزن، بـدأت سـاقاها تـركلان الهـواء ثانيـةً مـن الذُّعـر، ولكنهـا إذا ركلـت هكـذا، فسـوف تقفـز بعيـدةً عـن كومـة القَـشِّ بالتأكيد.

صرخـتُ: "لا! لا! توقَّفـي عـن هـذا! انـزلي فحسـب، انـزلي يـا كيتـي!"؛ فالوَقـتُ تأخَّـر بالنسـبة لي عـلى إحضـار المزيـد مـن القـش، وفـات الأوان عـلى أي شيء سـوى الأمـل الأعمـى.

أفلتـت يديهـا ووَقَعَـت في نفـس الثانيـة التـي أَمَرتُهـا فيهـا بذلـك، نزلت مبـاشرة مثـل السِّـكِّين، بـدا لي أن سـقوطها مسـتمرٌّ إلى الأبـد، وضفائرهـا الذهبيـة ترتفـع عـن رأسـها، وعينيهـا مُغلَقَتـان، ووجههـا شـاحِبٌ مثـل الخـزف الصينـي. لم تـصرخ. يداهـا مثبتتـان أمـام شـفتيها، كـما لـو كانـت تُصـلِّي.

واصطدمـت بالقَـشِّ في المنتصـف بالضبـط، وغابـت داخلـه عـن أفـق النظـر، وتطايَـرَ القَـشُّ في الأرجـاء كافَّـة كـما لـو انطلقـت قذيفة، وسـمعت صـوت ارتطـام جسـدها عـلى الألـواح، وبعـث صـوتُ الارتطـام العـالي رجفـةً مُميتَـةً في داخـلي، كان الصـوت عاليًـا جـدًّا، ولكـن تحتَّـمَ عـليَّ أن أنظـر.

انقضضـت عـلى كومـة القـش وأنـا أصيـح، وأنـا أشـدُّه، قاذفًـا القـش ورائي بكميـات مهولـة، وبـرزت إلى النُّـور سـاقٌ في بنطـال أزرق، ثـم قميـص كاروهـات، وبعدهـا وجـه كيتـي. كان شـاحبًا شـحوبَ المـوت، وعيناهـا مغلقَتَـيْن. كانـت ميِّتَـة، أدركـت هـذا حـين نَظَـرتُ إليهـا، صـار العالَـم

رماديًّا في عينيَّ، لون رمادي نوفمبري، لا شيء فيه ذو لون يُذكَر سوى ضفائرها الذهبية البرّاقة.

وبعدها بزغ اللون الأزرق الداكن من حَدَقَتيتها حين فتحت عينيها.

"كيتي؟". خرج صوتي غليظًا، مبحوحًا، غير مُصدِّق، حلقي مُغطًّى ببواقي القَشِّ، "كيتي؟".

سألَت كيتي في ذهول: "لاري؟ هل أنا حيَّة؟".

أخرَجتُها من القش واحتضنتها ووضعت ذراعَيْها حول رقبتي واحتضنتني هي الأخرى.

قلتُ: "أنتِ حيَّة، أنتِ حيَّة، أنتِ حيَّة".

انكسر كاحِلُ قَدَمِها الأيمن وهذا كل شيء، وحين جاء دكتور بيدرسن الممارس العام من كولومبيا سيتي إلى الحظيرة مع والدي ومعي، أطال النظر إلى الظِّلال لوقت طويل، ما زالت آخر دَرَجةٍ على السَّلَّم مُعلَّقة هناك، معوَجَّة، مُثبَّتة بمسمار واحد.

أطال النظر كما قلتُ، قال لأبي: "إنها مُعجِزَة"، رَكَلَ القَشَّ الذي وَضَعتُه باستهانة، وخرج إلى سيارته الدي سوتو المُغبرَّة وراح بعيدًا.

حَلَّت يدُ والدي على كتفي، وقال بصوتٍ شديد الهدوء: "سنذهب إلى مخزن الخشب، أظنُّ أنك ستعرف ما سيجري هناك".

همستُ: "نعم يا سيدي".

"مع كُلِّ ضَربَةٍ، أريدك أن تشكر الرَّبَّ أن شقيقتك ما زالت حيَّةً تُرزَق".

"حاضر يا سيدي".

وبعدهـا ذهبنـا، ضربنـي كثـيراً، كثـيراً جـدًّا لدرجـة أني ظَلَلـتُ أتنـاول الطعـام واقفًـا لمـدة أسـبوع، ومـع وسـادةٍ عـلى مقعـدي في الأسـبوعين التالِيَـيْن، ومـع كُلِّ ضَربَـةٍ مـن يـده الضخمـة الحمـراء القاسـية، كنـتُ أشـكرُ الـرَّبَّ.

مـع آخـر ضربتَـيْن أو ثـلاث ضربـات، وبصـوتٍ عـالٍ، كنـتُ مؤمنًـا أنه يسـمعني.

أدخلـوني لأراهـا قبـل وقـت النـوم، أتذكَّـر وجـود طائـر كَتـبَرد مُغـرِّد خـارج نافذتهـا، قَدَمُهـا ملفوفـة ومدعومـة عـلى حامـل.

أطالـت النظـر إليَّ بمَحبَّـةٍ شـديدة، لدرجـة لم أشـعر معهـا بالارتيـاح، ثـم قالـت: "قـش، وضَعـتَ لي القَـشَّ".

قلـتُ دون تفكـيرٍ: "طبعًـا، مـاذا كنـتُ سـأفعل غـير ذلـك؟ حينـما انكـسر السُّـلَّم، لم تكـن هنـاك طريقـة للصعـود".

قالت: "لم أعرف ماذا كنتَ تَفعل".

"حتمًا كنتِ تعرفين، كنتُ تَحتَكِ مباشرةً، اللعنة".

قالـت: "لم أجـرؤ عـلى النظـر لأسـفل، كنـتُ خائِفـةً جـدًّا، أغلَقـتُ عينيَّ طيلـة الوقت".

حدَّقتُ إليها مندهشًا.

"ما كنتِ تعرفين؟ لم تَعرِفي ما كنتُ أفعله؟". وهزَّت رأسها بالنَّفي.

"وحين أَمرتُكِ بالنزول، فَعَلتِها فحسب؟".

أومَأَت برأسها.

"كيتي، كيف أمكَنَكِ فعل هذا؟".

نظرت إليَّ بتَينكَ العينين الزرقاوين الداكِنَتَيْن، وقالت: "عرفتُ أنَّكَ حتمًا فعَلتَ شيئًا لتعالج المشكلة، أنت شقيقي الأكبر، وكنت أعلم أنك ستعتني بي".

"آه يا كيتي، أنتِ لا تعرفين كم كان الأمر وشيكًا".

وضَعتُ يديَّ فوق وجهي، فجَلستُ في فراشها وأزاحتهما، قبَّلتني على خدي، قالت: "لا، لكني عرفتُ أنَّكَ موجود بالأسفل، يا للمسيح، أشعر بالنعاس، سأراك غدًا يا لاري، قال الدكتور بيدرسن إنه سيصنع لي جبيرة".

وُضِعَت لها الجبيرة لمدَّةٍ أقلَّ من شهر، ووَقَّع عليها كلُّ زملائها في الفصل، بل حتى طلَبَت مني أن أُوَقِّع لها عليها، وحين أُزيلَت، كانت تلك نهاية حادثة الحظيرة، استبدل أبي السُّلَّم الصاعد إلى العلية الثالثة بسُلَّمٍ جديدٍ مَتين، لكني لم أصعد إلى العارضة وأقفز نحو القَشِّ مرَّةً أخرى، وكيتي كذلك حسبما أعلم حتى الآن.

كانت تلك النهاية، لكنها لم تكن النهاية على نحوٍ ما، لم ينتهِ الأمرُ قَطُّ على نحوٍ ما سِوَى منذ تسعة أيام مَضَت، حين قفَزَت كيتي من الطابق العلوي لمبنى شركة تأمين في مدينة لوس آنجلوس. معي هذه القصاصة من جريدة لوس آنجلوس تايمز في محفظتي، أظنُّ أني سأحملها معي دائمًا، ليس على نحوٍ طَيِّب كمثل حملِكَ صورًا لأناس تودُّ أن تتذكَّرهم، أو تَذاكِر من عرضٍ جيِّد حقًّا، أو جزء من برنامج دوري البيسبول العالمي، وإنما أحمل هذه القصاصة كمثل حمل شيء ثقيل؛ لأن حمله هو عملك الرئيس، يقول العنوان: بائعة هوى تقفز نحو حَتفِها.

ترعرعنا سويًّا، هذا كل ما أعرفه، أكثر من حقائق لا تعنيني في شيء. كانت ستلتحق بكلية إدارة الأعمال في أوماها، ولكن في الصيف التالي على تَخرُّجها من المدرسة الثانوية، فازت في مسابَقةٍ لملكات الجمال،

وتزوَّجَت أحدَ المُحكَّمين، يبدو الأمر كأنه مَزحةٌ قَذِرة، أليس كذلك؟ كيتي حبيبتي.

حينما كنت أدرس في كلية الحقوق، باتت مُطلَّقةً، وكتبت إليَّ رسالة طويلة، عشر صفحات أو أكثر، تُخبِرُني فيها عن أحوالها، وكيف كانت في حالة فوضويَّة، وكيف كان سيتحسَّن حالها لو كانت أنجَبَت طفلًا. سألتني إذا أمكنني المجيء، لكنَّ تفويتَ أسبوعٍ في كلية الحقوق يماثل تفويت فصلٍ دراسي في مرحلة الدراسات العليا في الفنون الحُرَّة؛ فأولئك الأشخاص مثل الكلاب السلوقية، إذا لم تلتفت إلى الأرنب الآليِّ الصغير، فقد خَسِرتَ السباق.

انتقلت للعيش في مدينة لوس آنجلوس، وتزوَّجَت مرَّةً أخرى، وحين تفكَّكَت هذه الزيجة، كنتُ قد تَخرَّجت في كلية الحقوق، ورَدَتني رسالة أخرى، رسالة أقصر، وأكثر مَرارةً، أخبرتني فيها أنها لن تستمرَّ في الانحشار في هذه الأرجوحة الدَّوَّارة، كانت وظيفةً مُؤقَّتة، والطريقة الوحيدة التي يمكنك بها أن تحقِّقَ المال هي الوقوع من فوق ظهر الحصان فتنشرخ جمجمتك، إذا كان هذا ثَمنُ لَفَّةٍ مجَّانية، فمَن يريد هذا؟ ملحوظة: هل يمكنك المجيء يا لاري، فقد مرَّ زَمنٌ.

رَدَدتُ على رسالتها وأخبرتها أني أوَدُّ القدوم، لكني لم أستطع، التحقت بالعمل في شركة ضاغطة بشدة، كنتُ أدنى شَخصٍ في عمودٍ طَوطَميٍّ مَرسوم، كثير من العمل دون تقدير يُذكر، إذا كنتُ سأنتقل إلى الخطوة التالية، ينبغي -وحتمًا- أن تحدث هذا العام، كانت تلك هي رسالتي الطويلة، ودار فحواها بالكامل حول مسيرتي المهنية.

ردَدتُ على جميع رسائلها، لكني لم أصدِّق على الإطلاق أن كيتي هي مَن كانت تكتبها حقًّا، أو تعلم، ليس أكثر من تصديقي حقًّا بوجود القش هناك، إلى أن أقفز قفزتي إلى الأسفل فتنقذ حياتي. لم أستطع التصديق أن شقيقتي والمرأة المُعنَّفة التي تُوقِّع تحت اسم

"كيتـي" داخـل دائـرة في أسـفل كلِّ رسـالة هـي نفـس الشـخص. شـقيقتي فتـاة بضفائـر، ومـا زالـت بـلا ثَديَـيْن.

كانـت هـي مَـن تَوقَّفَـت عـن الكتابـة إليَّ، كنـتُ أتلقَّى بطاقـات معايدة في الكريسـماس، وفي أعيـاد الميـلاد، وزوجتـي تـردُّ بالمثـل، ثُـمَّ تَطلَّقنـا، وغَـيَّرتُ سـكني ونسـيت الأمـر. جـاءت بطاقـات الكريسـماس وعيـد الميلاد التاليـة عـلى عنـوان الإرسـال، عنـواني الأول، وظَلَلـتُ أفكِّـر:

يـا للمسـيح، عـليَّ أن أكتـب إلى كيتـي، وأخبرهـا أني انتقلـتُ لمسـكن جديـد، لكنـي لم أفعـل البَتَّـة.

ولكـن كـما أخبرتكـم، تلـك حقائـق لا تعنينـي في شيء، ومـا يعنينـي فحسـب أننـا ترعرعنـا معًـا، وأنهـا قفـزت مـن فـوق بنايـة شركـة تأمـين، وأن كيتـي هـي الوحيـدة التـي آمَنَـت بوجـود القـش في الأسـفل، كيتـي هـي التـي قالـت لي: "عرفـتُ أنَّـكَ حتـمًا فَعَلـتَ شـيئًا لتعالـج المشـكلة"، تلـك هـي الأشـياء التـي تهمُّنـي، ومعهـا رسـالة كيتـي.

كثـيرًا مـا يُغـيِّر النـاس الآن مسـاكنهم، ومـن الطريـف كيـف تبـدو مُلصَقـات العناويـن المشـطوبة والمتغـيِّرة كأنهـا اتهامـات. طبعـت عنـوان مسـكنها عـلى الجانـب الأيـسر العلـوي مـن الظـرف، المكان الـذي ظلَّـت فيـه إلى أن قفـزت، بنايـة سـكنية لطيفـة جـدًّا في ڤـان نويـس، والـدي وأنـا ذهبنـا لنجمـع مُتَعلَّقاتهـا، كانـت صاحبـة المنـزل سـيِّدةً لطيفـة، وقـد أحبَّـت كيتـي.

حمَلَـت الرسـالة ختـمًا بريديًّـا بتاريـخ يسـبق يـوم وفاتهـا بأسـبوعين، ولـولا وجـود العنـوان الأول لوصَلَتنـي أبكَـرَ مـن ذلـك بوقـت طويـل. إنهـا حتـمًا تعبـت مـن الانتظـار.

"عزيزي لاري،

فكَّرتُ في الأمر كثيراً في الآونة الأخيرة، وما توصَّلتُ إليه أنه ربما كان من الأفضل لي لو انكسَرَت آخرُ دَرَجةٍ على السُّلَّم قبل أن تضع القَشَّ من أجلي.

تحياتي.

كيتي".

نعم، أظنُّ أنها تعبت من الانتظار، أودُّ أن أُصدِّق ذلك بدلًا من الاعتقاد أني حتمًا نسيتُ الرَّدَّ عليها، لا أَودُّ التفكير في هذا؛ لأنه ربما كانت تلك الجملة اليتيمة هي التي دفعتني لمحاولة الهروب.

ولم يكن هذا هو سبب صعوبة إخلادي إلى النوم، فحين أغمض عيني ويبدأ وعيي في الغياب، أراها تقفز من العلية الثالثة، بعينيها الواسِعَتَيْن ولونهما الأزرق الداكن، وجسدها المتقوِّس، وذراعيها المرتَدَّتَيْن إلى الوراء.

كانت الشخص الذي آمَنَ على الدَّوامِ بوجود القَشِّ في الأسفل.

الرَّجُل الَّذي أحَبَّ الأزهار

في صباح يـوم باكـر في مايـو 1963، تمـشَّى شـابٌّ يضـع يديـه في جيوبـه بـكل خفَّـة مُتَّجِهًـا إلى الجـادَّة الثالثـة في مدينـة نيويـورك، كان النسـيم رقيقًـا وعليـلًا، والسـماء تُظلـم رويـدًا رويـدًا، وتغـيِّر لونهـا مـن الأزرق إلى البنفسـجي الهـادئ المحبَّـب للغسـق. ثَمَّـة أنـاسٌ يحبُّـون المدينـة، وكانـت تلـك واحـدة مـن الأمسـيات التـي تُوقِعُهـم في حُبِّهـا، حيـث تبـدو البسـمة عـلى وجـوه جميـع الواقفـين عـلى أبـواب متاجـر الأطعمـة والغسـيل الجـاف والمطاعـم. ابتسَـمَت سـيِّدةٌ عجـوز للشـابِّ حينـما كانـت تدفـع حقيبتـي بقالـة عـلى عربـة أطفـال قديمـة، وألقـت عليـه التحيـة: "أهـلًا يـا جميـل!"، وابتسـم لهـا الشَّـابُّ نِصـفَ ابتسـامة، ورفـع يـده مُحيِّيًـا إيَّاهـا.

سارت في طريقها، وهي تفكِّر: إنه عاشق.

تمتَّـع بتلـك الإطلالـة التـي تنـمُّ عـن هـذا، كان يرتـدي بذلـةً رماديَّـة خفيفـة، وربطـة العنـق الضيقـة مفكوكـة بعـض الـشيء، وزرُّ ياقـة قميصـه

مفتـوح. كان شَـعره داكنًـا ومقصوصًـا، وبشرتـه نقيَّـة، وعينـاه خفيفتـا الزُّرقـة. لم يكـن وجهًـا خارقًـا للعـادة، لكنـه صـار جميـلًا في هـذه الأمسـية الربيعيـة الرقيقـة، وفي هـذه الجـادَّة بالـذات، في مايـو 1963، وضبطـت السـيدة العجـوز نفسـها وهـي تفكّـر للحظـةٍ في اشـتياقٍ عَـذبٍ إلى الماضي أنـه يمكـن لأي امـرئٍ أن يصـير جميـلًا... إذا سـارع لملاقـاة فتـاةِ أحلامـه عـلى العشـاء، وربمـا يتراقصـان بعدهـا.

الربيـع هـو الفصـل الوحيـد الـذي لا يتحـلّى فيـه الحنـينُ إلى المـاضي أبدًا بطعـم المـرارة، ومَضَـت في طريقهـا مُمتَنَّـةً لحديثهـا إليـه، وممتنَّـة لـرَدِّه عـلى الإطـراء رافعًـا يـده فيـما يشـبه التَّحيَّـة.

عـبَرَ الشَّـابُّ الشـارع الثالـث والسـتين، واثبًـا في كل خطـوة يقطعهـا، وعـلى شـفتيه شـبح الابتسـامة ذاتهـا. عنـد ناصيـة الشـارع وقـف رجـلٌ عجـوز بجـوار عربـة يدويَّـةٍ خـضراء مُتكـسِّرَة مملـوءة بالأزهـار التـي يُهَيمِـنُ عليهـا اللـون الأصفـر، حُمَّـى صفـراء من أزهـار النرجـس والزعفران. لـدى الرجـل العجـوز أيضًـا أزهـار القرنفـل وحفنـة مـن أزهـار الشـاي مـن الدفيئـة، أغلبهـا بـين صفـراء وبيضـاء. كان يـأكل البريتـزل المملَّـحَ، ويسـتمع إلى مذيـاع ترانزسـتور ضخـم قابـع في ركـن عربتـه اليدويـة.

انهمـرت مـن المذيـاع أخبـارٌ سـيِّئة لا يسـتمع إليهـا أحـد: قاتِـلٌ بالمطرقَـةِ مـا يـزال حُـرًّا طليقًـا، چـون إف كينيـدي يعلـن أن الوضـع في دولـة آسـيوية صغـيرة تُدعَـى ڤيتنـام (أو "ڤيتنـوم" حسـبما أسـماها قـارِئُ النـشرة) يسـترعي الانتبـاه، وانتُشِـلَت جُثَّـة سـيدة غـير معروفـة الهويـة مـن النهـر الشرقـي، وفشـلت هيئـة محلَّفـين كـبرى في إدانـة أحـد زعـماء الجريمـة في إطـار حـرب الإدارة الحاليـة للمدينـة عـلى الهيرويـن، وفجَّـر الـرُّوسُ رأسًـا نوويًـا. لم يَبـدُ أيٌّ مـن هـذه الأخبـار حقيقيًـا، ولم يَبـدُ أيٌّ منهـا فارقًـا. كان النسـيم رقيقًـا وعليـلًا. وقـف رجـلان بكرشـين ضخمـين خـارج

مخبـز، يقذفـان عمـلات الخمـس سـنتات ويعابـث أحدهـما الآخـر. ارتعـد الربيـع عـلى عتبـات الصيـف، والصيـف فصـل الأحـلام في هـذه المدينـة.

تجـاوَزَ الشَّـابُّ عربـة الأزهـار، فخفتـت أصـوات الأخبـار السـيئة. تقلقل في المسـير، واستشـعر نذيـر شيء مـا، وفكَّـر مليًّـا في الأمـر. مـدَّ يـده إلى جيـب معطفـه ولمـس هـذا الـشيء في الداخـل ثانيـة. بـدا وجهـه لِلَحظَـةٍ حائـرًا، ووحيـدًا، وشـبه مسـكون، وبعدهـا فارَقَـت يـده جيـب المعطـف، مسـتعيدًا طَلَّتَـه السـابقة المشـتعلة حماسًـا.

عـاد إلى عربـة الأزهـار مبتسـمًا. سـيحضر لهـا باقـةَ أزهـارٍ سـتُعجِبُها، لطالمـا أحـبَّ رؤيـة عينَيْهـا الوضَّاءتَـيْن بالدهشـة والسـعادة حـين يفاجئهـا بمفاجـأة، اقتـصرت هداياه عـلى الأشـياء الصغـيرة لأنـه كان أبعـدَ مـا يكـون عـن الـثراء: علبـة حلويـات، أو سـوار، وذات مـرة أهداهـا فقـط كيسًـا مـن برتقـال ڤالنسـيا؛ لِعِلمِـه بأنـه المُفضَّـل لـدى نورمـا.

قـال بائـع الأزهـار: "أهـلًا بصديقـي الشـاب"، وذلـك حينـما عـاد الرجـل ذو البذلـة الرماديـة، مُجرِيًـا عينيـه فـوق مخـزون العربـة. كان البائـع في سِـنِّ الثامنـة والسـتين تقريبًـا، يرتـدي كنـزةَ صـوف رماديـة مُمزَّعـة، وقبعـة رقيقـة رغـم حـرارة الجَـوِّ في المسـاء. وجهـه خارطـة تجاعيـد، وعينـاه غائرتـان بفعـل الانتفـاخ، والسـيجارة مرتعشـة بـين أصبعيـه، لكنـه تذكَّـر أيضًـا إحسـاس الشـباب في فصـل الربيـع، شـابًّا غارقًـا في العشـق إلى حَـدِّ التحليـق في الأرجـاء كافَّـة. كان وجـه البائـع فَظًّـا، لكنـه الآن ابتسـم بعـض الـشيء، بالضبـط مثـل ابتسـامة السـيدة التـي كانـت تدفـع عربـة المشـتروات، لأن هـذا الشـاب كان بمثابـة حالـة متجلِّيـة. نفـض عـن كنزتـه الفضفاضـة فتـات البريتـزل المملَّـح، وأطـرق مُفكِّـرًا: لـو كان هـذا الفتـى سـقيمًا، سـيحتجزونه في العنايـة المركَّـزة في التَّـوِّ والحـال.

سأل الشابُّ: "كم سعر الأزهار؟".

"سأُعِدُّ لكَ باقةً جميلة بدولار واحد، من أزهار الشاي تلك، إنها أزهارٌ من الدفيئة، تَكلفَتُها أقلُّ، سبعون سنتًا للزهرة، سأبيع لك نصف دستة بثلاثة دولارات وخمسين سنتًا".

قال الشاب: "ثمنها باهظ".

"ما من شيء طيب يأتي بثمن بَخسٍ يا صديقي الشاب، ألم تُعَلِّمكَ والِدتُكَ هذا؟".

ابتسم الشاب: "ربَّما أتت على ذِكرِ الموضوع".

"بالتأكيد، بالتأكيد ذَكَرَته، سأعطيك نصف دستة، زهرتان حمراوان، وزهرتان صفراوان، وزهرتان بيضاوان، ما في وسعي أفضل من ذلك، أليس كذلك؟ وسأرفق لك معها زهريات النُعَيّمَة؛ فَهُنَّ يُحبِبنها، ومع بعض السَّرخس، طيب، أو يمكنك الحصول على باقة الأزهار مقابل دولار واحد".

سأل الشاب مُحافِظًا على ابتسامته: "هُنَّ؟".

قال بائع الأزهار وهو يقذف عُقبَ السيجارة في البالوعة، مستعيدًا ابتسامته: "صديقي الشاب، لا أحد يشتري الأزهار لنفسه في شهر مايو، الأمر أشبه بقانون وطني، أتفهم ما أعنيه؟".

فكَّر الشاب في نورما، وعينيها السعيدتَيْن المندَهِشَتيْن، وابتسامتها الرقيقة، ثم أحنى رأسه قليلًا، وقال: "أظُنُّ أني فهمتُ".

"بالتأكيد، ما قَولُكَ إذن؟".

"حسنًا، ما رأيك؟".

"سأخبرك بما أفكِّر به، هاي! النصيحة ما زالت مجَّانِيَّة، أليس كذلك؟".

ابتسم الشاب وقال: "أظُنُّ أن هذا الشيء الوحيد المتبقِّي".

قال بائع الأزهار: "أَصَبتَ القول، حسنًا يا صديقي الشاب، لو كانت الزهور من أجل والدتك، ستحضر لها باقةً فيها بعض أزهار النرجس، وبعض الزعفران، وبعض سوسنات الوادي. لن تفسد هذه اللمسة بأن تقول لك: "أي بني، أحبُّهم كثيرًا، كم كلَّفوكَ؟ أوه! هذا كثير، ألا تعرف كيف تحافظ على أموالك؟"".

أرجَعَ الشَّابُّ رأسه للوراء وضحك.

قال بائع الأزهار: "ولكن لو كانت الأزهار لحبيبتك، فهذه نقرَةٌ أخرى يا بني، وأنت تعرف ذلك، أحضِرْ لها أزهار الشاي، ولن تتحوَّل معك إلى مُحاسِبَة، أَفَهِمتَ قصدي؟ هه! ستلفُّ ذراعيها حول رقبتك...".

قال الشاب: "سآخذ أزهار الشاي"، وهذه المرة حان دور بائع الأزهار في الضحك، ونظر الرجلان القاذفان للسِّنتات الخمس وابتسما.

نادى أحدُهما: "يا فتى، أتريد شراء خاتم زواج رخيص الثمن، سأبيعكَ خاتَمي؛ فما عُدتُ راغِبًا فيه".

ابتسم الشاب وتَورَّد وجهه خجلًا حتى أطراف شَعرِه الداكن.

التقط بائِعُ الأزهار سِتَّ أزهار شاي، وقصَّ أطراف السيقان، ورشَّ عليها بعض الماء، وغلَّفَهم في مخروط كبير.

قال المذياع: "تبدو أجواء هذه الليلة مثلما تُحبُّونها بالضبط؛ معتدلة ولطيفة، ودرجة الحرارة تتراوح من منتصف إلى مطلع السِّتِّينات؛ أجواء مثالية للتَّحديق إلى النجوم من فوق أسطُح البنايات، فلتنعمي يا نيويورك العظيمة وتبتهجي".

ألصق بائع الأزهار اللفافة الورقية بالشريط اللاصق، ونصح الشاب أن يُخبِرَ حبيبته أن بعض السُّكَّر المضاف إلى الماء سيطيل عمر الأزهار حين تضعهم فيها.

قال الشاب: "سأُخبِرُها"، وأخرج خمسة دولارات، "شكرًا لك".

قال بائع الأزهار وهو يعطيه دولارًا ورُبعَيْن، واتَّسَعَت ابتسامته: "أقوم بعملي فحسب يا صديقي الشاب، امنحها قُبلةً من أجلي".

على أثير المذياع، بدأ فريق ذا فور سيزونز في أداء أغنية "شيري"، أخذ الشابُّ بقيَّةَ المال وواصل طريقه في الشارع، بأعيُنٍ مفتوحة ومُنتَبِهَة ومُتحفِّزة، في حالة تَرَقُّب، ودون أن يلقي بالًا لما حوله من حياة تتدفَّق في مَدٍّ وجَزرٍ في الجادَّة الثالثة كلَّما تَقدَّم وتَوغَّل. لكن أشياء بعينها ترَكَت أثرها: أمٌّ تَشدُّ طفلها في عربته، ووجه الطفل مُلطَّخ بالآيس كريم بطريقة مُضحِكة، وفتاة صغيرة تقفز فوق الحبل، وتغني: "بِتي وهنري فوق الشجرة/ وقد جمعتهما قبلة/ في البدء الحُبُّ جاء/ ومن ثَمَّ الزواج تلاه/ وها هو هنري يدفع عربة أطفال أمامه"، وامرأتان واقفتان أمام مغسلة، تدخِّنان وتتبادلان أحوال حملهما، ومجموعة من الرجال ينظرون إلى واجهة متجر للأجهزة الكهربائية على تلفازٍ مُلوَّنٍ ضخم، عليه بطاقة تسعير تحمل أربعة أرقام، وتُذاع عليه مباراة للبيسبول، وبَدَت كل وجوه اللاعبين خضراء، والملعب له لونٌ غامض مثل الفراولة، وفريق نيويورك ميتز يتفوَّق على فريق فيليز بـ 6 مقابل 1 في نهاية المباراة.

واصَلَ المسير حاملًا الأزهار، غيرَ عابئ بالسيِّدَتَيْن الواقِفَتَيْن أمام المغسلة، اللَّتَيْن توقَّفَتَا عن الحديث لهنيهة، وتطلَّعَتا إليه في تَوقٍ وهو يحمل لفافة أزهار الشاي، ولَّت وفاتت أيَّامُ تَلَقِّيهما باقات الأزهار، لم ينتبه إلى شُرطيِّ المرور الشاب الذي يُوقف السيارات عند تقاطُع الجادة الثالثة مع الشارع التاسع والستين، نافخًا في صفارته سامحًا لهم بالمرور، الشرطي نفسه تورَّط ولاحظ التعبير الحالم على سيماء الشاب من انعكاس مرآة حلاقته التي اعتاد النظر فيها مؤخَّرًا. لم

ينتبـه إلى الفتاتـين المراهِقَتـيْن اللَّتـيْن مَرَّتـا عليـه في أثنـاء الذهـاب إلى الناحيـة الأخـرى، ثـم سـيطرتا عـلى أنفسـهما وقهقهتـا.

توقَّـف في الشـارع الثالـث والسبعين، وانعطـف يمينًـا. كان الشـارع أكـثر إظلامًـا، وتراصَفَـت فيـه المبـاني المبنيـة بالحجـارة البُنِّيَّـة، مـع المطاعـم ذات الأسـماء الإيطاليـة عـلى الطريـق، وعـلى بُعـد ثـلاث بنايـات تجـري مبـاراة لكـرة العصـا[1] تحـت الضـوء الخافـت. لم يقطـع الشـابُ كُلَّ هـذه المسـافة البعيـدة، وعنـد منتصـف شـارع، انعطـف إلى زقـاق ضيـق.

والآن تـلألأت النُّجـومُ، هادئـة في لمعانهـا، وكان الزُّقـاق ضيِّقًـا وظليـلًا، يَحفُّـه كيـانٌ غامِـضٌ تَشـكَّل مـن العلـب الملقـاة. بـات الشـاب وحيـدًا الآن، لا، ليـس بالضبـط، حيـث صـدر صِيـاحٌ مُتَذبـذِبٌ في الظُّلمـة القرمزيـة، واكفَهَـرَّ الشـاب، كانـت أنشـودة حُـبٍّ صـادرة عـن ذَكَـرِ قِـطٍّ، ومـا مـن شيء جميـل في هـذا.

تمهَّـل أكـثر في السـير، ونظـر إلى سـاعة يـده، كانـت السـاعة الثامنـة والربـع، ويفـترض عـلى نورمـا أن... ثـم رآهـا، قادمـة في اتجاهـه مـن ناحيـة السـاحة، مرتديـةً سراويـل زرقـاء داكنـة وبلـوزة تشـبه ملابـس البحَّـارة دَفَعَـت قلبـه إلى الخفقـان. دائمًـا مـا يُفاجَـأ حـين يقابلهـا للمـرة الأولى، كانـت عـلى الـدوام صدمـةً حلـوة، بـدت في ريعـان الشـباب.

والآن بَرَقَت ابتسامتها، بل أشَعَّت، ثم سار بوتيرةٍ أسرع.

قال: "نورما!".

رفَعَت ناظريها وتبسَّمَت، ولكن حينما تقاربا، انطفت الابتسامة.

(1) لعبـة مشـابهة للبيسـبول، ومـن أشـهر ألعـاب الشـوارع الأمريكيـة، خاصـة شـوارع نيويـورك وفيلادلفيـا (المترجـم)

اختلَّـت ابتسـامته بعـض الـشيء، واستشـعر قلقًـا في اللحظـة الراهنـة، وفـوق بلـوزة البَحّاريـن تَعكَّـر وجههـا، اشـتدَّت الظُّلمَـة الآن، أيُعقَـل أنـه أخطـأ؟ بالطبـع لا، إنهـا نورمـا.

قال بخلوٍّ بالٍ مُبتَهِج: "أحضَرتُ لكِ أزهارًا"، وناولها اللفافة الورقية.

نظَرَت إليها للحظة، وابتسمت، وأعادتهم إليه.

قالت: "شكرًا لك، ولكنَّكَ مُخطِئ، اسمي...".

"نورمـا". قالهـا هَمسًـا، ثـم سـحب المطرقـة ذات اليـد القصـيرة مـن جيـب معطفـه حيـث تواجَـدَت طيلـة الوقـت. "إنهـم مـن أجلـك يـا نورمـا، كانـوا دومًـا مـن أجلِـكِ، كلُّهـم لأجلـكِ".

تراجَعَـت إلى الـوراء، مـع وجـهٍ مسـتدير أبيـض شـاحب، وانفتـح فمُهـا مثـل حـرف الــ "O" مـن الفَـزَع، وهـي ليسـت نورمـا، فنورمـا ميِّتـة، ماتـت منـذ عـشر سـنوات، ولم يَعُـد الأمـر يهـم لأنهـا كانـت عـلى وشـك الـصراخ، فانهـال عليهـا بالمطرقـة كي يوقـف الـصراخ، كي يقتـل الـصراخ، وأسـقطت ضربـة المطرقـة باقَـةَ الزهـور مـن يـده، انفرطـت اللفافـة وانفتحـت، واندلقـت منهـا الأزهـار الحمـراء والبيضـاء والصفـراء بجـوار صفائـح القمامـة المنبعجـة، حيـث تتطـارح القطـط غرامًـا عجيبًـا في الظـلام، صارِخَةً في نشـوة، تـصرخ ثـم تـصرخ.

ضرب بالمطرقـة ولم تَـصرُخ، لكنهـا قـد تـصرخ لأنهـا ليسـت نورمـا، ولا واحـدة منهـن كانـت نورمـا، وضرب بالمطرقـة، ثـم ضرب بالمطرقـة، ثـم ضرب بالمطرقـة، إنهـا ليسـت نورمـا؛ لـذا ضرب بالمطرقـة، وقـد اقـترف هـذه الفِعلَـةَ خمـسَ مـرَّاتٍ مـن قبـل.

في وقـتٍ لاحِـقٍ غـير معلـوم، أعـاد المطرقـة ثانيـة إلى جيـب معطفـه الداخـلي، وابتعـد عـن الظِّـلِّ المُظلِـم مترامـي الأطـراف عـلى الطُّرقـات المرصوفـة، بعيـدًا عـن فـوضى أزهـار الشـاي المتناثـرة عنـد صفائـح

القمامـة، التـفَّ وغـادر الزقـاق الضيـق. سـيطر الظـلامُ تمامًـا الآن، وعـاد لاعبـو كـرة العصـا إلى منازلهـم، وإن وُجِـدَت بُقَـعُ دمـاء عـلى بذلتـه، فلـن تَبـينَ، ليـس في الظـلام، ليـس في الظـلام الربيعـي الرقيـق المتأخِّـر، ولم يكـن اسـمها نورمـا، لكنـه عـرف اسـمه، كان اسـمه.. اسـمه...

الحُبَّ.

كان اسـمُه الحُـبَّ، وسـار في هـذه الشـوارع المُظلِمـة لأن نورمـا كانـت في انتظـاره، وسـيجدها يومًـا مـا.

بـدأ في الابتسـام، ودبَّ التَّقافُـز في خطـواتِ سَـيْرِه في الشـارع الثالـث والسـبعين. رآه في أثنـاء مـروره زوجـان في أواسـط العمـر يجلسـان عـلى درجـات سـلالم بنايتهـما، فالتفـت الـرأس، وابتعـدت العينـان، وعـاد شـبح الابتسـامة إلى شـفتَيْه. حـين مَـرَّ عـلى السـيدة، قالـت: "لمـاذا لم تَعُـد بتلـك الهيئـة بعـد الآن؟".

"هه؟".

قالـت: "لا شيء"، لكنهـا راقَبَـت الشَّـابَّ ذا البذلـة الرماديـة يختفـي في ظُلمَـةِ الليـل الخَطَّـاء، وفكَّـرَت لـو وُجِـد مـا هـو أجمـل مـن الربيـع، سـيكون الحُـبَّ الشَّـابَّ.

شَرابٌ لأجلِ الطَّريق

كانت الساعة العاشرة والربع حين قرَّر هيرب تووكلاندر الإقفالَ هذه الليلة حين اندفع الرَّجُل ذو المعطف الأنيق والوجه الأبيض المحملق إلى حانة تووكي الواقعة في الجزء الشمالي من فالماوث. كان اليوم العاشر من شهر يناير، وقت مناسب كي يتعلَّم أغلب الرفاق العيشَ مرتاحين مع قرارات العام الجديد التي خالفوها، وبالخارج عاصفة شمالية شرقية عاتية، حيث ارتفع الثلج سِتَّة إنشات قبل حلول الظلام، واشتدَّ وازداد قسوة منذ ذلك الحين. رأينا بيلي لاريبي يمرُّ مَرَّتَيْن وهو راكب في مقصورة السائق في جرَّافة البلدة، وكانت المرة الثانية التي تنفد فيها الجعَّة من عند تووكي، كانت أمي ستعتبر هذا عطاءً صافيًا، وربِّي يعلم كم آتت على ما يكفي من بيرة تووكي في زمانها. أخبره بيلي أن أمامه عملًا ينتظره على الطريق الرئيس، أمَّا الطرقات الجانبية فكانت مُغلَقَةً وستبقى على هذا الحال حتى

الصباح التالي. يتوقَّع المذياع في بورتلاند هبوب موجة رياح سرعتها أربعين ميلًا، سيتراكم معها الثلج.

لا يوجد سوى تووكي وأنا في الحانة، نسمع عواء الرياح حول حوافِّ الجدران، ونراقبها تُراقِصُ النَّار عند المدفأة.

قال تووكي: "خُذْ شرابًا لأجل الطريق يا بووث؛ لأني سأقفل الحانة".

صبَّ كأسًا لي وكأسًا له بينما انفتح الباب بغتةً ودخل هذا الغريب مُتَرنِّحًا إلى الداخل، والثلج يملأ كتفيه وشعره، كأنه تمرَّغ في سُكَّر صانع الحلويات، ونفخت الريح في أعقابه ندفات ثلج رقيقة.

صاح فيه تووكي: "أَغلِقْ الباب، هل وُلِدتَ في حظيرة؟".

لم أرَ قَطُّ رَجُلًا يبدو على سيمائه كل هذا الخوف، كان يشبه حصانًا قضى فترة بعد الظهيرة وهو يأكل من نبات القراص، جالت عيناه نحو تووكي، وقال: "زوجتي... ابنتي"، وانهار على الأرض في غشيةٍ مُميتَة.

قال تووكي: "ويحي! أغلِقْ الباب يا بوث، من فضلك".

ذهَبتُ وأغلقته، وكان من المشقَّة دَفعُه في مواجهة الريح. انحنى تووكي على ركبة واحدة رافعًا رأس الرجل وخبطه على خدَّيه، وصَلتُ إليه ورأيت على الفور مدى سوء الأمر، كان وجهه مُتَّقِدَ الحُمرَة، مع وجود بعض البقع الرَّماديَّة هنا وهناك، وبما أنكم صمدتم في وجه فصول الشتاء في ماين منذ وقت تَوَلِّي وودرو ولسون رئاسة الجمهورية مثلما كان حالي، ستعرفون أن هذه البقع الرمادية قضمات صقيع.

قال تووكي: "أُغمي عليه، أحضر لي البراندي من البار الخلفي، إذا سَمَحتَ".

أحضَرتُهـا وعُـدتُ، وكان تـووكي قـد فَـكَّ أزرار معطـف الرجـل، بـدأ يسـتعيد وعيـه قليـلًا، عينـاه نصـف مفتوحتـين، ويُتَمتِـمُ بـكلام يصعـب سَـمعُه.

قال تووكي: "صُبَّ منها على قدر الغطاء".

"على قدر الغطاء فقط؟".

قـال تـووكي: "البرانـدي قـويٌّ كالديناميـت، ولا منطـق مـن التَّحميـل الزائـد عـلى الكربوهيـدرات في جسـمه".

صَبَبـتُ عـلى قـدر الغطـاء، ونظـرت إلى تـووكي، فأومـأ: "صُبَّهـا مباشرةً في الـ..".

صَبَبتُهـا، وكان أمـرًا أدهشـني رؤيتـه، انتفـض جَسَـدُ الرَّجُـل وبـدأ يَكـحُّ. ازداد وجهـه احمـرارًا، وانفتـح جفنـاه مثـل سـتائر عـلى نافـذة بعدمـا كانـا شِـبهَ منكَّسَـيْن، شـعرتُ بالذُّعـر قليـلًا، لكـن تـووكي أجلسـه مثـل طفـلٍ كبـير، وربَّـت عـلى ظهـره.

أوشك الرجل على التقيُّؤ، فربَّت تووكي على ظهره مرَّةً أخرى.

"تماسَكْ، فهذا البراندي غالي الثمن".

استـمرَّ الرجـل في السـعال، لكـن قلَّـت وطأتـه الآن، ألقيـت عليـه نظـرةً فاحِصـةً لأول مـرة، حسـنًا، إنـه رَجُـلٌ مـن المدينـة، مـن مـكان مـا في جنوب بوسـطن حسـب التخمـين. كان يرتـدي قُفَّـازات أطفـال، باهظـة الثمـن، لكنهـا كثيفـة. ربمـا تواجَـدَت المزيـد مـن هـذه البقـع البيضـاء المائلـة للـون الرمـادي عـلى يديـه، وسـيكون محظوظًـا إذا لم يفقـد أصبعًـا أو أصبعـين. كان معطفـه فاخـرًا، حسـنًا، سـأحتاج إلى وظيفَـةٍ راتِبُهـا ثلاثمائـة دولار لأرى معطفًـا مثـل هـذا. كان يرتـدي حـذاءً طويـلَ الرقبـة وصغـير الحجـم يصـل بالـكاد حتـى ركبتيـه، وبـدأت أتسـاءل حـول أصابعـه.

قال: "صِرتُ أحسنَ".

قال تووكي: "حسنًا، هل يُمكِنُكَ المجيء للقعود عند النار؟".

قال: "زوجتي وابنتي... بالخارج... في هذه العاصفة".

قال تووكي: "من طريقة دخولك إلى هنا، لم يَدْر بخلدي أنهما في المنزل يشاهدان التلفاز، يمكنك أن تخبرنا عند النار بنفس القَدرِ من اليُسرِ على الأرض، أَمْسِكْ معي يا بووث".

وقف على قدميه، وندَّت عنه آهةٌ قصيرة، والتوى فمه من الألم، تساءَلتُ بخصوص أصابع قدميه مرة أخرى، وسألتُ نفسي: لماذا شعر الرَّبُّ أنه في حاجة لأن يجعل الحمقى القادمين من مدينة نيويورك يُجرِّبون قيادة السيارة في جنوب ولاية ماين في قلب عاصفة ثلجيَّة شمال شرقية. وسألت نفسي إذا كانت زوجته وابنته يرتديان ملابسَ أدفأَ ممَّا يرتدي.

أمشيناه وصولًا إلى المدفأة، وأجلسناه على كرسي هزَّازٍ كان المُفَضَّل لدى زوجة تووكي إلى أن فارقت الحياة في العام 1974. كانت مدام تووكي مسؤولةً أغلب الوقت عن المكان، والذي كُتِبَت عنه مراجعات إيجابية في مجلَّة "داون إيست" وجريدة "صانداي تليجرام"، بل حتى كُتِبَ عنه مرة في ملحق يوم الأحد لجريدة "بوسطن جلوب"، كانت في الحقيقة حانَةً أكثرَ من كَونِها مجرَّدَ بار عاديٍّ، ببابها الخشبي الكبير، المصنوع من أوتاد وليس مجرَّد تثبيت بالمسامير، مع بار من خشب القَيْقَب، وسقف قديم يشبه أسطح الحظائر، والمدفأة هائلة الضخامة من حجارة الحقول. بدأ عقل مدام تووكي في خلق بعض الأفكار عقب صدور مقالة مجلَّة "داون إيست"، وأرادت أن تسمِّي هذا المكان "نُزل تووكي" أو "استراحة تووكي"، وأعترف أن في هذا نزعة استعمارية بعض الشيء، لكنني أفضِّل بار تووكي القديم العادي. شيء واحد يدفعك للتَّغطرُس في الصيف، حين تتزايَدُ أعداد السُّيَّاح في الولاية، أما في الشتاء فيختلف الحال تمامًا حين يتوجَّب عليك أن

تتبـادل تجارتـك مـع جيرانـك، وقـد مـرَّت ليـالٍ شـتائيَّة عديـدة مثـل هـذه الليلـة، والتـي قضيناهـا أنـا وتـووكي وحدنـا بطولهـا معًـا، نـشرب الويسـكي والماء أو بضعـة زجاجـات مـن البـيرة. زوجتـي ڤكتوريـا فارَقَـت الحيـاة في العـام 1973، وكانـت حانـة تـووكي هـي وجهتـي في حـال وجـود مـا يكفـي مـن الأصـوات لإخـراس التَّكتـكات المنتظمـة الصـادرة عـن خنفسـاء المـوت، حتـى لـو اقتـصر الأمـر عـليَّ أنـا وتـووكي، لـن أشـعر بنفـس الإحسـاس لـو تحـوَّل هـذا المـكان إلى اسـتراحة تـووكي، أمـرٌ جُنـونيٌّ، لكنـه صحيـح.

أجلسـنا هـذا الرجـل أمـام النـار، واشـتدَّ ارتعاشـه عـن ذي قبـل، ضـمَّ إليـه ركبتيـه واصطكَّـت أسـنانه، ونزلـت بعـض قطـرات المخـاط الصافِيَـةِ مـن أنفـه. أظـنُّ أنـه بـدأ يلاحـظ أن خمـس عـشرة دقيقـة زيـادة في الخـارج كانـت كفيلـةً بقَتلِـه، لا علاقـة للأمـر بالثلـج، بـل بـبرودة الريـاح، فهـي تسـلبك حـرارة جسـدك.

سأله تووكي: "من أين انطَلقتَ على الطريق؟".

"سـ.. ستة أأأميال جـ.جنوبًا من هـ.. هـ.. هنا".

تـووكي وأنـا حدَّقنـا إلى أحدنـا الآخـر، وفجـأة شـعرت بالـبرد، بـرد في الأرجـاء كافَّـة.

ألـحَّ تـووكي في السـؤال: "هـل أنـت مُتأكِّـد؟ قُـدتَ السـيارة سـتة أميـال عـبر الثلـج؟".

أومـأ برأسـه "فحَصـتُ عدَّاد المسـافات حـين وصلنـا إلى البـ.بلـدة، كنتُ أتبـع الاتجاهـات، ذاهبًـا لمقابلـة شـ.. شـقيقة زوجتـي في كمبرلانـد، لم نَـأتِ إلى هنـاك قَـطُّ مـن قبـل، فنحـن مـن نيوچـيرسي".

نيـو چـيرسي، إن وُجـد مَـن هـو أكـثر حماقـة مـن المواطـن النيويـوركي، فسـيكون المواطـن النيوچـيرسي.

شدَّد تووكي: "سِتَّة أميال، هل أنتَ متأكِّد؟".

"متأكِّد جدًّا، نعم، وَجَدتُ الطريق الجانبي، لكني انجرفت في الـ.. كان...".

جذبه تووكي في وَهَج النِّيران المراوغ حيث بدا وَجهُه شاحبًا ومُرهقًا، أكبر سِنًّا من السِّتَّة والسِّتِّين بعشر سنوات، "هل سلكت المنعطف الأيمن؟".

"المنعطف الأيمن، نعم، زوجتي...".

"هل رأيت لافتة؟".

"لافتة؟"، نظر نظرةً خالية من التَّعبير إلى تووكي ومسح طرفَ أنفه، "بالطبع رأيت لافتة، كانت موجودة في إرشاداتي، تحرَّك من جادَّة جوينتنر عبر أرض چيروسالِم وصولًا إلى الطريق 295".

نظر إلى تووكي ثم إليَّ، ثم نظر ثانيةً إلى تووكي. صَفَرت الرياح في الخارج وعَوَت واهتاجت على حوافِّ الجدران، "هل هذا صحيح يا سيدي؟".

قال تووكي بصوتٍ أخفتَ من أن يُسمع: "الأرض؟ يا إلهي".

قال الرجل وقد ارتفع صوته: "ما الخطب؟".

"أليس هذا صحيحًا؟ أقصد أن الطريق بدا أنه منعطف، ولكني ظَنَنتُ أني لو وجدت بلدةً هناك، ستكون جرَّافات الثلوج موجودة بالخارج، وأنا... وبعدها أنا...".

وسرعان ما انخفض صوته.

قال لي تووكي بصوتٍ مُنخَفِض: "بووث، توجَّه إلى الهاتف، واتَّصِل بالشريف".

"حسنًا".

قــال هــذا الأحمــق مــن نيوچــيرسي: "هــذا صحيــح، مــا خطبُكــم يــا رجــال؟ تبــدون كأنكــم رأيتــم شــبحًا".

قــال تــووكي: "لا أشــباح في الأرض يــا ســيدي، هــل قُلــتَ لهــم أن يبقــوا في الســيارة؟".

قال بصوتٍ مجروح: "بالطبع، أنا لست مجنونًا".

في الواقع، ليس في إمكاني إثبات هذا.

سألته: "ما اسمُكَ؟ كي أمليه للشريف".

قال: "لوملي، چيرالد لوملي".

واصــل مــن جديــد مــع تــووكي، ثــم اتَّجَهــت إلى الهاتــف، رفعــت السَّــمَّاعة ولم أســمع شــيئًا ســوى الصَّمــت المُطبِــق، وضغطــت عــلى أزرار الإقفــال عــدَّةَ مــرَّات، ولم أتلــقَّ شــيئًا.

عُــدتُ إلى مــكاني، وصَــبَّ تــووكي لچيرالــد لومــلي جرعــة أخــرى مــن البرانــدي، وسِرتُ هــذه المــرة في جوفــه بسريــان أســلس.

سأل تووكي: "هل كان بالخارج؟".

"الهاتف لا حرارة فيه".

قــال تــووكي: "اللعنــة"، ونظرنــا إلى بعضنــا البعــض، وعصَفَــت الرِّيــاحُ في الخــارج، قاذِفــةً بالثلــج عــلى النوافــذ.

نظر لوملي إلى تووكي ثم إليَّ، ثم عاود الكَرَّة.

ســأل: "طيِّــب، أليــس لــدى أيٍّ منكــما ســيارة؟"، وعــاد القلــق إلى صوتــه. "عليهــما أن يُديــرَا المُحــرِّك مــن أجــل التســخين، خــزَّان الوقــود مملــوء حتــى رُبعِــه فقــط، واســتغرقني الأمــرُ نصــفَ ســاعة كي... انظــروا إليَّ... ألا تَــردُّون عــليَّ؟". وَقَــفَ وشــدَّ قميــص تــووكي.

قال تووكي: "سيدي، أظنُّ أن يَدَكَ هذه جُنَّ جُنونها".

نظـر لومـلي إلى يـده، وإلى تـووكي، ثـم أبعدهـا. همـس قائـلًا: "مايـن"، وجعلها تبدو كأنها كلمـة قَـذِرَة يشـتم بهـا والـدة شـخصٍ مـا. قـال: "طيِّـب، أيـن أقـرب محطـة بنزيـن؟ حتـمًا لديهـم شـاحنة لقطـر السـيارات...".

قُلـتُ: "أقـرب محطَّـة وقـود في مركـز فالمـاوث، عـلى بُعـد ثلاثـة أميـال عـلى الطريـق مـن هنـا".

قـال بنـبرة تـشي بالسـخرية: "شـكرًا"، وتَوجَّـه إلى البـاب وهـو يقفـل أزرار معطفـه.



عقَّبتُ قائلًا: "مع ذلك، لن تفتح أبوابها".

استدار ببُطءٍ ونَظَرَ إلينا.

"عمَّ تتحدَّث أيُّها الرجل العجوز؟".

قـال تـووكي في صـبر: "إنـه يحـاول أن يخـبرك أن المحطـة الواقعـة في المركـز ملـكُ بيـلي لاريبـي، بيـلي في الخـارج يقـود الجرَّافـة أيهـا الأحمـق الملعـون، إذن لم لا تعـود إلى هنـا وتقعـد قبـل أن تُتعِـبَ نَفسَـكَ بـلا طائـل؟".

عـاد وهـو يتطلَّـع في ذهـول ورعـدة: "أتقـول لي إنـه لا يمكنـك.. أنـه لا يوجـد...".

قـال تـووكي: "أنـا لا أُخـبِرُكَ بـشيء، فأنـت مَـن تقـول كل الـكلام، ولـو أمهَلـتَ نفسَـكَ دقيقـة، يمكننـا التفكـير مليًّـا في الأمـر".

سـأل: "مـاذا تكـون هـذه البلـدة؟ أرض چيروسـالِم؟ ولِـمَ الطَّريـقُ مُنعَطِـف؟ ولمـاذا لا توجـد أيَّـة أضـواء عـلى الطريـق؟".

قلتُ: "أرض چيروسالِم احترَقَت عن بَكرَةِ أبيها منذ عامَيْن".

"ولم يُعَد بناؤها قَطُّ؟"، بدا وكأنَّه لا يُصدِّق.

قلتُ: "يبدو الأمر هكذا"، ونظرتُ إلى تووكي: "ماذا سنفعل حيالَ هذا؟".

قال: "لا أستطيع تَركَهم في العَراء هناك".

اقتَرَبتُ منه، وهام لوملي بعيدًا لينظر من النافذة على الليلة المُثلِجَة.

سألت: "ماذا لو وصلوا إليهما؟".

قال: "احتمال قائم، لكننا لا نعرف يقينًا، معي كتابي المقدَّس على الرف، أما زِلتَ ترتدي قلادة البابا؟".

سَحَبتُ الصليب خارج قميصي وأبرزته له، وُلِدتُ وتَرعرَعتُ في طائفة أبرشانية، لكن أغلب الرفاق الذين عاشوا حول الأرض يرتدون شيئًا ما: صليبًا، قلادة القديس كريستوفر، مسبحة، أي شيء. لأنه منذ عامين، وعلى امتداد شهر أكتوبر المظلم، ساءت الأمور كثيرًا في "الأرض". في بعض الأحيان، في وقت متأخِّر من الليل، حين يتحلَّق بضعة أفراد حول النار عند تووكي، يبدأ الناس في الحديث عن الأمر، ويتحدَّثون عنه كأنه صار حقيقة، أترى، بدأ الناس يختفون داخل "الأرض"، في البدء كانوا قِلَّةً، ثم ازداد عددهم، ثم صار العَدَدُ مهولًا. أغلقت المدارس، وباتت المدينة خاويةً على عروشها أغلب أوقات العام، وآه! انتقلت قِلَّةٌ قليلة للعيش فيها، أغلبهم حمقى ملاعين وافدون من خارج الولاية مثل هذا الرجل الطيب هنا، حيث جذبهم انخفاض أسعار العقارات حسبما أظنُّ، لكنهم لم يطيلوا الإقامة، حيث انتقل العديد منهم خارجها بعد شهر أو شهرين من قدومهم، أمَّا عن الآخرين، ففي الواقع، اختفوا، ثم احترَقَت حتى تساوت بالأرض. كانت نهاية خريف جاف طويل، حيث يرون أن الواقعة بدأت عند منزل مارستين على التلَّة المطِلَّة على جادة جوينتنر، ولكن لا أحد يعلم كيف وقعت الواقعة حتى يومنا هذا، فقد استمرَّ الحريق لمدة

ثلاثة أيام دون قُدرةٍ على الاحتواء، وبعدها تحسَّنَت الأحوال لفترة وجيزة، ثم بدأ الأمر من جديد.

كل ما سمعته كلمة "مصَّاصي دماء" التي ذُكِرَت مرَّةً واحدة. جاء إلى تووكي في تلك الليلة سائِقُ شاحِنةٍ أخشاب مجنون يُدعى ريتشي ماسينا من طريق فريبورت، وكان سكران حتى الثُّمالَة، مُنتَصِبَ القامة بطول تسعِ أقدام تقريبًا ببنطاله الصوفي وقميصه المنقوش وحذائه الطويل الجلدي، عوى هذا المندفع قائلًا: "يا للمسيح! هل أنتم جميعًا خائِفون من العلانية في القول؟ مَصَّاصو دماء! هذا كل ما تفكِّرون فيه، أليس كذلك؟ يا ليسوع المسيح مُتَّقِد الحماس الجالس في قلب عربة تجرُّها درَّاجة! تشبهون زُمرَةً من الأطفال المذعورين في السينما! أتعلمون ما يوجد هناك في "أرض سالم"؟ أتريدونني أن أخبركم؟ أتريدونني أن أخبركم؟".

قال تووكي: "قُل يا ريتشي، لك حَقُّ الكلام"، هدأت الأجواء في الحانة لدرجة أنَّكَ تسمع فرقعة شُعلات النار، والهطول الرقيق للمطر النوڤمبريِّ بالخارج في الظلام.

قال لنا ريتشي ماسينا: "عُصبَةُ كلابكم الضارية هي المتواجدة هناك بالأساس، هذا ما لديكم، هذا بجانب العديد من النسوة العجائز اللاتي يُحبِبنَ سماع حكاية مخيفة جيِّدة، لماذا؟ مقابل ثمانين سنتًا، سأذهب إلى هناك وأقضي الليلة في أطلال ذلك المنزل المسكون الذي تخافون منه أجمعون، حسنًا، ماذا عن هذا؟ من يزيد؟".

ولكن لم يزِد أحدٌ، كان ريتشي ثرثارًا وسكِّيرًا حقيرًا، ولن يذرف أحدٌ الدموعَ عليه حين ينتهي به المطاف هناك، ولا أحد راغِبٌ أن يراه يدخل "أرض سالم" بعد حلول الظَّلام.

قـال ريتـشي: "فلتخسـأ عصبتكـم أجمعـين، معـي سـلاحي 410 في صنـدوق سـيارتي الشـيفي[1]، وهـو مـا سـيضع حـدًّا لأي شيء يظهـر في فالمـاوث أو كامبرلانـد أو أرض چيروسـالِم، وإلى هنـاك أنـا ذاهـب".

خبـط بيـده عـلى البـار، ولم يتفـوَّه أحـدٌ بكلمة لِلَحظَـةٍ، ثم قـال لامونت هـنري بهـدوء شـديد: "هـذه آخـر مـرة سـيرى فيهـا أحـدٌ ريتـشي ماسـينا، يـا إلهـي القديـر!". ورشَـمَ لامونـت الصَّليـب، ذلـك الرجـل المترعـرع في الطائفـة الميثوديـة منـذ حداثـة سِـنِّه.

قـال تـووكي: "سـيفيق مـن السُّـكر ويعـود لرُشـدِه"، لكنـه بـدا عـلى صوتـه عـدم الارتيـاح، "سـيعود عنـد وقـت الإقفـال، ليثبـت أن كل هـذا مجـرَّدَ مزحَـةٍ".

لكـن لامونـت كان معـه الحـقُّ في هـذه المسـألة، حيـث لم يَـرَ أحـدٌ ريتـشي ماسـينا مـرَّةً أخـرى إطلاقًـا، وقالـت زوجتـه لرجـال شرطـة الولايـة إنهـا ظنَّـت أنـه غـادر إلى فلوريـدا للتعامُـل مـع وكالـة تحصيـل الديـون، لكنـك تـرى حقيقـة الأمـر في عينيهـا، عينـين مرهَقَتـيْن خائِفَتَيْن. بعـد فـترة ليسـت بالطويلـة، انتقلـت للعيـش في رود آيلانـد، ربمـا ظنَّـت أن ريتـشي سـينتقل وراؤهـا في ليلـة مُظلِمَـة، ولسـت في موقـع الحسـم لأقـول إنـه ربمـا لم يفعـل ذلـك.

تـووكي الآن كان ينظـر إليَّ، وكنـتُ أنظـر بـدوري إلى تـووكي حـين حشَرتُ صليبـي داخـل القميـص، لم أشـعر قَـطُّ بـكل هـذا الـبرد وكل هـذا الخـوف طيلـةَ حياتي.

قال تووكي ثانية: "لا يمكننا تركهم بمفردهم هناك يا بووث".

"نعم، أعرف".

(1) هكذا يقول اختصارًا لـ(شيفروليه) (المترجم)

نظرنا لبعضنا البعض لِلَحظَةٍ أطول، ثم مدَّ يده وشدَّني من كتفي، "أنت رجل صالح يا بووث"، وكان هذا كافيًا ليُحفِّزني. يبدو أنه حين تتخطَّى السبعين، يبدأ الناس ينسون أنك رجل، أو أنك وُجِدتَ من الأساس.

تمشَّى تووكي نحو لوملي، وقال: "لديَّ سيارة استطلاع رباعية العجلات، سأُخرِجها".

التفَّ من ناحية النافذة وحدَّق إلى تووكي غاضبًا: "بحقِّ الرب، لماذا لم تَقُل هذا من قبل؟ لماذا أنفقتَ عشر دقائق كاملة في اللَّفِّ والدَّوران؟".

قال تووكي بهدوء شديد: "يا سيد، أغلِقْ فَمَكَ، وإذا راوَدَتكَ الرغبة في فتحه، فلتتذكَّر مَن أخذ هذه الالتفافة على طريق لم تُجرَف عنه الثلوج في قلب عاصفة ثلجيَّةٍ لعينة".

أوشك أن يقول شيئًا ما، ثم أطبق فمه، وتلوَّن خدَّاه بلون كثيف. توجَّه تووكي إلى الخارج كي يخرج سيارة الاستطلاع من المرآب، والتَفَفتُ حول البار من أجل قِنِّينته الكروم، وعبَّأتُها على آخرها بالبراندي.

أظنُّ أننا في حاجة لهذا قبل اختتام الليلة.

عاصفة ماين الثلجية، هل كنتَ من قبلُ في قلب عاصفة؟

تطايَر الثَّلجُ بالِغُ الكثافة والضآلة كأنه حبَّات رمل، وبدا هكذا في صوته وهو يخبط جانبي السيارة أو الشاحنة. لن ترغب في استخدام إضاءة سيَّارَتِكَ العالية، حيث سينعكس عليها الثَّلجُ ولن ترى أمامك لمسافة عشر أقدام، أمَّا مع استخدام الإضاءة المنخفضة؛ يمكنك أن ترى لخمس عشرة قدمًا، لكني أستطيع التعايُشَ مع الثلج، بينما لا أحِبُّ الريح حين ترتفع وتيرتُها وتبدأ في العواء، صانِعةً من الثلج مائة شكل مُتطايِر غريب، وتُصدِر صوتًا يبدو كأنه تَجمُّعٌ لِكُلِّ كراهية وألم

وذعـر العـالم، ثمَّـة مَـوتٌ يقـف في حلـق ريـاح العاصفـة الثلجيـة، مـوت أبيـض، وربمـا شيء يتخطَّـى المـوت. لا صـوت تسـمعه حـين تسـتلقي في اسـترخاءٍ في فراشـك مـع سـتائِرَ مُغلَقَـةٍ وبـابٍ مُقفـل. الأمـر أسـوأ كثـيراً في أثنـاء القيـادة، وحـين نقـود تحديـدًا إلى أرض سـالم.

طلب لوملي: "ألا يمكنك أن تُسرع قليلًا؟".

قلـتُ: "بالنِّسـبَة لرَجُـلٍ أتى إلينـا وهـو نصـف مُتجمِّـد، فأنـت في عجلـة شـديدة مـن أمـرك لينتهـي بـك الحـال سـائرًا عـلى قدميـك مـن جديـد".

نظـر إليَّ نظـرةً مُمتَعِضَـة مُرتَبِكَـة، ولم يـزد كلمـة. كنَّـا نتحـرك بثبـاتٍ عـلى الطريـق السريـع عـلى سرعـة 25 ميـلًا في السـاعة. كان يصعـب تصديـقُ أن بيـلي لاريبـي جـرف الثلـوج عـن هـذه المسـاحة منـذ سـاعة مضـت، حيـث غطَّاهـا إنشـان إضافيَّـان، ومـا زال الثلـج يهطـل. خبَطَـت أقـوى عصفـات الريـح سـيارة الاسـتطلاع عـلى زجاجهـا الأمامـي، وأظهـرت المصابيـح الأماميـة أمامنـا الـلا شيء الأبيـض الحائـم.

بعد عشر دقائق تقريبًا، قال لوملي لاهثًا: "هاي! ما هذا؟".

كان يشـير إلى خـارج ناحيتـي مـن السـيارة، ونظـرت مبـاشرة إلى الأمـام، والتَفَفـتُ، وكان طيفًـا ناشـئًا للتَّـوِّ، ظَنَنـتُ أني أرى كيانًـا هابطًـا يتراجَـع عـن السـيارة، عائـدًا إلى الثلـج، ولكـن ربمـا كان هـذا محـضَ خيـال.

سألت: "ماذا كان هذا؟ غزال؟".

قـال بصـوتٍ شـبه مهـزوز: "أظـنُّ ذلـك، لكـنَّ عينَيْـه كأنَّهـما... حمـراوان"، ونظـر إليَّ. "أهكـذا تبـدو عينَـيْ الغـزال في الليـل؟"، وبـدا كـما لـو كان يتـضرَّع في حديثـه.

قلـتُ: "رُبَّمـا كانـا يشـبهان أيَّ شيء"، وهـو يُفكِّـر أن هـذا ربمـا يكـون صحيحًـا، لكنـي رأيـت الكثـيرَ مـن الغـزلان في الليـل مـن سـيَّاراتٍ عديـدة، ولم أَرَ عينَـيْن تعكسـان ضيـاءً أحمـرَ.

تووكي لم يَقُل شيئًا.

بعد خمس عشر دقيقة تقريبًا، وصلنا إلى مُنحَدرٍ ثلجيٍّ غير مرتفع كثيرًا على الناحية اليمنى من الطريق، حيث ينبغي على الجرَّافات أن ترفع شفراتها قليلًا في أثناء المرور بتقاطُعِ طُرُق.

قال لوملي دون يقينٍ من كلامه: "يبدو كأن هذا هو الموضع الذي التففنا عنده، لا أرى اللافتة...".

"ها هي ذي". هكذا رَدَّ تووكي، ولم يَبدُ على حاله على الإطلاق، "يمكنك فقط أن ترى طرف اللافتة".

بدا لوملي مرتاحًا: "آه طبعًا، اسمع يا سيد تووكلاندر، أعتذر لك على فظاظتي هناك، كنتُ بردانًا وقَلِقًا، واعتَبَرتُ نفسي أحمقَ بمقدار مائتي مرة، وأريد أن أشكر كليكما...".

قال تووكي: "لا تشكر بووث ولا تشكرني إلى أن نأخذهما في السيارة"، دفع سيَّارة الاستطلاع على عجلاتها الأربعة وشقَّ طريقه عبر المنحدر الثلجي وعلى جادة چونيتنر، الذي يمرُّ عبر "الأرض" إلى الطريق 295. تطايَرَ الثلج على واقيات العجلات. حاولت مؤخِّرَة السيارة أن تَجنَحَ بعض الشيء، لكن تووكي كان يقود السيارة عبر الثلج منذ وقت طويل، وأحكم السيطرة عليها، وتحدَّث إليها، وسارا بها. التقطت الأضواء الأمامية إشارةً صريحة إلى آثار عجلات من حين إلى آخر، تلك الآثار التي خلَّفَتها سيارة لوملي، وبعدها اختفت مرَّةً أخرى. انحنى لوملي إلى الأمام، باحثًا عن سيارته، وفجأة قال تووكي: "سيد لوملي...".

تطَلَّع إلى تووكي: "ماذا؟".

قال تووكي، وهو يبدو متساهلًا كفاية: "الناس في هذه الأرجاء يؤمنون بالتخاريف بخصوص أرض چيروسالِم"، لكنني رأيتُ حولَ فَمِه خطوطَ التَّوتُّر الغائرة، وطريقة تَحرُّك عينَيْه من ناحية للأخرى، "لو

كانـت أُسرَتُـكَ في السـيارة، وهـو أمـرٌ طَيِّـب، سـنصطحبهم ونعـود إلى حانتـي، وغـدًا، حـين تنتهـي العاصفـة، سـيكون مـن دواعـي سرور بيـلي أن ينتشـل سـيَّارَتَكَ مـن المنحـدر الثلجـي. ولكـن إذا كانـا غـير موجودَيْـن في السَّـيَّارة...".

"غـير موجوديـن في السـيارة؟ لمـاذا لـن يكونـا في السـيارة؟". هكـذا قاطَـعَ لومـلي الحديـثَ بِحِـدَّة.

واصـل تـووكي حديثـه دون رَدٍّ عـلى سـؤاله: "إذا لم يتواجـدا في السـيارة، سـنلتف ونتوجَّـه إلى مركـز فالمـاوث، ونُصفِّـر عـلى الشريـف، مـن غـير المنطقـي أن نلـفَّ ونـدور ليـلًا في قلـب عاصفـة ثلجيـة، أليـس كذلـك؟".

"سيكونان في السيارة، وإلا أين سيكونان؟".

قلـتُ: "أمـرٌ آخَـرُ يـا سـيد لومـلي، إذا صادفنـا أي شـخص، فلـن نتحـدَّث إليـه، ولـو حتى تحـدَّث إلينـا، أفَهِمـتَ؟".

قال لوملي ببُطءٍ شديد: "ماذا تكون تلك التخاريف؟".

قبـل أن يتسـنَّى لي قَـولُ أي شيء، والـرب وحـده يعلـم مـا كنـتُ سـأقوله، قاطَـعَ تـووكي الحديـث: "وصلنـا".

وجدنـا أنفسـنا عنـد مُؤخِّـرَة سـيارة مرسـيدس كبـيرة، ووجدنـا غطـاءَ مُحـرِّك السـيارة مدفونًـا تحـت كومـة مـن الثلـج، كـما ابتلعـت كَومَـةٌ أخـرى الجانِـبَ الأيـسر مـن السيارة بأكملـه، بينـما كانـت أضـواء المؤخِّـرَة مُضـاءَةً، ورأينـا العـادم يخـرج مـن الماسـورة.

قال لوملي: "على أيِّ حال، لم يَنفَد منهم الوقود".

رفـع تـووكي فرامـل الطـوارئ لسـيارة الاسـتطلاع وشـدَّها، "تتَذكَّـر مـاذا قـال لـك بـووث يـا لومـلي".

"طبعًا. طبعًا!".

لكنه لم يكن يفكِّر في شيء سوى زوجته وابنته. لم أفهم كيف يمكن لأحدٍ أن يلومه أصلًا.

سألني تووكي: "جاهز يا بووث؟"، وتَعَلَّقَت بي عيناه المنفعلتان الرماديَّتان في أضواء لوحة القيادة.

قال: "أظنُّ أني مُستَعدٌّ".

خرجنا جميعًا وتجاذَبَتنا الرياح، مُلقِيَةً بالثلج في وجوهنا، كان لوملي أوَّلَهم، وخضع للريح، وانتفخ معطفه الفاخر من الوراء بالهواء مثل الشراع. ألقى ظِلَّيْن: ظِلًّا من عند أضواء تووكي الأمامية، والظِّلَّ الآخرَ من عند أضواء المؤخِّرة. كنت خلفه، وتووكي خلفي بخطوة. حين وصلت إلى صندوق سيارة المرسيدس، شدَّني تووكي.

قال: "دعه يذهب".

صرخ لوملي: "چايني! فرانسي! هل أنتما على ما يرام؟"، شَدَّ باب السائق وانحنى إلى الداخل: "كلُّ شيء...".

تجمَّدَ دون حراكٍ، انتزعت الرِّيحُ البابَ الثقيل من يده، وانفتح على آخره.

قال تووكي تحت وطأة صياح الريح: "يا إلهي القدير يا بووث، أظنُّ أن الأمر حدث مرَّةً أخرى".

استدار لوملي نحونا، وجهه مذعورٌ ومذهول، وعيناه مُتَّسِعَتان، اندفع على حين غرَّة نحونا عبر الثلج، تزحلق وكاد أن يقع، وأبعدني عن طريقه كأني لا شيءَ، وشَدَّ تووكي من ملابسه.

صاح فيه لوملي: "كيف عرفتَ ذلك؟ أين هما؟ ماذا يحدث هنا بحقِّ الجحيم؟".

أرخى تووكي قبضته ودفعه أمامه. هو وأنا نظرنا إلى المرسيدس سويًّا، كانت دافِئةً مثل الخُبزِ المُحمَّص، لكن هذا لن يستمرَّ لوقت

طويـل. توهَّجَـت الإضـاءة الكهرمانيَّـةُ الصغـيرة الدالَّـةُ عـلى انخفـاض الوقـود، كانـت السـيارة الكبـيرة خاويـة، وثمَّـة دُميَـة بـاربي طفوليـة عـلى مفـرش أرضيـة السـيارة، وتكوَّمَـت سـترة الطفلـة الفرائيـة عـلى المقعـد الخلفـي.

وضـع تـووكي يديـه عـلى وجهـه، ثـم ذهـب. شـدَّه لومـلي ودفعـه مـن جديـد إلى المنحـدر الثلجـي، كان وجهـه شـاحبًا ومهتاجًـا، وفمـه يَتحـرَّك كـما لـو كان يمضـغ شـيئًا مُـرًّا لم ينعجـن بمـا يكفـي كي يبصقـه، مـدَّ يـده وشَـدَّ السـترة الفرائيـة.

همـس نوعًـا مـا: "سـترة فرانـسي؟"، ثـم رفـع صوتـه في خـوار: "سُـترَة فرانـسي؟"، اسـتدار ممسـكًا بـه أمامـه مـن غطـاء الـرأس المحفـوف بالفِـراء. نظـر إليَّ نظـرةً خاويـة غـير مُصدِّقـة، "لا يمكنهـا أن تخـرج دون ارتـداء سُـترَتِها يـا سـيد بـووث، لمـاذا.. لمـاذا... سـتتجمَّد حتـى المـوت".

"سيد لوملي...".

تخبَّـط ورائي، وهـو مـا يـزال مُمسـكًا بالسُّـترَة الفرائيـة، ويـصرخ: "فرانـسي! چاينـي! أيـن أنتـما؟ أيـن أنتـمااااا؟".

مَـدَدتُ يـدي لتـووكي، وشَـدَدته حتـى وقـف عـلى قدميـه، "هـل أنـتَ...".

قال: "لا تُبالِ بي، علينا أن نمسك به يا بووث".

ذهبنـا وراءه بـأسرع مـا يمكـن، ومـا كُنَّـا مُسرِعـين لتلـك الدرجـة بفعـل وصـول الثلـج حتـى الأفخـاذ في بعـض المواقـع، وبعدهـا توقَّـف ولحقنـا بـه.

بدأ تووكي الحديثَ، واضعًا يد على كتفه: "سيد لوملي".

قـال لومـلي: "مـن هـذا الاتجـاه، هـذا هـو الاتجـاه الـذي ذهبـا فيـه، انظـر!".

نظرنـا إلى الأسـفل، كُنّـا في منحـدر نوعًـا مـا، واتَّجَهـت أغلـب الريـاح فـوق رؤوسـنا مبـاشرة، ويمكنـك أن تـرى زوجَـيْن مـن آثـار الأقـدام، إحداهـما كبـيرة والثانيـة صغـيرة، ممتلئتَـيْن بالثلـوج، ولـو كُنّـا جئنـا بعـد خمـس دقائـق، لاختفـت تمامًـا.

بدأ يسير بعيدًا، ورأسه مُنَكَّسٌ، وأعاده تووكي: "لا لا، لوملي!".

أدار لومـلي وجهـه المهتـاج إلى تـووكي، وشـكَّل قبضـة بيـده ثـم أبعدهـا، شيء مـا في وجـه تـووكي أربكـه، ونظـر إلى تـووكي ثـم إليَّ، بعدهـا عـاوَدَ الكَـرَّة.

قـال لنـا كـما لـو كُنّـا طِفلَـيْن غبيَّـيْن: "سـتتجمَّد! ألا تفهـمان؟ سـترتها ليسـت بحوزتهـا، وهـي في سِـنِّ السـابعة فحسـب...".

قـال تـووكي: "قـد تكـون في أي مـكان، لـن تسـتطيع تَتبُّـع آثـار الأقـدام هـذه، سـتختفي مـع الثلـوج القادمـة".

صرخ لومـلي بصـوتٍ عـالٍ وهسـتيري: "ومـاذا تقـترح؟ إذا عُدنـا لإحضـار الشرطـة، سـتكون قـد تجمَّـدَت حتـى المـوت! فرانـسي وزوجتـي!".

قـال تـووكي، وقـد التقطـت عينـاه عينـي لومـلي: "رُبَّمـا تَجمَّـدَتـا بالفعل، تجمَّدتـا، أو مـا هـو أسـوأ".

همس لوملي: "ماذا تقصد؟ ما هو مغزاك؟ عليكَ اللعنة! قُل لي!".

قال تووكي: "سيد لوملي، يوجد شيء ما في الأرض...".

لكنـي أنـا مَـن بُحـتُ بالمكنـون في نهايـة المطـاف، قُلـتُ الكلمـة التـي لم أتوقَّـع أن أقولهـا: "مَصّاصـو دمـاء يـا سـيد لومـلي، أرض چيروسـالِم مأهولَـةٌ بمصّـاصي الدِّمـاء، أعـرف أنـه يصعـب عليـك اسـتيعاب هـذا..."، كان يُحـدِّق إليَّ كـما لـو كان جِلـدي سـيَخضَرُّ. همـس قائـلًا: "مجنونـان، أنتـما مجنونـان"، ثـم ابتعـد، وكـوَّب يدَيْـه حـول فمـه، ورفـع صوتـه عاليًـا:

"فرانـسي! چاينـي!"، وتعـثَّر ثانيـةً، حيـث اعتـلى الثلـجُ حاشـيةَ معطفـه الفاخـر.

نظرت لتووكي، "ماذا نفعل الآن؟".

قـال تـووكي: "اتْبَعْـه"، غطَّـى الثَّلـجُ شَـعرَ رأسـه، وبـدا مختـلًّا بعـض الـشيء، "لا أسـتطيع أن أتركـه هنـا فحسـب يـا بـووث، أيمكنـك أنـت؟".

قُلتُ: "لا، أظنُّ لا...".

ثـم شرعنـا في خـوض الثُّلـوج في أثـر لومـلي بأفضـل مـا في وسـعنا، لكنَّـه ابتعـد أكـثر فأكـثر قُدُمًـا، وكـما تـرى، كان لديـه شـبابه كي يُنفِقَـه. كان يكـسر المسـار، خائضًـا في الثلـوج مثـل الثَّـور. بـدأ يُزعِجنـي التهـابُ المفاصـل لدرجَـةٍ رَهيبَـة، وبـدأت أنظـر إلى سـاقيَّ، وأنـا أقـول لنفـسي: "اقطَـعْ مسـافةً أكـبر، اقطـع مسـافة أكـبر، حُـثَّ الخُطـى عليـك اللعنـة، حُـثَّ الخُطـى".

تكوَّمـتُ ناحيـة اليمـين عنـد تـووكي، الـذي كان يقـف مُنفَـرِجَ السَّـاقَيْن في الثلـج. كان رأسـه منكَّسًـا، ويـداه مضغوطتَـيْن عـلى صـدره.

قلت: "تووكي، هل أنت بخير؟".

قـال وهـو يُبعِـد يديـه: "أنـا بخـيرٍ، سـنبقى معـه يـا بـووث، وحـين يشـعر بالإرهـاق، سـيدرك الحقيقـة".

ارتقينـا مُرتَفَعًـا، ووقـف لومـلي هنـاك عـلى القِمَّـة، يبحـث باسـتماتَةٍ عـن المزيـد مـن آثـار الأقـدام. مسـكين، لا فرصـة أمامـه للعثـور عَليهـنَّ. عصفـت الريـحُ مُبـاشرةً حيـث يقـف؛ مِـمَّا مَحـى أي آثـار أقـدام بعـد ثـلاثِ دقائـق مـن تكَوُّنهـا، فـما بالـك بعـد بضعـة سـاعات.

رفع رأسه وصرخ في ظُلمَة الليل:

"فرانـسي! چاينـي! بحـقِّ الـرَّبِّ!". ويمكنـك سـماع اليـأس والرعـب في صوتـه، فتشـفق عليـه، والـرَّدُّ الوحيـد الـذي تَلقَّـاه كان صـوتَ عويـل

الريح الشبيه بقطار البضائع، كأنها كانت تسخر منه، قائِلةً: أخذتهم معي أيُّها السيد النيوچيرسي ذو السيارة الفاخرة، والمعطف من شَعر الجِمال، أخذتهم وأخرجتهم عن مساراتهم، وفي الصباح ستصيران أنيقتَيْن ومُتجمِّدَتَيْن مثل حَبَّتَيْ فراولة في الفريزر.

صاح تووكي عبر الرياح: "اسمع، أنت لا تبالي بمصَّاصي الدماء ولا العفاريت، ولا أي شيء من هذا القبيل، لكنَّكَ تبالي بهذا! أنت تزيد الأمور سوءًا عليهما، علينا أن...".

وبعدها جاء الرَّدُّ، صوتٌ قادِمٌ من جوف الظلام مثل أجراس فِضِّيَّة صغيرة رنَّانة، وبرد قلبي مثل الجليد في الصهريج.

"چيري، چيري، أهذا أنتَ؟".

سارع لوملي نحو مصدر الصوت، وبعدها جاءت هي، مُندَفِعَة مثل الشبح من بين الظِّلال الداكنة لشجر الأيك الصغير، كانت سيِّدةً من المدينة، لا بأس، وربما بَدَت وقتئذ أجملَ امرأة وقعت عليها عيناي، شعرت كأني راغب بالذهاب إليها وإخبارها عن مدى امتناني لكونها سليمةً مُعافاةً. كانت ترتدي شيئًا يُشبِه كنزةً صوفيَّة خضراء ثقيلة، أو بُنش، أظنُّ هكذا يُسمُّونها، كان يحوم من حولها، وتَدَفَّق شَعرُها الداكن في الريح العاتية مثل الماء في رافِدِ نَهرٍ ديسمبريٍّ قبل أن يُجمِّدَه صقيع الشتاء ويحبسه بداخله.

ربَّما اتَّخَذتُ خطوةً نحوها بالفعل، لأنِّي شَعرتُ بِيَدِ تووكي على كتفي، خَشِنَة ودافئة، ومع ذلك، كيف يَسَعُني قول هذا؟ تاقت روحي إليها، كانت شديدة الغموض والجمال بهذا البُنش الأخضر الذي يحوم حول رقبتها وكتفيها، فاتنة وغريبة لدرجة تدفعك إلى التفكير في امرأة جميلة من قصيدةٍ للشاعر والتر دي لا مير.

صاح لوملي: "چايني! چايني!"، كان يُعافِرُ مع الريح في طريقه إليها، ومدَّ ذراعيه.

صاح تووكي: "لا! لا يا لوملي!".

لم ينظر حتى، لكنها نَظَرَت، نَظَرَت إلينا وابتَسَمَت، وحين ابتسمت، شَعرتُ بِتَوقي واشتياقي يتحوَّلان إلى رعب بارد برودةَ القبر، وأبيض وساكن مثل العظام في الكفن. من مَوقِعنا على المرتفع رأينا السُّطوعَ الأحمرَ الغاضِبَ في تَينِكَ العينين، كانتا أقَلَّ بشريَّةً من عينَيْ الذِّئب، وحين ابتسَمَت، رأيتُ كم استطالت أسنانها، لم تَعُد بَشريَّةً بعد الآن، باتت شيئًا ميِّتًا انبعثت فيه الحياة بطريقةٍ ما في هذه العاصفة الصَّارِخَة السوداء.

رشم تووكي الصليب على مرآها، فأجفَلَت، وابتَسَمَت إلينا مُجدَّدًا، كُنَّا بعيدين عنها جدًّا، وربما خائِفين جدًّا.

همَستُ: "تَوقَّفْ! ألا يمكننا إيقاف هذا؟".

قال تووكي مُتجهِّمًا: "فات الآوان يا بووث!".

وصل إليها لوملي، بدا هو نفسه مثل الشَّبح، مُغطًّى بالثلج مثلما كان، وصل إليها... ثم شرع في الصراخ. سأظلُّ أسمع هذا الصوت في أحلامي، صرخ هذا الرجل مثل طفلٍ يرى كابوسًا، حاوَلَ التَّراجُع عنها، ولكنَّ ذِراعَيْها، الطويلَتَيْن المُجرَّدَتَيْن البيضاوين مثل الثلج، امتدَّتا وسَحَبتاه إليها. أفلحتُ في رؤيتها وهي تلوي رأسها وتنقضُّ بها... "بووث! علينا الخروج من هنا". هكذا قال تووكي بصوتٍ غليظ.

لذا ركضنا، ركضنا مثل الجرذان، هكذا سيقول البعضُ الذين لم يتواجدوا هناك تلك الليلة. لُذنا بالفرار إلى حيث أتينا، ونحن نتعثَّر، ونقوم ثانيةً، وننزلق ونتزحلق، ظَلَلتُ أَنظر إلى الوراء من فوق كتفي لأرى إن كانت المرأة آتيةً في إثرنا، تبتسم لنا تلك الابتسامة وتُراقِبُنا بتينك العينين الحمراوين.

قلتُ وأنا في أشدِّ خوفي: "تووكي! ماذا...".

قـال: "قلبـي، كان مُعتـلًّا منـذ خمـس سـنوات أو أكـثر، أجْلِسْـني في المقعـد الأمامـي يـا بـووث، وأخْرِجْنـا بحَـقِّ الجحيـم مـن هنـا".

شـبك ذراعًـا مـن تحـت معطفـه، ومـن ثـم سـحبها في الأرجـاء، وبطريقـةٍ مـا رفعهـا إلى الداخـل. أرجـع رأسـه إلى الـوراء وأغمـض عينيـه، كانـت بشرتـه صفـراءَ لهـا مَظهَـرُ الشَّـمع.

هروَلـتُ نحـو غطـاء صنـدوق السـيارة، وكنـتُ عـلى وشـك الركـض نحـو الفتـاة الصغـيرة، كانـت واقِفـةً فحسـبُ بجـوار بـاب السـائق، شَـعرُها مُضفَّـر، لا ترتـدي شـيئًا سـوى فسـتانٍ مائـل للصُّفـرة.

قالـت بصـوتٍ عـالٍ وواضـح وعَـذبٍ مثـل الضبـاب الصباحـي: "سـيدي، ألا تُسـاعِدُني في العثـور عـلى أمـي؟ اختفـت، وأنـا بردانـة جـدًّا".

قلت: "حبيبتي. أيَا حبيبتي، من الأفضل أن تركبي السيارة، أُمُّكِ...".

انقطـع كلامـي، وإذا مـرَّت عـليَّ مَـرَّةٌ أوشَـكتُ فيهـا عـلى الإغـماء، فسـتكون هـذه هـي اللحظـة، أتـرى، كانـت واقفـةً هنـاك، لكنهـا واقِفَـة عـلى قِمَّـة الثلـج، دون آثـار للأقـدام، لا وجـود لهـا في أيِّ اتجـاه.

تطلَّعَـت إليَّ بعدهـا، فرانسي ابنـة لومـلي، لم تَعُـد فتاةً في سِنِّ السـابعة بعـد الآن، وسـتظلُّ فتـاةً في السـابعة لِلَيـالٍ أبديَّـة، ابْيَـضَّ وَجهُهـا الصغـير بالابيضـاض الشَّـبحيِّ للجثامـين، عيناهـا حمـراوان وفضِّيَّتـان، قـد تقـع في شركهـما، وتحـت فَكِّهـا تـرى ثُقبَـيْن صغيريْـن يشـبهان وخـزات الإبـر، وحوافُّهـما مُشـوَّهة لدرجـة مُفزِعَـة.

مـدَّت ذراعيهـا إليَّ وابتسـمت، وقالـت برقَّـةٍ: "احملنـي يـا سـيدي، أريـدُكَ أن تعطينـي قُبلَـة، وبعدهـا خُـذني إلى أمِّـي".

لا أريـد ذلـك، ولكـن لا شيء يسـعني فِعلُـه، انحنَيتُ إلى الأمـام، ومَدَدتُ ذراعـيَّ. رأيـت فمهـا ينفتـح، كان بوسـعي رؤيـة النَّابَـيْن الصغيريْـن وراء

شفتيها الورديَّتَيْن. شيء ما يشقُّ ذقنها، لامع وفضِّيٌّ، ولاحظت في رُعبٍ قاتم وبارد وأخّاذ أن لعابها يسيل.

شبَكَت ذراعيها الصغيرتين حول رقبتي، وكنتُ أفكِّر: حسنًا، ربما لن يسوء الأمر لهذه الدرجة، ليس لهذه الدرجة، ربما لن يستفحل بعد فترة. وحين طار شيءٌ ما من داخل سيارة الاستطلاع وخَبَطَها على صدرها، صَدَرَت نفحةٌ من دخان غريب الرائحة، ووميض برَّاق اختفى بعد لحظة، ثم تراجَعَت وهي تُهَسهِسُ، التوى وجهُها حتى بات قِناعًا خبيثًا، قوامه الغضب والكراهية والألم. تَنَحَّت جانبًا، ثم.. اختفت. في لحظةٍ كانت موجودةً، وفي اللحظة التالية باتت عُنقودًا ثلجيًا تَشكَّل في هيئة شبه بشريَّة، ثم نثرتها الرياح بعيدًا عبر الحقول.

همس تووكي: "بووث، أسرِعْ، الآن!".

وقد كان، ولكن ليس بسرعة لا يتسنَّى لي معها الوقت لالتقاط ما قُذِفَ على تلك الفتاة الصغيرة الآتية من الجحيم: نسخة والدته من إنجيل دواي[1].

جرى هذا منذ وقت مضى، ووَهَنَ بصري الآن، وما كنت وقتها جبانًا. هيرب تووكلاندر تُوفِّي منذ عامين، مات في سلام، في الليل. ما زالت الحانة موجودةً، اشتراها رَجلٌ وزَوجَتُه من ووترفيل، أناسٌ لُطَفاء، وأبقوها على حالها لدرجة كبيرة، لكني لا أَمرُّ عليها كثيراً، فقد اختلفت بعض الشيء مع رحيل تووكي.

استمرَّت الأحوال في "الأرض" بشكلٍ كبير على حالها، حيث عثر الشريف في اليوم التالي على سيَّارة ذلك الرجل لوملي، بعدما نَفِدَ منها الوقود، وتوقَّفَت البطارية. لم نتفوَّه أنا أو تووكي بأي كلمة عمَّا حدث، ما الفائدة من هذا؟ وكل حينٍ وآخر، يختفي مسافِرٌ أو مُعَسكِرٌ هناك

---

(1) إنجيل دواي عبارة عن ترجمة للكتاب المقدس من اللاتينية إلى الإنجليزية، أنجزها أعضاء الكلية الإنجليزية في بلدة دواي الفرنسية (المترجم)

في الأرجـاء، أعـلى تَلَّـة فنـاء المدرسـة، أو بالخـارج عـلى قُـربٍ مـن مقـبرة تلَّـة هارمـوني، سـيقلبون حقيبـةَ الرجـل أو كتابًـا ورقيًـا منفوشًـا ومُبيَضًّـا بفعـل المطـر أو الثلـج، أو هكـذا أمـور، دون النظـر إلى البـشر.

مـا زالـت تـراودني كوابيـس عـن هـذه الليلـة العاصفـة التـي خرجنـا فيهـا إلى هنـاك، لم تَكُـن عـن المـرأة بقـدر مـا كانـت عـن الفتـاة الصغـيرة، وطريقـة ابتسـامها حـين رفعـت ذراعيهـا حتـى أحملهـا، وأمنحهـا قُبلَـةً. لكنـي رجـلٌ عجـوزٌ وسـيحين وقـت انقضـاء الأحـلام قريبًـا.

قـد تأتيـك فرصـةُ السـفر إلى جنـوب مايـن في واحـدة مـن تلـك الأيـام، بقعـة جميلـة مـن الريـف، ربمـا تتوقَّـف عنـد بـار تـووكي مـن أجـل شراب، مـكان لطيـف، أبقـوا الأسـماء عـلى حالهـا؛ لـذا احتَـسِ شرابَـك، وبعدهـا أنصَحُـكَ بالاسـتمرار في التَّوجُّـه شـمالًا، وأيًّـا كان مـا تفعلـه، لا تتَّخِـذ هـذا الطريـق المـؤدِّي إلى أرض چيروسـالِم.

وليس بعد حلول الليل بالذات.

هنـاك فتـاة صغـيرة في مـكانٍ مـا بالخـارج، وأظـنُّ أنهـا مـا زالـت تنتظـر مَـن يُقبِّلهـا ليتمنَّـى لهـا ليلـة سـعيدة.



السَّيِّدة في الغُرفَة

السؤال هو: هل يستطيع لذلك سبيلًا؟

إنه لا يعرف، بينما يعرف أنها تَمضُغُهم على الدَّوام، ووجهها يتغضَّن من مرارة طعم البرتقال، ويصدر من فمها صوتٌ مثل صوت تَشَقُّق عصا المصّاصة المُثلَّجة، لكن هذه حبوب مختلفة، كبسولات چيلاتينية، مكتوب على العلبة من الخارج "مُركَّب دارفون". عثر عليها في خزانة أدويتها وأخذها وقلبها بين يديه وهو يفكِّر. دواء وصَفَه لها الطبيب قبل عودتها إلى المستشفى، دواء لأجل الليالي المنصرمة. خزانة الأدوية مليئة بالعلاجات، مصفوفة بعناية مثل عقاقير طبيب معالج من الڤودو. تعويذة العالم الغربي. قوالب لبوس فليت، لم يستخدم قوالب اللبوس قَطُّ في حياته، وكانت تَسوؤه فكرةُ وَضعِ شيءٍ شَمعيٍّ في فتحة شرجه من أجل خفض درجة حرارة الجسم. لا كرامة تستقيم مع حشر أشياء في مؤخِّرَتِكَ، حليب مغنيسيا فيليبس، تركيبة آناسين

آرتيراتيس لتسكين الآلام، ببتو- بسيمول، والمزيد، استطاع أن يتتبَّع رحلة مَرَضِها من خلال الأدوية.

لكن هذه الحبوب مختلفة، تشبه حبوب الدارفون المعتادة، وهذه المرة في هيئة كبسولات چيلاتينية رمادية، لكنها أكبر حجمًا، والتي اعتاد والدها الراحل أن يطلق عليها "القضبان الذكرية الضَّخمَة"، مكتوب على العلبة: "إسبرين 350 جرام"، "دارفون 100 جرام"، وهل يمكنها أن تمضغهم حتى إذا أوكِلَ إليه أن يعطيها إيَّاهم؟ هل يمكنها؟ ما زال المنزل يَعجُّ بالحياة، والثلاجة تعمل ثم تتوقَّف، ونظام التدفئة يباشر عمله وينهيه، ومن حين لآخر يخرج طائِرُ الوقواق غاضبًا من قلب الساعة ليعلن عن مرور ساعة أو نصف ساعة. يفترض أنه بعد وفاتها ستؤول مسؤوليَّة ترتيب المنزل إليه وإلى كيڤين. حسنًا، لقد رحلَت، المنزل بأكمله شاهِدٌ على ذلك. إنها في مستشفى ماين المركزي، في مدينة لويستون، في الغرفة 312، ذهبت بعدما اشتدَّ عليها الألم، ولم تَعُد تتوجَّه إلى المطبخ لِتُعِدَّ قهوتها، وفي بعض الأوقات حين كان يزورها، كانت تصرخ دون أن تدرك ذلك.

يَئِنُّ المصعد في أثناء صعوده، ويجد نفسه يعاين شهادة المصعد الزرقاء، أعلنت الشهادة بكل وضوح أن المصعد آمِنٌ، سواء مع الأنين أو دونه. تواجَدَت هنا منذ قرابة الثلاثة أسابيع، واليوم أجريت لها عملية جراحية تُدعى "كطع الحبل الشوكي[1]"، إنه غير متأكِّد إذا كان هذا نُطقها الصحيح، لكن هكذا يبدو وقعها على الأذن.

أخبرها الطبيب أن عملية "كطع الحبل الشوكي" تُجرى عن طريق إدخال إبرَةٍ عبر الرَّقبة وصولًا إلى مُخِّها. قال لها الطبيب إن هذا

---

(1) يقصد (قطع الحبل الشوكي) لكنه ينطقها طوال القصة بطريقة خاطئة لعدم درايته بالنطق الصحيح، حيث كان ينطقها Cortotomy بينما النطق الصحيح للكلمة Cardotomy وهو ما روعي خلال ترجمة الكلمة إلى اللغة العربية (المترجم)

يشبه وَخزَ دَبُّوس في برتقالةٍ وطعن بِذرَةٍ في الداخل، وحين تلكز الإبرَةُ مَركزَ الألم لديها، ستُرسل إشارةً لاسلكية إلى طرف الإبرة، ومن ثمَّ القضاء على مركز الألم، كمثل نزع القابس عن التلفاز، وبعدها سيتوقَّف السرطان في معدتها عن إزعاجها.

تجعله فكرة هذه العملية الجراحية غيرَ مرتاح أكثر من عدم ارتياحه للذَّوبان الدافئ لقوالب اللبوس في فتحة شرجه، وتدفعه للتفكير في روايةٍ للكاتب مايكل كرايتون تُدعى "رجل الطرف الكهربائي" التي تحكي عن زرع الأسلاك في أدمغة البشر، فوفقًا لكرايتون، يُمكِن لهذا أن يتحوَّل إلى مشهدٍ سيِّئ، ويُفضَّل أن تصدق هذا.

ينفتح باب المصعد في الدور الثالث، ويخرج منه. هذا هو الجناح القديم للمستشفى، وتبدو رائحته مثل الرائحة الحلوة لنشارة الخشب التي تُرَشُّ فوق آثار القيء في معرض في المقاطعة، ترك الحبوب في حُجَيرة القُفَّازات في سيارته، ولم يشرب أي شراب قبيل هذه الزيارة.

الجدران هنا ثنائيَّة الطبقات: بُنِّيَّة في الأسفل، وبيضاء في الأعلى، يفكِّر أن هذا المزيج ثنائيَّ الطبقات قد يغدو أكثر إثارة للإحباط في العالم بأَسرِه حين يتحوَّل من البُنِّيِّ والأبيض إلى الزَّهري والأسود. ممرَّات المستشفى تشبه حبَّات حلوى "جود آند بلنتي" عملاقة. تدفعه هذه الفكرة للابتسام والشعور بالانزعاج في الوقت ذاته.

التقى ممرَّان في شكل حرف "T" أمام المصعد، وتوجد هناك نافورة لشرب الماء حيث يعتاد على الدوام أن يتأنَّى قليلًا. توجد أجزاء من مُعِدَّات المستشفى مُتناثِرَة هنا وهناك، مثل ألعابٍ غريبة في الملعب. نقَّالة ذات أطراف من الكروم مع عجلات مطَّاطيَّة، ذلك الشيء الذي يستخدمونه من أجل نَقلِكَ إلى "غرفة العمليات" حيث يستعدُّون لإجراء عملية "كطع الحبل الشوكي" عليك، يوجد شيءٌ سَيَّارٌ كبير لا يُعرف له غرضٌ، يبدو مثل العجلات الموجودة في أقفاص السناجب،

وتوجد حمَّالة أنابيب وريديَّة مع عبوتَّيْن تتدليَّان منها، تشبهان حلم سلڤادور دالي بالأثداء، وتحت أحد الممرَّيْن غرفة الممرِّضات، حيث يتناهى إلى سَمعِه الضحكات التي تثيرها جولات القهوة.

يحصل على شرابه، ثم يمشي الهوينى إلى غرفتها، يخاف ممَّا قد يجده هناك، ويأمل أن تكون نائِمةً، وإذا كانت نائمة، فلن يوقظها.

يوجد مصباحٌ مُربَّعٌ صغير فوق باب كل غرفة، حيث يضيء المصباح متوهِّجًا باللون الأحمر حين يضغط المريض على زِرِّ الاستدعاء. يسير المرضى بإيقاعٍ بطيء ذهابًا وإيابًا في الردهة، مُرتَدين أرواب المستشفى الرخيصة فوق ملابس المستشفى الداخلية، وكان على الأرواب أشرِطَةٌ رفيعة زرقاء وبيضاء مع ياقات مستديرة، يطلقون على الملابس الداخلية للمستشفى "چوني"، تبدو ألبسة الـ "چوني" ملائِمَة للسيدات، وغريبة تمامًا على الرجال لأنها تشبه قمصانًا تَحتيَّةً أو فساتين واصِلَةً حتى الرُّكبة، ويبدو أن الرجال يرتدون دائمًا نِعالًا بُنِّيَّةً من الجلد الصناعي. تُفضِّل السيدات النعال المُحاكة مع كُراتٍ من الغزل فوقها. لدى والدته زوجان منهما، وتطلق عليهما "البغلين".

يُذكِّره المرضى بفيلم رعب يُدعَى "ليلة الموتى الأحياء[1]". كلهم يسيرون ببطء، كأن شخصًا ما فَكَّ غطيان أعضائهم الحيوية مثل برطمانات المايونيز، حيث تتدفَّق السوائل بالداخل. بعضهم يستخدمون العِصِيَّ، مشيتهم البطيئة كأنهم يتنزهون ذهابًا وإيابًا في الردهة مُخيفَة، لكنها أيضًا مَهيبة. إنها مِشيَةُ الأشخاص المتباطئين غير الذاهبين إلى أي مكان، مِشيَة طلَّاب الكُلِّيَّة وهم مرتدون القلنسوات والعباءات ومتوافدون على قاعة حفل التخرُّج.

---

(1) فيلم شهير للمخرج والكاتب الأمريكي الراحل جورج إي روميرو، والذي بات واحدًا من أشهر أفلام الزومبي في تاريخ السينما (المترجم)

تتدفَّق الموسيقى الهيوليَّة الخارجية في كل مكان من راديوهات الترانزستور، وتصدر الأصوات كالخرير، حيث يسمع فريق بلاك أوك آركنساس وهم يُغنُّون أغنية چيم داندي (يصرخ صوتٌ عالي الطبقة بابتهاج في المشَّائين البطيئين في الرَّدهَة بجملة "هيا يا چيم داندي، هلُمَّ يا چيم داندي"). يسمع مُقدِّم برنامجٍ حواريٍّ وهو يحاور نكسون بنبرة صوتٍ مغموسة بِحِسٍّ لاذع مثل الريشات المحترقة. يسمع أغنية بولكا راقصة بكلمات فرنسية، ما زالت لويستاون بلدةً ناطِقةً بالفرنسية حيث يحبُّون حركاتهم الراقصة وتمايُلاتِهم بقدر حُبِّهم لانغماسهم مع حبِّهم البعض في حانات شارع لاور لشبون.

يتوقَّف خارج غرفة والدته، ولفترةٍ شَعَرَ بما يكفي من الذُّعر على دخوله سكرانَ، وجعله السُّكْر يشعر بالخِزي أمام أُمِّه رغم كونها مُخدَّرة بالكامل، ومُشبعة بعقار إيلافيل، وإيلافيل عبارة عن مُهدِّئ يُعطَى لمرضى السرطان حتى لا ينزعجوا كثيراً من فكرة موتهم.

كان يَسكَر عن طريق شرائه اثنتي عشرة علبة من بيرة بلاك ليبل من متجر سوني في فترة بعد الظُّهر، ويجلس مع الأطفال ليشاهد برامجهم المُذاعَة بعد الظُّهر على التلفاز: ثلاث علب بيرة بمصاحبة "شارع سمسم"، وعلبتي بيرة مع برنامج "السيد روجرز"، وعلبة واحدة بصُحبَة برنامج "الرُّفقة المتألِّقَة"، ثم علبة مع العشاء.

أخذ معه عُلَب البيرة الخمس المتبقِّية في السيارة. قاد بالسيارة مسافَةَ اثنين وعشرين ميلًا من رايموند إلى لويستاون، عبر طريقي 302 و202، وكان من الممكن أن تظلَّ في الحقيبة مع وصوله إلى المستشفى، مع علبة بيرة أو اثنتَيْن متبقيَّتَيْن. كان يحضر أغراضًا لأُمِّه ويتركها في السيارة حتى يصير لديه عُذرٌ ويشرب نصف علبة بيرة، محافظًا على مستوى الثُّمالة.

أعطـاه ذلـك عُـذرًا كي يتبـوَّل في الخـارج، وبطريقـة مـا كان هـذا أفضـل شيء في هـذا الشـأن المثـير للشَّـفقة، كان يركـن سـيَّارته دائمًـا في المسـاحة الجانبيـة المليئـة بالأخاديـد والقـاذورات النوفمبريَّـة المتجمِّـدة، وعَـزَّز الهـواءُ الليـليُّ البـارِدُ مـن التَّقلُّـص التـام للمثانـة. كان التَّبـوُّل في أحـد مراحيـض المستشـفى بمثابـة تكليـلٍ لتجربـة المستشـفى برُمَّتهـا: زِرُّ اسـتدعاء الممرضـة وراء الصفيحـة المصرَّفـة، ومقبـض الكـروم مثبَّـت بزاويـة 45 درجـة، وزجاجـة المطهِّـر الـوردي فـوق الحـوض. الخـبر السـيِّئ أنـه يجـب عليـك تصديـق هـذا.

لم تتولَّـد لديـه رغبـة في الـشُّرب خـلال العـودة للمنـزل؛ لذلـك تُجمـع علـب البـيرة المتبقِّيـة في صنـدوق الثلـج، وحـين يصـير عددهـم سِـتًّا، فلـم يكـن ليـأتي أبـدًا إذا كان يعـرف أن الأمـر سيسـوء هكـذا. أول فكـرة تمـرُّ في بالـه: لم تـصر بشرتهـا برتقاليـة، أمـا الفكـرة الثانيـة: أنهـا بالفعـل تحتـضر الآن، كأن عليهـا اللحـاق بقطـار هنـاك في العـدم، كانـت مُجهـدَةً في الفـراش، ولا شيء فيهـا يتحـرَّك سـوى عينَيْهـا، ومـع انحباسـها داخـل جسـدها، تحـرَّكَ بداخلهـا شيءٌ مـا. تلطَّخَـت رقبتهـا باللـون البرتقـالي بمـادَّةٍ تُشـبه المركيروكـروم، وتوجـد ضِـمادَةٌ تحـت أذنهـا اليـسرى حيـث وضـع طبيـبٌ هُـمامٌ إبـرةً لإرسـال الإشـارات، مثبِّطـةً 60% مـن مراكـز التَّحكُّـم النَّشِـطة مـع مركـز الألم. تتبعـه عيناهـا مثـل يسـوع مرسـوم في لوحـة تقليديـة.

- لا أظـن أنـه مـن الأفضـل أن تـراني الليلـة يـا چـوني، لسـتُ في أحسـن حـال، ربمـا غـدًا سـأصير أفضـل.
- ما الخطب؟
- أشـعر بالوخـز، وخـز في أرجـاء جسـدي كافـة، هـل سـاقاي مضمومتـان؟

لـن يسـتطيع أن يـرى إن كانـت سـاقاها مضمومتـين، فهـما مَرفوعتـان عـلى شـكل حـرف "V" تحـت مُـلاءة المستشـفى المضلَّعـة. الجَـوُّ شـديد الحـرارة في الغرفـة، ولا يوجـد أحـدٌ عـلى السريـر الآخـر الآن.

كان يفكِّـر: رفـاق الغرفـة يأتـون ويذهبـون، لكـن أمـي باقيـة إلى الأبـد، يـا للمسـيح!

- مضمومتان يا أمي.

- أنزلِهـما، مـن فضلـك يـا چـوني، وبعدهـا يُفضِّـل أن تذهـب، لم أكـن في وضعيَّـةٍ مثـل هـذه مـن قبـل، لا أسـتطيع تحريـك أي شيء، أنفـي يَخِـزُني، أليـس أمـرًا بائسًـا أن يَخِـزَكَ أَنفُـكَ ولا تسـتطيع أن تَحكَّـه؟

يحـكُّ لهـا أنفهـا، ثـم يمسـك ربلَتَـيْ سـاقَيْها من فـوق الملاءة ويسـحبهما إلى الأسـفل، يسـتطيع أن يضـع يـدًا واحـدة حـول ربلتيهـا دون مشـكلة عـلى الإطـلاق، رغـم أن يَدَيْـه ليسـتا كبيرتَـيْن عـلى نحـوٍ اسـتثنائيٍّ، تأوَّهـت، وجَـرَت الدمـوع عـلى خدَّيهـا وصـولًا إلى أذنيهـا.

- ماما؟

- أيمكنك أن تُنزل ساقيَّ؟

- أنزلتهما بالفعل

- آه، طيِّـب، أظـنُّ أني أبـكي، لا أقصـد أن أبـكي أمامَـكَ، أتمنَّـى لـو أخـرج مـن هـذا، سـأفعل أي شيء للخـروج مـن هـذه الحالـة.

- أتَودِّين سيجارة؟

- أيمُكِنُـكَ أن تُحـضر لي كـوبَ مـاء أولًا يـا چـوني؟ أشـعر بالجفـاف مثـل رقاقـة قديمـة.

- طبعًا.

يأخذ كوبها المحتوي على شفَّاطَةٍ مَرِنَة نحو نافورة مياه الشرب، ويجوب الممرَّ ببُطءٍ رَجلٌ بدينٌ على ساقه ضِمادَة لَدِنَة، لم يكن مرتديًا أيًّا من الأرواب المُقلَّمة، ويحمل خلف ظهره "چوني" مُغلَّفًا.

ملأ الكوب من النافورة وعاد بها ثانية إلى الغرفة رقم 312. توقَّفَت عن البكاء، التقطت شَفَتاها الشَّفَّاطة بطريقة ذكَّرته بالجِمال التي رآها في أفلامٍ عن الرحلات. وجهها هزيل. أكثر ذكرى حاضرة في ذهنه بخصوصها في الحياة التي عاشها بوصفه ابنَها حين كان في سِنِّ الثانية عشرة، كان قد انتقل هو وشقيقه كيڤن وهذه السيدة إلى ماين حتى تتمكَّن من العناية بوالِدَيْها، أمُّها سيدة عجوز وطريحة الفراش.

أصاب ضَغطُ الدَّمِ العالي جَدَّته بالخَرَف، وما زاد حالتها سوءًا أنه تَسبَّب في فقدان بصرها، عيد ميلاد سادس وثمانين سعيد. ها هي ضربة أخرى، راقدة في فراش طوال اليوم، عمياء وخَرِفَة، مرتدية حفَّاضاتٍ ضَخمةً وبنطال مطَّاطي، غير قادرة على تذكُّر ماذا أكلت على الإفطار، لكنها قادرة على ترديد أسماء جميع الرؤساء وصولًا إلى "آيك". وهكذا عاش أبناء ثلاثة أجيال في هذا المنزل الذي عثر فيه مؤخَّرًا على الحبوب (رغم أن جدَّه وجدته ماتا منذ زمن بعيد)، وفي سِنِّ الثانية عشرة، كان يتحدَّث دون ضابِطٍ ولا رابط حول شيء ما على مائدة الإفطار، ولا يتذكَّر ماهيَّته، لكنه كان شيئًا ما، ووالدته كانت تغسل حفَّاضات والدتها المتَّسِخَة، وبعدها تضعهم في العصَّارة في غسَّالتها القديمة، واستدارت نحوه وألقت عليه واحدةً منهم، وقد أقلقت أوَّلُ خبطَةٍ من الحفَّاضة الثقيلة المُبلَّلة سكونَ صحن رقائق ذُرة "سبشيال كي"، ودفعته للدوران بجموح عبر المائدة مثل لعبة تيدليوينك زرقاء كبيرة، وسحَقَت الضَّربةُ الثانية ظهره، لم تكن مُؤلِمةً، وإنما أذهلته عن الكلام الموزون الخارج من فمه، ضربته هذه السيدة المنكمشة في رقادها في هذا الفراش في هذه الغرفة ثانيًا

وثالثًـا، وهـي تقـول لـه: أغلِـقْ فمـك الكبـير الآن، لا شيء كبـيرٌ فيـك الآن سـوى فمـك؛ لـذا أغلِقْـه إلى أن ينمـو جسـمك كلـه عـلى نفـس مقاسـه، وكل كلمـة مكتوبـة بخـطٍّ مائـل تصاحبهـا ضربـة بحفّاضَـةِ جَدَّتِـه المُبلَّلـة! طـاخ! وهكـذا تَبخَّـر أيُّ كلام حـاذق تَوَجَّـب عليـه قولُـه، لا مـكان في العـالم للـكلام الحـاذق. اكتشـف في هـذا اليـوم وإلى أبـد الآبديـن أنـه لا توجـد وسـيلة أكـثر كـمالًا في هـذا العـالم مـن الـضرب عـلى الظهـر بحفاضـة مُبلَّلـة للجَـدَّة في مواجهـة إدلاء صبـيٍّ في سـن الثانيـة عـشرة بانطباعـه عـن موقعـه في منظومـة الأشـياء في صـورة وجهَـةِ نَظَـرٍ ملائمَـة. اسـتغرقه الأمـر أربـع سـنوات مـن بعـد هـذا اليـوم كي يتعلَّـم مـن جديـد فـنَّ التَّـذاكي.

شَرَقـت بعـض الـشيء بعـد شُربِ قليـلٍ مـن المـاء، ومـا يخيفـه أكـثر أنـه فكَّـر في إعطائهـا الحبـوب، يسـألها ثانيـة إذا كانـت ترغـب في سـيجارة، وقالـت:

– إذا لم يكـن في الأمـر مشـكلة، فمـن الأفضـل أن تذهـب، ربمـا سأتحسَّـن في الغـد.

يُخـرِجُ علبـة سـجائر كـوول مـن أحـد الأكيـاس المبَعـثَرة عـلى الطاولـة عنـد سريرهـا، ويشـعل سـيجارة، يحملهـا بـين الأصبعـين الأولى والثانيـة في يـده اليمنـى، وتأخـذ منهـا نَفَسًـا، وتمـدُّ شَـفَتيْها لتضـع الفلـتر بينهـما. تُدخِّـن بطريقـة واهنـة، وينـسرب الدخـان مـن بـين شـفتيها.

– تحتَّـم عـليَّ أن أعيـش سـتين عامًـا حتـى يمسـك ابنـي السـيجارة مـن أجـلي.

– لا أمانع ذلك.

تأخـذ منهـا نَفَسًـا ثانيًـا، ويحمـل لهـا الفلـتر عنـد شـفتيها لوقـتٍ طويـل حتـى إنـه يشـيح ناظريـه عنهـا ويتطلَّـع إلى عينيهـا ويراهـما مغمضتين.

– ماما؟

تنفتح العينان قليلًا بنظر غائم.

- چوني؟

حسنًا.

- منذ متى وأنت هنا؟

- ليس منذ وقت طويل، عليَّ الذهاب، سأدَعُكِ تنامين.

- هنننننن.

يتشـمَّم رائحـة السـيجارة في منفضتهـا، وينسـلُّ خلسَـةً مـن الغرفـة، وهـو يفكّـر:

أريـد التحـدُّث مـع ذلـك الطبيـب، اللعنـة، أرغـب في التحـدُّث مـع الطبيـب الـذي فعـل ذلـك.

حـين وصـل إلى المصعـد، يتفتَّـق ذهنـه عـن كـون كلمـة "طبيـب" تصبح مُرادِفَـةً لكلمـة "إنسـان" بعـد الوصـول إلى درجـة مُعيَّنـة مـن البراعـة في هـذه المهنـة، كـما لـو بـات مـن المنتظـر بشـكل مُسـبَقٍ مـن الأطبَّـاء أن يصـيروا قُسـاةَ القلـوب، وبالتـالي عليهـم الوصـول لدرجـة خاصَّـة مـن الحِـسِّ الإنسـاني.

يقـول لشـقيقه لاحقًـا هـذه الليلـة: "لا أظـنُّ أنهـا تسـتطيع حقًّـا الصمـود لوقـتٍ أطـول". يعيـش شـقيقه في أندوفـار، عـلى بُعـد سـبعين ميـلًا غربًـا، ويذهــب إلى المستشـفى مـرَّةً أو مرَّتَـين في الأسـبوع فقـط.

سأل كيف: "ولكن هل خَفَّت آلامها؟".

"تقول إنها تشعر بالوخز".

لديـه الحبـوب في جيـب سُـترَتِه، وزوجتـه نائمـة في طمأنينـة. يخرجهـم مـن مَكمَنِهـم، غنيمـة مسـلوبة مـن منـزل والدتـه الخـاوي، حيـث عاشـوا

جميعًا ذات يوم مع جدودهم. يُقلِّب العلبة مرَّةً تِلوَ المرة في يده في أثناء حديثهما مثل قدم الأرنب.

"حسنًا إذن، فقد تحسَّنَت صِحَّتُها".

كل شيء أفضل في عيون كيف، كما لو كانت الحياة تتحرك نحو ذروةٍ عُظمَى، إنها رؤية لا يتشاركها الشقيق الأصغر.

"إنها مشلولة".

"هل يهمُّ الأمر في هذه المرحلة؟".

يقول مُنفَعِلًا وهو يفكِّر في ساقيها تحت الملاءة البيضاء المُضلَّعة: "بالطَّبع يهمُّ".

"چون، إنها تحتضر".

"لم تَمُت بَعدُ". وهذا ما يخيفه في الحقيقة، ستدور المناقشة في حلقات مفرغة بدءًا من هذه النقطة؛ ممَّا يعود بالأرباح على شركة الهاتف، لكن هذه هي العُقدَة. لم تَمُت بعدُ، بل راقدة فحسب في تلك الغرفة مع شريطة تعريفية في المستشفى حول معصمها، مستَمِعَة إلى إشارات لاسلكية شَبَحيَّة تروح وتجيء في الرَّدهَة، ويقول الطبيب إنها ستعاني في سبيل إدراك عامل الزمن، رجلٌ كبير له لحية حمراء رمليَّة اللون، يبلغ طوله سِتَّ أقدام وأربع إنشات، وكتفاه ضخمتان. أخذه الطبيب بلباقة إلى الخارج نحو الرَّدهة حين بدأ يغلبها النعاس.

يواصل الطبيب حديثه:

- أترى، لا يمكن اجتناب بعض الخَلَل في الوظائف الحركية في عملية على غِرار "كطع الحبل الشوكي"، والدتك تنعم ببعض الحركة في يدها اليسرى الآن، ومن المتوقَّع أن تتعافى يدها اليمنى بقدرٍ معقول في فترةٍ تتراوَحُ من أسبوعين لأربعة أسابيع.

- هل ستمشي على قدميها؟

ينظر الطبيب مُتَرَوِّيًا إلى سقف الممر المُطعم بالفِلّين. لحيته زاحفة حتى ياقة قميصه الكاروهات، ولسببٍ سَخيفٍ، يفكِّر چوني في ألجرنون سوينبرن، دون إدراكٍ للسَّبَب، يقف هذا الرجل على النقيض من سوينبرن المسكين في كل منحى.

- عليَّ أن أقول لا، فقد تراجَعَت حالتها.

- ستصير طريحةَ الفراش بقيَّةَ حياتها؟

- أظنُّ أن هذا افتراض قائم، نعم.

يبدأ في الشعور ببعض التقدير نحو هذا الرجل الذي تمنَّى أن يصير مكروهًا دون خسائر، أَمِنَ الحتميِّ شعوره بالانسجام مع هذه الحقيقة البسيطة؟ ثمَّة اشمئزازٌ رَديفٌ لهذا الشعور.

- إلى متى ستعيش على هذا النحو؟

- يصعب القول (هكذا أفضل)، فالوَرَمُ يعترض إحدى كليَتَيْها الآن، والأخرى تعمل على ما يرام، وحين يعترضها الورم، ستخلد إلى النوم.

- غيبوبة بسبب تَبَوْلُنِ الدَّمِ؟

- نعم.

هكذا قال الطبيب بحَذَرٍ أقلّ، فـ "تَبَولُن الدم" مُصطَلَحٌ مُتخصِّص في علم الأمراض مقصورٌ استخدامه على الأطباء المعالجين والأطباء الشرعيين، لكن چوني يعرف هذا لأن جدَّته تُوفِّيَت بنفس المرض، رغم عدم وجود سرطان، حيث توقَّفَت كُليَتاها ببساطةٍ عن العمل، وماتت من انتشار البول داخل جسدها وصولًا إلى القفص الصدري. ماتت في الفراش، في المنزل، في موعد العشاء. كان چوني أوَّلَ شَخصٍ شَكَّ أنها ماتت حقًّا هذه المرة، ولا ترقد فقط في سُباتٍ مع انفتاح

فمها على طريقة العجائز. شَقَّت دمعتان طريقهما بصعوبة خارج عينيها، وانفتح فمُها الخالي من الأسنان على مصراعيه؛ ممَّا ذكَّره بثمرة طماطم جوفاء، ربما لتُحشى بسلطة البَيض، ثم تُرِكَت مَنسيَّةً على رف المطبخ لبضعة أيام. حمل مرآةً تجميل مستديرة قبالة فمها لمدة دقيقة، وحين لم يتكوَّن ضباب على الزجاج ليخفي صورة فَمِها الطماطمي، نادى على والدته، بدا كل هذا سليمًا على قدر ما فيه من خطأ.

- قالت إنها ما زالت تتألم، وتشعر بالوخز.

يطرُقُ الطبيب رأسه بجدِّيَّة مثل ڤكتور دي جروت في الرسوم الهزلية القديمة عن الطبيب النفسي.

- إنها تتخيَّل الألم، لكنه حقيقيٌّ رغم هذا، حقيقيٌّ بالنسبة لها؛ لهذا فالوقت عامِلٌ بالِغُ الأهمِّيَّة، لم تَعُد والدتك تدرك الوقت كثوانٍ ودقائق وساعات، بل وتعيد صياغة هذه الوحدات حتمًا في صورة أيام وأسابيع وشهور.

يستوعب ما قاله له هذا الرجل الضخم الملتحي، وهو ما يُحيِّره. يَدقُّ جَرسٌ بخِفَّةٍ، لن يستطيع الاستمرار في الحديث مع هذا الرجل، يا له من رجل تقنيٍّ، يتحدَّث بسلاسة عن الوقت، كأنه التقط الفكرة بنفس سهولة استخدام صنارة الصيد. ربما كان كذلك.

- ألا يمكنك فِعلُ أي شيء لأجلها؟

- القليل جدًّا.

لكنه تعامل بهدوء، كما لو كان على صواب، فهو على أي حال "لا يقدِّم أملًا زائفًا".

- أيمكن أن يسوء الحال عن الغيبوبة؟

- بالطبع يمكن، لا نستطيع تحديد تلك الأمور بأي مستوى فعليٍّ من الدِّقَّة، فالمسألة تشبه وجود سمكة قرش طليقة في دمائك، فقد تصاب بالانتفاخ.

- انتفاخ؟

- قد تتضخَّم بَطنُها، وبعدها تهبط، وبعدها تتضخَّم مرة أخرى.

ولكن لِمَ الإسهاب حول هذه الأمور الآن؟ أظنُّ أنه من الآمِنِ القول إن الحبوب ستتكفَّل بالمَهمَّة؟ ولكن لنفترض أنها لم تؤدِّ مَهمَّتها؟ أو لنفترض أنهم ضبطوني؟ لا أريد الذهاب إلى المحكمة بتُهمَةِ القتل الرحيم، حتى ولو أفلتت من العقاب، ليست لديَّ أسبابٌ تجعلني مظلومًا. فكِّر في العناوين الرئيسة للصحف الصارخة والمتجهمة بعبارة: قاتِلُ أُمِّه.

في أثناء جلوسه في المرآب، قلَّب العُلبَةَ بين يديه مرَّةً تِلوَ المرة، تركيبة دارفون. ما زال السؤال القائم: هل يستطيع لذلك سبيلًا؟ أيجب عليه؟ قالت: أتمنَّى لو أخرج من هذا، سأفعل أي شيء للخروج من هذه الحالة، يتحدَّث كيڤن عن تجهيز غرفة لها في منزله حتى لا تموت في المستشفى، والمستشفى تريد تسريحها. أعطوها بعض الحبوب الجديدة، وباتت في حالة انزعاج بالِغ. جرى هذا بَعدَ أربعة أيام من "كطع الحبل الشَّوكي"، أرادوا منها التواجد في مكانٍ آخر لأنه لم يتمكَّن أحدٌ بعدُ من "استئصال الخلايا السرطانية" بطريقَةٍ آمِنَة. وعند هذه المرحلة، إذا تمكَّنوا من استئصالها جذريًّا، لن يتبقى لها سوى رأسها وساقيها.

كان يفكِّر في كيفيَّة سريان الوقت من منظورها، مثل شيء خارج عن السيطرة، مثل علبة خياطة مليئة ببكرات الخيوط المتساقِطَة على الأرضية كلها حتى يلهو بها قِطٌّ ذكرٌ وضيع. أيام في الغرفة 312، وليال في الغرفة 312. وضعوا وَصلَةً من زِرِّ الاستدعاء إلى سبَّابتها

اليسرى لأنها لم تَعُد قادِرةً بعد الآن على تحريك يدها بما يكفي للضغط على الزِّرِّ إذا ارتأت أنها تحتاج إلى حاوية قضاء الحاجة.

لم يَعُد الأمر فارقًا بعد الآن لأنها لا تستطيع الإحساس بالرغبة في قضاء الحاجة، وربما صار وسط جسدها أشبهَ بكومة من نشارة الخشب، تتحرّك أحشاؤها في الفراش وتتبوّل في الفراش ولا تدرك ذلك إلا حين تشمُّ الرائحة فقط. انخفض وزنها من 150 باوند إلى 91، وباتت عضلات جسدها بلا أوتار، حتى صار مُجرَّد كيس رخو مربوط بمُخِّها مثل دمية طفولية تُلبس في اليد، هل يفرق هذا في نظر كيف؟ أيمكنه أن يقترف جريمة قتل؟ يعلم أنها جريمة قتل، بل أسوأ جرائم القتل، قتل الأم، كما لو كان جنينًا واعيًا في قصة رُعبٍ مُبكِّرة كتبها راي برادبوري، ينوي قلب الطاولة ويقتل الحيوان الذي منحه الحياة. ربما الخطأ خطؤه من الأساس، إنه الطفل الوحيد الذي نما في أحشائها، طفل غيَّر حياتها. شقيقه جاء بالتبنِّي بعدما أخبرها طبيب مُبتَسِمٌ آخَرُ أنَّها لن تحظى بأطفال آخرين من صُلبِها، وبالطبع، نشأ السرطان لديها في الرحم مثل طفلٍ ثانٍ، توأمه الشرير، حياته وموتها بدأتا في نفس الموضع، ألا ينبغي عليه أن يُقدِم على فِعل ما يفعله الجنين الآخر فعليًّا ببطء ودون براعة؟

كان يعطيها أقراص الأسبرين خفيَةً عن الأعين لتسكين الألم الذي تتخيَّل وجوده، كانت تحتفظ بها في علبة أقراص استحلاب سوكرتز في درج طاولتها في المستشفى مع بطاقات التَّمنِّي بالشفاء ونظَّارتها للقراءة التي لم تَعُد مُجدِيَةً، وانتزعوا منها طاقم أسنانها لأنهم خافوا أن تسحبه نحو حلقها فتختنق به؛ لذا فهي الآن تَمصُّ الأسبرين ببساطة حتى ابيَضَّ لسانها.

بالطبع يستطيع أن يعطيها الحبوب، ستكفي ثلاث حبوب أو أربع، أربعمائة حَبَّة أسبرين وأربعمائة حبَّة دارفون أُعطِيَت لإمرأة انخفض وزنها بنسبة 33% على مدار خمسة أشهر.

لا أحد يعرف أن الحبوب بحوزته، لا كيڤن، ولا زوجته. يظن أنهم ربما وضعوا شخصًا آخر على السرير المقابل في الغرفة 312، ولن يتحتَّم عليه القلق حيال هذا، يمكنه الإفلات بسلامٍ، يتساءل إذا كان من الأفضل حقًّا وجود سيدة أخرى في الغرفة، ستتبخَّر خياراته المتاحة، ويعتبر المسألةَ مُجرَّد يَدٍ إلهية، أو هكذا يفكر.

- تبدين أفضل الليلة.
- حقًّا؟
- بالطبع، كيف تشعرين؟
- آه، ليس بخير حال، لستُ على ما يرام الليلة
- دعيني أَرَكِ وأنتِ تُحرِّكين يَدَكِ اليُمنى.

ترفعها خارج اللحاف، تطوف بأصابع منفرِجَة أمام عينيها للحظة، ثم تسقط، ترتطم، ويبتسم فتُبادِلُه الابتسام، ويسألها:

- هل رأيتِ الطبيب اليوم؟
- نعم، دخل الغرفة، من الجيِّد قدومه يوميًّا، أيمكن أن تعطيني بعض الماء يا چوني؟

يعطيها بعض الماء بالشَّفَّاطة المَرِنَة.

- كم جميل منكَ مواظَبَتُكَ على القدوم، أنت ابنٌ طَيِّب.

تبكي ثانية. السرير الآخر خاوٍ. من حين لآخر يمرُّ عليهم من الردهة أحد المرتدين للأرواب المقلَّمة باللونين الأزرق والأبيض. الباب

نصف مفتوح، يأخذ منها كوب الماء برويَّة وهو يفكر بحماقة: هل الكوب نصفُ مملوء أم نصف فارغ؟

- كيف حال يدكِ اليسرى؟

- أوه، إنها بخير.

- لنرى.

ترفعها، كانت على الدوام يدها الفَطِنَة؛ وربما لهذا السبب تعافَت جيِّدًا كما لو كانت عاقِبَةً وخيمة لعملية "كطع الحبل الشوكي"، تطبق يدها، وتثنيها، وتُفَرقِعُ الأصابع فَرقَعةً واهنة، ثم ترتدُّ على الملاءة، وترتطم. تشكو قائلة:

- ولكن لا إحساس فيها.

- دعيني أَرَ شيئًا ما.

يتوجَّه إلى الدولاب، ويفتحه، ويمدُّ يده وراء المعطف الذي جاءت به إلى المستشفى ليصل إلى حقيبة يدها، تحتفظ بها هنا لأنها مرتابة حيال اللصوص، حيث سَمِعَت أن بعض الممرِّضين فنَّانون في السرقة، وسيسرقون أي شيء تطوله أيديهم، وسَمِعَت من شريكة لها في الغرفة -وعادت إلى منزلها- أن سيِّدةً في الجناح الجديد فقدت خمسمائة دولار كانت تحتفظ بها في حذائها. أُمُّه مرتابة حيال أشياء عديدة كبرى في الآونة الأخيرة، وأخبرته ذات مرَّة عن رَجُلٍ يختبئ أحيانًا تحت سريرها في أواخر الليل. ينبع جزءٌ من هذا بسبب الأدوية التي يجرِّبونها عليها، ويجعلون أقراص الآمفتيامين التي كان يتناولها عرَضًا في الكُلِّيَّة تبدو وكأنها أقراص إكسدرين. يمكنك الانتقاء ممَّا تريد من مخزن الأدوية المُقفَل في نهاية الممرِّ بعد غرفة الممرضات: مُثَبِّطات ومُحَفِّزات، ومُرخِيات ومُنشِّطات، وربما مميتات، موت رحيمٌ مثل بطانية سوداء جميلة. أعاجيب العلم الحديث.

يحمل الحقيبة إلى سريرها، ويفتحها.

- أيمكنك أن تخرجي شيئًا من هنا؟

- آه يا چوني، لا أعرف.

يقول بأسلوب مُقنع:

- جرِّبي، من أجلي.

ترتفع اليد اليسرى عن الملاءة مثل طائرة هليكوبتر مُعاقَة، تطوف وتغوص وتَخرجُ من حقيبة اليد بمنديل كلنكس مُجعَّد، ويصفق لها.

- أحسَنتِ! أحسَنتِ!

لكنها تدير وجهها.

- في العام الماضي، كنتُ قادِرةً على دفع عربَتَيْ صحونٍ مملوءتَيْن بهاتين اليدين.

كان يفكر: لو كان هناك وقت مناسب، فهو الآن، الجو حارٌّ جدًّا في هذه الغرفة، بينما العرق المنهمر على جبهته بارد، إذا لم تطلب الأسبرين، فلن أُعطيها إيَّاه، ليس الليلة، وهو يدرك أنه إمَّا الليلة وإلا فلا، حسنًا.

تخطف عيناها نظرة ماكرة على الباب نصف المفتوح.

- أيمكنك أن تعطيني خفيةً بعضًا من حبوبك يا چوني؟

هكذا تطلبها مني دومًا، لا يفترض بها أن تتعاطى حبوبًا خارج علاجها المعتاد لأن جسمها خسر الكثير من الوزن، وتنامى لديها ما يُسمِّيه بعض الأصدقاء المتعاطين من أيام الكُلِّيَّة "شيئًا ثقيلًا"، ضَعُفَت مناعة الجسم في مواجهة ما يبلغ حجم ظفرِ أصبع من الجرعة القاتلة، حبَّة واحدة إضافية وستخرج الأمور عن السيطرة، يقولون إن هذا ما حدث لمارلين مونرو.

- - أحضرت بعض الحبوب من المنزل
- - أفَعَلتَ ذلك؟
- - إنها مُسكِّنٌ جَيِّد للألم.

يقرِّب لها العلبة، فهي لا تستطيع القراءة سوى عن قُرب، تُقطِّب وجهها على مرأى الأحرف الكبيرة وقالت:

- - تناوَلتُ بعض حبوب الدارفون من قبل، ولم تُجدِ نفعًا.
- - هذه أقوى.

ترفع عينيها عن العلبة وتنظر إلى عينيه، وتقول بلا اكتراث:

- - حقًّا؟

كل ما فعله أن ابتسم ابتسامةً حمقاء، لم يستطع التحدُّث، كأنها أول مرة يمارس فيها الجنس، والتي كانت في المقعد الخلفي في سيارة أحد أصدقائه، وحين عاد للمنزل، سألته أمُّه إن كان أمضى وقتًا طيبًا، وكل ما فعله هو ابتسامه نفس هذه الابتسامة الحمقاء.

- - هل أستطيع مضغهم؟
- - لا أعرف، جَرِّبي واحدة.

يفتح العلبة ويرفع الغطاء البلاستيكي عن الزجاجة، ويسحب كُرَةَ القُطن من عنق العلبة، أكانت تقدر على فِعلِ كل هذا بيدها اليسرى الشبيهة بطائرة الهليكوبتر المعاقة؟ هل سيصدِّقون؟ لا يعرف، وربما هم أيضًا لا يعرفون، وربما لا يبالون.

يُخرِج سِتَّ حبوب على يَدِه، يراقبها وهي تراقبه، إنها كثيرة، كثيرة جدًّا. إنها حتمًا تعلم ذلك، إذا لم تتفوَّه بكلمة حيال الأمر، سيعيدها إلى مكانها ويُقدِّم لها حبة مُسكِّن آرتيراتيس عوضًا عنها.

تمـرُّ مُمرِّضَـة في الخـارج، وتتشـنَّج يـده مُطَقطِقَـةً عـلى الحبـوب الرماديـة، لكـنَّ المُمرِّضَـة لا تلقـي النظـر لتتفقَّـد أحـوال "مريضـة كطـع الحبـل الشـوكي".

لا تقـول أُمُّـه شـيئًا، فقـط تنظـر إلى الحبـوب كأنهـا حبـوبٌ فائقـة الاعتياديـة (هـذا إن وُجِـدَت هكـذا حبـوب). لكنهـا عـلى الناحيـة الأخـرى، لم تَهـوَ الاحتفـالات قَـطُّ، فلـن تفرقـع الفلِّينَـة حـين تفتـح زجاجة الشـامبانيا عـلى ظهـر مركبهـا الخـاص.

- ها هي ذي.

هكـذا يقـول بصـوتٍ شـديد الطبيعيـة، وهـو يدفـع أول حَبَّـةٍ في فمهـا. تمضغهـا بنظـرةٍ مُتأمِّلَـة حتـى يـذوب الچيلاتـين، وبعدهـا تجفـل.

- هل طَعمُه سيِّئ؟ أنا لن...

- لا، ليس سيِّئًا لهذه الدرجة.

يعطيهـا حبَّـةً أخـرى، وحبـة ثالثـة، وتمضغهـم بنفـس النظـرة المتأمِّلَـة، يعطيهـا حبَّـةً رابعـة، تبتسـم إليـه ويـرى وهـو مرعـوبٌ أن لسـانها اصفـرَّ لَونُـه، ربمـا إذا خبطهـا عـلى بطنهـا، فسـوف تتقيَّؤهـم، لكنـه لا يسـتطيع، لا يمكنـه أن يـضرب أمـه.

- هل ستتأكَّد إن كانت ساقاي مضمومتين؟

- خُذي هذه أولًا.

يعطيهـا حبـة خامسـة، وسادسـة، ثـم يـرى إن كانـت سـاقاها مضمومتـين، ويقـول لهـا: هـما كذلـك حقًّـا.

- أظنُّ أني سأنام قليلًا.

- حسنًا، سآتي بشراب.

- كنتَ ابنًا طيِّبًا دائمًا يا چوني.



يضـع الزجاجـة في العلبـة، ويـدسُّ العلبـة في حقيبـة يدهـا، تـاركًا الغطاء البلاستيكي عـلى المُلاءَة جوارهـا، يـترك الحقيبـة المفتوحـة بجوارهـا ويُفكِّـر: طلَبَـت منِّـي حقيبتهـا، أحضَرتُهـا لهـا، وفتحتهـا بمجـرَّد مغـادرتي، قالـت إنهـا سـتأخذ منهـا مـا تريـد، قالـت إنهـا ستسـتدعي الممرِّضـة كي تعيدهـا إلى الـدولاب.

يذهـب ويـأتي بـشراب، توجـد مـرآةٌ فـوق نافـورة ميـاه الـشرب، يُخـرِج لسـانَه ويتطلّـع فيهـا.

حـين يعـود إلى الغرفـة، سـتكون نائِمَـةً ويداهـا مَضمومَتَـيْن معًـا، أوردتهـما كبـيرة ومُتعرِّشـة. يُقبِّلهـا، وعيناهـا تموجـان وراء الجفنـين، لكنهـما لا تنفتحـان.

نعم.

لا يشعر باختلافٍ، أجَيِّدًا كان أم سيِّئًا.

يـشرع في الخـروج مـن الغرفـة، ويفكِّـر في شيء آخـر، يعـود إليهـا، يُخـرِجُ الزُّجاجـة مـن العلبـة، ويمسـحها عـلى قميصـه، ويطبـع بصـمات الأصابـع المُرتَخِيَـة لِيَدِهـا اليـسرى النائمـة عـلى الزجاجـة، ثـم يعيدهـا إلى مكانهـا، ويَخـرُج مـن الغرفـة بسرعـة، دون النظـر إلى الـوراء.

يعـود إلى المنـزل، وينتظـر رنـينَ جَـرس الهاتـف، مُتمنِّيًـا لـو كان مَنَحَهـا قُبلَـةً أخـرى، وفي أثنـاء انتظـاره، يشـاهد التلفـاز ويـشرب الكثـير مـن المـاء.

الفهرس


مكتبة
t.me/t_pdf



"أنا لم أعد طفلًا، ومع ذلك فلا أحب أن أنام وإحدى ساقيّ مكشوفة من تحت الغطاء. لربما أصرخ إذا ما امتدت يد باردة من تحت السرير وأمسكت كاحلي... نعم، ربما أصرخ حتى أوقظ الموتى. مثل تلك الأمور لا تقع بكل تأكيد، وجميعنا نعلم ذلك. في القصص التالية سوف تقابلون جميع أنواع المخلوقات الليلية: مصاصي دماء، وعشاق الشياطين، و«بُعبُعًا» يعيش في الخزانة، وكافة أشكال الرعب الأخرى. لا شيء منها حقيقيّ. وذلك الشيء الكامن تحت سريري في انتظار أن يمسك كاحل ساقي هو أيضًا غير حقيقيّ. أنا أعلم ذلك، كما أعلم أيضًا أنني إذا حرصت على إبقاء ساقي تحت الأغطية، فلن يتمكن أبدًا من إمساك كاحلي...".

بعد سنوات قليلة من بزوغ اسم ستيفن كينج ليصير الاسم الأهم في أدب الرعب في العقود الأخيرة، وبعد عام واحد من صدور روايته الثالثة "البريق" -التي سبق للمحروسة إصدار ترجمتها العربية- صدرت "وردية الليل": المجموعة القصصية الأولى في مسيرة ستيفن كينج، والتي ضمت عددًا كبيرًا من أشهر قصصه القصيرة التي تحول كثير منها لأفلام سينمائية وتليفزيونية، منها قصة "أطفال الذرة"، التي تحولت إلى واحدة من أشهر سلاسل أفلام الرعب الأمريكية.


ISBN 978-977-313-856-1



الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

